مصر في العصور الوسطى

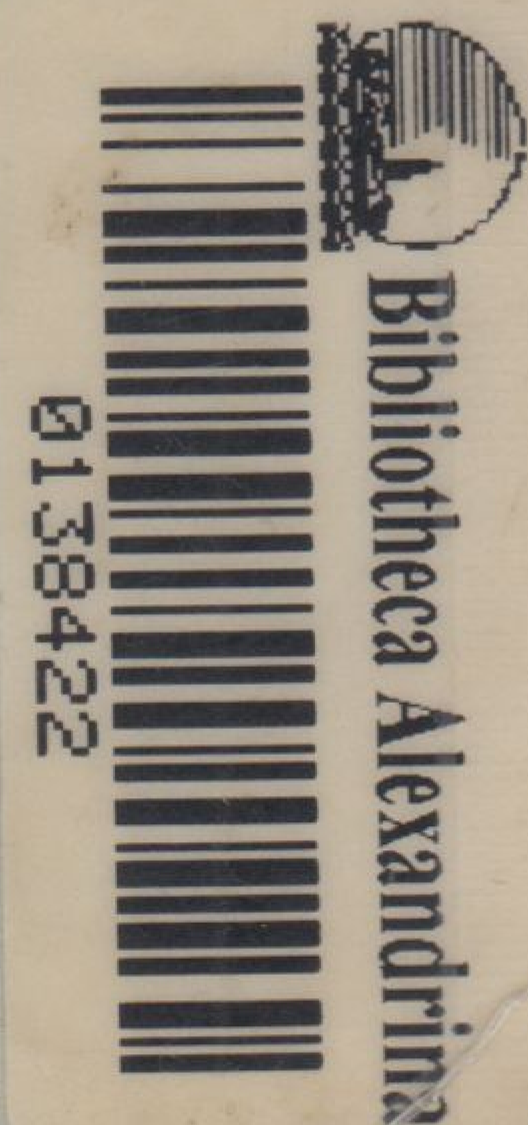
من الفتح العربي حتى الغزو العثماني

تأليف

عبد الرحمن الرافعي

سعيد عبد الفتاح عاشور

١٩٩٤



دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

القاهره

مصر في العصور الوسطى

الفتح العربي حتى الغزو العثماني

تأليف

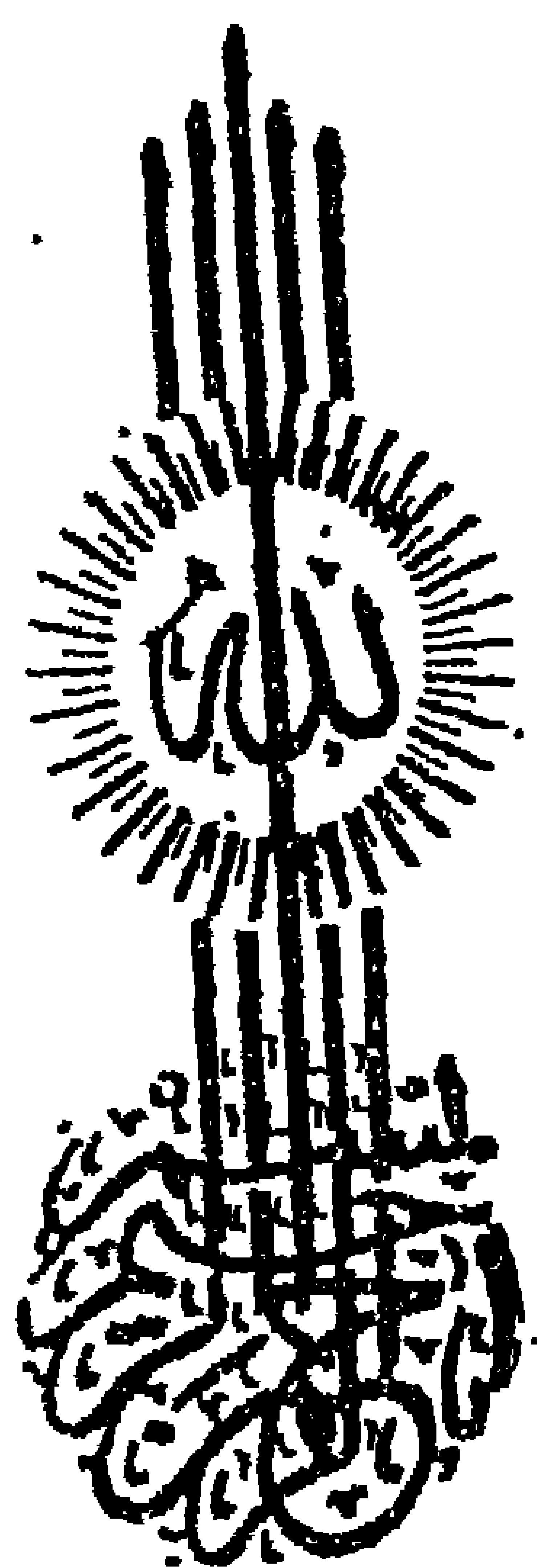
بد الرحمن الرافعي

سعيد عبد الفتاح عاشور

دار النهضة العربية

بأن مصر رغم ما لحقها من

فرص بدور فعال له وزنه في مجرى التاريخ الحديث


الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الكتاب

— ١ —

ظلت مصر تستأثر باهتمام المشتغلين بكتابة التاريخ منذ أيام هيرودوت حتى يومنا هذا. ومهما يكتب المؤرخون عن مصر في مختلف عصور تاريخها الطويل، فإنه يتبقى الكثير بعد ما يسجلونه في حاجة إلى مزيد من البحث والتدوين. ومن الواضح أن سبب ذلك مرجعه بقاء مصر على مر العصور محوراً من المحاور الكبرى التي دارت حولها أحداث التاريخ، وأحكمت داخل حدودها أزهى صور الحضارة البشرية، مما يتعذر على الأجيال المتعاقبة من الباحثين أن تمسك بجميع أطرافه. وحسب مصر في العصور القديمة أنها كانت مهد أعظم حضارة شهدها العالم أجمع في تلك العصور، وهي حضارة قدمت للعالم الشيء الكثير، وما زالت بعض أسرارها مغلقة لم يهتد العلم الحديث إلى تفسير لها. وفي العصور الوسطى كانت مصر ملتقى التيارات الروحية والسياسية والاقتصادية والفكرية، في العالم المعروف، فما من قوة سياسية لها وزنها في إفريقيا أو آسيا أو أوربا إلا وقدرت مصر في تلك العصور، وربطتها بها علاقات قد تكون ودية وقد تكون عدائية، ولكنها على أي حال تشهد بأن مصر في العصور الوسطى كانت قبلة الأصدقاء والأعداء جميعاً، الأصدقاء ينشدون تأييدها ومساعدتها، والأعداء يخشون بطشها وقوتها. وإذا كان مولد العصور الحديثة قد صحبه تغيير هام في ميزان القوى بين أركان العالم، فإن مصر رغم ما لحقها من خسارة نتيجة لذلك التحول ما زالت تنهض بدور فعال له وزنه في مجرى التاريخ الحديث

وما زالت تستهوى أقلام الباحثين والكتاب فى الحاضر مثلما استهوت أقلامهم فى الماضى .

ومع بداية القرن العشرين ، حرص بعض كبار المؤرخين الأجانب على إصدار مجموعات من الكتب التاريخية تعالج التاريخ المصرى فى مختلف عصوره ، وأشهر هذه المجموعات المجموعة التى أصدرها المؤرخ الكبير فلندرز بترى فى ستة أجزاء ، وقد صدرت فى لندن بالإنجليزية وكتب الجزء الخاص بتاريخ مصر فى العصور الوسطى الأستاذ ستانلى لين بول . هذا فضلا عن مجموعة أخرى صدرت باللغة الفرنسية فى ستة أجزاء أيضاً تحت إشراف جبريل هانوتو ، وكتب الجزء الرابع منها — وهو الجزء الخاص بمصر العربية فى العصور الوسطى — المؤرخ المعروف جاستون فيت .

فإذا بحثنا فى المكتبة العربية التاريخية، وجدناها للأسف تكاد تكون خلواً من سلسلة من الكتب المترابطة البنيان المتكاملة الأجزاء التى تغطى تاريخ مصر فى مختلف عصوره على نحو السلسلة التى أشرف عليها بترى أو تلك التى أشرف عليها هانوتو . حقيقة إنه صدرت بالعربية فى السنوات الأخيرة كتب أخرى قيمة عديدة تعالج مختلف عصور التاريخ المصرى ، ولكنها جاءت كتبا متفرقة ، لا تربط بينها وبعض أو بين مؤلفيها وبعض رابطة فى المنهج أو فى الأسلوب أو حتى فى طريقة التفكير ، بحيث نستطيع أن نؤلف منها — أو من بعضها — سلسلة مترابطة ، تشعر القارىء بأن كل مؤلف بدأ من حيث انتهى زميله الذى عالج الفترة السابقة ، وبأن كل مؤلف عالج موضوعه من نفس الزاوية التى عالج منها زملاؤه بقية عصور التاريخ المصرى .

وتتضح هذه الفجوة أوسع ما تكون بالنسبة لتاريخ مصر فى ا[illegible] الوسطى ، إذ ظلت المكتبة العربية حتى وقت قريب خلوا [illegible] يستعرض فى مجلد واحد أحداث مصر وحضارتها ودورها

العربى من ناحية وفى المجال العالمى من ناحية أخرى ، طوال القرون الثمانية والنصف التى تشكل تاريخ مصر فى تلك العصور .

— ٢ —

ولم تغب هذه الحقيقة عن بعض أعلام المشتغلين بالدراسات التاريخية فى مصر ؛ ففكر المؤرخ الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى إصدار كتاب يعالج فى مجلد واحد تاريخ مصر فى العصور الوسطى منذ الفتح العربى حتى أيام العثمانيين . ولم يكن تنفيذ هذا المشروع الجرىء بالأمر المتعذر على الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، وهو الرجل الذى كرس شطراً كبيراً من حياته الحافلة بجلائل الأعمال لكتابة التاريخ ، وتاريخ مصر بالذات . وحسبنا من مؤلفاته العديدة التى يضيق المقام عن حصرها ، تلك السلسلة القيمة عن تاريخ الحركة القومية فى مصر ، وهى تقع فى نحو من عشرين مجلداً ، تعتبر فى حد ذاتها من خيرة ما كتب فى تاريخ مصر منذ بداية القرن التاسع عشر حتى اليوم .

وفعلا شرع الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى أواخر أيامه يخطط لكتابه الجديد ويدون بعض عناصره . ولكن الموت لم يشأ أن يمهله ليمدنا بأثر خالد جديد يمتاز بما اتصفت به كافة مؤلفاته من دقة فى الاستقصاء ووضوح فى العرض وأمانة فى التحليل والنقد . نعم ، لم يمهل الموت الأستاذ الرافعى حتى ينفذ مشروعه الكبير ، فاختاره الله إلى جواره بعد أن وضع أسس كتابه الذى كان يوده أن يكتبه .

وكان أن اتصل بى بعض أفراد أسرة الفقيد ، وأخبرونى أنهم وجدوا بين أوراقه بعض رسائل متبادلة بينى وبينه تدور حول نقاط علمية ، وتشهد على ما كان يكنه الفقيد — رحمه الله — لى من محبة وتقدير ، وما كنت — وما زلت — أكنه له من إخلاص وإجلال . وسألونى

عما إذا كان وقتى يسمح بأن أحقق للفقيد بعد وفاته رغبة كان يرجو انجازها بيده فى حياته . ويشهد الله على أننى ما حرصت على النهوض بعمل فى ميدان تخصصى العلمى مثل حرصى على النهوض بهذه المهمة ، إذ وجدت فيها تكريما لتاريخ هذا البلد الطيب الأمين ، وتكريما لعلم من كبار أعلامه فى مجالات العلم والوطنية ؛ وبعد هذا وذاك فإن فيها تكريم لشخصى بالذات.

أما عن الجانب الأول فيكفى أن هذا الكتاب يعالج — لأول مرة — فى صورة متكاملة متناسقة تاريخ مصر فى عصر من أزهى عصورها ؛ عصر شهد تحول أرض الكنانة إلى اللسان العربى من ناحية وإلى الديانة الإسلامية من ناحية أخرى ، ثم شهد بعد ذلك إزدهار الحضارة العربية الإسلامية فى مصر ، وقيام دول مستقلة بين ربوعها ؛ مما مكن مصر فى بعض حلقات ذلك العصر من أن تصبح قلعة العروبة وقلب الإسلام النابض بالحياة ، ومركز القوة التى ظلت تدافع عن الوطن العربى الإسلامى ضد الأخطار الخارجية التى هددته فى العصور الوسطى فى المشرق والمغرب جميعاً .

وأما عن الجانب الثانى فإن خير ما يمكن أن يكرم به عالم جليل بعد وفاته هو انجاز عمل علمى بدأه فى حياته ، لتحس روحه وهى فى رضوان الله أن اسمه حى فى قلوب مواطنيه وأخوانه وتلاميذه ، وأن الجميع يكرمونه ويقدرون علمه على مر السنين والأجيال . وهل هناك رجل أحق بالتقدير من الإستاذ عبد الرحمن الرافعى الذى تعتبر حياته قطعة حية من تاريخ هذا البلد السياسى والثقافى والاجتماعى فى القرن العشرين ، والذى قضى عمره مكافحاً فى دور القضاء وأروقة البرلمان حينا ، وبين الكتب والوثائق واجتماعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية أحيانا ؟!.

وأخيراً ، فإنه بالنسبة لشخصى ، اعتبره شرفاً دونه أى شرف آخر

أن يعهد إلى بإتمام عمل بدأه الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، وأن أجد اسمى لى جوار اسمه على غلاف كتاب واحد ، وهو الوطنى الكبير والمؤرخ العملاق الذى طالما رجعت إلى مؤلفاته وتعلمت فيها وأخذت عنها واستفدت منها .

— ٣ —

على أننى أجد لزاماً على أن أعتذر لعشاق كتابات الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ومقدرى علمه وفضله ، لما سيجدونه فى هذا الكتاب من اختلاف فى المنهج والأسلوب وطريقة العرض عما ألفوه وعهدوه فى مؤلفات الفقيد الكبير . ذلك أن لكل كاتب منهجه وأسلوبه وذوقه ، وهذه كلها نواحى تتفق وعقلية المؤلف ونفسيته وبيئته وعصره . ولا يستطيع كاتب ناجح أن يقدم للقارىء شيئاً ذا أهمية إذا هو حرص على محاكاة الغير وتقليدهم ، لأن مهارة أى مؤلف إنما ترجع فى المقام الأول إلى مدى نجاحه فى أن يضفى شخصيته على ما يكتبه وفى أن يجعل كتابه جزءاً من عقليته وصورة لنفسيته .

وقد قسمت هذا الكتاب إلى ستة أبواب رئيسية ، وفق ما تقتضيه طبيعة الموضوع من ناحية ، وكما أشار الأستاذ الرافعى فى المقدمة التى وضعها بنفسه من ناحية أخرى . وأختص كل باب منها بعصر من عصور تاريخ مصر الوسيط ، وهى عصر الولاة ، وعصر الطولونيين ، وعصر الإخشيديين ، وعصر الفاطميين ، وعصر الأيوبيين ، وعصر المماليك . ثم قسمت كل باب من هذه الأبواب إلى فصول صغيرة عالجت فيها مختلف جوانب الحياة الداخلية والخارجية التى يرتبط بها التاريخ المصرى فى ذلك العصر .

وسيلمس القارىء أننى راعيت الإيجاز الشديد فيما كتبت ، لأن

الحكمة من هذا الكتاب هى — كما سبق أن أشرت — إعطاء القارىء صورة متكاملة متصلة الحلقات عن تاريخ مصر فى العصور الوسطى . وحسبي أن أشير إلى أن كل عصر من هذه العصور الستة التى أفردت لها أبواباً فى هذا الكتاب هى فى حقيقة أمرها موضوعات لكتب مطولة ودراسات مستفيضة . فعصر الولاة وعصر الإخشيديين كتبت فى كل منهما الزميلة الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف كتاباً ضخما يعتبر خير مرجع فى موضوعه ؛ وعصر الطولونيين كتب فيه المرحوم الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن كتاباً ثميناً بالفرنسية ، كما كتب فيه الزميل الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود بالعربية . وعصر الفاطميين عالجه المرحوم الدكتور حسن ابراهيم حسن علاجاً مستفيضاً فى مؤلفاته ؛ كما ألف فيه الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين سرور عدة كتب غنية عن التعريف . وعصر المماليك سبق لى شخصيا أن كتبت فيه عدة مؤلفات عالجت فيها مختلف جوانب التاريخ المصرى فى ذلك العصر من النواحى السياسية والحضارية والإجتماعية . وجميع هذه الكتب والمؤلفات رجعت إليها فى وضع هذا الكتاب ، واستفدت منها فائدة كبيرة ، فضلا عن المصادر الأصلية التى اعتمدت عليها اعتماداً أساسياً .

وخلاصة القول أنه كان على أن أقدم للقارىء فى هذا المؤلف خلاصة عديد من المصادر والمراجع ، ولذا حرصت دائما خلال صفحات هذا الكتاب على أن أعطي للقارىء صورة واضحة موجزة للعصر الذى أقدمت على علاجه من مختلف جوانبه الرئيسية ، دون الدخول فى التفصيلات التاريخية والحوادث الثانوية ، التى ربما تفسد عرض التاريخ فى كتاب يحمل من هذا النوع أكثر مما تخدمه .

فإذا كنت قد أصبت ، فالفضل لله أولا ثم للأستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعى ، الذى استلهمت الكثير من روحه أثناء كتابة هذا الكتاب .

أما إذا وجد القارىء فيه ما يستحق النقد — والكمال لله وحده — فأنا فقط الذى أتحمل تبعة ما يظنه القارىء موضعاً لنقد .

والله ولى التوفيق ؟

المعادى فى
٢٣ ذى القعدة ١٣٨٨
١٠ فبراير ١٩٦٩

دكتور
سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

مقدمة الأستاذ عبد الرحمن الرافعي[1]

موضوع هذا الكتاب دراسة تاريخ الحركة القومية فى مصر خلال العصور الوسطى .

والعصور الوسطى مصطلح تاريخى تقريبى يبدأ من سقوط روما عاصمة الدولة الرومانية فى أيدى الهمج فى منتصف القرن الخامس الميلادى (سنة ٤٧٦ م .) إلى سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين فى منتصف القرن الخامس عشر (سنة ١٤٥٣) ، أى أن العصور الوسطى تمتد قرابة عشرة قرون .

والحركة القومية كما قصدتها وعنيتها فى كتبى السابقة هى الجهود التى بذلها الشعب المصرى بمختلف طبقاته فى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة والذود عن كيانها . والدفاع عن إستقلالها والثورة على كل من يعتدى على هذا الاستقلال . ومقاومته بكل ما أوتيت من حول وقوة .

لقد جعلت أساس التاريخ القومى أن أؤرخ للحركة القومية فى مختلف العهود . وأن يكون التاريخ القومى مبحوثا ومعروضا على ضوء الحركة القومية . لأن التاريخ الحقيقى للأمم هو تاريخ نهضتها

---

(١) كتب هذه المقدمة بخط يده الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، وتبدو منها وجهة نظره فى موضوع الكتاب الذى شرع فى التخطيط له قبل أن ينتقل إلى رحمة ربه بوقت قصير . وقد آثرنا المحافظة عليها حرفيا كما كتبها الفقيد بوصفها اخر آثر من آثاره العلمية التي كتبها بخط يده من ناحية ثم بوصفها تعبيراً عما أراده الفقيد من هذا الكتاب من ناحية أخرى . هذا وإن كنا نستطع أن نلتزم فى تأليف الكتاب ببعض الاتجاهات التي ارادها الاستاذ الرافعى التزاما حرفيا للاسباب السابق بيانها فى الصفحات السابقة .

القومية . فهى أساس وجودها ، ومبعث تطورها. والنهضة القومية هى معالم التاريخ القومى، وينبوعه الفياض . وما التاريخ القومى إلا كالمرآة ، تنطبع عليها صور النهضة وأطوارها ، وحوادثها وأدوارها ، وجنودها وأبطالها .

ولقد أرخت للحركة القومية فى تاريخ مصر الحديثة . وفى سنة ١٩٦٣ أرخت لها فى مصر القديمة ؛ من فجر التاريخ إلى الفتح العربى سنة ٦٤٠ — ٦٤٢ م .

واليوم أنوى أن أؤرخ للحركة القومية فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى قيام الدولة المصرية المستقلة فى عهد أحمد بن طولون سنة ٨٦٨ م، وتاريخ مصر القومى فى عهد الطولونيين والأخشيديين والفاطميين ، ثم رد عدوان الفرنج والتتار على مصر والشرق فى عهود الأيوبيين والمماليك ؛ إلى أن ابتليت مصر بالاحتلال العثمانى سنة ١٥١٧ م .

والروح القومية لم تفارق مصر فى عهد الحكم العثمانى . فقد ظلت كامنة فى النفوس حتى استثارتها الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر . فنهضت تقاوم الغزو الفرنسى بكل مالديها من عزيمة وثبات حتى جلا الفرنسيون عن البلاد .

ومن يمعن النظر فى هذه الحقبة الطويلة من الزمن يجد أنها فى مجموعها قد اشتملت على صفحات مشرقة من التاريخ القومى . وحسبك دليلا على صدق هذا النظر أن مصر منذ أن تكونت فيها الروح القومية ، كانت أسبق الأمم التى تألفت منها الدولة العربية الكبرى إلى تحقيق استقلالها، ولم تفرط أو تتهاون فيه . بل كانت تساند الحكومات التى تزود عن هذا الاستقلال وترد عنه حملات البغى والعدوان ، وكانت تنصرف عن كل حكومة تتهاون أو تتراخى فى حفظ كيان البلاد .

وبصدور هذا الكتاب يكون قد تسنى لى — بعون الله — أن أؤرخ لمصر العزيزة فى جميع مراحلها: فى عصورها القديمة وفى العصور الوسطى، والعصور الحديثة .

ويطيب لى فى هذا المقام أن أعيد إلى الأذهان ما كتبته عنها بحسب الترتيب الزمنى .

١ — تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة، من فجر التاريخ إلى الفتح العربى .

٢ — تاريخ الحركة القومية فى مصر خلال العصور الوسطى . الجزء الأول ويشتمل على تاريخها القومى من الفتح العربى إلى قيام الدولة المصرية المستقلة فى عهد أحمد بن طولون وخلفائه .

٣ — الجزء الثانى . ويشتمل على عدوان الفرنج والتتار على مصر والشرق فى عهد الأيوبيين والمماليك[١] .

٤ — تاريخ الحركة القومية فى مصر الحديثة . وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية — الجزء الأول .

٥ — الجزء الثانى . من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى انتهاء الحملة الفرنسية . ومن جلاء الفرنسيين إلى اعتلاء محمد على أريكة مصر بإرادة الشعب .

٦ — عصر محمد على .

---

(١) من الواضح أن هذين الجزءين (٢ ، ٣) يشملان الموضوع الذى عالجناه فى هذا الكتاب ، وقد آثرنا إخراجه فى مجلد واحد حرصا على وحدة الموضوع .

٧ — خلفاء محمد على وعصر اسماعيل . الجزء الأول . ابراهيم . عباس

٨ — خلفاء محمد على وعصر اسماعيل . الجزء الثانى . مأساة الديون والتدخل الأجنبى .

٩ — الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى .

١٠ — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال . تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ .

١١ — جمعيات التعاون الزراعية . يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا . ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية وهو الكتاب الذى قال عنه الزعيم محمد فريد « أنه أحسن كتاب أخرج للأمة المصرية هذا العام » (سنة ١٩١٤) .

١٢ — مصطفى كامل ، باعث الحركة الوطنية . تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ .

١٣ — محمد فريد ، رمز الاخلاص والتضحية . تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ .

١٤ — ثورة سنة ١٩١٩ الجزء الاول .

١٥ — ثورة سنة ١٩١٩ الجزء الثانى .

١٦ — فى أعقاب الثورة (ثورة سنة ١٩١٩) الجزء الأول . تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ .

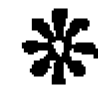
١٧ — الجزء الثانى . تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول إلى وفاة الملك أحمد فؤاد سنة ١٩٣٦ .

١٨ — الجزء الثالث . تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٥١ .

١٩ — مقدمات ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ : الكفاح فى القنال سنة ١٩٥١ ، حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ ، وزارات الموظفين . أسباب الثورة . فاروق يمهد للثورة .

٢٠ — ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ وما حققته من أهداف مصر القومية وفى مقدمتها جلاء الاحتلال الأجنبى عن أرض الوطن وتقوية الجيش وتسليحه ، وتأميم قناة السويس ، ورد العدوان الثلاثى على مصر ، وبعث القومية العربية ، وبذل الجهود المتواصلة لإحياء النهضة الاقتصادية والاجتماعية .

٢١ — شعراء الوطنية فى مصر . تراجمهم وشعرهم الوطنى والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم .



أسأل الله أن يلهمنا الإخلاص فى العمل ، ويهيء لنا من أمرنا رشداً ؟

عبد الرحمن الرافعى

الباب الأول

مصر ولاية عربية

الفصل الاول

الفتح العربى لمصر

إذا كانت القارة الآسيوية قد اشتهرت فى التاريخ بأنها المخزن الكبير الذى انطلق منه كثير من الهجرات والغزوات الكبرى لتترك آثارها العميقة فى البلاد المجاورة ، وخاصة بلاد الشرقين الأدنى والأوسط وشرق أوربا ووسطها ، فإن أحداً من المعاصرين فى القرن السابع للميلاد لم يتوقع أن تخرج الانطلاقة القريبة من شبه الجزيرة العربية بالذات . ذلك أن أحداث النزاع الطويل بين الفرس والروم صرفت أعين المعاصرين عما جرى فى شبه الجزيرة العربية من ظهور خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام وهجرته إلى المدينة، وما تبع ذلك من إنهاء حالة الفوضى والتفكك السياسى والنزاع القبلى التى عاش عليها عرب الشمال قرونا طويلة . وما كاد العرب يشعرون بأنهم أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد شعاره لا إله إلا الله محمد رسول الله ، حتى انطلقوا فى حركة توسعية كبرى مبشرين بدينهم ، محطمين القوى السياسية التى حالت دون وصول الدعوة الجديدة إلى قلوب الجماهير وعامة الشعوب .

وكان أن بدأت البذور الأولى لحركة التوسع العربية الإسلامية فى حياة

الرسول (ص) ، وإن كانت هذه الحركة لم تشتد وتتخذ شكلها الكاسح إلا بعد وفاة الرسول (ص) سنة ٦٣٢ م (١١ﻫ) . وهكذا وجد العالم نفسه أمام حركة توسعية جديدة ، ليست من نوع الحركات السابقة واللاحقة التى انطلقت من جوف القارة الآسيوية ، والتى لم تترك أثراً فى التاريخ سوى التهديد والتخريب والسلب والنهب . ذلك أن الحركة العربية الإسلامية ، فى القرن السابع الميلادى لم يقف أثرها عند حد فتح بلاد واسعة فى آسيا وأفريقيا ، وإنما يبدو الأثر الخطير لهذه الحركة فى نجاحها فى صبغ تلك البلاد الواسعة بالصبغة العربية الإسلامية . وما كاد القرن السابع للميلاد ينتهى حتى كانت بلاد الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية قد أخذت تتحول تدريجياً من المسيحية إلى الإسلام ومن اللغات اللاتينيه واليونانية وغيرها من اللغات القديمة إلى اللسان العربى . وهنا تبدو الأهمية الحقيقية لحركة الفتوح العربية التوسعية ، الأمر الذى جعل بعض المؤرخين المحدثين يعتبر هذه الحركة من الخطورة بمكان يجعلها حداً فاصلا بين العصور القديمة والوسطى[1] .

— ويهمنا فى هذا المقام من أمر الفتوح العربية الإسلامية أن الخليفة أبا بكر الصديق بادر بإنفاذ جيشين لغزو دولتى الروم والفرس سنة ٦٣٣ م (١٢ﻫ) . وعندما توفى أبو بكر ، استأنف الخليفة عمر بن الخطاب سياسته ، فاتسعت الفتوح العربية الإسلامية فى عهده ، وتتابعت انتصارات العرب على الروم فى الشام وعلى الفرس فى العراق . وكان عمرو بن العاص أحد قادة العرب الأربعة الذين عملوا فى جبهة الشام ، وإلى جهوده بالذات يرجع الفضل فى فتح مدن فلسطين ومعاقلها واحداً بعد آخر . وقد أصر بطريرق بيت المقدس على ألا يسلم المدينة إلا ليد الخليفة عمر بن الخطاب ، فتم ذلك

(١) Deanesly A Hist. of Early Med. Europe, pp. 185-187.

سنة ٦٣٨ م (١٧هـ)؛ وبعد ذلك اتجه عمرو لحصار قيسارية، فى حين قصد الخليفة عمر بن الخطاب الجابية من أعمال دمشق. وفى تلك المرحلة طلب عمرو بن العاص من الخليفة عمر أن يأذن له فى فتح مصر، فقال له «أئذن لى فى السير إلى مصر»، وأوضح له أنها أكثر الأرض أموالا وأهلها عندئذ أعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم «وإنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم». ويبدو أن عمرو بن العاص — وهو القائد الذكى — خشى أن يؤدى بقاء مصر فى أيدى الروم إلى تهديد مركز العرب الجديد فى بلاد الشام، إذ لا بد للعرب من تأمين فتوحاتهم الجديدة فى الشام ضد أى هجوم يأتى من مصر، وخاصة بعد أن لجأ حاكم بيت المقدس البيزنطى إلى مصر حيث أخذ يجمع الجند ويحشد الحشود تمهيداً لاسترداد بلاد الشام من العرب.

ولكن الخليفة عمر بن الخطاب تردد فى الإجابة على عمرو بن العاص، إذ خشى أن يفتح المسلمون جبهة جديدة فى مصر قبل أن توطد أقدامهم فى الشام. هذا إلى أن توسع العرب السريع فى بلاد حوض البحر المتوسط كان يتطلب أسطولا كبيرا للدفاع عن شواطىء البلاد التى استقروا فيها ضد هجمات الروم، فى الوقت الذى كان العرب مازالوا يهابون ركوب البحر. وربما خشى الخليفة عمر توزيع قوى الجيش الإسلامى بين فارس والعراق والشام ومصر؛ وخاصة أن عمرو بن العاص طلب جيشا يتراوح عدده بين ثلاثة آلاف وخمسمائة، وأربعة آلاف مقاتل ليفتح به مصر، الأمر الذى جعل الخليفة يطلب مهلة من الوقت ليتدبر الأمر ويقطع فيه برأى حاسم. على أن الخليفة عمر بن الخطاب نفسه سرعان ما أدرك مدى الخطر الذى يتعرض له المسلمون فى الشام إذا ظلت مصر فى أيدى الروم، فسمح لعمرو ابن العاص بفتح مصر، وعقد له على أربعة آلاف رجل. وثمة قصة متواترة فى بعض مصادر التاريخ لا نستطيع أن نقطع بصحتها، وخلاصتها أن الخليفة عمر بن الخطاب قال لعمرو بن العاص عندما أذن له بالمسير لفتح مصر

« إنى مرسل إليك كتابا ، فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فاقصد لوجهك واستعن بالله واستنصره ». ولما وصل كتاب الخليفة إلى عمرو وهو برفح رفض أن يستلمه من الرسول حتى قارب العريش ، ليضمن أنه دخل أرض مصر ، وعندئذ قرأ كتاب الخليفة على الجند ومضى فى سبيله إلى داخلية البلاد[1] .

أحوال مصر عند الفتح العربى :

وفى تلك الأثناء كانت أحوال مصر فى العصر البيزنطى قد بلغت حداً لا مزيد عليه من السوء . ذلك أن الحالة الإقتصادية ساءت بسبب قسوة عبء الضرائب من ناحية والتمادى فى نظام الوظائف غير المأجورة من ناحية أخرى . وقد أدى ذلك إلى فرار كثير من صغار الزراع من أراضيهم حتى كادت تختفى فى القرن السادس للميلاد طبقة صغار الملاك الزراعيين . هذا إلى أن تناقص صغار الملاك الزراعيين ترتب عليه استيلاء كبار الملاك على أراضيهم الأمر الذى أدى إلى خلل كبير فى ميزان القوى الاجتماعية ، فضلا عن عجز الحكومة عن مواجهة نفوذ كبار الملاك الزراعيين .

وزاد من متاعب المصريين أن الرومان اعتبروهم دائماً الطبقة السفلى فى المجتمع التى تأتى بعد الرومان واليونان وحتى اليهود ، ففرضوا عليهم أشد الإلتزامات قسوة . وفى الوقت نفسه حرموهم من أبسط الحقوق الاجتماعية . ومع ذلك فقد ظل المصريون متمسكين بقدر كبير من عاداتهم ونظمهم ، وثقافتهم القديمة . وربما أدى إحساسهم بسوء وضعهم إلى تماسكهم وترابطهم ، فضلا عن تمسكهم وحرصهم على تراثهم وأصولهم الفكرية والاجتماعية .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥ — ٦ .

وكان أن وجد المصريون فى المسيحية محوراً روحياً كبيراً يلتفون حوله لتوقظ فيهم شعورهم القومى، وتبرز شخصيتهم وترفع روحهم المعنوية، فعبروا عن حماستهم الدينية التى اشتهروا بها منذ أقدم العصور تعبيراً صادقاً فى ظل المسيحية ، وأقبلوا على هذه الديانة الجديدة إقبـــالا يتفق مع وصف هيرودوت لهم بأنهم قوم يخافون الله ، ولم يبالوا بالاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له من جانب الأباطرة الوثنيين ، وهو الاضطهاد الذى بلغ ذروته على عصر الأمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م)(١). ولكن المصريين تحملوا ذلك الاضطهاد بنفس الشجاعة التى يواجه بها كل مؤمن جبروت الطغاة. فأطلقوا على الفترة الأخيرة من حكم دقلديانوس اسم عصر الشهداء . واختاروا سنة ولايته الحكم — وهى سنة ٢٨٤ م — بداية التقويم القبطى ؛ إشارة لما عاناه الأقباط منذ تلك السنة المشئومة من أذى وجور . وتحت نير الاضطهاد الدينى من ناحية ، وفى ظل المقارنة بين مثل المسيحية ومبادئها الكريمة وبين ما كان عليه المجتمع الرومانى من فساد من ناحية أخرى، اختار كثير من الأقباط الفرار إلى الصحراء وأماكن العزلة النائية ، لينقطعوا لعبادة الرب بعيدين عن فساد المجتمع الحضرى ، فضلا عن تجنب قسوة الحكام وغلظتهم . وهكذا كانت مصر أول بلد فى العالم شهد مولد حياة الرهبانية والديرية وأسهم بهذه الحياة الجديدة إسهاماً خطيراً فى تاريخ المسيحية وحضارتها(٢) .

ولم تهدأ موجة الاضطهاد ضد المسيحيين عموماً وأقباط مصر بوجه خاص إلا عندما اعترف الأمبراطور قسطنطين الكبير بالمسيحية سنة ٣١٣ م ، وأصدر فى تلك السنة مرسوم ميلان الشهير الذى أطلق حرية العقيدة للمسيحيين. ولكن حتى مع انتشار المسيحية فى العالم الرومانى ، ثم اعتبارها الديانة الرسمية

---

(١) Diehl : L'Egypte Chrétienne et Byzantine, pp. 406-410.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ح ١ ص ١٦٢ وما بعدها .

للامبراطورية منذ عهد الامبراطور ثيودسيوس الكبير فى أواخر القرن الرابع ، فإن أباطرة القسطنطينية اختاروا ألا يتركوا أقباط مصر يتمتعون بحرية العقيدة وحق التعبير عن رأيهم فى تفسير الآراء المتعلقة بالمسيحية . ذلك أنه حدث حوالى منتصف القرن الخامس للميلاد أن اشتد الخلاف فى المعسكر المسيحى حول تفسير طبيعة المسيح، فقال البعض بأن للمسيح طبيعة واحدة ، هذا هو المذهب المونوفيزيتى ، فى حين قال فريق آخر بأن للمسيح طبيعتان إحداها إلهية والأخرى بشرية وهذا هو المذهب الملكانى.

وكان أن أجمع المصريون على اعتناق مذهب الطبيعة الواحدة ، فى الوقت الذى قرر مجمع خلقدونية الدينى سنة ٤٥١ م — الذى عقد تحت إشراف السلطة الامبراطورية — الأخذ بمذهب الطبيعتين. وقد اتخذ تمسك المصريين بالمذهب المونوفيزيتى طابعاً قومياً ، الأمر الذى عرضهم لموجة اضطهاد عنيفة من جانب الأباطرة البيزنطيين. وهكذا شهدت مصر فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد ثورات عنيفة ، مما ضاعف من سوء الأحوال الاقتصادية فى البلاد. وبلغ من قسوة الاضطهادات التى تعرض لها أقباط مصر فى ذلك الدور أن كان يلقى بهم أحياناً فى مواقد الحمامات العامة لتشكون لحومهم وعظامهم وقوداً لنيرانها .

وكان أن استغل كسرى الثانى فرصة اضطراب الإمبراطورية البيزنطية ، فغزا الفرس أراضيها سنة ٦١٦ م واستولوا على مصر ومدنها من الإسكندرية شمالا حيث أسوان جنوبا . وعلى الرغم مما قاساه المصريون من قسوة الروم، فإنهم لم يرحبوا بالفرس . ولم يروا فيهم المخلص الكفيل برفع الظلم عن كواهلهم . ولعل الغزو الفارسى لمصر ، وما تعرضت له البلاد والعباد على أيديهم من خراب وعذاب كان مما زاد أوضاع مصر عندئذ سوءا على سوء، حتى انتهى الأمر بأن نجح الإمبراطور هرقل سنة ٦٢٩ فى طرد الفرس

من آسيا الصغرى والشام ومصر جميعا[١].

على أنه إذا كان هرقل قد نجح فى طرد الفرس من مصر ، فإنه لم ينجح فى إيجاد حل للمشكلة الكبرى التى اعترضت سبيل العلاقة بين مصر والقسطنطينية ؛ وهى المشكلة التى كان سببها إصرار الكنيسة المصرية على التمسك بالمذهب المونوفيزيتى حتى اتخذ المصريون لأنفسهم لقب الأرثوذكس — بمعنى أصحاب العقيدة الصحيحة — فى الوقت الذى اختارت كنيسة القسطنطينية مذهب الطبيعتين وحرصت عليه . وكان أن وضع هرقل صيغة للتوفيق بين قرارات مجمع خلقدونية والمذهب المونوفيزيتى ، دون أن يحسب حسابا لعناد المصريين ، وما قد يترتب على رفضهم صيغة التوفيق التى وضعها الإمبراطور من مشاكل تهدد بقطع الخيـــط الواهى الذى يربط مصر بالقسطنطينية . وأدى عناد الإمبراطور هرقل به إلى أنه أرسل إلى مصر سنة ٦٣١ حاكما يجمع فى قبضته بين الزعامتين الدينية والسياسية ، بمعنى أن يكون حاكما إداريا على مصر من قبل الإمبراطور ، وفى نفس الوقت بطريقا ورئيسا لكنيستها[٢] .

أما هذا الرجل فكان قيرس Cyrus — الذى عرفه كتاب العرب باسم المقوقس — وقد اشتهر بالصلابة والبعد عن المرونة والميل إلى العنف ، الأمر الذى ضاعف من سوء الأوضاع فى مصر على عهده . ويبدو أن المصريين أحسوا بما ينتظرهم من اضطهاد على يد الحاكم البيزنطى الجديد ، فلاذ بطريرق الأقباط بنيامين بالفرار من الإسكندرية قبل وصول المقوقس إليها ، واتجه البطريرق إلى وادى النطرون ومنه فر إلى طيبة بالصعيد[٣] . ولم يخطىء المصريون فى ظنهم ، إذ تطرف قيرس — أو المقوقس — فى

(١) Diehl: L'Egypte Chrétienne et Byzantine, pp. 538-543.

(٢) Diehl: op. cit., p. 541.

(٣) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ٢٢٦ .

اضطهادهم لحملهم على التخلى عن مذهب الطبيعة الواحدة ، وبلغ به الأمر أن قبض على الأب مينا – شقيق البطريرق بنيامين – وأمر بنزع أسنانه وكى جسمه بالنار لجبره على التخلى عن مذهبه المونوفيزيتى . ولما ازداد الرجل إصرارا على التمسك بعقيدته وضع فى جوال ملىء بالتراب وألقى به فى البحر(١).

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاضطهاد أن ازداد المصريون كرها للحكم البيزنطى واشتد عداؤهم له ورغبتهم فى التخلص منه .

وهكذا دارت الأحداث فى مصر فى الوقت الذى أخذ عمرو بن العاص يشق طريقه عبر الصحراء الشرقية فى طريقه إلى الدلتا .

عمرو بن العاص وفتح مصر :

على الرغم مما يحيط بأخبار الفتح العربى لمصر من اضطراب وتناقض بين المصادر التاريخية فضلا عن نقص فى بعض التفصيلات المرتبطة بأحداث الفتح ؛ إلا أن الخطوط العريضة لتلك العملية الخطيرة فى التاريخ يسهل رسمها فى ضوء المقارنة بين ما ذكره المؤرخون العرب مثل ابن عبد الحكم والبلاذرى وغيرهما من ناحية وما ورد فى بعض المصادر اليونانية – على قلتها – مثل تاريخ حنا النقيوسى من ناحية أخرى .

وقبل أن نتكلم بإيجاز عن أحداث الفتح العربى يصح أن نضع أمام أبصارنا الحقيقة الكبرى التى تبدو فى صورة مباشرة أو غير مباشرة بين سطور المصادر السابقة ، وهى أن المصريين أنفسهم – أعنى الأقباط من أهل مصر – وقفوا موقفا سلبيا من جهود الإمبراطورية البيزنطية فى الدفاع عن مصر

(١) Butler: The Arab Conquest of Egypt, p. 184.

ضد الفتح العربي ، فلم يتحمس المصريون للمشاركة فى تلك الجهود ، ولم يروا فى الغزاة الفاتحين خطرا يهددهم . بل إن حنا النقيوسى — وهو مسيحى مصرى مونوفيزيتى — يشير فى أكثر من موضع إلى أن أقباط مصر كانوا يهاجمون جند الروم ويجردونهم من أسلحتهم ثم يسلمونهم لخصومهم العرب . وهكذا عبر المصريون عن مقتهم للحكم البيزنطى ، ووجدوا فى الفتح العربى فرصة للتنفيس عما أحسوا به من ألم ومرارة بعد زمن طويل من الإضطهاد الدينى ، ذاق فيها أقباط مصر جرعة مريرة تركت أثرا عميقا فى تاريخ الكنيسة المصرية . وقد اعترف حنا النقيوسى فى صراحة بأن انتصار العرب إنما جاء نتيجة لما حل بأقباط مصر من عسف واضطهاد على عهد الإمبراطور هرقل ، ونائبه فى حكم مصر وهو البطريرق قيرس (المقوقس)(١) !! .

وفى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفسر السهولة النسبية والسرعة الواضحة التى تم بها الفتح العربى لبلد كبير مثل مصر ، لا سيما إذا لاحظنا أن جيش عمرو بن العاص لم يتجاوز بضعة آلاف قليلة من المقاتلين .

سار عمرو بن العاص سنة ٦٣٩ م (١٨ هـ) من قيسارية على شاطىء فلسطين متجهاً إلى العريش حيث احتفل مع جنده بعيد الأضحى . ومن العريش قصد الفرما ومنها إلى بلبيس فأم دنين شمالى حصن بابليون حيث كان البيزنطيون قد تحصنوا وحشدوا قواتهم بها . ويبدو أن عمرو بن العاص أحس عندئذ بقدر من المقاومة لم يعهده منذ دخوله أرض مصر ، فأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب مستنجداً ، وعندئذ أمده الخليفة بأربعة آلاف مقاتل « فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل »(٢) .

وكان أن أحس تيودور القائد العام للجيوش البيزنطية فى مصر بأن

---

(١) Zotenberg: Chronique de Jean évêque de Nikiou, p. 570.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٦٠ ؛ البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٣ ؛ المقريزى : المواعظ ح ١ ص ٢٨٩ .

الخطر الذى يواجهه ليس مجرد غارة من تلك الإغارات التى اعتادت البلاد أن تتعرض لها بين حين وآخر ، فحشد قواه وضاعف جهوده للدفاع عن حصن بابليون ، الأمر الذى جعل العرب يقضون بضعة أشهر فى حصاره . وعندما طال القتال حاول المقوقس الوصول إلى حل مع المسلمين ، فدارت مفاوضات بين الطرفين ، لجأ الروم فيها إلى الجمع بين أسلوب التهديد والترغيب فقالوا للعرب « قد أقمتم بين أظهرنا أشهراً وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم . ونحن نطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نعرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به »(١) . ولكن عمرو بن العاص ترك للروم اختيار حل من ثلاثة — لا رابع لها — إما الدخول فى الإسلام ، وإما الجزية ، وإما القتال .

وفى خلال المفاوضات التى دارت بين المقوقس والعرب ، أدرك المقوقس إصرار العرب على تحقيق غرضهم وعدم استعدادهم للمساومة ، فاضطر إلى الاستسلام ، ووافق على مبدأ دفع الجزية ، وبذلك تسلم العرب حصن بابليون وأشرفوا من ذلك الموقع الحربى الفريد على مربط الوجهين البحرى والقبلى . ثم إن المقوقس اشترط شرطين :

أولهما : أن تترك حرية الاختيار للروم فى مصر بين قبول شروط الصلح أو الخروج من أرض مصر .

ثانيهما : أن تبقى الكلمة الأخيرة فى الصلح للامبراطور هرقل ، فإن

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٩٠ .

رفضه «كانوا جميعاً إلى ما كانوا عليه» أى عادوا إلى القتال. ويفهم من هذا كله أن قبط مصر قد أصبح أمرهم مفروغاً منه بمقتضى الصلح السابق، وأنه إذا كانت هناك مساومات بين الطرفين المتنازعين، فإن هذه المساومات كانت تدور فقط حول مصير الروم أو الجالية البيزنطية الموجودة بمصر[1].

وكان على عمرو بن العاص بعد ذلك أن يسيطر على الاسكندرية، كبرى مدن البلاد وعاصمة مصر منذ أيام البطالمة، والمركز الأول للنشاط السياسى والاقتصادى والثقافى فى مصر طوال عصرى البطالمة والرومان. وفى تلك الأثناء كان هرقل قد رد على المقوقس فى مصر يؤنبه ويقول له إنك «رضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط أذلاء، فقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم»[2]. ولكن المقوقس لم يعبأ بهرقل، وأخبر عمرو بن العاص بأن القبط موفون له ما صالحهم عليه. وعندئذ طلب عمرو من المقوقس أن يضمن له الجسور ويقيم له الأنزال والضيافة فى طريقه إلى الاسكندرية، فتعهد المقوقس بذلك، وبذلك «صارت لهم القبط أعواناً كما جاء فى الحديث»[3].

على أن الموقف اختلف بالنسبة للاسكندرية عنه بالنسبة لحصن بابليون. ذلك أن الاسكندرية مدينة بحرية قبل كل شىء، يحتاج حصارها إلى أسطول يحيط بها من ناحية البحر، فى الوقت الذى كان العرب فى ذلك الدور يجهلون شئون البحر بل يخافون ركوبه. هذا إلى أن وضع الاسكندرية على شاطىء البحر كان يجعلها سهلة الاتصال بالقسطنطينية مما يجعل فى الإمكان إمدادها بالرجال والعتاد والمؤن لتستطيع الصمود فى عناد. وقد أدرك الروم

(١) سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى فجر الإسلام ص ١٢.
(٢) المقريزى: المواعظ ج ١ ص ٢٩٢.
(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٥٩ — ٦٣، خطط المقريزى ج ٢ ص ١٩٢.

أن الإسكندرية — وليس حصن بابليون — هى مفتاح مصر الحقيقى ، فحشدوا فيها قواهم ، بل لقد استعد الامبراطور هرقل للخروج بنفسه إلى الاسكندرية للدفاع عنها، لولا أن دهمه الموت فى أوائل سنة ٦٤١ م (٢٠هـ)[١] وهكذا طال حصار المسلمين للإسكندرية وإشتدت مقاومة البيزنطيين داخلها ، حتى لقد انتاب القلق الخليفة عمر بن الخطاب ، فأرسل إلى عمرو بن العاص يلومه ويستحثه . وأخيراً — وبعد حوادث مليئة بالتفصيلات — أدرك المقوقس مرة أخرى تعذر الاستمرار فى المقاومة ، فتم إبرام معاهدة الاسكندرية فى نوفمبر سنة ٦٤١ م (٢١هـ) . وأهم شروطها أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين سنوياً ، وأن تعقد هدنة بين الطرفين لمدة أحد عشر شهراً تجلو خلالها الحامية البيزنطية ومعها أموالها وعتادها عن المدينة ، بشرط ألا يحاول الروم العودة إلى المدينة مرة أخرى . أما العرب فقد تعهدوا من جانبهم بعدم التدخل فى شئون المسيحيين وعدم الاستيلاء على كنائسهم فضلا عن السماح لليهود بالإقامة فى الاسكندرية[٢] .

وجدير بالذكر أن عمرو بن العاص لم يغفل أمر داخلية البلاد أثناء انشغاله بحصار بابليون والإسكندرية . ففى أثناء حصار حصن بابليون — وقبل وصول الإمدادات التى طلبها عمرو بن العاص من الخليفة — غزا عمرو بن العاص إقليم الفيوم فى صيف سنة ٦٤٠م (١٩هـ) . وقبل أن يستسلم حصن بابليون نفسه قام العرب بغزو إقليم وسط الدلتا حتى منوف الحالية. وعندما طال حصار الاسكندرية ، شغل عمرو بن العاص نفسه بغزو أقاليم دمنهور وسخا كما أوغل فى وسط الدلتا .

---

(١) Butler: op. cit., p. 261.

(٢) Chronique de Jean évêque de Nikiou, p. 515.

وابن عبد الحكم فتوح مصر ص ٧٢ — ٧٤ ، البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٨٨ . الكندى : الولاة ص ٩ وما بعدها .

وكان من الطبيعى أن تكون الخطوة التالية أمام عمرو بن العاص بعد استيلائه على الاسكندرية هى إحكام السيطرة على بقية أنحاء البلاد ، بحيث لم تتنه سنة ٦٤٥ م (٢٥هـ) حتى كانت مصر بأكملها قدر صارت فى قبضة المسلمين ، فضلا عن فتح برقة من ناحية وعقد اتفاقية البقط مع النوبة من ناحية أخرى، لتأمين حدود مصر من ناحيتى الغرب والجنوب[1] .

وإذا كانت الامبراطورية البيزنطية لم ترض عن ضياع مصر ، وقامت بأكثر من محاولة لاستردادها من الفاتحين العرب ، فإن هذه المحاولات باءت جميعاً بالفشل .

ولا يخفى علينا أن الصراع بين الروم والعرب إنما كان فى حقيقة أمره بين قوتين، إحداهما متداعية اعتراها الضعف والوهن وصارت أكثر ارتباطاً بالماضى منها بالمستقبل ، والأخرى فتية شابة تعمل فى ظل سياج منيع من المثل الحية ؛ فهى أكثر ارتباطاً بالمستقبل منها بالماضى .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٧٠ — ١٨٩ ؛ الكندى : الولاة والقضاة ص ١٢-١٣

الفصل الثانى

تعريب مصر وانتشار الاسلام

أصبحت مصر بعد الفتح العربى ولاية عربية يحكمها والى يعينه الخليفة القائم فى المدينة أو دمشق أو بغداد. ولم يكن التغيير الذى حدث عندئذ - فى القرن السابع للميلاد - تغييراً شكلياً صارت مصر بمقتضاه تابعة لحكومة جديدة بعد أن كانت تابعة لحكومة أخرى ، وإنما كان فى حقيقته تغييراً جذرياً ، لأن الحكام العرب الجدد اختلفوا عن الحكام الروم السابقين فى اللسان والعقيدة والمثل. وبعبارة أخرى فإن الأمر لم يقف عند حد حدوث تغييرات فى نظم الحكم وأسلوب إدارة البلاد ، وإنما تعدى ذلك إلى إحداث ثورة شاملة انتهت بتحول أهل مصر إلى اللسان العربى وإعتناق غالبيتهم الديانة الإسلامية ، وبالتالى فقد ترتب على الفتح العربى أن أخذ المجتمع المصرى صورة جديدة ؛ وصارت مصر جزءاً من الدولة العربية الإسلامية الكبرى التى أخذت تمتد تدريجياً ليصبح حدها الغربى المحيط الأطلسى وحدها الشرقى الخليج العربى.

إنتشار الإسلام واللغة العربية :

ترتب على حركة الفتوح الإسلامية سرعة انتشار الديانة الإسلامية وتغلب اللسان العربى على بلاد العراق والشام ومصر وشمال أفريقية. وكان أن تألمت الكنيسة عندما وجدت أن بلاداً مثل مصر ارتبط بها التاريخ الأول للمسيحية ، وكانت مسرحاً لكثير من الأحداث التى صحبت ظهور المسيحية ونشأتها وإنتشارها ، فإذا بأهلها يتحولون بسرعة إلى الإسلام ، بعد أن كانوا يمثلون دعامة أساسية أسهمت برجالها وأفكارها ونظمها فى تطوير الحضارة المسيحية.

ولم تجد الكنيسة مبرراً لذلك التحول الخطير ، فراحت تدعى أن الإسلام إنما انتشر بحد السيف ، وأن العرب المسلمين فرضوا عقيدتهم فرضا على أهل البلاد المفتوحة . ولو كان أولئك الذين اختلقوا هــذه الأقوال يعلمون شيئاً عن روح الإسلام لعلموا أن القرآن نادى بأن لا إكراه فى الدين ، وأمر بالإقناع الهادئ ، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن « فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . ويقول المؤرخ الإنجليزى المسيحى بيكر أن كافة الوثائق المعاصرة تثبت أن العرب تسامحوا مع أهالى البلاد المفتوحة ولم يفرضوا عليهم ديانتهم . وإذا كانت هناك ظاهرة انتشرت بقوة السلاح فهذه الظاهرة هى سيطرة العرب السياسية وليست عقيدة العرب الدينية[1] .

وفيما يتعلق بمصر بالذات فإن الكنيسة فى العصور الوسطى نسيت ما لاقاه أقباط مصر من اضطهاد قبل اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية سنة ٣١٣ م بل وبعد الاعتراف بها . أجل نسى هؤلاء أن أقباط مصر فى العصر البيزنطى كان يلقى بهم فى البحر لرفضهم الإستجابة لمذهب الإمبراطورية ، وإن كثيرين منهم فروا إلى جوف الصحراء ، وعلى رأسهم بطريرق الأقباط بنيامين الذى فر من وجه المقوقس قبيل الفتح العربى وظل مختبئاً فى الصعيد نحوا من ثلاث عشرة سنة رغبة فى الاحتفاظ بعقيدته الدينية .

وهنا يعترف المؤرخ سير توماس أرنولد بأن أقباط مصر الذين ذاقوا الأمرين فى العصر البيزنطى وجدوا فى الإسلام « حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان » ، فأقبل بعضهم على

---

(١) Cam. Med. Hist., Vol. 2, p. 330.

الإسلام حتى قبل أن يتم لعمرو بن العاص فتح مصر ، « وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم فى الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الجدد[1] » . ولعلنا لسنا بحاجة إلى أن نناقش الرأى القائل بأن أقباط مصر دخلوا فى الإسلام تهربا من دفع الجزية ، فالجزية كانت مفروضة على الرجال القادرين على القتال وأعفى منها الأطفال والشيوخ والنساء ، فهى أشبه بضريبة دفاع مقابل حماية أرواحهم وممتلكاتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية . وكانت الجزية كما رأينا دينارين فى السنة أى نحوا من مائة قرش ، ولا يعقل أن يكون هذا هو الثمن الذى يغرى كائناً من كان على التخلى عن دينه وعقيدته . إن شعباً عنيداً مثل أقباط مصر رفضوا أن يتخلوا عن مذهبهم وتحملوا أذى الأباطرة الرومان وحكامهم فى صبر وشجاعة ، يصعب علينا أن نتصور قبولهم التخلى عن دينهم لمجرد التهرب من دينارين يدفعها سنوياً القادر من الرجال .

وهكذا أقبل أقباط مصر على الدخول فى دين الله أفواجا ، وتم ذلك التحول فى سرعة عجيبة يدل عليها تناقص خراج مصر الى أقل من النصف فى مدى سنوات قليلة ، بسبب دخول كثير من أهل مصر فى الإسلام وسقوط الجزية عنهم . فبعد أن كان خراج مصر إثنى عشر مليون دينار على عهد الخليفة عثمان بن عفان (٦٤٣ — ٦٥٥ م = ٢٢ — ٣٥ هـ) إذا به ينكمش إلى خمسة ملايين دينار فى عهد معاوية بن أبى سفيان (٦٦١ — ٦٧٩ م = ٤١ — ٦٠ هـ) ولما أحس والى مصر على عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ — ٧٢٠ م = ٩٩ — ١٠٢ هـ) بتضاءل خراج البلاد بصورة خطيرة ، أرسل إلى الخليفة يقترح عليه عدم إعفاء من يدخلون الإسلام من الجزية . ولكن عمر بن

---

(١) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن ابراهيم وزميليه ، ص ١٢٣ - ١٢٤

عبد العزيز — وهو الخليفة الذى اشتهر بعدله وتقواه — أرسل إلى ذلك الوالى يقول له « إن الله بعث محمدا داعيا ولم يبعثه جابياً »[١].

ويقال إن سنة ٧٥٥ م (١٣٨ هـ) شهدت إسلام كثير من أهل الذمة فى مصر ، حتى لقد أسلم منهم فى قليوب وحدها أربعمائة وخمسون شخصا فى يوم واحد[٢] . ويعطى بعض المؤرخين سنة ٨٥٣ م (٢٣٩ هـ) أهمية خاصة فى تاريخ امتداد الإسلام فى مصر ، إذا اختفت ثورات الأقباط تقريبا منذ ذلك التاريخ مما يدل على أن غالبية أهل البلاد صارت فعلا من المسلمين(٣). وإذا كانت أوراق البردى فى مصر الاسلامية لا تعطى بيانا مباشرا عن الحقائق الخاصة بحركة انتشار الإسلام فى مصر ، إلا أن دراسة هذه الأوراق دراسة دقيقة تكشف بطريقة غير مباشرة عن سرعة انتشار الإسلام فى مصر فى القرون الأولى للهجرة . فأوراق القرن الأول تكثر فيها أسماء المسيحيين فى العقود الرسمية وفى المعاملات المتنوعة ، ثم تقل أسماء المسيحيين تدريجيا فى أوراق البردى بحيث تكون الغلبة فى أوراق القرن الثالث لأسماء المسلمين وليس لأسماء المسيحيين ، مما يدل فعلا على تغلب الإسلام[٤].

وصحب إنتشار الإسلام فى مصر تعريبها ، أى انتشار اللغة العربية فيها حتى أصبحت لسان الخاصة والعامة من أهل البلاد . والواقع أن سرعة انتشار اللغة العربية تمثل لغزا آخر شغل بال الباحثين سنين طويلة ، لأنها ليست باللغة السهلة المبسطة التى تستطيع أن تكتسح فى سهولة كل اللغات التى واجهتها فى بلاد العراق والشام ومصر وشمال أفريقية .

---

(١) ابن سعد كتاب الطبقات الكبير ج ٥ ص ٢٨٣ (طبعه ليدن) .

(٢) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ، ص ٣٤ .

(٣) Massignon : Annuaire du Monde Musulman, p. 210.

(٤) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ص ١٠٤ .

ويبدو لنا أن إنتشار اللغة العربية جاء نتيجة طبيعية لإنتشار الإسلام ؛ بمعنى أن إنتشار الإسلام سبق انتشار اللغة العربية . وكان أول ما يحس به من يعتنق الإسلام هو حاجته إلى حفظ بعض قصار السور وفاتحة القرآن الكريم ليتمكن من أداء الصلاة ، وهي من الشعائر الأساسية في الديانة الجديدة . حتى الشعوب التي اعتنقت الإسلام واحتفظت بلغاتها القومية الأولى لم تستطع أن تتجاهل اللغة العربية ، فنجد أن اللغة العربية ظلت في بلاد فارس أمداً طويلا لغة أهل الأدب والعلم ، وأخذ الفرس يكتبون لغتهم بحروف عربية ؛ وفي تركيا قل أن نجد إنساناً على شيء من التعليم لا يستطيع أن يفهم لغة القرآن في سهولة . وهكذا إذا نحن ذكرنا أن أقباط مصر أخذوا يتحولون في سرعة إلى الإسلام ، فإن إنتشار اللسان العربي في حد ذاته ضرورة مرتبطة بذلك التحول .

ويمكن أن نضيف إلى ماسبق عاملا آخرا جديداً أدى إلى سرعة انتشار اللغة العربية في مصر ، هي أنها كانت لغة الحكام الغالبين . والمغلوب مولع في معظم الحالات بمحاكاة الغالب ، فضلا عن أن المحكوم في حاجة إلى أن يخاطب الحاكم بلسانه ليدفع له مظلمة أو يطلب منه طلباً أو يقضي لديه حاجة.

وهنا نلاحظ أن اللغة العربية ، عندما دخلت مصر أول مرة مع الفتح العربي، وجدت في البلاد لغتين لهما مكانتهما وأصالتهما ، هما اللغة اليونانية وكانت لغة العلم والعلماء ، واللغة القبطية وهي لغة عامة المصريين . ولم يكن من المعقول أن تستطيع اللغة العربية الدخيلة أن تقضي قضاء تاما مفاجئا على هاتين اللغتين، وإنما عاشت اللغة العربية إلى جانبهما ، الأمر الذي يتضح من دراسة أوراق البردي المعاصرة . ثم كان أن عربت الدواوين في العصر الأموي ، وأصبحت العربية لغة الدواوين والحكومة في مصر ، ، الأمر الذي ساعد على انتشار دائرة اللغة العربية في البلاد(١).

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام ، ص ٢٥٩ .

ومع ذلك فإن القبطية ظلت لغة التخاطب السائدة بين عامة المصريين ، حتى أن الخليفة المأمون عندما زار مصر صحبه جماعة من التراجمة من كل جنس ليكونوا واسطة بينه وبين غالب الناس[١] . ومع انتشار الإسلام ازدادت اللغة العربية انتشاراً، فأخذت اللغة القبطية تنكمش ويقل استعمالها حتى بين الأقباط أنفسهم ، حتى أننا نجد ساويرس اسقف الاشمونيين يكتب كتابه « سير الآباء البطاركة » في أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بالعربية، ويقول في مقدمته ما نصه « فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوان المسيحيين وسألتهم نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذى هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى»[٢] . وكذلك كتب البطرك سعيد بن بطريق كتابه فى التاريخ باللغة العربية فى القرن الرابع مما يدل على أن هذه اللغة أصبحت هى السائدة بين عامة المصريين فى ذلك الوقت[٣] .

وثمة نتيجة هامة لانتشار اللغة العربية هى ظهور ثقافة عربية فى مصر تحل محل الثقافة اليونانية وغيرها من الثقافات القديمة التى وجدت فى هذه البلاد . وحمل البذور الأولى لهذه الثقافة مجموعة من الصحابة، مثل عبادة ابن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص ، الذين وفدوا على مصر وأخذوا ينشرون العلوم الدينية . ولم تلبث أن ازدهرت المدرسة العربية المصرية ، وانجبت بعض الأعلام من المصريين ، مثل أبو عبد الرحمن بن لهيعه المصرى والليث بن سعد المصرى وعبد الله بن وهب المصرى ، وغيرهم من رواد الثقافة العربية فى مصر[٤] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٤ ، المقريزى . الخطط ج ١ ص ٨١ .
(٢) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة (المقدمة) .
(٣) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص : ٣٦ .
(٤) حسين أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية : ١١٥ — ١٢١ .

العرب والأقباط :

ذكر الرواة أن النبي عليه الصلاة والسلام أوصى بقبط مصر خيراً ، وأنه قال لأصحابه « استوصوا بأهل مصر خيراً فإن لهم نسباً وصهراً » ، وأراد بالنسب هاجر زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده اسماعيل ، وأراد بالصهر مارية القبطية زوج النبي وأم ولده، وقد أهداها له المقوقس[1].

وقد لمسنا في كلامنا عن أحداث الفتح العربي لمصر أن العرب حاربوا البيزنطيين ولم يحاربوا المصريين، بل إن أقباط مصر صحبوا عمرو بن العاص في زحفه على الإسكندرية « فخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق . وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم »[2] . وعندما سمع عمرو بن العاص بقصة البطريرق بنيامين الذي فر من وجه المقوقس واختفى سنوات طويلة في الصعيد ، أصدر له أماناً ، فعاد بنيامين بعد غيبة طويلة إلى كرسيه بالإسكندرية حيث استقبل بالحفاوة البالغة ، ومعه عدد كبير ممن كانوا قد اختفوا معه فراراً من إضطهاد البيزنطيين[3].

وفي ظل تسامح العرب شيد الأقباط كنائس عديدة ، وأصلحوا وأعادوا بناء بعض الكنائس التي هدمها البيزنطيون أو أحرقوها ، فضلا عن الأديرة العديدة التي أقيمت في الوجهين البحري والقبلي سواء[4]. هذا إلى ما لجأ إليه العرب من إعفاء رهبان الأديرة من أية جزية أو فدية ، الأمر الذي شجع كثيرين على الانخراط في سلك الحياة الديرية[5] .

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٢ — ٣٣

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، ص ٦٦ .

(٣) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ج ١ ص ٢٣٣

(٤) سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ١٩١ — ١٩٣ .

(٥) Wiet: L'Egypte Arabe, pp. 23-24.

وهكذا نعم الأقباط بحرية واسعة فى ظل الحكم العربى ، فتركوا لهم كثيراً من المناصب ، فكان منهم جباة الضرائب وحكام الكورات . ويحفظ التاريخ أسماء بعضهم مثل أثاسيوس الرهاوى الذى بلغ فى عهد مروان بن الحكم درجة من الرياسة فى دواوين الإسكندرية ، وتلقب فى المكاتبات الرسمية بلقب « الكاتب الأفخم » وكان بديوانه عشرون كاتباً ثم زادوا إلى أربعة وأربعين . ومن الواضح أن كثيراً من المسلمين كانوا يحسدون مثل هذا الذمى على المكانة الرفيعة التى وصل إليها[1] . ويقول توماس أرنولد إن أهل الذمة فى مصر « حددوا قيمة الضرائب التى تجبى على الأرض التى تعطى على سبيل الالتزام ، وجمعوا ثروة ضخمة فى بعض الحالات . ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم ، ونعم القبط فى عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة »[2]

على أن الأمانة التاريخية تتطلب منا أن نذكر أن الأقباط لم يحظوا بتلك المعاملة الكريمة طوال عصر الولاة ، إذ ظهر من خلفاء بنى أمية من تخلوا عن بساطة الإســلام الأولى ، فازدادت مطالبهم ، واشتدت حاجتهم إلى الانفاق ، الأمر الذى جعلهم يطلبون من ولاتهم مزيداً من الأموال . وكان أن لجأ والى مصر عبد العزيز بن مروان إلى فرض جزية على الرهبان لأول مرة . وخلف عبد العزيز فى ولاية مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان فتشدد فى جمع الأموال وألزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار ، كما زاد من الجزية المفروضة على الأقباط ، الأمر الذى جعل بعضهم ينتقلون من منطقة إلى أخرى للتهرب من دفع الجزية[3] . ثم كان

---

(١) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ٥١ — ترجمة حسن حبشى .

(٢) توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ص ١٢٨ .

(٣) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ج ٥ ص ٢٦ .

أن بلغت هذه السياسة التعسفية ذروتها فى ولاية قرة بن شريك ، الذى قال عنه المقريزى أنه « أنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلها »[1]. ذلك أنه بالإضافة إلى حرصه فى طلب المتأخر من الجزية ، فرض على البلاد مائة ألف دينار فوق خراجها المقرر ، الأمر الذى ضاعف من حركة فرار الأهالى من الأقاليم المقيدين بها إلى أقاليم أخرى تهربا من دفع الأموال المفروضة عليهم[2].

على أن الأقباط لم يقفوا موقفاً سلبياً إزاء تطرف بعض الحكام العرب ، فاضطروا إلى الثورة عليهم سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥م) فى الوجه البحرى وسنة ١٢١ هـ (٧٣٩م) فى الصعيد ، وسنة ١٣٢ هـ (٧٤٩م) فى رشيد . وفى كل مرة كان يتم إخماد ثورتهم وتأديب العصاة منهم ، ولكن دون وضع حل للمشكلة المالية[3].

وجدير بالذكر أن هذه الأعباء لم يكن مقصوداً بها الأقباط وحدهم ، وإنما عانى منها كافة أهل مصر ، ومنهم المسلمون والعرب أنفسهم الذين صاروا يملكون أراضى ؛ بدليل إشتراك العرب مع الأقباط فى ثوراتهم ضد الحكام المتعسفين فى جمع الأموال[4].

القبائل العربية فى مصر :

ولا يخفى علينا أن هناك عاملا هاما ساعد على سرعة تعريب مصر من ناحية وسرعة إنتشار الإسلام فيها من ناحية أخرى ، وأعنى بهذا العامل مزوح

(١) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٩٢ .
(٢) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٢٧ .
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٣ — ٧٤ : ٩٤ — ٦٦ : Wiet: op. cit., p. 56-57
(٤) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٢٧ .

كثير من القبائل العربية إلى مصر وإنتشارها بين أرجائها واستقرارها بين ربوعها ، الأمر الذى أدى مع مرور الزمن إلى تطعيم هذه البلاد بدماء جديدة وروح جديدة ، فضلا عن جعل السيادة للسان الجديد والغلبة للعامل الروحى الجديد . وهنا نلاحظ أن هذه الظاهرة — ظاهرة هجرة القبائل العربية إلى مصر للاستقرار بين ربوعها — استغرقت أمداً طويلا ، بلغ نحوا من خمسة قرون ، ظلت قبائل عربية جديدة تنزح طوالها إلى مصر لتسهم بدورها فى تعريب البلاد وصبغها بالصبغة العربية . وساعد على إتمام هذه العملية قدرة المهاجرين العرب على الاندماج فى البيئة الجديدة بسرعة ليس لها مثيل فى التاريخ ، وسهولة طباع المصريين وتقبلهم لتشرب العناصر الجديدة، فضلا عن استعدادهم للاختلاط والأخذ والعطاء .

ومهما يقال عن الصفة العددية للجيش العربى الذى احتل مصر واستقر فيها عقب الفتح ، فإن هذا الجيش كان يمثل نسبة قليلة بالمقارنة إلى أهالى البلاد الأصليين . وقد قدر بعض الباحثين الجيش العربى الذى استقر فى مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفاً من الرجال[١] . وكان من الطبيعى أن لا يأمن هذا العدد الصغير نسبياً على نفسه إذا أقام فى عاصمة البلاد وقت الفتح ، وهى مدينة الاسكندرية التى بلغ سكانها عندئذ عدداً يقرب من ستمائة ألف[٢] . وإذا كانت الاسكندرية أصلح مدينة لتكون عاصمة لمصر فى العصرين اليونانى والرومانى لسهولة اتصالها عن طريق البحر بالعالمين اليونانى والرومانى ، فإن العرب عند استيلائهم على مصر لم يكونوا قوة بحرية ، بل كانوا يتخوفون البحر ويتوقعون فعلا هجوماً منتظراً يقوم به الروم عن طريق البحر لاسترداد مصر . وهى مخزن القمح الكبير الذى

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى الإسلام ، ص ٢٤٠ .

(٢) Diehl: L'Egypte Chrétienne et Byzantine, p. 480 (Hist. Nat. Egypt. Tome 3).

كان لا يمكن أن يسكت الروم عن ضياعه . ولم تلبث أن تحققت مخاوف العرب ، فقام الروم بهجوم كبير على الاسكندرية فى عهـــد الإمبراطور قنسطانز الثانى ، واستهدفت تلك الحملة البحرية الضخمة طرد العرب من مصر تماما[1] .

وإزاء هذا الخطر المباشر ، كان من الطبيعى أن يفكر العرب فى مركز رئيسى لهم بعيد عن البحر من ناحية ، ويتوسط أرض مصر مما يمكنهم من إحكام السيطرة عليها من ناحية أخرى . ومن هنا كان التفكير فى إنشاء مدينة الفسطاط فى ذلك المكان التقليدى الهام بين الوجهين البحرى والقبلى ، وهو المكان الذى شهد منف ورأى حصن بابليون وعرف القاهرة . ولا يعنينا كثيراً الدخول فى مناقشات حول أصل كلمة الفسطاط ، فسواء كان أصل اللفظ يونانى أو لاتينى أو ربما عربى ، فالذى يهمنا هو أن ظاهرة إنشاء المدن كانت دائما أبدا من الظواهر الهامة التى صحبت حركة الفتح العربى فى المشرق والمغرب على السواء .

وكان أن اختط العرب مدينة الفسطاط سنة ٢١ هـ (٦٤٢م) وقسموها إلى خطط عديدة ، سكنت كل خطة منها قبيلة من قبائل العرب . ومن الطبيعى أن يكون إقامة جامع فى هذه المستعمرة العربية الإسلامية أول ما يفكر فيه عمرو بن العاص ، فوضع أساس جامعه العتيق عند تخطيط الفسطاط . وهو أول جامع شهدته أرض مصر فى عصرها الجديد . ولم تلبث أن أخذت الفسطاط تتسع وترقى تدريجياً لتتحول من مدينة بدائية صغيرة إلى حاضرة كبيرة تنبض بالحياة والحركة[2] .

وباستقرار الأمور للعرب فى مصر أخذوا ينتشرون إلى خارج الفسطاط ،

---

(١) Ostrogorsky: Hist. of the Byzantine State, p. 103.

(٢) Wiet: L'Egypte Arabe, pp. 8-9.

فوجدت أعداد كبيرة منهم وبخاصة فى الجيزة والاسكندرية ، وهؤلاء كان معظمهم من عرب الجنوب أو اليمنية .

ومع مضى الوقت أخذت القبائل العربية تنزح إلى أرض مصر فى تيار لم يتوقف ؛ وذلك إما طلباً للعيش أو بتشجيع من بعض الخلفاء والولاة ليسهل تعريب البلاد . ومن ذلك ما يقال أن أحد ولاة مصر استقدم سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ م) إثنى عشر ألفاً من العرب[1] . وهنا نلاحظ أن خلفاء بنى أمية خافوا أن يستبد الجنوبيون بأمر مصر ، فاستكثروا من عرب الشمال ، واستقدموا من قبيلة قيس سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧ م) نحواً من ثلاثة آلاف أسرة استقروا فى منطقة بلبيس[2] .

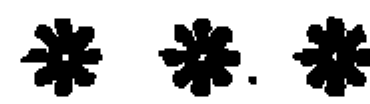
ومن الواضح أن القبائل العربية التى نزحت إلى مصر كانت فى أول الأمر متعالية عن أهل البلاد ، احتكرت لنفسها شرف الخدمة العسكرية ، وارتقاء المناصب الرئيسية فى الدولة . وتمتعت بالحصول على العطاء من بيت المال ، فضلا عن إعفائها من الخراج فى حالة الملكية الزراعية . وجميع هذه الامتيازات جعلت من العرب طبقة ممتازة تفصلها عن عامة أهل البلاد فواصل وحواجز واضحة . ولكن ماكاد ينتهى القرن الأول للهجرة حتى ازداد انتشار العرب فى قرى مصر وتغلغلهم فى صميم بيئتها ، الأمر الذى أدى إلى ذوبان كثير من الحواجز التى كانت تفصل بينهم وبين أهالى البلاد . ولم يلبث أن اشتغل المهاجرون العرب بالزراعة فى الوقت الذى ازداد انتشار الإسلام بين أقباط مصر . مما جعل الاختلاط الجنسى والتزاوج بين الطرفين يؤدى إلى بداية تكوين شعب مصر العربية الاسلامية .

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ١١٠ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٦ - ٧٧ .

وإذا كان العصر العباسى شهد استمرار هجرة بعض القبائل إلى مصر — مثل بنى كنز — فإن ذلك العصر بالذات شهد حرمان العرب من كثير من امتيازاتهم العسكرية والإدارية والمالية ، الأمر الذى أدى إلى عدة ثورات من جانب العرب فى مصر لرغبتهم فى عدم أداء الخراج[1] . وجدير بالذكر أن الأقباط شاركوا العرب فى بعض هذه الثورات ، مما جعل وحدة المصلحة تضيف رباطاً جديداً يؤلف بين الطرفين .



---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ١٢ ، ١٨٥ ، ١٩٠ .

الفصل الثالث

مصر وأحداث الدولة الاسلامية

لم تمض سنوات قليلة على الفتح العربى لمصر ، حتى ظهر من خلال الأحداث أن مصر غدت فعلا جزءاً أساسياً من أجزاء الدولة العربية الجديدة: ينفعل أهلها لما ينفعل به أهل الدولة العربية الكبرى من أحداث ، وينهضون بدورهم كاملا فى تحمل المسئوليات الكبرى — الحربية والسياسية والحضارية — التى واجهت الدولة العربية الإسلامية . ذلك أن تلك الدولة ما كادت تنطلق خارج حدود شبه الجزيرة العربية وتصل إلى سواحل البحر المتوسط من ناحية وهضبة إيران وجبال القوقاز من ناحية أخرى ؛ إلا وأخذت تموج بعديد من الحركات السياسية والدينية التى قد يتحول بعضها إلى مشاكل من ذلك النوع الذى تواجهه كل دولة فى فجر تاريخها . وفى جميع هذه المشاكل صار لمصر ولأهل مصر صوت مسموع ونصيب مرموق، مما يدل على أن مصر اندمجت فعلا فى دائرة الدولة الجديدة وأسهمت فى حل مشاكلها، بل ربما أسهمت أحياناً فى إثارة بعض هذه المشاكل. وسنعرض فيما يلى لبعض الحركات والأحداث والتيارات السياسية والدينية التى ظهرت فى الدولة الإسلامية ونصيب مصر فى هذه الحركات .

الفتنة ضد عثمان :

تجمعت عدة عوامل لإثارة الفتنة ضد عثمان بن عفان — ثالث الخلفاء الراشدين — منها أنه سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك

الثروات فيها واقتناء « الضياع والدور[1] » ، فى وقت كان المسلمون قريبى عهد بتقشف الرسول (ص) وبساطة أبى بكر وتشدد عمر . ومنها استياء كثيرين — وبخاصة من عرب الجنوب — من تسلط قريش ، فاعتبروها مغتصبة لحقوقهم وتمنوا الخلاص من سيادتها وحكومتها . وأنفت بعض القبائل العربية ، مثـــل بنى بكر ووائل وعبد القيس وربيعة من الخضوع لقريش[2] . ووسط هذه التيارات المتضاربة ظهر اتجاه يستهدف الكيد للإسلام والنيل منه باضرام نار الفتنة فى جوف الدولة الإسلامية ، وربما اتخذ هذا الاتجاه ستارا شيعيا يتظاهر بمساندة حق على بن أبى طالب فى الخلافة ، ولكنه فى حقيقة الأمر لا يبغى إلا إثارة الفتنة وهدم البناء الكبير الذى شيده المسلمون فى مدى قصير لا نظير له فى التاريخ[3] . وهنا يقفز إسم رجل من أهل صنعاء باليمن ، هو عبد الله بن سبأ الذى كان يهوديا فأسلم ، ثم استغل ذكاءه فى الكيد للدولة الإسلامية الناشئة وإثارة الفتنة فى جوفها بغية هدمها . وكان أن تظاهر ذلك اليهودى الذى اعتنق الإسلام بالتشيع لعلى بن أبى طالب ، وأخذ يستميل بعض كبار الصحابة إلى جانبه ، وخاصة بعد أن استقر له المقام فى مصر عقب أن طاف بالحجاز والبصرة والكوفة والشام . وكان ابن سبأ يحاول بذر بذور الفتنة فى كل مركز من هذه المراكز حتى يكتشف أمره ويطرد ، فينتقل إلى المركز التالى[4] .

وفى مصر بالذات وجد ابن سبأ عوامل كثيرة مساعدة أدت إلى استياء الناس من عثمان ، وقريبه عبد الله بن سعد بن أبى سرح عامله على مصر . وقد استغل عبد الله بن سبأ فرصة انشغال عبد الله بن سعد بن أبى سرح بحروبه

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ح ١ ص ٤٣٤ ؛ الطبرى ٢٤ ص ٨٠٦ .
(٢) ابن خلدون : العبر ؛ ج ٢ ص ١٣٨ .
(٣) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ؛ ص ١١٥ .
(٤) الطبرى : ج ٥ ص ٦٦ .

الخارجية فى النوبة وإفريقية، فضلا عن الحرب البحرية ضد الروم ، وأخذ يحكم خطته لتوحيد برنامج العمل بين أهل مصر والبصرة والكوفة ، بحيث كانت الزعامة فى تلك الحركة لأهل مصر . وتم الإتفاق على أن يخرج من كل قطر من هذه الأقطار وفد كبير على أن تتلاقى هذه الوفود فى المدينة .

وفى تلك الأثناء كان أهل مصر قد انتهزوا فرصة سفر عبد الله بن سعد بن أبى سرح من مصر (سنة ٣٥ هـ = ٦٥٥ م) لمقابلة الخليفة عثمان فى المدينة ، وأعلنوا الثورة وطردوا خليفة ابن أبى سرح من الفسطاط . وعندما سمع الخليفة عثمان بذلك حاول علاج الموقف علاجا هادئا، فأرسل سعد بن أبى وقاص لمحاولة تهدئة المصريين . ولكن أهل مصر رفضوا السماح له بدخول البلاد، وكذلك فعلوا مع عبد الله بن سعد بن أبى سرح نفسه ؛ وبادروا بإرسال وفدهم إلى المدينة لمقابلة بقية الوفود الممثلة للثورة ضد الخليفة[1] . ويقال أن الخليفة عثمان أحسن مقابلة وفد مصر ، وأجاب الوفد إلى مطالبه ؛ فشرع أهل مصر فى العودة إلى بلادهم . ولكن حدث أثناء طريقهم إلى مصر أن اشتبهوا فى شخص يتعرض لهم تارة ويفارقهم أخرى ؛ ففتشوه فإذا هو يحمل كتابا عن لسان عثمان وعليه خاتمه إلى عامله على مصر، يأمره بقتل ذلك النفر وصلبهم . وكان أن عاد أعضاء الوفد مرة أخرى إلى المدينة وواجهوا عثمان بكتابه ، فأنكره وأقسم على أنه برىء منه . ولما تبين لهم أن الذى بعث بالخطاب المذكور هو مروان بن عبد الحكم طلبوا من عثمان أن يسلمهم مروان ليقتلوه ، فأبى عثمان ذلك . وهكذا انتهى الأمر بمحاصرة عثمان فى داره اثنين وعشرين يوما ، حتى اقتحموا داره وقتلوه سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) فكانت هذه أول فتنة ، أو الفتنة الكبرى فى الإسلام[2] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥ — ١٧ .
(٢) ابن الأثير: الكامل ، ٣ ص ٧٥ .

وبعد مقتل عثمان ، عاد وفد مصر إلى بلاده. ويبدو أنهم أحسوا بسوء فعلهم وخشوا عاقبة غدرهم ، فنادوا عند دخولهم المسجد العتيق بالفسطاط « إنا لسنا قتلة عثمان ولكن الله قتله[1] ! »

النزاع بين علي ومعاوية :

على أن مقتل ثالث الخلفاء الراشدين على تلك الصورة كان له رد فعل عميق في العالم الإسلامي ، إذ اشتد الخلاف بين علي بن أبي طالب الذي بويع بالخلافة بعد مقتل عثمان ، وبين معاوية بن أبي سفيان والي بلاد الشام من قبل عثمان بن عفان . ويعنينا من أمر هذا النزاع المتداخل الحلقات أنه أدى إلى نوع من الفوضى والنزاع في مصر ، فاغتصب محمد بن أبي حذيفة ولاية مصر لنفسه «وملكها من غير ولاية من خليفة[2] » ، في الوقت الذي اشتد القتال في البلاد بين شيعة عثمان المطالبين بدمه وشيعة علي بن أبي طالب .

وظهر من القتال الذي شهدته مصر في تلك الآونة بين شيعة عثمان وشيعة علي ، أن النصر كان في جانب الفريق الأول ، الأمر الذي شجع معاوية بن أبي سفيان على القدوم إلى مصر (سنة ٣٦ هـ = ٦٥٦م) . وعندما تصدى محمد بن أبي حذيفة لمعاوية ومنعه من دخول مصر ، لم يلجأ معاوية إلى استخدام العنف لشق طريقه داخل البلاد ، وإنما نادى بأنه حضر للانتقام من قتلة عثمان وعلى رأسهم عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر ، اللذين تزعما الوفد المصري الذي قتل عثمان في المدينة. وفي الوقت نفسه استعمل معاوية

---

(١) المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٩٤ .

مهارته السياسية فى القضاء على الحزب العلوى فى مصر، وعلى رأسه ابن أبى حذيفة نفسه الذى قتل بعد قليل[1].

ولما علم على بن أبى طالب بمقتل ابن أبى حذيفة، عين بدله فى ولاية مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى «وكان عنده رأى ومعرفة ودهاء» فاستمال شيعة عثمان فى مصر «ورد عليهم أرزاقهم، وقدموا عليه بمصر فأكرمهم وأنعم عليهم». ولم يرض معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص عن ذلك الوضع «واجتهدا كثيراً ليخرجاه منها فلم يقدرا على ذلك»، فدبرا حيلة للايقاع بين على بن أبى طالب وقيس. ونجحت الحيلة، وتم عزل قيس عن ولاية مصر ليحل محله الأشتر النخعى والياً على مصر من قبل على ابن أبى طالب. وكان الأشتر من كبار القواد المشهود لهم بالشجاعة والبأس، فتخوف معاوية من تعيينه والياً على مصر «وعظم ذلك لديه»، فدبر مؤامرة لقتله على حدود مصر، ونجحت المؤامرة، إذ مات مسموماً عند القلزم[2].

وقد وصفت المراجع محمد بن أبى بكر، الذى ولى مصر (سنة ٣٧هـ = ٦٥٧ م) بأنه كان سىء التدبير، «ففتك فى المصريين وهدم دور شيعة عثمان بن عفان ونهب دورهم وأموالهم وهتك ذراريهم» وكان أن استغل معاوية ابن أبى سفيان حالة الفوضى التى وقعت فيها مصر وأرسل جيشاً (سنة ٣٨ هـ - ٦٥٨ م) بقيادة عمرو بن العاص، وانتهى الأمر بهزيمة محمد بن أبى بكر ومقتله[3].

ومنذ ذلك الوقت انتهى حكم الخلفاء الراشدين فى مصر، وصارت مصر

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ١٢٤ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٥ .

(٣) المقريزى : المواعظ ؛ ج ٢ ص ٢٢٧ .

ولاية تابعة للدولة الأموية، وعاد عمرو بن العاص والياً عليها مرة أخرى ؛ ولكن كان فى هذه المرة من قبل معاوية بن أبى سفيان .

مصر وحركة ابن الزبير :

صحب قيام الدولة الأموية انقسام المسلمين إلى ثلاثة أحزاب كبرى هى شيعة بنى أمية ومعظمهم من أهل مصر والشام ، وشيعة على بن أبى طالب ومعظمهم ببلاد العراق وقليل منهم بمصر، ثم الخوارج الذين خرجوا على الفريقين واستحلوا دماءهم جميعاً ونادوا بأن الخلافة حق لكل مسلم مستوفى شروطها دون التقيد بقرشى أو غير قرشى .

وقد حدث أن خرج عبد الله بن الزبير عن طاعة الأمويين ، ودعا لنفسه بالخلافة فى المدينة (سنة ٦١ هـ = ٦٨٠ م) ، فبايعه بعض أهالى الأمصار الإسلامية ومنهم أهل مصر . ويبدو أن الخوارج بمصر ظنوا أن ابن الزبير يؤيدهم فى مذهبهم ، فأرسلوا إليه وفداً يعلن تأييدهم له ويطلب منه تعيين رجل من قبله ليحكم مصر . وكان أن استجاب ابن الزبير لدعوة أهل مصر ، وأرسل إليهم عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهرى لينوب عنه فى حكمها (سنة ٦٤ هـ = ٦٨٣ م)[1] .

ولكن الخليفة الأموى مروان بن الحكم لم يرض عن ضياع مصر من قبضة الخلافة الأموية ، فأرسل إليها جيشاً بقيادة ابنه عبد العزيز لطرد عبد الرحمن بن جحدم عامل عبد الله بن الزبير . ولم يستسلم ابن جحدم فى سهولة، وإنما حفر خندقاً حول الفسطاط ، وأرسل الجيوش والمراكب لقتال مروان وابنه عبد العزيز . ومع ذلك فقد انتصرت جيوش مروان ، الذى حضر

(١) الكندى : الولاة والقضاة؛ ص ٤٠ وما بعدها .

بنفسه إلى مصر وأنزل الهزيمة بابن جحدم فى عين شمس ، ثم دخل الفسطاط (سنة ٦٥ هـ = ٦٨٤ م) وبنى بها الدار البيضاء لتكون مقراً له . وكان أن بايع الناس الخليفة مروان ، ماعدا ثمانين رجلا تمسكوا ببيعة ابن الزبير فقتلهم[1] . وبعد أن أقام مروان شهرين فى مصر ، غادرها إلى الشام بعد أن ولى عليها ابنه عبد العزيز .

صدى النزاع بين اليمنية والمضرية :

وثمة عامل هام من عوامل ضعف الدولة الأموية ، ترك أثراً خطيراً فى أحوال مصر فى ذلك العصر ، هو ظهور روح العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب — أو بين مضر واليمن — وتحولت هذه الروح إلى عداء سافر خطير . وقد اشتدت هذه الفتنة فى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك ؛ إذ ثار ضده يزيد بن المهلب وهو من عرب الجنوب ، فأدى تطرف الخليفة فى قمع حركته إلى إستثارة العنصر اليمنى[2] . ومنذ ذلك الوقت ومشكلة العداء بين المضرية (أو القيسية) واليمنية فى تفاقم مستمر ، حتى ولى الخلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فى المشرق ، فتطرف فى محالفة المضرية ضد اليمنية ، الأمر الذى أثار اليمنيين فى مصر . وعندما استقال حفص بن الوليد الحضرمى والى مصر ، عين مروان بن محمد بدله حسان بن عتاهية ، فبدأ الوالى الجديد بحل الفرق التى كان حفص بن الوليد قد جندها ، الأمر الذى أثار رجال تلك الفرق[3] .

ولم يلبث أن ثار اليمنية فى مصر وحاصروا دار حسان بن محمد ، فاضطر

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ : الكندى ، الولاة والقضاة ص ٤٠ — ٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٣ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٨٥ .

إلى الفرار إلى الشام بعد أن لبث في ولايته أياما معدودة . ولم يكتف الثائرون بذلك ، بل عينوا حفص بن الوليد والياً عليهم على كره من الخليفة مروان بن محمد . وعندما عين الخليفة حنظلة بن صفوان الكلبي والياً على مصر ، رفضه المصريون وحاربوا حنظلة وأخرجوه ، وظل حفص بن الوليد والياً على مصر رغم أنف الخليفة طوال سنة ١٢٧ وبعضاً من سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ — ٧٤٦ م) ، الأمر الذى يدل على مدى اضطراب الأحوال فى مصر ومدى الاستهانة بكلمة الخليفة الأموى .

ولم يستطع مروان بن محمد التغلب على الموقف العدائى الذى اتخذه المصريون منه إلا بعد أن أرسل جيشاً كبيراً بقيادة حوثرة بن سهيل الباهلى الذى ولاه على مصر ، وتمكن حوثرة بفضل جيشه القوى من القبض على اليمنية فى البلاد — وعلى رأسهم حفص بن الوليد نفسه — وقتلهم جميعاً (سنة ١٢٨ هـ = ٧٤٦ م)[1] . ويروى أبو المحاسن أن حوثرة « بعث فى طلب رؤساء مصر فجمعوا له ، فضرب أعناقهم وفيهم رجاء بن الأشيم الحميرى من كبار المصريين »[2] .

ويثبت التاريخ دائماً أنه إذا نجح العنف فى خلق جو من الهدوء ، فإنه هدوءاً يخفى تحته ناراً تضطرم . ولم يلبث المصريون واليمنيون أن عبروا عن استيائهم من الخليفة مروان بن محمد عندما فر الأخير إلى مصر من وجه أعدائه بنى العباس .

مصر بين الأمويين والعباسيين :

إذا كان معاوية بن أبى سفيان قد نجح فى انتزاع الخلافة من على بن أبى

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٨٨ ومابعدها .
(٢) ابو المحاسن : النجوم ص ٢٠٤ .

طالب ووضع دعائم الخلافة الأموية فى دمشق ، لتحكم سيطرتها على العالم الإسلامى من المحيط إلى الخليج ، فليس معنى ذلك أن الأمور سارت فى هدوء بالنسبة الأمويين . ذلك أن موقف بنى أمية من على بن أبى طالب وذريته ، وما اتصف به هذا الموقف من خداع وبعد عن مبادىء الأخلاق حيناً أو عنف وقسوة بلغت حد الوحشية أحياناً ؛ كل ذلك أثار شعور العطف بين كثير من المسلمين على العلويين ، وهو الشعور الذى لم يلبث أن تحول إلى حركة ضخمة زلزلت قواعد الخلافة الأموية وأصابتها بهزات متوالية عرضت بناءها الكبير للتصدع السريع . ولم تكن حركة التشيع لآل على هى الحركة الوحيدة التى أخذت تنخر فى جسم الدولة الأموية ، وإنما اشتد ساعد الخوارج منادين بتجريد قريش من امتيازاتها السياسية وحرمانها من الاستئثار بشرف الخلافة ، فضلا عن استياء الموالى لأن الخلفاء الأمويين لم يساووا بينهم وبين العرب وفقاً لشريعة الإسلام ، وميزوا العرب عليهم فى الحقوق والواجبات .

وهكذا أخذت عوامل الضعف تتجمع لتنخر فى جسم الدولة الأموية ، وزاد من وقع هذه العوامل انقسام البيت الأموى على نفسه منذ عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٦هـ = ٧٢٣ — ٧٤٤ م) ، وهو الانقسام الذى أتاح للعوامل السابقة فرصة الظهور والعمل[1] . وهنا استغل بنو العباس — عم الرسول صلى الله عليه وسلم — تلك الأوضاع للدعاية لأنفسهم ، فاستفادوا من نقمة الموالى من جهة وحنق الشيعة من جهة أخرى ، وأخذوا يدعون إلى بنى هاشم بوجه عام ، أو على وجه التحديد إلى « الرضا من آل محمد » الأمر الذى جعل الشيعة يظنون أن الدعوة لآل على بن أبى طالب ، دون أن يفطنوا إلى أن بنى العباس هم أيضاً من آل محمد ومن بنى هاشم .

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٢ — ١٣١ .

وكان أن انتشر دعاة العباسيين يعملون سراً فى كثير من أمصار الدولة الإسلامية، ومنها مصر . ويروى أبو المحاسن أن الخليفة الأموى هشام ابن عبد الملك عزل عامله على مصر — وهو عبد الرحمن بن خالد — لأن «دعاة بنى العباس أرسلوا إليه سراً فأكرمهم ووعدهم، فبلغ ذلك هشاما فعزله»[1].

وإذا كانت مصادر التاريخ لا تمدنا بقدر كاف من المعلومات عن دور مصر فى الأحداث التى صحبت الدعوة للعباسيين ، فإننا من جانبنا لا نميل إلى المبالغة فى تقدير ذلك الدور . ذلك أن الدعوة لبنى العباس اتخذت مراكزها الأساسية فى الشرق ، وخاصة فى إقليم خراسان بالذات. ومن هناك اندلعت الثورة التى عصفت بالدولة الأموية فى المشرق سنة ١٣٢ هـ (= ٧٤٩ م) .

ولما حلت الهزيمة بمروان بن محمد — آخر الخلفاء الأمويين — فى موقعة الزاب الأصغر بالعراق ، فر مروان إلى الموصل ثم إلى حران وفلسطين حيث توالت عليه الهزائم ، فلم يجد أمامه سوى مصر . وكان أن دخل مروان بن محمد الفسطاط ، ولكن العباسيين لاحقوه إلى مصر . ويبدو أن مروان بن محمد وضع خطة تستهدف عدم تمكين العباسيين من عبور النيل من ناحية ومن الاستفادة من المدن الكبرى من ناحية أخرى ، فأمر باحراق كافة السفن فى النيل ، كما أمر بإحراق كافة المدن الكبرى الواقعة على الضفة الشرقية وعلى رأسها الفسطاط[2] . وهنا ارتكب مروان بن محمد خطأ كبيراً لأنه لم يحاول اكتساب أهل مصر — وخاصة من الأقباط الذين مازالوا عندئذ يكونون نسبة لا بأس بها من السكان — بل على العكس لقد استثارهم وقبض على بطركهم أنبا ميخائيل وزج به مع عدد كبير من القساوسة فى السجن ، الأمر الذى جعل الأقباط يرحبون بالعباسيين . ويرشدونهم إلى مسالك البلاد[3] . وهكذا وجد القائد العباسى صالح بن على حليفا فى

(١) ابو المحاسن : النجوم ، ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ص ١٦٧ وما بعدها .

(٣) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ١٦٠ : ١٧٣ .

المصريين ، فطارد مروان بن محمد حتى لحق به فى قرية بوصير من أعمال الفيوم ، وهناك هجم جند العباسيين على عسكره ، وضربوا الطبول وكبروا منادين « يالثارات إبراهيم » يعنون إبراهيم الإمام الذى سمه الأمويون فى حران. وانتهى الأمر بقتل مروان فى ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ (= ٧٤٩م) ، وبذلك شهدت أرض مصر مصرع آخر الخلفاء الأمويين فى المشرق[1]. وكان أن أظهر العباسيون مرونة فى معاملة أقباط مصر، فأفرجوا عن البطرك السجين ، وتعهدوا له بحماية ممتلكات الكنيسة ومصالحها الحيوية فى البلاد، وخففوا الخراج عن الأقباط بوجه عام[2] .

وإذا كانت مصر قد أصبحت ولاية عباسية منذ أوائل سنة ١٣٣ هـ (= ٧٥٠ م) ، فإنه ليس معنى ذلك أن الأحوال هدأت فى مصر فى العصر العباسى . ذلك أن أبناء البيت الأموى لم يرضوا بزوال ملكهم ، فاستمر من قدر له البقاء والحياة منهم يثيرون المتاعب فى مختلف الأمصار ضد الحكم العباسى الجديد . من ذلك أن أحد أبناء البيت الأموى — واسمه دحية ابن مصعب بن الأصبغ — خرج فى مصر على الخلافة العباسية فى عهد الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩هـ) ، واتخذ الصعيد مركزاً لنشاطه حتى صار معظم الوجه القبلى فى قبضته ، الأمر الذى أفزع الخلافة العباسية وهدد بخروج مصر كلها من قبضتها . لذلك اهتم العباسيون بأمر هذا الخطر ، وأرسلوا الجيوش والولاة لمكافحته ، فاضطر دحية إلى الإلتجاء إلى الواحات حيث انتهى الأمر بأسره وضرب عنقه فى الفسطاط (سنة ١٦٩هـ = ٧٨٥م) ثم أرسل رأسه إلى الخليفة الهادى العباسى[3] . ولم يجرؤ أحد من أنصار

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج ٢ ص ١٨ — ١٩ (الطبعة الخامسة) .

(٢) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ١٤٨ .

(٣) ابو المحاسن : النجوم : ٢ ص ٦٠ — ٦١ ؛ الكندى الولاة ص ١٢٩ — ١٤٠

البيت الأموى أن يرفع رسه فى مصر ، وربما عبروا عن كرههم للعباسيين عن طريق مساندة الحركة العلوية .

العلويون فى مصر والخلافة العباسية :

أدرك العلويون أن بنى العباس خدعوهم عندما جعلوا شعار الدعوة ضد الأمويين « الرضا من آل محمد » ؛ ولكن العلويين لم يكتشفوا الخديعة إلا بعد فوات الأوان، وصار عليهم أن يتعرضوا لموجة من الاضطهاد على أيدى العباسيين لا تقل عما تعرضوا له على أيدى الأمويين .

ومن ناحية أخرى فإن العلويين لم يستسلموا للخديعة التى تعرضوا لها . وإنما ناصبوا الدولة العباسية العداء ، وبثوا الدعاة فى مختلف الأمصار ينشرون الدعوة لآل على بن أبى طالب ويجمعون الأنصار ويهيئون الأذهان والقلوب لانتفاضة كبرى ضد الخلافة العباسية .

وكان أول الخارجين من العلويين ضد الخلافة العباسية هو محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، وأخوه ابراهيم . وقد اتخذ محمد المدينة المنورة مركزاً لدعوته ووجد من أهل الحجاز تأييداً قوياً له ، فى حين أرسل أخاه ابراهيم إلى البصرة لنشر الدعوة بالعراق[1] . ولا تعنينا فى هذا المقام تفاصيل تلك الثورة ، إذ انتهى أمر محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم إلى القتل سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) واجتزت رأسيهما ، مما أضاف فضلا جديداً إلى مأساة العلويين[2] . وإنما الذى يعنينا هو أن على بن محمد النفس الزكية قدم إلى مصر قبل مقتل أبيه وعمه بمدة وجيزة لنشر الدعوة لهما . وكان الوالى على مصر وقتئذ من قبل الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور هو حميد بن قحطبة (١٤٣ — ١٤٤ هـ = ٧٦٠ — ٧٦١ م) الذى اتهمه

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٧ — ٢٤٠ .

(٢) اليعقوبى : ج ٢ ص ١٥٠ — ١٥٦ .

الخليفة بالتقاعس عن مطاردة على بن محمد ، فعزله من ولاية مصر وعين بدله يزيد بن حاتم (١٤٤ – ١٥٢ هـ = ٧٦١ – ٧٦٩ م) . وقد بادر يزيد بن حاتم بمنع « أهل مصر من الحج » سنة ١٤٥ هـ = ٧٦٢ م حتى لا يتأثروا بثورة محمد النفس الزكية فى الحجاز . فلما قتل محمد النفس الزكية وأخوه ابراهيم « أذن لهم فى الحج »[١] . أما على بن محمد النفس الزكية فقد انتهى أمره نهاية صامتة ، وتضاربت الأقوال حول نهايته[٢] . على أن الأمر الجدير بالذكر فعلا هو أن بعض أفراد البيت الأموى الذين كانوا بمصر انتهزوا الفرصة وأسرعوا إلى مبايعة على بن محمد النفس الزكية . ومن هؤلاء مصعب ومنصور وزيد أبناء الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان[٣].

ولم تكن ثورة محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم سوى الحلقة الأولى فى سلسلة من ثورات العلويين التى شهدها العصر العباسى . ففى سنة ١٦٩ هـ أى فى عهد الخليفة الهادى العباسى ، خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ودعا إلى نفسه بالمدينة ، ولكن العباسيين قضوا عليه فى موقعة فخ الشهيرة . وكان ممن يؤيده فى حركته يحيى وإدريس ابنا عبدالله بن الحسن . وهما إخوة محمد النفس الزكية ، ففر يحيى عقب موقعة فخ إلى بلاد الديلم فى حين فر إدريس إلى مصر فى طريقه إلى بلاد المغرب. وكان الوالى على مصر من قبل الخليفة هارون الرشيد وقت مجىء إدريس إليها هو على بن سليمان (١٦٩ – ١٧١ هـ = ٧٨٥ – ٧٨٧ م) ، ويقال إنه علم بقدوم إدريس إلى مصر ولكنه تستر عليه . وظل إدريس مختفياً بمصر إلى أن حمله واضح المنصورى صاحب البريد إلى المغرب حيث أسس دولة الأدارسة[٤] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢ .
(٢) الكندى : الولاة ص ١١٥ .
(٣) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٥٣
(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٢ ص ٤٠ — ٤١ .

ويبدو أن كثيراً من العلويين اختاروا الفرار إلى مصر هرباً من مطاردة العباسيين لهم . وممن أتى إلى مصر في ذلك العهد السيدة نفيسة رضي الله عنها بنت الحسن بن زيد ، وقد أتت مع زوجها من المدينة إلى مصر هاربين من اضطهاد العباسيين ، وقيل أنها كانت فيمن صلى على الإمام الشافعي عند موته سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ، وتوفيت في شهر رمضان سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٣ م) ، وقبرها اليوم من المقابر الشهيرة بالقاهرة[1] . وربما أحس العلويون في مصر بنوع من الاطمئنان لبعدهم عن مركز الخلافة العباسية في بغداد ، حتى كان عهد الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ = ٨٤٦ — ٨٦١ م) فأمر عامله على مصر — إسحاق بن يحيى — بإخراج آل علي بن أبي طالب من مصر ، فأخرجوا من الفسطاط إلى العراق ومنها إلى المدينة المنورة سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م)[2] .

وإذا كان قد بقي بمصر بعد ذلك بعض العلويين ، فهؤلاء تعرضوا للاضطهاد الشديد في عهد المتوكل ثم ابنه الخليفة المنتصر ، حتى أن والي مصر يزيد بن عبد الله تتبعهم « وأبادهم وعاقبهم وامتحنهم وقمع أكابرهم وحمل منهم جماعة إلى العراق على أقبح وجه »[3] .

وقد أرسل الخليفة المنتصر العباسي إلى يزيد بن عبد الله بمصر يأمره « بألا يسمح لعلوي بركوب فرس ولا امتلاك أكثر من عبد واحد وأنه إذا اختصم إليه أحد الطالبيين وفرد من سائر الناس يرفض قول الطالبي ويقبل قول خصمه دون أن يطالبه بينة[4] » .

---

(١) المقريزي : المواعظ ج ٢ ص ٤٤٠ — ٤٤١ . سيدة إسماعيل كاشف : مصر في فجر الإسلام ص ١٥٥ .

(٢) الكندي : الولاة . ص ١٩٨ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ، ص ٢٠٩ .

(٤) المقريزي : مواعظ ج ٢ ص ٣٣٩ .

ولكن على الرغم مما تعرض له العلويون فى مصر من أذى وامتهان ، إلا أن اضطراب أحوال الخلافة العباسية منذ منتصف القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة ، أدى إلى خلل الأحوال فى الأقاليم ، الأمر الذى أتاح الفرصة للعلويين — فى مصر وغير مصر — لرفع رءوسهم ضد الخلافة العباسية[1] . وقد حدث فى خلافة المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ = ٨٦٦ — ٨٦٩ م) أن ثار بالإسكندرية رجل إسمه جابر ابن الوليد المدلجى سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) ، وبلغ من خطورة ثورته أنه استطاع أن يبسط نفوذه على كثير من بلاد الوجه البحرى . وهنا انتهز العلويون فى مصر الفرصة ، فانضم إلى تلك الثورة أحدهم وهو عبد الله بن أحمد المعروف بابن الأرقط . ولكن الخليفة المعتز عندما لمس عجز واليه يزيد بن عبد الله عن إخماد تلك الثورة أرسل جيشا كبيرا بقيادة مزاحم بن خاقان الذى استطاع إنزال الهزيمة بجيوش جابر بن الوليد والقبض على ابن الأرقط وإرساله إلى العراق . وبعد ذلك ولى الخليفة مزاحم بن خاقان على مصر ، فتعسف فى معاملة الأهالى « وشدد على الناس حتى أبادهم » . ويبدو أن مصر شهدت فى ذلك الدور حركات كثيرة ضد سلطة الخلافة العباسية ، بدليل ما يشير إليه أبو المحاسن من « خروج جماعة كبيرة من المصريين » ومن أن مزاحم بن خاقان « كثر إيقاعه بسكان النواحى » فلم يقتصر الأمر على مقاتلة أهل الحوف وأهل تروجه وإنما قاتل أيضاً أهل الفيوم وغير ذلك من الجهات[2] .

وهكذا ظل العلويون وراء كثير من الحركات التى ظهرت فى مصر منذ عهد الخليفة المتوكل العباسى . ولم تهدأ هذه الحركات إلا بقيام الدولة الفاطمية فى مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) وهى الدولة التى جاء قيامها انتصاراً للعلويين .

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام : ص ١٥٧ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ص ٣٣٢ .

وشفاء لقلوبهم بعد قرون طويلة تعرضوا فيها لعسف الأمويين من جهة ثم العباسيين من جهة أخرى .

صدى النزاع بين الأمين والمأمون :

شهدت الدولة العباسية بين سنتى (١٩٣ ، ١٩٨ هـ = ٨٠٨ ، ٨١٣ م) فتنة خطيرة بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون ، وذلك حين عزم الأمين على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد. وكان أبوهما هارون الرشيد قدأخذ البيعة من بعده لأبنه الأمين ثم المأمون ، ولكن الأمين ماكاد يلى الخلافة حتى عزم على خلع أخيه المأمون ، وجعل ولاية العهد لابنه موسى[١] .

ولا يعنينا فى هذا الصدد الحروب الطويلة التى قامت بين الأمين والمأمون ، والتى انتهت سنة ١٩٨هـ (٨١٣ م) بقتل الأمين وانتقال الخلافة إلى المأمون ؛ وإنما يكفى أن نشير إلى حقيقتين هامتين الأولى هى أن الفتنة بين الأمين والمأمون هى فى حقيقة الأمر نزاع حزبى بين الفرس وهم أنصار المأمون ، وبين العرب أنصار الأمين، وكان وراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسى ، فى حين وقف خلف الأمين الفضل بن الربيع وهو عربى[٢] . والحقيقة الثانية هى أن تلك الفتنة تركت أثراً سيئاً فى ولايات الدولة وأثارت نوعا من الفوضى فى مختلف ربوعها ، وأتاحت فرصة للعناصر الناقمة على العباسيين — مثل الأمويين والعلويين جميعا — للثورة ، بل لقد امتد الإنقسام بين حزبى الأمين والمأمون إلى كثير من الولايات ، مما أوجد حالة خطيرة فى بعض الولايات التابعة للخلافة العباسية .

وكانت مصر من البلاد التى تأثرت تأثراً واضحا بتلك الحالة التى نجمت

(١) الطبرى : ١٠ ص ١٢٤ — ١٣٨ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ١٨٠ .

عن النزاع بين الأمين والمأمون، فظهر فيها حزبان كبيران، حزب يناصر الأمين وحزب يؤيد المأمون. فلم يكد أهل مصر يسمعون أن الأمين خلع أخاه المأمون من ولاية العهد. حتى غضب فريق من الجند بزعامة السرى بن الحكم ابن يوسف ونادوا بخلع الخليفة الأمين[1]. ومن ناحيه أخرى فإن المأمون حرص على أن يكتسب أنصارا لنفسه فى مصر، فأرسل إلى أعيان البلاد ووجوه القوم يدعوهم لمناصرته، فأجابه كثيرون. وهكذا انتهى الأمر بخلع الأمين فى مصر سنة ١٩٦هـ (٨١١ م) فطرد عامله على البلاد جابر بن الأشعث وحل محله من قبل المأمون عباد بن محمد.

وكان ضياع مصر من قبضة الأمين خسارة كبرى. ولما كان الموقف لا يسمح بإرسال جيش إلى مصر فى الوقت الذى كان الأمين فى حاجة إلى تعبئة قواه للمعركة الفاصلة ضد أخيه المأمون: لذلك لجأ الأمين إلى الحيلة فأرسل إلى ربيعة بن قيس زعيم قبيلة قيس بالحوف كتابا بتعيينه واليا على مصر، كما أرسل إلى فريق من وجوه البلاد يستميلهم إليه، فأجابوه. وكان أن سار هؤلاء لمهاجمة عباد بن محمد الذى كان قد حفر خندقا حول الفسطاط لحمايتها من السقوط فى أيدى المهاجمين. وقد طال القتال بين الفريقين حول هذا الخندق دون أن يستطيع أى فريق الانتصار على الآخر. وبينما الموقف على ذلك الوضع إذا بالأخبار تأتى إلى مصر بمقتل الأمين وقيام المأمون فى الخلافة، فانسحب أهل الحوف، وعين المأمون المطلب بن عبد الله الخزاعى واليا على مصر بدلا من عباد بن محمد[2].

على أن الأمور لم تستقر فى مصر بتلك السرعة، إذ طمع أحد رجال عباد بن محمد — وهو عبد العزيز الجروى — فى ولاية مصر. وفى الوقت

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة، ص ١٤٧ — ١٤٨.

(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص ١٤٩ — ١٥٢.

نفسه عزل المأمون المطلب بن عبد الله عن ولاية مصر بعد بضعة أشهر من تعيينه ، ولكن الجند تمسكوا به وولوه عليهم سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) رغم أنف الخليفة . وهكذا أصبحت مصر ميدانا للنزاع بين الطامعين ، دون أن يكون للخليفة العباسي فيها كلمة مسموعة [١] . وبينما مصر غارقة في بحر من الفوضى بسبب الحروب بين المتنازعين على السلطة فيها إذا بحشد ضخم من أهل الأندلس — يبلغ خمسة عشر ألف شخص عدا النساء والأطفال — يصلون عن طريق البحر إلى الاسكندرية بعد أن طردهم الحكم بن هشام الأموي سنة ١٩٨ هـ (٨١٣م) عقابا لهم على ثورتهم ضده لجوره وفسقه [٢]. وقد رأى بعض المتنازعين على السلطة في مصر أن يستعين ضد خصومه بأولئك الأندلسيين ، الأمر الذي زاد الموقف في مصر تعقيدا . وقد لاقى الأندلسيون كثيراً من المتاعب لكنهم تمكنوا في نهاية الأمر من السيطرة على الاسكندرية والاستقلال بها سنة ٢٠٠ هـ , ٨١٥ م) [٣] .

وهكذا لم تزل الفتن بالأندلسيين في الاسكندرية متصلة إلى أن قدم عبد الله بن طاهر إلى مصر من قبل أمير المؤمنين المأمون [٤] ، ذلك أن الخليفة المأمون أوفد عبد الله بن طاهر بن الحسين من الشام سنة ٢١٠ هـ (٨٢٥ م) ليعيد الاستقرار في مصر ويعالج أمورها بعد فترة من الفوضى استمرت أكثر من عشر سنوات . وقد استطاع عبدالله بن طاهر أن يقضي على رءوس الفوضى من الطموحين . وفي سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) اتجه عبدالله بن طاهر إلى الاسكندرية حيث قاتل الأندلسيين وأجلاهم عنها ، فاتجهوا إلى جزيرة

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر في فجر الاسلام ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٦٣ .

(٤) المقريزي : المواعظ ج ١ ص ١٧٢ .

كريت واستقروا فيها وظلت بقايا من أولادهم بهاحتى أيام المؤرخ أبو المحاسن فى القرن التاسع الهجرى[1].

وعلى الرغم من جهود عبد الله بن طاهر لاصلاح أحوال مصر ، إلا أن ولايته لم تطل ، فعاد إلى العراق ؛ وعادت الثورات إلى مصر ، فثار القبط ، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين . ولم يسع المأمون إزاء ذلك الوضع سوى أن يرسل قائده الإفشين من برقة « لقتال القوم » . وقد استمرت الحروب حتى قدم الخليفة المأمون بنفسه إلى مصر سنة ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) « فجهز العساكر لقتال أهل الفساد » ولم تطل إقامة المأمون فى مصر ، إذ قضى فيها تسعة وأربعين يوما عمد خلالها إلى إعادة الأمن والاستقرار فى مصر وأمر بعدة إصلاحات فى البلاد ثم عاد إلى بغداد[2].

المحنة بخلق القرآن :

احتلت مسألة خلق القرآن مكانة كبيرة فى الحركة الفكرية فى ضحى الإسلام بعد أن أثار المعتزلة هذه المسألة ودعوا لها ، ثم تبنتها الدولة وعملت على فرضها وتنفيذها بالقوة ، الأمر الذى جعل لها جانباً سياسياً فضلا عن جانبها الفكرى والثقافى .

وخلاصة هذه المسألة أن المعتزلة نادوا بأن القرآن صفة من صفات الله عز وجل ، لأن الله — ذاته وصفاته — وحدة لاتقبل التجزئة ، فى حين أن القرآن يضم حقائق وخصائص متباينة ، فيها الأمر والنهى . وعلى هذا الأساس لايمكن أن يكون القرآن كلاماً قديماً أزلياً ، وإنما هو كلام

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٢ ص ١٩٢ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٢ ص ٢١٦ .

خلقه الله عز وجل ووصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي [١]

على أن المعتزلة لم يمضوا في قولهم بخلق القرآن دون أن يصادفوا معارضة قوية ، وخاصة من جانب « السلف » الذين رأوا أن للعقل البشرى حدود لا يصح أن يتجاوزها وأنه أضعف من أن يبحث في كنه الله وصفاته؛ وعلى ذلك لا يصح النقاش والجدل حول هذه الأمور بل يجب الإيمان بها وفق ما جاء به الأنبياء . كذلك عارض المعتزلة في القول بخلق القرآن فريق من الحنابلة، وهؤلاء نادوا بأن كلمات الله أزلية غير مخلوقة .

وهكذا شهد العالم الإسلامي انقساماً فكرياً بدأت بذوره في أواخر الدولة الأموية في الشام ، ثم امتد مع قيام الدولة العباسية إلى العراق ، حيث أخذت المشكلة تنمو وتتفاقم حتى كانت أيام الخليفة المأمون . والمعروف عن المأمون أنه كان واسع الثقافة يميل إلى المعتزلة وآرائهم التحررية ، فأخذ برأيهم في خلق القرآن ، وعمد إلى البطش بالخارجين على هذا الرأي [٢] .

ويهمنا في هذا الصدد أن الخليفة المأمون أرسل إلى عماله في الأمصار يأمرهم بحمل الناس على القول بخلق القرآن . واستأنف هذه السياسة بعد المأمون أخوه الخليفة المعتصم ثم الخليفة الواثق ، فأرسل المعتصم إلى كيدر نصر بن عبد الله عامل مصر سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) يأمره أن يمتحن القضاة والمحدثين والفقهاء . ويعزل من لا يقر منهم القول بخلق القرآن . ويبدو أن علماء مصر لم يظهروا معارضة للقول بخلق القرآن الامر الذى جعل أهل مصر لا يتعرضوا لما تعرض له أهل العراق من تعذيب وقسوة بسبب هذه المشكلة [٣] هذا وإن كنا نسمع عن بعض علماء مصر — مثل أبي يعقوب يوسف بن يحيى — أنهم امتنعوا عن القول بخلق القرآن مما عرضهم للتعذيب والأذى [٤] .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ح ٣ ص ٣٤ — ٣٦ .

(٢) أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون، ح١ ص ٣٩٥ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٤٤٧ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

الفصـــل الـرابـع

أحوال مصر الداخلية والحضارية فى عصر الولاة

اتصف الحكم العربى بالمرونة المطلقة فى مختلف الأمصار والبلاد التى فتحها العرب ، والتى غدت أجزاء من الدولة العربية الكبرى الممتدة من المحيط إلى الخليج . فالعرب عندما خرجوا من شبه جزيرتهم فى القرن السابع للميـــلاد للقيام بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكونوا مثل المغول وغيرهم من الشعوب التى اندفعت فى مختلف عصور التاريخ من جوف القارة الأسيوية ، لا تبغى إلى التدمير والتخريب . وإنما كان العرب فى المجال الحضارى بنائين لا هدامين ، فحققوا الاستقرار والأمن والنظام فى كل بلد فتحوه وحكموه ، ونشروا جواً من التسامح والإخاء فى بلاد لم تعرف تلك الروح منذ سنوات طويلة ، وأقبلوا على ما صادفوه فى الأقطار التى فتحوها من مقومات حضارية ، فدرسوها وتعهدوها بالنمو واستفادوا منها فى وضع دعائم حضارة عربية جديدة ، هى أعظم ما عرفه العالم فى ميدان النشاط الحضارى طوال العصور الوسطى .

وكانت مصر عندما فتحها العرب من البلاد ذات الماضى العريق والتاريخ الأصيل والحضارة الشامخة ، التى لمس العرب صورة واضحة لها فى كل ركن من أركان البلاد . وما كاد يتم الفتح العربى لمصر ، حتى أدرك العرب أنهم أمام شعب أصيل جدير بالإحترام والتقدير ، فتعهدوا البذور الحضارية التى صادفوها فى مصر بالرعاية والعناية بعد أن اعتراها الذبول فى أواخر العصر الرومانى . واختار العرب أن لا يحدثوا تغييراً فى النظم السائدة فى البلاد ،

إلا ماتعارض منها مع أحكام الشريعة والدين ، وتركوا لأهل الذمة فى مصر مواصلة نشاطهم الحضارى فى جو من التسامح والمودة لم يألفوه منذ فترة طويلة . وكان أن شهدت مصر فى ظل الحكم العربى ازدهاراً فى الحضارة ، واستقراراً فى النظم، وانتعاشا فى الحياة الإقتصادية، ونشاطاً فى الحياة العلمية والثقافية . ولا أقل من إلقاء نظرة عامة سريعة على كل جانب من هذه الجوانب .

نظم الحكم والإدارة :

كان الخليفة فى المدينة أو فى دمشق أو فى بغداد يعين والياً على مصر ينوب عنه فى حكم البلاد وتصريف شئونها ، ومن أهم اختصاصاته إمامة المسلمين فى الصلاة وقيادة الجيش وقت الحرب . ويعاون الوالى مجموعة من كبار الموظفين منهم صاحب الشرطة ، وهو المسئول عن الأمن فى البلاد وتأديب الخارجين على النظام وقواعد الأخلاق ، وصاحب البريد وهو المسئول عن الاتصال بين مصر ومركز الخلافة فضلا عن الاتصال بين مختلف أنحاء البلاد . أما القضاة فكانوا مسئولين عن تحقيق العدالة ، والفصل بين الناس فى المنازعات ، على أن يتم ذلك فى جلسات خاصة تعقد فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط . وبلغ من تسامح الحكم الإسلامى أن القضـــاة فى مصر خصصوا للنصارى يوما فى الأسبوع وسمحوا لهم بدخول المسجد لعرض قضاياهم[1] .

وقد احتفظ العرب بالتقسيم الإدارى الذى عرفته مصر فى عهد الرومان فكانت مصر مقسمة إلى قسمين كبيرين هما مصر العليا ومصر السفلى ، كل قسم منهما ينقسم بدوره إلى عدد من الكور التى بلغ مجموعها ثمانين كورة ،

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٩٠ .

وكل كورة منقسمة إلى قرى[1] . واحتفظ الوالى بإشرافه وسيطرته على حكام الأقاليم من أصحاب الكور ، بحيث كان الحكم مركزياً إلى مدى بعيد[2] .

أما الإدارة المالية — المعبر عنها بالخراج — فكان الوالى يشرف عليها حينا . وأحياناً يعين الخليفة موظفا مسئولا يعرف بعامل الخراج يكون مسئولا عن تلك الإدارة . وقد اعتبر العرب أن مصر فتحت صلحاً أو بيس عنوة ، فلم يغتصبوا الأرض من أصحابها ويقسمونها بين الفاتحين ، وإنما تركوها بأيدى أصحابها يزرعونها ويؤدون ما عليها من ضريبة عرفت باسم الخراج . وكانت ضريبة الأرض أو الخراج تقدر حسب جودتها وما تدره من محصول . وبالإضافة إلى خراج الأرض وجدت ضرائب أخرى ، فأهل الذمة يدفعون الجزية والمسلمون يدفعون الزكاة ؛ وفى الحالتين تفاوتت هذه الضريبة حسب مقدرة الشخص وحالته المالية . هذا عدا الضرائب الأخرى التى كانت تجبى على الصناعة والصناع «بقدر احتمالهم» ، والتجارة الداخلية والخارجية ، وغير ذلك[3] .

واتبع العرب فى جباية الضرائب نفس النظام الذى اتبعه الروم من قبل ، وهو نظام المسئولية المشتركة ، بحيث يكون أهالى كل قرية مسئولين بالتضامن فى سداد الضرائب المفروضة على القرية . فإن عجز أحد منهم وشكا ضعفه عن زرع أرضه ، وزعوا ما عجز عنه على ذوى الاحتمال» على قول المقريزى . وكل ما فى الأمر هو أن العرب راعوا العدالة ولم يتبعوا أساليب التعسف التى اتبعها الروم . فإذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل أهلها

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٦

(٢) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٩ — ٣٠ .

(٣) المقريزى: المواعظ ، ج٢ ص ١٢١ — ١٢٢ .

وخربت نقصوا »[1]. وكانت حصيلة الضرائب ترسل إلى الخلافة إما عيناً أو نقداً[2].

الأوضاع الإقتصادية :

يرتبط النشاط الإقتصادى دائما بحالة الأمن والاستقرار التى تسود بلداً من البلاد، ومدى مايحققه حكام ذلك البلد لرعاياهم من عدالة وبعد عن التطرف فى جمع المال وفرض الضرائب والمكوس. وقد رأينا كيف نشر العرب فى مصر جواً من التسامح الدينى والعدالة الاجتماعية، لم يألفه المصريون منذ عدة قرون تحت حكم الروم. لذلك كان من الطبيعى أن تنتعش الحياة الإقتصادية فى مصر فى ظل الحكم العربى، وأن يشعر المصريون بجو من الطمأنينة يساعد كل من الزراع والصناع والتجار على الإنصراف إلى عمله ومباشرة إنتاجه دون أن يخشى عسفاً أو ظلماً.

ومن المعروف أن مصر ظلت طوال تاريخها بلداً زراعيا فى المقام الأول، يعتمد غالبية أهلها على النيل بفيضانه وطميه فى زراعة أرضها الطيبة، والعيش على ماتخرجه لهم من خيرات وثمار. وكانت مصر فى العصر الرومانى بمثابة المخزن الكبير الذى يمد الإمبراطورية بالقمح والغلال. أما العرب فقد سمعوا عن مصر قبل أن يفتحوها، وجاء فى القرآن الكريم أكثر من وصف لخيراتها «وبقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها»[3]. لذلك كان من الطبيعى أن يحرص العرب على تلك الثروة، وأن يعملوا على تنميتها والعناية بها، عن طريق شق الترع وإقامة الجسور.

هذا إلى أن العرب عنوا عناية فائقة بإقامة مقاييس جديدة للنيل، للوقوف –

---

(١) المقريزى : المواعظ ج١ ص ٧٦.

(٢) سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى فجر الإسلام ص ٥١

(٣) سورة البقرة، آية ٦١.

على حالة الفيضان . ويروى القلقشندى أن عمرو بن العاص بنى «مقياسا بأسوان ، ثم بنى مقياسا بدندرة ، ثم بنى فى أيام معاوية مقياسا بأنصنا . فلما ولى عبد العزيز بن مروان مصر ، بنى مقياسا صغير الأذرع بحلوان من ضواحى الفسطاط . ثم لما ولى أسامه بن زيد التنوخى بنى مقياس جزيرة الصناعة المعروفة الآن بالروضة بأمر سليمان بن عبد الملك ، أحد خلفاء بنى أمية ، سنة سبع وتسعين من الهجرة ، وهو أكبر ذراعا . ثم بنى المأمون مقياسا أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة فى سنة سبع وأربعين ومائتين فى ولاية يزيد بن عبد الملك على مصر ، وهو المعول عليه إلى زماننا هذا[1] » .

وبعد أن يتكلم المقريزى عن أصناف أراضى مصر وأقسام زراعتها ، يشير إلى أهم المحاصيل التى كانت تنتجها ، وأهمها من المحاصيل الشتوية القمح والكتان والشعير والفول والعدس والحمص والبصل والثوم ، ومن المحاصيل الصيفية البطيخ واللوبيا والسمسم والقطن وقصب السكر والقلقاس ، عدا الخضروات والفواكه المتنوعة[2] .

هذا عن الزراعة ، أما الصناعة والفنون فالمعروف أن مصر اشتهرت منذ تاريخها القديم بتفوق أهلها فى عدة صناعات ، منها النسيج والزجاج والمعادن والأخشاب وغيرها . وهذه الصناعات تعهدها العرب عقب فتحهم مصر بالرعاية والعناية . وأضفوا عليها طابعهم ومزجوا بين خصائصها وخصائص غيرها من الصناعات والفنون التى لمسها العرب فى نواحى دولتهم الواسعة ، أو التى عرفوها من الحضارات الأخرى المجاورة التى احتكوا بها . ونتج عن هذا كله تطوير الصناعات والفنون القائمة فى مصر بحيث اكتسبت طابعاً عربياً إسلامياً واضحاً .

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٢٩٨ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٠٠ — ١٠٢ .

ومن الصناعات الهامة التي اشتهرت بها مصر قبل الفتح العربي — وازدهرت فيها بعد ذلك الفتح — صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها ، خاصة الكتانية والصوفية والحريرية . وكانت أهم مراكز هذه الصناعة الاسكندرية وتنيس ودمياط فى الوجه البحرى ، فضلا عن البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم فى الوجه القبلي[١] . وقد تمتعت بعض الأقمشة المصرية فى ذلك العصر بشهرة عالمية فى مختلف البلاد، مثل قماش الفستيان Fustian المنسوب إلى الفسطاط، والقماش الدبيقى المنسوب إلى دبيق .

ويلاحظ أن معظم المراكز الرئيسية للنسيج فى مصر هى التى يكثر فيها الأقباط ، وظلت الزخارف القبطية غالبة على المنسوجات المصرية فى القرون الثلاثة الأولى بعد الهجرة . أى من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلادى[٢] .

وفيما عدا النسيج ، ازدهرت بمصر صناعات أخرى كالخشب والعاج والعظم . وقد عثر رجال الآثار فى الفسطاط وغيرها من المناطق الأثرية فى مصر على تحف من العاج أو العظم أو من الخشب المطعم أو المرصع بهاتين المادتين . وترجع بعض هذه التحف إلى فجر الإسلام فى مصر، أى إلى العصرين الأموى والعباسى ، كما تدل زخارفها أنها ذيل للزخارف القبطية . ومن تلك التحف حشوات من الخشب يرجح أنها أجناب صناديق . وقوام الزخرفة فى هذه الحشوات رسوم عقود تضم أشكالا هندسية ، معينات ومربعات ودوائر . وبين العقود أشباه أعمدة لها قواعد ولها تيجان رمانية الشكل، وفوق تيجانها أشباه آنية تحت زخرفة مجنحة[٣] .

أما عن الزجاج فقد عثر المنقبون عن الآثار فى حفائر الفسطاط على

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٣ ، المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٢٧
(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٤٧ .
(٣) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٩٢ .

مقادير وافرة من الأوانى الزجاجية التى تشهد على رقى المستوى الفنى . والحق إن الزعامة فى إنتاج التحف الزجاجية فى فجر الإسلام كانت لمصر والشام بالذات [١] .

كذلك اشتهرت مصر فى فجر الإسلام بصناعة الورق من نبات البردى ، وهى صناعة قديمة ارتبطت بنمو نبات البردى بوفرة فى مصر ، وحذق المصريون فى إعداد أوراقه على هيئة صفحات للكتابة عليها . وقد أطلق العرب على هذا النوع من أوراق البردى اسم القراطيس ، وشهدوا لأهل مصر بالتفوق فى صناعتها [٢] . واستمرت مصر متفوقة فى هذا المضمار حتى عرف العرب صناعة الورق الكاغد ، وعندئذ ضعفت صناعة الورق من البردى فى مصر فى القرن الرابع الهجرى [٣] .

أما عن التجارة فإن العرب شعب تجارى بالطبع . فأدركوا أهمية مصر التجارية بين الشرق والغرب . وعملوا على الاستفادة من موقعها الفذ فى تنشيط التجارة عن طريق إصلاح الطرق وتأمينها وحفر الآبار على امتدادها والعناية بالموانى المطلة على البحرين الأحمر والمتوسط . ومما يؤثر عن الخليفة عمر بن الخطاب اهتمامه بإعادة حفر القناة التى كانت تخرج من النيل شمالى منف لتصب فى البحر الأحمر ، وبذلك تربط بين البحرين الأحمر والأبيض عن طريق النيل ؛ ومن ثم سميت هذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين . ومهما يقال من أن سبب عناية الخليفة عمر بن الخطاب بإعادة حفر هذه القناة هو تيسير إرسال الغلال من مصر إلى الحجاز . فإنه لا شك فى أن هذا الطريق المائى خدم التجارة خدمة جليلة [٤] . بل لقد فكر الخليفة العباسى

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٨١ — ٥٨٢ .

(٢) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٦٩ .

(٣) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٣ ؛ للمقريزى : المواعظ ، ج ٢ ص ١٤١ .

هارون الرشيد فى حفر قناة السويس لتصل مباشرة بين البحرين الأحمر والمتوسط ، فأراد أن « يفتق الحاجز بين بحر الروم المتصل بالاسكندرية وبحر القلزم المسمى السويس » ولم يحل دون تنفيذ هذا المشروع سوى أن بعض وزراء الخليفة حذروه من أن ذلك سيسهل على الروم مهمة النفاذ إلى البحر الأحمر وتهديد الحرمين ، هذا فضلا عن أن بعض « أهل الهندسة ذكروا أن بحر الروم مرتفع على بحر القلزم » مما أثار الخوف من إغراق « بنادر اليمن[1] » .

وهكذا غدت مصر مجمع التجار من الشرق والغرب جميعا ، وفى ظل ما حققه الحكم العربى من أمن واستقرار ازداد النشاط التجارى ، وتكدست فى أسواقها بضائع الشرق والغرب من منسوجات وجلود وفراء وسيوف ورقيق وخيول وأخشاب وتوابل وغيرها .

الجيش والأسطول :

تمتعت مصر بأهمية حربية كبيرة فى نظر العرب ؛ نظراً لأنها كانت أول بلد أفريقى فتحه العرب ، ومن ثم غدت قاعدة للفتوحات العربية التى امتدت على طول الشاطىء الشمالى لأفريقية . هذا إلى أن مصر بموقعها الجغرافى الفذ بين إفريقية وآسيا وأوربا من ناحية ، وثروتها الطبيعية من ناحية أخرى ، كانت تتطلب من العرب عناية خاصة فى الدفاع عن هذه البلاد ضد الأخطار الخارجية ، وخاصة خطر الروم الذين أثبتت الأحداث أنهم لم ينسوا فى سهولة ضياع مصر بالذات من أيديهم .

لذلك أهتم العرب بأمر الجيش إهتماما كبيراً ، فاحتكروا الخدمة العسكرية وحرموها على المصريين ، إلا بعض أعمال ثانوية قامت بها طائفة المطوعة التى

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ص ١٤١ .

كان أساسها أهل البلاد من المصريين[1]. وقد حرم الخليفه عمر بن الخطاب على الجنود العرب فى مصر — وفى سائر الولايات — الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض حتى يتفرغوا لواجبهم الأول ويحتفظوا بروحهم الحربية، ولا تلهيهم زراعة أو تجارة عن واجب الجهاد. وفى الوقت نفسه تم إنشاء ديوان للجند سجلت فيه أسماؤهم وحددت الأرزاق والعطاء الخاص بكل منهم[2]. وقام تنظيم الجيش فى مصر غداة الفتح العربى بها على أساس قبلى، فاختطت كل قبيلة لنفسها خطة قائمة بذاتها فى مدينة الفسطاط؛ وسجل الجند فى الديوان الخاص بهم وفق ترتيب القبائل التى ينتمون إليها.

على أنه من الواضح أن الخطر الذى هدد مصر تهديداً مباشراً عقب الفتح العربى لها. كان خطراً بحريا أكثر منه بريا. ذلك أن الروم أدركوا أن العرب قوم مراكبهم الخيول وأنهم يجهلون ركوب البحر، وأن العبرة ليست بامتلاك شواطىء طويلة تمتد بحذاء البحر فى بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية، وإنما العبرة بالقدرة على الدفاع عن هذه الشواطىء. وبعبارة أخرى فإن الروم استغلوا نقطة الضعف فى حركة التوسع العربية إبان الدور الأول من أدوارها: وهى عدم وجود أسطول قوى يحمى فتوحات العرب البرية، وشددوا هجماتهم البحرية، خاصة على مصر، فأغاروا على الأسكندرية سنة ٢٥هـ (٦٤٥م) ومنها تقدموا فى الدلتا يريدون غزو مصر. وفى سنة ٣٤هـ (٦٥٤م) خرج الامبراطور قنسطانز الثانى على رأس حمله بحرية كبرى فى محاولة للاستيلاء على الأسكندرية واسترداد مصر من العرب. ولكن يبدو أن العرب كانوا عندئذ قد أصبحوا قوة بحرية بعد أن أعطوا الأسطول حقه من العناية، فنسمع بأن عبد الله بن سعد أعد لدفع هجوم الروم أسطولا من مائتى سفينة

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف: مصر فى فجر الاسلام، ص ٧٨.

(٢) المقريزى: المواعظ ج ١ ص ٩٤.

وتمكن العرب في موقعة ذات الصوارى الشهيرة من التغلب على أسطول الروم الذى كان أكثر عددا وأقوى جانبا من الأسطول العربي . ويعتبر بعض المؤرخين موقعة ذات الصوارى أعظم موقعه حربية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة اكتيوم البحرية سنة ٣١ قبل الميلاد .

والواقع أن مصر بالذات أخذت تسهم بنصيب وافر فى وضع نواة القوة البحرية الإسلامية فى البحر المتوسط . ذلك أن العرب استفادوا من خبرة أهل مصر القديمة فى صناعة السفن . فأصبحت مصر بعد فتح العرب لها قاعدة بحرية كبرى . وصارت دور الصناعة فى الروضة والقلزم والاسكندرية ودمياط بمثابة ترسانات كبرى لإنشاء كافة أنواع السفن برسم «جهاد أعداء الله وإقامة دينه»(١) .

والواقع أن عبد الله بن سعد — الذى خلف عمرو بن العاص فى حكم مصر — كان أمير البحر الثانى فى الإسلام ، وذلك بعد معاوية بن أبى سفيان والى الشام قبل أن تصير له الخلافة(٢) . وإذا كان عبدالله بن سعد استطاع أن يفخر فى التاريخ بأن أسطول مصر فى عهده صار قوة لها حسابها فى مياه البحر المتوسط ، بعد أن أنزل الهزيمة بالأسطول البيزنطى فى موقعه ذات الصوارى ؛ فإن خلفاء عبد الله بن سعد الذين تولوا ولاية مصر بعده أظهروا عناية كبرى بأمر الأسطول ، وخاصة أن غزوات الروم البحرية لم تنقطع عن شواطئ مصر ومواقعها على البحر المتوسط . ففى سنة ٥٣ هـ (٦٧٣ م) نزل الروم بالبرلس ، وكان والى مصر مسلمة بن مخلد ، فخرج المسلمون لهم فى البر والبحر ، واستشهد منهم « جمع كثير »(٣) ثم تتابعت هجمات الروم البحرية

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٩١ .

(٢) زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٣٥ — ٣٦ .

(٣) المقريزى : المواعظ ج٢ص ١٨٩ .

على دمياط سنة ٩٠ ﻫ (٧٠٩ م)وعلى تنيس سنة ١٠١ ﻫ (٧١٩ م) ثم على دمياط مرة أخرى سنة ١٢١ ﻫ (٧٣٩ م) ، ومرة ثالثة سنة ٢٣٨ﻫ(٨٥٢م). ويبدو أن هذه الغزوات الأخيرة التى حدثت على عهد الخليفة المتوكل العباسى — وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحق — كانت عنيفة ، إذ نزل الروم بدمياط «فملكوها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين، وسبوا النساء والأطفال ومضوا إلى تنيس فأقاموا بأشتومها » ولم يستطع الخليفة المتوكل السكوت عن ذلك الخطر، فازدادت العناية بالأسطول « وصار من أهم مايعمل بمصر، وانشئت الشوانى برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدبت الأمراء له الرماه . فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة . وأنتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو . وكان لايترك فى رجال الأسطول غشيم ولاجاهل بأمور الحرب . . . »[1]

ولم تلبث أن تحولت القوة البحرية المصرية من الدفاع إلى الهجوم وأصبحت الأساطيل التى تخرج من موانى مصر والشام مصدر خطر كبير على بلاد الروم . « وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا : ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الإسلام على بلاد العدو ، فإنها كانت تسير من مصر ومن الشام ومن إفريقية »[2] .

النشاط العلمى والثقافى :

كانت مصر عندما فتحها العرب مركزا كبيرا من مراكز الحضارة

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٠ .

اليونانية . وكانت عاصمتها الأسكندرية ، قاعدة لمدرسة فلسفية علمية شهيرة يفد إليها طلاب العلم والثقافة من شتى أنحاء عالم البحر المتوسط طلبا للمعرفة. حقيقة أن زمام مصر كان بيد الرومان . ولكن لغة العلم والمعلمين والمتعلمين فيها كانت اللغة اليونانية ، حتى أن اللغة اليونانية أثرت فى اللغة المصرية نفسها تأثيرا قويا ظهر فى استعمال المصريين للحروف اليونانية ، وفى كثرة الألفاظ اليونانية المستخدمة فى اللغة القبطية(١) . وهكذا وجدت الحضارة اليونانية ، والتراث الفكرى اليونانى فى مصر مركزا قويا يأوى إليه قبل الفتح العربى لمصر .

وكان من الطبيعى أن يتعهد العرب هذا المركز الثقافى الضخم برعايتهم وعنايتهم ، وهم المعروفون فى التاريخ بأنهم تبنوا تراث الحضارات القديمة السابقة، وحرصوا على ترجمته إلى العربية، واستفادوا منه فى إقامة بناء حضارى جديد ، لا يمكن أن يوصف إلا بأنه عربى إسلامى .

وهنا يتطرق بنا الحديث إلى مشكلة هامة من المشاكل التاريخية التى ارتبطت بالفتح العربى لمصر ، وهى مشكلة حريق مكتبة الاسكندرية . ذلك أن بعض المؤرخين فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) أشاروا إلى أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الاسكندرية بناء على تعليمات من الخليفة عمر بن الخطاب للتخلص مما فيها من كتب مخالفة لما فى كتاب الله . وكان أول من ذكر هذا الخبر هو عبد اللطيف البغدادى . وأخذ عنه ابن القفطى وأبو الفرج الملطى، وجميعهم عاشوا فى القرن الثالث عشر للميلاد، أى بعد الفتح العربى بسبعة قرون تقريبا، ولم يشيروا إلى مصدر واحد استقوا عنه هذا الخبر ، فى حين أن الكتاب والمؤرخين الأوائل ، والذين كانوا قريبى العهد بأحداث الفتح العربى لمصر، مثل حنا النقيوسى وسعيد بن بطريق وهما مسيحيان .

---

(١) محمد كامل حسين : أدبنا العربى فى عصر الولاة ص ١١ .

ومن المسلمين ابن عبد الحكم والبلاذرى واليعقوبى ، لم يشيروا إلى ذلك الحدث ، وهم أقرب إلى أحداث الفتح العربى لمصر من عبد اللطيف البغدادى وزميليه . ثم إن رواية هؤلاء فيها من أساليب الخرافة ما يجعلها بعيدة عن العقل ، ومن ذلك قول ابى الفرج الملطى أن عمرو بن العاص وزع كتب مكتبة الاسكندرية على حمامات المدينة لإحراقها فى مواقدها — وعددها أربعة آلاف حمام — فاستمرت مواقد الحمامات تستهلك تلك الكتب ستة أشهر كاملة !! ومن الثابت لدينا فى التاريخ أن مكتبة الاسكندرية تعرضت للحريق مرتين قبل الفتح العربى لمصر ، الأولى سنة ٤٨ق م. على أثر حرق أسطول يوليوس قيصر ؛ إذ يروى المؤرخ بلوتارك أن النار امتدت عندئذ إلى المكتبة وأحرقتها. والمره الثانية فى عهد الأمبراطور ثيود سيوس سنة ٣٩١م ، وهو الامبراطور الذى جعل من المسيحية ديانة رسمية للدولة وبدأ فى عهده اضطهاد الوثنية ومعابدها وإعدام كتبها ، ومنها الكتب الباقية بمكتبة الاسكندرية . وبعد ذلك زار المؤرخ الشهير أورازيوس الأسكندرية فى أوائل القرن الخامس للميلاد ، أى قبل الفتح العربى لمصر بأكثر من قرن ، فقال أنه وجد أرفف المكتبة خالية من الكتب . لذلك لاعجب إذا ناقش المؤرخون الاوربيون أنفسهم — أمثال جبون وبتلر وجوستاف لوبون — هذه المسألة وأبدوا تشككهم فيما قاله البغدادى وزميلاه عن إحراق العرب مكتبة الاسكندرية . ثم أليس العرب المسلمون هم الذين أبقوا على المدارس المسيحية والصابئية والفارسية ، وحرصوا على نقل علوم اليونانيين وغيرهم من اليونانية والسريانية والفهلوية والسنسكريتية إلى العربية ؟ ألم يذكر ابن أبى أصيبعه أن الخليفة المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما كان ينقله إلى العربية من الكتب[1] ؟ ألم يحدثنا المؤرخون بان بعض الخلفاء — مثل المنصور والمأمون — أرسلوا إلى أباطرة الروم يطلبون منهم بعض الكتب اليونانية ، فاستجاب أمبراطور الروم ، وكان من جملة ما بعث به ملك الروم كتاب أقليدس

(١) ابن ابى اصيبعه : طبقات الأطباء ، ج ٢ ص ١٠٧

وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها ، وازدادوا حرصا على الظفر بما بقى منها[1] ، فهل بعد هذا يمكن ان يلجأ العرب المسلمون إلى إحراق مكتبة الاسكندرية؟ لاشك فى أنها رواية طائشة التقطها البغدادي من أفواه بعض العامة وألقى بها دون تدبير بعد مرور سبعة قرون على احداث الفتح العربى لمصر .

أما الحقيقة الكبرى التى يثبتها التاريخ فهى أن العرب جعلوا من مصر مركزا علميا شامخا فى دولتهم الكبري التى امتدت من المحيط إلى الخليج . وكان من الواضح أن يكون الطابع الدينى هو الطابع المسيطر على الحركة العلمية التى ازدهرت فى مصر فى ظل الحكم العربى ، فصار جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط بمثابة مدرسة كبرى ، وخاصة بعد أن نزح إلى مصر عدد كبير من الصحابة قدرهم البعض بأكثر من مائة وأربعين صحابيا[2] . ومن هؤلاء الصحابة الذين أتوا إلى مصر أبو ذر الغفارى وعبد الله بن عمرو ابن العاص والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص . وهؤلاء جميعا اشتغلوا بالحديث وغير الحديث من العلوم الدينية ، وبعضهم مثل عبد الله بن عمرو ابن العاص كان يقرأ السريانية[3] .

وهكذا تكونت البذور الأولى لمدرسة مصرية عربية إسلامية. وسرعان ما انجبت هذه المدرسة كثيرا من العلماء ، مثل سليم بن عتر الذى وصفه أبو المحاسن بأنه « عالم مصر وقاضيها[4] » ، ويزيد بن ابى حبيب الأزدى وهو نوبى الأصل من دنقله ، وقد اهتم بالتاريخ والفقه فأخذ عنه كثيرون

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٣ ص ١٠٩ (تحقيق على عبد الواحد وافى) ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٣٦ (طبعة بيروت)

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٨

(٣) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٨٩

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٩

وخاصة فيما يتعلق بفتوح مصر وحروبها ، واعتمد عليه الكندى فى كتابه الشهير « ولاة مصر وقضاتها » . وكان أول مادرس فى مسجد الفسطاط هى علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم ورواية قراءاته ورواية الحديث الشريف . ولم يكن جميع رواد هذه الحركة من الصحابة كما ذكرنا ، بل أخذ المسلمون من المصريين يشاركون فيها مشاركة فعالة . فكل القراءات بمصر رواية عن نافع ، نقلها عنه إلى مصر عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش . وكان مصريا صميما ، أصل أجداده من الأقباط قبل أن يعتنقوا الإسلام . وولد ورش بمصر سنة ١١٠ هـ (٧٢٨ م) واشتغل بقراءة القرآن وتعلم العربية . ورحل إلى المدينة حيث قرأها على نافع سنة ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) ولم يلبث أن تعدد تلاميذ ورش ؛ وعنهم أخـــذ القراء فى الأندلس والمغرب[١] .

وفى الحديث كان الصحابة الذين وفدوا على مصر يكثرون من روايته ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة رواية للحديث ، ولأهل مصر عنه أكثر من مائة حديث[٢] . ومن أوائل جامعى الحديث فى الإسلام أجمع كان عبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب الجامع فى الحديث ، وقد ولد بمصر سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) ورحل إلى الحجاز والعراق فى طلب العلم ، وأخذ عن الإمام مالك فى المدينة ، واعترف مالك بفضل ابن وهب ومنزلته فلقبه بالمفتى[٣] . ولم يعثر على كتاب ابن وهب إلا أخيرا فى مدينة أدفو مخطوطا على ورق البردى ، وهو يعتبر من أقدم المخطوطات العربية فى العالم أجمع[٤] .

---

(١) ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٣ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٤

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٤

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤٩

(٤) محمد كامل حسين : أدبنا المعاصر فى عصر الولاة ص ٤٢ — ٤٣

وفى الفقه اشتهر الليث بن سعد الذى ولد فى قرية قلقشنده بمصر حوالى سنة ٩٤ ﻫ وسافر إلى كثير من البلاد الإسلامية لأخذ العلم عن التابعين حتى برز فى الفقه إلى درجة جعلت الأمام الشافعى يقول عنه «الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به[1]» .

وفى مجال كلامنا عن الفقه يصح أن نشير إلى أن المدرسة المالكية بمصر كانت قوية فى أول الأمر إلى أن وفد على مصر الأمام الشافعى ، فانقسم المصريون بين مالكية وشافعية، واشتد الجدل والنقاش بين المدرستين حتى أن أدى إلى صدام وقتال بينهما فى المسجد العتيق مما اضطر الإخشيد إلى إغلاق الجامع[2] .

وإذا كانت مصر هى أول أرض شهدت بذور الرهبانية والديرية فى المسيحية ، فليس من الغريب أن نجد مصر والمصريين من السباقين إلى النزعة الصوفية فى الإسلام ، فنسمع فى أواخر القرن الثانى للهجرة عن ذى النون المصرى الأخميمى النوبى الأصل ، وهو من أوائل الصوفية فى مصر وتوفى سنة ٢٤٥ ﻫ (٨٥٩م) .

وجدير بالذكر أن هذه الحركة العلمية لم تقتصر على العلوم الدينية ، وإنما شملت أيضاً النحو والأدب — شعرا ونثراً — فضلا عن التاريخ[3]، فمن النحاة الذين كان لهم أثر كبير بمصر بنو ولاد ، وأشهرهم الوليد بن محمد المشهور بولاد، وكان نحويا مبرزاً وتوفى سنة ٢٦٣ﻫ (٨٧٦م) . وفى التاريخ ظهر عبد الله بن عبد الحكم الذى ولد بالاسكندرية سنة ١٥٥ﻫ (٧٧٢م) وكتب

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ٤٢٨ .

(٢) المغرب فى أخبار المغرب ج ٧ ص ٢٤

(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج٢ص٩٤

كتابه الشهير «فتوح مصر» الذى يعتبر مصدرا أساسياً عن تاريخ مصر منذ الفتح العربى .

أما فى الشعر فقد ظهر من ولاة مصر — مثل عبد العزيز بن مروان — من شجع الشعر والشعراء فى القرن الأول للهجرة ، فقصده كثير من الشعراء ومدحوه ، ومن هؤلاء الشعراء أيمن بن خريم الأسدى ونصيب بن رباح وعبد الله بن الحجاج وكثير عزة ، وغيرهم .

هذا إلى أن القبائل العربية التى سكنت مصر ظهر بين أفرادها شعراء مثل سعد بن أبى زمزمة (١).

وإذا كان الشعر قليلا فى مصر فى العصر الأموى ، فإن الأمر اختلف فى العصر العباسى ، وهو عصر الازدهار فى العالم العربى كله ، فضلا عن أن مصر بوجه خاص كانت قد خرجت فى ذلك العصر من مرحلة هجرة القبائل العربية إليها ودخلت فى دور جديد شهد ثمرة اختلاط العرب الوافدين بالمصريين ، مما جعل روح الشعب المصرى وروح البيئة المصرية — وخاصة فى الفكاهة والدعابة — تظهر فى الشعر فى ذلك العصر . ولا شك فى أن الفتن التى شهدتها مصر فى العصر العباسى سواء نتيجة للثورات السياسية التى قامت بها قبائل العرب أو التى قامت بين العرب والمصريين أو نتيجة لمحنة خلق القرآن . . هذه كلها أمدت الشعراء بموضوعات ينظمون فيها أشعارهم ، هذا فضلا عما نظم من شعر فى المدح والهجاء والرثاء وغيرها من أغراض الشعر المعروفة . واشتهر من شعراء مصر فى ذلك العصر سعيد بن عفير المتوفى سنة ٢٢٦ هـ (٨٤٠م) الذى جمع بين جودة الشعر والتعمق . وقد عاصره شاعر آخر هو المعلى الطائى الذى تكسب من مدح الولاة . على أن الجمل

(١) محمد كامل حسين : أدبنا العربى فى عصر الولاة ص ١١٦ وما بعدها

الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨هـ (٨٧١م) احتل مكان الصدارة بين شعراء مصر فى ذلك العصر فنظم فى المدح والهجاء ، وبقيت له أشعار كثيرة[١] . هذا كله بالإضافة إلى الشعراء الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر ، وهم كثيرون .

وليس معنى هذا كله ذبول الحركة العلمية الطبية الفلسفية التى عرفتها مصر قبل الفتح العربى . حقيقة أن الثقافة اليونانية الرومانية التى عرفتها مصر قبل الفتح العربى انزوت قليلا أمام تيار العروبة الجديد ، لكنها لم تمت ، بل سرعان ما أفاقت بعد صدمة حركة الفتح ، فاستعادت نشاطها وقوتها بعد أن أخذت صبغة جديدة عربية إسلامية . ومثل هذا يقال عن اللغة القبطية . إذ يؤكد بعض الباحثين أن كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية وتخاطبوا بها حتى قبل أن البطريق يوسف عندما حوكم سنة ٨٥٠ م (٢٣٦هـ) خاطب رعيته باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب ، وفهم العرب كل ماقاله وحدثوا به القاضى . كذلك ذكر ابن حجر فى أخبار القاضى خير ابن نعيم «وكان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها ، وكذلك شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم»[١] . وفى ظل تسامح العرب أمكن لغير المسلمين من العلماء أن يبرزوا ، مثل بليطيان الذى كان عالما بالمذهب الملكانى وتولى منصب بطريرك الاسكندرية ، وظفر برضاء الخليفة الرشيد لمهارته فى الطب وقدرته على تحقيق الشفاء لجارية مصرية عزيزة على قلب الرشيد ، فأمر الخليفة برد الكنائس التى انتزعها اليعاقبة من الملكانية إرضاء لذلك الطبيب اللاهوتى الذى توفى سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م)[٢] .

---

(١) محمد كامل حسين أدبنا العربى فى عصر الولاة ص ١٨٥ — ١٩٠ .

(٢) Butler: The Ancient Coptic Churches of Egypt. p. 251.

(٣) محمد كامل حسين: أدبنا العربى فى عصر الولاة ص ٣٧

(٤) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٢

مصادر

البلاذرى : كتاب فتوح البلدان
ابن خلدون : — المقدمة
— العبر وديوان المبتدأ والخبر
ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها
الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ
المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار

مراجع

سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام

Butler : The Arab Conquest of Egypt.

الباب الثانى

مصر فى عصر الطولونيين

الفصل الأول

قيام الدولة الطولونية

تطور أحوال الخلافة الإسلامية :

بدأت الخلافة العربية بداية قوية ناجحة ، وظهرت هذه القوة أشد ماتكون وضوحاً على عهد عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين ؛ ولكن للتاريخ مبادىء ثابتة لايحيد عنها غالباً ، منها أن أية دولة مهما يبلغ سلطانها وجبروتها ويظهر بأس حكامها وقوة جيوشها ، لابد وأن يكمن خلف ذلك السلطان والجبروت، ويتوارى وراء بطش الحكام وسطوة الجيوش. بعض عوامل الضعف الداخلية والخارجية . وقد تبدو هذه العوامل المستترة فى أول أمرها أضعف من أن تشكل خطراً حقيقياً على الدولة ، ولكن الذى يحدث دائماً فى التاريخ هو أن بذور الضعف المتوارية بين ثنايا عوامل القوة، تأخذ فى النمو تدريجياً، وتتشعب وتتكاثر فى بطء أو سرعة لتنخر فى عظام الدولة . وفى الوقت الذى تتضح عوامل الضعف فى الداخل تتحرك الأخطار فى الخارج ، ويرى الأعداء المتربصون على الحدود أن فرصتهم قد حانت الإنتقام ، فتقع الدولة بين عوامل الضعف فى الداخل وعوامل الطمع أو الثأر فى الخارج ، وعندئذ تنهار أعمدة البناء الكبير ويهوى الصرح الشامخ ليتفتت إلى وحدات صغيرة، قد تربطها خيوط واهية بالمركز الأم ، وقد تنقطع هذه

الخيوط لتستقل الأطراف عن ذلك المركز تماماً ، أو تقع فريسة فى قبضة قوة أخرى جديدة تظهر على مسرح التاريخ .

هذه هى التجربة التى مرت بها دولة الاسكندر ودولة الفرس والامبراطورية الرومانية فى العصـــور القديمة ، والتى تعرضت لها الامبراطوريات الإستعمارية الكبرى فى العصور الحديثه .

ولم تكن الدولة الإسلامية فى العصور الوسطى — وهى أعظم وحدة سياسية وحضارية شهدها العالم فى تلك العصور — بمنجاة من سنة التاريخ وقانونه العام . فالدولة الإسلامية قامت أشد ما تكون قوة وانطلاقا ، ولكن الباحث المدقق يستطيع منذ فجر هذه الدولة أن يضع يده على نقاط الضعف : عصبية قبلية ولدت صراعا خفيا أو تنافسا مكشوفا بين اليمنية والمضرية ؛ حقد على قريش لاستئثارها بالسيادة وخروجها بنصيب الأسد من مال الفىء والغنائم دون سائر قبائل العرب التى لم تتقاعس عن القيام بواجبها فى الجهاد والفتح ؛ خلاف بين بنى هاشم وبنى أمية حول الفوز بالخلافة ؛ إنقسام بين الشيعة والسنة ؛ تباعد بين العرب والموالى .

هذه كانت بذور الضعف فى قلب الخلافة نفسها، فإذا انتقلنا إلى الأطراف وجدنا حالات من السخط الذى استتر أحيانا خلف ستار الديانة الجديدة وقد أخذت تنتشر انتشارا سريعا من المحيط إلى الخليج . فأهالى الأمصار التى فتحها العرب معظمهم من أصحاب الحضارات القديمة والأصول العريقة التى تفخر بماضيها وتعتز بكيانها المستقل . وهل هناك شعوب فى التاريخ القديم أعظم من أهل مصر والشام والعراق وفارس ؟ أجل هل هناك فى الحضارات القديمة أعرق من حضارات النيل والفرات والهلال الخصيب ومرتفعات إيران ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف ترتضى هذه الشعوب الخضوع لقوة سياسية تحكمها من خارج حدودها حكما مركزيا شاملا ؟ ربما اتخذت تلك القوة الديانة الأسلامية مبررا لبسط سيطرتها على تلك الشعوب الجمة ذات

الأصول المتنوعة. ولكن هل يتعارض الأسلام مع الاستقلال ؟ وهل هناك ما يمنع أهل مصر — على سبيل المثال — من أن يعيشوا مستقلين داخل حدود بلادهم ، فى ظل حكومة محلية ترعى شئونهم ، وذلك مع تمسكهم بأصول الديانة الأسلامية الجديدة التى أقبلوا على اعتناقها طائعين مختارين عن عقيدة وإرادة حرة ؟.

فإذا تركنا الأمصار واتجهنا إلى حدود الدولة الإسلامية الكبرى ، وجدنا مجموعة من الأعداء يتربصون الدوائر بالدولة الإسلامية ، وانتمى معظم هؤلاء الأعداء إلى الكتلة المسيحية؛ فما كاد يبدو ضعف الدولة الإسلامية واختلال أمورها ، حتى أدرك أولئك الأعداء أن ساعة الانتقام قد حانت . فخرج الروم من آسيا الصغرى فى القرن العاشر للميلاد يغزون إقليم الجزيرة ، ويتوغلون فى بلاد الشام حتى جنوبها ، وشرع ملوك الفرنجة والممالك المسيحية التى قامت فى شمال أسبانيا يهاجمون المسلمين فى الأندلس ؛ بل لقد خرجت فى القرن التالى الجيوش الجرارة من الغرب الأوربى قاصدة جوف الوطن الإسلامى فى الشرق الأدنى ؛ هذا فى الوقت الذى لم تنقطع إغارات أهل النوبة المسيحيين على حدود مصر الجنوبية. ومهما يقال فى تفسير هذه الأحداث والهجمات المتعددة المصادر ، فإنه ينبغى أن نضع أمام أعيننا حقيقة كبرى . هى أن الكنيسة المسيحية ظلت منذ القرن السابع الميلاد تشعر بمرارة قاسية لنجاح حركة الفتوح العربية الإسلامية فى تحويل بلاد ارتبطت بها أصول المسيحية وتاريخها الأول — مثل الشام ومصر والجزيرة وشمال أفريقية — الى الإسلام والعروبة . ولكن ماذا كانت تستطيع أن تفعل الكنيسة فى القرن السابع الميلاد وقد دب الضعف فى العالم المسيحى وساد التفكك أطرافه ؟ لم يكن أمام الكنيسة سوى الانتظار حتى تتاح لها الفرصة وتدور الدوائر على دولة الإسلام وعندئذ تخرج الجيوش من مختلف أنحاء العالم المسيحى — من الشمال والغــــرب والجنوب — فى محاولة للثأر والإنتقام.

وفى وسط هذه العوامل العديدة التى تحاول الاستعانه بها لتفسير انحلال الدولة الإسلامية ، يتبادر إلى أذهاننا سؤال قد تكون له وجاهته . لقد رأينا أن كثيراً من القبائل العربية نزحت من شبه الجزيرة العربية غداة حركة الفتوح، واستقرت فى الأمصار الجديدة لتصبغها تدريجيا بصبغة عربيه إسلامية جديدة، فما دور هؤلاء المستوطنين العرب فى قمع الحركات الانفصالية التى قامت فى الولايات من جهة ثم فى دفع الأخطار الخارجية التى تعرضت لها من جهة أخرى ؟ الواقع أن العنصر العربى الذى دخل الأمصار وانتشر فيها واستقر بين ربوعها لم يستطع أن يحتفظ بعزلته طويلا ، إذ لم يلبث أن اختلط هؤلاء الوافدون تدريجيا بأهل البلاد الأصليين، وخاصة بعد انتشار الإسلام بين هؤلاء الآخرين ، ونتج عن هذا الاختلاط مولد شعب واحد فى كل مصر من الأمصار ، وربما رأى هذا الشعب مصلحته فى الاستقلال عن الخلافة وتنظيم أموره على مستوى إقليمى محلى . هذا بالإضافة إلى ظاهرة هامة يلمسها المشتغلون بالتاريخ هى أن الشعوب المناضلة التى ألفت الحرب والجهاد ، واعتادت فى وطنها الأول حياة الخشونة والبداوة ، هذه الشعوب كثيراً ما تتعرض للذبول السريع عندما تتحول إلى حياة الاستقرار ودعة العيش لأنها فى ظل تلك الحياة الهادئة اللينة السهلة تفقد كثيراً من صلابتها وقوة احتمالها وفضائل أخلاقها التى كانت فى حقيقة أمرها السر فيما حققته من انتصارات أيام حركتها وبساطتها الأولى .

ظهور أحمد بن طولون فى مصر :

وفى ضوء العوامل السابقة نستطيع أن نفسر ما أصاب الخلافة الإسلامية من ضعف ووهن ثم انقسام وتفتت، فالخلاف بين بنى هاشم وبنى أمية انتهى بانتصار بنى أمية وقيام الخلافة الأموية فى دمشق. ولم يرض العلويون بتلك النتيجة وإنما ظلوا يشعلون الثورات ضد بنى أمية، وعندئذ استغل العباسيون الفرصة فحولوا الدعوة إلى الرضا من آل محمد ، بمعنى أنهم جعلوا الإمامة

لآل البيت النبوى ، وهى صيغة عامة تشمل العلويين والعباسيين جميعا . واختار العباسيون بلاد خراسان مركزا لنشر دعوتهم ، وعنصر الفرس دعامة يقيمون على أكتافها هذه الدعوة ، وبذلك قامت الخلافة العباسية على أكتاف الفرس ، الأمر الذى أدى إلى إهمال العنصر العربى وإضعاف عصبيته تدريجيا .

وعندما أحس العباسيون بخطر الخراسانية عليهم نتيجة لازدياد نفوذهم ، غدروا بهم بعد أن قتلوا زعيمهم أبا مسلم الخراسانى ، كما نكبوا البرامكة وهم وزراؤهم من الفرس . ولم يلبث أن اشتد الصراع العنصرى بين العرب والفرس فى الدولة ، وهو الصراع الذى اتخذ شكل فتنة بين الأمين وأخيه المأمون . وهنا بحث الخلفاء العباسيون عن عصبية جديدة تغنيهم عن العرب والفرس جميعاً ، فوجدوا ضالتهم فى الأتراك الذين سكنوا بلاد ماوراء النهر ، والذين اشتهروا بالطاعة وحب النظام والشجاعة . ولم يلبث أن أخذ الأتراك يتسللون إلى قلب الخلافة العباسية ، حيث رحب بهم الخلفاء العباسيون — وخاصة بعد عهد المأمون — وقلدوهم المناصب الكبرى فى الجيش والإدارة ، فصار منهم الوزراء والولاة . وإلى العنصر التركى هذا ينتمى أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ ، ٨٦٨ — ٩٠٥م) .

على أن أحمد بن طولون لم يكن أول من تولى ولاية مصر من الأتراك ، فقد قلد الخليفة المعتصم أبو جعفر أشناس التركى مصر (٢١٩ — ٢٣٠هـ = ٨٣٤ — ٨٤٤م) وقلد الخليفة الواثق إيتاخ التركى مصر (٢٣٠هـ — ٢٣٥هـ = ٨٨٤ - ٨٤٩م) وقلد الخليفة المتوكل الفتح بن خاقان بن ارتق مصر (٢٤٢ — ٢٤٧هـ = ٨٥٦ — ٨٦١م) وولى الخليفة المعتز بالله مزاحم بن خاقان بن عرطوج مصر (٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م) ، فلما توفى عين الخليفة المعتز بدله ابنه أحمد بن مزاحم واليا على مصر (٢٥٤هـ = ٨٦٨م) على أن أحمد بن مزاحم لم يلبث أن توفى هو الآخر ، فولى بعده أمرة مصر الأمير باكباك التركى .

ولا أدل على انحلال نظام الحكم فى الخلافة العباسية فى القرن الثالث للهجرة من أن كثيراً من الولاة الذين كان يعينهم الخليفة العباسى على الولايات والأمصار المختلفة ، كانوا يفضلون البقاء فى العاصمة قرب الخليفة ، وينيبون عنهم بدورهم نوابا يحكمون البلاد باسمهم ، ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر وينقشون أسمهم على السكة[1]. وعلى هذا الأساس فإن بعض الولاة الأتراك السابق ذكرهم الذين عينهم الخلفاء العباسيون لحكم مصر ، لم يروا مطلقا أرض مصر حتى وفاتهم ، وإنما ظلوا متربعين فى بيوتهم على مقربة من الخلافة وجاهها ، واكتفوا بأن أرسلوا إلى مصر من ناب عنهم فى تصريف شئونها . ومن هؤلاء كان باكباك التركى الذى ولى مصر سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) ولكنه اختار أن يرسل إليها أحمد بن طولون لينوب عنه فى حكمها ، وكان باكباك زوج أم أحمد بن طولون .

وقد ترجم المؤرخون[2] لحياة أحمد بن طولون ، فقالوا إن أباه طولون مولى نوح بن أسد بن سامان السامانى عامل بخارى وخراسان ، أهداه نوح فى جملة مماليكه إلى الخليفة العباسى المأمون ، فترقى حتى صار من جملة الأمراء ، وولد له ابنه أحمد هذا سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥م) أو فى سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م) ببغداد . وقيل إن أحمد هذ لم يكن ابن طولون ، وإنما تبناه طولون لما رأى فيه من مخايل النجابة .

ومهما يكن من أمر ، فقد وصف المؤرخ أبو المحاسن أحمد بن طولون بأنه « نشأ على مذهب جميل ، وحفظ القرآن وأتقنه ، وكان من أطيب الناس صوتا به ، مع كثرة الدرس وطلب العلم . . . وكان جميع خصال ابن طولون محمودة ، إلا أنه كان حاد الخلق والمزاج ، فإنه لما ولى مصر

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج٣ ص٢٦ – ٢٧ .

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ، وعقد الجمان للعينى ، والبداية والنهاية لابن كثير .

والشام ظلم كثيرا وعسف وسفك كثيراً من الدماء . . وكان فيه ذكاء وفطنة وحدس ثاقب[1] » .

هذا هو الرجل الذى ظهر على مسرح مصر سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) ليدير شئونها نائبا عن زوج أمه باكباك .

أحمد بن طولون والاستقلال بمصر :

ومع اعترافنا بذكاء أحمد بن طولون وطموحه وعريض آماله ، إلا أننا نرفض أن ننساق وراء مبالغات بعض المؤرخين الذين يحرصون على تصويره فى صورة الرجل الذى أتى إلى مصر وفى عقله خطة مرتبة للإستقلال بها وإقامة ملك عريض لبيته فيها . فالتاريخ كما نعلم ملىء بالمبالغات وبعض كتبه محشوة بالآراء التى تفتقر إلى أدلة الإثبات . وما أكثر أن يلجأ بعض كتاب التاريخ فى العصور السابقة إلى اختلاق القصص ليضفوا على هذا البطل أو ذاك هالة من المجد الموهوم، وكأنهم يعيشون فى سريرته ويحيطون بمكنون أسراره ، دون أن يحفلوا أو يدخلوا فى تقديرهم الظروف التى تحيط بالإنسان والتى كثيرا ما توجهه فجأة وجهة معينة لم يكن قد عمل لها حسابا من قبل . ولماذا نفترض أن يكون أحمد بن طولون قد أتى إلى مصر وفى رأسه خطة معينة عزم على تنفيذها قبل أن يرى أرض مصر ، ولا نقول أنه أتى إلى هذه البلاد شأنه شأن كل وافد على بلد غريب يتحسس طريقه فى حذر ، حتى إذا ما رأى أحوالها الداخلية، وعظم ثروتها وإمكانياتها ، ربط بين هذا كله وبين ضعف الخلافة العباسية وسوء أوضاعها وعندئذ فقط استغل أحمد بن طولون ذكاءه ومواهبه فى محاولة للاستئثار بمصر وإقامة حكم مستقل لبيته فيها ؟

---

(١) ابو المحاسن النجوم ج٣ ص٣ ، ١٢ .

ويبدو أن أحمد بن طولون عندما أتى إلى مصر سنه ٢٥٤ هـ (٨٦٨م) على رأس جيشه الذى أمده به باكباك، لم يجد كل شىء ممهداً أمامه وإنما كان عليه أن يواجه منافسين أقوياء، وأعداء أشداء، ثاروا ضده ونازعوه السلطان .. ذلك أن ولاة مصر فى ذلك العصر كانو لا ينيبون عنهم شخصاً واحداً فى الإشراف على جميع مرافق البلاد، وإنما اعتادوا أن يقسموا أعمالها الأساسية بين عدة أفراد بحيث لا يتمكن أحدهم من استغلال أوضاع البلاد وبعدها عن مركز الخلافة فى تحقيق استقلال لنفسه. وهكذا حضر أحمد بن طولون إلى مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ليجد الاسكندرية بيد اسحق بن دينار، وبرقة — التى كانت من الناحية الإدارية تابعة لمصر — بيد أحمد بن عيسى الصعيدى، فى حين كان يلى شئون القضاء بكار بن قتيبة، وشئون البريد شقير الخادم غلام قبيحة أم الخليفة المعتز، وشئون الخراج أحمد بن المدبر.

وهنا ظهرت مهارة أحمد بن طولون فى التغلب على منافسيه من كبار الموظفين. ولم يكن ميدان الصراع بينه وبينهم أرض مصر فحسب، بل امتد ذلك الميدان أيضاً إلى سامراء حيث الخلافة العباسية، لأن كل واحد من الموظفين السابقين كان له سند فى بلاط الخليفة يعتمد عليه فى تثبيت مركزه وفى النيل من خصومه. فابن المدبر عامل الخراج فى مصر — وكان من ألد خصومه أحمد بن طولون — اعتمد على أخيه ابراهيم بن المدبر وهو من أصحاب الكلمة المسموعة فى بلاط الخليفة. وشقير عامل البريد كان كما ذكرنا مولى قبيحة أم المعتز. ولهذا لجأ أحمد بن طولون إلى محاربة خصومه فى بلاط الخليفة العباسى عن طريق جواسيسه تارة، وعن طريق عملائه فى بلاط الخليفة الذين غمرهم بهداياه تارة أخرى[1].

---

(١) البلوى: سيرة ابن طولون ص ٥٦ — ٥٩

وشاءت الأقدار أن تتدخل لمساندة أحمد بن طولون، فالخلافة العباسية كانت عندئذ غارقة فى بحر من الفوضى بسبب الثورات الداخلية من ناحية والمنازعات حول السلطان من ناحية أخرى.(١) ثم إنه حدث عندما عزل باكباك عن ولاية مصر ثم قتل بعد قليل، أن حل محله فى ولاية مصر ياركوج حمو أحمد بن طولون. ولو كان رجل آخر فاز بولاية مصر لعزل أحمد بن طولون فى تلك المرحلة الأولى، ولكن شاءت الظروف ان يعزل باكباك — وهو زوج أم أحمد بن طولون — ليحل محله فى ولاية مصر ياركوج وهو أبو زوجته، وبذلك احتفظ أحمد بن طولون بمركزه ومنصبه(٢).

وهكذا تمكن أحمد بن طولون من التغلب على المتاعب الداخلية، فقضى على ثورة بغا الصغير — بين برقه والأسكندرية سنة ٢٥٥ ﻫ (٨٦٩ م) — وقضى على ثورة ابن الصوف العلوى فى الصعيد سنة ٢٥٦ ﻫ (٨٧٠ م)؛ واستغل ثورة عيسى بن الشيخ ضد الخلافة فى بلاد الشام لإنشاء جيش مستقل خرج على رأسه لاخماد تلك الثورة(٣). وساعد أحمد بن طولون فى تحقيق كل هذه الانتصارات أن حماه ياركوج — صاحب ولاية مصر الفعلى — أطلق يده فى مصر وجعل منه الحاكم الفعلى عليها، وقال له «تسلم من نفسك لنفسك»(٤).

وفى خلال ذلك واصل أحمد بن طولون مساعيه فى بلاط الخليفة العباسى لتحقيق سيادته الفعلية على مصر، فورد عليه كتاب الخليفة «بأنه يتسلم الأعمال الخارجة عن أرض مصر، فتسلم الاسكندرية» ولما علم أحمد بن

---

(١) حسن أحمد محمود: مصر فى عصر الطولونيين ص ١٩.
(٢) البلوى: سيرة أحمد بن طولون ص ٣٩.
(٣) أبو المحاسن: النجوم ج٣ ص ٦ — ٩
(٤) البلوى: سيرة أحمد بن طولون ص ٤٦

طولون أن عامل البريد — وهو شقير غلام أم المعتز — يرسل سراً إلى دار الخلافة يحذر من أحمد بن طولون ومطامعه ، أخذ يسعى لعزل شقير من منصبه حتى حقق غرضه بعد مصرع المعتز وزوال سلطان أمه ، وأصبح البريد خاضعا لابن طولون. أما ابن المدبر عامل الخراج فكان الصراع بينه وبين أحمد بن طولون مريرا طويلا ، حتى إذا ما أرسل الخليفة المعتمد إلى أحمد بن طولون يستحثه فى جمع الأموال ، كتب ابن طولون إلى الخليفة يقول « لست أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى !! » فقلده الخليفة الخراج كما ولاه الثغور الشامية ؛ وبذلك « صار الأمر كله بيد أحمد بن طولون ، وقويت شوكته بذلك وعظم أمره بديار مصر[1] ». وكان ذلك سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦م) .

ولكن هذا لم يكن كل شيء فى نظر أحمد بن طولون ، لقد أخذ يطمع فى تحقيق الاستقلال لنفسه بحيث يضمن عدم عزله وبقاء الحكم فى بيته ، مع اعتراف الخلافة العباسية بوضعه ، حيث أن المسلمين فى تلك العصور كانوا لا يحترمون حاكما لا يحظى بعطف الخلافة وتأييدها. ولم تكن الصعوبة التى تواجه أحمد بن طولون من جانب الخليفة المعتمد الذى ربطته بابن طولون رابطة صداقة قوية ، وإنما نشأت هذه الصعوبة من جانب أبى أحمد الموفق ، أخى الخليفة الذى استأثر بالنفوذ فى دار الخلافة ولم يبق للخليفة من الخلافة إلا أسمها . وقد حدث أثناء اشتداد ثورة الزنج ضد الخلافة فى العراق أن طلب الموفق من أحمد بن طولون معونة مالية تستعين بها الخلافة على إخماد تلك الثورة ، فأمده أحمد بن طولون بمليون ومائتى ألف دينار . ولكن الموفق لم يرض بهذا المبلغ وأرسل إلى أحمد بن طولون رسالة يوبخه فيها وينذره ، فرد عليه ابن طولون برسالة قاسية[2]

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٧ .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون: ص ٨١ ، ابن سعيد: المغرب ص ٨٩ — ٩٠ .

وكان أن أضمر الموفق لأحمد بن طولون شراً ، فحاول أن يعزله عن ولاية مصر ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل سنة ٢٦٤هـ (٨٧٧م) لأن أحمد بن طولون كان قد قوى مركزه فى البلاد فلم يجرؤ أحد على مهاجمته لإخراجه من مصر بالقوة . وعندما اكتشف الموفق عجزه عن زحزحة أحمد بن طولون من مصر ، واصل سعيه حتى استصدر من الخليفة أمراً بعزله عن ولاية ثغور الشام . ولكن أحوال تلك الثغور اختلت واضطرب الأمن فيها وثار أهل طرسوس ، الأمر الذى اضطر الخليفة إلى إعادة أحمد بن طولون إلى ولاية الثغور مرة أخرى سنة ٢٦٤ (٨٧٧م) بل لم يلبث الخليفة أن قلده إمرة بلاد الشام كلها لا ثغورها فحسب(١)

ولم يكن منتظراً أن يرضى الموفق بتلك الهزيمة ، فاستغل فرصة انتصار قواته على صاحب الزنج سنة ٢٦٧ هـ (٨٨٠م) من ناحية ، وظهور بوادر الخلاف بين أحمد بن طولون وغلامه لؤلؤ الذى كان قد ولاه على حلب وقنسرين وديار مضر وحمص من ناحية أخرى . وعاود هجماته ضد ابن طولون . ولكن أحمد بن طولون أثبت مهارة سياسية تدل على بعد نظر، فكما أن غلامه لؤلؤ انحاز إلى الموفق ، لماذا لا يسعى هو لكسب الخليفة المعتمد، وهو صاحب الحق الشرعى فى السلطان وينحاز إليه ضد أخيه الموفق مغتصب السلطة ؟ وفعلا أرسل ابن طولون إلى الخليفة المعتمد يستهويه للقدوم إلى مصر ليستعيد كرامته وحريته بعد أن ضيق عليه أخوه الموفق . وفعلا خرج المعتمد متظاهراً برغبته فى الصيد حتى وصل إلى الرقة، ولكن أمره اكتشف وأعيد إلى العاصمة تحت حراسة رجال الموفق(٢) .

وكان ابن طولون قد وطد مركزه تماما فى بلاد الشام، فأخذ يتصرف

---

(١) حسن أحمد محمود: مصر فى عصر الطولونيين ص ٣٩

(٢) الطبرى . ج ٧ ص ١٠٧

فى قوة، وعندما فشلت جهوده فى استدراج الخليفة لتوفير الحماية له، عقد مؤتمرا فى دمشق لتقرير عزل الموفق من ولاية العهد بحجة أنه غير أهل لإمامة المسلمين. بل لقد أمر أحمد بن طولون بلعن الموفق على المنابر وإسقاط اسمه من الدعوة[١] .

وهكذا مضى الصراع بين أحمد بن طولون والموفق . وفى كل حلقة من حلقاته تزداد قدم ابن طولون رسوخا وثباتا ، مما يدعم استقلاله بمصر . وأخيراً عجز الموفق عن النيل من ابن طولون ، فى الوقت الذى تعب ابن طولون من ذلك النزاع الذى طال أمده ، فتم الصلح بين الطرفين بعد أن أطلق الموفق سراح أخيه الخليفة المعتمد ورد إليه اعتباره . وكان أن عدل ابن طولون عن لعن الموفق ، ورد الدعوة له . وبذلك تحققت آمال أحمد بن طولون فى الاستقلال بمصر .

سياسة أحمد بن طولون الداخلية :

اتبع أحمد بن طولون سياسة داخلية أكسبته حب المصريين وتأييدهم . ومن الواضح أن احمد بن طولون كان يسعى لتأمين مركزه فى مصر وتثبيت استقلاله بها ، فكان لا بد له من الاعتماد على سلامة الجبهة الداخلية للصمود فى وجه أعدائه فى الخارج ، وبصفة خاصة الموفق. لذلك حرص أحمد بن طولون على اقرار الأمن والنظام داخل البلاد، وقضى فى حزم على الثورات والفتن الداخلية ، مثل ثورة بغا الصغير وثورة ابن الصوفى العلوى وثورة العمرى، وبذلك اطمأن الناس على أرواحهم وأموالهم، وساد البلاد جو من الهدوء والأمن والاستقرار[٣] .

---

(١) البلوى: سيرة ابن طولون ص٢٩٨
(٢) الكندى : ص ٢٢٨
(٣) Zaky Hassan : Les Tulunides, p. 55.

ومن المعروف في التاريخ أن الرخاء الاقتصادي هو المفتاح الذي يستطيع أي حاكم أن ينفذ به إلى قلوب الشعب، لذلك حرص أحمد بن طولون على استرضاء أهل مصر عن طريق إلغاء الضرائب الظالمة التي فرضها والي الخراج السابق — ابن المدبر — عليهم . وأقصى ابن طولون عن ديوان الخراج كل من تشكك في ذمته، بحيث صار ديوان الخراج لا يضم إلا مجموعة من الموظفين الأكفاء المشهود لهم بالأمانة والعدالة. ولكي يضفي ابن طولون جوا من الثقة على المعاملات الاقتصادية، سك دينارا جديدا عرف بالدينار الطولوني امتاز بدقة عياره وثقل وزنه وخلوه من الغش والفساد[1] .

وصحب هذه السياسية حرص شديد من ابن طولون على رعاية شئون الزراعة والصناعة والتجارة ، فأحسن إلى الفلاحين وخفف عنهم الأعباء المالية ، وقدم لهم من الاصلاحات الزراعية ، ما جعل إنتاج القمح يتضاعف في البلاد حتى بيعت العشرة أرادب بدينار واحد . وشجع الصناعة عن طريق تخفيف الأعباء المالية عن الصناع ، كما أمن الطرق وخفف الضرائب مما أدى إلى تشجيع التجارة الداخلية والخارجية . وقد رفض ابن طولون أن يحتكر بعض أصناف المتاجر ، بل رفض أن يشغل بعض أمواله في التجارة لما في ذلك من مضاربة للتجـــار في أرزاقهم . وروى الذهبي وأبو المحاسن أن بعض التجار حسن لأحمد بن طولون التجارة ، فدفع له أحمد بن طولون خمسين ألف دينار يتجر له بها . ولكن ضمير ابن طولون لم يلبث أن أنبه فأرسل في الحال إلى التاجر وأخذ منه المال وتصدق به[2] .

هذا كله بالإضافة إلى ما أجمعت عليه المصادر من أن أحمد بن طولون كان يتصدق كل شهر بألف دينار، فضلا عن المنشآت الجليلة النافعة التي

---

(١) حسن أحمد محمود : مصر في عصر الطولونيين ص ٢٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ١٢

قام بها[١]. ويقول المقريزى عن صدقات أحمد بن طولون «وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر من الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة . . . سوى مطابخه التى اقيمت فى كل يوم للصدقات فى داره وغيرها ، ويذبح فيها البقر والكباش، ويغرف للناس فى القدور الفخار والقصاع، على كل قدر أو قصعة أربعة أرغفة ... وكانت تعمل فى داره وينادى : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر. وتفتح الأبواب ويدخل الناس ، وابن طولون ينظر ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون ، فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته[٢] » .

لذلك لا عجب إذا أحب الناس فى مصر ابن طولون ، وعندما اشتد عليه مرض الموت « خرج المسلمون بالمصاحف، واليهود بالتوراة والنصارى بالأنجيل ، والمعلمون بالصبيان، إلى الصحراء ودعوا له » وكان ألم الجميع عظيما عندما توفى أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ ﻫ (٨٢٣ م) بعد أن حكم مصر سبع عشرة سنة[٣] .

منشآت أحمد بن طولون :

ولا أدل على ثروة مصر فى أيام أحمد بن طولون ، وحرصه على الظهور فى صورة الحاكم المستقل، من كثرة المنشآت التى قام بها ، وما أنفق من أموال خلدت اسمه فى التاريخ .

ذلك أن رغبة أحمد بن طولون فى الاستقلال جعلته يفكر فى ترك مدينة العسكر — مقر الولاة العباسيين السابقين — ويختط لنفسه حاضرة

---

(١) ابن سعيد: المغرب ، ص ١٣٢

(٢) المقريزى : المواعظ ج١ ص ٣١٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج٣ ص ١٨ .

جديدة فى الجزء الواقع إلى الشرق من مدينة العسكر وإلى الشمال الشرق من مدينة الفسطاط، وأطلق على هذه العاصمة الجديدة اسم القطائع ، لأنها قسمت إلى أحياء وقطائع، كل قطيعة منها لطائفة أوجنس من طوائف الجيش الطولونى ، فضلا عن الغلمان والموالى وأصحاب الحرف ، بحيث يكون « لكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم » . وهكذا كانت هناك قطيعة السودان وقطيعة الروم وقطيعة الفراشين... وحرص احمد بن طولون على أن يجعل من القطائع مدينة مكتملة المرافق ، فعمرها « عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع[١] » .

وأقام أحمد بن طولون فى عاصمته الجديدة قصراً كبيراً له أبواب عديدة، لكل باب منها اسم يدل على الغرض منه ، فباب الميدان الكبير كان منه الدخول والخروج لجيشه وخدمه ، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصته ، وباب الجبل يلى جبل المقطم . . . وبهذا القصر ميدان كبير خاص بلعب الكرة . وسمى القصر كليه بالميدان ، ويقال أنه أنفق عليه خمسين ألف دينار . هذا عدا المنشآت الأخرى التى أقامها أحمد بن طولون وصرف عليها الأموال الطائلة ، مثل البيمارستان الذى أنفق عليه ستين ألف دينار ، وحصن الجزيرة الذى أنفق عليه ثمانين ألف دينار ، وغير ذلك من المنشآت التى زال معظمها واندثر ، ولم تبق إلا اوصافها فى كتب التاريخ .

على أنه إذا كانت معظم منشآت أحمد بن طولون قد اندثرت ومحيت آثارها ، فإن ثمة أثر خالد له ما زال باقياً يحمل اسمه ، وهو الجامع الشهير على جبل يشكر خارج القاهرة . وتجمع المراجع على أن أحمد بن طولون أنفق على هذا الجامع مبلغاً كبيراً يصل إلى مائة وعشرين ألف دينار . وثمة

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٥٣ — ٥٤ ؛ أبو المحاسن: النجوم ج٣ ص ١٤ — ١٥

قصة متواترة فى المراجع، خلاصتها أن أحمد بن طولون عثر على كنز فى صحراء الصعيد فى مكان يعرف باسم تنور فرعون، وأنه أرسل بخبر هذا الكنز إلى الخليفة المعتمد ، وأنه بنى منه البيمارستان والجامع ، ووقف ما تبقى منه على أعمال الخير[1] ، ونحن لا نستبعد أن يكون أحمد بن طولون قد عثر على مقبرة سليمة غنية من مقابر الفراعنة استمد منها تلك الثروة الطائلة التى قدرها المقريزى بألف ألف دينار .

ومهما يكن من أمر ، فإن هناك قصة تروى أن جبل يشكر مشهور بإجابة الدعاء ، لأن موسى عليه السلام ناجى ربه عليه بكلمات ؛ فاختار أحمد بن طولون هذا الوضع لبناء جامعه العظيم بمبانيه الجميلة الواسعة ومنارته الفريدة، على نفس طراز جامع سامراء ومنارته ، وألحق به ميضأة وخزانة أدوية وخصص له طبيب يجلس به يوم الجمعة على استعداد لإسعاف من يصيبه مرض طارىء من المصلين . ولم يضن ابن طولون على جامعه الكبير « بسلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة . وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية[2] » .

سياسة أحمد بن طولون الخارجية :

رأينا ما كان من موقف أحمد بن طولون من الخلافة العباسية فى العراق. والواقع أن رغبة ابن طولون فى الاستقلال بمصر من ناحية والموقف العدائى الذى وقفه منه الموفق فى العراق من ناحية أخرى ، أمليا عليه إحكام سيطرته على بلاد الشام حتى يحمى نفسه فى مصر ، وحتى يكون على مقربة من المسرح الرئيسى فى قلب العالم الإسلامى وهى قاعدة الخلافة فى العراق . وما زال

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٦٦
(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٦٥

أحمد بن طولون يسعى لتحقيق هدفه حتى قلده الخليفة بلاد الشام سنة ٢٦٤هـ (٨٧٧م)، فزحف على بلاد الشام على رأس جيوشه، وأخذ يتنقل من الرملة إلى دمشق إلى حمص، يثبت سلطانه ويقيم نوابه، حتى وصل إلى أنطاكية. وقد رفض سيما الطويل صاحب أنطاكية أن يسلم المدينة لابن طولون، فحاصرها الأخير، واقتحمها عنوة وأخضعها لسلطانه. وبعد ذلك تقدم حتى وصل إلى طرسوس، وهو الثغر الإسلامي الشهير على أطراف بلاد الروم. وكان من الممكن أن يواصل من ذلك المركز سياسة الجهاد ضد الروم لولا عدم اطمئنانه إلى جانب الموفق. لذلك اكتفى أحمد بن طولون بأن أرسل قواته للسيطرة على حران والرقة؛ وعاد هو إلى مصر سنة ٢٦٥هـ (٨٦٨م) بعد أن بسط نفوذه على بلاد الشام حتى حدود العراق والروم[1].

وفى سنة ٢٦٩هـ (٨٨٢م) اتجه أحمد بن طولون إلى الشام مرة أخرى ليواجه مؤامرة غلامه لؤلؤ الذى انضم إلى جيش الموفق، فضلا عن استقبال الخليفة العباسى المعتمد بعد أن أرسل له الأموال ورسم له خطة الفرار. هذا فضلا عما قام به ابن طولون فى تلك المرة من محاولة للقضاء على الفتنة التى أشعلها يازمان فى طرسوس. ولكنه لم يمكث فى منطقة الثغور طويلا وعاد بسبب مرضه، وهو المرض الذى أدى إلى وفاته فى العام التالى[2].

(١) الكندى: الولاة والقضاة ص ٢١٩

(٢) البلوى: سيرة ابن طولون، ص ٢١٠

الفصل الثانى

الدولة الطولونية فى أوج عظمتها

توفى أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ ﻫ (٨٨٣م)، وترك من بعده ثلاثة وثلاثين ولداً منهم سبعة عشر ذكراً. وكان المفروض أن يخلفه فى إمرة مصر ابنه الأكبر العباس، ولكن والده أحمد بن طولون غضب عليه لأنه عصى على والده ودخل الغرب، حتى تمكن أحمد بن طولون من القبض عليه وحمل إليه لحبسه. ويقال إن أحمد بن طولون احتفظ بابنه العباس حبيساً، ولم يأمن له بعد ذلك؛ حتى أنه عندما خرج إلى الشام فى العام السابق لوفاته، أخذ العباس معه مقيداً وعاد به كذلك، خوفا من أن يتركه فى مصر فيتآمر مرة أخرى ضده[1].

على أن أحمد بن طولون لم يشأ أن يحرم ابنه الأكبر من ملكه كلية، فأوصى له ببلاد الشام ومنطقة الثغور، بشرط أن يبايع أخاه الثانى خمارويه الذى أوصى له أبوه بإمرة مصر من بعده.

خمارويه وتدعيم الاستقلال (٢٧٠ — ٢٨٢ ﻫ ؟ ٨٨٣ — ٨٩٥م):

أدرك خمارويه أن نجاحه فى الميدانين الداخلى والخارجى يتوقف قبل كل شىء على تماسك بنى طولون، والحيلولة دون حدوث أى انشقاق داخل الأسرة بعد وفاة عميدها أحمد بن طولون، فضلا عن الاعتماد على عصبية قوية وجيش كبير يحمى المكاسب التى حققها أحمد بن طولون من ناحية

---

(١) أبو المحاسن: النجوم ج ٣ ص ٠٠

ويرد أى عدوان على دولة الطولونيين أو محاولة للانتقاص من استقلالها من ناحية أخرى .

وفى سبيل تحقيق هذه الأهداف لم يتردد خمارويه فى التصرف بحزم ؛ الأمر الذى جعله يلجأ إلى قتل أخيه الأكبر العباس عندما امتنع عن تنفيذ وصية أبيهما ومبايعة خمارويه بالإمارة . ولا شك فى أن هذه الخطوة أدت إلى وحدة الدولة الطولونية ، لأنه بصرف النظر عما كان يحتمل حدوثه بين الأخوين من شقاق ، فإن بقاء الشام فى قبضة العباس وبقاء مصر فى قبضة خمارويه ، أمر يحمل بين ثناياه بذور الفرقة بين شطرى الدولة الطولونية كما أسسها عميد البيت الطولونى أحمد بن طولون .

على أن خمارويه كان يدرك تماما أن الأمر لم يتم لأبيه إلا فى حماية القوة المسلحة ، وأنه لولا اعتماد أحمد بن طولون على جيش قوى لما استطاع الصمود فى وجه المنافسين والخصوم والأعداء جميعاً ، وخاصة ابن الموفق فى العراق الذى إذا كان قد اضطر اضطراراً إلى مصالحة ابن طولون فإنه فعل ذلك رضوخا أمام الأمر الواقع عندما أعجزته قوة ابن طولون عن القضاء عليه . لذلك كان على خمارويه أن يضاعف العناية بالجيش إذا أراد أن يحمى استقلاله ويدعم هذا الاستقلال ، وهو ما قام به فعلا .

سياسة خمارويه الخارجية :

لم يكد الموفق — أخو الخليفة المعتمد — يعلم بوفاة أحمد بن طولون ، حتى رأى فرصته قد حانت لاسترداد مصر والشام جميعاً من قبضة الطولونيين . وقد أحس خمارويه بنيات الموفق ، فبادر بإرسال جيشين إلى الشام أحدهما بقيادة كاتب أبيه أحمد بن محمد الواسطى ، والآخر بقيادة سعد الأيسر . وعزز هذين الجيشين بقوة بحرية ضخمة من المراكب « لتقيم بالسواحل الشامية » .

ولم يكن خمارويه مسيئاً فى ظنه بالموفق ، الذى خرج بدوره من العراق واستعان بابن كنداج والى مصر، ومحمد بن أبى الساج والى أرمينيه والجبال، وزحف الجميع على الشام . وفى الوقت نفسه لجأ الموفق إلى أساليب الخديعة والسياسة ، فاستمال الواسطى قائد جيش خمارويه إلى جانبه . ويقال إن الواسطى كان يخاف غدر خمارويه به ، لأن الواسطى هو الذى حرض خمارويه على قتل أخيه العباس ، لذلك بادر الواسطى بالاتصال بالموفق ، يستحثه فى غزو الشام ، مقللا له من شأن خمارويه الذى كان فى العشرين من عمره[١] .

وهكذا كشف الموفق عن نياته، فاستولت قواته على الرقة وقنسرين والعواصم ، ومضت فى بلاد الشام حتى استولت على دمشق ، ثم تقدمت جنوب الرملة تريد غزو مصر نفسها . وهنا أظهر خمارويه رباطة جأش كبيرة ؛ بخروج بنفسه إلى بلاد الشام لمواجهة قوى العدوان . وعلى الرغم من أن هزيمة حلت بجيوشه فى أول الأمر فى موقعة الطواحين بين الرملة ودمشق ، إلا ان الجيوش الطولونية استطاعت أن تعيد تنظيم صفوفها بقيادة سعد الأيسر . وبذلك حققت انتصارها على القوات العباسية وطردتها من بلاد الشام[٢]. وكان خمارويه قد عاد إلى مصر بعد هزيمته الأولى، فاستغل سعد الأيسر فرصة انتصاره وأراد ان يعمل لحسابه . فدخل دمشق واستولى عليها واستخف بخمارويه وغيره .

وعندما بلغ خمارويه نبأ ما فعله الأيسر . خرج إلى الشام سنة ٢٧٢هـ (٨٨٥م) فحارب سعد الأيسر حتى هزمه وقتله . وبعد أن قضى بضعة أيام فى دمشق خرج لقتال ابن كنداج حليف الموفق ، فأنزل به الهزيمة ، وظل

---

(١) الكندى : كتاب الولاة ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٢) الطبرى : ج ٨ ص ١٤٩ .

أصحاب خمارويه يطاردونه حتى أبواب سامراء ، « فعظم أمر خمارويه فى هذه الموقعة وهابته الناس[1] » .

وأخيرا أدرك أبو أحمد الموفق — أخو الخليفة — أن خمارويه مع صغر سنه لا يقل عن أبيه قوة وعزيمة ، فوافق الموفق على الصلح الذى طلبه خمارويه « وكتب لخمارويه بولايته على مصر والشام جميعه والثغور ، ثلاثين سنة ، وقدم بالكتاب بعض خدام الموفق إلى الشام شهر رجب ، وعرفه الخادم أن الكتاب كتبه الخليفة المعتمد وأخوه الموفق وابنه ، بأيديهم تعظيما لخمارويه » !!

ولم تنته متاعب خمارويه بهذا الصلح ؛ وإنما بلغه مسير محمد بن أبى الساج — عميل الموفق — إلى مصر ، فخرج إليه خمارويه وقاتله على نهر دجلة « حتى هزمه أقبح هزيمة » ؛ وذلك سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٨م). وكان من أثر ذلك أن دانت لسلطان خمارويه الموصل والجزيرة ، وخضع له يازمان الخادم والى طرسوس ، بعد أن كان قد أعلن خروجه عن طاعة الطولونيين سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣ م)[2] . وسرعان ما أدى استقرار الأمور لخمارويه فى الأنحاء الشمالية لدولته إلى استئناف سياسة الجهاد ضد الروم (سنة ٢٧٨ — ٢٧٩ هـ = سنة ٨٩١ — ٨٩٢ م) الأمر الذى جعل الروم يطلبون الصلح سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م)

سياسة خمارويه الداخلية :

وعندما استراح خمارويه من ناحية المتاعب الخارجية بوجه عام والموفق بوجه خاص ، أخذ « فى إصلاح ممالكه » ، أى أخذ يوجه عنايته نحو شئون

---

(١) [illegible] ج ٣ ص ٥١ .

(٢) [illegible] القصة ص ٢٣٩

البلاد الداخلية . ذلك أن خمارويه عمل على استرضاء أهل البلاد مثلما فعل أبوه أحمد بن طولون من قبل ؛ فتسامح مع النصارى وأحسن إليهم، وتحبب إلى المسلمين من المصريين وأجزل لهم العطاء، الأمر الذى جعله محبوبا من العامة والخاصة سواء[1] .

وقد أجمعت المصادر التاريخية على عظم ثروة مصر فى عهد خمارويه وعلى إسرافه وكثرة منشآته وميله إلى الترف والإمعان فى التنعم. ويعطينا المؤرخ أبو المحاسن صورة واضحة عن ذلك بقوله « ولما ملك خمارويه الديار المصرية بعد موت أبيه أحمد بن طولون ، أقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه محاسن كثيرة ؛ وأخذ الميدان الذى كان لأبيه المجاور للجامع . فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء ، فينحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض الماء إلى مجار تسقى سائر البستان . وغرس فى أرض البستان من الريحان المزروع فى زى نقوش معمولة وكتابات مكتوبة ، يتعاهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة، لئلا يشكل ذلك على القارىء . . .[2] » وبعد أن يروى أبو المحاسن أصناف الطيور الجميلة الصادحة التى عنى خمارويه بتربيتها فى ذلك البستان، والإستراحة الخاصة التى أقامها خمارويه لنفسه فيه وسماها دار الذهب لأن حيطانها كلها طليت بالذهب ، يشير إلى الفسقية التى عملها خمارويه وملأها بالزئبق ، لأنه شكا إلى طبيبه من الأرق فأشار عليه بأن ينام على سرير من الجلد المنفوخ بالهواء ويوضع السرير على سطح من الزئبق ليهتز الفراش فى رفق ونعومة ، مما يجلب

---

(١) حسن أحمد محمود : مصر فى عصر الطولونيين ، ص٥٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم/ ص ٥٣ — ٥٤ .

النوم فى عينى خمارويه ؛ « وكانت هذه البركة من أعظم الهمم الملوكية العالية ، وكان يرى بها فى الليالى المقمرة منظر عجيب ، إذا تآلف نور القمر بنور الزئبق . . . ولقد أقام الناس مدة طويلة بعد خراب هذا القصر يحفرون لأخذ الزئبق من شقوق البركة[١] » .

ثم إن خمارويه بنى داراً كبيرة أسماها دار الحرم ، نقل إليها أمهات أولاد أبيه مع أولادهن ، وجعل معهن المعزولات من أمهات أولاده ، وخصص لهن جميعاً المال الجزيل والخدم والأتباع . ويروى المقريزى كيف أن الطعام الفائض كل يوم من دار الحرم كان يوزع على الخدم والطباخين وغيرهم ، فيفوز كل واحد منهم بكميات ضخمة من الدجاج ولحوم الضأن والقطائف والحرائس الشىء الكثير ، فكانوا يبيعون تلك الكميات الضخمة من الطعام للأهالى بحيث أن الفرد إذا فاجأه ضيق ، خرج إلى باب دار الحرم فيجد فوراً ما يشتريه من أفخر الأطعمة بأرخص الأثمان « مما لا يقدر على عمل مثله[٢] » .

وهكذا عم الرخاء البلاد والعباد جميعاً فى عهد خمارويه ، فلهج الجميع بشكره وحمده ، وساد البلاد جو من الرضى والهدوء .

زواج قطر الندى :

ولا أدل على مدى الرخاء الذى عم مصر على أيام خمارويه ومدى ثروة خمارويه نفسه ، من الأوصاف التى تحفل بها المصادر عن جهاز ابنته قطر الندى التى تزوجت من الخليفة المعتضد العباسى . والواقع أنه إذا كان خمارويه قد صادف فى بداية عهده متاعب من جانب الموفق وأخية الخليفة المعتمد العباسى فإن الأول لم يلبث أن توفى سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) ولحق به المعتمد فى العام

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٣١٦ .
(٢) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٣١٧ .

التالى ، وعندئذ ولى الخلافة العباسية المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق. وقد رأى خمارويه فى ذلك التغيير فرصة طيبة لأقرار العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية على وضع متين دائم من الصفاء والمودة . لذلك بادر خمارويه بتهنئة الخليفة الجديد المعتضد، وأرسل إليه الهدايا والتحف، وعرض عليه أن تتزوج قطر الندى — ابنة خمارويه — من المكتفى بالله ابن الخليفة . فلما سمع الخليفة المعتضد ذلك قال «بل أنا أتزوجها» واختار قطر الندى لنفسه. فتزوجها سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) بعد أن دفع لها صداقا قدره ألف ألف درهم. ويروى المؤرخون أن الخليفة العباسى أراد أن يفقر خمارويه بزواجه من ابنته ، وذلك حتى يستنزف أمواله فى جهاز ابنته « وكذا وقع » أى أن الخليفة نجح فى تحقيق غرضه[١] . ولا داعى للدخول فى تفاصيل هذا الجهاز ولكن تكفى الإشارة إلى أنه « جهاز عظيم يتجاوز الوصف ، حتى قيل أنه دخل معها فى جملة جهازها ألف هاون من الذهب ، » وكان من جملة جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة، وعلى طول الطريق من مصر إلى بغداد بنى لها قصر مفروشا به جميع ما تحتاج إليه على رأس كل منزلة تنزل فيها ، بحيث أنها طوال الطريق من مصر إلى بغداد « كأنها فى قصر أبيها !! » .

وإذا كان المعتضد قد حقق غرضه وحمل خمارويه فى جهاز ابنته ما أجهده فإن خمارويه قد حقق من ناحيته غرضه فى تحسين العلاقة مع الخلافة العباسية « فزالت الوحشة من بينهما ، وصار بينهما مودة كبيرة »[٢] . ويبدو أن الخليفة المعتضد أحبها حبا شديداً لجمال صورتها وكثرة آدابها . ويقال إن الخليفة فى بعض الأيام وضع رأسه على ركبتها فنام ، فلما أدركه النعاس

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج٣ ص ٥٣

(٢) المرجع السابق .

تلطفت به، وأزالت رأسه عن ركبتها ووضعتها على وسادة ، ثم جلست على مقربة منه . ولكنه لم يلبث أن تنبه وعاتبها أنها تركته وحيداً فربما اعتدى عليه أحد فى نومه ، فأجابت عليه بأن والدها خمارويه علمها — فيما أدبها به — « أنى لا أجلس مع النيام ولا أنام مع الجلوس !! » فأعجبه ردها « إلى الغاية » .

الفصل الثالث

سقوط الدولة الطولونية

يقال أن خمارويه قضى الفترة الأخيرة من حياته تعيساً معذباً ، فقد كانت له حظية عزيزة على قلبه اسمها بوران – هى التى بنى لها القصر المعروف ببيت الذهب – فلما ماتت هذه الحظية انكسر قلبه « وكدر موتها عيشه ، وانكسر انكساراً بان عليه . » على قول المؤرخ أبى المحاسن .

وقد حكى عن خمارويه أنه كان « كثير الفساد بالخدم » متعسفاً معهم . فبعد أن جهز ابنته قطر الندى وأرسلها إلى زوجها خرج إلى دمشق حيث أساء معاملة بعض خدمه ، فتآمر بعضهم عليه وذبحوه فى سنة ٢٨٢هـ (٨٩٥م) بعد أن حكم مصر والشام اثنتى عشرة سنة . وكان أن حمل جثمانه فى تابوت إلى مصر حيث أقيمت المآتم واشتد الحزن عليه .

انحلال البيت الطولونى :-

وقد حكم مصر بعد مقتل خمارويه ثلاثة من آل طولون ، لم يزد حكمهم جميعاً على عشر سنوات ، سقطت بعدها الأسرة الطولونية . وشهدت هـذه السنوات العشر الأخيرة من تاريخ الدولة الطولونية انحلالا واضحا وتدهوراً سريعاً ، بعد أن بلغت تلك الدولة أوج قوتها ومجدها وعظمتها على عهد خمارويه . وزاد من ذلك الانحلال انقسام البيت الطولونى على نفسه ، فأبناء خمارويه كانوا صغاراً ضعفاء ليس لهم من أسباب الهيبة والنضج ما يجعلهم موضع احترام الجند ، وأخوة خمارويه كانوا أشداء أقوياء ، كل منهم متحفز للحصول على نصيب الأسد من تركة أبيهم أحمد ابن

طولون ، وجند خمارويه وغلمانه وقادة جيشه أفسدتهم النعمة العريضة التى عاشوا فيها فى كنف خمارويه ، بعد أن دللهم وأغدق عليهم «وألبسهم الأقبية من الحرير والديباج وصاغ لهم المناطق ، وقلدهم بالسيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم[١] » .

ومن الواضح أنه وسط المنازعات التى نشبت بين أبناء البيت الطولونى بعد مقتل خمارويه ، كانت الكلمة الأولى للجند والموالى والغلمان؛ إذ صار فى استطاعتهم — بحكم ما لهم من قوة — ترجيح كفة أحد الطامعين فى الحكم على كفة آخر . والواقع أن رجال الجيش أخذوا يتدخلون فى الشئون الداخلية منذ أيام خمارويه نفسه، وخاصة بعد أن هدأت العلاقات مع الخلافة العباسية ، ولم توجد حروب تشغلهم ، فانصرفوا إلى جمع الأموال ومدوا أصابعهم إلى مالا يعنيهم من الأمور الداخلية . ولم يجد خمارويه ما يسكتهم به فى هذه الحالة سوى إعطائهم مزيداً من المال أو الاستعانة بالفقهاء لاسترضائهم[٢] .

ولم يكن من مصلحة قادة الجيش أن يلى أمور البلاد بعد مقتل خمارويه أحد أخوته من الرجال الأشداء، فتظاهروا بالولاء لأبناء خمارويه . واختاروا ابنه أبا العساكر جيش الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، وبذلك يسهل عليهم أن يلعبوا به لأنه « صبى لم يؤدبه الزمان ولا حنكته التجارب والعرفان » .

وكان أن أقبل أبو العساكر جيش على الشرب واللهو مع مجموعة من « عامة أوباش » الناس، اتخذ منهم بطانة له ، فزينوا له الغدر بعمه أبى العشائر حتى قبض عليه وقتله ، الأمر الذى أغضب الناس عليه . وكان أن غضب

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٥٩ .

(٢) حسن أحمد محمود : مصر فى عصر الطولونيين ص ٦٩ .

أمراء الجيش وقادته عندما وجدوا أبا العساكر يهملهم ولا يستمع إلا لتلك المجموعة من «الأوباش» الذين اتخذهم أصفياء وندماء له. وزاد غضب القادة عندما علموا أنه عندما يستبد الخمر بعقله يقول لندمائه واحداً بعد آخر. «غداً أقلدك موضع فلان وأهب لك داره وأسوغك نعمته، فأنت أحق من هؤلاء الكلاب (يقصد قادة الجيش)».

وكان أن خرج بعض القادة والغلمان — وهم نحو ثلثمائة — من مصر وقصدوا العراق سنة ٢٨٣هـ (٨٩٦ م) ليلوذوا بالخليفة المعتضد الذى أحسن استقبالهم وأكرمهم. ويبدو أن هؤلاء كانوا قد دبروا مؤامرة للتخلص من أبى العساكر جيش، ولكن أمرهم افتضح، ففروا من مصر قبل أن يتعرضوا لنقمته[١].

وفى الوقت الذى خرج أمير دمشق وأمير الثغور عن طاعته، استمر جيش فى غيه. الأمر الذى جعل قادة الجيش يقومون بمحاولة أخرى لخلعه. وفى هذه المرة واجهوه بالحقيقة وطلبوا منه أن يتنحى ليحل محله عمه مضر فى الحكم، ولكن جيش رد عليهم بأن دخل على عمه — وكان معتقلا — فقتله، وقذف برأسه إلى الجند قائلا لهم «خذوا أميركم»!! وعندئذ لم يستطع قادة الجيش صبراً فخلعوا أبا العساكر جيش وحبسوه سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) بعد أن ولى أمر البلاد ستة أشهر، ولم يلبث أن قتل فى السجن بعد بضعة أيام[٢].

ومرة أخرى اتجه قادة الجيش نحو تعيين أحد أبناء خمارويه، تظاهراً بالولاء لبيته وتخوفا من أن يلى الإمرة بعض إخوة خمارويه الناضجين.

---

(١) الطبرى: ج ٨ ص ١٧٤.
(٢) أبو المحاسن: النجوم ج ٣ ص ٩٣ — ٩٤.

وكان أن تمت مبايعة هارون بن خمارويه — وكان صبياً صغيراً — فقام بالوصاية عليه أبو جعفر محمد بن أبى، وهو رجل ذو « دهاء ومكر »، على قول أبى المحاسن. وقد استمر هارون يحكم حكماً إسمياً مدة ثمانى سنين وثمانية أشهر؛ فى حين كانت السلطة الفعلية فى يد محمد بن أبى وأعوانه من كبار رجال الجيش. وقد ظلت أمور البلاد مضطربة فى عهد هارون بن خمارويه، وأستمر هو متشاغلا « باللهو والسكر »، حتى انتهى الأمر بقتله سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م)، وسنه يومئذ اثنان وعشرون سنة[١].

وبعد قتل هارون نادى قتلته بعمه شيبان أميراً على مصر. وكان شيبان هذا « أهوج، جسورا، جسيما، جلدا، شديد البدن فى عنفوان شبابه، فصار يسرع فى أموره ». وكانت المشكلة التى واجهت حكام مصر بعد مقتل خمارويه هى عدم وجود المال الكافى لمنح العطاء للجند، الأمر الذى جعل الجند فى حالة ثورة دائمة بسبب الرغبة فى العطاء. ولا يخفى علينا أن خمارويه كان قد أنفق كل ثروته فى جهاز ابنته قطر الندى بحيث ترك الخزانة خاوية، مما جعل ابنه وخليفته أبا العساكر جيش يعانى حرجاً « لقلة المال وعجزه عن أن ينعم عليهم، لأن أبا الجيش خمارويه كان أنفق فى جهاز ابنته قطر الندى لما زوجها للخليفة المعتضد جميع ما كان فى خزائنه ومات بعد ذلك بمدة يسيرة، فمات حقا حين حاجته إلى الموت لأنه لو عاش أكثر من هذا حتى يلتمس ما كانت جرت عادته به لا ستصعب ذلك عليه، ولو نزلت به ملمة لا فتضح !! »[٢]. وهكذا استمر حكام مصر من الطولونيين بعد خمارويه يعانون الضيق الشديد نتيجة للاسراف فى جهاز قطر الندى.

ولم يكن فى وسع شيبان — مع قلة موارده وضيق ذات يده واختلال

(١) أبو المحاسن: النجوم ج ٣ ص — ١١٠ — ١١١ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٨٨ .

أمور جيشه — الثبات فى وجه الخلافة العباسية ، التى أخذت تفيق لتسترد نفوذها الضائع فى مصر والشام . وكان أن استأمن شيبان لمحمد بن سليمان قائد الجيوش العباسية التى غزت مصر سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) ، فحمل أسيراً إلى العراق . وقبل أن نتكلم عن زوال ملك بنى طولون من مصر ، نلقى نظرة على بلاد الشام وأثر انحلال الأسرة الطولونية فى أوضاعها .

انفصال بلاد الشام وظهور القرامطة :

رأينا كيف نبعت قوة الطولونيين فى عهد أحمد بن طولون ثم فى عهد ابنه خمارويه من وحدة مصر والشام ، تلك الوحدة التى مكنتهم من حماية موقفهم الداخلى من ناحية، والصمود فى وجه الخلافة العباسية من ناحية ثانية، ثم النهوض بين حين وآخر بحلقه من حلقات الجهاد ضد الروم من ناحية ثالثة . ولكن انحلال الدولة الطولونية بعد خمارويه ترتب عليه تمزق تلك الوحدة بين مصر والشام ، فانسلخت الشام عن مصر ، مما أدى إلى تغيير صورة الدولة الكبيرة القوية التى عرفها التاريخ على أيام أحمد بن طولون ، ثم ابنه خمارويه .

ذلك أن طغج بن جف أمير دمشق وابن طغان أمير الثغور لما سمعا بأمر أبى العسا كر جيش « خلعاه جميعاً وأسقطا اسمه من الدعوة والخطبة على منابر أعمالهم » . ولا شك فى أن ذلك الحدث له خطورته لأنه لم يعرض حدود مصر الشرقية للخطر فحسب ، وإنما مكن أولئك الخوارج من التحكم فى أحوال الشام مع وفرتها وكثرتها[1] . ولا أدل على تبلد حكام مصر من أبناء خمارويه من أن جيشا عندما سمع بانفصال أمير دمشق « لم يكربه ذلك ولا استشنعه ولا رئى له على وجهه أثر » .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٢ .

على أن الأمر انتهى بقتل جيش بن خمارويه . فخلفه هارون ، وفى عهده رأى أمراء الجيش فى مصر أنهم أضعف من أن يخضعوا الأمير طغج أمير دمشق . فأرسلوا إليه سفارة تساومه على أن يعلن الطاعة لهارون ويبقى له نفوذه فى الشام

وإذا كان الأمير طغج قد وقف موقفاً مائعاً . فإن ابن طغان أمير الثغور، وخليفته راغب من بعده ، رفضا متابعة حاكم صبى فى الوقت الذى يتطلب موقع بلادهما يقظة شديدة لمواجهة الروم وجهادهم[1] .

ولا يخفى علينا أن أمراء الشام والثغور وجدوا فى ذلك الدور تأييداً قوياً من الخلافة العباسية المتطلعة إلى استعادة نفوذها فى الشام ومصر . فلقد بادرت الخلافة العباسية عندما انكشفت سوء أوضاع الطولونيين بعد وفاة خمارويه إلى استرداد منطقة الجزيرة من الطولونيين . ثم خرج الخليفة المعتضد نفسه إلى آمد ليتطلع إلى الخطوة التالية وهنا تصرف الطولونيون تصرفاً يدل على الضعف والخوف ، ويناقض الموقف الصريح الذى سبق أن وقفه كل من أحمد بن طولون وخمارويه من الخلافة العباسية من قبل . ذلك أن هارون بادر بالاتصال بالخليفة العباسى يطلب منه تجديد الاتفاقية القديمة بين الطولونيين والخلافة . فرفض الخليفة المعتضد ذلك . وأخيراً رضى هارون بشروط الخليفة العباسى . وأهمها دفع ... ألف دينار للخلافة العباسية سنوياً . فضلا عن الاعتراف باستيلاء الخلافة العباسية على الجزيرة والعواصم من ديار ربيعة وديار مضر[2] .

وزاد من اختلال الأمور ببلاد الشام فى ذلك الدور ظهور القرامطة على مسرحها . وهؤلاء القرامطة جماعة من الخوارج ادعوا النسب إلى العلويين

---

(١) [illegible]
(٢) [illegible]

ونادوا بمبدأ شيوع الثروة ، الأمر الذى مكنهم من إجتذاب جموع الدهماء والمعدمين والحاقدين. وكان أول ظهورهم من منطقة واسط سنة ٢٧٧ هـ (٨٩٠م) ، ثم نفذوا إلى بلاد الشام سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢م) حيث وجدوا فى اضطراب أمورها بيئة خصبة لنشر تعاليمهم الهدامة . وقد عجز أمير دمشق طغج بن جف عن صدهم . . وفى الوقت الذى عجز الطولونيون فى مصر والشام عن قمع خطر القرامطة والحد من عبثهم ببلاد الشام ، كان الخليفة المكتفى العباسى « متيقظا فى هذا الحال »[1] ، فبادر بإرسال جيش كثيف بقيادة محمد بن سليمان إلى الشام للقضاء على القرامطة . وكان هذا الجيش هو الذى قضى على القرامطة والطولونيين جميعاً فى الشام ومصر وأعادهما إلى حظيرة الخلافة العباسية

الخلافة العباسية واسترداد مصر :

والواقع أن الخلافة العباسية رغم ما أصابها من عوامل الضعف فى القرن الثالث إلا أنها استطاعت أن تدخل مرحلة جديدة من الإفاقة بعد القضاء على ثورة الزنج (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ = ٨٦٩ — ٨٨٣ م) . وبدأت هذه الإفاقة فى صورة واضحة على عهد الخليفة المعتضد الذى استعاد نفوذ الخليفة المسلوب وحرص على الظهور فى صورة الحاكم القادر على مباشرة سلطانه والتمتع بحقوقه . ويؤكد الباحثون أنه كان فى استطاعة الخليفة المعتضد أن يسترد الشام ومصر ويقضى على ما تبقى من نفوذ الطولونيين ، لولا حرصه على علاقة المصاهرة ووفائه لزوجته قطر الندى وعدم رغبته فى التعرض لأخيها أبى العساكر جيش ويدل على هذا كله أن المعتضد غير سياسته

---

(١) [illegible]

تجاه الطولونيين عقب وفاة زوجته قطر الندى[1] . وقد انتهى الأمر بينه وبين الطولونيين بعقد الاتفاقية السابق الإشارة إليها مع هارون .

ومهما يكن من أمر، فإن موقف الخليفة المكتفى كان أقوى بكثير . ذلك أن الموقف الداخلى فى العراق كان هادئاً مما مكنه من النفاذ إلى شئون الشام، فاستغل فرصة فتنة القرامطة وأرسل جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الذى أنزل الهزيمة بالقرامطة قرب حماه وقضى عليهم وحمل زعماءهم أسارى إلى العراق[2] . ولم يكن منتظرا من الخليفة المكتفى أن يقنع بالسيطرة على بلاد الشام وأمامه مصر يترنح فيها الحكم الطولونى. لذلك ما كاد محمد بن سليمان يفرغ من القضاء على القرامطة بالشام ، حتى أمره الخليفة بالزحف على مصر ، يؤيده الأسطول العباسى فى البحر المتوسط . وكان أن انضم إلى محمد بن سليمان أمير دمشق وغيره من الأمراء الناقمين على البيت الطولونى ، وشرع الجميع فى الزحف على مصر .

ومن الخطأ أن نتصور الطولونيين فى النزع الأخير وقد استسلموا دون مقاومة ، إذ جمع هارون قواته عند العباسة بالشرقية ، فى الوقت الذى التقى الأسطول الطولونى بأسطول الخلافة عند تنيس ، فانتصر الأسطول العباسى واستولى العباسيون على دمياط . وفى ذلك الموقف الحرج قتل هارون ، وانضم كثير من قواته إلى الغزاة ، فخلفه شيبان سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م). ويذكر أبو المحاسن أن شيبان ناوش العباسيين ساعة ، أدرك بعدها « قلة من معه من الرجال وكثرة جيوش محمد بن سليمان » . لذلك استجاب شيبان لمحمد بن سليمان عندما كتب إليه الأخير يؤمنه على نفسه وأهله وولده وماله

---

(١) حسن أحمد محمود : مصر فى عصر الطولونيين ص ٧٦

(٢) الطبرى : ج ٨ ص ٢٢٦ — ٢٢٨

« فجمع إخوته وبنى عمه فى الليل وتوجهوا إلى محمد بن سليمان وصاروا فى قبضته » .

وهكذا دخل محمد بن سليمان على رأس الجيوش العباسية مدينة مصر « من غير أن يمنعه عنها مانع » ، فقتل كثيراً من الناس ، وأحرق بعض القطائع « وزالت دولة بنى طولون كأنها لم تكن »[1] .

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

الفصل الرابع

أوضاع مصر الحضارية فى عصر الطولونيين

بلغت الدولة الطولونية من العمر ثمانية وثلاثين عاماً (٢٥٤ — ٢٩٢هـ = ٨٦٨ — ٩٠٥ م) وهى فترة قصيرة فى تاريخ الدول ، نافهة فى تاريخ الأمم والشعوب . ومع ذلك فإن للدولة الطولونية — على قصر عمرها — أهمية خاصة فى تاريخ مصر الحضارى. ومهما تتعدد مظاهر هذه الأهمية فإننا نستطيع أن نضع يدنا على مظهرين أساسيين ، كان لهما اليد الطولى فى تكييف أوضاع مصر الحضارية فى عصر الطولونيين . أما المظهر الأول فهو ظهور مصر — لأول منذ الفتح العربى — فى صورة الدولة المستقلة . وأما المظهر الثانى فهو ظهور طابع الثراء فى الحياة المصرية، مع ما لهذا الثراء من أثر واضح فى حياة الحكام والمحكومين جميعاً .وسنعالج فيما يلى بعض أوضاع مصر الحضارية فى عصر الطولونيين مع العناية بإبراز أثر العاملين السابقين فى هذه الأوضاع .

تطور نظم الحكم والإدارة :

إذا كانت مصر منذ الفتح العربى سنة ١٨ هـ (٦٣٩م) حتى قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨م) قد ظلت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية الكبرى ، تصرف أمورها وتدار شئونها وتستمد نظمها من قاعدة الخلافة، سواء كانت فى المدينة أو دمشق أو بغداد ، فإن الوضع اختلف بقيام الدولة الطولونية فى حكم مصر . ذلك أن مصر غدت فى ظل هذه الدولة وحدة مستقلة ، لأول مرة فى تاريخها منذ الفتح العربى . ومعنى ذلك أن شخصية مصر برزت عندئذ فى صورة مستقلة مكتملة الكيان إلى حد واضح ، الأمر الذى انعكست صورته بشكل ملحوظ فى نظم الحكم ، فأخذ الطولونيون يضعون من النظم الجديدة ويشكلون فى النظم القديمة بما يتفق وهذه الصفة؛

صفة الاستقلال . بل لقد حرص أحمد بن طولون أن يهجر دار الإمارة ، وهى مدينة العسكر مقر الولاة العباسيين السابقين ، ويختط لنفسه حاضرة جديدة يتخذها مركزاً له ولحكمه ، هى مدينة القطائع التى سبق الكلام عنها ، والتى جاء تأسيسها تأكيدا لصفة الاستقلال فى العصر الطولونى .

وهذه الحقيقة الكبرى أبرزها القلقشندى، فقال إن مصر منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الطولونية كانت نيابة مثل سائر النيابات التى يحكمها ولاة أو نواب عن الخليفة ؛ وأن هذه النيابات كانت مضمحلة ضعيفة الظل إلى جانب عظمة الخلافة وضوئها الباهر . ولكن أحمد بن طولون فى مصر ، كان « أول من أخذ فى ترتيب الملك ، وإقامة شعائر السلطنة بالديار المصرية[1] » . ومعنى هذه العبارة الصريحة الواضحة أن أحمد بن طولون هو أول من شرع فى ترتيب نظم الحكم فى مصر الإسلامية داخل إطار مستقل عن الخلافة ، يضمن لمصر بروز شخصيتها واكتمال صورتها العربية الإسلامية .

ويقول القلقشندى إن أحمد بن طولون « لما شمخ سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ فى ترتيب ديوان الانشا لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات ...[2] » ، ونستطيع نحن أن نتناول هذه العبارة الموجزة بالشرح والتعليق ، فنقول إنه إذا كان القلقشندى قد اختص ديوان الانشاء بالذكر فليس معنى ذلك أن أحمد بن طولون لم ينظم بقية الدواوين — مثل ديوان الخراج وديوان الجيش وغيرهما — . وإنما اختص القلقشندى ديوان الأنشاء بالذكر لأنه موضوع كتابه الكبير «صبح الأعشى فى صناعة الأنشا» . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه لا يخفى علينا أن ديوان الأنشا قام فى العصور الوسطى بوظيفة وزارة الخارجية فى عصرنا الحديث ، فكانت

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١١ ص ٢٠١ — ٢٩ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ١١ ص ٢٩ .

تتجه إليه المراسلات والمكاتبات من كافة الحكام والدول ، وتصدر عنه مختلف المكاتبات إلى سائر الحكام والدول . ولم يكن منتظرا من ولاة مصر قبل العصر الطولونى أن يكون لهم ديوان انشاء مستقل، لأن الاتصال لا يكون إلا بينهم وبين السلطة المركزية ممثلة فى الخلافة . ولكن باستقلال مصر فى العصر الطولونى ،أخذ حكامها يتصرفون كما يتصرف كل حاكم مستقل ،وأصبح لهم ديوان للإنشاء يتولى أمر الاتصالات مع سائر حكام الدول الأخرى . وقد أورد القلقشندى صورة كتاب بعث به أحمد بن طولون — بأسلوب صاحب ديوان الإنشاء ابن عبد كان — إلى أحد رجاله يقلده قضاء برقه . ويحوى هذا الكتاب من العبارات القوية ما يشعرنا أنه صادر فعلا عن حاكم مستقل يعتز بنفسه ويثق فى قوته ويزهو بسلطانه[١]

تطور المجتمع المصرى :

عقد ابن خلدون فى مقدمته الخالدة فصلا يوضح فيه كيف أن الترف من طبيعة الملك . قال فيه « ذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدى أهل الملك قبلها كثر رياشها ونعمتها فتكثر عوائدهم. ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته .. [٢] » .

هذه العبارة الموجزة . التى ذكرها فيلسوف الإسلام الخالد الذكر ابن خلدون تتضمن حكما خطيراً من أحكام التاريخ ، خلاصته أن كل دولة تتغلب على ما قبلها . تضفى على نفسها من أسباب العظمة ما هو كفيل بأن يجعلها فى مكانة مرموقة وسط غيرها من الدول . والمشاهد دائما أن لكل دولة أو نظام أنصاره وبطانته من المنتفعين ، وهؤلاء هم دعامة الحكم

---

(١) القلقشندى صبح الأعشى ج ١٠ص ٢٩ — ٣٢

٢) مقدمة ابن خلدون ... ص ... تحقيق ... على عبد الواحد وافى

وحمايته وأول المستفيدين من ورائه ، فيرون في بقائه بقاءاً لهم ، وفي استمراره استمراراً لامتيازاتهم ، فيحيطونه بسياج منيع من الحماية حرصاً — قبل أي اعتبار آخر — على مصالحهم . وفي الوقت نفسه يرى الحكام في هذه الطبقة الجديدة الحماة الطبيعيين لملكهم ونظامهم ، فيغدقون على أفرادها الامتيازات ويسرفون في منحهم الأموال والعطاءات . وربما كان الحكام على درجة من القوة في أوائل عهد الدولة تضمن لهم السيطرة على تلك الفئة ، ولكن الذي يحدث غالبا هو أنه مع تقدم الدولة في العمر ينتاب حكامها الضعف فتتحول حماية المنتفعين إلى وصاية ، ويصبح الحكام ألعوبة في أيديهم .

هذا هو حكم التاريخ ؛ ولم يكن للدولة الطولونية أن تخرج عن هذا الحكم . فهذه الدولة قامت ليجد حكامها أنفسهم في حاجة إلى بطانة جديدة تحيط بهم وتحمي كيانهم وتهيء لهم من أسباب العظمة ما هو جدير بكبار الحكام . وكان أن نشأت طبقة جديدة في المجتمع المصري في العصر الطولوني تألفت من رجال الجيش — بأجناسه وطوائفه المتعددة — ومن زعماء الغلمان ، ومن كبار الموظفين . . وكثير من هؤلاء وفدوا على مصر بطريقة أو أخرى ، وحظوا بعطف الحكام الذين أغدقوا عليهم الثروة ، فتحولوا إلى طبقة مترفة تفيض حياتها بالبذخ والثراء[1] .

والواقع أن أهم صفة اتصف بها المجتمع في مصر على عصر الطولونيين — وخاصة عهد خمارويه — كانت صفة الثراء العريض والبذخ الشامل . وحسبنا ما سبق أن عرضناه من أوصاف موجزة لجهاز قطر الندى ومنشآت خمارويه وقصوره . . . لنجد فيه دليلا على مـــدى ثروة الحكام وبطانتهم في ذلك العصر .

---

(١) انظر ابن الداية : المكافأة ، ص ٥ ، ٨٨ .

ولاشك فى أن هذه الثروة تركت أثرها فى تطوير المجتمع المصرى وجعله يتخلى إلى حدما عن صفة البساطة التى اتصف بها فى الدور الأول من ادوار العصر الإسلامى .

فإذا تركنا الحكام وبطانتهم ، ونظرنا إلى سواد المجتمع المصرى ، وجدنا أن هذا المجتمع أخذ يتشكل فى ذلك العصر ليكتسب مزيداً من الطابع العربى الإسلامى بعد أن أصبح المسلمون يشكلون غالبية أهل البلاد . ومع ذلك فلم يكن منتظراً من أهل مصر أن يتخلوا سريعاً عن كثير من العادات والتقاليد التى أخذوا بها قبل الفتح العربى ، بدليل تمسك الشعب المصرى — من المسلمين والمسيحيين سواء — بإحياء كثير من الأعياد والاحتفالات المسيحية ، مثل عيد الغطاس .

وقد استمرت مشاركة المسلمين فى الاحتفال بهذه الأعياد إلى عصر سلاطين المماليك فى مصر . ولا أدل على تماسك الشعب المصرى وتآخى أبنائه من المسلمين والمسيحيين فى ذلك الدور ، من احتفاظ بعض الأقباط بمناصبهم الكبرى فى الدولة ، ومن تعاون الطرفين فى شئون الحياة . ويروى أبو المحاسن أن أحمد بن طولون عندما كان فى زيارة دمشق احترقت كنيسة مريم « فأمر بسبعين ألف دينار من ماله ، وأن يعطى لكل من احترق له شىء »[١] .

وفى عصر الطولونيين كان الامتزاج الجنسى بين العرب الذين وفدوا على مصر واستقروا فى أرجائها ، وبين أهل البلاد من المصريين ، قد آتى ثماره ، فظهرت جموع جديدة من المولدين ، وهؤلاء الذين كون منهم خمارويه فرقاً جديدة من جيشه ، لما لهم من « شجاعة وشدة بأس . . . وخلق تام وعظم أجسام »[٢] .

---

(١) ابو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ١٣ — ١٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٩

الجيش والبحرية :

عني الطولونيون بالجيش والبحرية عناية كبيرة للمحافظة على استقلالهم ودعم هذا الاستقلال . أما الجيش فبلغ درجة كبيرة من القوة وخاصة على عهد خمارويه . وكان الجيش يتكون من فرق عديدة من الترك والسودان. فإذا ركب خمارويه فإن موكبه كان يسير وفق نظام خاص ، فتمضى «أصناف العسكر وطوائفه » من الأتراك وغيرهم . وبعد ذلك يأتى الجند السودان « وعدتهم ألف أسود ولهم درق من حديد محكم الصنعة، وعليهم أقبية سود وعمائم سود ، فيخالهم الناظر إليهم بحراً أسود يسير ، لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم، ويصير لبريق درقهم وحلى سيوفهم والبيض التى تلمع على رءوسهم من تحت العمائم زى بهيج »[١] .

ولم يكتف خمارويه بذلك ، بل كون طائفة من مولدى الحوف ، أى من الجيل الجديد الذى نشأ عن التزاوج بين العرب والمصريين ، والذين كانوا يسكنون إقليم الحوف . وكان هؤلاء يشتغلون « بقطع الطريق وأذية الناس » فرأى خمارويه أن يشغلهم عن ذلك وأن يستفيد من شجاعتهم وقوتهم البدنية ، التى اشتهروا بها ، فاختار منهم الشباب المعروفين « بالشجاعة وشدة البأس ، لهم خلق تام وعظم أجسام » وكون منهم فرقة خاصة فى جيشه سماهم « المختارة » أى جعلهم بمثابة طليعة الجيش يتقدمون جنده ، « أو يقاتلون أضعاف ما يقاتله الجند »[٢] .

ولكى يضمن خمارويه ولاء الجند له وتفانيهم فى نصرته « أجرى عليهم الأرزاق ووسع لهم فى العطاء » ، حتى بلغ « رزق الجيش المصرى أيام

---

(١) المقريزى : المواعظ ، ج ١ ص ٣١٧ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٩ .

خمارويه فى السنة تسعمائة ألف دينار » ولا شك فى أن إحساس خمارويه بقوة جيشه جعله يعتمد على هذه القوة الضاربة فى انتهاج سياسة خارجية تتصف بالجرأة والحزم .

أما الأسطول فكان موضع اهتمام الطولونيين ، ليحموا به شواطىء مصر والشام ، ويحتفظوا باستقلالهم فى وجه الخلافة العباسية . وكان أن اهتم أحمد بن طولون بأمر الأسطول ، فجدد بناء دور الصناعة التى تصنع بها السفن ودب النشاط فى القواعد البحرية فى دمياط والاسكندرية[1] . وقد ذكر المقريزى أن ابن طولون بنى « أسطولا يتألف من مائة مركب حربية سوى ما يضاف إليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسانيك والزوارق وقوارب الخدمة »[2] .

وقد أدت سيطرة الطولونيين على الشام إلى تحكمهم فى ثغوره وموانيه ، مما حقق لهم الإشراف على مياه الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط . وكان أن أخذت وحدات من الأسطول المصرى تخرج من موانى الشام لتهاجم سفن الروم فى بحر إيجه وبلاد اليونان . ومن أبرز الغارات التى قام بها الأسطول المصرى على الروم مهاجمة سالونيكا سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٤ م) ، إذ تم الاستيلاء على هذه المدينة الهامة وقضى المسلمون فيها بضعة أيام يدمرون منشآتها ، ثم تركوها بعد أن حملوا منها عددا ضخما من الأسرى وقدراً كبيراً من الغنائم[3] .

ولا أدل على عناية الطولونيين بأمر الأسطول مما يقوله ابن أياس من

---

(١) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٩١ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٩ ص ٢٢٢ .

(٣) Vasiliev : Hist. of the Byzantine Empire, Vol. 1, p. 305.

أن عدة الأسطول الذى تركه أحمد بن طولون عنـــد وفاته بلغت ألف سفينة[١] .

انتعاش الأحوال الاقتصادية :

انتعشت الأحوال الاقتصادية فى مصر على أيام الطولونيين انتعاشاً كبيراً ، ظهر أثره فى وفرة الثروة ، لا فى أيدى الحكام فحسب ، بل فى أيدى الشعب ، كما يبدو من كثير من الإشارات المتناثرة فى المصادر .

فالزراعة انتعشت انتعاشاً كبيراً يدل عليه وفرة المحاصيل ورخص أسعارها ، حتى بيع كل عشرة أرادب من القمح بدينار على أيام أحمد بن طولون . وربما ساعد على ذلك الرخاء عدم تعرض مصر فى ذلك العصر لأزمة اقتصادية نتيجة لانخفاض فيضان النيل ، كما كان يتكرر كثيراً فى العصور القديمة والوسطى .

وقد أجمعت المصادر التى عالجت تاريخ الطولونيين على أن أحمد بن طولون عنى بالزراعة عناية كبيرة فكانت الدولة تمول محاصيل الفلاحين ، بمعنى أن تمد لهم يد العون وتساعدهم بالبذور والسائمة . على أن تسترد قيمة تلك المساعدات منهم بعد جمع المحاصيل ، فإذا عجزوا عن السداد تنازلت الدولة عن حقوقها قبلهم . واستفادت الدولة فائدة ضخمة من وراء تشجيعها الزراعة ومساعدتها الفلاحين ، حيث ازداد الخراج زيادة ضخمة فى عصر الطولونيين بالذات[٢] .

أما الصناعة فى عصر الطولونيين فبلغت درجة كبيرة من الرقى ، تشهد عليها

---

(١) ابن أياس : بدائع الزهور ج : ص ٤٠ .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١٩٠

منشآت الطولونيين من ناحية والأوصاف التي تتردد في المصادر عن الإنتاج الصناعي والفني في عصرهم من ناحية أخرى . ومازال جامع أحمد بن طولون يشهد على روعة الصناعة والفن في ذلك العصر . ومن ناحية أخرى ، فإن أوصاف جهاز قطر الندى بما احتواه من قطع فنية دقيقة ، فضلا عن أوصاف قصور خمارويه، لتشهد جميعاً على مدى رقي الصناعة وسمو الفنون في ذلك العصر . ولا يخفى علينا أن رقي الفن مرتبط دائماً بازدياد الثروة، فمع الضيق الاقتصادي والفقر لا ترتقي الفنون غالبا .

ومن الصناعات التي شهدت نهضة طيبة في عصر الطولونيين صناعة المنسوجات الكتانية والصوفية والحريرية والقطنية ، فضلا عن صناعة المعادن والأسلحة والسكر والزيوت وغيرها[1] .

ولا شك في أن رقي الزراعة والصناعة في أي زمان ومكان يترتب عليه نشاط التجارة، لأن وفرة الإنتاج الزراعي والصناعي تتطلب العمل على تسويق ذلك الإنتاج . والنشاط التجاري يتطلب دائما دعامتين هامتين هما الحرية والأمن . وهذا ما حرص الطولونيون على توفيره للتجار فتركوا لهم حرية مزاولة نشاطهم . ونشروا الأمن والاستقرار بين ربوع البلاد . هذا بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من حرص أحمد بن طولون على سك الدينار الطولوني الذي إمتاز بسلامة عياره بما جعله موضع ثقة المتعاملين من الباعة والمشترين سواء .

وإذا كانت التجارة الداخلية قد انتعشت في عصر الطولونيين حتى ذكر البلوي في سيرة ابن طولون أن أسواق القطائع صارت حافلة بكل صنف من أصناف البضائع ، مكتظة بالمتعاملين ، فإن التجارة الخارجية ازدادت

---

(١) زكي محمد حسن : الفن الإسلامي في مصر ص ٨٥ وما بعدها .

هى الأخرى نشاطا فى عصر الطولونيين، معتمدة على موقع مصر الفذ بين الشرق والغرب ، وهو الموقع الذى أفادت منه مصر دائما فى عصور مجدها وازدهارها[١] .

أزدهار الحركة الفكرية :

شهدت مصر فى عصر الطولونيين نهضة فكرية ثقافية واسعة شملت ميادين عديدة ، من أدب وتاريخ وعلوم دينية وفلسفية وغيرها . وكانت هذه النهضة فى حقيقة أمرها جزءا من النهضة الثقافية العامة التى شملت العالم الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى . وقبل أن نتكلم بإيجاز عن جوانب هذه النهضة يصح أن نشير إلى أنه لم تكن هناك مدارس فى ذلك العصر ؛ وإنما جرت العادة أن تلقى الدروس فى الجوامع — مثل جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون — هذا فضلا عما كان يجرى فى بيوت الأمراء والوزراء من ندوات علمية .

ففى ميدان الأدب سبق أن أشرنا إلى أن الطولونيين أسسوا ديوان الإنشاء بمصر . ومعنى هذا أن مصالحهم الواسعة جعلتهم يصطنعون عدداً كبيرا من الكتاب ، مما ساعد على ارتقاء فن الكتابة فى ذلك العصر . وأول من تولى ديوان الإنشا فى ذلك العصر كان أبو جعفر محمد المعروف بابن عبد كان الذى وصفه ابن النديم أنه كان « بليغا مترسلا فصيحا[٢] » ، فى حين قال عنه القلقشندى أنه اشتهر بالبلاغة وحسن الكتابة[٣] وقد اتجه فن الكتابة فى ذلك العصر إلى الناحية الفنية التى يتكلفها الكاتب ، ويتعمد تجميلها وزخرفتها

---

(١) حسن أحمد محمود: مصر فى عصر الطولونيين ص ١١٣ — ١١٧ .
(٢) ابن النديم: الفهرست ص ١٩٧ .
(٣) صبح الأعشى : ج ١ ص ٩٥ .

«وهذا ما نراه عن الكتاب الذين نراهم فى العصر الطولونى وما بعده[1]» .
أما فى الشعر فقد اشتهر العصر الطولونى بكثرة الشعراء . ومن المعروف أن الشعراء فى تلك العصور يتكاثرون حيث يكثر المال حتى يتكسبوا من مديح الحكام . ويذكر أبو المحاسن أن القاضى أباعمرو عثمان النابلسى قال فى كتاب «حسن السيرة فى إتخاذ الحصن بالجزيرة» : رأيت كتابا قدر اثنتى عشر كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذى كان لأحمد بن طولون ، فإذا كان اسم الشعراء فى اثنتى عشر كراسة فكم يكون شعرهم[2] !

والمعروف أن الطولونيين كانو أهل كرم ، يجودون بالأموال الكثيرة والعطايا ، ولذا وفد عليهم الشعراء والأدباء طمعا فى صلاتهم . واتصف الشعر فى ذلك العصر بانغماس بعض الشعراء فى اللهو والمجون ، وهذا نتيجة طبيعية لحياة الترف . وقد عرف عن أحمد بن طولون — مع تمسكه بأهداب الدين — أنه كان يشرب الخمر ويسمع الغناء ، وظهر هذا الاتجاه فى بعض الأشعار المعاصرة .[3] واشتهر من شعراء العصر الطولونى الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل الذى ظهر الطابع المصرى فى شعره فى ميله إلى الفكاهة ، كقوله فى ابن المدبر — صاحب خراج مصر — وكان الشاعر إذا مدحه ولم يرتض شعره أمر بحمله إلى المسجد ويفرض عليه أن يصلى عددا معلوما من الصلاة ، فقال الجمل[4] .

قصدنا فى أبى الحسن مديحا　　كما بالمدح تنتجع الولاة
فقالوا يقبل المدحات ولكن　　جوائزه عليهن الصلاة

---

(١) محمد كامل حسين : أدبنا العربى فى عصر الولاة ص ٩٨
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٣٩ — ١٤٠ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ١٢٤
(٣) محمد كامل حسين : أدبنا العربى فى عصر الولاة ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(٤) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ١٧٢

فقلت لهم وما تغنى صلاتى عيالى ؟ إنما الشأن الزكاة
فيأمرلى بكسر الصاد منها فتصبح لى الصّلاة هى الصِّلات

وجاءت النهضة الأدبية مقرونة فى ذلك العصر بازدهار الدراسات اللغوية ، وهى الحركة التى كان على رأسها الوليد بن محمد التميمى النحوى المعروف بولاد وأحمد بن جعفر الدينورى صاحب كتاب المهذب فى النحو ، وأبو جعفر النحاس وغيرهم .(١)

أما الكتابة التاريخية فى العصر الطولونى فخير ما يمثلها كتابات أحمد ابن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الدايه الذى كتب فى سيرة ابن طولون وسيرة أبى الجيش فضلا عن كتاب المكافأة الذى بناه على قصص لمن عملوا الجميل فجزاهم الله خيرا عما عملوا .

أما العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات فكانت لها الغلبة ، إذ وفد على مصر كثير من علماء المشرق والمغرب ، على رأسهم الربيع بن سليمان المرادى (١٧٤ — ٢٧٠ هـ = ٧٩٠ — ٨٨٣ م) الذى كان يدرس فى جامع الفسطاط فاستدعاه أحمد بن طولون إلى التدريس فى مسجده بعد أن أتم بناؤه ، وإليه يرجع الفضل الأكبر فى حفظ المذهب الشافعى . أما إمام الحنفية فى مصر فى تلك الحقبة فكان أبو جعفر الطحاوى (٢٢٩ — ٣٢١ هـ = ٨٤٣ — ٩٣٣ م) الذى ألف فى معانى القرآن كما ألف فى التاريخ والفقه .

وإلى جانب هذه الحركة الأدبية والدينية ، كانت بمصر حركة فلسفية ، هى فى الواقع أثر من آثار مدرسة الاسكندرية . حقيقة أن آثار هذه المدرسة ضعفت نتيجة للفتح الإسلامى واهتمام الناس فى العهد الجديد

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ١٧٢ .
(٢) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٦٨ وما بعدها .

بالثقافة العربية الإسلامية ، لكن الحكام لم يكن لهم غنى عن الأطباء والمنجمين ، والطب والتنجيم فرعان من فروع الفلسفة اليونانية[1] . وغالب من اشتغل بهذين العلمين فى ذلك العصر كانوا من النصارى ، مثل سعيد بن نوفل النصرانى طبيب ابن طولون ، وقد عين بطريركا على الاسكندرية وله كتب فى الطب والجدل ، كما ترجم بعض كتب أرسطو .

وهكذا يبدو لنا أن مصر فى العصر الطولونى لم تكن بمعزل عن النهضة الفكرية الكبرى التى شهدها العالم الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى .

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١ ص ١٧٤

مصادر

البلوى : سيرة ابن طولون
الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
ابن كثير : البداية والنهاية
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة
المقريزى : المواعظ والاعتبار .

مراجع

Zaky Hassan : Les Tulunides.
حسن أحمد محمود : مصر فى عصر الطولونيين .

الباب الثالث

الدولة الإخشيدية

الفصل الأول

قيام الدولة الإخشيدية

مصر بين العباسيين فى المشرق والفاطميين فى المغرب :

نجح محمد بن سليمان الكاتب قائد جيوش الخلافة العباسية فى القضاء على الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) ، فأحرق عاصمتهم القطائع بحيث لم يسلم منها سوى جامع أحمد بن طولون ، وقبض على بنى طولون وكبار أتباعهم وساقهم جميعاً أمامه إلى بغداد .

ولا شك فى أن المصريين أسفوا أسفاً عميقاً لتلك النهاية المؤلمة التى انتهت إليها دولة الطولونيين ؛ إذ مهما يقال فى أصل الطولونيين وفى أنهم من ناحية الدم أغراب عن البلاد ، فإنه يكفى أنهم حكموا مصر حكماً مستقلاً وأن إدارتهم كانت نابعة من جوف البلاد لا من أوامر صادرة إليهم من دار الخلافة ببغداد . هذا إلى ما تمتعت به مصر فى عصر الطولونيين من إزدهار حضارى وانتعاش اقتصادى . حقيقة إن الجزء الأكبر من ثروة البلاد فاز به الحكام ومواليهم ، ولكنهم كانوا ينفقون تلك الأموال داخل البلاد فيعم الخير المواطنين جميعاً . وشتان بين هذا الوضع وبين ما دأب عليه الولاة العباسيون من استنزاف موارد البلاد لإرسالها كل سنة إلى مقر الخلافة فى بغداد أو سامراء .

هذا إلى أن عودة الحكم العباسى المباشر إلى مصر جاء فيما يبدو مصحوباً بروح التشفى والانتقام، فأساء رجال الخليفة العباسى إلى المصريين وامتهنوهم وتطرفوا فى معاملتهم، ولعلهم أرادوا أن يعاقبوهم على استكانتهم للطولونيين وتقبلهم لحكم بنى طولون، بل إشادتهم به. ويقول أبو المحاسن عن محمد بن سليمان — القائد العباسى الذى قضى على دولة بنى طولون — إن «حكمه فى أهل مصر كان بضرب أعناقهم وبقطع أيديهم وأرجلهم جوراً، وتمزيق ظهورهم بالسياط، وصلبهم على جزوع النخل، ونحو ذلك من أصناف النكال[1] . . .» لذلك لم يسع المصريون وسط تلك الغمة سوى أن يترحموا على آل طولون ويذكروا حلو أيامهم، ونظم الشعراء الشعر فى رثائهم، ومن ذلك ما قاله ابن أبى هاشم[2] :

يا منزلا لبنى طولون قد دثرا
سقاك صرف الغوادى القطر والمطرا
يا منزلا صرت أجفوه وأهجره
وكان يعدل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحبتنا
أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا

والواقع إن زوال الدولة الطولونية لم يتم دون محاولة من جانب أنصارها لإحيائها. ذلك أن الخليفة المكتفى العباسى لم يكد يولى على مصر أبا موسى عيسى بن محمد النوشرى حتى قامت ثورة كبرى لإحياء الدولة الطولونية بزعامة محمد بن على الخلنجى المعروف بابن الخليج. وكان ابن الخليج هذا أحد رجال الطولونيين الذين ساقهم معه إلى العراق القائد العباسى محمد بن سليمان

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ١٢٩
(٢) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٣٢٤

الكاتب . ولكنه تمكن من الفرار أثناء الطريق إلى بغداد ، وعاد مسرعاً إلى مصر للقيام بحركة تستهدف إحياء الدولة الطولونية . وعندما وصل ابن الخليج مدينة الرملة دعا على منابرها لإبراهيم بن خمارويه، ثم لنفسه بوصفه نائباً عن إبراهيم الذى حمل أسيراً فى بغداد . وكان أن صادف ابن الخليج تأييداً كبيراً من المصريين فازداد أتباعه ، وتوالت انتصاراته على والى مصر النوشرى الذى اضطر إلى الجلاء عن الفسطاط . ولم تلبث أن دانت الدلتا بأ كلها لابن الخليج : مما أنذر بخروج مصر مرة أخرى من قبضة الخلافة العباسية[1] .

وعندما أحس الخليفة المكتفى بخطر حركة ابن الخليج ، أرسل الجيش تلو الآخر لإخضاعه ، حتى حلت الهزيمة بابن الخليج قرب بنى سويف سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٥ م) ففر إلى الفسطاط حيث ألقى القبض عليه ، وأرسل إلى بغداد ليشهر به قبل إعدامه . وبذلك عادت مصر مرة أخرى إلى قبضة الخلافة العباسية .

والواقع إن سرعة نجاح ابن الخليج واستطاعته التغلب على نفوذ الخلافة العباسية فى مصر نحواً من سبعة أشهر ، إنما يرجع الفضل فيها إلى تحمس الشعب المصرى ضد الخلافة التى قضت على دولة لها فى مصر طابع قومى[2] ، وإذا كانت ثورة الخلنجى — أو ابن الخليج — قد فشلت ، فلا أقل من أن يعبر المصريون عن استيائهم من الخلافة العباسية وما فعلته ببنى طولون تعبيراً جديداً عن طريق التجاوب مع النفوذ الفاطمى الذى ظهر فى المغرب .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣١٣ وما بعدها : أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ١٤٧ وما بعدها .

(٢) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ص ١٢٨ .

ذلك أن عبيد الله المهدى — وهو من سلالة فاطمة الزهراء — استطاع أن ينتقل إلى بلاد المغرب حيث كان أبو عبد الله الشيعى قد نجح فى نشر الدعوة للفاطميين . وعلى الرغم من أن عبيد الله المهدى مر متخفياً بمصر فى طريقه إلى المغرب ، إلا أنه من الصعب فهم كيف فات أمره على محمد بن سليمان أو عيسى النوشرى ، فلم يقبضا عليه رغم الأوامر المشددة التى أصدرها الخليفة العباسى بالقبض عليه . ويفهم من كلام المؤرخين الذين عالجوا هذا الموضوع أن عبيد الله المهدى حمل معه أثناء رحلته مالا كثيراً استطاع أن يرشو به هذا أو ذاك من الولاة أثناء رحلته ، حتى وصل سليما إلى سجلماسة بالمغرب[1] .

ومهما يكن من أمر ، فإن أقدام الفاطميين لم تكد تثبت فى المغرب حتى تطلعوا لامتلاك مصر ، نظرا لما لها من موقع فذ وخيرات ضخمة . وهنا يؤكد الكندى أن بعض المصريين كاتبوا الفاطميين فى المغرب وطلبوا منهم غزو مصر ، الأمر الذى يشير إلى أن المصريين وجدوا فى هذه القوة الجديدة على حدود بلادهم الغربية منفذا للخلاص من سيطرة الدولة العباسية[2] . وكان أن أرسل المهدى جيشاً لغزو مصر سنة ٣٠١ ﻫ (٩١٣م) بقيادة حباسة بن يوسف . فاستولى الفاطميون على برقة ثم الإسكندرية، ومنها أوغلوا فى الوجه البحرى. وكان والى مصر عندئذ أبو منصور تكين الذى عين واليا على مصر بعد وفاة عيسى النوشرى سنة ٢٩٧ﻫ (٩٠٩م) ، فلم يستطع وقف الغزو الفاطمى وأرسل إلى الخليفة العباسى مستنجدا به . وقد أفزعت هذه الأخبار الخليفة المقتدر العباسى فأرسل جيشا كبيراً بقيادة مؤنس الخادم ، وتمكن هذا الجيش من إنزال الهزيمة بحباسة قائد الجيش الفاطمى، فاضطر إلى الانسحاب إلى المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمى[3] .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٨ ، ابن الأثير ج ٨ ص ١٢ — ١٤ .

(٢) الكندى : ص ٢٧٦ .

(٣) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٥١ .

أما مؤنس الخادم — قائد الجيش العباسي — فقد عزل تكين عن ولاية مصر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) وأقره الخليفة المقتدر على رأيه، وأرسل واليا جديداً هو ذكا الأعور أو ذكا الرومي (٣٠٣-٣٠٧هـ = ٩١٥-٩١٩م). ويبدو أن هذا الوالي الجديد أتى إلى مصر مزودا بتعليمات باستئصال شأفة أنصار الفاطميين من مصر، فتتبع كل من أتهم بالإتصال بهم، وعاقبهم بالسجن، كما قطع أيدي بعضهم وأرجلهم[1]. على أن هذه الإجراءات لم تمنع الفاطميين من معاودة التفكير في غزو مصر، وفي الوقت نفسه لم تمنع المصريين من التجاوب مع الفاطميين بقلوبهم وأحاسيسهم. وكان أن غزا مصر سنة ٣٠٧هـ (٩١٩م) جيش فاطمي بقيادة أبي القاسم بن المهدي، فاستولى على الاسكندرية وسار إلى الجيزة. وكان ذكا الرومي قد توفي في نفس السنة، فخلفه في ولاية مصر تكين للمرة الثانية، ولكن تكين لم يستطع أن يحرز انتصارا على الفاطميين، الأمر الذي جعل الخليفة العباسي يرسل جيشاً إلى مصر بقيادة مؤنس الخادم سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠م). ويبدو أن الموقف كان خطيرا عندئذ لأن النفوذ الفاطمي امتد في البلاد حتى الأشمونين والفيوم، ولكن الهزيمة حلت بهم، واضطر أبو القاسم ابن المهدي إلى الفرار إلى المغرب بعد أن خسر كثيراً من جنده وسفنه[2].

ومهما يكن من أمر، فإنه من الواضح أن هذه المحاولات الأولى التي قام بها الفاطميون لغزو مصر لم يقدر لها النجاح، لأن الخلافة العباسية كانت عندئذ لا تزال على درجة من القوة مكنتها من مدافعة الفاطميين[3]. هذا وإن كانت الخلافة العباسية نفسها قد اهتزت أمام الخطر الفاطمي، لأن هذا الخطر لم يكن مجرد تهديد عادي بضياع مصر مرة أخرى من قبضة

---

(١) الكندي : ص ٢٧٤ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٣٩ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١١٦ .

الخلافة العباسية ، وإنما زاد من وقع هذا الخطر أنه نابع من جانب العلويين ، فضلا عن أن سيطرة الفاطميين على مصر من شأنها أن تمهد لامتداد نفوذهم إلى الشام مما يهدد الخلافة العباسية فى عقر دارها .

أما عن مصر نفسها ، فقد غدت ساحة للصدام بين القوتين اللتين أخذتا تتناطحان حول اقتسام العالم الإسلامى ، وهما الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية . ولا شك فى أن وقوع هذا الصدام أكثر من مرة على أرض مصر أنزل كثيراً من الأضرار بأهلها وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود ، فساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال .

وفى الوقت الذى كانت أمور مصر قسمة بين الولاة من ناحية وقادة الجيش العباسى فيها من ناحية أخرى ، إستطاع الماذرائيون أن يحتفظوا لأنفسهم بكلمة مسموعة فى تصريف شئون البلاد .

أما هؤلاء الماذرائيون فهم أسرة فارسية الأصل ، نزحت من العراق إلى مصر حيث تمتعوا بنفوذ كبير أيام الطولونيين وبعد أيام الطولونيين . وظهر هذا النفوذ الواسع فى تقلدهم بعض الوظائف الرئيسية فى البلاد . وقد اشتهر منهم أبو على الحسين الماذرائى المعروف بأبى زنبور ، الذى تولى منصب عامل الخراج فى مصر بعد عودتها إلى حظيرة الخلافة العباسية . وهكذا سيطر الماذرائيون فى ذلك الدور على الحياة الإقتصادية والنشاط المالى فى مصر الشام ، وجمعوا من وراء ذلك ثروة طائلة ، الأمر الذى جعل منهم قوة لها حسابها ووزنها فى تاريخ مصر عند قيام الدولة الأخشيدية[1] .

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ص ١٣٣ — ١٣٤ .

ظهور الإخشيديين :

ولا شك فى أن هذه الأحداث المتداخلة تعطينا فكرة واضحة عما وصل إليه العالم الإسلامى من تفكك فى القرن الرابع الهجرى — العاشر للميلاد — فبعد أن كانت هناك خلافة واحدة يجلس صاحبها فى دمشق ويصدر أوامره فتلبي مشيئته فى البصرة وأصفهان والمدينة وصنعاء والفسطاط والقيروان وقرطبة ؛ إذا بالعالم الإسلامى يفقد وحدته السياسية وتتقاسمه فى القرن الرابع الهجرى ثلاث خلافات ، هى الخلافة الأموية فى الأندلس والخلافة الفاطمية فى شمال أفريقية فضلا عن الخلافة العباسية فى العراق ، وهى الخلافة التى أخذ الوهن يتدرج تدريجاً فى جسدها . وكان أقوى مظاهر إنحلال الخلافة العباسية الحركات الإنفصالية التى قامت فى أرجائها وولاياتها من ناحية ، ثم عجز الخلفاء العباسيين أنفسهم عن السيطرة على شئون الحكم ووقوعهم تحت سيطرة عناصر الأتراك الذين صار منهم قادة الجيش والوزراء وأرباب النفوذ فى الدولة من ناحية أخرى .

وإذا كانت المراجع قد إعتادت أن تنسب إلى عهد الخليفة العباسى المعتصم بالله — ابن هارون الرشيد — إزدياد نفوذ الأتراك فى الدولة ، والإستغناء بهم فى الجيش عن جنود الأبناء والعرب جميعاً ، فإنه من الثابت أن الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤١ م) جلب جموعا من أتراك فرغانة ، وبالغ فى إكرامهم وأقطعهم القطائع فى سامراء للإستعانة بهم والإعتماد عليهم فى حماية ملكه[1] . وبرز من هؤلاء الأتراك جف — جد الأخشيديين — الذى حظى عند الخليفة المعتصم بمكانة كبيرة لشجاعته وإقدامه فى الحروب . وبعد وفاة المعتصم ، ظل جف يتمتع بنفس

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٩ .

المكانة عند إبنه الخليفة الواثق (ت ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ م) ، ثم عند الخليفة المتوكل (ت ٢٤٧ هـ = ٨٦١ م). ويقال إن جف توفى فى بغداد فى الليلة التى قتل فيها الخليفة المتوكل العباسى ، وعندئذ لم يجد أولاده بدآ من ترك بغداد، فإنصرف طغج بن جف إلى مصر ، حيث إتصل بلؤلؤ غلام أحمد بن طولون ، وعن هذا الطريق تمكن من الإتصال بأحمد بن طولون نفسه .

على أن طغج لم يظل على ولائه لأحمد بن طولون، وإنما إنضم إلى جانب إسحق بن كنداج والى الموصل الذى دخل فى صدام عنيف مع ابن طولون كما مر بنا . واستمر على ذلك حتى توفى أحمد بن طولون وتم الصلح بين إبنه خمارويه وإسحق بن كنداج، وعندئذ عاد طغج إلى ولائه للطولونيين، فعينه خمارويه واليا على دمشق وطبرية . ورغم مايقال عن سوء التفاهم بين خمارويه فى أواخر أيامه وطغج ، إلا أن الأخير قام بخدمة سيده بكفاية نادرة ، حتى قتل خمارويه ، وعندئذ واصل طغج العمل فى خدمة ابنه جيش بن خمارويه. وظل طغج بن جف يعمل واليا شبه مستقل على بلاد الشام حتى مقتل جيش بن خمارويه وقيام هارون بن خمارويه فى الحكم، فتعرضت بلاد الشام لغزو القرامطة (سنة ٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م) وعجز الطولونيون عن صدهم . وكان أن انتهز الخليفة المكتفى بالله العباسى فرصة الصدام بين القرامطة والطولونيين ليسترد نفوذ الخلافة فى بلاد الشام ، فأرسل جيشاً بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ليضرب القرامطة والطولونيين جميعاً ، كما مر بنا ، وكان ذلك فى الوقت الذى إستاء طغج بن جف بسبب مقتل هارون بن خمارويه ، فإنضم مع مجموعة من قادة الطولونيين إلى جانب محمد بن سليمان العباسى .

وهكذا دخل الجيش العباسى مصر بقيادة محمد بن سليمان يصحبه طغج بن جف . وعند عودة محمد بن سليمان إلى بغداد صحب معه طغج بن جف . ولكن وزير الخليفة المكتفى العباسى نقم على طغج فأوقع به عند الخليفة الذى أمر بحبس طغج وإبنيه محمد وعبيد الله ، فظلوا فى السجن

حتى توفى طغج سنة ٢٩٤ هـ (٩٠٦ م) وعندئذ أفرج عن ولديه ، فلازما الوزير العباس بن الحسن حتى انتقما لأبيهما بالمشاركة فى قتله ، وعندئذ هرب عبد الله بن طغج إلى ابن أبى الساج أمير داغستان ، فى حين هرب أخوه أبو بكر محمد إلى الشام . ومحمد بن طغج هذا هو مؤسس الدولة الإخشيدية

محمد بن طغج الاخشيد وولاية مصر :

أقام محمد بن طغج فى بادية الشام نحوا من عام ، حتى اتصل بأبى منصور تكين والى مصر . ولم يلبث أن أخذ نجم محمد بن طغج يعلو بسرعة ، فقام بدور كبير فى طرد الفاطميين من مصر سنة ٣٠٢ هـ ثم سنة ٣٠٧ هـ (٩١٤ ، ٩١٩ م) فضلا عن جهوده فى حماية الحجاج من الأعراب والبدو الذين قطعوا طريق الحج سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) بين دمشق والحجاز .

ويبدو أن أخبار شجاعة محمد بن طغج وحسن بلائه وصلت إلى آذان الخليفة العباسى المقتدر ، فعينه واليا على الرملة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) ثم واليا على دمشق سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) . ويقال إن أهل الشام رحبوا به وفرحوا بتعيينه واليا عليهم ، وقدموا له مساعدات كبيرة ، فوطد مركزه ودعم قوته ، وكون جيشا كبيرا يستعين به فى تحقيق آماله . وهناك فى دمشق التف حوله أخوته وأبناء بيته . ولا نستبعد أن يكون محمد بن طغج الذى عاش فى مصر وخبر أحوالها وأدرك مدى ثرائها ، قد أخذ عندئذ يتطلع إلى حكمها ، ولكنه لم يستطع أن يحقق أحلامه فى حياة واليها تكين . وبوفاة تكين والى مصر تفتحت الأبواب أمام محمد بن طغج فعينه الخليفة القاهر بالله واليا على مصر سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) .

على أن محمد بن طغج لم يأت إلى مصر ليباشر وظيفته الجديدة ، إذ لم يمض شهر واحد على تعيينه واليا على مصر حتى عين الخليفة العباسى بدله أحمد بن كيغلغ العباسى . وقد شهدت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت اضطرابا

كبيرا ، زاد من وقعه عزل الخليفة القاهر سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤ م) بعد سنة ونصف من توليه الخلافة ، وتولية ابن أخيه الراضي بالله بدله . ويعنينا فى هذا الصدد أن الخليفة الراضي ما كاد يتولى الخلافة حتى عزل ابن كيغلغ عن مصر وأحل محله محمد بن طغج مرة أخرى .

وفى هذه المرة أسرع محمد بن طغج بالحضور إلى مصر لمباشرة حكمها نيابة عن الخليفة العباسى . ولما امتنع ابن كيغلغ عن ترك منصب الولاية حاربه محمد بن طغج وأنزل به الهزيمة ، ففر أحمد بن كيغلغ ومعه بعض أنصاره وذويه إلى برقة والغرب حيث حاولوا الثأر لأنفسهم بالإتصال بالخليفة القائم بأمر الله الفاطمي « وحرضوه على أخذ مصر وهونوا عليه أمرها »(١).

أما محمد بن طغج فقد وفد عليه فى مصر رسول الخليفة العباسى يحمل إليه خلعة الولاية « فلبسها وقبل الأرض » ، ثم أمر الخليفة الراضي العباسى بأن يزاد فى ألقاب محمد بن طغج لقب « الاخشيد » أو « الاخشيذ » ، فدعى له بهذا اللقب على منابر مصر ، وأصبح لقبا لهذه الأسرة التى حكمت مصر فى ذلك الدور . والإخشيد لفظ تركى معناه ملك الملوك ، تلقب به ملوك فرغانه مثلما تلقب ملوك الروم بلقب قيصر وملوك الحبشة بلقب النجاشى . ولما كان محمد بن طغج — كما سبق أن رأينا — ينحدر أصله من أتراك فرغانة ، فإن الخليفه العباسى عندما أراد أن يكرمه اختار له هذا اللقب الذى يتفق وأصله (٢) .

الإخشيد يدعم نفوذه فى مصر والشام :

كان من الطبيعى أن يواجه محمد بن طغج مقاومة عنيفة من جانب الماذرائيين ، وهم الذين سيطروا على إدارة البلاد وجمعوا الكثير من ثرواتها

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٢٥٧ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٣٧ ، ٢٥٢ .

— كما سبق أن رأينا — وبالتالى فقد عارضوا ظهور أية قوة فى مصر من شأنها أن تهدد كيانهم ومصالحهم . وكان لموقف الماذرائيين من الاخشيد أثره فى إحداث صدام بين الطرفين ، وفى هذا الصدام حظى الاخشيد بتأييد الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات بسبب العداء المستحكم بين الماذرائيين من ناحية وأسرة ذلك الوزير من ناحية أخرى . ولم يتردد الفضل بن جعفر فى الحضور إلى مصر للاشراف بنفسه على تصفية نفوذ الماذرائيين وأموالهم .

ومهما يكن من أمر ، فإن نجاح الاخشيد فى التغلب على الماذرائيين والقضاء على سطوتهم ، لم يترتب عليه تخلصه من منافسين أقوياء داخل البلاد فحسب ، بل مكنه ذلك أيضا من الحصول على أموال ضخمة نتيجة لمصادرتهم . ولا شك فى أن هذه الأموال أفادت محمد بن طغج الاخشيد فى بداية عهده ومكنته من تثبيت مركزه فى مصر بسرعة فائقة .

على أنه إذا كان الاخشيد قد إستطاع بسرعة تثبيت نفوذه داخل مصر ، فإن الأخطار التى هددت سلطانه ظهرت دائما على مسرح بلاد الشام ؛ وكان مصدرها الأوضاع التى نجمت عن ضعف الخلافة العباسية ، وهى أوضاع ظهر بعضها فى حاضرة الخلافة ذاتها والبعض الآخر ظهر فى القوى الصغيرة المتطاحنة التى تفرعت عن الدولة العباسية وقامت على أنقاضها .

وكان أول هذه الأخطار التى واجهت محمد بن طغج الأخشيد النزاع الخطير بينه وبين ابن رائق أمير الأمراء فى الدولة العباسية . وكان منصب أمير الأمراء فى الخلافة عندئذ قد غدا من المناصب الخطيرة ، التى يتمتع صاحبها بنفوذ واسع كبير فى النواحى الإدارية والمالية ، سواء فى قلب الدولة

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ١٤٥ — ١٤٦ .

أو فى أطرافها المرتبطة بها. لذلك لا عجب إذا اشتد التطاحن والصراع بين كبار رجال الدولة للفوز بهذا المنصب، الأمر الذى جعل حاضرة الخلافة مسرحا لكثير من الفتن التى انعكست صورتها واضحة فى عديد من الولايات.

وإذا كان ابن رائق قد تولى منصب أمير الأمراء فى بغداد سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦م) فإنه كان من الطبيعى أن يثور عند ما نجح أحد منافسيه فى إنتزاع ذلك المنصب منه بعد عامين. لذلك انتهز ابن رائق فرصه خروج الخليفة الراضى من بغداد لمحاربة الحمدانيين، واعتصم فى بغداد ولم يقبل الانسحاب منها إلا بعد أن منحه الخليفة ولاية حران والرها وغيرهما من البلاد الواقعة على أطراف الدولة جهة الشمال. ومن الواضح أنه لم يكن منتظراً من ابن رائق أن يقنع بتلك الأجزاء البعيدة المتطرفة، وإنما انتهز فرصة ملامسة أمارته الجديدة لبلاد الشام ليبسط نفوذه على هذه البلاد ذات الموقع الفريد والثروة العظيمة والمكانة الخالدة فى التاريخ.

وكان معظم بلاد الشام عندئذ تحت نفوذ الأخشيد، ويشرف على شئونها أمير من قبله اسمه بدر بن عبد الله، فأدى تطلع ابن رائق إلى بلاد الشام إلى استثارة مخاوف الأخشيد. ولا يخفى علينا أن بلاد الشام هى دائما بمثابة الباب الأمامى لمصر من جهة الشرق، وعن طريق هذا الباب أتت إلى مصر كافة الغزوات التى هددتها فى مختلف عصور التاريخ من الناحية الشرقية. لذلك كان من حق الأخشيد أن يعمل حسابا لنيات ابن رائق وطموحه، وينظر إلى المسألة من زاوية مركزه فى مصر بالذات.

وكان أن بدأ ابن رائق يستفز الاخشيد، فأرسل إليه يطلب إتاوة على ممتلكاته فى بلاد الشام، إشارة إلى تبعية بلاد الشام لابن رائق وإلى أن الاخشيد يحكمها نيابة عنه. ويبدو أن محمد بن طغج الاخشيد كان فى ذلك الدور الأول من حكمه لا يميل إلى الدخول فى صراع مسلح مع جار قوى مثل ابن رائق، وخاصة أن توطيد نفوذه داخل مصر كان يتطلب كافة

جهوده وإمكانياته. لذلك بادر الاخشيد بتقديم المال المطلوب إلى ابن رائق، وعندئذ ظهر أن الأخير لم يقصد المال فى حد ذاته وإنما كان يقصد امتلاك بلاد الشام كخطوة للوثوب منها على مصر، فبادر بالهجوم على بلاد الشام وأنزل الهزيمة بواليها من قبل الاخشيد وهو بدر بن عبدالله، ثم أخذ يستولى على مدنها الرئيسية من حلب وحمص شمالا حتى الرملة فى جنوب فلسطين، فى أواخر سنة ٣٢٧ ﻫ (٩٣٨م).

وعندما رفع محمد بن طغج شكواه إلى الخليفة العباسى اتضح أن الخلافة كانت عندئذ أضعف من أن تتدخل لفض نزاع مسلح بين أثنين من ولاتها. لذلك لم يعد حل أمام الاخشيد سوى منازلة ابن رائق، فاستخلف على مصر أخاه الحسن، وخرج على رأس جيشه قاصدا الرملة، فى حين أرسل بعض السفن إلى شواطىء الشام لتأييده من ناحية البحر. ولم يتعد الأمر عندئذ مناوشات خفيفه بين الفريقين سنة ٣٢٨ﻫ (٩٣٩م)، تدخل بعدها الأمراء لعقد صلح بينهما، وافق الاخشيد بمقتضاه على أن تكون طبريه وما يقع شمالها من بلاد لمحمد بن رائق.

ولكن لم يكد محمد الأخشيد يصل إلى الفسطاط حتى بلغه أن ابن رائق قد نقض الصلح، وأنه بارح دمشق متجها صوب حدود مصر، فعاد الإخشيد مسرعا ليلتحم مع جيش ابن رائق فى موقعة حامية عند العريش، انكسر فيها جيش محمد بن رائق وأسر خمسمائة من رجاله وعاد راجعا إلى دمشق. أما الأخشيد فقد قتل أخوه حسين أثناء مطاردته ابن رائق، فما كان من الأخير إلا أن حفظ جثته وأرسلها صحبة أخيه إلى الأخشيد معتذراً معزياً « ويحلف له أنه ما أراد قتله، وأنه أرسل إبنه مزاحما ليفتديه بالحسين بن طغج إن أحب الأخشيد ذلك ». وكان أن أكبر الأخشيد هذا التصرف من جانب ابن رائق، الأمر الذى يسر عقد الصلح بين الطرفين على أن تكون مصر حتى الرمله للإخشيد، الذى تعهد بأن يدفع فى كل سنة مائة وأربعين ألف

دينار لابن رائق . أما باقى الشام — شمالى الرملة — فيكون لابن رائق[1] .

وبعد قليل جاءت الأخبار سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) بوفاة الخليفة الراضى العباسى وقيام أخيه المتقى بأمر الخلافة . وقد أقر الخليفة الجديد محمد ابن طغج الأخشيد على مصر ، الأمر الذى زاد من ثبات مركزه ، فى الوقت الذى أتيحت الفرصة لابن رائق ليعود إلى شغل منصب أمير الأمراء . ولكن ابن رائق لم يهنأ طويلا بمنصب إمرة الأمراء ، إذ قتل بعد قليل : وعندئذ رأى الأخشيد فرصته سانحة ليسترد بلاد الشام فخرج إليها مسرعا سنة ٣٣٠ هـ (٩٤١ م) ودخل دمشق ، وأصلح أمورها ، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن ثبت نفوذه فى بلاد الشام . ولا أدل على قوة مركز الأخشيد فى ذلك الدور من أنه ما كاد يعود إلى مصر حتى « أخذ البيعة على المصريين لابنه أبى القاسم أنوجور وعلى جميع القواد والجند[2] » . ومعنى ذلك أن محمد بن طغج الأخشيد بدأ يتخذ من الخطوات ما هو كفيل بتأسيس أسرة حاكمة بحيث يرثه أبناؤه فى حكم مصر .

الأخشيد والخلافة العباسية :

ولا ندرى بالضبط ماذا كان موقف الخلافة العباسية من تلك الخطوة التى اتخذها محمد بن طغج الأخشيد ؛ إذ صمتت المراجع عن ذلك الأمر صمتا تاما ، وإن كان يبدو لنا أن الخلافة العباسية فى ذلك الدور كانت تعانى آلام المرض بل الموت البطىء ، الأمر الذى جعل الخليفة أكثر انشغالا وإحساسا بما يجرى من قلب الدولة من تيارات ومنازعات بين الطامعين ، منه بما كان يدور فى الولايات . ولا أدل على ضعف الخليفة العباسى وأنه غدا مغلوبا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٢٥٣ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٢٥٤ .

على أمره ، من أن الخليفة المتقى أرسل إلى الأخشيد يشكو له أمير الأمراء توزون الذى أخذ يضيق على الخليفة حتى اضطره إلى ترك بغداد والهجرة إلى الموصل ، ومن هناك بعث الخليفة إلى الأخشيد مستنجدا به سنة ٣٣٢هـ (٩٤٣ م) ويبدو أن الخليفة لم يستنجد بالأخشيد إلا بعد أن قنط من من مساعدة الحمدانيين ، وبعد أن تغلب توزون على النجدة التى أرسلها الحمدانيون لنصرة الخليفة .

أما الأخشيد فقد غادر مصر مسرعا لملاقاة الخليفة قرب الفرات . وفى هذا اللقاء أظهر الأخشيد ضروب الطاعة للخليفة المتقى وقدم له الأموال والهدايا الثمينة ، وألح فى دعوته للحضور إلى مصر والإقامة فيها ، فقال للخليفة « يا أمير المؤمنين ، أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله فى نفسك سر معى إلى الشام ومصر فهى لك وتأمن على نفسك » . وكان أن كافأ الخليفة الأخشيد على ولائه وإخلاصه بأن قال له : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أنوجور » . ومعنى ذلك موافقة الخليفة على أن يورث الأخشيد مصر لأبنائه من بعده ، وهو ماسعى إليه الإخشيد فعلا . ولكن الخليفة لم يقبل أن يترك العراق ، وخاصة بعد أن وصلته كتب توزون يدعوه إلى العودة إلى بغداد ، فعاد الخليفة إلى بغداد وعاد الإخشيد إلى مصر(١) .

ولا ندرى بالضبط حقيقة نوايا الإخشيد عندما ألح فى دعوة الخليفة للإقامة بمصر ، ولا ندرى ماذا كان يمكن أن يترتب على هذا المشروع — لو تم — بالنسبة لتاريخ الدولة الأخشيدية وتاريخ الخلافة العباسية وتاريخ مصر جميعا . وكل ما نستطيع أن نقرره هو أن جهود ابن طولون والإخشيد لجعل مصر قاعدة الخلافة العباسية باءت بالفشل ، وأن هذا الحلم لم يتحقق

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٢٥٥ .

إلا فى عصر سلاطين المماليك، أى بعد سقوط بغداد فى أيدى التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وإذا كانت مصر قد غدت قاعدة لخلافة إسلامية فى عصر الفاطميين فإنها كانت خلافة من نوع آخر غير الخلافة العباسية السنية .

أما الخليفة المتقى فقد عاد إلى بغداد ليعزله أمير الأمراء توزون، ويقيم مكانه فى الخلافة المستكفى بالله ، ولم يؤثر ذلك على علاقة الأخشيد بالخلافة العباسية ، إذ ظلت العلاقة طيبة بينه وبين المستكفى ثم المطيع . وكل ما هنالك هو أن الأخشيد أخذ منذ سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) بنقش إسمه على السكة إلى جانب إسم الخليفة العباسى ، مما يشير إلى تمتع الأخشيد بنوع من الإستقلال مع حرصه على عدم قطع الخيط الذى يربطه بالخلافة العباسية .

علاقة الأخشيد بالحمدانيين :

ولم تنته المسألة الشامية بالنسبة للأخشيد بالصلح مع ابن رائق ، إذ أن ابن رائق انسحب من الشام ليترك الحمدانيين — وهم القوة الكبيرة التى ظهرت فى ذلك الدور فى شمال الشام والجزيرة — يتطلعون إلى بسط سيطرتهم على بلاد الشام . ولم يكد الخليفة المتقى يعود أدراجه إلى بغداد ، بعد أن انتهت مقابلته مع الأخشيد كما سبق أن مر بنا ، حتى زحف سيف الدولة الحمدانى على حلب وانتزعها من حاكمها من قبل الأخشيد وهو يانس المؤنسى ، ثم اتبع سيف الدولة ذلك بالإستيلاء على دمشق . وكان أن أرسل الإخشيد إلى الخليفة المستكفى العباسى يشكو إليه ، ولكن الخليفة كان أضعف من أن يتخذ قراراً ، فاكتفى بأن طيب خاطر الأخشيد بإرسال بعض الخلع والهدايا .

ولم يبق أمام الأخشيد سوى استخدام القوة للدفاع عن حقوقه ، فأرسل جيشاً بقيادة كافور إلى الشام ، فالتقى بسيف الدولة عند الرملة وانتصر كافور فى أول الأمر ، وفر الحمدانيون إلى حمص فحماه ، وعندئذ تبعهم كافور ، ولكنهم أنزلوا به الهزيمة عند نهر العاصى . وكان أن خرج الأخشيد بنفسه

إلى الشام ، ودارت بينه وبين سيف الدولة حروب فى شمال الشام لم ترجح فيها كفة أحد الطرفين ، حتى انتهى الأمر بالصلح سنة ٣٣٤ ﻫ (٩٤٥م) واتفق فيه على أن تكون حمص وحلب وما بين النهرين لسيف الدولة ، وأن تكون بقية بلاد الشام جنوبى حمص للإخشيد ، وارتبط الطرفان برباط المصاهرة تأكيداً لحسن العلاقة بينهما .

نهاية الأخشيد ومكانته فى التاريخ :

وبعد أن عقد الأخشيد الصلح السابق مع سيف الدولة ، عاد إلى دمشق حيث بقى بها إلى أن توفى سنة ٣٣٤ ﻫ (٩٤٥ م) عن إحدى وستين سنة ، حكم منها إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ، ثم دفن فى القدس .

وقد أجمع المؤرخون على وصف الأخشيد بأنه كان رجلا عظيما فى حياته الخاصة والعامة ؛ فوصفه المؤرخ أبو المحاسن بأنه كان « ملكا شجاعا مقداما حازما متيقظا حسن التدبير عارفا بالحروب مكرما للجند شديد البطش ذا قوة مفرطة ، لا يكاد أحد يجر قوسه . وله هيبة عظيمة فى قلوب الرعية . وكان متجملا فى مركبه وملبسه . وكان موكبه يضاهى موكب الخلافة . وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك ، وكان عدة جيوشه أربعمائة ألف . وكان قوى التحرز على نفسه ، وكانت مماليكه تحرسه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك[1] . . . »

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٢٥٦

الفصل الثاني

خلفاء الأخشيد

كافور وأبناء الأخشيد :

رأينا أن الأخشيد كان قد عقد قبل وفاته لابنه أونوجور، وأن الخليفة المتقي العباسي أقره على ذلك. ثم إن الأخشيد قبل سفره الأخير إلى دمشق، استخلف على مصر إبنة أونوجور، كما استخلف له عمه الحسن بن طغج. وهكذا كانت الأمور ممهدة أمام أونوجور — عند وفاة والده — لكي يلي الحكم. وإذا كان هناك اعتراض على أبي القاسم أونوجور بسبب صغر سنه — الذي لم يتجاوز عند وفاة والده الخامسة عشر عاما — فإن هذه الصعوبة أمكن التغلب عليها بفضل ظهور رجل قوى أمين فى بلاط محمد بن طغج الاخشيد، هو أبو المسك كافور.

وقد وصفت المراجع كافور هذا بأنه عبد أسود خصى قبيح الخلقة، مثقل البدن، مثقوب الشفة السفلى، جلبه أحد تجار الرقيق إلى مصر سنة ٣١٠ ﻫ (٩٢٢ م) وعمره عشر سنوات، فاشتراه واحد بعد آخر حتى آل إلى ابن عباس الكاتب. وفى يوم من الأيام أرسل ابن عباس الكاتب عبده كافور بهدية إلى محمد بن طغج الأخشيد، الذى كان عندئذ أحد رجال تكين أمير مصر؛ فأخذ محمد بن طغج العبد كافور ورد الهدية! ولم يلبث كافور أن أخذ يرتقى عند سيده الجديد حتى أصبح موضع ثقته وأخص أتباعه، بحيث يبدو أنه وصل فى أواخر أيام الأخشيد إلى درجة من النفوذ لم يبلغها غيره من رجال الدولة.

وكان كافور صحبة الأخشيد فى الشام عند وفاة الأخير سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) ، فعمل كافور على ضبط الأمور فى الشام، حتى حضر إلى مصر فتم الاحتفال بتولية أونوجور فى الوقت الذى وصل كتاب من الخليفة العباسى المطيع لله يقر قيام أبى القاسم أونوجور على ولاية مصر والشام. ولم يلبث أن قبض كافور بعد عودته إلى مصر سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) على زمام الأمور فى البلاد، فخصص لاونوجور أربعمائة ألف دينار سنويا ، وأخذ كافور يتصرف فى باقى أموال البلاد . ولما كانت الشكوى قد عمت من أبى بكر محمد صاحب الخراج فإن كافور بادر بعزله وولى مكانه فى منصبه محمد بن على الماذرائى[1] .

على أن كافور لم يكد يتفرغ لاصلاح المشاكل الداخلية ، حتى سمع أن سيف الدولة الحمدانى اغتنم فرصة وفاة محمد بن طغج الأخشيد وقيام ابنه الصغير فى الحكم ، وزحف على دمشق واستولى عليها . وعندئذ لم يتقاعس كافور عن حماية أراضى الدولة ، فخرج إلى الشام على رأس جيش كبير ، وصحبه أونوجور وعمه الحسن بن طغج أخو الأخشيد . وعند الرملة دارت موقعة كبيرة بين الأخشيديين والحمدانيين ، انهزم فيها سيف الدولة الحمدانى وفر شمالا إلى حلب ومنها إلى الرقة . وأخيرا تم الصلح بين الطرفين على أن يعود سيف الدولة الحمدانى إلى ما كان يمتلكه قبل العدوان - أعنى حلب وغيرها - وتبقى بقية بلاد الشام للاخشيديين .

ثم عاد كافور وأونوجور إلى مصر ليجدا أن غلبون - متولى الريف - انتهز فرصة خروج الجيوش إلى الشام لمحاربة سيف الدولة ، ودخل فى جموع من رجاله مصر وتغلب على حاميتها . ولما عاد أونوجور وكافور هرب غلبون من مصر ، فتبعه الحسن بن طغج حتى ظفر به وقتله .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٢٩١

وهكذا استمر كافور يدبر أمور الدولة فى أمانة وإخلاص حتى كانت سنة ٣٤٣ هـ (٩٥٤م) ، وعندئذ أحس أونوجور بأنه بلغ سن الرشد وآن الأوان ليدير بنفسه شئون الحكم ويتخلص من قبضة كافور الثقيلة . ويذكر المؤرخون أن بعض الحاقدين على كافور حرضوا أونوجور وقالوا له « قد احتوى كافور على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش ، وأخذ أملاك أبيك وأنت معه مقهور .. » إلى غير ذلك من العبارات التى استثارت أونوجور وجعلته يتباعد عن كافور مضمرا الخلاف والشقاق. ولكن أم أونوجور تدخلت خوفا على إبنها من كافور ، وانتهت الأزمة بأن « اصطلحا ودام الأمر على حاله[1] » ، حتى توفى أنوجور سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) لحمل إلى إلى القـــدس حيث دفن إلى جوار أبيه . وكانت مدة ولايته على مصر أربعة عشرة سنة وعشرة أيام .

وعند وفاة أونوجور خلفه أخوه على بن الأخشيد ، الملقب بأبى الحسن ، وأقر الخليفة المطيع لله ذلك . وقد حكم أبو الحسن على بن الأخشيد مدة خمس سنين وشهرين ، كان كافور طولها هو صاحب السلطة الفعلية فى البلاد ، وخصص له المرتب السنوى الذى خصصه لأخيه من قبل وهو اربعمائة ألف دينار . وعبر أبو المحاسن عن وضع أبى الحسن على بأنه « دام على هذا فى الملك ، له الأسم فقط والمعنى لكافور[2] » .

واتصفت هذه السنوات الخمس التى تولى الحكم فيها على بن الأخشيد بكثرة الاضطرابات وسوء الأوضاع الداخلية والخارجية . فى الداخل انخفض النيل سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) فاشتد الغلاء وارتفعت الأسعار وساءت أحوال الناس . ومن جهه أخرى اشتدت هجمات الفاطميين من

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٢٩٣

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٣ ص ٣٢٦ .

الغرب والنوبيين من الجنوب ، كما اشتد عبث القرامطة ببلاد الشام . وزاد من سوء الأحوال فى البلاد ماحدث من انشقاق بين كافور وعلى بن الأخشيد ، ولكن كافور كان على درجة من القوة والنفوذ مكنته من أن يمنع الناس من الاجتماع بأبى الحسن على ، فظل الأخير منزويا حتى مرض وتوفى سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) وحمل إلى القدس ليدفن إلى جانب أبيه وأخيه .

وبعد وفاة على بن الأخشيد بقيت مصر بضعة أيام دون أمير . ويبدو أن كافور كان يتنازعه خلال تلك الأيام تياران أحدهما يدفعه إلى إقامة أحمد بن على بن الأخشيد فى حكم مصر محل أبيه ، والآخر يغريه بانتزاع الحكم لنفسه . وبعد فترة قصيرة من التفكير رجح كافور الرأى الثانى ، لا سيا وأن أحمد بن على كان عندئذ طفلا فى التاسعة من عمره . وقد تلقب كافور بالأخشيدى احتفاظا بالرباط الذى ربطه ببيت محمد بن طغج الأخشيد؛ كما طلب من الخليفة المطيع لله العباسى أن يثبته فى مصر ، ففعل .

على أن كافور لم يظل فى الحكم سوى سنتين وأربعة أشهر ، واتصفت هذه المدة بازدياد الخطر الفاطمى وتفاقمه ، كما سنرى فيما بعد . ومع ذلك فإن حكمنا على مكانة كافور لا ينبغى أن يستمد من أعماله خلال هاتين السنتين ، لأننا رأينا أنه كان الحاكم الفعلى للبلاد منذ وفاة سيده محمد بن طغج الأخشيد . وطوال هذه السنوات التى حكم فيها كافور أثبت أنه سياسى ماهر فكان - كما وصفه أبو المحاسن — « خبيراً بالسياسة فطنا ذكيا جيد العقل داهية » . ولا أدل على كياسته وطول باعه فى السياسة من أنه أدرك صعوبة موقفه بين قوتين كبيرتين متعاديتين هما الخلافة العباسية السنية فى الشرق والخلافة الفاطمية الشيعية فى الغرب، فأمسك بالعصا من الوسط ولم يتورط فى معاداة إحدى القوتين . فكان يهادى المعز (الفاطمى) صاحب

المغرب ويظهر ميله إليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر[١] » !!

أما عن أخلاق كافور ، فقد وصف بأنه «كان شجاعا مقداما جوادا يفضل على الفحول » . وقد قصده الشعراء طمعا فى كرمه ، وعلى رأسهم المتنبي صاحب الدور الشهير - فى المدح ثم الهجاء - مع كافور . وأحبه الناس لعدله وتقواه « فكان يداوم الجلوس غدوه وعشية لقضاء حوائج الناس ، وكان يتهجد ويمرغ وجهه ساجدا ويقول : اللهم لا تسلط على مخلوقا[٢]» .

ومع أن كافور ترك فى خزائنه عند وفاته ثروة ضخمة قدرت بنحو مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والأمتعه ، إلا أنه كان كريما فى حياته ، يحرص على إرسال المال والطعام والثياب مع ركب الحجاج كل عام لتوزع فى الحجاز . وقد وصف صاحب كنز الدرر ثراء كافور وكثرة مصروفه ، فقال « بلغ ما كان يعمل فى مطبخ كافور لما قوى سلطانه وكثرت أمواله فى كل يوم من اللحم ألفان وسبعمائه رطل ، وخمسمائه طائر دجاج ، وألف طائر حمام ، ومائة طائر أوز ، وخمسون خروفا رميسا ، ومائة جدى سمين ، وعشرون فرخا سمكا ، وخمسمائه صحن حلوى فى كل صحة عشرون رطلا ، ومائتان وخمسون طبقا فاكهة ، وعشرة أفراد نقل وخمسمائه كوز فقاع كبير ، ومائه قرابة سكر وليمون » .

هذا هو أبو المسك كافور ، العبد القبيح الخلقة الوضيع الأصل ، الذى استطاع أن يستغل مواهبه ويشق طريقه حتى وصل إلى مكانة مرموقه بين زعماء عصره ورجالات زمنه . لذلك لا عجب إذا أفاض المؤرخون

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ٦ .
(٢) أبو المحاسن : ج ٤ ص ٦ .

المعاصرون فى الكلام عنه ونسجوا القصص الكثير حول شخصيته واعتبروه من « أعاجيب الدنيا وسيرته من أغرب السير »[١] .

العلاقات الخارجية :

رأينا فى الصفحات السابقة أن الإخشيديين ربطتهم بالخلافة العباسية علاقات طيبة ، ساعد عليها حرص الإخشديين على إظهار ولائهم للخلافة بوصفها الأم التى تربطها بالولايات روابط الإخلاص والمصالح المشتركة . كذلك ساعد على هذه العلاقات الطيبة ضعف الخلفاء العباسيين وإنشغالهم بتحرير أنفسهم فى العاصمة من وطأة كبار الأمراء ، ثم إنصراف هؤلاء الأمراء إلى ما كان بينهم وبين بعض أو بينهم وبين الخلفاء من أحقاد ومنازعات لاتنتهى ، مما صرفهم جميعا عن شئون مصر وغير مصر من أطراف الدولة . وحسب الخلفاء العباسيين أن يدعى لهم على منابر الجوامع فى مصر والشام ؛ وحسب الأمراء الإخشيديين أن تعترف الخلافة العباسية بوضعهم فى مصر والشام ، حسبهم جميعاً ذلك ليرضى كل طرف عن الآخر ويسود حسن التفاهم العلاقات بين الطرفين .

هذا عن العلاقات بين الأخشيديين والخلافة العباسية . أما عن العلاقة بين الأخشيديين والحمدانيين ، فقد رأينا كيف حرص الحمدانيون من أول الأمر على استغلال الموقف فى المنطقة الممتدة بين الفرات والنيل لتحقيق مكاسب إقليمية لانفسهم على حساب العباسيين والإخشيدين جيعاً . وقد أوغلت جيوش الحمدانيين فى بلاد الشام أكثر من مرة ، ونجحوا فى إنتزاع حلب نهائياً لأنفسهم ، ولكنهم لم يفلحوا فى الإحتفاظ بدمشق ، رغم وصولهم إلى الرملة جنوباً ، وبذلك اقتصر نفوذهم على شمال الشام فى حين

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ١٦٥ .

احتفظ الإخشيديون ببقية تلك البلاد بصفة غالبة ، إلا أن يكون خطراً عارضاً — كخطر القرامطة — الذين هددوا بلاد الشام أكثر من مرة فى ذلك العصر .

فإذا أرجأنا قليلا علاقة الإخشيديين بالفاطميين فى المغرب ، وجدنا الإخشيديين يحتكون بدولتين غير إسلاميتين — أى مسيحيتين — هما الدولة البيزنطية فى الشمال ، ومملكة النوبة المسيحية على حدود مصر الجنوبية .

أما عن الدولة البيزنطية — أو دولة الروم فى آسيا الصغرى — فكانت فى ذلك الدور ترقب عن كثب ما يجرى فى جوف الدولة الإسلامية من إنقسام وتفكك ، وتأمل أن يحل قريباً اليوم الذى تستطيع فيه أن تثأر لنفسها من المسلمين الذين انتزعوا من دولة الروم فى القرن السابع للميلاد (الأول للهجرة) أثمن أجزائها فى الشرق الأدنى . وكانت بلاد الشام بالذات تمثل مكانة خاصة فى قلوب الروم حتى عصر الحروب الصليبية ، فلم ينفك شعور الحنين نحو تلك البلاد وضرورة إسترداد بيت المقدس ذات الأهمية الدينية عند المسيحيين ، لم ينفك هذا الشعور يراود قلب كل إمبراطور بيزنطى . ومع ذلك فإنه يبدو أن الدولة البيزنطية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر للميلاد) كانت لا تقوى على القيام بهجوم كبير على بلاد الشام ، ولابد أن يكون الإمبراطور البيزنطى رومانوس الأول قد أحس بقوة محمد بن طغج الإخشيد ، بدليل أنه راسله مباشره — متجاهلا الخليفة العباسى — مظهرا الود ، طالباً تبادل الأسرى وتنظيم الفداء. ويقال أن الإخشيد أكرم رسل الإمبراطور وبعث بهداياه صحبتهم إلى الإمبراطور . وعند وفاة الأخشيد ، إستمر كافور على سياسته تجاه الإمبراطورية البيزنطية ، فأكرم رسلها وأحسن وفادتهم [١] ..

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين : ٢٧١ — ٢٧٢

على أنه حدث فى النصف الثانى من القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) أن أخذت الدولة البيزنطية تزداد صحوة وإفاقة ، وإلى جوارها القوى الإسلامية تزداد فرقة وإنقساما ، الأمر الذى أغرى الإمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى على غزو الشام ، وفرض السيادة البيزنطية على حلب سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) ، وكان ذلك على عهد على بن الإخشيد . وعندما عجز سيف الدولة الحمدانى عن صد الروم إستنجد بالإخشيديين ، فخرجت الجيوش من دمشق لنجدة المسلمين ، وعندئذ إنسحب الروم إلى بلادهم . ولكن ما كاد الإمبراطور نقفور فوقاس يلى عرش الإمبراطورية سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) حتى بادر إلى مهاجمة شمال الشام وأنزل الهزيمة بسيف الدولة الحمدانى « ولله الأمر » (١) .

وفى سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٦ م) أغار الامبراطور نقفور فوقاس على بلاد الشام وأخرب كثيراً من المدن وأوغل حتى طرابلس ، ولكنه لم يستطع أن يستمر فى تقدمه جنوباً فى بلاد الشام وأن يحقق حلم الروم العظيم فى الاستيلاء على بيت المقدس . وربما تخوف من المقاومة التى سوف يلقاها من كافور الإخشيدى ، فى الوقت الذى كان البلغار على حدود الدولة فى البلقان يشكلون خطراً جسيما يتطلب يقظة أباطرة القسطنطينية فى ذلك الدور (٢) . وإذا كانت جيوش نقفور فوقاس قد استطاعت الاستيلاء على أنطاكية فى العام التالى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ثم فرض سيطرة الروم على حلب فى نفس العام (٣) ، فإن ذلك جاء بعد وفاة كافور ، اى فى الوقت الذى كانت الدول الإخشيدية نفسها تمر بدور الاحتضار .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٣٢٩

(٢) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٠٤ .

(٣) Vasiliev : Hist. of the Byzantine Empire pp. 308-309.

وأبو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ٢٦ — ٢٧ .

هذا عن العلاقة بين الإخشيديين والدولة البيزنطية ؛ أما القوة المسيحية الأخرى التي احتكت بالدولة الإخشيدية فكانت مملكة النوبة المسيحية. والمعروف أن العرب لم ينجحوا فى فتح بلاد النوبة بعد الفتح العربى لمصر ، ومن ثم ظلت بلاد النوبة محتفظة بوضعها على حدود مصر الجنوبية ، تقوم فيها مملكة مسيحية . وإذا كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح قد عقد اتفاقية البقط الشهيرة مع النوبة — كما سبق أن مر بنا — فإن هذه الاتفاقية لم تنفذ بصفة دائمة منتظمة ، وإنما كان ملوك النوبة ينتهزون عصور الذبول والضعف فى التاريخ المصرى ، ليغيروا على حدود مصر الجنوبية ، ويظفروا بما يطمعون فيه من غلال وغيرها . ومن جهة أخرى استمر كثير من حكام مصر ينظرون إلى بلاد النوبة على أنها سوق عام يستوردون منه الرقيق ، حتى أن جيوش الطولونيين والإخشيديين ثم الفاطميين كانت تضم فرقاً كبيرة من الجند السودان .

وقد حدث سنة ٣٣٩ هـ (٩٥١ م) فى عهد أونوجور بن الإخشيد أن أغار النوبيون على الواحة الخارجة ، فدمروا وخربوا ونهبوا وقتلوا ثم عادوا راجعين إلى بلادهم . وبعد ذلك بخمس سنوات — أى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٦ م) — قام ملك النوبة بأغارة ضخمة على أسوان ، فقتل جمعاً من المسلمين ونهب القرى ، وعندئذ أرسل كافور جيشاً برياً بقيادة محمد بن عبد الله الخازن ، كما أنفذ عمارة بحرية فى النيل ، وحملة بحرية سارت فى البحر الأحمر فنزلت على شواطئه جنوبى الحدود بين مصر والنوبة لتقطع خط الرجعة على النوبيين . وبذلك أمكن إنزال الهزيمة بالنوبيين سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٧ م) فولوا الأدبار ، وظلت الجيوش الإخشيدية تطاردهم حتى قلعتهم إبريم ، وسبى محمد بن عبد الله الخازن أعداداً كبيرة منهم أحضرهم صحبته إلى مصر[١] .

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٩٨ .

غير أن هذه الهزيمة لم تضع حداً لتهديد النوبيين لحدود مصر الجنوبية، إذ حدث في عهد أبي الحسن علي بن الإخشيد أن انتهز النوبيون فرصة القحط الذي تعرضت له مصر من ناحية، وأغارة القرامطة على الشام من ناحية ثانية، ثم تهديد الفاطميين من المغرب لمصر من ناحية ثالثة، وأغاروا على حدود مصر الجنوبية. ويروى أبو المحاسن ما حدث في تلك السنة فيقول «وسار ملك النوبة إلى أسوان ووصل إلى أخميم وقتل ونهب وسبى وأحرق[1]». ولا يستبعد بعض الباحثين أن تكون هذه الإغارات النوبية على حدود مصر الجنوبية في عهد الإخشيديين نتيجة لتحريض الفاطميين الذين أرادوا إضعاف الإدارة الإخشيدية وشغلها بالعمل في أكثر من جبهة[2].

نهاية الدولة الإخشيدية :

والواقع أن الخطر الكبير الذي عصف بالدولة الإخشيدية إنما جاء من المغرب ; أي من ناحية الدولة الفاطمية بالمغرب. وسنتكلم عن نمو قوة الفاطميين ونجاحهم في غزو مصر فيما بعد، ولكن تكفي الإشارة الآن إلى أن نجاح الفاطميين في غزو مصر وامتلاكها لم يكن مرجعه قوة الفاطميين بقدر ما كان مرجعه ضعف الإخشيديين. ذلك أنه حدث بعد وفاة كافور الإخشيدي سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) أن خلفه أبو الفوارس أحمد بن علي ابن محمد الإخشيد. وكان أبو الفوارس في الحادية عشر من عمره مما جعله ألعوبة في أيدي كبار رجال الدولة، وخاصة الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات. ويقال أن الوزير أبا الفضل أساء السيرة وقبض على جماعة من رجال الدولة وصادرهم، ومنهم يعقوب بن كلس وهو يهودي أعتنق الإسلام، فاستطاع

---

(١) أبو المحاسن : ج ٣ ص ٣٢٦

(٢) مصطفى محمد مسعد : الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ص ١٣٢ .

الفرار إلى المغرب حيث دعا الخليفة المعز الفاطمى لغزو مصر[1]. وكان أن أرسل الخليفة المعز قائده جوهر لغزو مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) مما أدى إلى سقوط الدولة الإخشيدية ، على نحو ما سنرى فى الباب التالى .

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢ .

الفصل الثالث

أحوال مصر الحضارية فى عصر الاخشيديين

المجتمع المصرى :

يأتى الحكام دائما على رأس بناء أى مجمع من المجتمعات . وقد عرف عن الإخشيد وآل بيته إعجابهم الشديد بالطولونيين، فحرص محمد بن طغج على التشبه بابن طولون فى بلاطه وحياته ومواكبه . ومع ما عرف عن محمد ابن طغج من شح وإمساك إلا أنه لم يضن على نفسه ولم يمسك فى إضفاء مظاهر العظمة على بلاطه ، فأمر بإقامة حلبة سباق الخيل منذ سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) وجمع أعداداً كبيرة من الخيل المطهمة وجوارح الطير، وأحاط نفسه بعدد ضخم من المماليك والغلمان والأتباع فضلا عن الجوارى الحسان . وقرب إليه العلماء والشعراء وأجزل لهم العطاء .

وما يقال عن محمد بن طغج يقال أيضاً عن بقية أمراء بيته . وإذا كان معظم هؤلاء الأمراء تولى الحكم صغيرا ولم يحكم مدة طويلة ، فإن كافور الأخشيدى بالذات الذى سيطر على مصائر الأمور مدة طويلة كان بلاطه مثلا لبلاط سائر الأخشيديين . من ذلك ماقيل من أنه كان فى بلاط كافور ألف وسبعون من الغلمان الترك وألفان من الغلمان الروم ، وبقية الغلمان من المولدين والسودانيين ، حتى بلغت عدة غلمانه جميعاً أربعة آلاف . هذا عدا الأموال الطائلة التى تركها فى خزائنه بعد وفاته .

وبالإضافة إلى الحكام من البيت الإخشيدى والمنتمين إليه ، وجدت عدة فئات مميزة فى المجتمع منهم الأشراف الذين ينتمون إلى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت لهم مرتبات خاصة ونقيب يشرف على أمورهم ،

ويتمتعون بمنزلة سامية فى نفوس الخاصة والعامة (١) أما الفئة التالية المميزة فى المجتمع ، فكانت تشمل ذوى اليسار من المشتغلين بالنشاط الإقتصادى، وخاصة التجار الذين تمكنوا من جمع ثروات طائلة جعلت لهم نفوذ ومكانة خاصة فى المجتمع . وعلى رأس هؤلاء ظهر الماذرائيون الذين سبق أن أشرنا إليهم فى أكثر من موضع .

وفيما عدا هذه الفئات المميزة ، لا نعرف الكثير عن عامة الشعب لأن التاريخ فى تلك العصور كان ربيب الحكام والقصور ، فلا يتعرض المؤرخون والكتاب فى كتبهم إلا للخاصة والعظماء . وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن العامة فى المدن والفلاحين فى الريف ظلوا فى تلك العصور يحيون نفس الحياة التى إعتادوها على مر الأزمنة، يباشرون حياتهم اليومية فى صبر وهدوء ، ويحمدون الله على ما كتب لهم من عيش قليل ، وربما شاركوا فى الحياة العامة بالتصفيق لقيام حاكم جديد أو الترحم على حاكم مات .

وكانت المناسبات الإجتماعية الكبرى التى يشترك فى إحيائها الحكام والمحكومون هى الأعياد ، فتكون المواكب ، وتمد الأسمطة ويهرع الناس إلى المتنزهات وقد ارتدوا الجديد من الثياب. وجدير بالذكر أن الأمر لم يقتصر على الاحتفال بالأعياد الدينية الخاصة بالمسلمين وإنما هناك من الأعياد ما ساهم فيه المسلمون والمسيحيون جميعاً حتى غدت بمثابة أعياد قومية . ومن هذه الأعياد عيد وفاء النيل وفتح الخليج ، وعيد النيروز ، وهو أشبه بعيد الربيع أو شم النسيم . وقد ذكر المسعودى مدى اهتمام المصريين — مسلمين ومسيحيين — بالإحتفال بعيد الغطاس فى ذلك العصر . فكانت الألوف تهرع إلى نهر النيل ومعهم المآكل والمشرب

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الطولونيين ص ٢١٢ .

وآلات الطرب والموسيقى ، حتى غدت ليلة الغطاس « هى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً[١] » . والواقع — كما يبدو من كتابات ذلك العصر — أن أهل الذمة حظوا بقدر كبير من الحرية الشخصية نتيجة لتسامح الحكام معهم .

نظم الحكم والإدارة :

مع أن مصر ربطتها روابط معينة بالخلافة العباسية فى عصر الإخشيديين ، إلا أن الملاحظ أن هذه الروابط كانت شكلية وأضعف من أن تحد من النفوذ الفعلى للأمراء الأخشيديين فى مصر . حقيقة أن الأخشيديين كانوا يرسلون بعض الأموال للخلافة العباسية ، وهذا فى حد ذاته رمز للتبعية ، ولكن ارسال هذه الأموال من مصر لم يكن بصورة منتظمة ، ولا يوجد فى المراجع مايشير إلى أنه اتخذ صفة الإلزام والإجبار . وعلى هذا الأساس نجد هؤلاء الأمراء يتصرفون فى صورة الحكام المستقلين ، ويتخذون من نظم الحكم مايتفق مع هذا الاستقلال ، بل أنهم فى بعض هذه النظم حاولوا أن يتشبهوا بالخلافة العباسية نفسها . ولا أدل على ذلك الاستقلال من أنه عثر على دينار ضرب سنة ٣٢٩ هـ عليه اسم محمد بن طغج ملقبا بلقب الأمير الأخشيد ، دون ذكر لاسم الخليفة العباسى . ولا نستطيع أن نتصور أن أغفال ذكر اسم الخليفة العباسى على ذلك الدينار إنما حدث على سبيل الخطأ والسهو .

وهكذا كان الأمير فى عصر الأخشيديين هو صاحب السلطة العليا فى البلاد ، إلا أن يكون الأمير صغيراً قاصراً ، فعندئذ يقوم الوصى عليه بتصريف شئون البلاد والعباد ، كما حدث فى حالة كافور وسيطرته على أبناء محمد ابن طغج وخلفائه . وكان لابد للأمير من مجموعة من كبار الموظفين

---

(١) المسعودى : مروج الذهب : ج ٢ ص ٣٦٤ .

يساعدونه فى تصريف شئونه الخاصة ومصالح دولته الواسعة، وانقسم هؤلاء الموظفون إلى قسمين، موظفو البلاط وموظفو الدولة . أما موظفو البلاط فعلى رأسهم الحاجب الذى كان يقوم بإدخال الناس على الأمير وفق قواعد معينة[1] ، ثم الخازن الذى يشرف على الأموال الخاصة بالأمير، ثم الطبيب الخاص الذى يرافق الأمير فى حله وترحاله ليشرف على كل ما يتعلق بصحته . هذا فضلا عن الحرس الخاص بالأمير ، وعديد الموظفين الذين يشرفون على متعلقات الأمير كقصوره واصطبلاته[2] ...

أما موظفو الدولة فى عصر الاخشيديين فكان على رأسهم الوزراء الذين اتخذهم الأخشيديون معاونين لهم تشبها بالخلافة العباسية فى بغداد ، فيقوم الوزير بتصريف الأمور المنوطة إليه ومعاونة الأمير فى شئون الحكم الإدارى[3] . ويساعد الوزير فى عمله موظف له خطورته هو الكاتب الذى يشرف على ديوان الإنشاء، وهو الديوان الذى تصدر عنه المكاتبات الرسمية وترد إليه المكاتبات الخاصة بالدولة ، وبالتالى فقد كان يراعى فى هذا الكاتب الأمانة والقدرة على حفظ الأسرار ؛ فضلا عن الدراية بأصول الكتابة وفنها[4] .

أما الشئون المالية فكان يشرف عليها عامل الخراج ، وهو الموظف المكلف بجمع الأموال اللازمة للدولة عن طريق الضرائب والمكوس وغيرها.

ويبدو من الوثائق المعاصرة أن أهل الذمة — مسيحيين ويهود — تخصصوا فى تلك العصور فى النشاط المالى ، فعمل كثير منهم فى جباية الخراج ؛ ومن الأسماء التى وصلتنا منهم فى عصر الإخشيديين أبو اليمن

---

(١) ابو المحاسن: النجوم ج ٣ ص ٣٢٩ ، ج ٤ ص ٦ .
(٢) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ١٧١ — ١٧٢
(٣) ابن سعيد : المغرب ص٢٥ ، ٤٥
(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ص ٩٥ ج ١ ، ابن سعيد : المغرب ٤٥ .

قزمان بن مينا القبطي ويعقوب بن كلس اليهودي الذي اعتنق الإسلام ليحقق أغراضه في الوصول إلى منصب الوزارة[١]. ويتصل بالجانب المالي الإشراف على ضرب النقود، وهي المهمة التي عهدت إلى متولي دار الضرب أو إلى القاضي نفسه، وكان هذا الإشراف له أهميته من ناحية ضبط عيار العملة وعدم السماح بأي زيف فيها، وهو أمر كانت تتوقف عليه سمعة الحاكم في العالم الإسلامي[٢].

أما شئون الأمن في البلاد فقد عهد بها إلى صاحب الشرطة ومهمته إقرار الأمن والنظام والضرب على أيدي العابثين والمجرمين. ومع أن صاحب الشرطة في العاصمة كانت له اليد العليا، إلا أنه وجدت مجموعة من أصحاب الشرطة في المدن الكبرى والأقاليم يسهر كل منهم على الأمن في نطاق تخصصه[٣]. والواقع أن حكام مصر في تلك العصور حرصوا على ضبط إشرافهم على على مختلف أنحاء البلاد، فكانت مصر مقسمة إلى أقسام إدارية كبيرة أو كور، ويختار حكام الكورات من كبار رجال الأمير، وهم المسئولون عن كافة الشئون الإدارية في الأقاليم ويساعدهم مجموعة من الموظفين في مختلف المرافق كالشرطة والخراج وغيرهما[٤].

وإذا كان هذا هو وضع كبار الموظفين ورجال الإدارة، فإن ثمة وظائف ذات صفة دينية، كانت لها خطورتها ووضعها الخاص في المجتمع. ونعني بهذه الوظائف القضاء والمظالم والحسبة، وكلها ترتبط بالدين وتطبيق أحكامه لتحقيق العدالة في المجتمع. ولهذا السبب ظل قاضي مصر يعين مباشرة

(١) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الأخشيديين ص ١٧٧.

(٢) الكندي: الولاة ص ٥٦٢ – ٥٦٢ ابن سعيد: المغرب ص ١٣١؛ المقريزي: النقود ص ٣٧

(٣) الكندي: الولاة والقضاة ص ٢٨٥، أبو المحاسن: النجوم ج ٣ ص ٢٥١.

(٤) سيدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الأخشيديين ص ١٦٩ – ١٧١

من قبل الخلافة ، وإن كان ضعف الروابط بين مصر والخلافة العباسية في عصر الإخشيديين، جعل تعيين قاضي مصر رهنا بمشيئة الأمير الأخشيدى، بغض النظر عن الالتزام برأى الخليفة العباسى أو قاضى القضاة فى بغداد[١]. فإذا تم تعيين القاضى، فإنه يتسلم مهام عمله فى حفل كبير فى الجامع العتيق حيث يقرأ عهد القضاء له. وبعد وذلك يقوم هذا القاضى بتعيين نواب له فى أنحاء البلاد ، كما كان يعاون كل قاضى طائفة من الشهود الذين يعتد بهم وبشهاداتهم[٢] .

فإذا لم يرض المتقاضون بحكم القاضى ، استأنفوا أحكامه أمام صاحب النظر فى المظالم ، وهو قاضى آخر أعلى درجة . وربما نظر الأمير نفسه فى المظالم؛ ويتم ذلك فى مجلس كبير — كان كافور يعقده كل يوم سبت — ويحضره القضاه والفقهاء والشهود وجمع كبير من كبار الموظفين والأعيان[٣] .

أما المحتسب فكانت مهمته التأكد من تطبيق أحكام الشرع ومراقبة الأسواق والطرقات لمنع التلاعب والغش وتأديب المخالفين[٤] .

وهكذا ظل نظام الإدارة فى مصر على عصر الإخشيديين يدور داخل إطار النظم الإسلامية بوجه عام، مع بعض التفصيلات الثانوية التى تفرضها طبيعة كل بلد وتاريخه السابق .

الحياة الاقتصادية :

ظل النشاط الزراعى طوال تاريخ مصر هو المحور الأساسى للحياة الاقتصادية فيها ، كما ظلت الفلاحة هى الحرفة الأساسية لغالبية السكان ومصدر

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٨٩

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥٦٣ ، ٥٧٠ — ٥٧١

(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٠٧ الكندى : الولاة ص ٥٨٤ ، ابن سعيد : المغرب ص ٣٩

(٤) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٥٣ — ٥٤

الرزق للسواد الأعظم من أهل البلاد . وكانت الضريبة المفروضة على الأرض — وهى الخراج — تشكل المورد الأول للمالية العامة . ويفهم من الوثائق المعاصرة أن هذه الضريبة اختلفت قيمتها حسب جودة الأرض وحسب إيجارها ، إذ عثر على وثيقة ترجع إلى سنة ٣٤٨ ﻫ (٩٥٩م) ومحفوظة بدار الكتب المصرية تتضمن عقد إيجار أرض مساحتها ثلاثة أفدنة وقيمة الإيجار ثلاثة دنانير فى السنة بمعدل الفدان دينار واحد فى السنة ، بينما عثر على وثيقة آخرى تتضمن عقد إيجار أرض فى العصر الإخشيدى ومساحة الأرض ستة أفدنة وإيجارها خمسة عشر دينارا فى السنة، بمعدل إيجار الفدان ديناران ونصف فى السنة[1] .

وكانت جميع أراضى مصر تروى بطريقة الحياض مرة واحدة فى العام زمن الفيضان ، ومن ثم فقد اعتمدت الحياة الإقتصادية فى البلاد إعتماداً تاماً على فيضان النيل ، فإذا جاء الفيضان كافياً رويت الأراضى وأنبتت ، وعم الرخاء البلاد والعباد .

أما إذا جاء فيضان النيل منخفضا ، فعندئذ يشتد الغلاء وينتشر الوباء ، كما حدث سنة ٣٢٩ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٢ ﻫ (= ٩٤٠ ، ٩٤٩ ، ٩٥٢ ، ٩٥٤ ، ٩٦٣ م) .

ولا أدل على إدراك المعاصرين لأهمية النيل وفيضانه من أن مؤرخا مثل أبى المحاسن يحرص فى ختام كل سنة من حولياته على ذكر عبارة « أمر النيل فى هذة السنة » ثم يتكلم عن حالة النيل وارتفاعه ، ومدى الزيادة فى مياهه ويقارن بين الوضع فى تلك السنة وبين ما كان عليه أمر النيل فى السنة السابقة .

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ص ٢٦٤

وقد تنوعت الحاصلات الزراعية وإن كان أهمها الكتان والخضروات والفواكه . ويبدو أن دور الحكومة كان محدوداً فى إصلاح الجسور وحفر الخلجان والترع ، إذ ترك ذلك للفلاحين المستفيدين فى كل منطقة(١) .

وإذا كان الإنتاج الصناعى فى ذلك العصر قد اقتصر على صناعة الحصر والمنسوجات وبعض الصناعات الخشبية والمعدنية ، فإن التجارة كان لها دون شك شأن أكبر فى حياة مصر الإقتصادية . ذلك أن موقع مصر الفذ بين الشرق والغرب كان له أثره دائماً فى نشاطها التجارى ، وإن كان جزء كبير من هذا النشاط مركزاً فى أيدى اليهود والفرس(٢) .

كذلك ساعد نهر النيل على نشاط التجارة الداخلية ، فقام بدوره التقليدى الكبير بوصفه الشريان الضخم الذى يربط جنوب البلاد بشمالها ، نظلت المراكب تسلكه شمالا وجنوبا تحمل المتاجر والحاصلات ، مما أدى إلى نشاط التجارة الداخلية(٣) .

على أنه يبدو أن الحياة الاقتصادية كانت مضطربة بوجه عام فى عصر الأخشيديين. ذلك أن حرص الأخشيد وبخله، ودأبه على جميع المال ، جعله يضن فى النفقة، فأهملت كثير من مرافق البلاد . هذا الى أن الضرائب كانت قاسية ، وكثيراً ما لجأ الأخشيد إلى مصادرة أموال الأغنياء ، مبرراً سلوكه الخاطىء بأنه إنما يفعل ذلك للحصول على المال لسد نفقات الدولة . ولكن هذه المبررات لم يستسيغها الشعب، وخاصة أنها حدت من النشاط الاقتصادى، فضلا عن أن الأخشيد استثار غضب الناس بسبب تضييقه عليهم . ويروى

---

(١) المقريزى : المواعظ ، ج ١ ص ٨٢ .

(٢) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ص ٢٧٩ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٩٨ .

أبو الفدا أن الأخشيد قبل سفره فى آخر رحلة له إلى الشام وجد بداره رقعة قد كتب عليها « قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتم ، ووسع عليكم فضيقتم ، وأدرت لكم الأرزاق فقطعتم أرزاق العباد . واغتررتم بصفو أيامكم ، ولم تفكروا فى عواقبكم ، واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات وتهاونتم بسهام الأسحار وهن صائبات ، ولا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها ، وأكباد أجعتموها ، وأجساد عريتموها . ولو تأملتم فى هذا حق التأمل لانتبهتم . أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ، ولو دامت لمن مضى لما نالها من بقى . فكفى بصحبة ملك يكون فى زوال ملكه فرح للعالم . ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد ويبقى المنتظر به . افعلوا ما شئتم فإنا صابرون ، وجوروا فإنا بالله مستجيرون . وثقوا بقدرتكم وسلطانكم فإنا بالله واثقون . وهو حسبنا ونعم الوكيل !! »[1] .

الجيش والأسطول :

عنى الأخشيديون بالجيش للمحافظة على استقلالهم ، حتى يقال أن الجيش الأخشيدى تألف من أربعمائة ألف مقاتل فى مصر والشام . أما العناصر التى تكون منها هذا الجيش فأهمها الترك والسودان ، فضلاً عن مماليك ينتمون إلى جنسيات متباينـــة . وكان محمد بن طغج يحرص على استعراض الجيش فى أيام الأعياد وفى بعض المناسبات الأخرى ، مثلما كان يفعل ابن طولون من قبله ، كما تولى قيادة الجيش فى بعض المعارك محمد ابن طغج نفسه ومن بعده كافور . وتمتع قادة الجيش بكلمة مسموعة فى شئون البلاد وخاصة تولية الأمور .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٠٠ — ١٠١ .

على أنه يبدو أن نظام الجيش أخذ ينحل بعد وفاة الأخشيد واستبداد كافور بالأمر ، فانقسم الجيش إلى طائفتين : الأخشيديين والكافوريين . وإذا كان الأخشيد قد استطاع بفضل قوة شخصيته وحزمه أن يسيطر على العناصر المتباينة التي تألف منها الجيش ، فإن التآلف بين هذه العناصر صار أمراً صعبا على خلفائه ، ولم يجد كافور وسيلة للسيطرة على الجيش سوى إغداق الأموال على رجاله ، وهذا منطق كل حاكم ضعيف . لذلك لا عجب إذا سرى الإنحلال بين صفوف الجيش بعد وفاة كافور ، فكثرت ثورات الجند وتدخلهم في شئون الحكم ، مما آذن بانهيار الدولة الأخشيدية[1] .

أما الأسطول فقد حظى بعناية الأخشيديين مثلما حظى بعناية الطولونيين . ويقال إن محمد بن طغج الأخشيد نقل جزءاً من دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى الفسطاط . وبذلك غدت السفن يصنع بعضها في دار الصناعة بمصر (الفسطاط) ، والبعض في دار صناعة الجزيرة (الروضة)[2]. والحق إن العناية بالأسطول كان أمراً جوهرياً بالنسبة لأى حاكم في مصر حريص على أن يحمى دولته ذات الشواطىء الطويلة الممتدة على أكبر بحرين في منطقة الشرق الأدنى .

الحركة الثقافية والفكرية والفنية : —

ظلت الحركة العلمية تندو في مصر في ذلك العصر تبعا لسنة النشوء والإرتقاء ، على قول الأستاذ أحمد أمين[3]. ومن الثابت أن العصر الإخشيدى شهد نشاطا كبيرا في ميادين العلوم والآداب والفنون . فكان العلماء والأدباء يلقون تشجيعا من الأمراء وعلية القوم ، وفي مجالس الأمراء كان يلتقى

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف : مصر في عصر الاخشيديين ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) سعد زغلول : البحرية في مصر الإسلامية ص ٩٤ .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ١٦١ .

الفقهاء والعلماء والأدباء فيسامرونهم وينادمونهم ويشجعونهم ماديا وأدبيا . ويقال إن الأخشيد أعجب بعلم أحد الفقهاء فولاه على سواحل مصر ، وإن أونوجور كان يجالس سيبويه المصرى وينادمه ، وأن الخليفة عبد الرحمن الناصر أرسل من الأندلس عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية ، فأمر كافور بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية[1] .

وقد سبق أن ذكرنا أنه لم تكن هناك مدارس فى العصرين الطولونى والإخشيدى ؛ ومن ثم فقد كانت الدروس تلقى فى الجوامع كجامع عمرو وابن طولون ، كما كانت هناك سوق تسمى « سوق الوراقين » تباع فيها الكتب تعقد تدور فى دكاكينها المناظرات[2] . هذا فضلا عن المجالس التى كانت وأحيانا فى بيوت الأمراء والوزراء وعلية القوم .

وأهم العلوم الدينية التى حظيت باهتمام المعاصرين الفقه والحديث . وكان التنافس فى مصر شديدا فى ذلك العصر بين أنصار المذهبين الشافعى والمالكى ، حتى تحول هذا التنافس أحيانا إلى قتال عنيف فى جامع عمرو بين الفريقين[3] . وعلى رأس فقهاء الشافعية فى ذلك العصر كان أبو بكر بن الحداد المتوفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) ، وقد ولى القضاء للإخشيد ، وعاش تسعا وسبعين سنة قام خلالها بالتدريس فى جامع عمرو ، واشتهر بسعة العلم فى القرآن والحديث والفقه والأسماء والكنى والنحو واللغة وسير الجاهلية والشعر والنسب . ووصفه المعاصرون بأنه كان « طويل اللسان »[4] أى لا يقهر

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ٣٠٣ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ١٦٤ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٢٤ .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٥٢ .

فى مناقشه ولا يهزم فى مناظرة ، حتى قيل فى زمنه « عجائب الدنيا ثلاث : غضب الجلاد ونظافة السماد والرد على بن الحداد ![1] » .

ومن فقهاء الشافعية الذين برزوا فى مصر فى العصر الأخشيدى أبو رجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسوانى المتوفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) ، وأبو بكر محمد بن بشر المتوفى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ م) وغيرهم كثيرون . ولم يكن هؤلاء جميعا من أبناء مصر ، وإنما وفد بعضهم من بغداد ودمشق وغيرهما من أرجاء الوطن العربى ، ووجدوا فى مصر على عصر الأخشيديين التشجيع الكافى والتربة الصالحة لنشاطهم .

أما عن فقهاء المالكية فقد برز منهم فى العصر الإخشيدى هارون بن محمد الأسوانى المتوفى سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) وعلى بن عبد الله بن أبى مطر الإسكندرانى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ (٩٤١ م) ومحمد بن يحيى بن مهدى الأسوانى المتوفى سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) ، وغيرهم[2] .

ويرتبط بالنشاط الدينى فى ذلك العصر ، حركة التصوف التى أخذت تنمو تدريجيا وفى بطء منذ أيام ذى النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) فتعاقب بعده فى عصر الطولونيين ثم الإخشيديين جماعة من زعماء المتصوفه الذين نشروا لونا جديداً من ألوان السلوك الدينى ، يقوم على أساس الزهد فى الحياة والتقشف والرغبة فى الإنقطاع للعبادة . وممن اشتهر من المتصوفه فى العصر الإخشيدى أبو الحسن على الدينورى المتوفى سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) وأبو الخير الأقطع المتوفى سنة ٣٤٣ هـ (٩٥٤ م) وأبو بكر محمد النابلسى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) وكان الأخير معاصراً لكافور وله معه قصص مشهورة[3] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٥٨٠ .

(٢) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ .

هذا عن النشاط الديني وما ارتبط به من علوم دينية ، أما عدا ذلك من العلوم فكان لها نصيب لا يستهان به في الحياة الفكرية على ذلك العصر . من ذلك ما يرويه الأدفوي من أن أبا الرجاء محمد الأسواني المتوفى سنة ٣٣٥ ﻫ (٩٤٦م) كتب في الطب والفلسفة[١]. هذا إلى أن سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ ﻫ (٩٣٩م) كانت له كتب في الطب والجدل ، وقد ترجم كتاب الحيوان لأرسطو ، الأمر الذي يشير إلى وجود حركة فلسفية في مصر في ذلك العصر ، وهي في حقيقة أمرها « من أثر مدرسة الاسكندرية ، ومن أثر الوافدين من العراق ، بما ترجموا من كتب ، وأن بعض العلماء المصريين اشتغل بها وتأثر وتثقف وإن كان ذلك في دائرة ضيقة ، إذا قيست بدائرة علوم الدين واللغة[٢] » .

وقد رأينا كيف انتقلت إلى مصر منذ أيام الخليفة المأمون العباسي صورة من خلافات المتكلمين ، وهذه الصوره ظلت قائمة في مصر ولو على وجه مخفف بعد أن حرم الخليفة المتوكل النقاش حول الموضوعات التي أثارها المعتزلة ؛ فوجد في مصر في العصر الطولوني ثم الإخشيدي جماعة اعتنقوا مذهب الاعتزال . ومن ذلك ما ذكره ابن زولاق من أن أبا علي محمد الواسطي كان يعلم الاعتزال . ويروى ابن زولاق أن سيبويه المصري أخذ علم الاعتزال عن أبي علي الواسطي ، فكان سيبويه يتكلم عن أصول المعتزلة ويقول بخلق القرآن ، والناس يحتملون منه مالا يحتملونه ، للوثة كانت في عقله[٣].

على أن النشاط العلمي الواسع الذي ظهر في مصر على عصر الإخشيديين إنما كان بوجه خاص في ميداني النحو والتاريخ . والواقع إن النشاط اللغوي والنحوي ارتبط في ذلك العصر بالحركة الدينية ، لأن اللغة والنحو كانا

---

(١) الادفوي : الطالع السعيد ص ٢٦٧ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج١ ص ١٧٤-١٧٥ .

(٣) ابن زولاق : اخبار سيبويه المصري ص ١٨ - ٢٤ .

دائماً مفتاحا لفهم القرآن والسنة وأداة لفهم الأحكام[١]. ونخص بالذكر من نبغ فى عصر الإخشيديين فى علوم اللغة والنحو ابن ولاد أحمد وأباجعفر النحاس. أما ابن ولاد أحمد فصرى الأصل نشأ فى أسرة اشتغلت بالنحو، وسافر إلى بغداد حيث درس النحو على الزجاج، ثم عاد إلى مصر حيث اشتغل بالنحو وألف كتاب «الانتصار لسيبويه» وكتاب «المقصور والممدود». وكانت وفاته سنة ٣٣٢ ﻫ (٩٤٣م) ووصفه المبرد بأنه شيخ الديار المصرية فى العربية[٢].

وأما أبو جعفر النحاس فهو معاصر لابن ولاد، زامله فى التعليم ببغداد حيث درس النحو على الأخفش الصغير والمبرد والزجاج، ثم أتى إلى مصر حيث توفى سنة ٣٣٨ ﻫ (٩٤٩م). وقد ألف أبو جعفر عدداً من الكتب منها «إعراب القرآن»، «ومعانى القرآن»، «والمبهج فى اختلاف البصريين والكوفيين»[٣]. والحق أن ابن ولاد وأبا جعفر النحاس «كانا بعلمهما مصدرا لحركة قوية لغوية ونحوية فى مصر، وتعلم عليهما كثيرون»[٤].

هذا عن اللغة والنحو، أما عن التاريخ فلم يكن العصر الإخشيدى أقل من عصور مصر الإسلامية — السابقة واللاحقة — خصبا فى الرجال والإنتاج.

وقد برز من مشاهير المؤرخين فى العصر الإخشيدى ثلاثة هم ابن يونس والكندى وابن زولاق. أما ابن يونس الصدفى (٢٨١ — ٣٤٧ ﻫ = ٨٩٤

---

(١) أحمد أمين: ظهر الاسلام ج١ ص١٦٩.
(٢) ياقوت: معجم الادباء ج ٤ ص ٢٠١ — ٢٠٣.
(٣) المرجع السابق ص٢٢٤، ابن خلكان: وفيات الاعيان ج١ ص٣٥.
(٤) أحمد أمين: ظهر الاسلام ج١ ص ١٧٠ — ١٧١

— ٩٥٨ م) فينسب إلى قبيلة الصدف ؛ وقد تثقف ثقافة واسعة أساسها الفقه والحديث ، ثم اشتغل بالتاريخ فاطلع على ما كتبه من سبقه من مؤرخي مصر كابن عبد الحكم ، وجمع تاريخين أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين من ناحية الأصل والنشأة ، والآخر — وهو الأصغر — يختص بمن وزد على مصر من الغرباء[١] . وأما الكندي فهو محمد بن يوسف (٢٨٣ — ٣٥٠ ه = ٨٩٦ — ٩٦١ م) نشأ بمصر ومات بها ، وتثقف ثقافة عالية على ابن قديد والنسائي وغيرهما من علماء عصره . ثم اشتغل بالتاريخ فألف كتباً كثيرة ، أهمها كتاب ولاة مصر وقضاتها . كذلك ألف كتاباً في خطط مصر كان مرجعاً لمن كتب بعده في الخطط مثل المقريزي ، وأشار إليه المقريزي وابن دقماق وأبو صالح الأرمني . ومع أن معظم مؤلفات الكندي لم تصل إلينا إلا أن إنتاجه الضخم يضعه في المحل الأول بين المشتغلين بالتاريخ الإسلامي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري . وكتابه الولاة والقضاة بالذات يعتبر ثروة نفيسة في دراسة الحياة العربية في مصر منذ الفتح العربي حتى منتصف القرن الرابع الهجري[٢] . أما ابن زولاق فهو الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ه (٩٩٧م) وقد أكمل أخبار قضاة مصر للكندي ، وألف في خطط مصر ، كما ألف في سيرة الإخشيد ، وكتب كتاباً في أخبار سيبويه المصري[٣] .

وبالإضافة إلى هؤلاء الأعلام من مؤرخي العصر الإخشيدي نشير إلى سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ ه (٩٣٩م) . وكان بطريركا على الاسكندرية ، كما زاول الطب فترة من الزمن بالفسطاط ، وألف كتابه المشهور « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق »[٤] . كذلك نشير إلى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٤٩ .
(٢) حسن أحمد محمود : الكندي المؤرخ ص ٤٣ ، ٦٢ ، ٦٣ .
(٣) ياقوت : معجم الادباء ج ٧ ص ٢٢٥ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ١٦٧
(٤) سيده اسماعيل كاشف : مصر في عصر الاخشيديين ص ٣١٩

أنه فى العصر الإخشيدى وفد على مصر المؤرخ المشهور المسعودى، وأقام فيها نحو سنتين حتى وفاته سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧م) . والمسعودى مؤرخ ممتاز، انتقل بكتابة التاريخ خطوة واسعة عندما بعد فيه عن أسلوب المحدثين « ولاشك فى أن وجوده بمصر ونشر كتبه فيها كان له أثر كبير فى الثقافة التاريخية[١] » .

أما عن الأدب والأدباء فى العصر الإخشيدى، فيلاحظ أن النثر كان أوفر حظاً من الشعر ، وأن مصر لم تخـــرج — لا فى عصر الطولونيين أو الإخشيديين — شاعراً كبيراً يضاهى شعراء العراق ، رغم ارتقاء الفنون فى مصر، وكثرة العناية بالبساتين والأزهار ، مما هو كفيل بإلهام بعض الشعراء[٢]. وقد تزعم الادباء فى ميدان النثر فى العصر الإخشيدى الكاتب ابراهيم ابن عبدالله بن محمد النجيرمى « زعيم كتاب الإخشيديين[٣] » ، ومن انشائه رسالة طويلة أرسلها الإخشيد إلى رمانوس الوصى على عرش الامبراطورية البيزنطية . ويتصف أسلوبه بالصفة الفنية وخاصة الميل إلى السجع والمزاوجة والإطناب فى اللفظ وتكرار المعنى[٤]. كذلك اشتهر من أدباء العصر الإخشيدى أبو بكر محمد المعروف بابن سيبويه المصرى (٢٨٤ — ٣٥٨ هـ = ٨٩٧ — ٩٦٨ م) ، وقد اتصف نثره بالسجع والصفة الفنية . وكانت له ميول اشتراكية متطرفة ، يكره الأغنياء ويحقد عليهم ، ولذا حرصوا على إتقاء شره[٥].

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٧

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ١٧١ .

(٣) محمد كامل حسين : أدبنا المعاصر فى عصر الولاة ص ١٠٧

(٤) انظر نص الرسالة السابقة فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ١٠ ـ ١٧

(٥) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٢٠ـ٣٢١

أما شعراء العصر الإخشيدى ، فنهم أحمد بن محمد والقاسم بن أحمد الرمي ومحمد بن الحسن بن زكريا وغيرهم . ولكن شعرهم ليس فيه من المتانة والعمق وجمال التصوير ، ما يجعله على مستوى الشعر الممتاز الراقى . وجدير بالذكر أن المتنبى وفد على مصر — كما سبق أن ذكرنا — ومدح كافور ثم هجاه ، ومما قاله فى مدحه القصيدة الشهيرة التى مطلعها : —

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً
وحسب المنايا أن يكن أمانيا .

وجاء فيها :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

ولما لم ينل المتنبى ما كان يطمع فيه من مناصب ، نظم قصيدته الدالية الشهيرة فى هجاء كافور ، ومطلعها : —

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

وجاء فيها :

صار الخصى أمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد
من علم الأسود المخصى مكرمة أقومه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود

ومهما يكن من أمر ، فإن المتنبى وغيره من الشعراء الوافدين لا يعبرون عن مستوى الشعر فى مصر بالذات على عصر الإخشيديين ، وإن كانوا يتمتعون بأهمية مصر فى مجال النشاط الحضارى فى تلك العصور .

وأخيراً ، فإن الحياة الفنية فى عصر الإخشيديين اتصفت هى الأخرى بالازدهار والرقى . حقيقة إن غالبية ما شيده الإخشيديون من منشآت

وعمائر اندثرت اليوم ، ولم يبق من عمائر ذلك العصر إلا نذر يسير، أهمها مشهد آل طباطبا قرب ضريح الإمام الشافعى، ومحراب قديم فى تلك المنطقة، فضلا عن مجموعة من شواهد القبور محفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة [١]، ولكن كثيراً من منشآت الإخشيديين التى اندثرت بقيت أوصافها فى الكتب، وهى أوصاف تنطق بسمو الفن ومهارة الصنعة وجمال الذوق . من ذلك مايرويه ابن سعيد من وصف لقصر المختار والبستان الذى شيده الإخشيد فى جزيرة الروضة [٢] ، وما يذكره ابن زولاق والمقريزى من أسماء عديد المساجد التى شيدها الإخشيديون [٣]. هذا بالإضافة إلى المارستان أو المستشفى الذى شيده كافور ، والقيساريات والأسواق التى انشأها الإخشيد [٤] .

كذلك بلغت الفنون فى ذلك العصر ذروتها فى زخرفة النسيج ، إذ زخرفوا النسيج برسوم جميلة بعضها هندسى والبعض الآخر يمثل صور ملونة لبعض الطيور والحيوانات . وقد وصلت إلينا بعض قطع من النسيج عليها أسماء لأفراد من علية القوم ، وخاصة من الخلفاء العباسيين ووزراء العصر الإخشيدى [٥] .

وجملة القول أن العصر الإخشيدى على قصره كان عصر نشاط كبير فى الداخل والخارج ، عا يعتبر عهداً للتطور الكبير الذى شهدته مصر فى العصر الفاطمى الأول .

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٢٨٥ - ٢٩٣ .
(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٣ .
(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٤٥٦ ، ابن زولاق : اخبار سيبويه ص ٣٢ .
(٤) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٩٦
(٥) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٧ .

مصادر

ابن الاثير : الـكامل فى التاريخ
ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب
عريب بن سعد القرطبي : صلة تاريخ الطبرى
الـكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

مراجع

سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين .
Wiet : L'Egypte Arabe.

الباب الرابع

الدولة الفاطمية

الفصل الأول — قيام الدولة

الشيعة ودعوتهم :

أطلق لفظ الشيعة فى التاريخ على شيعة أهل البيت — بيت الرسول عليه الصلاة والسلام — ثم تحدد المقصود بهذا اللفظ فأصبح يعنى فرعا محددا من آل البيت ، هو فرع على بن أبى طالب وأولاده من فاطمة الزهراء بنت الرسول (ص) . وهؤلاء هم الذين عرفوا أيضا باسم العلويين نسبة إلى على ابن أبى طالب .

وقد اعتقد على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — أنه أحق الناس بأن يخلف الرسول (ص) فى حكم المسلمين ، وذلك للمزايا والمبررات العديدة التى كانت تؤهله فعلا للخلافة . ولكن وفاة الرسول (ص) دون أن يحدد خليفة يخلفه فى حكم المسلمين ، أدى إلى اختيار أبى بكر الصديق رضى الله عنه لمنصب الخلافة ، لما له هو الآخر من مميزات ، أهمها أن النبى (ص) أنابه عنه فى الصلاة بالمسلمين عندما أعجزه مرض الموت عن النهوض بتلك المهمة. ولم يرض على بن أبى طالب — رضى الله عنه — بذلك ، وشايعه فى موقفه كثيرون ، مما أدى إلى بذر البذور لانقسام المسلمين إلى سنيين وشيعيين .

وبفضل سياسية أبى بكر وحزم عمر ، ظلت هذه البذور مكبوتة لا تقوى على الإنطلاق ؛ ولكن عثمان — رضى الله عنه — اختلف عن أبى بكر وعمر ،

وأدت سياسته إلى نوع من القلق الذى تطور إلى الفتنة التى أودت بعثمان . ولم يرض معاوية بن أبى سفيان عن اختيار على بن أبى طالب خليفة بعد مقتل عثمان ، فظهر فى الدولة حزبان كبيران ، حزب عثمان وعلى رأسه قريبه معاوية بن أبى سفيان وهؤلاء هم بنو أمية ، وحزب على بن أبى طالب رأس بنى هاشم ، الأعداء القدامى لبنى أمية . وانتهى الصدام بين الحزبين فى موقعة صفين بالتحكيم ، ثم ظهور الخوارج الذين قتلوا عليا رضى الله عنه سنة ٤٠ هـ (٦٦٠م) .

ولا شك فى أن تلك النهاية المؤلمة التى انتهت بها حياة على بن أبى طالب ، ونجاح خصمه — عن طريق الخديعة والعنف — فى الوصول إلى منصب الخلافة وتأسيس الدولة الأموية . . كل ذلك زاد من شعور العطف على أهل البيت . وإذا كان الحسن بن على قد تنازل عن حقه فى الخلافة — حقنا لدماء المسلمين — فإن أخاه الحسين استجاب لدعوة أهل الكوفة ، وشق راية العصيان على يزيد بن معاوية ، حتى انتهى الأمر بكارثة كربلاء سنة ٦١هـ (٦٨٠ م) ، وهى الموقعة التى استشهد فيها الحسين رضى الله عنه . وجاءت هذه الكارثة فى حد ذاتها عاملا جديدا لمضاعفة شعور العطف على آل البيت ، وازدياد إحساس شيعتهم بالندم والأسف لتقصيرهم فى الدفاع عن حياة على والحسين جميعا . واتخذ الأمر شكل صراع — يظهر حينا ويستتر أحيانا — بين بنى أمية وبنى هاشم . . وفى ذلك الصراع انتهز العباسيون الفرصة لينقلوا الدعوة إلى أنفسهم . أليسوا هم أيضا من أبناء البيت النبوى؟ أليس العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ فلم إذن تكون الدعوة للفرع العلوى من سلالة على بن أبى طالب ولا تكون للفرع العباسى من سلالة العباس ؟؟ وهكذا نجح العباسيون فى الدعوة لأنفسهم سرا ، مستغلين شعار ظاهره الدعوة لآل البيت ، وهو شعار واسع عريض يشمل بنى العباس وبنى على جميعا . واشتد ساعد الدعوة السرية للعباسيين عندما نهض بها أبو مسلم الخراسانى ، حتى انتهى الأمر بسقوط الخلافة الأموية سنة ١٣٢ هـ

(٧٥٠ م) وقيام الخلافة العباسية ، وأول خلفاؤها أبو العباس السفاح .

وأخيرا أفاق العلويون وأدركوا أن بنى العباس قد خدعوهم عندما جعلوا الدعوة « للرضا من آل محمد » دون تحديد لاسم أو فرع . ولم يرض العلويون عن تلك النتيجة الفاشلة التى آلت إليها جهودهم ، فبدءوا صفحة جديدة من النضال لانتزاع حقهم فى الخلافة من أقربائهم بنى العباس .

ولما كان العلويون لا يقوون على المقاومة المسلحة فى ذلك الدور ، فقد اعتمدوا أساسا على الحيلة والدعوة السرية ، وإن لم يتركوا فرصة إلا اغتنموها للثورة المسلحة ضد العباسيين ، حينا فى الحجاز وأحيانا فى جنوب العراق . وفى هذه الثورات المسلحة سقط شهداء جدد من زعماء العلويين فى باخمرا وفخ وغيرهما من المواقع . واتصفت الموقعة الأخيرة بالذات ، قرب مكة سنة ١٦٩هـ (٧٨٥ م) بالعنف ، فقتل فيها الحسين بن على بن الحسن ابن الحسن بن الحسن بن على ، وسقط معه بعض أهل بيته ؛ فحزت هذه الكارثة فى قلوب الشيعة حتى قيل « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ » .

وفى تلك الأثناء انقسم الشيعة الامامية على أنفسهم — وذلك بعد موت الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) — إلى حزبين كبيرين . الأول أطلق عليه الإمامية الإثناعشرية وهم الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم الإبن الأصغر لجعفر الصادق وهو عندهم الإمام السابع ، وربما نسبوا إلى موسى الكاظم فعرفوا باسم الإمامية الموسوية . والحزب الثانى هم الإمامية السبعية أو الإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وهو أكبر أبناء أبيه . ولما كان إسماعيل هذا قد توفى فى حياة أبيه فإن أنصاره حولوا إمامته إلى إبنه محمد ، وهو عندهم الإمام السابع [1] .

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ، ص ١٩ ، ٩٤

نجاح الدعوة الشيعية فى المغرب :

على الرغم من قسوة العباسيين فى مطاردة العلويين وكبت أصواتهم ، إلا أن اثنين من زعماء العلويين — هما يحي بن عبد الله وأخوه إدريس بن عبد الله — استطاعا النجاة من موقعه فخ ؛ ومن ثم فقد سببا أخطاراً لم تنقطع للدولة العباسية . ولا يعنينا كثيراً فى دراستنا هذه أمر يحي الذى ثار فى بلاد الديلم على عهد الخليفة هارون الرشيد ؛ لأنه لم يلبث أن اصطلح مع الرشيد ثم مات مسموما سنة ١٧٦ ﻫ (٧٩٢ م) . وإنما يعنينا إدريس ابن عبد الله الذى فر إلى بلاد المغرب فى شمال إفريقية حيث أخذ يستثير الشعور ضد العباسيين ، حتى إذا ما دس له السم سنة ١٧٧ ﻫ (٧٩٣ م) ، خلفه ابنه المسمى إدريس أيضاً ، وبذلك قامت دولة الأدارسة ، وهى أول دولة يقيمها العلويون .

ولم يقنع الشيعة بذلك ، بل لجأ أئمة الاسماعيلية إلى نشر دعوتهم سراً خوفاً من انتقام الخلفاء العباسيين . ولما كانت هذه الدعوة مفروضا فيها أن تمتد إلى مختلف أطراف العالم الإسلامى ، فقد وجدوا أنه لابد من مركز متوسط من ناحية الموقع الجغرافى ؛ يسهل منه بث الدعـــوة فى المشرق والمغرب جميعاً . وكان هذا المركز هو مدينة سلمية من أعمال حماه ببلاد الشام ، ومنها انطلق الدعاة إلى مختلف البلاد[1] .

ولما أخذ الخلفاء العباسيون يضيقون الخناق على جهود الشيعة بوجه عام ، أدرك الاسماعيلية صعوبة إقامة دولة لهم بالشام ، لقربها من مركز الخلافة العباسية فى العراق ، ورأوا أن شمال إفريقية أكثر أمناً لبعدها عن بغداد . هذا فضلا عن الأحوال السياسية فى شمال افريقية وحنق

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٧ وما بعدها .

البربر واستعدادهم لإعتناق المذهب الشيعي ؛ مما جعل شمال افريقية أرضاً طيبة صالحة لنشاط دعاة الاسماعيلية . وعلى رأس هؤلاء الدعاة يأتى اسم أبي عبد الله الشيعي الذى دخل بلاد المغرب سنة ١٤٣ هـ (٧٦٠م) .

أما أبو عبد الله الشيعي هذا فأصله من صنعاء باليمن ، واسمه الحسن ابن أحمد ، وكان من دعاة الإثنا عشرية أولا ثم اعتنق المذهب الإسماعيلى وصار من كبار دعائمه ، حتى وقع الاختيار عليه للقيام بالدعوة فى بلاد المغرب[1] . وهناك فى المغرب رحبت به قبائل كتامة ، وأقبل إليه البربر يناصرونه ويؤيدون دعوته لمذهب الاسماعيلية[2] . ولم يستطع الأغالبة — الذين حظوا بعطف الخلافة العباسية وتأييدها — القضاء على نفوذ أبي عبد الله الشيعي ، فتمكن بفضل أنصاره من التغلب على الجيوش التى أرسلها ضده إبراهيم الأغلبي . ولم تلبث المدن والبلاد الواقعة غربى القيروان أن وقعت تحت سيطرة أبي عبد الله الشيعي فى أواخر القرن الثالث للهجرة . وساعد على استقرار نفوذه فى تلك البلاد حسن سياسته وبعد نظره وتقربه إلى الناس بنشر العدل ومنع الظلم[3] .

قيام الدولة الفاطمية فى المغرب :

ولما اطمأن أبو عبد الله الشيعي إلى نجاح الدعوة فى شمال أفريقية ، واستقرار الأمور ، واستعداد الناس لتلقى الإمام ، أرسل إلى الإمام عبيد الله المهدى الذى كان مقيما فى سلميه بالشام يدعوه للحضور إلى إفريقية . وعبيد الله المهدى هذا هو أول الخلفاء الفاطميين فى المغرب ، واسمه سعيد بن أحمد بن اسماعيل

(١) ابن الاثير : الكامل ، ح ٨ ص ١١ .
(٢) البكرى : المغرب ص ٦٣ — ٦٤ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار المغرب ج ١ ص ١٣٦ .

ابن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . وأحيانا تنسب إليه الدولة الفاطمية فتعرف بالعبيــــدية ، وتعرف سلالته بالعبيديين . ولا داعى هنا للدخول فى تفصيلات عن النقاش الذى دار فى التاريخ حول صحة نسب الفاطميين إلى على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء رضى الله عنهما ، ويكفى أن نشير إلى أن جمهرة المعتدلين من الباحثين أثبتوا صحة هذا النسب(١) .

ولم يكن الطريق إلى المغرب سهلا أمام عبيد الله المهدى ، إذ علم الخليفة العباسى المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٧ — ٩٣٢ م) بأمر خروجه من سلمية إلى الغرب ، فأصدر أوامر مشدده بالقبض عليه . وهكذا كان على عبيد الله المهدى أن يتخفى فى زى التجار حينا ، ويبذل الرشاوى والأموال أحياناً ، ليخترق بلاداً تدين بالولاء والتبعية للخلافة العباسية ، مثل الشام ومصر وتونس .

ومع ذلك فقد وقع فى أسر أمير سجلماسة ، حتى استطاع الخلاص من الأسر سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨م)(٢) . وأخيراً وصل عبيد الله المهدى القيروان فاستقبله الناس استقبالا حاراً وبايعوه بالخلافة ، فتلقب بالمهدى أمير المؤمنين وبذلك قامت الدولة الفاطمية فى شمال أفريقية سنة ٢٩٧هـ (٩٠٩م) .

وقد اعتاد الكتاب والمؤرخون أن يربطوا بين مصر والدولة الفاطمية على أساس أن هذه الدولة شهدت أحلى أيامها وأمجد عصور تاريخها فى مصر بالذات . ولكن هذه الحقيقة ينبغى ألا تنسينا واقع التاريخ ، وهو أن الدولة الفاطمية ولدت وشبت بالمغرب ، حتى انتقل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) . وعلى هذا الأساس فإن تاريخ الدولة

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٧ — ٧٩ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ١٣ ، ١٤ .

الفاطمية ينقسم فى حقيقة أمره إلى دورين كبيرين : الدور المغربى ويمتد من سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) حتى سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ، والدور المصرى ويمتد من هـــذه السنة الأخيرة حتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) .

وفى الدور المغربى أو الافريقى للدولة الفاطمية تعاقب فى منصب الخلافة أربعة خلفاء هم عبيد الله المهدى (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ = ٩٠٩ — ٩٣٤ م) والقائم (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ = ٩٣٤ — ٩٤٥ م) والمنصور (٣٣٤ — ٣٤١ هـ = ٩٤٥ — ٩٥٢ م) والمعز من ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) حتى انتقاله إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) . وقد شهد هذا الدور نمو الدولة الفاطمية واتساعها فى شمال أفريقية ، فقضى الفاطميون على دولة الأغالبة ودولة الأدارسة واصطدموا بالخلافة الأموية بالأندلس وحدوا من نفوذها فى شمال أفريقية، وبسطوا سيطرتهم على صقلية ، وصارت أساطيلهم هى الغالبة على مياه البحر المتوسط .

على أنه إذا كان الفاطميون فى ذلك الدور قد نجحوا فى مد نفوذهم على شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسى غربا ، وفى التغلب على المشاكل والثورات الداخلية والأخطار الخارجية التى واجهتهم ، فإن ذلك لم يلههم عن مصر بالذات ؛ وبعبارة أخرى فإن شئون المغرب لم تلههم عن المشرق . والحق أن الخليفة عبيد الله الفاطمى ما كاد يتولى أمر الخلافة فى المغرب ، حتى أخذ يتطلع إلى مصر ، الأمر الذى جعل العلاقة بين الفاطميين فى المغرب وحكام مصر تتطور ، حتى انتهى الأمر بسقوط الدول الإخشيدية ونجاح الفاطميين فى امتلاك مصر ثم اتخاذها قاعدة لدولتهم .

العلاقة بين الفاطميين والإخشيديين :

الواقع أن ثمة حقيقة ينبغى أن نشير إليها ، هى أن الشيعة عندما أعلنوا

ثورتهم ضد الأمويين ثم العباسيين لم يكن هدفهم مجرد إقامة دولة علوية فحسب ، بل كان هدفهم الكبير هو الوصول إلى حقهم فى خلافة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وحكم المسلمين جميعا بوصفهم أصحاب الحق الشرعى الوحيد فى الخلافة . وبعبارة أخرى فإن العلويين عندما تحركوا ضد بنى أمية لم يستهدفوا إقامة دولة تحكم شطراً من المسلمين إلى جانب دولة بنى أمية ، وعندما تحركوا ضد العباسيين لم يقصدوا مقاسمة بنى العباس حكم المسلمين ، وإنما كان هدفهم الأساسى هو القضاء على خلافة بنى أمية بوصفها غير شرعية والقضاء على خلافة بنى العباس بوصفهم مغتصبين للخلافة من أصحابها الشرعيين ، وإقامة خلافة علوية تكون هى الخلافة الوحيدة التى يدين لها بالطاعة المسلمون جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها . ولئن كانت الظروف قد فرضت على العلويين الابتعاد عن قلب العالم الإسلامى ، وبث دعوتهم فى شمال إفريقية خوفا على أنفسهم من بطش الخلفاء العباسيين ، بعد المصائب العديدة التى أخذت تترى على رؤوس أئمة الشيعة الأوائل ، فإن الموقف تبدل بعد أن نجح العلويون فى تثبيت أقدامهم فى شمال افريقية ، وإقامه دولة كبيرة تمتلك من الجيوش والأساطيل ما جعلهم قادرين على تحقيق أهدافهم الكبرى البعيدة . ولا أقل بعد أن نجح العلويون فى بسط سيطرتهم على المغرب الافريقى من أن يتطلعوا إلى المشرق الإسلامى وبخاصة مصر والشام والحجاز . ففى المشرق كان مولد الإسلام ، ومن المشرق انبعثت عظمته . هذا إلى أن سيطرة الفاطميين على مصر والشام والحجاز لن تضفى عليهم أهمية خاصة فى نظر المسلمين فحسب ؛ بل ربما مكنتهم هذه السيطرة من ضرب العباسيين فى المشرق مثلما تمكنوا من ضرب الأمويين فى الأندلس والمغرب ، وبذلك يتم الثأر لما حل بالعلويين فى سابق الأزمنة على أيدى الأمويين والعباسيين جميعاً .

وقد سبق أن رأينا كيف بادر عبيد الله المهدى عقب تأسيس خلافته

فى القيروان بإرسال حملة سنة ٣٠١ هـ (٩١٣م). لغزو مصر بقيادة حباسة ابن يوسف ، أحد زعماء كتامة[١] . وكان أن نجحت هذه الحملة فى الاستيلاء على برقة ثم الاسكندرية وأخذت توغل فى الوجه البحرى ، الأمر الذى أفزع الخليفة المقتدر العباسى ، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة مؤنس الخادم ، أنزل الهزيمة بالجيش الفاطمى عند مشتول قرب الجيزة ، فعاد حباسه ابن يوسف مدحوراً إلى المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمى[٢] .

وكانت مصر فى ذلك الدور تمر بمرحلة انتقال بين الدولتين الطولونية والإخشيدية ، وهى المرحلة التى عادت فيها مصر تحت الإشراف المباشر للخلافة العباسية ببغداد . ويبدو أن عدم استقرار الأوضاع فى مصر وجشع الولاة ، وسوء الأحوال الاقتصادية نتيجة لتبذير خمارويه ، كل ذلك جعل بعض المصريين يتطلعون إلى الخلافة الفاطمية فى المغرب . وبعبارة أخرى فقد كان للفاطميين فى مصر أنصار يؤيدونهم ، وعلى استعداد لتقديم كل معونة تمكنهم من غزو البلاد . ويشير الكندى فى صراحة إلى أن جماعة من المصريين أرسلوا إلى الفاطميين فى المغرب يستحثونهم على غزو مصر . ثم يؤيد صحة هذا الرأى ما ذكرته المراجع من أن ذكا الرومى والى مصر من قبل الخلافة العباسية (٣٠٣ — ٣٠٧ هـ = ٩١٥ — ٩١٩ م) بادر بالقيام بحركة تطهير ضد أشياع الفاطميين ، فقبض على كثير منهم وقطع أيدى بعضهم وأرجلهم ، وسجن البعض الآخر[٣] .

ومع ذلك لم تتوقف أطماع الفاطميين فى مصر ، فأرسل المهدى جيشاً لغزوها سنة ٣٠٧ هـ (٩٩٩م) بقيادة ابنه أبى القاسم ، ونجح الفاطميون فى الاستيلاء

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٦٩ .

(٢) عريب بن سعد : صله تاريخ الطبرى ص ٥٣ .

(٣) الكندى : الولاة ص ٢٧٤ .

على الاسكندرية وشقوا طريقهم إلى الجيزة حيث دارت معركة بينهم وبين خصومهم قتل فيها من الفريقين بضعة آلاف .

وعندئذ بادر الخليفة العباسى بإرسال مؤنس الخادم مرة أخرى لطرد الفاطميين الذين كانت جيوشهم قد بلغت الفيوم ، فنجح مؤنس فى مهمته ، ومنى الجيش الفاطمى بخسائر فادحة(١) .

أما الحملة الفاطمية الثالثة على مصر فقد استمرت نحواً من ثلاث سنوات (٣٢١ – ٣٢٤هـ = ٩٣٣ – ٩٣٦م) ، تخللها صلح سنة ٣٢٢هـ (٩٣٤م) بين حبشى بن أحمد – قائد الجيش الفاطمى الذى رابط عند الجيزة – وخصومه ، ولكن هذا الصلح لم ينفذ ولم يدم طويلا ، فاستمرت المعارك دائرة بين الطرفين(٢) . وفى ذلك الدور على وجه التحديد ولى الإخشيد إمرة مصر ، وأنزل الهزيمة بالجند المغاربة ، الذين استنجدوا بالخليفة القائم بأمر الله الفاطمى ، فأمدهم بجيش كبير نجح فى الاستيلاء على الاسكندرية سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) . ولكن الإخشيد أرسل جيشاً كبيراً بقيادة أخيه الحسن بن طغج وقائده صالح بن نافع ، فانهزم المغاربة فى البحيرة سنة ٣٢٤هـ (٩٣٦م) وولوا الأدبار صوب برقة(٣) .

ويبدو أن الفاطميين فى شمال إفريقية شغلوا بعد ذلك بمشاغلهم الداخلية فترة من الزمن ، فلم يقوموا بمحاولة لفتح مصر فى بقية عهد القائم وطوال عهد المنصور الفاطمى (٣٣٤ – ٣٤١ هـ = ٩٤٥ – ٩٥٢ م) . ولكن عدم قيام الفاطميين بمحاولة حربية للإستيلاء على مصر فى تلك الفترة ليس معناه أنهم صرفوا النظر كلية عنها ، إذ ظلوا دائماً ينظرون بعين إلى شئون

---

(١) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٨٠ – ٨٦

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ص ٢٨٤ – ٢٨٥

(٣) الكندى : الولاة ص ٢٨٧

المغرب لتثبيت أقدامهم ، ويتطلعون بالعين الأخرى صوب الشرق . وإذا كانوا قد اضطروا فترة قصيرة إلى وقف جهودهم الحربية ضد مصر فإنهم حرصوا فى تلك الفترة ذاتها على استخدام أساليب السياسية فى تحقيق أغراضهم . ويذكر ابن سعيد أن الخليفة القائم الفاطمى (٣٢٢ – ٣٣٤ هـ = ٩٣٤ – ٩٤٥ م) كتب بيده رسالة خاصة ، وأرسلها مع رسول إلى محمد الإخشيد ، يستميله ويسترضيه، ويحاول اكتسابه إلى جانبه « فقد شهد الله على ميلى إليك وإيثارى لك ، ورغبتى فى مشاطرتك ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى ... [1] » ولم يشأ الإخشيد أن يقطع برأى، ويتعجل فى الرد على الخليفة الفاطمى بالقبول أو الرفض ؛ لاسيما وأن الأخشيد كانت له أطماعه الخاصة، وأراد أن يعمل لحسابه الخاص لا لحساب الخليفة العباسى فى المشرق أو الفاطمى فى المغرب. ويبدو أن الأخشيد عندما ساءت العلاقة بينه بين الخلافة العباسية بسبب أزمة ابن رائق — كما مر بنا — فكر فى قطع صلته بالخلافة العباسية ، على أن يدعو للخليفة الفاطمى ، ولكن بعض مستشاريه نصحوه بعدم التعجل فى تنفيذ هذه الفكرة ، وقالوا له « دع هذا إلى وقت آخر [2] » .

ولم تلبث أن عادت المياه إلى مجاريها بين محمد بن طغج الإخشيد من ناحية والخلافة العباسية من ناحية آخرى . وبعد وفاة الإخشيد استأنف كافور سياسية المحافظة على العلاقة الطيبة مع الخلافة العباسية . ويبدو أن كافور كان أكثر إحساساً بالخطر الفاطمى على مصر ، وخاصة وسط المشاكل الداخليه والخارجية العديدة التى واجهته ، فحرص على مسالمة الفاطميين واسترضائهم، مما جعل سياسته الخارجية تتصف بقدر من الدهاء والعمل على حفظ التوزان بين النفوذ العباسى والنفوذ الفاطمى . وللمؤرخ أبى المحاسن عبارة شهيرة

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) المرجع السابق .

يصف فيها كافور بأنه كان «خبيراً بالسياسة ، فطنا ذكيا جيد العقل، داهية. كان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله إليه ؛ وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء ، وتم له الأمر[١]» .

ولكن كافور لم يكن وحده من أهل السياسية ، وإنما كان الفاطميون لا يقلون عنه ذكاء ودهاء، فأرسلوا دعاتهم سراً إلى مصر لنشر الدعوة لهم، وأخذ البيعة من زعماء البلاد ورؤساء الجند للخليفة المعز لدين الله الفاطمى[٢]. وعندما أدرك الخليفة المعز أن الكمثرى نضجت ولا تحتاج سوى إلى جهد يسير لتسقط غنيمة باردة ، انتهز فرصة القحط والغلاء الذى ساد مصر فى زمن كافور ، وخرج المعز بنفسه إلى حدود مصر الغربية وأوغل فيها حتى بلغ الواحات ، ولكن كافور أرسل جيشاً رده على أعقابه . هذا وإن كان كافور قد تلقى بالقبول الدعاة الفاطميين الذين قدموا عليه من قبل المعز ، ووعد كثير من كبار رجال الدول الإخشيديين بتقديم الولاء للخليفة الفاطمى[٣].

نجاح الفاطميين فى فتح مصر :

وأخيرا توفى كافور سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨م) ومصر تمر بدور من أحلك أيام تاريخها ، بسبب انخفاض النيل واستمرار القحط واشتداد الغلاء وكثرة الموتى، الذين عجز الناس عن تكفينهم حتى اضطروا إلى إلقاء جثثهم فى النيل[٤]. ولم يستطع الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات أن يعالج المتاعب الداخلية أو يواجه الأخطار الخارجية التى هددت مصر من جانب القرامطة فى الشام والنوبيين فى الجنوب، فغرقت مصر فى بحر لجى من الفوضى والإضطراب .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٧ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٢٥ .

(٤) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٣٣٠ .

وفى ذلك الدور بالذات شاءت الظروف أن تهدأ الأمور للخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى المغرب ، فخضعت له البلاد ودانت له العباد . وهكذا أحكم التاريخ خطته وفرض حكمه ، فكان على المعز أن يستفيد من إمكانياته ، وأن يستغل الظروف القاسية التى تمر بها مصر ، ليحقق الحلم الكبير . ويقال أن المعز أخذ يستعد منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) ليضرب ضربته الكبرى ، فقام بإنشاء الطرق وحفر الآبار وإقامة المنازل والمحطات للإستراحة ، على طول الطريق من برقة حتى مشارف الإسكندرية . وفى الوقت نفسه نشطت أبواق الدعاية للفاطميين فى وادى النيل ، وأرسل الخليفة المعز إلى دعاته بمصر أعلاما ورايات ، أمرهم أن يوزعوها على من يبايع الخليفة الفاطمى من جند مصر ، ينشروها على الملأ وقت دخول الجيش الفاطمى أرض الكنانة[١] . ويبدو أن أهل مصر لم يكونوا فى حاجة إلى كثير من الدعاية ، بعد أن استبد بهم الضيق وصاروا يتطلعون إلى تغيير — أى تغيير — عسى أن يكون فيه صلاح أحوالهم .

وتشير جميع الشواهد التاريخية إلى أن إستعداد الخليفة المعز كان ضخما فى تلك المرة ، فأنفق على الحملة أربعة وعشرين مليون دينار ، وعهد بقيادة تلك الحملة إلى قائده جوهر الصقلى . وخرج الخليفة بنفسه لتوديع جيشه فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٨ هـ (فبراير ٩٦٩ م) ، فقبل جوهر يد الخليفة وسجد على الأرض ليقبل حافر فرسه ، ثم سار فى طريقه صوب الإسكندرية[٢] . وفى الوقت الذى زحف الجيش الفاطمى براً ، أبحرت فى البحر بعض القطع البحرية من الأسطول الفاطمى بحذاء الجيش لتساعده وتحمى مسيرته من ناحية البحر . وهكذا تقدمت القوات الفاطمية فى نظام محكم يدعو إلى

---

(١) سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٣٦٦ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٨ .

الإعجاب ، حتى وصلت الإسكندرية واحتلتها فعلا دون مقاومة .[١]

وأخيرا أفاق الوزير جعفر بن الفرات ، وأدرك أنه لا حول له ولا قوة أمام الغزو الجديد ؛ وأن الخلافة العباسية أضعف وأبعد من أن تنجده ، فجمع وجوه القوم وأهل الرأى للمشورة ، واستقر رأى الجميع على مفاوضة جوهر الصقلى حول شروط التسليم والصلح. وظهر بعد نظرهم عندما اختاروا على رأس وفد المفاوضة أحد الأشراف من سلالة الحسين بن على رضى الله عنهما ، هو الشريف أبو جعفر مسلم بن عبيد الله[٢] .

والواقع إن الأمر لم يكن فى حاجة إلى مفاوضات طويلة ، لأن العملية كانت عملية استسلام أكثر منها أى شىء آخر ، فالتقى الطرفان فى تروجه — بالبحيرة — ومنح جوهر الصقلى أهل مصر أمانا وعهداً بأن يترك لهم على اختلاف أديانهم ومذاهبهم حرية العقيدة الدينية ، وأن يصلح أحوال البلاد، ويحمى أرواح العباد ، وينشر العدل ويمنع الظلم ، « ولكم على الوفاء بما التزمته ، وأعطيتكم إياه ، عهد الله ، وغليظ ميثاقه وذمته ، وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله ، صلوات الله عليه[٣] » .

وعندما عاد الوفد بهذا الأمان إلى الوزير ابن الفرات بالفسطاط ، تجمع الناس للوقوف على نتيجة المفاوضات ، فقرأ الوزير العهد المشار إليه على عامة الناس . وكما يحدث عادة فى التاريخ فى مثل هذه المواقف لا بد وأن يرتفع صوت للمعارضة ، فظهر انقسام بين الناس والجند ، ما بين مؤيد

---

(١) يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٣٢
(٢) الكندى : الولاة ص ٥٨٤ .
(٣) المقريزى : إتعاظ الحنفا ، ص ١٤٨ وما بعدها .

للفاطميين يرى فتح أبواب البلاد لهم ، ومعارض يرى ضرورة مقاومة جوهر الصقلى وجنوده والعمل لطردهم من البلاد « فما بيننا وبين جوهر إلا السيف »(١) .

ولم يلبث أن وصل جوهر على رأس جيشه إلى الجيزة ، ونجح فى عبور النيل ، رغم المقاومة الضعيفة التى صادفها ، ولم يقو الجند الإخشيدية على الصمود ، فقتل بعضهم وفر البعض الآخر حاملين ماستطاعوا حمله من الأموال والمتاع ؛ وعندئذ لم يجد الاهالى بدآمن الإستعطاف وطلب الأمان ، فهرعوا مرة أخرى إلى الشريف أبى جعفر ، وطلبوا منه التوسط عند القائد جوهر لإعادة الأمان . وكان أن استجاب جوهر مرة أخرى لطلب الناس ، وأمر جنده بالكف عن القتل والسلب ومنع الإعتداء على أرواح الأهالى وممتلكاتهم .

وهكذا تم الفتح الفاطمى لمصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) وهدأت الأمور بسرعة فى البلاد ، بحيث لم يتعد الأمر إحلال حاكم محل آخر ، وأسرع الوزير جعفر بن الفرات والأشراف والقضاة والتجار والأعيان إلى جوهر الصقلى يهنئونه بسلامة الوصول ونجاح الفتح !!

ولاشك فى أن نجاح الفاطميين فى فتح مصر كان نقطة تحول خطيرة بالنسبة لتاريخ مصر والخلافة العباسية ، والشرق الأدنى عامة . أما بالنسبة للدولة الفاطمية فيعتبر فتح مصر بمثابة مولد جديد لهذه الدولة ؛ ففى مصر بالذات شهدت هذه الدولة مجدها وعظمتها وأحلى أيامها . لذلك لاعجب إذا فرح الخليفة المعز الفاطمى فرحا منقطع النظير عندما بلغته أخبار نجاح الفتح ، وأخذ يستعد لنقل بلاطه إلى مصر ، وأقبل عليه الشعراء يهنئونه

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ١٤٩، يحيى بن سعيد الانطاكى : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص١٢٧ — ١٢٣ .

بذلك الفتح الكبير ، وعلى رأسهم شاعر بلاطه محمد بن هانىء الأندلسى ، الذى أنشد قصيدة مطلعها(١) :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

تأسيس القاهرة :

وربما بدا غريبا أن أول مافكر فيه جوهر الصقلى ليلة دخوله الفسطاط ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) هو إنشاء مدينة جديدة تكون حاضرة للدولة الفاطمية . ولكن فكرة بناء عاصمة جديدة ليست فكرة غريبة فى حد ذاتها ، إذ يلمس الدارس للتاريخ الإسلامى حرص الولاة والقادة فى مختلف الولايات الإسلامية على إنشاء المدن لتكون مراكز للحكم الجديد ، وقواعد للجند . وفى مصر بالذات رأينا كيف أنشأ عمرو بن العاص مدينة الفسطاط عقب فتحه مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١م) ، وهى المدينة التى ظلت حاضرة للبلاد طوال عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين. فلما قامت الدولة العباسية أسرع أبو عون عبد الملك بن يزيد — والى مصر من قبل الخليفة أبى العباس السفاح — إلى إنشاء حاضرة جديدة هى مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ (٧٥١م) . وظلت العسكر حاضرة مصر فى العصر العباسى حتى بزغ نجم أحمد بن طولون فأنشأ مدينة القطائع سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، وهى المدينة التى ظلت مركزاً للحكم طوال عصر الطولونيين والإخشيديين . وهكذا حتى فتح جوهر الصقلى مصر فكان منطقياً أن يفكر فى إنشاء حاضرة جديدة للدولة الفاطمية . ولا يخفى علينا أن حاجة الدولة الفاطمية إلى إنشاء حاضرة لها فى مصر فاقت حاجة حكام مصر السابقين فى العصر الإسلامى ، لأن الدولة الفاطمية أتت بمذهب جديد حرصت على نشره وإرساء قواعده فى البلاد ، فكان لا بد لهذه الدعوة

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٧ .

من مركز بكر يقام على أرض نظيفة فى وادي النيل ، حتى ينبت المذهب الجديد فيه ، ويحس دعاته بين جوانبه أنهم أحرار فى بث دعوتهم دون أن يخشوا صداما مفاجئا أو ثورة مضادة من أتباع المذهب القديم السائد فى البلاد ، وهو المذهب السنى .

ويقال إن جوهر الصقلى سمى الحاضرة الجـــديدة التى أنشأها باسم المنصورية ، نسبه إلى الخليفة المنصور الفاطمى والد الخليفة المعز لدين الله ؛ وظلت تعرف بهذا الأسم حتى قدم الخليفة المعز إلى مصر ، فغير اسمها وجعله القاهرة المعزية . ومرة أخرى يتعدد القصص وتتباين الروايات حول اشتقاق اسم القاهرة ، فابن دقاق يقول أنها سميت كذلك لأنه تم وضع أساسها عند طلوع كوكب القاهر . والمقريزى وأبو المحاسن يرويان أن جوهر الصقلى أحضر المنجمين وأخبرهم أنه يريد بناء حاضرة لسادته الفاطميين ، وأمرهم باختيار طالع سعيد يضمن خلود الملك فى ذريتهم ، فاختار المنجمون طالعاً لوضع الأساس وطالعاً لوضع السور . وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمين حبل به أجراس ، وقالوا للعمال : إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة . وكان أن وقف غراب على حبل من تلك الحبال فتحركت الأجراس ودقت ، وظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا الطين والحجارة وبدأوا العمل . وكان كوكب « القاهر » فى الطالع فسميت المدينه القاهرة . وقيل أن المريخ كان فى الطالع — وهو قاهر الفلك — فسميت القاهرة[1] .

ومهما يكن من أمر ، فإنه يبدو أن قصة الغراب هذه غير واقعية ، وهى من نوع القصص المتواترة فى مصادر تاريخ العصور الوسطى ، والتى كانت

---

(١) ابو المحاسن : النجوم ج ٢ ص ٤١

تصادف هوى فى نفوس المعاصرين وتتفق مع عقليتهم . ونستند فى رأينا هذا إلى أن المسعودى روى نفس قصة الغراب عن الأسكندر الأكبر عندما شرع فى تأسيس مدينة الاسكندرية ، مما يثبت أن المتأخرين نقلوها وألصقوها بجوهر وبناء القاهرة[١] . وربما كان أقرب إلى الصواب أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى اختار اسم القاهرة لحاضرته الجديدة تيمنا بهذا الاسم لما فيه من إشارة إلى أن حاضرته ستقهر الحواضر السابقة وإلى أن دولته ستكون هى الغالبة .

أما عن موقع القاهرة فهى تقع شمالى الفسطاط ، وكانت وقت انشائها محدودة المساحة، تمتد من جامع الحاكم حتى باب زويلة ، وتحدها من الشرق جبال المقطم ومن الغرب الخليج الكبير ومن الجنوب مدينة القطائع، وتشغل قطعة من الأرض مساحتها ٣٤٠ فدانا تقريباً ، على شكل مربع طول ضلعه حوالى ١٢٠٠ متر[٢] . وأحاط بالقاهرة سور من اللبن بقيت آثاره حتى أيام المقريزى، وتخلل هذا السور ثمانية أبواب ، فى كل جهة من جهاته الأربع بابان ، هى من ناحية الشمال باب الفتوح وباب النصر، ومن ناحية الجنوب باب زويلة وباب الفرج ، ومن ناحية الشرق باب القراطين — الذى سمى المحروق فى بداية عصر المماليك — وباب البرقية ، ومن ناحية الغرب باب سعادة وباب القنطرة .

هذه هى النواة التى وضعها جوهر الصقلى والتى نمت منها القاهرة الكبرى ذات الاسم الخالد فى التاريخ . ومن الوصف السابق يتضح أن النواة التى وضعها جوهر كانت صغيرة ، تشمل أحياء الأزهر والجمالية وباب الشعرية

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ص ٢١٥

(٢) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ٤ ص٤

والموسكى والغورية وباب الخلق[١]. ومعنى هذا أن القاهرة المعزية كانت بعيدة نسبياً عن النيل، ولا ساحل لها؛ الأمر الذى جعل المعز — عندما قدم إلى مصر فى أواخر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) لا يعجبه الموقع الذى اختاره جوهر لحاضرته الجديدة، فقال له «ياجوهر! فاتتك عمارتها هاهنا!»، وأشار إلى المقس على النيل[٢].

وكان من الطبيعى أن يستعد جوهر الصقلى لاستقبال سيده الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، فبادر بإنشاء قصر كبير لهذا الغرض، هو الذى أطلق عليه اسم القصر الشرقى تمييزاً له عن القصر الغربى الذى شيده الخليفة العزيز بالله الفاطمى فيما بعد. وقيل فى تسميته أنه سمى بالشرقى لموقعه فى الطرف الشرقى للمدينة التى اختطها جوهر، إذ كان مجاوراً للسور الشرقى. وموقع هذا القصر اليوم المكان الذى يحتله مسجد الحسين وخان الخليلى. وجعل جوهر للقصر الشرقى الكبير تسعة أبواب، سميت بالأغراض والمناسبات التى استخدمت فيها، فباب العيد مثلا كان يخرج منه الخليفة لصلاة العيدين، وباب البحر كان يخرج منه الخليفة عندما يقصد شاطىء النيل، وباب الزمرد وكان يتوصل منه إلى قصر الزمرد، وباب التربة كان يؤدى إلى مقابر الخلفاء... وهكذا[٣].

ولكن الخلافة الفاطمية كانت خلافة دعوة؛ جاءت وليدة عقيدة معينة وعاشت فى سبيل الدعوة لهذه العقيدة والدفاع عنها، وصار بقاؤها مرتبطاً بانتشار تلك العقيدة وتثبيت قواعدها. لذلك بادر جوهر الصقلى بوضع

---

(١) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص٥٢٩.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص٦٤. وكان المقس يقع قرب محطة سكة حديد مصر وجامع أولاد عنان اليوم، وكان النيل يمر بتلك المنطقة فى تلك العصور.

(٣) ابن دقماق: الانتصار ج ٤ ص٥٦ — ٥٧

أساس جامع كبير فى المدينة التي اختطها . ولم يكن الغرض من هذا الجامع مجرد الصلاة وإقامة شعائر الإسلام ، مثل الجامع العتيق الذى أقامه عمرو ابن العاص فى الفسطاط ، أو مثل الجامع الذى شيده أحمد بن طولون فى القطائع ، وإنما أراد به جوهر الصقلى أن يكون مركزاً لنشر الدعوة الشيعية، ومدرسة لتلقين مبادىء المذهب الشيعي . ولم يتم بناء هذا الجامع إلا سنة ٣٦١ ه (٩٧٢م) ، وأطلق عليه الجامع الأزهر تيمنا باسم فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وهى التى تنسب إليها الفاطميون[١] .

هذا وإن كان هناك رأى ضعيف يقول أنه سمى بالجامع الأزهر نسبة إلى اللون الأبيض المزهر الذى طليت به جدران المسجد ، وكان هذا اللون هو المفضل عند الفاطميين فى طلاء مساجدهم بشمال أفريقية قبل انتقالهم إلى مصر[٢] .

وباستكمال الفتح ، ووضع أساس القاهرة ، وبناء قصر لنزول الخليفة ، وجامع كبير تؤدى الشعائر فيه وفق عقائد الشيعة ، صار كل شيء معداً لاستقبال الخليفة المعز لدين الله ، فأرسل إليه جوهر الصقلى يدعوه للقدوم إلى مقر ملكه الجديد .

---

(١) قال القلقشندى إن القائد جوهر الصقلى بني الجامع الأزهر بعد دخول مولاه المعز إلى القاهرة وإقامته بها ، وفرغ من بنائه وأديت فيه صلاة الجمعة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ . (صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٦٤) . وهذا يخالف ما أجمع عليه المؤرخون من أن المعز لدين الله دخل القاهرة لأول مرة فى شهر رمضان سنة ٣٦٢ ،أى بعد الفراغ من بناء الجامع الازهر(ابن خلكان وفيات الاعيان ج ١ ص ١١٥ ، ج ٢ ص ١٣٤ — ١٣٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٦) .

(٢) شحاته عيسى ابراهيم : القاهرة ص ٦١ .

الفصل الثانى

الخلفاء الفاطميون فى مصر

الخلافة الفاطمية فى أوج مجدها :

عندما اطمأن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى أن مصر قد غدت تماما فى قبضة قائده جوهر الصقلى ، غادر شمال إفريقية فى أواخر شوال سنة ٣٦١ هـ (أغسطس ٩٧٢ م) قاصدا الديار المصرية ، ووصل الإسكندرية حيث رحب به أعيان الثغر ، فألقى فيهم الخليفة المعز خطبة طويلة أوضح فيها أنه لم يفتتح مصر لطمع فى جاه أو ثروة ، وإنما رغبة فى إقامة العدل وتأمين الحجاج ومواصلة سياسة الجهاد ضد الكفار !! ثم أنعم المعز على كبار أعيان الاسكندرية بالخلع، وغادر المدينة فى أواخر شعبان قاصدا القاهرة.[1]

وعندما وصل المعز إلى الجيزة خرج إليه قائده جوهر الصقلى ، فقبل الأرض بين يديه، وسلمه البلاد التى فتحها باسمه . وكان أن قضى المعز ثلاثة أيام بالجيزة، عبر بعدها النيل ومعه عساكره وحاشيته ، واتجه مباشرة إلى القاهرة — حاضرته الجديدة — دون أن يدخل الفسطاط التى كان أهلها قد استعدوا للقائه بإقامة الزينات . وفى القصر الشرقى الكبير — الذى بناه جوهر للخليفة — خر المعز راكعاً وأناب ، ثم صلى ركعتين شكراً لله تعالى . وكان أن توافدت عليه بالقصر جموع الناس مهنئين، فتقبل منهم ماقدموه له من هدايا وتحف ، ثم أمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين ، وكانوا

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٣٤ .

زهاء الألف . وفى يوم الجمعة سابع عشر من المحرم سنة ٣٦٤ هـ (١٧ أكتوبر ٩٧٤ م) تسلم المعز من قائده جوهر دواوين مصر ، وبذلك يكون جوهر قد أشرف على شئون مصر أربع سنين تقريبا[1].

ويبدو أن المعز أحس من أول الأمر أنه فى حاجة إلى مزيد من تجاوب أهل مصر معه وإيمانهم به وبخلافته . ويروى أبو المحاسن أن المعز عندما دخل القاهرة احتجب فى القصر وبعث عيونه ورجاله ينقلون إليه أخبار الناس ليفاجئهم بها ، ويظهر فى صورة المطلع على الغيب . وفى فترة احتجابه حرص على تناول « الأغذية المسمنة والاطلية[2] ، التى تنقى البشرة وتحسن اللون . ثم ظهر للناس بعد مدة وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت والجواهر تلمع كالكواكب ، وزعم أنه كان غائبا فى السماء وأن الله رفعه إليه ، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعبا وخوفا . . . »[3] .

ومهما يكن من أمر ، فقد تحقق حلم الخلافة الفاطمية وأصبحت مصر قاعدة الخلافة وقلبها النابض . ولا عبرة بما يردده بعض الباحثين من أن انتقال الخلافة الفاطمية إلى القاهرة أفقد الفاطميين مكانتهم فى شمال إفريقية (تونس) ؛ إذ لا يخفى علينا أن مركز الثقل فى العالم الإسلامى كان دائما أبدا فى المشرق لا فى المغرب ، وإن انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر جعل المسلمين أكثر إحساسا بها وبوجودها ، وجعل الخلفاء الفاطميين أكثر مقدرة على مد نفوذهم بعيدا فى جوف شبه الجزيرة العربية فضلا عن الشام ، بل فى العراق نفسه ، قلعة الخلافة العباسية المناوئة وحصنها الحصين .

ويستطيع الباحث المتأمل فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر أن يقسم

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٥١ .

(٢) جمع طلاء ، أى المراهم مما يشبه الكريم وغيره.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤

ذلك التاريخ إلى دورين كبيرين : الدور الأول هو دور الإزدهار ، وقد بلغ فيه نفوذ الخلافة أقصى درجات الإتساع ، وبلغت الدولة أقصى درجات القوة والعظمة . وتعاقب على عرش الخلافة بالقاهرة فى ذلك الدور المعز فالعزيز فالحاكم فالظاهر فالمستنصر حتى سنة ٤٦٥ ﻫ (١٠٧٣ م) . أما الدور الثانى فهو دور الإضمحلال والركود ، وفيه اتصفت دولة الفاطميين بالضعف فى الخارج والفتور والتدهور فى الداخل . ويشمل هذا الدور الجزء الأخير من حكم الخليفة المستنصر ثم عهود الخلفاء الذين أعقبوه فى الحكم ، وهم المستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد .

وإذا كان المعز هو أول الخلفاء الفاطميين فى مصر ، فإن الحقيقه التى تواجهنا هى أن الفترة التى قضاها فى حكم مصر تبلغ العامين فقط على وجه التقريب ، على حين أن بقية عهده الطويل البالغ أربعا وعشرين سنة قضاها فى المغرب . وقد وصف ابن خلكان الخليفة المعز بأنه كان «عاقلا ، حازما ، سريا ، أديبا ، حسن النظر فى النجابه[1]» ، كما وصفه أبو المحاسن بأنه كان «عاقلا حازماً أديباً جواداً ممدحا فيه عدل وإنصاف للرعية»[2] .

ومع قصر المدة التى قضاها المعز فى مصر ، إلا أن كثيراً من التقاليد الخاصة بالخلافة الفاطمية ، وخاصة فيما يتعلق بالإحتفالات بالأعياد والمواسم وإقامة الأسمطة وركوب الخلفاء فى المواكب .. إنما يرجع الفضل فى وضعها إلى الخليفه المعز «الذى استسن ذلك كله» على قول أبى المحاسن .[3]

وعند وفاة المعز سنه ٣٦٥ ﻫ (٩٧٦ م) خلفه ابنه العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ ﻫ = ٩٧٦ — ٩٩٦ م) . وفى عهده الطويل عم الرخاء البلاد ،

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٥٣
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ٧٨ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ٧٩ .

واتسعت مساحة الدولة الفاطمية من بلاد العرب شرقاً إلى المحيط الأطلسى غربا، ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا[١] . وظهر أثر الثروة الواسعة فى حياة العزيز وخلقه وتصرفاته، إذ عرف عنه الميل إلى الإسراف وحب التنعم ، فاقتنى كثيراً من التحف وجوارح الصيد . واشتهر كذلك بالثقافة ومعرفة اللغات ، وإليه يرجع الفضل فى تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة بمعنى الكلمة[٢]. وكانت المشكلة الخارجية الكبرى التى شغلت العزيز هى نفس المشكلة التى شغلت أباه المعز والقائد جوهر الصقلى منذ فتح مصر ، وهى مشكلة القرامطة فى بلاد الشام ، وسنتكلم عنها فى الفصل التالى .

وقد خلف الحاكم بأمر الله (٣٨٦ – ٤١١ هـ = ٩٩٦ — ١٠٢٠ م) أباه العزيز ، ولكنه كان عند مبايعته بالخلافة صبيا فى الحادية عشرة من عمره ، فقام بالوصاية عليه مربيه برجوان الخادم . ولم يلبث أن أحس الحاكم بثقل وطأة برجوان فقتله غيله سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ومن ثم أخذ الحاكم يتصرف تصرفا مطلقا فى كافة الأمور مع حداثة سنه ، وظهرت فى تصرفاته بعض الشذوذ ، إذ اضطهد أهل الذمة فضلا عن المسلمين من غير الشيعة ، وهدم بعض الكنائس . ويبدو أن الحاكم لم يكن طبيعيا ، فجمع فى أخلاقه كثيرا من المتناقضات ، حتى قال عنه بعض المؤرخين «وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء . وكان الغالب عليه السخاء ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط[٣] ...» وظهر شذوذ الحاكم فى بعض تصرفاته ، مثل الإقامة فى ضوء الشموع ليلا ونهارا طوال بضع سنين ، ثم فضل الظلمة ، فجلس فيها مدة !! ؛ ومنع صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها !! وقطع الكروم ومنع

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٥٧ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

(٣) ابو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ١٧٦ .

يع العنب خوفا من أن يستغل فصناعة النبيذ ، وحرم أكل الملوخية والسمك والرطب، وأهاك من كل ذلك الشيء الكثير . ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهاراً !! ومنع صنع الخفاف (الأحذية) لهن !! هذا فضلا عن سب الصحابة ، فأمر أن يكتب على المساجد وأبواب الشوارع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ... رضى الله عنهم ، ثم محا ذلك بعد عامين!!

وجاء هذا السلوك من جانب الحاكم مصحوبا بميل إلى سفك الدماء ، « فقتل عددا كبيراً من كبراء دولته » ، الأمر الذى أخاف العامة والخاصة منه . وزاد الطين بلة ادعاؤه الربوبية ، فتقرب إليه جماعة من الجهال اعتقدوا فى ألوهيته ، وإذا لقوه قالوا « السلام عليك يا واحد يا أحد يا محيى يا مميت !! » ويقال إن الذى شجعه على إدعاء الربوبية أحد الدعاة — هو محمد بن اسماعيل الدرزى — وإليه تنسب طائفة الدروز الذين يعتقدون فى الحاكم . ثم ظهر اضطراب عقله فى حبه للعزلة . فاعتاد أن يركب حماراً ويخرج ليجول فى جبل المقطم . وفى إحدى ليالى شهر شوال سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) خرج الخليفة راكبا حمارا ليقوم بجولته المعتادة فى جبل المقطم ولكنه لم يعد ، ويقال أن أخته ست الملك هى التى دبرت قتله فى تلك الليلة بعد أن ساءت سيرته[1] . وما زالت طائفة الدروز حتى اليوم تعتقد أن الحاكم لم يقتل وإنما اختفى ، وسيعود إلى الظهور إذا زالت المفاسد المنتشرة فى العالم ، فهو عندهم الإمام المنتظر[2] .

وعندما تحقق الناس من نهاية الحاكم أقاموا فى الخلافة ولده الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ — ٤٢٧ هـ = ١٠٢٠ — ١٠٣٦م) ، وكان فى السادسة عشر من عمره فقامت بالوصاية عليه عمته ست الملك . وقد أظهرت

---

(١) ابو المحاسن : النجوم ج ٤ ص ١٨٥ — ١٩٠ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٦٨ .

ست الملك كفاية نادرة فى إدارة شئون البلاد حتى كانت وفاتها سنة ٤١٥هـ (١٠٢٤م) ولم يستمر الظاهر فى الحكم مدة طويلة ، إذ توفى سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) . ويبدو أن الظاهر شغل فى حكمه بمحاولة إصلاح الأوضاع فى البلاد بعد فترة الاضطراب التى سادت أواخر عهد أبيه الحاكم .

وبعد الظاهر خلفه ابنه المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ = ١٠٣٦ — ١٠٩٤ م) وكان فى السابعة من عمره . وقد حكم المستنصر قرابة ستين سنة، وهى فترة طويلة لم يحظ بها خليفة غيره . ويبدو أن السنوات الأولى من حكم المستنصر اتصفت بالرخاء والثروة ، الأمر الذى يتضح من كتابات ناصر خسرو الذى زار مصر سنة ٤٣٩هـ (١٠٤٧ م)[1] غير أن هذا الرخاء لم يستمر طويلا ، إذ أخذ نفوذ الدولة الفاطمية ينكمش فى الخارج فى حين انخفض النيل سنة ٤٤٦هـ (١٠٥٤ م) وأعقب ذلك الغلاء وانتشار الوباء وكثرة الموتى .

وكان هذا الوباء فريداً فى نوعه لطول مدته حتى أطلق عليه فى التاريخ اسم الشدة العظمى ، وأفاضت المراجع فى وصف نتائجه الوخيمة ، وأهمها اختلال جميع مرافق البلاد ، كما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد . وصحب الوباء والمجاعة موت الناس ، وانتشار الفوضى والفتن ، حتى أحس الخليفة المستنصر بعجزه عن ضبط أمور البلاد، فاستدعى والى عكا — بدر الجمالى — سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) وعهد إليه بالوزارة « فتولى تدبير الأمور »[2] .

ويعتبر هذا الحدث فى حد ذاته بداية دور جديد فى تاريخ الخلافة الفاطمية ، وهو دور اتسم باضمحلال سلطة الخلافة ونفوذها وظهور نفوذ الوزراء العظام الذين سيطروا على مقاليد الأمور فى الدولة .

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة ص ١٧٧ (طبعة باريس) .
(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ١٣ — ٢٣ .

الجهاد » ؛ الأمر الذى أدى إلى فرار بهرام وقيام رضوان بن الولخشى فى الوزارة سنة ٥٣١ هـ (١١٣٧م)[١] .

والحق إن الوزير رضوان بن الولخشى كان شديد التحمس لجهاد الصليبيين، فأنشأ ديواناً جديداً أسماه « ديوان الجهاد »[٢] ، وأخذ يضطهد الأرمن ويقصيهم عن مناصب الدولة . وعندما وجد الوزير رضوان بن الولخشى أن الخليفة الحافظ الفاطمى يكيد له سراً ، ويتصل بالأرمن للقضاء عليه ؛ فر ابن الولخشى إلى الشام ليستعين ببطل كبير من أبطال الجهاد فى القرن الثانى عشر للميلاد، هو عماد الدين زنكى آتابك حلب. ورغم المعونة التى حصل عليها ابن الولخشى من عماد الدين زنكى ، فإنه لم يستطع عند عودته إلى مصر التغلب على جيوش الخليفة الفاطمى ، وانتهى الأمر بقتله سنة ٥٣٤ هـ (١١٣٩ م)[٣] .

وهكذا ظهر عجز الدولة الفاطمية عن مدافعة الصليبيين الذين ازداد طمعهم فى الاستيلاء على تلك الدولة المريضة المتداعية . ويشهد تاريخ الدولة الفاطمية فى ذلك الدور على مدى انحلالها وضعفها وعجز خلفائها عن الحركة فى أى اتجاه . وإذا كان الفاطميون قد اتخذوا عسقلان فى جنوب فلسطين قاعدة لجيوشهم وأساطيلهم لتهديد أعدائهم، فإن الصليبيين استولوا على عسقلان سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣م) وبذلك حرم الفاطميون من تلك القاعدة. فى حين أتم الصليبيون بسط سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين بأجمعه من اسكندرونه فى شمال الشام حتى غزة وعسقلان فى الجنوب[٤].

---

(١) ابن الفرات ج ٢ ص ١٨ ، العينى : عقد الجمان ج ١٦ ق ١ ص ٥٧ .

(٢) ابن ميسر : ج ٢ ص ٨٢ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٨٤ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢١ ،
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٩٠ .

وفى النزاع الذى شب بين شاور وضرغام حول منصب الوزارة منذ سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) استعان كل طرف من الطرفين المتنازعين بقوة خارجية، فاستعان ضرغام بالصليبيين واستعان شاور بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكى، الذى كان قد استولى على دمشق. وبذلك غدت مصر مسرحاً لتنافس خطير وقتال طويل بين جيوش الصليبيين ونور الدين محمود، وهو القتال الذى انتهى بسيطرة قوات نور الدين على مصر ثم القضاء على الخلافة الفاطمية نفسها، كما سنرى بالتفصيل فى الباب الآتى.

قائمة بالوزراء العظام فى العصر الفاطمى الثانى

(٤٦٥–٥٦٤)

الخليفة الفاطمى المستنصر :

أبو النجم بدر الجمالى المستنصرى، أمير الجيوش ٤٦٦ هـ = ١٠٧٣ م
أبو القاسم شاهنشاه الأفضل بن بدر الجمالى ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م

الخليفة الفاطمى المستعلى :

أبو القاسم شاهنشاه الأفضل (استبق) ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م
شرف المعالى بن الأفضل.

الخليفة الفاطمى الآمر :

شرف المعالى (استبق) ٤٩٥ هـ = ١١٠٢ م
أبو عبد الله محمد المأمون البطائحى ٥١٥ هـ = ١١٢١ م

الخليفة الفاطمى الحافظ :

أبو على أحمد بن الأفضل ٥٢٥ هـ = ١١٣١ م
يانس الأرمنى ٥٢٦ هـ = ١١٣٢ م
أبو على الحسن بن الحافظ (ابن الخليفة وولى عهده) ٥٢٦ هـ = ١١٣٢ م
أبو الربيع سليمان (ابن الخليفة) ٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م
أبو المظفر بهرام تاج الملوك. ٥٢٩ هـ = ١١٣٥ م
رضوان بن الولخشى ٥٣١ هـ = ١١٣٧ م

الخليفة الفاطمى الظافر :

أبو الفتح نجم الدين سليمان بن محمد بن مصال ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م
أبو الحسن على بن سلار ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م

العباس بن أبي الفتوح بن تميم	٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م

الخليفة الفاطمي الفائز :

الملك الصالح طلائع بن رزيك	٥٤٩ هـ = ١١٥٤ م

الخليفة الفاطمي العاضد :

أبو شجاع محيي الدين رزيك بن طلائع	٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م
أبو شجاع شاور بن مجير	٥٥٨ هـ = ١١٦٣ م
أبو الأشبال ضرغام	٥٥٨ هـ = ١١٦٣ م
شاور (للمرة الثانية)	٥٦٠ هـ = ١١٦٥ م
شيركوه	٥٦٣ هـ = ١١٦٨ م
صلاح الدين الأيوبي	٥٦٤ هـ = ١١٦٩ م

اضمحلال الخلافة الفاطمية — عصر الوزراء العظام :

يشمل العصر الفاطمي الثاني — أو عصر الوزراء العظام — بقيه عهد الخليفة المستنصر ، ثم عهود الخليفه المستعلي (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ = ١٠٩٤ — ١١٠٢ م) والخليفه الآمر (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ = ١١٠٢ — ١١٣٠ م) والخليفة الحافظ (٥٢٤—٥٤٤ هـ = ١١٣٠—١١٤٩م) والخليفة الظافر (٥٤٤—٥٤٩ هـ = ١١٤٩—١١٥٤ م) والخليفة الفائز (٥٤٩—٥٥٥ هـ = ١١٥٤—١١٦٠م) والخليفة العاضد (٥٥٥—٥٦٤هـ = ١١٦٠—١١٦٩م) . واتصف هذا العصر عموماً بضعف الخلفاء وسيطرة الوزراء العظام على شئونهم وشئون الدولة جميعاً ، فتعاقب فى منصب الوزارة مجموعة من الوزراء الطامحين الأقوياء الذين صار بأيديهم الحل والربط فى سياسة الدولة الداخلية والخارجية سواء . وعلى رأس هؤلاء الوزراء كان أمير الجيوش بدر الدين الجمالى حاكم عكا ، الذى استدعاه المستنصر لضبط الأمور فى

البلاد وولاه الوزارة سنة ٤٦٥-٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) كما رأينا. ولم يكن بدر الجمالى فى حقيقة الأمر سوى الوزير الأول فى قائمة طويلة من الوزراء العظام، ارتبط بهم تاريخ البلاد فى ذلك الدور، فخلف بدر الجمالى فى منصب الوزارة ابنه الأفضل، ثم شرف المعالى ابن الأفضل، ثم أبو عبد الله محمد المأمون البطائحى، ثم أبو على أحمد بن الأفضل، ثم يانس، ثم أبو على الحسن بن الخليفة الحافظ، ثم أبو الربيع سليمان وهو ابن آخر للخليفة، ثم أبو المظفر بهرام، ثم رضوان بن الولخشى، ثم أبو الفتح نجم الدين سليمان، ثم أبو الحسن على بن سلار، ثم العباس بن أبى الفتوح بن تميم، ثم الملك الصالح طلائع بن رزيك، ثم أبو شجاع العادل بن طلائع، ثم شاور، ثم ضرغام، ثم شاور مرة ثانية، ثم أسد الدين شيركوه قائد جيش نور الدين محمود، وأخيراً تولى منصب الوزارة للخليفة العاضد الفاطمى الوزير صلاح الدين الأيوبى الذى استقل بمصر بعد القضاء على الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م)[1].

ويلاحظ أن كثيراً من هؤلاء الوزراء كانوا من عناصر متباينة وأصول غير متجانسة؛ فبدر الدين الجمالى وأولاده أصلهم أرمنى. وإذا كان بدر الدين الجمالى وأبناؤه مسلمين فإن الوزير أبو المظفر بهرام الذى ولى الوزارة سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) فى عصر الخليفة الحافظ الفاطمى كان مسيحياً أرمينياً انتخبه الجند لمنصب الوزارة. والوزير العباس بن أبى الفتوح ابن تميم كان أميراً من بنى زيرى. وشيركوه وابن أخيه صلاح الدين كانا من الأكراد، وظهر أثر هذا التباين فى اضطراب سياسة مصر الداخلية والخارجية سواء.

---

(١) زامباور: معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ص ١٤٥ — ١٥٠

فى الداخل استمرت الحالة الاقتصادية تزداد سوءاً فى أواخر عهد المستنصر وفى عهد المستعلى . وكان المستنصر قد ولى ابنه نزار العهد ولكن الوزير الأفضل حقد على نزار فحرمه من الخلافة بعد أبيه، وعين فى الخلافة المستعلى بن المستنصر . وأدى ذلك إلى صراع بين نزار وأخيه المستعلى ، انتهى بانتصار الأخير ، فقبض الأفضل على نزار ووضعه بين حائطين وبنى عليه فمات . وكان أن تألم البعض للمصير الذى انتهى إليه نزار ، فدعوا له بوصفه أكبر أبناء المستنصر ، وقالوا أنه الإمام المستور وأنه سيعود ، وانتقلت هذه الدعوة الجديدة إلى إيران على يد الحسن الصباح : وبذلك انقسمت الدعوة الفاطمية إلى قسمين المستعلية والنزارية[1] .

حقيقة إن الخلافة الفاطمية ظلت أيام ضعفها وانحلالها تحرص على الاحتفاظ بمظاهر عظمتها السالفة ؛ فالمواكب مستمرة والاحتفالات دائمة والرسوم قائمة ، ولكن هذه المظاهر كلها لم تعد تخفى بذور الانحلال التى أخذت تنمو وتترعرع فى جوف الدولة ، ولم تعد تخفى عوامل السخط والنقمة التى أخذت تسرى بين الخاصة والعامة سواء . وهل هناك أدعى إلى سخط الناس فى تلك العصور أكثر من أن يتولى منصب الوزارة — مع خطورته — رجل أرمنى مسيحى هو بهرام الأرمنى الذى « صادر عامة من بالديار المصرية ، من كاتب وحاكم وجندى وعامل وتاجر ، وامتدت يده إلى الناس على اختلاف طبقاتهم ! »[2] بل لقد بلغ الأمر بذلك الوزير أن فتح أبواب مصر أمام بنى جنسه من الأرمن المسيحيين فوفدوا من تل باشر وأرمينية حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً ، وهؤلاء لم يكتفوا بالسيطرة على اقتصاديات البلاد ومصادرة أموال أهلها من المسلمين ؛ بل أخذوا يبالغون

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٢ .
(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٣ ص ٣٦٩ .

في بناء الكنائس والتوسع في إقامة الأديرة ، مما أقلق بال المسلمين ، فرفعوا أصواتهم إلى الخليفة شاكين متظلمين !!

فإذا جرؤ أحد الخلفاء الفاطميين عندئذ على الوقوف في وجه وزيره ومحاولة الحد من سلطانه، تطور الموقف إلى صراع خفي - ثم علني - قد ينتهي بقتل الوزير والخليفة جميعاً ، كما حدث للوزير ابن السلار والخليفة الظافر الفاطمي سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) . ولا أدل على ازدياد نفوذ الوزراء العظام على حساب سلطان الخلافة الفاطمية من أن الوزير طلائع بن رزيك اتخذ لنفسه لقب « الملك الصالح » وأخذ يلهو بالخلفاء الصغار ، يعين من يشاء ويعزل من يريد . وعندما أقام الوزير طلائع بن رزيك الخليفة العاضد سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) هلل الناس للخليفة الجديد ، فتعجب بن رزيك من جهل الشعب وقال « وكأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا ، وما علموا أنني كنت منذ ساعة استعرضهم استعراض الغنم !! »[1] .

ولم يلبث النزاع بين الوزراء والخلفاء أو بين الوزراء بعضهم وبعض أن أدى إلى تدخل القوى الخارجية - من مسلمين وصليبيين - وهو التدخل الذي انتهى بسقوط الدولة الفاطمية نفسها .

الخطر الصليبي[2] :

في الوقت الذي غرقت الخلافة الفاطمية - في عصرها الثاني -

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .
(٢) رأى المؤلف الايجاز والتركيز في هذا الجزء ليتمشى مع العرض العام للكتاب. ويستطيع الباحث أن يجد هذا الموضوع مدروساً دراسة وافية في :
(أ) شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية - بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٩ بقلم الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .
(ب) كتاب الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور . الجزء الاول .

فى مشاكلها الداخلية ، ظهر خطر جديد هدد الوطن العربى الإسلامى فى منطقة الشرق الأدنى ، هو الخطر الصليبى .

وعند ظهور الصليبيين لأول مرة فى بلاد الشام فى أواخر القرن الحادى عشر الميلاد (الخامس الهجرى) ، كان النفوذ الفاطمى قد أخذ يتقلص عن تلك البلاد ، ففى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) أعلن قاضى صور ابن أبى عقيل خروجه عن طاعة الفاطميين واستقلاله بمدينة صور[1] . أما قاضى طرابلس الحسن بن عمار فقد انفصل عن الفاطميين أيضاً سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) وأقام إمارة مستقلة لنفسه فى تلك المدينة . وفى ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) استولى آتسز بن أوق أحد القادة الأتراك من أتباع السلطان ألب أرسلان على الرملة وبيت المقدس وفلسطين بأكملها - عدا أرسوف - كما استولى سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) على دمشق وضواحيها[2] .

والواقع أن أول مايسترعى انتباه الباحث فى موقف الدولة الفاطمية من الصليبيين ، هو أن تلك الدولة وقفت منهم موقفاً مضطربا يتسم بعدم الفهم الصحيح لحقيقة الحركة الصليبية فى أدوارها الأولى . ولا نجد نحن تفسيراً لهذا الموقف الغريب سوى انشغال الفاطميين بمشاكلهم الداخلية فى ذلك الدور الثانى من أدوار تاريخ الدولة الفاطمية ، بالإضافة إلى تحكم روح العداء بين الفاطميين الشيعة فى مصر والسلاجقة السنة فى الشام ، وهو العداء الذى جعل الفاطميين ينظرون فى أول الأمر إلى الصليبيين كقوة مفيدة يمكن أن تشكل حاجزاً بينهم وبين خصومهم السلاجقة . لهذا كله اتصفت الأعمال الحربية التى قامت بها الدولة الفاطمية ضد الصليبيين فى ذلك الدور بسوء النظام والإهمال وعدم تقدير خطورة الموقف .

ولا أدل على عدم فهم الفاطميين لحقيقة الحركة الصليبيه فى دورها الأول ،

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٨٧ .

من أنه عندما سمع الوزير الأفضل بوصول الصليبيين إلى أطراف الشام سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م)، فإنه أرسل إليهم أمام أنطاكية يدعوهم إلى الاتفاق بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وبيت المقدس للفاطميين[١].

ولم يلبث أن أفاق الفاطميون وتنبهوا لحقيقة الخطر الصليبي عندما رأوا جموع الصليبيين لا تكتفي بالإستيلاء على أنطاكية وإنما أخذت توغل في بلاد الشام لتلتهم المدن والحصون وتؤسس الإمارات، حتى أنهم استولوا على بيت المقدس ذاتها، التي كان الفاطميون قد استردوها من السلاجقة أخيراً[٢]

وكان أن خرج الأفضل بنفسه على رأس الجيش الفاطمي إلى بلاد الشام لدفع الصليبيين، ولكن الهزيمة حلت بالأفضل وجيشه عند عسقلان في أغسطس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٩م)، واستطاع الأفضل النجاة بصعوبة، فركب مركباً في البحر قاصداً شواطىء مصر[٣]. وساعد هذا الانتصار الصليبيين على تثبيت أقدامهم في فلسطين وتوسيع نفوذهم، فاستولوا على أرسوف وقيسارية ودخل حكام عسقلان وعكا تحت طاعتهم[٤].

ورغم سوء أوضاع الدولة الفاطمية فقد بادر الوزير الأفضل بإرسال ثلاث حملات كبيرة إلى فلسطين سنة ٤٩٦ هـ، ٤٩٧ هـ، ٤٩٩ هـ (١١٠١م-١١٠٢م، ١١٠٥م)، ولكن الحملات الثلاث منيت بالفشل الذريع نتيجة لسوء التنظيم والخلاف بين القادة وعدم التعاون بين الأسطول الفاطمي والجيوش البرية، وكلها عيوب تشهد على مدى انحلال الإدارة الفاطمية في ذلك الوقت[٥]. وإذا كانت هناك نتائج لفشل حملات الأفضل ضد

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٩٧ .
(٢) ابن الاثير : الكامل، حوادث سنة ٤٩٢هـ.
(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٦٤ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ١٦٧.
(٥) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٨٩ وما بعدها .

الصليبيين ، فإن أهم هذه النتائج تمكين الصليبيين من الاستيلاء على بقية موانىء الشام ومدنه الجنوبية مثل صيدا وبيروت، ثم تطلع الصليبيين إلى مصر ذاتها وطمعهم فى الاستيلاء عليها ، بعد أن ثبت عجز الدولة الفاطمية . وهكذا استولى بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبي على وادى عربة ووصل إلى أيلة على البحر الأحمر ، ثم اخترق شبه جزيرة سينا ، وأوغل فى أرض مصر حتى تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ، حيث مات نتيجة لمرض مفاجىء[1] .

وبعد اغتيال الوزير الأفضل سنة ٥١٥ هـ (١١٢١م) حاول الخليفة الآمر الفاطمى أن يكسب الرأى العام فى العالم الإسلامى، فحشد حملة كبيرة فى عسقلان سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م) لمهاجمة الصليبيين . ولكن الهزيمة حلت ساحقة بالجيوش الفاطمية، الأمر الذى جعل الخليفة الآمر الفاطمى يجنح إلى مسالمة الصليبيين. وقد اعتاد الصليبيون أن يحققوا كسباً جديداً عقب كل هزيمة يلحقونها بالجيوش الفاطمية ، فاستولوا هذه المرة على صور سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) بعد أن حاصرتها أساطيل البندقية «وأشرف أهلها على الهلاك»[2] .

ولم يرض المتحمسون للجهاد عن ذلك الوضع الذى انتهى إليه أمر المسلمين ، فجاهروا بحنقهم على البيت الفاطمى وسياسته ، وعمت مصر فترة من الاضطرابات ولى فيها الوزارة أحمد بن الوزير الأفضل ، ثم يانس الأرمنى ، ثم بهرام الأرمنى الذى شجع — بوصفه مسيحياً — سياسة التعايش السلمى مع الصليبيين بالشام، وأخذ يضطهد أنصار حركة الجهاد . ولكن هذا الوضع استثار المسلمين داخل مصر وخارجها، فقامت حركة بزعامة رضوان ابن الولخشى الذى خطب فى جماهير الشعب خطبة بليغة « حرض الناس فيها على

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٢٧١ ، Guillaume de Tyre, p. 508

(٢) أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٥١٨هـ .

الفصل الثالث

السياسة الخارجية

قامت الدولة الفاطمية فى شمال أفريقية ، ثم استقرت فى مصر ، وبذلك احتلت مكانا وسطا بين الجناحين الآسيوى والإفريقى للعالم الإسلامى ، مما أتاح لها قدراً كبيراً من النشاط فى العلاقات الخارجية مع عديد القوى الإسلامية فى بلاد الشام والعراق والأندلس والمغرب ، فضلا عن القوى الأوربية المسيحية المطلة على البحر المتوسط والتى ربطتها بالدولة الفاطمية علاقات عدائية أو ودية . ولا يخفى علينا أنه أتى على الدولة الفاطمية حين من الدهر بدت فيه القوة الإسلامية الكبرى فى حوض البحر المتوسط ، مما جعلها تصطدم بالقوى الكبرى المنافسة فى العالمين الإسلامى والمسيحى ، فى حين أخذت بعض القوى الصغرى تخطب ودها وتطمع فى حمايتها . واتسع نطاق العلاقات الخارجية للدولة الفاطمية بعد أن أرست قواعدها فى مصر بالذات وذلك بحكم ما لمصر من موقع جغرافى ذى أهمية خالدة فى التاريخ . وهنا نلاحظ فارقاً واضحاً بين ما كانت عليه الدولتان الطولونية والإخشيدية وما صارت فيه الدولة الفاطمية . فإذا نحن ذكرنا أن كلا من أحمد بن طولون ومحمد بن طغج الإخشيد قد أقام بناء دولة مستقلة فى مصر ، فإنه ينبغى أن نلاحظ دائماً أن استقلال الدولتين الطولونية والإخشيدية عن الخلافة العباسية لم يتخذ صفة قاطعة لها صورة الاستمرار ، وإنما كان هذا الاستقلال تقوى مظاهره حيناً وتضعف أحياناً . حتى فى الأوقات التى تدهورت العلاقات بين الخلافة العباسية من ناحية وبنى طولون أو بنى الإخشيد من ناحية أخرى ، لم يخل الأمر من خيوط واهية — قد لا تبدو للباحث

المتعجل — تربط كلا من هاتين الدولتين بالدولة الأم . وعلى هذا الأساس ظلت الدولتان الطولونية والإخشيدية تبدوان فى صورة فصلين أو وليدين تدفعهما الظروف إلى الاقتراب من الخلافة الام أو الابتعاد عنها ، ولكنهما كانا يحسان دائماً — ويحس معهما العالم المعاصر — بالحقيقة الواقعة ، وهى أنه مهما يبتعد الابن عن أمه فإنه لايستطيع أن يتنكر للصلة الجذرية بين الطرفين .

أما الدولة الفاطمية التى اتخذت مصر مركزاً لها فكان استقلالها من نوع آخر غير استقلال كل من الدولتين الطولونية والإخشيدية . أن الدولة الفاطمية لم تولد فى حجر الخلافة العباسية مثلما ولدت الدولتان الطولونية والإخشيدية ، ولم يعترف الفاطميون فى يوم ما بتبعية فعلية وإسمية للخلافة العباسية ، بل لقد قامت الدعوة العلوية فى العصر العباسى فى أساسها على مبدأ محاربة العباسيين والثأر منهم . ومن هنا كان استقلال الدولة الفاطمية تاما كاملا ، الأمر الذى جعل نشاطها فى ميدان السياسة الخارجية يقوم على أساس واسع غير الأساس الذى قام عليه نشاط الطولونيين أو الأخشيديين.

وفيما يلى عرض سريع لعلاقة الفاطميين بمختلف القوى القريبة المعاصرة فى المشرق والمغرب جميعا .

علاقة الفاطميين بشبه الجزيرة العربية :

حظيت بلاد الحجاز بأهمية كبيرة فى مختلف عصور التاريخ الإسلامى ، فتطلع إليها كبار الخلفاء والحكام ، ورغبوا فى بسط حمايتهم عليها ، لا طمعا فى ثروتها — فهى فى تلك العصور أفقر من أن تستثير أطماع الطامعين — وإنما رغبة فى الظهور أمام المسلمين جميعا فى صورة حماة الحرمين . وإذا كان الخلاف المذهبى قد بلغ أشده بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، فإنه كان من الطبيعى أن يحتدم التنافس بين هاتين القوتين حول السيطرة على

الحجاز، وهو التنافس الذى كان فى حقيقته يستهدف الفوز بزعامة المسلمين أجمع .

وشاءت الظروف أن يشتد التنافس على أيام الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بين بنى الحسن وبنى جعفر بن أبى طالب فى الحجاز . وكان أن رأى المعز بثاقب بصره فى تلك الأحداث فرصة ذهبية لمد نفوذه إلى بلاد الحجاز على حساب القوتين المتنافستين ، فأرسل من شمال أفريقية سفارة إلى الحجاز سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) نجحت فى عقد صلح بين الطرفين المتخاصمين ، وقام رسل الخليفة الفاطمى بدفع دية قتلى بنى الحسن مما ترك أثراً طيباً فى قلوب الجميع[1] . ولم يلبث أن نجح جوهر الصقلى فى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ(٩٦٩م)، فشجع ذلك أمراء مكة والمدينة على الدعوة للخليفة المعز على منابرهما بدلا من الخليفة العباسى . ومن ناحية أخرى ، فقد استغل الخليفة المعز الموقف وبادر بإرسال الأموال والعطايا إلى الحرمين ، وبذلك مكن لنفسه فى بلاد الحجاز[2] . ولا يخفى علينا أن الحجاز ربطته بمصر بالذات روابط متينة منذ فجر الإسلام ، هذا إلى أن القاهرة من ناحية الموقع الجغرافى كانت أكثر قربا من الحجاز وأشد إتصالا به من بغداد، الأمر الذى جعل الخلفاء الفاطميين فى مصر فى مركز أقوى من الخلفاء العباسيين فى بغداد ، وذلك فى حلقة التنافس حول السيطرة على الحجاز .

ومع ذلك فإنه لا يخفى علينا أن بلاد الحجاز لها وضعها الخاص ، فهى وإن كانت أقرب إلى مصر منها إلى العراق إلا أنه يفصلها عن مصر بحر وصحراء ، الأمر الذى كان يتطلب من الفاطميين جهداً خاصا متواصلا لضمان الاحتفاظ بنفوذهم فى تلك البلاد . هذا بالإضافة إلى ما كان هناك من تنافس داخلى بين أمراء الحجاز ، وهو تنافس جعل من المتعذر على

---

(١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص٢٣ — ٢٤ .

(٢) المقريزى : إتعاظ الحنفا ص ١٤٥ — ١٤٦ .

الخلفاء الفاطميين في القاهرة رضاء جميع الأطراف المتنافسة ، مما هدد بخروج بعضهم عن طاعة الفاطميين بين حين وآخر . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الدولة الفاطمية كان لديها من مشاغلها الخارجية والداخلية الشيء الكثير ، أدركنا في النهاية السر في عدم ثبات النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز .

والواقع إن المتتبع للنفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز يخرج بحقيقة هامة هي أن هذا النفوذ كان يستقر حينا ويتزعزع أحياناً . ذلك أنه حدث بعد وفاة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٦ م) أن خرج الحجاز من قبضة الخليفة العزيز ، الذي أوفد أحد رجاله المغاربة — وهو باديس ابن زيري الصنهاجي — أميراً على الحج سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٨ م) ، فتمكن هذا الأمير من إحياء النفوذ الفاطمي في الحجاز مرة أخرى ، ودعى للخليفة العزيز على المنابر في مكة والمدينة[1] . هذا وإن كان الحجاز قد خرج مرة أخرى عن نفوذ الفاطميين ودخل في فلك العباسيين ، الأمر الذي اضطر العزيز إلى إرسال حملة سنه ٣٨٠هـ (٩٩٠ م) تمكنت من إعادة الخطبة له في مكة والمدينة ، بدلا من عضد الدولة بن بويه صاحب السيادة الفعلية على الخلافة العباسية[2] .

وهكذا ظل الحجاز كالكرة تتلاقفه أيدي الخلافتين الفاطمية والعباسية ، وفي الحجاز بالذات كان التنافس على أشــــده بين نفوذ هاتين الخلافتين الإسلاميتين . ولم يلبث أن أدى ضعف الخلافتين الفاطمية والعباسية في القرن الخامس الهجري ، إلى إغراء بعض أمراء الحجاز على الاستقلال عنهما جميعا . من ذلك أن أبا الفتوح الحسن بن جعفر أمير مكة أعلن خروجه على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) واتخذ لنفسه

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٠١ .

(٢) الانصاري : درر الفرائد المنظمة ص ٢٠٢ — ٢٠٣

لقب الخلافة وتلقب بالراشد بالله . وإذا كان الحاكم قد تمكن من القضاء على هذه الحركة وإعادة الأمير أبى الفتوح إلى طاعته ؛ فإن سلاح الحاكم فى ذلك كان الرشوة وإرسال الأموال ، وهذا سلاح الضعيف غير القادر.

وأخيرا ظهر ضعف الدولة الفاطمية واضحا فى عهد الخليفة المستنصر بالله — كما مر بنا — ، وعندئذ أخذ نفوذ الفاطميين يهتز بشدة فى العالم الخارجى ، وخاصة فى الحجاز . ويتضح ذلك من موقف محمد بن جعفر رئيس الهواشم الذى استولى على إمارة مكة سنة ٤٥٤ ﻫ (١٠٦٢ م) . ذلك أن محمد بن جعفر خطب أولا للخليفة المستنصر الفاطمى ، ثم خطب لبنى العباس سنة ٤٥٨ ﻫ (١٠٦٦ م) وعندئذ قطع المستنصر الميرة والغلال التى كانت ترسل من مصر إلى الحجاز ، الأمر الذى وضع محمد بن جعفر فى موقف حرج أمام أهل الحجاز ، فاضطر إلى إعادة الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى ، حتى بذل له الخليفة القائم العباسى الأموال ، فخطب له سنة ٤٦٢ ﻫ (١٠٧٠ م) فى موسم الحج « فقط » على حد تعبير القلقشندى ، وكتب المستنصر بمصر « يعتذر له » . ولم يلبث السلطان ألب أرسلان أن أرسل سنة ٤٦٣ ﻫ (١٠٧١ م) أموالا إلى الأمير محمد بن جعفر فدعا لسلطان السلاجقة[٢] !! .

ويستمر القلقشندى فى سرد تلك القصة الطويلة ، التى توضح كيف أن الدولة الفاطمية فى عصرها الثانى لم تتمتع بنفوذ دائم مستمر فى الحجاز ، وإنما كثيرا ما انكمش نفوذها هناك ليحل محله النفوذ العباسى أو من هيمنوا على مصائر الخلافة العباسية كالبويهيين ثم السلاجقة . وظل الأمر على ذلك حتى وفاة الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وقيام دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب « فخطب له بالحرمين الشريفين[٣] » .

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٣ ؛ المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٠ — ٢٧١ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧١ .

وإذا نحن تكلمنا عن علاقة الفاطميين بالحجاز ، فإن ثمة ناحية أثرت فى تلك العلاقة ، وأعنى بهذه الناحية القرامطة ، وهم جماعة اتخذوا من الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق مطامعهم السياسية ، ونسبوا إلى أحد دعاتهم وهو حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط[1] . وقد تمكن القرامطة أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلاد) من بسط سيطرتهم على إقليم البحرين بعد أن انتصروا على الجيوش التى أرسلها الخليفة المعتضد العباسى ضدهم ، وبذلك ازداد نفوذهم بصورة ملحوظة فى شبه جزيرة العرب[2] .

ومن الواضح أن أسباب التقارب بين الفاطميين والقرامطة كانت قائمة فعلا منذ بداية الأمر ، وأهم هذه الأسباب رباط المذهب الشيعى الكبير الذى يربط بين الطرفين فى جذور العقيدة ، وإن تفرق باختلاف الفرق ، والثانى هو وجود خصم مشترك للقرامطة والفاطميين ، ممثلا فى الخلافة العباسية السنية ، الأمر الذى جعل الطرفين يتقاربان لتوحيد جهودهما ضد ذلك الخطر المشترك. وقد ظهر هذا التقارب منذ وقت مبكر — قبل أن يفتح الفاطميون مصر — فأرسل عبيد الله المهدى كتابا إلى أبى طاهر سليمان يؤيد توليته إمرة القرامطة . ثم أرسل أبو القاسم بن المهدى سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨م) إلى أبى طاهر يطلب منه أن يزحف على مصر على رأس حملة ليعاون الفاطميين فى فتحها . ولكن هذه الخطة المشتركة لم تنفذ بعد أن نجح مؤنس الخادم — قائد الجيوش العباسية — فى إنزال الهزيمة بجيش أبى الهاشم قبل أن يتقدم لنجدته أبو طاهر القرمطى[3] .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤١ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢١٦ — ٢١٨ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٨٨ — ٨٩ .

ولم يلبث القرامطة أن وجهوا ضربة خطيرة أفزعت المسلمين جميعا ، فهاجموا مكة سنة ٣١٧ هـ (٩٣٠ م) ونهبوا دورها، وسرقوا الحجر الأسود من المسجد الحرام . وقد نادى البعض أن القرامطة لم يقدموا على فعلتهم الشنيعة هذه إلا بتحريض من الفاطميين، بدليل أن أبا طاهر أمير القرامطة دعا في مكة لعبيد الله المهدى خليفة الفاطميين . ولكن يدحض هذا الرأى أن الخليفة الفاطمي تبرأ مما فعله القرامطة ، وأرسل عبيد الله المهدى إلى أبي طاهر يلعنه لما « ارتكبته واجترمته بإسمنا من حرم الله»[١] .

ومهما يكن من أمر ، فالملاحظ أن القرامطة حرصوا في النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر للميلاد) على علاقتهم الودية مع الفاطميين في بلاد المغرب . وربما كان لهذا الإرتباط أثره الواضح في تضخم نفوذ العلويين على حساب الخلافة العباسية ، وخاصة في مصر وبلاد الشام وجزء كبير من شبه الجزيرة العربية[٢] . على أن هذه العلاقة الطيبة بين الفاطميين والقرامطة لم تلبث أن تعرضت بعد منتصف القرن الرابع للذبول . ويعلل بعض الباحثين هذا التحول بأن الفاطميين كانوا قد بلغوا عندئذ درجة من القوة جعلتهم في غنى عن تأييد القرامطة، فضلا عن أن هؤلاء الأخيرين كانوا قد استثاروا غضب المسلمين وكراهيتهم نتيجة لأعمالهم وخاصة في الحجاز ، الأمر الذى جعل الفاطميين يتبرأون منهم ويتباعدون عنهم[٣]. وإزاء هذا الموقف الجديد من الخلافة الفاطمية إتجه القرامطة نحو الخلافة العباسية وطلبوا منها المساعدة لغزو أراضى الفاطميين في الشام ومصر . وإذا كان القرامطة قد حققوا نجاحا مؤقتاً في بلاد الشام سنة ٣٦٠ هـ (٨٧٤ م) فإنهم فشلوا في غزو مصر[٤] .

---

(١) الانصاري : درر الفرائد ج ١ ص ١٩٦ .
(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٤٦ — ٤٨ .
(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 182.
(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ٢١١ .

ولم يلبث أن دب الضعف فى دولة القرامطة نتيجة للإنقسامات الداخلية من ناحية ، وكراهية عامة المسلمين لهم من ناحية أخرى . وظهر هذا الضعف واضحا فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلاد) ، عندما انكمش نفوذهم بحيث لم يتعد رقعة صغيرة على ساحل البحرين « وافترق أمرهم وتلاشت دعوتهم » على قول ابن خلدون[١] .

أما عن علاقة اليمن بالدولة الفاطمية ، فالملاحظ أن اليمن كانت منذ وقت مبكر مركزاً أساسياً للدعوة الشيعية ، بل للدعوة الفاطمية ذاتها[٢] . وربما أدى تطرف موقعها فى العالم الإسلامى وبعدها عن مركز الخلافة العباسية إلى اختيار الاسماعيلية لها مسرحا لنشاطهم ، فقصدها سنة ٢٦٨ هـ (٨٨١ م) إثنان من دعاتهم هما على بن الفضل اليمانى وأبو القاسم رستم ابن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى[٣] . ولم تلبث الدعوة الاسماعيلية أن لقيت قبولا بين أهل اليمن وانتشرت انتشاراً واسعاً ، فى الوقت الذى وجه أئمة الاسماعيلية جهودهم نحو ركن آخر من أركان العالم الإسلامى — هو المغرب — وأرسلوا الدعاة إليه ، مما أسفر عن مولد الدولة الفاطمية فى شمال أفريقية .

وكان دعاة الإسماعيلية فى اليمن يأملون أن يكون ظهور المهدى من آل محمد فى بلادهم ، فحاولوا أن يجتذبوا عبيد الله المهدى إلى اليمن ، ولكنه فضل إقامة دولته بالمغرب لأنها أقرب إلى قلب العالم الإسلامى[٤] .

وهكذا كانت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن والمغرب بمثابة توأمين ،

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩١ .

(٢) نشير على القارىء بالرجوع إلى كتاب « غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى » تأليف يحيى بن الحسين ، وقد قام بتحقيقه ونشره أخيرا الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

(٣) المقريزى : إتعاظ الحنفا ص ٦٧ — ٦٨ .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ١٢ الجندى : اخبار القرامطة ص ٤٢ .

وإذا كانت تلك الدعوة فى شمال أفريقية قد تمخضت عن قيام الدولة الفاطمية، فإن رد الفعل الذى نجم عن ذلك فى اليمن لم يقلل فى نهاية الأمر من شأن انتشار تلك الدعوة[1].

ومنذ مولد الدولة الفاطمية فى المغرب ودعاة الإسماعيلية فى اليمن يتجهون بقلوبهم نحو عبيد الله المهدى بوصفه الإمام والزعيم الروحى لهم. ولا يقلل من شأن هذه الحقيقة جنوح بعض الدعاة فى اليمن — مثل على ابن الفضل — نحو الاستقلال رغبة فى الاستئثار بالنفوذ، إذ يكفى أنه وجد نفسه وحداً وسط محيط واسع من الخصوم، مما أدى إلى فشل حركته[2].

وكان من الطبيعى أن تزداد الصلات قوة بين الدولة الفاطمية واليمن بعد نجاح الفاطميين فى فتح مصر ونقل حاضرة خلافتهم إلى القاهرة، وهو أمر يبدو من المكاتبات بين ابن جفتم زعيم الإسماعيلية باليمن من جهة، وبين المعز والعزيز الفاطميين من جهة أخرى[3]. ثم إن الأمر لم يقتصر على ما كان هناك من صلات قوية بين الخلفاء الفاطميين فى القاهرة ودعاة الإسماعيلية فى اليمن، بل تعدى ذلك إلى بعض الحكام — مثل بنى يعفر — الذين قطعوا الخطبة للخليفة العباسى وأقاموها للخليفة الفاطمى فى أواخر القرن الرابع الهجرى[4]. وبفضل تأييد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى تمكن أحد دعاة الإسماعيلية — وهو على بن محمد الصليحى — أن يبسط سيطرته على معظم أرجاء اليمن حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة.

---

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص٧٢ — ٧٣.

(٢) اليمانى: أسرار الباطنية ص ٣٦ — ٣٩.

(٣) يحيى بن الحسين: غاية الامانى فى أخبار القطر اليمانى ص١٦٥ — ١٨٩.

(٤) الربيع الشيبانى: قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون، ورقه ١٧.

(الحادى عشر للميلاد)[1]. وقد حكم الصليحى اليمن بوصفه نائباً عن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى مصر، وكان يدعى فى اليمن المستنصر والصليحى معاً فى خطبة الجمعة. واستمرت تلك العلاقة قوية بين الطرفين بعد مقتل الصليحى سنه ٤٥٩ هـ (١٠٦٧م)، إذ حرص ابنه المكرم على كسب تأييد الخليفة المستنصر الفاطمى، وخاصة ضد خصومه من بنى الأحول باليمن.

وبعد وفاة الخليفة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م)، واصل ابنه المستعلى سياسته تجاه اليمن[2]. على أنه من الواضح أن ضعف الخلافة الفاطمية فى عصرها الثانى من ناحية، وانقسام الدعوة الإسماعيلية باليمن فى القرن السادس الهجرى من ناحية أخرى، أدى إلى ضعف وانحلال الروابط التى ظلت تربط الدولة الفاطميـــة باليمن أمداً طويلا. ولم تلبث الدولة الفاطمية نفسها أن سقطت سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ليبدأ صلاح الدين صفحة جديدة فى تاريخ العلاقات بين مصر واليمن خـــلال العصور الوسطى.

علاقه الفاطميين بالقوى الإسلامية فى بلاد الشام :

سبق أن أشرنا إلى أن الوضع الجغرافى لبلاد الشام يجعل منها الباب الشرقى الموصل إلى مصر ؛ لذلك يلاحظ دائما فى التاريخ أنه ما قامت دولة قويه فى مصر إلا وتطلع حكامها إلى بلاد الشام رغبة فى تأمين ذلك الباب وحماية حدود مصر الشرقية من ناحية والنفاذ منه والتطلع عبره إلى عالم المشرق من ناحية أخرى. وفى ضوء هذه الحقائق ظلت الصلات بين مصر والشام على مر عصور التاريخ أقوى ما تكون، حتى فى عصور الضعف والانحلال عندما كانت تفتر العلاقات السياسية بين البلدين

---

(١) عمارة اليمني : تاريخ اليمن، ص ١٨.

(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٩٢ — ٩٣.

كانت الصلات التجارية والفكرية والاجتماعية تظل قائمة تشهد على صفة التكامل بينهما .

وقد رأينا فى الباب السابق ما كان من حرص الإخشيديين على الاحتفاظ بنفوذهم فى بلاد الشام. وإذا كانت الدولة الفاطمية قد ورثت الدولة الإخشيدية فى مصر فإنه كان من حقها أن ترثها أيضاً فى نفوذها وممتلكاتها فى الشام . على أنه ثمة سبب آخر جعل السيطرة على بلاد الشام أمرا حيويا فى نظر الفاطميين عقب استيلائهم على مصر مباشرة ، هو أن هذه البلاد كانت بحكم موقعها حلقة الاتصال بينهم وبين الخلافة العباسية فى العراق ، وميدان الصدام المنتظر بين القوتين السنية والشيعية فى الشرق الأوسط .

ولم تغب هذه الاعتبارات عن القائد الفطن جوهر الصقلى ، فلم يكد يتم له فتح مصر حتى بادر بإرسال حملة إلى الشام بقيادة القائد المغربى جعفر بن فلاح الكتامى ، وذلك دون أن ينتظر وصول سيده المعز إلى مصر[1]. ولم تستطع بقايا البيت الإخشيدى بالشام الصمود فى وجه الجيش الفاطمى ، فحلت الهزيمة بالحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد عند الرملة سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م) ، وبذلك غدا الطريق مفتوحا إلى دمشق فدخلها الجيوش الفاطمية فى أواخر نفس السنة ، ودعى فى جامعها للخليفة المعز لدين الله الفاطمى بدلا من الخليفة المطيع العباسى . وبذلك دان قلب بلاد الشام للدولة الفاطمية الجديدة وإن كانت سياسة جعفر بن فلاح — التى اتصفت بالضعف تجاه أهل الشام — قد سببت كثيراً من القلاقل فى ذلك الدور[2] .

على أن الخطر الحقيقى الذى هدد النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام إنما نبع من مصدرين رئيسين ، هما الحمدانيون والقرامطة . أما الحمدانيون

---

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفا ، ص ١٦٨ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

فكانوا يكونون الإمارة الكبرى القائمة فى حلب فى شمال الشام ، ومن ثم فقد أخذوا يرقبون امتداد النفوذ الفاطمى فى الشام بعين الحذر والشك . ولم يجد الفاطميون أمام ذلك الخطر بدا من الاستعانة بالقرامطة من ناحية والدولة البيزنطية من ناحية أخرى . وعلى الرغم من الصلات المذهبية والتقارب بين الفاطميين والقرامطة ، إلا أن الحمدانيين نجحوا - فيما يبدو - فى فصم عرى هذه الصلات ، فهاجم قرامطة البحرين بلاد الشام سنة ٣٦٠هـ (٩٧١م) . هذا بالإضافة إلى اعتبارات أخرى أدت إلى ذلك الموقف بين القرامطة والفاطميين ، منها ما يرويه ابن خلدون من أن الفاطميين بعد استيلائهم على دمشق رفضوا أن يدفعوا للقرامطة فى البحرين الإتاوة التى كان يدفعها لهم الإخشيديون[1] . ويضيف النويرى إلى ذلك أن بنى بويه فى العراق خشوا بأس الفاطميين وتوطيد نفوذهم بالشام ، فاشتركوا فى تحريض القرامطة ، وقام الحمدانيون بدور الوسيط بين بنى بويه من جهة والقرامطة من جهة أخرى[2] . ويؤيد كلام النويرى ما يذكره المؤرخ أبو المحاسن من أن القرامطة عندما غزوا بلاد الشام كانوا يحملون الأعلام السود شعار العباسيين[3] .

ومهما يكن من أمر ، فقد تمكن القرامطة من الاستيلاء على دمشق سنة ٣٦٠هـ (٩٧١ م) بعد أن أنزلوا الهزيمة بجعفر بن فلاح قائد الجيش الفاطمى وقتلوه . وهنا حاول الحسن بن أحمد زعيم القرامطة أن يستفيد من كراهية أهل الشام لجعفر بن فلاح لتعسفه فى معاملتهم . فأخذ الحسن بن أحمد القرمطى يتودد إليهم ويتقرب منهم ، الأمر الذى جعلهم يطمئنون إليه

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ٩٠ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٢ ورقة ٩٤

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

وخاصة بعد أن دعا للخليفة العباسى وقطع الخطبة للخليفة الفاطمى [١].

ولم يقنع الحسن بن أحمد بدمشق ، وإنما أراد غزو مصر نفسها ، فدخل الرملة ، وهاجم مدينة القلزم على البحر الأحمر ، ومنها شق الصحراء حتى وصل عين شمس فى أوائل سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م) وصارت القاهرة على مرأى بصره . وفى تلك الأثناء أحس القائد الفاطمى جوهر الصقلى أن القرامطة سيحرمونه من ثمرة جهده، فأسرع إلى تحصين القاهرة وحفر خندقاً حولها ، واستطاع جوهر ورجاله الصمود بل الانتصار ، مما جعل الحسن بن أحمد يعجل بالإنسحاب من مصر [٢] . وإذا كان جوهر الصقلى قد انتهز فرصة عودة الحسن بن أحمد إلى الإحساء واسترد يافا ، فإن الحسن بن أحمد عاد بعد قليل ليعاود الهجوم على مصر براً وبحراً . وفى تلك الأثناء كان الخليفة المعز لدين الله قد حضر إلى مصر من المغرب ، واتخذ القاهرة مقراً لخلافته وحاضرة لدولته ، فرأى المعز أن يقف من الحسن بن أحمد موقفاً حازماً ، وأرسل إليه كتاباً يعنفه فيه ويعدد جرائمه ، ويتهدده إن لم يبادر بالجلاء عن بلاد الشام [٣]. ولكن الحسن بن أحمد لم يعبأ بتهديد المعز ، ورد عليه بأن أوغل فى الأراضى المصرية حتى مشارف القاهرة سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤م) حيث دارت معركة استخدم فيها المعز الفاطمى سلاح الخديعة والمال، مما مكنه من انزال الهزيمة بالقرامطة ، فارتد الحسن بن أحمد إلى الشام بعد أن أسر من رجاله نحو ألف وخمسمائة [٤] .

وقد استغل الخليفة المعز الموقف لصالحه ، وبادر بإرسال جيش إلى

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٧٩ .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 184.

(٣) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٤) النويرى : نهاية الارب ج ٢٣ ص ٩٧ (مخطوط) .

الشام لمطاردة القرامطة من ناحية واسترداد تلك البلاد وإعادتها إلى حوزة الدولة الفاطمية من ناحية أخرى. ولكن يبدو أن الجيش الذى أرسله المعز إلى الشام — وكان من المغاربة — أساء السيرة واستثار أهل الشام بما فعله من أعمال قبيحة ؛ مما جعل دمشق بصفة خاصة مسرحاً لصدام بين المغاربة والدماشقة[1] . وفى تلك الفوضى الناشبة ، دخل جماعة من الأتراك بزعامة افتكين التركى بلاد الشام ، فرحب بهم أهل الشام للتخلص من عبث المغاربة الفاطميين ، كما بادر الحمدانيون بإمداد أفتكين بالمعونة والجند ، الأمر الذى مكنه من دخول دمشق سنة ٣٦٤ هـ (٩٧٥م) . ولم يرض الخليفة العزيز بالله الفاطمى — الذى خلف أباه المعز — عن ذلك الوضع الجديد بالشام ، فأرسل حملة بقيادة جوهر الصقلى إلى الشام سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٦م) وشرع جوهر فى محاصرة دمشق فعلا وبها افتكين ورجاله . وفى ذلك الموقف استنجد افتكين بالحسن بن أحمد زعيم القرامطة بالبحرين ، فسار الحسن بن أحمد لنجدة أفتكين . وعندما علم جوهر الصقلى بذلك خشى أن يقع رجاله بين فكى الكماشة : أفتكين يهاجمه من داخل دمشق والحسن بن أحمد من خارجها ، ولذلك آثر ترك حصار دمشق والانسحاب بسرعة إلى الرملة .

ولكن الحسن بن أحمد وأفتكين لم يتركا جوهر ينسحب فى سهولة إذ طارداه نحو عسقلان ، الأمر الذى اضطر جوهر الصقلى إلى طلب الصلح مع أفتكين ، فتم الصلح بشروط مهينة بالنسبة لجوهر ، وسمح له بالعودة إلى القاهرة بعد دفع مبلغ من المال[2] .

وكان من الصعب على الخليفة العزيز أن يقبل ذلك الوضع المشين ، فسار

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٨ ص ٢١٢ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ .

بنفسه إلى الشام على رأس جيش كبير سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) وتمكن من إزال الهزيمة بأعدائه قرب الرمله ، فأسر افتكين وسيق إلى القاهرة فى حين انسحب الحسن بن أحمد إلى الاحساء بعد أن تعهد العزيز له بدفع مبلغ عشرين ألف دينار سنوياً طيلة حياته [1].

على أن تخلص الفاطميين من خطر القرامطة فى بلاد الشام على ذلك الوجه ليس معناه أن بلاد الشام خلصت تماماً للفاطميين ، إذ ظل الحمدانيون فى الشمال — كما ذكرنا — ينظرون نظرة عداورية إلى الفاطميين. وقد حدث سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) أن خرج والى حمص — بكجور التركى — على سيده سعد الدولة الحمدانى (٣٥٦ — ٣٨١ هـ = ٩٦٧ — ٩٩١م) فأرسل بكجور إلى الخليفة العزيز بالله الفاطمى يطلب منه المعونة لفتح حلب. وفعلا بادر العزيز إلى تقديم المعونة اللازمة له ، فزحف بكجور على حلب وأوشك أن يستولى عليها لولا استنجاد سعد الدولة الحمدانى بالروم الذين لم يكن فى استطاعة بكجور الوقوف فى وجه جيوشهم [2].

ولم يرض بكجور عن ذلك الوضع ، فأرسل من جديد إلى الخليفة العزيز يطمعه فى حلب ويعدد له مزاياها ، ويقول له « إنها دهليز العراق ، ومتى أخذت كان مابعدها أسهل منها ». ولكن سعدالدولة تمكن من إنزال الهزيمة بجيش بكجور وقتله سنة ٣٨١ هـ (٩٩١م) [3]. وعندما أرسل الخليفة العزيز رسولا إلى سعد الدولة يطلب منه الكف عن إيذاء أبناء بكجور ، أساء سعد الدولة معاملة الرسول وهدد بالزحف على بلاد الخليفة الفاطمى.

ولم تؤد وفاة سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى سنة ٣٨١هـ(٩٩١م)

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٩١؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ص ٢١٩.

(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٤٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٢٩.

إلى تحسين العلاقة مع الخلافة الفاطمية ، إذ خلفه ابنه سعيد الدولة أبو الفضائل (٣٨١–٣٩٢ هـ = ٩٩١ - ١٠٠٢م) الذى استأنف سياسة أبيه تجاه العزيز . وكان أن أسند العزيز ولاية الشام إلى منجوتكين التركى وعهد إليه فتح حلب سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣م) ، ولكن سعيد الدولة استنجد بالإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى الذى أمر الجيوش البيزنطية فى انطاكية بالدفاع عن حلب ضد الفاطميين[١] . ويقال إن العزيز عزم على الخروج بنفسه للإستيلاء على حلب ، لولا وفاته المفاجئة سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦م) فى مدينة بلبيس أثناء سيره إلى الشام[٢] .

على أن انقسام البيت الحمدانى بعد ذلك ، وماصحب ذلك الانقسام من انحلال وضعف، مكن الفاطميين من بسط سيطرتهم على شمال الشام . ذلك أن لؤلؤ مولى سعيد الدولة الحمدانى خان سيده وأرسل ولديه وسائر أبناء البيت الحمدانى إلى القاهرة ، وأعلن دخوله فى طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى . وبعد وفاة لؤلؤ هذا ٣٩٩ هـ (١٠٠٩م) خلفه ابنه منصور الذى استأنف سياسة أبيه ، وأعلن الدعوة فى حلب للخليفة الحاكم سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١م) ؛ الأمر الذى جعل الخليفة ينعم على منصور هذا بلقب مرتضى الدولة[٣] .

على أنه فى الوقت الذى إنهارت قوة الحمدانيين وبدا أن بلاد الشام قد أوشكت على أن تدين كلها للفاطميين ؛ ظهر صوت يحول دون سيطرة الفاطميين تماما على حلب . وجاء هذا الصوت من ناحية المرداسيين الذين ينتسبون إلى صالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، الذى استولى على حلب

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ج ١ ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٧٨ — ٧٩ .

واستمر يحكمها حتى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) عندما تمكنت جيوش الخليفة الظاهر الفاطمي من استردادها منه[1]. ومع ذلك فإن نفوذ الفاطميين لم يستقر في حلب، إذ استولى عليها نصر بن صالح بن مرداس، حتى تمكنت جيوش الخليفة المستنصر بالله الفاطمي من استردادها سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م)[2]. وهكذا ظل النفوذ الفاطمي في حلب غير ثابت حتى أواخر القرن الخامس الهجري عندما ظهرت قوة جديدة في بلاد الشام هي قوة الأتراك السلاجقة.

وكان أولئك الأتراك السلاجقة قد حلوا محل بني بويه في السيطرة على مصائر الخلافة العباسية في بغـــداد منذ منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد). والمعروف عن السلاجقة أنهم كانوا سنيين متعصبين، فوجدوا أنفسهم في عداء مع الفاطميين الشيعة بحكم الخلاف المذهبي من ناحية ثم بحكم ظهورهم في صورة حماة الخلافة العباسية وأراضيها من ناحية أخرى. وهكذا أخذ السلاجقة يتطلعون إلى بلاد الشام في الوقت الذي ظهرت علامات الإعياء والضعف بوضوح على الدولة الفاطمية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. وقد حدث سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) أن وجه سلطان السلاجقة ملكشاه أحد رجاله وهو أقسز التركماني لغزو الشام. فاستولى على الرملة وبيت المقدس وإن كانت الجيوش الفاطمية قد ردته عن دمشق[3].

ولم يلبث أن عاد أقسز إلى مهاجمة دمشق فاستولى عليها سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ودعا فيها للخليفة العباسي المقتدى بأمر الله، وحذف اسم المستنصر الفاطمي من الخطبة. ثم إن أقسز لم يقنع بذلك وإنما أعد جيشا لغزو مصر

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ص ٢٢٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ٩ ص ٧٩ — ٨٠، ابن خلدون: العبر ج ٥ ص ٢٧٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٠ ص ٢٢.

سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ولكن بدر الجمالي هزمه في الدلتا فعاد قافلا إلى دمشق [١] . ويبدو أن هذا الانتصار شجع بدر الجمالي ، فأرسل جيشا لمطاردة أتسز الذي استنجد بتاج الدولة تتش بن الب أرسلان، وكان عندئذ يحاصر حلب . وعندما تقدم تتش إلى دمشق لنجدة أتسز خاف عسكر بدر الجمالي وعادوا إلى مصر [٢] . على أنه إذا كان أتسز قد تخلص من خطر جيوش بدر الجمالي، فإنه لم يستطع أن يتخلص من خطر تتش الذي لم يلبث أن قبض عليه وقتله وأخذ دمشق لنفسه سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م)[٣] . وإذا كان بدر الجمالي قد نجح سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) في استعادة سيطرة الدولة الفاطمية على سواحل الشام، فإن السلطان ملكشاه أمر نوابه في حلب والرها سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢م) بمعاونة أخيه تتش في طرد الفاطميين نهائيا من بلاد الشام . وبفضل هذه المعونة تمكن تتش من الاستيلاء على حمص وعرقه، وأفامية وغيرها من المواضع، كل ذلك والدولة الفاطمية تكاد وهي في خريف عمرها لا تقوى على الحركة .

وأخيرا أدت أطماع تتش إلى وقوعه في نزاع مع أخيه بركياروق، فانتهى الأمر بهزيمة تتش وقتله سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م). وعندئذ اقتسم ابناه رضوان ابن تتش ودقاق بن تتش أملاك أبيهما في الشام ، فاستولى الأول على حلب وأخذ الثاني دمشق[٤] . وفي الوقت الذي غرقت بلاد الشام في بحر من الفوضى بسبب الانقسامات والحروب بين الأتراك السلاجقة بعضهم وبعض ، وبينهم وبين الفاطميين ، إذا بالصليبيين يظهرون في شمال الشام

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢٥ .
(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٩٤ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٨ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٩٣ .

ليقوضوا نفوذ السلاجقة والفاطميين جميعا ، كما سبق أن رأينا .

علاقة الفاطميين بالخلافة العباسية فى العراق:

حرص العباسيون منذ أن نجحوا فى إقامة دولتهم على كبت أصوات العلويين وتتبعهم فى البلاد والقضاء فى عنف على أية محاولة يحاولون القيام بها لإقامة دولة لأنفسهم . وعلى الرغم مما لاقاه العلويون فى العصر العباسى من اضطهاد وتشريد واغتيال، فقد نجحوا فى نهاية الأمر فى إقامة الدولة الفاطمية التى تبدو فى التاريخ فى صورة الثمرة أو الحالة المضيئة التى توجت سنين طويلة من الجهاد والكفاح المستمر ، وهو كفاح اختلطت فيه دماء شهداء العلويين بدموع الأحياء منهم .

ولا غرابة إذا فى أن قيام الدولة الفاطمية أحدث رد فعل عنيف فى العالم السنى بوجه عام وفى الخلافة العباسية بوجه خاص ، لما ترتب عليه من استئثار الدولة الجديدة بولاء قسم لا يستهان بها من المسلمين . وبعبارة أخرى فإنه بعد أن كان المسلمون جميعا باستثناء أقلية فى الأندلس — تدين بالولاء — إما طوعا وإما كرها — للخليفة العباسى فى بغداد ، وترى فيه الخليفة الأوحد لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، والرجل الذى تجب طاعته والامتثال لحكمه ... إذا بالفاطميين يقتطعون لأنفسهم جزءا من أهم أجزاء العالم الإسلامى، ويقيمون فى هذا الجزء دولة لا تقف فى سياستها عند حد الخروج عن طاعة العباسيين ؛ بل تتعدى ذلك إلى مكاشفتهم العداء والدخول ضدهم فى مساجلات وحروب ، ومحاولات القضاء على ملك بنى العباس، وتحطيم دولتهم، والثأر لما حل بالعلويين من اضطهاد على أيديهم .

وازداد العباسيون هلعا كلما ازدادت الدولة الفاطمية إتساعا . ولو قنع الفاطميون بالمغرب — حيث ولدت دولتهم — لهان الأمر على بنى العباس؛

ولكن الفاطميين خرجوا من المغرب ليستولوا على مصر ويطلوا منها على الشرق، فنفذوا إلى الشام ومدوا نفوذهم على الحجاز واليمن . وهكذا وقف الفاطميون والعباسيون وجها لوجه ، تفصل بينهم حدود مباشرة لا تحول دون صدام مباشر بين القوتين. وكان من الممكن أن يتم هذا الصدام في صورة أكثر عنفا وأوسع دائرة مما حدث فعلا، ولكن حال دون ذلك حكم التاريخ، وللتاريخ أحكام. ففي الوقت الذي وقفت الدولة الفاطمية على قدميها وظهرت أكثر ما تكون قوة وشبابا وقدرة على الحركة ؛ إذا بالخلافة العباسية نفسها تدخل في دور الضعف والشيخوخة ، دور التبلد وعدم القدرة على الحركة . وكما ينتهي الأمر بالشيخ الهرم الذي يفقد قدرته على حسن التصرف فيقع تحت وصاية من هو أقوى منه وأكثر قدرة على وزن الأمور ؛ فكذلك وقعت الخلافة العباسية في القرن الرابع للهجرة تحت الوصاية ، وصاية البويهيين الفرس ثم السلاجقة الأتراك .

والغريب في أمر بني بويه الذين فرضوا وصايتهم على الخلافة العباسية في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) أنهم كانوا شيعة ، بمعنى أنهم كانوا من الناحية المذهبية أقرب إلى الفاطميين ولكن البويهيين نظروا إلى الدولة الفاطمية من وجهة النظر السياسية لا المذهبية ؛ ففي بقاء الخلافة العباسية بقاء لنفوذ بني بويه بحكم وصايتهم على تلك الخلافة . وفي إتساع نفوذ الخليفة العباسي — مهما يكن هذا النفوذ اسميا — اتساع لنفوذ بني بويه لأنهم يديرون شئون الدولة باسم ذلك الخليفة . وهكذا حرض بنو بويه قرامطة البحرين على مهاجمة الفاطميين في الشام وساعدوهم أدبيا وماديا ، كما سبق أن ذكرنا . وحرض بنو بويه الحمدانيين في حلب على مهاجمة الفاطميين وتقويض نفوذهم في الشام ، كما سبق أيضا أن أوضحنا. ولم يقف الفاطميون موقفا سلبيا تجاه بني بويه، وإنما حاولوا اكتسابهم إلى صفهم ، معتمدين على وحدة المذهب . فأرسل الخليفة العزيز بالله الفاطمي

رسالة سنة ٣٦٩هـ (٩٧٩م) إلى عضد الدولة ابن ركن الدولة، فأجابه عضد الدولة بكلام يتضمن صدق الطوية وحسن النية »[1]. ويبدو أن الدولة الفاطمية لم يمكنها في ذلك الدور الأول أن تحصل من البويهيين على شيء سوى كلام يحسن النية ، واستمر الوضع على ذلك حتى فرضت متطلبات السياسة على عضد الدولة الاتجاه الذي ينبغي أن يسلكه إزاء الفاطميين ، فعقد مجلسا أقر عدم صحة نسب العبيديين ، وأنهم لا ينحدرون — كما يدعون — من سلالة علي وفاطمة[2] . بل لقد أخذ عضد الدولة يتأهب لغزو مصر واستردادها من الفاطميين، فأعد الأعلام السوداء — وهي شعار العباسيين — وكتب عليها « أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين !! »[3]

ولم يقف الخلفاء الفاطميون مكتوفي الأيدي أمام الموقف العدائي الذي وقفته منهم الخلافة العباسية في العراق ومن ورائها بنو بويه . وقد لجأ الفاطميون في ذلك الوقت إلى شن هجوم مضاد عن طريق نشر الدعاية لأنفسهم في العراق ، فأرسلوا الدعاة وزودوهم بالمال والعون . ويبدو أن الدعاة الفاطميين حققوا نجاحاً كبيراً في العراق ، فأصبحت الدعوة للخليفة العزيز الفاطمي سنة ٣٨٠هـ (٩٩٢م) في الموصل على يد أميرها محمد ابن المسيب العقيلي الملقب بمعتمد الدولة . وهو الذي آلت إليه السيادة في الموصل ، فخرج عن طاعة الخليفة العباسي القادر بالله سنة ٤٠١هـ (١٠١٠م) وأحل اسم الحاكم الفاطمي محل اسم الخليفة العباسي في الخطبة[4]

وعندما ثار البساسيري — وهو من قواد بني بويه الأتراك — على الخليفة القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) انتهز الخليفة المستنصر

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام ج٣ ص ٢١٠ — ٢١١ ، ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٢٤١ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٥ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص ٢٧٥ — ٢٦١ .

(٤) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٢٣ .

الفاطمى الفرصة وأخذ يؤيد أبا الحارث البساسيرى ويتعهد له بامداده بالمال والرجال . بل لقد أرسل المستنصر الفاطمى داعيته الشهير هبة الله الشيرازى لإثارة حماسة جند البساسيرى وحثهم على الثورة فى وجه الخليفة العباسى[1]. وبفضل معونة الخليفة الفاطمى انتصر البساسيرى على جيوش الخلافة العباسية فى موقعة سنجار سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) واعقب ذلك دخول البساسيرى بغداد وإعلان الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى[2] . وعندما أدرك الخليفة العباسى مدى الخطر الذى أحاط به وبدولته أرسل إلى السلاجقة يستنجد بهم وبزعيمهم طغرلبك ضد بنى بويه والبساسيرى والنفوذ الفاطمى جميعا ، وفعلا تمكن طغرلبك من القضاء على البساسيرى وإعادة الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م)[3] .

وليس هذا مجال الكلام عن سيطرة السلاجقة على الخلافة العباسية ، فكل مايعنينا فى هذا المقام هو أن السلاجقة كانوا سنيين متعصبين لمذهبهم يقاوموا المذهب الشيعى ، وتعقبوا دعاته فى الشرق الأدنى ، وعملوا على تقويض النفوذ الفاطمى ، لا فى العراق فحسب بل فى الشام أيضاً[4]. وحدث ذلك فى النصف الأخير من القرن الخامس للهجرة (الحادى عشر للميلاد)، عندما كانت الدولة الفاطمية نفسها تمر بدور ضعف شديد جعلها لا تقوى على الاحتفاظ بكيانها فضلا عن حماية نفوذها فى المشرق والمغرب جميعاً

علاقة الدولة الفاطمية بالأندلس والمغرب وصقلية :

من المعروف أن قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ترتب عليه

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤١١ — ٤١٢ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦ — ١١ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٤) السيوطى : تاريخ الخلفا ص ١٨٠ .

سقوط الدولة الأموية فى الشرق ، ولكنها قامت فى الأندلس سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) عندما استولى عبد الرحمن الداخل على قرطبة . ولم يلبث بنو أمية فى الأندلس أن اتخذوا سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) لقب الخلافة على عهد عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ = ٩١٢ — ٩٦١م)، متهزين فرصة بعدهم عن الخلافة العباسية فى الشرق . وبذلك صارت هناك خلافتان فى طرفى العالم الإسلامى إحداهما فى المشرق والأخرى فى المغرب[١]، هذا عدا الخلافة الفاطمية التى احتلت مكانا وسطا بعد أن نجح عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين سنة ٢٩٧هـ (٩٠٩ م) فى أن يوطد نفوذه بشمال أفريقية ويقطع اسم الخليفة العباسى من الخطبة .

وسرعان ما ظهر التنافس حاداً بين الفاطميين فى شمال أفريقية والأمويين فى الأندلس، بحكم ما بين القوتين من تقارب جغرافى، مما جعل نشاطهما يتعارض فى النصف الغربى من حوض البحر المتوسط . وقد ظهر هذا التنافس بين الدولتين الفاطمية بشمال أفريقية والأموية بالأندلس فى ميدان البحر والبر . ففى البحر بنى الفاطميون قوة ضاربة مدت نشاطها إلى صقلية وكورسيكا وسردينيه وهددت شواطىء إيطاليا وفرنسا، فى الوقت الذى اهتم عبد الرحمن الثالث (الناصر) اهتماماً كبيراً بأسطوله فى البحر المتوسط فبنى مائتى سفينة واعتبر النصف الغربى من حوض البحر المتوسط منطقة نفوذ له ومياه إقليمية لدولته[٢] .

وفى البر نجد حاكما مثل موسى بن أبى العافية الذى استحوذ على المغربين الأقصى والأوسط يخلع طاعة عبيد الله المهدى الفاطمى ويدخل فى طاعة عبد

(١) Dozy : Spanish Islam, p. 397.

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣ — ١٤ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٧٨ .

الرحمن الناصر الأموى ويدعو له ، الأمر الذى جعل الجيوش الفاطمية فى عهد الخليفة القائم تغزو بلاده وتدخل مدينة فاس لتقضى على حركته[١] .

وفى موجة التنافس بين الدولتين الفاطمية والأموية ، لجأ الفاطميون إلى نفس السلاح الذى استخدموه فى المشرق الإسلامى ، وهو سلاح الدعوة فأرسلوا الدعاه — كأبى على الداعى — لنشر الدعوة الاسماعيلية فى الأندلس وإن كان يبدو أن الدعاية الفاطمية فى الأندلس لم تصادف توفيقاً كبيراً[٢]. وهنا لجأ الأمويون فى الأندلس إلى استخدام نفس الأسلحة السياسية لمناوءة الفاطميين فى شمال أفريقية ، فأرسلوا العيون إلى المغرب لاستطلاع نوايا الفاطميين وأنصارهم من أعداء الأمويين ، كما عقد عبد الرحمن الناصر الأموى عدة محالفات سياسية لتطويق الدولة الفاطمية ، منها معاهدة مع هيو أمير بروفانس الذى حنق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة ، ومعاهدة مع الامبراطورية البيزنطيه التى عز عليها استيلاء الفاطميين على جزيرة صقلية وودت لو تمكنت من استردادها منهم . فضلا عن تقاربه من الإخشيديين بمصر لمقاومة امتداد المذهب الشيعى[٣] .

ويبدو أن الفاطميين أدركوا أخيراً أن التوسع شرقاً أيسر وأنفع لهم من التوسع غربا ، فوجهوا بصرهم نحو برقة ومصر حتى تم لهم فتحها كما سبق أن رأينا . ومع ذلك فقد استمرت العلاقات العدائية بين الفاطميين فى القاهرة والأمويين فى الأندلس . ويروى المؤرخون أن الخليفة العزيز الفاطمى أرسل إلى الحكم المستنصر الأموى (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ = ٩٦١ — ٩٧٦م)

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٠٨ .

(٣) Dozy: Hist. des Musulmans d'Espagne, Tome 2. p. 159.

ومختار العبادى : سياسة الفاطميين ، ص ٢٠٨ .

يسبه ويهجوه ، فرد عليه الحكم بالمثل ، وطعن فى نسبه ، وأوضح أن على ابن أبى طالب وفاطمة الزهراء أبرياء من الفاطميين ، ثم قال الحكم المستنصر فى رسالته للعزيز الفاطمى «قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لاجبناك»[1].

ومرة أخرى ظهر العداء على أشده بين الفاطميين فى مصر والأمويين فى الأندلس ، عندما قام أبو ركوه — وهو أحد الأمويين الذين استقروا فى برقة — بحركة دعا فيها إلى عمه هشام الخليفة الأموى بالأندلس ، وأنزل الهزيمة بالجيش الذى أرسله ضده الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله . ثم شرع أبو ركوة فى الزحف فعلا على مصر بحيث لم يستطع الحاكم القضاء عليه سنة ٣٩٦ هـ (١٠٠٥م) إلا فى صعوبة بالغة بعد مطاردة عنيفة امتدت من الاسكندرية شمالا حتى النوبة جنوباً[2].

والواقع إن الحديث عن ثورة أبى ركوه كفيل بأن يتطرق بنا إلى الكلام عن علاقة الخلافة الفاطمية بشمال أفريقية ، بعد أن نجح الفاطميون فى فتح مصر ونقلوا حاضرة خلافتهم إلى القاهرة . وهنا تخبرنا المصادر التاريخية أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عندما قرر المسير إلى القاهرة استدعى بلكين بن زيرى بن مناد وأعطاه ولاية المغرب[3] . ولكن انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر جعلها أكثر اهتماماً بشئون المشرق ، الأمر الذى مكن بنى زيرى من الاستقلال بإفريقية ، وإن ظلت تربطهم فى أول الأمر روابط التبعية بالخلافة الفاطمية ، فكان يدعى للخليفة الفاطمى فى جوامع المغرب ، كما ضربت السكة بأسماء الخلفاء الفاطميين ، فضلا عن إرسال الجزية من المغرب إلى القاهرة[4].

---

(١) العينى : عقد الجمان ج ١٩ ص ٣٩٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٥ — ٢١٧

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٤٣ ؛ ابن عذارى ج ١ ص ٢٢٣ ؛ ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ .

(٤) السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٦٦ ؛ ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٣٧ .

وكان أن أخذ بنو زيرى يستقلون بالمغرب تدريجياً عن الخلافة الفاطمية في القاهرة ، حتى أعلن المعز بن باديس — في أوائل القرن الخامس للهجرة (الحادى عشر للميلاد) — خروجه على الفاطميين وعلى المذهب الإسماعيلى ، فدخل في طاعة الخليفة القائم بأمر الله العباسى سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤١م) وقطع الخطبة للخلفاء الفاطميين في مصر[١] . ومن الواضح أن الخلافة الفاطمية في ذلك الدور تجمعت لها من المشاكل الداخلية والخارجية ماجعلها غير قادرة على القيام بمحاولة جدية لاستعادة نفوذها المفقود في شمال أفريقية . وكان كل مافعله الخليفة المستنصر الفاطمى هو أنه أرسل رسالة إلى المعز بن باديس يهدده ويتوعده ، ويقول له « اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء » فرد المعز بن باديس عليه قائلا « إن آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك »[٢] ولم يكن لهذا السباب المتبادل من نتيجة سوى إمعان المعز بن باديس في لعن الفاطميين في الخطب وإزالة أسمائهم من الرايات والسكة ، مما أدى إلى قطع آخر الخيوط التي كانت تربط بنى زيرى بالفاطميين في مصر[٣] .

أما جزيرة صقلية ، فقد كان النفوذ الفاطمى فيها أقصر عمراً منه في شمال أفريقية . والمعروف أن المسلمين تمكنوا من فتح صقلية في أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع للميلاد) ، واستمرت الجزيرة تابعة للأغالبة في شمال أفريقية حتى قضى الفاطميون على دولة الأغالبة ، وعندئذ آلت تبعية صقلية إلى الفاطميين . ويبدو أن العناصر العربية في صقلية ساءها أن يولى عليهم

(١) حسن أحمد محمود : بنو زيرى وسياستهم الداخلية ص ١٧٤ ، مختار العبادى : سياسة الفاطميين ص ٢١٨ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : فترة حاسمة في تاريخ المغرب ص ٢٥٤ ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٦٢ .

(٣) ابن عذارى : ج ١ ص ٤٠١ — ٤٠٢ .

(٤) امارى المكتبة الصقلية ص ٤٢٤ — ٤٢٥

الفاطميون بعض ولاة من البربر، فثاروا فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع، واختاروا سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢م) حاكما عليهم من أصل عربى هو أحمد بن قرهب، الذى خرج عن طاعة عبيد الله المهدى ودعا للخليفة المقتدر العباسى، بل لقد أرسل أسطوله لمهاجمة شواطىء الفاطميين فى شمال أفريقية[1].

ومع أن عبيد الله المهدى نجح فى القضاء على حركة ابن قرهب إلا أن الأمور لم تستقر للفاطميين فى صقلية، بسبب المنازعات بين أهلها المسلمين بعضهم وبعض، فضلا عن المنازعات بين المسلمين والمسيحيين فى الجزيرة. ولا يخفى علينا أن جزيرة صقلية كانت لها أهمية خاصة فى نظر مختلف القوى المتصارعة فى البحر المتوسط، لأن موقعها الجغرافى يمكن القوة المسيطرة عليها من التحكم فى الطريق البحرى بين شرق حوض البحر المتوسط وغربه. ولذلك اهتم الفاطميون بصقلية لتكون مركزا لأساطيلهم البحرية، ومنها أخذوا يغيرون على مياه البحر التيرانى، فضلا عن جزر سردينية وكورسيكا، وربما جنوه[2]. وفى سنة ٣٣٦ هـ (٩٧٦ م) عين الخليفة المنصور الفاطمى الحسن بن على الكلبى واليا على صقلية، فحدث مرة تفاهم بينه وبين المسيحيين فى الجزيرة جعل هؤلاء الآخرين يستنجدون بالامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع. وهكذا صارت جزيرة صقلية ميدانا لصراع عنيف بين البيزنطيين والمسلمين، استمر أعواما طويلة أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر للميلاد)، لم يكف خلالها الأباطرة البيزنطيون مثل قسطنطين السابع ونقفور فوقاس وميخائيل الرابع، عن إرسال الحملات الواحدة تلو الأخرى لزحزحة المسلمين من صقلية[3]. وفى ذلك الدور كانت الدولة الفاطمية قد تحركت

---

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣٢ — ٢٣٣.

(٢) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٢٤٤ — ٢٤٥

(٣) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, pp. 293-295.

من شمال إفريقية إلى مصر ، ونقلت قواعد أساطيلها من الغرب إلى الشرق، الأمر الذى مكن قوة فتية جديدة — هى قوة النورمان — من غزو صقلية والقضاء على نفوذ المسلمين السياسى فيها فى أواخر القرن الخامس للهجرة (٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) . وهكذا « ملك رجار النورمانى جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد من أهلها (للمسلمين) حماما ولا دكانا ولا طاحونا ولا فرنا »[1] .

العلاقات بين الدولة الفاطمية والقوى الأوربية المسيحية :

ما كادت الدولة الفاطمية تقف على قدميها فى شمال إفريقية حتى أحست بأن عليها أمانة كبرى هى النهوض بمهمة الجهاد ضد المسيحيين فى حوض البحر المتوسط ، وذلك وفقا لما تمليه عقلية ذلك العصر وروحه . وإذا كانت بعض هذه الأعمال قد اتخذت أحيانا طابع القرصنة ، فإن علينا ألا نحكم على أى عصر فى التاريخ من واقع نظرتنا نحن إلى الحياة ومثلنا فيها ، وإذا لكى يكون الحكم صادقا ينبغى أن يصدر عن روح ذلك العصر نفسه وينبع عن واقعه ويتمشى مع مثله . والعصور الوسطى لم تفرق إلى حد كبير بين الجهاد والقرصنة بحيث اتخذ الجهاد الدينى طابع القرصنة فى بعض حلقاته ، كما أن أعمال القرصنة اعتبرها كثيرون نوعا من أنواع الجهاد الدينى الذى يكافئون عليه بالجنة وحسن الثواب .

وهكذا أخذ الفاطميون . . وهم فى الغرب — يدعمون أساطيلهم البحرية ويقومون بهجمات بحرية على شواطىء إيطاليا وجنوب فرنسا ، فضلا عن جزر سردينيا وكورسيكا وغيرها . ولكن بانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر خفت قبضتها عن شواطىء أوربا المسيحية ، وتحول مركز ثقل الأسطول

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٤ هـ ، الصفحة ٢٧٨

الفاطمي في البحر المتوسط إلى الركن الشرقي من ذلك البحر . وقد ترتب على ذلك أن أخذت مدن أيطاليا البحرية تتنفس وتضع مصالحها الاقتصادية في المقام الأول . وثمة إشارات إلى أن البندقية وأمالفي وجنوة وبيزا وغيرها من المدن الإيطالية حرصت على أن تنمي علاقاتها التجارية مع الخلافة الفاطمية في مصر . من ذلك أن بيزا أرسلت سفيرا اسمه رانيرى بوتاشي إلى مصر سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) فاستقبله الخليفة الظافر الفاطمي . وكان الهدف من سفارته إزالة بعض العوائق التي تعترض سبيل نشاط التجارة بين البلدين، وتسوية بعض المشاكل التي نجمت بين المسافرين من البيازنة وبعض المسلمين. وقد وافقت الحكومة الفاطمية على اطلاق سراح بعض البيازنة الذين كانوا في سجونها مقابل تعهد حكومة بيزا بعدم مساعدة الصليبيين بالشام[١] .ومرة أخرى أرسلت بيزا سفارة سنة ٥٥٠هـ (١١٥٥م) إلى مصر التي كانت أمورها عندئذ بيد الوزير طلائع رزيك ، هذا وإن كانت سياسة عمورى ملك بيت المقدس تجاه الدولة الفاطمية المتداعية في مصر ، وموقف بيزا المتأرجح بين المسلمين والصليبيين وفقها تمليه مصالحها التجارية : قد حال دون انتعاش العلاقات بين الدولة الفاطمية وجمهورية بيزا[٢].

ولم تكن أمالفي وجنوه والبندقية أقل حرصا على إقامة علاقات طيبة مع الخلافة الفاطمية من بيزا ، فكان لأهل أمالفي جاليات بالأسكندرية ، وعقدت جنود اتفاقية تجارية مع الحكومة الفاطمية سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م)، كما دأبت البندقية على إرسال بعثات إلى مصر للحصول على امتيازات لتجارها في أراضي الدولة الفاطمية . وعلى الرغم من أن القوى الأوربية المسيحية حرمت

---

(١) Heyd: Hist. du Commerce du Levant, Tome I, pp. 392-393.

(٢) Ibid.

على التجار الإيطاليين فى عصر الحروب الصليبية المتاجرة مع المسلمين، وخاصة تصدير الأخشاب اللازمة لبناء السفن إلى العالم الإسلامى، إلا أن المدن الإيطالية التجارية — وخاصة البندقية — ضربت عرض الحائط بذلك الحظر ومضت تدعم نشاطها التجارى مع الدولة الفاطمية، ولم ترحرجا فى تصدير الأخشاب اللازمة للأسطول الفاطمى[1].

أما الدولة البيزنطية فقد كان الطابع الغالب على علاقاتها بالدولة الفاطمية طابع عداء. وقد رأينا كيف كان المسيحيون فى صقلية يستنجدون بالدولة البيزنطية التى لبت النداء وأرسلت الجيوش إلى صقلية، مما أثار صداما بين الفاطميين والبيزنطيين، لا فى صقلية وجنوب إيطاليا فحسب بل أيضاً فى البحر الأدرياتى. ثم إزداد العداء بعد أن استولى الفاطميون على مصر وسعوا لمد سيطرتهم على الشام، إذ وقف البيزنطيون على أطراف الشام يرقبون فى حذر ازدياد النفوذ الفاطمى، ولم يتوانوا عن تقديم المساعدة للحمدانيين فى حلب ضد الفاطميين[2]. والمعروف أن القرن العاشر للميلاد — الرابع الهجرى — شهد صحوة للدولة البيزنطية، كان من معالمها تحول تلك الدولة من الدفاع إلى الهجوم، فخرج إمبراطورها يوحنا تزيمسكس سنة ٣٦٤ هـ (٩٧٥ م) بحملة كبرى على الشام حتى وصل إلى طبرية، مما أثار حربا مباشرة مع الفاطميين[3]. ولم تحاول الخلافة الفاطمية الثأر سوى سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧م) عندما أرسل الخليفة العزيز الفاطمى حملة بحرية لغزو بلاد الروم، ولكن هذه الحملة منيت بالفشل؛ مما عجل بالصلح بين الطرفين. وكان الذى سعى فى هذا الصلح هو الامبراطور البيزنطى باسل الثانى الذى أوفد سفارة إلى الخليفة العزيز الفاطمى تحمل له هدية ثمينة، فوافق الخليفة على وقف القتال

---

(١) Idem, p. 114, 391.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٠.

(٣) عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبى ص ١٤١ وما بعدها.

مدة سبع سنوات، بشرط أن يطلق الأمبراطور البيزنطي سراح من لديه من أسرى المسلمين وبأن يدعى للخليفة العزيز في جامع القسطنطينية[1].

على أن هذا الصلح لم يحل الإشكال بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية، بسبب حرص الأباطرة البيزنطيين على مساعدة الحمدانيين في حلب والحيلولة دون استيلاء الفاطميين عليها. وفي سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨م) خرجت صور عن طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، واستنجد أميرها الثائر بالأمبراطور البيزنطي فأمده بالمساعدة، ولم تستطع الجيوش والأساطيل الفاطمية استردادها إلا بصعوبة[2]. ومع أن الصلح تم بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية بعد قليل، إلا أن سياسة الخليفة الحاكم في اضطهاد أهل الذمة استثارت الدولة البيزنطية، فظلت تسبب المتاعب للفاطميين في شمال الشام[3]. ولم يكن ذلك إلا في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي عندما تم الصلح بين الطرفين سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧م) فوافق الفاطميون على إصلاح كنيسة القيامة بالقدس مقابل إطلاق سراح خمسة آلاف أسير مسلم كانوا في حوزة الروم[4].

وفي سنة ٤٤٦هـ (١٠٥٤م) تولت عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطورة تيودورا، التي استثارت الدولة الفاطمية بسياستها العدائية، مما أدى إلى صدام حربي بين الجانبين سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م).

وهكذا ظلت العلاقة مضطربة بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية؛ تصفو حينا لتسوء أحياناً، واستمرت على ذلك حتى أواخر القرن الحادي عشر

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥١ — ١٥٢.
(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ج ١ ص ١٨١ — ١٨٤.
(٣) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٤ — ٢٤٥.
(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٦٢.

للميلاد عندما وصلت أولى الحملات الصليبية إلى الشرق . وقد وقفت الدولة البيزنطية موقفاً محالفاً للصليبيين فى الدور الأول من هذه الحروب ، الأمر الذى ترتب عليه تأييدهم للصليبيين فى هجماتهم ضد المسلمين ، لا فى الشام فحسب بل فى مصر أيضاً . وسنرى كيف شاركت الدولة البيزنطية فى الهجمات التى شنها الصليبيون على الدولة الفاطمية فى أواخر سنى عمرها ، وهى الفترة التى شهدت سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية .

الفصل الرابع

الأوضاع الداخلية والحضارية

صحب قيام الدولة الفاطمية فى مصر ثورة كبيرة فى كثير من أركان المجتمع المصرى . حقيقة أن السواد الأعظم من شعب مصر - وهم الفلاحون - ظلوا يحيون حياتهم المألوفة التى اعتادوها منذ سنوات بعيدة ، وأن بقية فئات الشعب المصرى ظلت تعيش وتتصرف فى ظل العادات والنظم والتقاليد التى سادت المجتمع الإسلامى بوجه عام وربطت بين مشرقه ومغربه ؛ ولكن لا ننسى أن الدولة الفاطمية نفسها كانت دولة من نوع جديد غير الدول السابقة أو اللاحقة التى شهدها التاريخ المصرى فى العصور الوسطى منذ الفتح العربى .

لقد كانت الدولة الفاطمية دولة شيعية ، لها عقائدها المذهبية الخاصة وما ارتبط بهذه العقائد من آراء فكرية وأساليب خاصة فى الدعوة لهذه الآراء ، كما أن لها من الإتجاهات السياسية والدينية ما ترك آثاراً واضحة فى أوضاع البلاد الداخلية وحضارتها الفكرية والمادية ، وهو أمر أكسب الدولة الفاطمية طابعاً خاصاً فريداً مميزاً فى تاريخ مصر الإسلامية . هذا كله بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من أن استقلال الدولة الفاطمية كان استقلالا من نوع آخر غير الاستقلال الذى حظيت به كل من الدولتين الطولونية والإخشيدية .

فالدولة الفاطمية لم يربطها فى أى وقت ، خيط - ولو ضعيف - من خيوط التبعية لقوة أخرى خارجية مثل الخلافة العباسية ، الأمر الذى جعل الدولة الفاطمية تتحرك فى مختلف الاتجاهات - خارجياً وداخلياً - فى مرونة

ويسر . واتصفت حركتها هذه بالذاتية والاستقلال ، مما جعلها تعبر تعبيراً تاماً عن شخصيتها الخاصة ؛ وهو الأمر الذى ظهر أتم ما يكون وضوحاً فى الأوضاع الداخلية والحضارية التى سادت مصر فى العصر الفاطمى . ويتضح ذلك بإلقاء نظرة على أهم الأوضاع الداخلية وما ارتبط بها من تطورات حضارية فى العصر الفاطمى .

الخلافات الطائفية والمذهبية :

فتح الفاطميون مصر والغالبية العظمى من أهلها يتبعون المذهب السنى. ولما كان الفاطميون شيعة، بنوا حقهم فى الخلافة على أساس انتسابهم إلى على وفاطمة رضى الله عنهما ، فإنهم قرروا من أول الأمر تسخير كافة وسائل الإعلام ، واستخدام كل ما يمكن استخدامه من أساليب الدعاية لنشر المذهب الشيعى بين مختلف فئات الشعب . وهكذا أخذ دعاة الشيعة يبثون آراءهم فى المساجد والقصور ودور الحكمة وغيرها ، وأجزل الخلفاء العطايا للمؤلفين والكتاب والشعراء ليروجوا للمذهب الفاطمى ويجتذبوا الناس إليه. والمعروف أنه يوجد فى كل زمان ومكان فئة من الناس على أتم استعداد للتصفيق لكل حاكم جديد ، والتلون بأى لون سياسى أو مذهبى ، طالما أن ذلك هو الطريق الموصل إلى السلطان والجاه والمال . وهكذا أقبل البعض على اعتناق المذهب الفاطمى إن لم يكن عن عقيدة فمن أجل الظفر بمنصب ، وخاصة بعد أن أخذ الخلفاء الفاطميون يحرمون وظائف الدولة على غير أتباع المذهب الشيعى ، كما فرضوا على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق تعاليم هذا المذهب وأصوله .

على أنه يوجد من الشواهد ما يثبت أن غالبية أهل مصر ظلوا على المذهب السنى ، وأنه لم يتحول إلى المذهب الشيعى إلا فئة قليلة من طلاب المناصب والجاه . ومع ذلك فإن الشيعة ظلوا طوال العصر الفاطمى أقوى جانباً ، لأنهم

يثاور حزب الحكام و يحظون بتأييد الخلفاء وتشجيعهم ، فضلا عن مساعدة المغاربة الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم والذين دخلت أعداد كبيرة منهم مصر صحبة الغزو الفاطمي .

ولم يكن منتظراً أن يتم التحول في هدوء وأن تسير الأمور في مصر بعد الفتح الفاطمي دون حدوث صدام بين الشيعة والسنة . والواقع أن نسبة كبيرة من المصريين لم يرضوا عن ذلك التحول المذهبي ، ورأوا في الفاطميين ومذهبهم وسياستهم خروجاً عن المألوف ، الأمر الذى أدى إلى مصادمات عديدة بين الشيعة والسنة ، وخاصة في المناسبات المرتبطة بإحياء الأعياد الشيعية . من ذلك ماحدث سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) عند الاحتفال بعيد غدير خم — وهو أحد الأعياد الشيعية — من صدام عنيف بين الشيعة والسنة[1] . وقد حدث في نفس العام خلاف بين المحتسب الفاطمي والصيارفة المصريين . ويبدو أن هذا المحتسب جرح شعور الصيارفة السنة ، فصاحوا في وجهه « معاوية ابن عم على بن أبي طالب » ؛ وتكشف هذه العبارة عن طبيعة الصدام بين الشيعة والسنة في ذلك العصر . وقد تكرر الصدام في العام التالي ، أى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م)[2] .

ودراسة تلك الاحداث والمصادر الأصلية يخرج بحقيقة واضحة ، هي أن طائفة المغاربة التي اعتمد عليها الفاطميون في فتحهم مصر وفي الاحتفاظ بحكمهم فيها ، كانت هي الطائفة المسئولة عن كثير من حوادث الشغب في البلاد . ذلك أن المغاربة كانوا شيعة متزمتين ، ومن ناحية أخرى اعتبروا أنفسهم عصب الدولة الفاطمية ودعامتها ؛ فأساءوا معاملة جمهرة أهل مصر من السنة ، وشجعتهم قوتهم الحربية ومساندة الخلفاء الفاطميين لهم على إتيان

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٩٣ — ٩٤ .

كثير من حوادث الشغب والسلب والعسف ، الأمر الذى أدى إلى كثير من المصادمات بين المغاربة والمصريين . من ذلك ما حدث سنة ٣٦١هـ (٩٧٢م) من تعدى المغاربة على بعض أحياء مصر بالسلب والنهب ، فثار الأهالى ، ونشب قتال بينهم وبين المغاربة ، حتى تدخل جوهر ، وعوض الناس عما سلب منهم(١).

وكثيراً ما لجأ المغاربة إلى مبادرة المصريين بالعداء ، فكانوا يحتلون دورهم ويجلون سكانها عنها ، الأمر الذى جعل الأهالى سنة ٣٦٣هـ (٩٧٤م) يستغيثون بالخليفة المعز الذى أمر المغاربة بإخلاء الدور التى اغتصبوها من الأهالى ، وبنى لهم مساكن قرب عين شمس ، وجعل لهم والياً وقاضياً للنظر فى أمورهم(٢) . وفى سنة ٣٨٦هـ (٩٩٦م) فرض المغاربة على الخليفة الحاكم بأمر الله — وكان لايزال صغير السن — تعيين زعيمهم ابن عمار وزيراً ، فرضخ الحاكم لطلبهم ، وتولى ابن عمار الوزارة ، ليجزل العطاء للمغاربة — وخاصة الكتاميين — ، الأمر الذى قوى من شوكتهم ودفعهم إلى الشطط فى تصرفاتهم(٣) .

ويهمنا فى هذا الصدد أن مبالغة ابن عمار فى مجاملة المغاربة جاءت على حساب الأتراك . وقد سبق أن رأينا أن الأتراك كونوا جالية كبيرة لها نفوذها فى البلاد منذ أيام الطولونيين . وهؤلاء عز عليهم أن يبطل ابن عمار أعطياتهم ليجزل العطاء للمغاربة وحدهم ، فثاروا على ذلك الوضع ودخلوا فى معركة ضد المغاربة ، حتى انتهى الأمر بفرار ابن عمار وحل محله برجوان التركى(٤) .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٧ .

(٢) ابن ميسر : ص ٤٥ .

(٣) ابن شجاع ، ص ٢٢٢ .

(٤) ابن منجب : الإشارة ، ص ٢٧

ويبدو أن الخليفة الحاكم بأمر الله لم يرض عن استبداد الأتراك وتحكمهم، فلم يجد أمامه سوى الجند السودانيين الذين كانوا يكونون عصبية كبيرة فى مصر منذ أيام كافور الإخشيدى[١].

وقد ظهر أمر السودانيين أيام الخليفة الظاهر الفاطمى الذى تزوج بسيدة سودانية. ومازال عددهم فى ازدياد حتى بلغوا أيام الخليفة المستنصر خمسين ألفا. وفى النزاع الذى قام بين الجند السودانيين والأتراك، تمكن الأتراك من طردهم إلى الصعيد سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢م) وهناك استقر منهم نحو خمسة عشر ألفاً أفسدوا البلاد وأخافوا العباد. ولم تكن الدلتا أسعد حظاً من الصعيد، إذ اجتاحها بضع آلاف من السودانيين، أوغلوا فيها حتى وصلوا الاسكندرية.

وهكذا ظلت البلاد تعانى كثيراً فى العصر الفاطمى بسبب الصراع بين المغاربة والسودانيين والأتراك، مما أثر فى أحوالها تأثراً سيئاً[٢]. ولم يجد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بداً من الاستعانة بعنصر جديد، فاستعان بالارمن وزعيمهم بدر الجمالى، وعرف هؤلاء الأرمن فى مصر باسم المشارقة تمييزاً لهم عن المغاربة والأتراك والسودانيين، واحتفظ كثير منهم بالديانة المسيحية، وكان يرافقهم بطريق خاص بهم[٣].

والواقع أنهم لم تكن هناك غضاضة فى أن يحتفظ أولئك الأرمن بدياناتهم المسيحية، وأن تستعين بهم الدولة فى أعمالهم. ذلك أن العصر الفاطمى بالذات عرف بالتسامح تجاه أهل الذمة، حتى أن النصارى واليهود حظوا فى ذلك العصر بقدر من العطف صار أقرب إلى المحاباة. وقد أسلم بعض أولئك الذميين

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨١ — ١٨٢.

(٢) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ١٧.

(٣) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٠٧ — ١٠٨.

وتشيعوا طمعا فى جاه أو مال، فى حين احتفظ الباقى بديانتهم الأولى، ومع ذلك ظلوا موضع تقدير الخلفاء، فولوا أرفع المناصب وأسماها. والمعروف عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أنه قرب إليه كثيرا من أطباء اليهود وأن أحد كبار معاونيه — وهو يعقوب بن كلس — كان يهوديا قبل إسلامه، وقد ارتقى يعقوب هذا منصب الوزارة فى عهد الخليفة العزيز. كذلك عرف عن الخليفة العزيز الفاطمى أنه تزوج بامرأة مسيحية، الأمر الذى جعله يبالغ فى التسامح مع المسيحيين، حتى بلغ به الأمر حد مشاركتهم أعيادهم الدينية. وعندما وجد المسلمون فى مصر أن بعض مناصب الدولة الكبرى فى عهد العزيز صارت وقفا على اليهود والنصارى، احتجوا على ذلك الوضع، الأمر الذى ظهر صداه بوضوح فى عصر الخليفة الحاكم بأمر الله[1]. ذلك أن الحاكم أدرك فعلا ازديا نفوذ أهل الذمة فى الدولة وتماديهم فى الظهور، فبدأ حملة اضطهاد شديدة ضدهم سنة ٣٩٣ ﻫ (١٠٠٣ م)، ولكنه عاد سنة ٤١١ ﻫ (١٠٢٠ م) إلى التسامح معهم، ومنحهم أمانا جاء فيه «... أنتم جميعا آمنون بأمان الله عز وجل... على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم...»[2].

القصور والخلفاء:

عرف عن العصر الفاطمى ثراؤه، وما ارتبط بهذا الثراء من حياة القصور الحافلة بالترف والنعيم. وقد عنى الفاطميون بإقامة قصور عديدة منها القصر الشرقى الذى بناه جوهر الصقلى لسيده الخليفة المعز لدين الله الفاطمى والقصر الغربى الذى بناه الخليفة العزيز غربى القصر الشرقى، كذلك بنى العزيز قصراً فى عين شمس، وقصراً ثالثاً أطلق عليه اسم قصر البحر، ووصفه ابن خلكان

---

(١) ابن اياس: تاريخ مصر ج ١ ص ٥٠

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكى: ص ٢٣٢.

« بأنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب »[1] . وعنى العزيز عناية فائقة بتأسيس هذه القصور ، ومن ذلك ما نجده من أوصاف لقاعة الذهب حيث كان يجتمع مجلس الملك ، إذ كانت مزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وكلها ذات لون واحد .

وبالإضافة إلى هذه القصور ، عنى الخلفاء ببناء المناظر التى كان يشرف منها الخلفاء على بعض الاحتفالات ، كالأعياد وتوديع الحملات الحربية. وقد عدد المقريزى فى خططه بعض هذه المناظر فى الأزهر واللؤلؤة والدكة والمقس وباب الفتوح ... وغيرها[2]. فإذا جلس الخليفة الفاطمى فى إحدى هذه المناظر بمناسبة عيد من الأعياد ، أضيئت حوله الشموع والمصابيح والناس مجتمعين أمام المنظره لاستجلاء طلعتهم ، يفتح شباك المنظرة برهة يسيرة يحى فيها الخليفة شعبه ، فإذا رأى الناس صورته خروا على الأرض سجدا وقبل الجند الأرض أمامه . وكانت هذه المناظر تتخذ أيضاً أماكن لنزهة الخلفاء . هذا فضلا عن البساتين الفسيحة الممتدة وبها الطيور والحيوانات النادرة والبرك والمياه الجارية[3].

وفى داخل تلك القصور عاش الخلفاء عيشة بذخ وترف ، تشهد عليها الملابس الفاخرة التى كانوا يرتدونها والتى كانت تصنع خصيصا فى دار الكسوة. وكان الخليفة يرتدى فى كل إحتفال كسوة خاصة بذلك الاحتفال ، فالزى الذى يرتديه بآخر رمضان غير الذى يرتديه فى صلاة العيد ، وإن كانت جميعا موشاة بخيوط الذهب والفضة[4]. هذا فضلا عن الأسمطة الفاخرة

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ١٥٢ .
(٢) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٤٨٣ .
(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٣٩ .
(٤) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٤٠٩ — ٤١١ .

التي تمد في كل مناسبة ، والتي أفاض المؤرخون فيما كانت تحويه من لذيذ الطعام والشراب .

وكان أهل الخليفة الفاطمي لا يقلون عنه رغبة في التمتع بزينة الحياة ؛ فعرف عن الملكة تغريد زوجة الخليفة المعز أنها شيدت قصر القرافة الذي وصفه المقريزي بأنه قصر فخم يسر الناظرين، كما شيدت منازل العز وهو قصر جميل يطل على نهر النيل[1] . كذلك حكى المقريزي أن الخليفة المعز أنجب بنتين إحداهما رشيدة التي تركت ثروة منها مليون وسبعمائة ألف دينار من الذهب ؛ في حين تركت أختها عبدة عديدا من خزائن الحلي والصناديق التي تحتوى على أكياس الزمرد فضلا عن النقود والثياب الفاخرة[2] . أما ست الملك ابنة الخليفة العزيز — وهي أخت الحاكم — فقد تركت ثمانمائة جارية ، وثمان جرات مليئة بالمسك . وقدر كبير من الاحجار الكريمة[3] .

الاعياد والمواكب والولائم :

اشتهر العصر الفاطمي بالمبالغة في إحياء الاعياد والمراسم . والواقع أن هذه المبالغة ظاهرة تستحق النظر في التاريخ . فإذا كان السبب فيها الثراء ، فإننا سمعنا عن حكام ودول في تاريخ مصر السابق واللاحق كانوا لا يقلون ثراء عن الفاطميين . بل ربما زادوا عنهم مالا وثروة ، ومع ذلك فإنهم لم يسرفوا في إحياء الاعياد وإقامة الحفلات ومد الاسمطة والولائم مثلما أسرف الفاطميون . ولا يخفى علينا أن بعض ألوان الطعام وبعض العادات والتقاليد المرتبطة بالاعياد والحفلات — والتي ما تزال قائمة في مجتمعنا المصري

(١) المقريزي : المواعظ ج ١ ص ٤١٥ ، ٤٨٥ .
(٢) المرجع السابق
(٣) المرجع السابق

حتى اليوم — إنما ترجع جذورها إلى أيام الفاطميين. فما هو التعليل العلمي لهذه الظاهرة ؟؟.

إن المسألة فى نظرنا لم تكن مجرد ثروة وافرة نعم بها خلفاء الفاطميين ولم يجدوا مجالا لتبديدها سوى المبالغة فى إحياء الحفلات ومد الاسمطة، وإنما كان الامر — فى رأينا الخاص — أبعد من ذلك. لقد قامت الدولة الفاطمية على أساس الدعوة لمبدأ جديد ومذهب جديد فى أرض لاتدين بذلك المبدأ ولا تأخذ بذلك المذهب. وكان لابد لنشر تعاليم المذهب الفاطمى الشيعى من دعاية واسعة تنفذ إلى قلوب الناس وعقولهم وفق المستويات الفكرية السائدة فى تلك العصور. وهل هناك طريق للدعاية لهؤلاء الحكام الجدد وما أتوا به من آراء وعقائد أسهل من اشباع البطون وإحاطة الخلفاء الفاطميين بهالة من العظمة والمجد، وإشاعة جو من الفرح والحبور يجعل الناس لا يرون فى هذا التحول الجديد إلا كل محبب إلى نفوسهم وقلوبهم وبطونهم ؟؟.

وهكذا اتخذت الدولة الفاطمية من الاعياد والمواكب والاسمطة سبيلا للدعاية والنفاذ إلى قلوب الناس وكسب ولائهم ومحبتهم واعجابهم بالنظام الجديد. هذا فى الوقت الذى دأب رجال الفكر من دعاة الفاطميين على اكتساب جماهير الناس عن طريق نشر مبادىء المذهب الجديد، واتخذوا من الجوامع ودور العلم والحكمة مراكز لهذه الدعوة الفكرية، كما سيلى فيما بعد.

ومهما يكن من أمر، فقد شهد العصر الفاطمى فى مصر اهتماما كبيرا بإحياء الاعياد، ومن هذه الاعياد ما هو عام، جرى المسلمون جميعا على الاحتفال به مثل عيد أول العام الهجرى، وعيد مولد النبى صلى الله عليه وسلم. ومنها ما أدخله الفاطميون فى مصر، مثل مولد على بن أبى طالب، ومولد الحسن، ومولد الحسين، وليالى الوقود الاربع — وهى أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه — وعيد الغدير أى غدير خم، وهو المكان الذى يقول

الشيعة أن النبي (ص) ولى عليا بن أبى طالب عهده فيه ، وجعله منه بمنزلة هارون من موسى . أما يوم عاشوراء — وهو عاشر المحرم — فقد احتفلت به الحكومة الفاطمية احتفالا كبيراً، تعطل فيه الأسواق ويخرج الناس إلى الطرقات، يبكون وينوحون حزناً على الحسين بن على الذى استشهد فى ذلك اليوم . وكان يمد فيه سماط أطلق عليه سماط الحزن ، لا يقدم فيه إلا خبز الشعير والعدس والمملحات والجبن ونحوها[١] .

وهناك من الأعياد ما أتخذ صبغة قومية، مثل عيد جبر الخليج أى وفاء النيل ، وعيد النوروز وهو عيد الربيع ، فضلا عن عيد خميس العهد، وهو أحد الأعياد المسيحية يأتى قبل الفصح بثلاثة أيام، وقد احتفل به الفاطميون مشاركة النصارى فى أعيادهم[٢].

وقد اعتاد الخلفاء الفاطميون أن يركبوا فى مواكب فخمة يشقون شوارع القاهرة وسط أفراح الناس ومظاهر الزينة . وبعض هذه المواكب كانت تسمى المواكب العظام ، وتتم فى أول العام وأول رمضان، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان، وصلاة عيدى الفطر والأضحى، وجبر الخليج . أما المواكب الأخرى فقد أطلق عليها القلقشندى اسم المواكب المختصرة ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات فى السنة ، عند ركوب الخلفاء لمناظرهم ، ويكون ذلك عادة فى أيام السبت والثلاثاء[٣] . وفى بعض هذه المواكب كانت تسير آلاف الفرسان وصفوف الجمال وعليها الهوادج المزركشة . ويسير إلى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ، فى حين يحف به خصيان يطلقون البخور على جانبى الطريق[٤] .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٤٤ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٧ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠ .

(٤) [illegible] ١٣٦ — ١٤٣ .

واشتهرت الأعياد في العصر الفاطمي بما كان يقام فيها من ولائم، وما يمد من أسمطة، صارت مضرب المثل في التاريخ. وأشهر الأسمطة التي كان يقيمها الخلفاء الفاطميون، هي تلك التي كانت تمد في أول العام الهجري وفي مولد النبي (ص)، وفي غرة رمضان وفي عيدي الفطر والأضحى. ويكفي للوقوف على فخامة هذه الأسمطة وما كانت تحويه من كميات ضخمة من الأطعمة، أن نشير إلى أن السماط الواحد كان يبلغ طوله ٤٠٠ ذراع وعرضه سبعة أذرع ونصف[1]. ويذكر القلقشندي أن السماط الواحد كان يضم إحدى وعشرين جفنة بكل منها واحد وعشرون خروفا، وثلثمائة وخمسون من الطير ما بين دجاج وحمام، هذا عدا الفطائر والحلوى(٢). وبعد أن يفتتح عليه القوم السماط، يترك لعامة الناس، فيأكلون ملأ بطونهم ويسمح لهم بحمل ما يتبقى وبيعه في الأسواق. وفي مولد النبي كان يصنع عشرون قنطارا من الحلوى توزع على الناس في الأزهر[3].

وهكذا عرف الخلفاء الفاطميون كيف يستميلون الناس عن طريق إشباع بطونهم، فظل الولاء للخلافة طالما هي في يسر، فلما أدبرت الدنيا في وجه الخلافة الفاطمية وساءت الحالة الاقتصادية، انفض عنها كثيرون، وهذه سنة أبدية من سنن التاريخ.

الأوضاع الاقتصادية :

لا شك في أن الفاطميين عندما تطلعوا إلى فتح مصر كانوا يضعون في اعتبارهم ثروتها الكبيرة الضخمة. وفعلا استفاد الفاطميون من تلك الثروة في مشاريعهم الخارجية التي ترتب عليها مد نفوذهم في الشام وشبه

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٦٢ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ج ٣ ص ٥٢٧ — ٥٢٨.

(٣) المرجع السابق ص ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

الجزيرة العربية . كما استفادوا منها في مشاريعهم ومنشآتهم الداخلية العديدة ولا أدل على عظم ثروة مصر في ذلك العصر من حياة الترف التي عاشها الخلفاء الفاطميون . والتي أشرنا إلى بعض جوانبها بإيجاز في الصفحات السابقة.

وللحصول على أكبر قدر من المال ، أمر الخليفة المعز لدين الله أعوانه — وعلى رأسهم يعقوب بن كلس — بوضع نظام جديد للضرائب ، فعمل تقدير الأملاك ، وحددت الضرائب بعد فحص شكاوى الأهالي منعا للظلم . الأمر الذي ترتب عليه زيادة خراج مصر زيادة ضخمة حتى قيل إن خراج الفسطاط وحدها أصبح يتراوح بين خمسين ألف دينار ومائة وعشرين ألف دينار(١) . وبالإضافة إلى الخراج وجدت موارد أخرى لبيت المال ، أهمها الجوالي ، وهي الجزية المفروضة على أهل الذمة القادرين على حمل السلاح ، فضلا عن المكوس ، وهي الضرائب العديدة التي كانت تفرض على التجارة الخارجية وعلى الصناعة والتجارة المحلية .

وبفضل هذه الموارد الضخمة ، استطاع الخلفاء الفاطميون أن يكونوا جيشا قويا من الأتراك والسودان والمغاربة ، وأسطولا ضخما يحمي شواطيء مصر والشام . فضلا عن عناية الخلفاء الفاطميين بمرافق البلاد ، وأهمها صيانة الترع والجسور التي كانت تعتمد عليها ثروة البلاد الزراعية(٢) .

وإذا كانت الزراعة قد ارتقت في العصر الفاطمي ، فزاد إنتاجها واتسعت مساحة الأرض الزراعية ، فإن الصناعة هي الأخرى كان لها شأن كبير . وقد اشتهرت مصر في ذلك العصر بصناعة النسيج ، وخاصة الكتان والقطن ، كما اشتهرت بالصناعات الخشبية ، وما ارتبط بها من حفر ونقش ؛ هذا

---

(١) ... ص ٤٤ .
(٢) ... الاقتصادية في عصر الفاطميين ص ٧ ...

عدا صناعات الجلود والورق والزجاج والبللور والمعادن والعاج والخزف وغيرها(١).

وصحب ازدهار الزراعة والصناعة انتعاش التجارة الداخلية والخارجية سواء. فنى التجارة الداخلية ظل النيل يقوم بدوره التقليدى كشريان رئيسى ضخم يربط جنوب مصر بشمالها، وصارت الفسطاط مركزاً تجارياً كبيراً ازدحمت فيه مختلف أنواع السلع(٢). وفى التجارة الخارجية صارت ثغور مصر — مثل دمياط والاسكندرية والفرما وعيذاب وأسوان — مقصد تجار الشرق والغرب جميعاً. وقد سبق أن أشرنا إلى بداية ازدهار المدن الإيطالية — مثل آمالفى والبندقية وجنوة — فى ذلك العصر، وادراكها أهمية تجارة الشرق، مما جعلها تحرص على إقامة علاقات إقتصادية مع الخلافة الفاطمية(٣) ومثال ذلك يقال عن العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية، إذ يذكر المقريزى أنه وجد فى الفسطاط حى يقيم فيه تجار الروم(٤). أما بضائع الشرق فكانت تأتى إلى مصر إما عن طريق البحر الأحمر وإما عن طريق العراق والشام. وفى جميع الحالات كانت الحكومة الفاطمية تفرض رقابة محكمة على العمليات التجارية، وتحدد الأسعار وتقاوم التلاعب والغش، وتحول دون استغلال الفقراء(٥).

هكذا كان النشاط الاقتصادى مزدهراً فى مصر أيام الفاطميين. ولكن يلاحظ أنه فى تلك العصور لم يكن هناك فارق بين مال الدولة ومال الحاكم، فأموال الدولة هى فى المقام الأول ملك خاص للحكام والخلفاء، ينتفعون

---

(١) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٨٢ — ٥٩٥.

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم ص ١٩٧ — ١٩٨.

(٣) Heyd: Hist. du Commerce, T. I, p. 104-106, 124, 342.

(٤) المقريزى: المواعظ ج ١ ص ١٩٦.

(٥) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٢٠.

بها كيفما شاءوا . ولذلك إذا نحن تكلمنا عن النشاط الاقتصادي في عصر الفاطميين ، فإنه ينبغي ألا نتوهم ارتفاع مستوى معيشة الغالبية العظمى من أهل البلاد ، لأن هذه الثروة الكبيرة إنما كانت تصب أولا في جيوب الخلفاء في حين ظل الفلاح يقوم بدور البقرة الحلوب التي تستنزف خيراتها من أجل أصحابها . ولم يعرف المصريون في تلك العصور كيف يتحكمون في مياه النيل عن طريق السدود والقناطر ، وإنما كانت الأرض تروى مرة واحدة في العام وقت الفيضان

فإذا جاء الفيضان دون معدله ، عطشت الأرض ، ولم يمكن زراعتها ، وتعرضت البلاد لمجاعة ربما صحبها وباء خطير . وكان يكفي أن ينتشر خبر « قصور النيل » حتى ينتشر الخوف وترتفع الأسعار ، ويختفي الخبز والغلال . وقد شرح المقريزي المجاعات والأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر في ذلك العصر ، وأشهرها الشدة العظمى التي بدأت سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، واستمرت سبع سنوات اشتد فيها الغلاء وانعدمت الأقوات ، « وأكل الناس الكلاب والقطاط حتى قلت الكلاب ، فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضاً ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وأحبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه »(١) .

نظم الحكم :

قامت الدولة الفاطمية بعد جهاد مرير استغرق من جهود العلويين قرابة قرنين من الزمان ، ثم توافر لهذه الدولة عند قيامها من أسباب ولاء الناس

---

(١) المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٢٤ — ٢٥ .

وإيمانهم بالدعوة لآل على وإشفاقهم عليهم ، ما أمدها بقوه معنويه وروحيه لم تتوافر لغيرها من الدول الإسلامية المعاصرة . ولهذا كله حرص الفاطميون على أن يحيطوا دولتهم بسياج من النظم يكفل حماية دولتهم من ناحية ويحيطها بهالة من العظمة والأبهة تثبت دعائمها فى قلوب الناس من ناحية أخرى . وساعد الفاطميين على ذلك استقرارهم فى مصر واستفادتهم من ثروتها ، على نحو مكنهم من تحقيق الاهداف السابقة .

وأول أركان النظام السياسى لتلك الدولة كانت الخلافة ، وهى خلافة من نوع جديد غير ما كان مألوفاً فى الخلافة الاموية فى المشرق والمغرب، ثم الخلافة العباسية فى العراق. ذلك أن الدعوة لآل على اتخذت مدى سنين طويلة طابعاً سرياً بعد ما صادفه العلويون من أذى وقتل وتشريد على أيدى بنى أمية ثم بنى العباس . وهذه السرية المطلقة ، التى أحاطت بالدعوة لآل على أكسبتها أحياناً قدراً من الغموض واستخدام الرموز والمصطلحات التى هى فى حاجة إلى شرح وتفسير. وهكذا حتى قامت الخلافة الفاطمية فى المغرب. فإذا بالخليفة الفاطمى يظهر فى صورة شخص له قدسيته بحكم صلته برسول الله (ص) من ناحية وبحكم الهالة البراقة التى أحاط بها الدعاة شخصه من ناحية اخرى. وكان أن ظل الخلفاء الفاطميون يتمسكون بفكرة السمو ، أى أنهم أسمى من سائر البشر ، أو بعبارة أخرى فإن لهم صفات إلهيه يتمتعون بها وتضفى عليهم قدسية خاصة . وحرص دعاة الفاطميين على الترويج لهذه الفكرة وترسيخها فى عقول الناس وأفئدتهم ، وهى الفكرة التى استمر صداها حتى العصور الحديثة فى بعض أركان العالم الإسلامى ، وخاصة طائفة الإسماعيلية فى الهند وشرق أفريقية ، فضلا عن مكانة الائمة فى اليمن حتى وقت قريب .

تتضح هذه النظرية فى قول الخليفة المعز لدين الله الفاطمى « إنا كلمات الله الازليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابيحه البينات ، وبدائعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ،

بل لقد بلغت هذه الفكرة أقوى درجاتها فى اعتقاد الخليفة الحاكم بأمر الله الالوهية ، إذ « شاع الحديث فى دعواه الربوبية ، وتقرب إليه جماعة من الجهال ، فكانوا إذا لقوه قالوا : السلام عليك ياواحد ياأحد يامحى يامميت ... »(١) وكان من الدعاة الذين روجوا لفكرة الوهية الحاكم بأمر الله الداعى محمد بن اسماعيل الدرزى ، وهو الذى نسبت إليه فرقة الدروز الذين مازالوا حتى اليوم يعتقدون فى ألوهية الحاكم بأمر الله ، ويعتقدون أنه لم يمت ، وأنه سيعود فى آخر الزمان فى شخص الإمام أو المهدى ليملأ الأرض عدلا وأمنا(٢) .

ولا شك فى أن مجرد هذه الأفكار جعل من الخليفة الفاطمى حاكما مطلقاً ، كلمته هى القانون ومشيئته هى النافذة . واستمر هذا الوضع طوال العصر الفاطمى الأول (٣٠٨ — ٤٦٥ هـ — ٩٢٠ — ١٠٧٢م). وبعد ذلك أدى ضعف الخلافة الفاطمية إلى تدهور نفوذ الخليفة واستئثار الوزراء العظام بالسلطة فى الدولة .

وكانت الخلافة الفاطمية وراثية ، بمعنى أن يعهد الخليفة إلى أحد أبنائه بولاية العهد من بعده ، وهذا مايتفق مع فكرة الإمامة ، إذا كانوا يعتقدون أن الخليفة الفاطمى إمام يرث أباه عن طريق التعيين بالنص ، وأنه لابد أن يعين الخليفة أو الإمام ولى عهده قبل وفاته حتى لايخلو العالم من إمام(٣) .

وكان يساعد الخليفة الفاطمى فى تدبير أمور الدولة وزيره . وقد أشرنا إلى أن الوزارة كانت فى العصر الفاطمى الاول وزارة تنفيذ ، بمعنى أن الوزير كان عليه أن ينفذ أوامر الخليفة لا أكثر ، مما جعل سلطته

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص١٨٣ .

(٢) Hitti : The Origins of the Druze People and Religion, p. 40-41.

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٧ .

محدوده . وبقاءه فى منصبه يتوقف على تأييد الخليفة ورضاه . ومن أشهر وزراء العصر الفاطمى الاول يعقوب بن كلس وزير العزيز — وكان يهوديا ثم أسلم — ، ومع ذلك فقد صرف عن الوزارة سنة ٣٧٣هـ (٩٨٤م)، واعتقل فى القصر ثمانية أشهر ، ثم أطلق بعدها وأعيد إلى منصبه(١). وقد لقب الوزير الاجل ، فى حين لقب أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح « بوزير الوزراء ذى الرياستين الآمر المظفر قطب الدولة » . وتتضح لنا سلطة الوزير فى ذلك العصر واختصاصاته والشروط الواجب توافرها فيه ، من سجل تقليد أبى القاسم الجرجانى الوزارة ، وقد جاء فى السجل ما نصه « ... إن أحق من عول عليه فى الوزارة وأسند إليه أمر السفارة ، ونصب لحفظ الاموال وتمييزها وسياسة الاعمال وتدبيرها وإياله طوائف الرجال كبيرها وصغيرها . من كان حفيظا لما يستحفظ من الامور ، قوما بمصالح الجمهور ، عالما بمجارى السياسة والتدبير ... »(٢).

ولم يلبث أن انقلب الوضع فى العصر الفاطمى الثانى ، عندما ضعف الخلفاء الفاطميون ، وسلموا مقاليد الأمور لوزرائهم الذين ازداد نفوذهم فى ذلك العصر ، على حساب سلطة الخلفاء أنفسهم ، ويبدأ هذا العصر بسنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) ، وهى السنة التى استدعى فيها الخليفة المستنصر الفاطمى بدر الجمالى والى عكا ليتولى الوزارة ويصلح شئون البلاد ، فتقلد بدر الجمالى وزارة السيف والقلم ، وزاد الخليفة فى ألقابه « السيد الأجل أمير الجيوش كامل قضاة المسلمين وداعى دعاة المؤمنين »(٣) . كذلك بلغ من ازدياد نفوذ الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى أن أبا على حفيد بدر الجمالى منع ذكر اسم الخليفة فى الخطبة . وأمر الخطباء بذكر اسمه فى الخطبة بألقاب اختارها لنفسه ، مثل « ناصر إمام الحق ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده،

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٦ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٨٠ .

(٣) المقريزى : المواعظ ، ج ١ ص ٣٨٢ .

مولى النعم ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتي السيف والقلم[1] ، أما رضوان بن الولخشي وزير الخليفة فقد تلقب سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٦م) بلقب « السيد الملك الأفضل » وهكذا خرجت مصائر الأمور من أيدى الخلفاء الفاطميين فى أواخر أيام دولتهم وأصبحت بأيدي الوزراء .

ولا شك فى أن دولة كبيرة مثل الدولة الفاطمية كانت فى حاجة إلى نظام إدارى محكم يضمن إقرار الأمور وأحكام الإشراف وتنفيذ سياسة الدولة فى الداخل والخارج وقد تحقق ذلك عن طريق عدد كبير من الدواوين – وهى أشبه بالوزارات – مثل ديوان الجيش، وديوان الكسوة والطراز ، وديوان الأحباس أى الأوقاف ، وديوان الرواتب، وديوان الإنشاء وغيرها . ويشرف على كل واحد من هذه الدواوين موظف كبير مسئول، هو صاحب الديوان الذى يعاونه عدد من الكتبة وصغار الموظفين[2]. هذا فضلا عن عدد كبير من الموظفين، منهم صاحب بيت المـــال وقاضى القضاة ، وصاحب الباب . . . وقد قسم القلقشندى أرباب الوظائف فى الدولة الفاطمية إلى قسمين كبيرين ، الأول يشمل ما بحضرة الخليفة من الموظفين، مثل الوزير وصاحب الباب وحامل المظلة وحامل سيف الخليفة وصاحب بيت المال وقاضى القضاة . . والقسم الثانى يشمل ما هو خارج عن حضرة الخلافة من الموظفين مثل النواب والولاة[3] .وقد قسمت مصر إلى أربع ولايات كبرى، هى قوص والشرقية والغربية والاسكندرية ، على رأس كل منها وال يدير شئونها ، وكل ولاية انقسمت بدورها إلى كور أصغر[4] . هذا بالإضافة إلى عمال الفاطميين فى الشام وصقلية والمغرب ،

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٠ وما بعدها
(٣) المرجع نفسه ج ٣ ص ٤٨٢ — ٤٩٨ .
(٤) ابن [illegible] ص ٨٠ — ٨ ١

وغيرها من البلاد التى لم تدخل بصفة منتظمة تحت سيادة الخلافة الفاطمية. ولا شك فى أن العناية بطرق البريد ومحطاته – وخاصة البريد الجوى بواسطة الحمام – كانت ذات أثر فى الربط بين أجزاء الدولة الفاطمية[١].

أما شئون الأمن والضبط والربط فى العاصمة، فقد وكلت إلى الشرطة التى انقسمت فى العصر الفاطمى إلى قسمين: الشرطة العليا وصار مقرها القاهرة بعد أن كان العسكر قبل ذلك، والشرطة السفلى ومقرها الفسطاط[٢].

ويحتم عمل الشرطة إقرار العدالة عن طريق القضاء. والحق إن سلطة القاضى كانت موزعة بينه وبين المحتسب وقاضى المظالم. فوظيفة القاضى فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والأسواق والآداب العامة والجنايات أحياناً، مما يتطلب الفصل فيها السرعة. ووظيفة قاضى المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضى والمحتسب[٣].

ولما كانت غالبية أهل مصر من أهل السنة، فقد خشى جوهر الصقلى عند فتحه مصر عزل قاضى القضاة السنى واحلال أحد الشيعة محله، حتى لا يستثير عامة المصريين. وقد ترتب على ذلك بقاء القضاء فى بعض الأحيان فى أيدى قضاة من السنة، الأمر الذى ترتب عليه تضاؤل وظيفة القاضى فى العصر الفاطمى[٤]. وجدير بالذكر أن الخلفاء الفاطميين طبقوا مبدأ استقلال القضاء، وحرصوا على المبالغة في مرتبات القضاة ليضمنوا نزاهتهم ويحولوا دون الإخلال بالأمانة الملقاة على عاتقهم؛ فأمر الخليفة الحاكم

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ج ١٤ ، ص ٣٩٠ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الامصار ج ٤ ص ١١ ؛ المقريزى : إتعاظ الحنفا ص ٩٥ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٢٢ .

(٤) ابن حجر : رفع الأصر عن قضاة مصر؛ ورقه ٢١٤ .

بأمر الله أن يضاعف رزق القاضي الحسين بن على بن النعمان وأن تزاد صلاته واقطاعاته ، وشرط عليه ألا يتعرض لدرهم واحد فما فوقه من أموال الرعية . وذكر القلقشندى أن مرتب قاضى القضاة فى العصر الفاطمى بلغ مائة دينار ، وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستويات ذلك العصر[١] .

الجيش والبحرية :

اهتم الفاطميون بالجيش اهتماما كبيراً يتناسب وسياستهم التوسعية التى درجوا عليها منذ مولد دولتهم فى شمال أفريقية . وقد تكون الجيش الفاطمى من عدة عناصر ، أهمها المغاربة والأتراك والسودان ، ولكل طائفة منهم قائد يشرف عليهم ويراقبهم . وقد نسبت بعض فرق الجيش إلى الخلفاء كالحافظية والآمرية ، والبعض الآخر إلى الوزراء كالجيوشية والأفضلية . أما ترتيب الجيش ، فكانت الفرق تتألف من جند وأمراء (ضباط) ولا يجوز للجندى أن يرتقى ويصبح أميراً أى ضابطاً . وامتاز الأمراء بما كان ينعم به عليهم من أطواق ذهبية يضعونها حول أعناقهم ، فضلا عن أنهم كانوا يركبون فى المواكب بالقصب الفضية التى يخرجها لهم الخليفة من خزانة التجمل[٢] .

وازدادت عناية الفاطميين بأمر الأسطول بعد فتحهم مصر ، وذلك لضمان سيطرتهم على سواحل الشام من ناحية وحماية دولتهم من خطر الروم من ناحية أخرى . لذلك أنشأ الخليفة المعز لدين الله داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة مركب . وقد تكلم المقريزى عن الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى ، فقال أنه كان على رأسه عشرة قواد يتزعمهم رئيس هو قائد القواد ، وأن عدد جنود البحرية بلغ خمسة آلاف لهم رواتبهم المعينة[٣] . ولا أدل على مدى العناية بالأسطول فى العصر الفاطمى من تلك الأعمال الحربية

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٦ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٠١ .

(٣) المقريزى : المواعظ ج٢ ص ١٩٢ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ج٣ ص٥٢٣ — ٥٢٤ .

الضخمة التى قامت بها البحرية الفاطمية فى ذلك العصر فى حوض البحر المتوسط .

الآداب والعلوم :

شهد العصر الفاطمى نهضة حضارية واسعة، وازدهاراً فكرياً واضحاً، وعبر عن ذلك الأستاذ الجليل أحمد أمين عندما قال إن الدولة الفاطمية « أتت بحركة علمية عظيمة ، نشيطة ، وقدمت العلم والأدب والفن فى مصر والشام خطوات، حتى لا يعد شيئاً بجانبها ما كان فى العهد الطولونى والإخشيدى، ويصح أن تقارن وتساوى بما كان فى العراق وخاصة العلوم العقلية والفلسفية فإنها نبغت فيها[1] » .

ولا يخفى علينا أن طبيعة المذهب الشيعى ومحاولة الدعوة له والاقناع به تطلب قدرا كبيراً من الذكاء وقوة الحجة وسلامة المنطق ، حتى استعان الفاطميون بالفلسفة اليونانية لتأييد وجهة نظرهم ، وإثبات صحة مذهبهم وتفنيد آراء خصومهم . ويذكر المقريزى أن دعاة الفاطميين كانوا يتدرجون مع من يدعونهم إلى مذهبهم ، حتى إذا ما تمكن المدعو من التعاليم الأولى ، « أحالوه على ما تقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهى وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . . . »[2] .

وهكذا نشطت الفلسفة فى العصر الفاطمى نشاطاً كبيراً ، وظهرت ثمرة هذا النشاط فى رسائل إخوان الصفا ، وهى أشبه بدائرة معارف ضخمة كتبها جماعة من الشيعة ، وحاولوا فيها التوفيق بين العلم والدين . وسواء كان مركز هذه الجماعة الشيعية السرية فى العراق أيام بنى بويه أو فى مصر ، فالذى

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ١٨٨ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٣٩٥ .

بينها هو أن مستواهم العقلى وفكرهم الفلسفى يعطى صورة تعبر عن المستوى الفكرى للشيعة فى ذلك العصر (١) .

ومن الواضح أن هذا النشاط الفكرى الواسع فى العصر الفاطمى ساعد عليه نشاط الدعاية الفاطمية ، وهى الدعاية التى نهض بها حشد كبير من الدعاة المتمرنين من ناحية ، كما اتخذت لنفسها مراكز ثابتة مزودة بمكتبات ضخمة من ناحية أخرى . ومن أهم هذه المراكز الجامع الأزهر وجامع الحاكم ، وكلاهما كان يدرس فيه الفقه الشيعى ؛ وفى ذلك يقول المقريزى « إن أول مادرس بالأزهر الفقه الفاطمى على مذهب الشيعة » .

وفى سنة ٣٩٥ ﻫ (١٠٠٥م) أسس الحاكم بأمر الله دار الحكمة — أو دار العلم — وزودها بأعداد ضخمة من الكتب فى مختلف ألوان المعرفة ، وأباح الناس جميعاً دخولها للقراءة والنسخ ، وزودها بالحبر والأقلام والورق (٢).
والواقع أن الخلفاء الفاطميين عنوا عناية واسعة بالكتب ، فكان من أشهر خزائن القصور الفاطمية خزانة الكتب . وذكر المقريزى أن مكتبة الخليفة العزيز بالله الفاطمى ضمت أربعين خزانة من جملتها خزانة واحدة فيها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة (٣) كذلك ذكر أبو شامة عن مكتبة القصر الفاطمى بالقاهرة « إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت فى القاهرة فى القصر ، ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، ويقال أنها كانت تشتمل على ستمائة ألف كتاب (٤) » .

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٥ — ٩٨ .
(٢) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٤٥٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .
(٤) أبو شامه : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ٢٠٠ .

وبالإضافة إلى الفلسفة والعلوم الدينية ، كالتفسير الذي اتخذه الباطنية أداة لنشر مبادئهم عن طريق تفسير القرآن تفسيراً يتفق وآرائهم . . . ظهر الاهتمام في العصر الفاطمي بكثير من العلوم الدنيوية ، مثل التاريخ الذي نبغ من أعلامه أبو الحسن علي بن محمد الشابشتي صاحب كتاب « الديارات » المتوفى[1] سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨م) وعز الملك محمد بن عبد الله المسبحي صاحب كتاب تاريخ مصر المتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٠م)[2] ، وابن زولاق صاحب كتاب « فضائل مصر » المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧م)[3] ، وأبو عبدالله محمد القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢م) وقد ألف كتباً كثيرة عددها ابن خلكان ، منها كتاب في خطط مصر فقد ولم نعثر له حتى الآن على أثر ، ويبدو أن المقريزي نقل عنه في خططه[4] . وابن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠م) وهو صاحب كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة »[5] ، وغير هؤلاء كثيرون[6] .

أما النحو وعلوم اللغة فقد وفد على الخلفاء الفاطميين كثير من النحويين الذين حظوا بتشجيعهم مثل أبو عبد الله القيرواني الذي وفد على العزيز ، وأبو الفضل جعفر الذي وفد على الحاكم فأعجب به وأقطعه إقطاعا ، وكان يجلس في دار العلم لتدريس اللغة والنحو[7] . ومن المصريين اشتهر أبو بكر الادفوي الذي برع في علوم القرآن والنحو .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢٦ — ٤٢٧ .
(٢) » » ج ١ ص ٦٥٣ — ٦٥٤ .
(٣) » » ج ١ ص ١٦٧ .
(٤) » » ج ١ ص ٥٨٥ .
(٥) ياقوت : ارشاد الاريب ج ٥ ص ٤٢٢ — ٤٢٣ .
(٦) ابن حجر : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ٤٣ .
(٧) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ١٣٦ وما بعدها .

أما عن الأدب فى العصر الفاطمى ، فقد شهد طفرة كبيرة، يدل عليها رقى مستوى الشعر والنثر . « وفى الحق أن الشعر فى العصر الفاطمى فى مصر كان أول شعر مصرى قيم من عهد فتح العرب لمصر ، إذ كان قبل ذلك ليس له من قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج . أما شعر المصريين أنفسهم فكان محاولات أولية،حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر وجاد[1] » ولا يخفى علينا أن دولة الفاطميين قامت على أساس الدعوة والدعاية ، وهذه أمور لا يمكن أن تنجح إلا على أساس من البلاغة والأدب . وهكذا قرب الفاطميون الشعراء منهم،وأجزلوا لهم العطاء ليقوموا بالدعاية المطلوبة لهم ، فوفد الشعراء على البلاط الفاطمى من خارج مصر ـ مثل ابن هانئ الأندلسى ـ وغيره كثيرون ؛ هذا إلى ماعرف به الفاطميون من ثراء دولتهم وبذخهم الذى لا مثيل له بين الحكام المعاصرين ، و استحداثهم كثير من الأعياد والمواسم ، وحرصهم على إقامه حفلاتهم ومواسمهم . . . وهذه كلها إتجاهات كفيلة بأن تخلق جوا أدبيا يتبارى فيه الشعراء فى إنشاء القصائد فى المدح والوصف،ويتنافسون فى الإجادة والإتقان،وينعمون بأخذ جاريهم وصلاتهم ، بما لم ينعم به الشعراء فى الدول الأخرى[2] . ويضيق بنا المقام عن مجرد الأشارة إلى شعراء العصر الفاطمى . ولكن نكتفى بذكر مثلين : أولهما تميم ابن الخليفة المعز، وكان شاعراً مجيدا رقيقا، وثانيهما العقيلى وهو شاعر من الاشراف أجاد فى وصف الطبيعة . وفى أواخر الدولة الفاطميه اشتهر من شعراء أسوان المهذب أبو محمد الحسن بن على بن الزبير ، الذى قال عنه عماد الدين الأصفهانى « لم يكن فى زمانه أشعر منه »[3] .

أما عن النثر فى العصر الفاطمى فلم يبق منه إلا القليل ، مثل بعض

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٠٥ .

(٢) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٥٣ ومابعدها .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥٩ .

الكتب الرسمية التي ذكرها القلقشندي في كتابه صبح الأعشى ، فضلا عن مجموعة رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته ، وقد كتبها بعض الدعاة تحت إشراف الخليفة الحاكم نفسه . ومع ذلك فقد أجمع الباحثون على أن عناية الفاطميين بالكتاب لم تقل مطلقا عن عنايتهم بالشعراء ، لأن اتساع ملكهم وتشعب نواحي حياتهم وسلطانهم اضطرتهم إلى أن يوجهوا همهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم »[1] .

وتدل هذه البقايا المتناثرة من النثر الفني على تقدمه ، وميله إلى الزينة ، واستخدامه المحسنات اللفظية والسجع « بما هو ظل لحياة الترف في قصور الخلفاء ، كما يدل على تأثر بسعة الثقافة التي عظمت في هذا العصر[2] » .

ولم تقف النهضة الفكرية التي شهدها العصر الفاطمي عند حد ازدهار العلوم النقلية إنما تعدتها إلى العلوم العقلية ، فازدهر الطب والرياضيات والفلك ازدهارا واضحا . فالخلفاء الفاطميون شجعوا الاطباء وأغدقوا عليهم العطاء ، وجعلوا لهم منزلة خاصة في البلاط . وقد أورد ابن أبي أصيبعه في كتاب « عيون الأنباء » كما أورد القفطي في كتاب « أخبار العلماء » أسماء كثير من الأطباء الذين مارسوا الطب في مصر وحظوا برعاية الخلفاء الفاطميين . وبعض هؤلاء الأطباء كانوا يهودا أو نصارى ولكنهم لمسوا من تسامح الفاطميين ما شجعهم على خدمتهم . واشتهر من أطباء ذلك العصر محمد ابن أحمد بن سعيد التميمي ، وأصله من بيت المقدس ثم نزح إلى مصر في عصر العزيز الفاطمي ، ونبغ في الطب وتركيب العقاقير[3] . أما أبو الفتح منصور ابن سهلان بن مقشر فكان مسيحيا ، وهو الطبيب الخاص للخليفة الحاكم

---

(١) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ٣٠٩ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ٢١٥ .

(٣) القفطي : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٠٦ .

بأمر الله (١) ومن الأطباء اليهود موسى بن العازار وكان طبيباً للخليفة المعز، وخلفه في مهنته ابنه اسحق بن موسى الذي قربه الخليفة منه وأجزل له العطاء. أما أبو الحسن على بن رضوان الذى عاش فى عهد الخليفة العزيز، فقد نبغ فى مهنة الطب وصنف فيها كثيراً من الكتب، واعتمد فى أبحاثه على التجربة والمشاهدة (٢).

أما الرياضيات والطبيعيات والفلك فكان لها هى الأخرى شأن كبير فى العصر الفاطمى، وحظى علماؤها بتشجيع الخلفاء الفاطميين وعطفهم. من ذلك أن الخليفة الحاكم بأمر الله استدعى أبا على محمد بن الهيثم صاحب المؤلفات الشهيرة فى الرياضة والطبيعة والفلسفة والطب. فعاش بالقاهرة حتى مات فيها، واشتغل بالتصنيف والنسخ والإفادة (٣). كذلك اهتم الفاطميون بعلم النجوم، حتى يقال أن الخليفة الحاكم بأمر الله أنشأ مرصداً بسفح جبل المقطم أطلق عليه «المرصد الحاكمى». ونبغ فى ذلك العصر الفلكى أبو الحسن على بن يونس المصرى صاحب «الزيج الحاكمى» (٤).

وقد روى ابن السبدى الذى كان يقيم بالقاهرة سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠م) أن مكتبة هذه المدينة كانت تشتمل على كرتين فلكيتين وستة آلاف كتاب فى الرياضيات وعلم الفلك (٥).

الفنون :

وأخيراً، فإن الحضارة الفاطمية بلغت ذروتها فى الجانب الفنى. والمعروف

---

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ٨٩
(٢) القفطى : أخبار الحكماء ص ١٤٣
(٣) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٩٠ — ٩١
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٠٥ .
(٥) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٤٠١

أن الفنون على اختلاف أقسامها ترتقى مع وفرة المال وكثرة الثراء . والعصر الفاطمى الذى اشتهر بالغنى والترف واهتمام الخلفاء بالدعاية لأنفسهم ولدولتهم . كان لابد وأن ترتقى به الفنون وتزدهر الصناعات . لأن الفنون هى خير صوت من أصوات الدعاية لأى حاكم . فى كل زمان ومكان .

وفى تخطيط المدن يكفى الفاطميين فخراً أنهم أقاموا ثلاث مدن، اثنتان فى شمال أفريقية والثالثة في مصر . ذلك أن الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدى أسس مدينة المهدية سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) لتكون حاضرة لدولته الجديدة ، ولم تلبث أن أصبحت هذه المدينة ميناءاً هاماً ذا نشاط تجارى واسع ، فضلا عن أن المهدى بنى فيها داراً كبيرة لصناعة السفن مما جعلها مركزاً حيوياً للأساطيل الفاطمية فى ذلك الدور[1] . وفى سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٨م) نقل الخليفة المنصور الفاطمى حاضرة دولته إلى المنصورية ، ونقل إلى هذه العاصمة الجديدة أرباب الصناعات والحرف فازدهرت فيها الصناعة والتجارة ؛ وظلت حاضرة الدولة الفاطمية حتى انتقل المعـــز إلى مدينة القاهرة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م)[2] .

على أن المدينة الخالدة التى خلدت اسم الفاطميين فى التاريخ حتى اليوم هى القاهرة المعزية التى وضع جوهر الصقلى أساسها سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) شمالى الفسطاط ، وأحاطها بسور ضخم من الآجر . وكانت تشمل وقتئذ أحياء الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق[3] . وقد بنى فيها جوهر القصر الشرقى لينزل فيه مولاه الخليفة المعز عند حضوره إلى مصر ، وموقعه مكان مسجد الحسين وخان الخليلى اليوم . ولم تلبث أن

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٣٠ — ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥

(٣) المقريزى الخطط ج ١ ص ٢٧٣ .

ازدهرت القاهرة بفضل موقعها الجغرافى الفريد وعناية الخلفاء بها ، وإقامة الجوامع والقصور والمتنزهات ودور العلم ، فضلا عن الفنادق والحمامات والأسواق . ومازالت القاهرة موضع عناية الخلفاء الفاطميين حتى دالت دولتهم ، فاهتم بها الأيوبيون ثم سلاطين المماليك ، وبذلك صارت فى أواخر العصور الوسطى من أعظم مدن العالم المتحضر .

والحق إن الخلفاء الفاطميين فى مصر اهتموا اهتماماً كبيراً بالعمارة فأقاموا كثيراً من العمائر ، بقى منها حتى اليوم الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع الأقمر وجامع الصالح طلائع . وامتازت هذه الجوامع بالعناية بواجهاتها وعقودها المرتفعة، وما فيها من زخارف وكتابات جميلة[١] . والجامع الأزهر أول جامع شهدته القاهرة . وقد تعرض لكثير من الإضافات وبخاصة فى عصر سلاطين المماليك .

أما عن النحت ، فلم تصل إلينا من العصر الفاطمى أمثلة عديدة من النحت فى الحجر ، وإن كانت هناك بعض قطع وألواح من الرخام فى دار الآثار العربية عليها زخارف بنائية وحيوانية وبعض الكتابات الكوفية تشهد على تقدم فن النحت فى الحجر فى ذلك العصر[٢] .

وبالعكس فقد بقيت نماذج للنحت فى الجص — أشهرها فى محاريب الجوامع — تلقى ضوءاً واضحاً على العناصر المميزة لهذا الفن فى العصر الفاطمى . وإذا كانت الزخارف الجصية فى مسجد الأزهر مشتقة من الزخارف الطولونية والعباسية ، إلا أنه يظهر فيها تغير واضح فى الأسلوب الزخرفى ، أهم مظاهره العناية برسم السيقان النباتية . ويبدو هذا التطور

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٢ .

(٢) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص ٦٢٧ — ٦٢٩ .

بوضوح فى مسجد الحاكم ، وخاصة فى أشكال التوريق ونماذج الخط الكوفى المشجر ، فضلا عن التفريعات الرشيقة المنسجمة التى تجرى فى اتجاهات مختلفة قد تكون متقاطعة ، والتى حلت محل الأشكال التقليدية السابقة[١] . ومن أبدع أمثلة النحت فى الجص فى العصر الفاطمى محراب جامع الجيوشى وقوام زخرفته فروع نباتية كثيرة ، فيها مراوح نخيلية غنية بالعروق والرسوم الدقيقة وبينها أشكال هندسية[٢] .

وبالنسبة للحفر على الخشب ، فقد ظلت الاتجاهات المحلية التى غيرت فى أسلوب الحفر على الحجر والجص مستمرة فى الحفر على الخشب الفاطمى . ذلك أن الموضوعات والأساليب الطولونية فى الحفر على الخشب أخذت تختفى فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ليحل محلها الأسلوب الفاطمى . الذى يجمع بين التفريعات النباتية وأنصاف المراوح النخيلية ، فضلا عن بعض الرسوم الحيوانية والموضوعات الآدمية التى شاعت فى الحفر على الخشب فى العصر الفاطمى[٣] . وتشهد على هذا كله بعض النماذج الفنية المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة والمتحف القبطى ، فضلا عن متحف المتروبوليتان[٤] .

وما قيل عن النحت على الحجر والجص والخشب يقال عن الحفر فى العاج ، إذ ازدهرت صناعة العاج فى العصر الفاطمى ازدهاراً كبيراً بحيث لم يعد استعماله مقصوراً على التطعيم والترصيع فى معظم الأحوال ، بل كانت الحشوات الكاملة تصنع من العاج . وينسب إلى العصر الفاطمى بعض اللوحات العاجية ، بعضها فى متحف بارجللو فى فلورنسا والبعض

---

(١) ديماند : الفنون الاسلامية ترجمة أحمد عيسى ص١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص٦٣٠

(٣) زكي محمد حسن : اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ص ٩٨ .

(٤) ديماند : الفنون الاسلامية ص ١١٨ — ١١٩

الآخر فى متحف اللوفر وغيره من المتاحف ، عليها رسوم لأشخاص فى مواقف متباينة ، ويوجد بينها وبين مخلفات الخشب الفاطمى تقارب قوى[1].

أما عن التحف المعدنية فى العصر الفاطمى فقد بلغت درجة من الروعة تتفق مع ما ذكره المقريزى من نشاط الصناعات المعدنية فى ذلك العصر ، وما كانت تحويه قصور الخلفاء الفاطميين من قطع فنية نادرة . وإذا كان لم يبق لدينا من المجوهرات الفاطمية سوى قطع محدودة ، إلا أن هذه القطع بما تحويه من زخارف مفرغة، وأسلاك ذهبية مجدولة، وأشكال هندسية مفرغة، ورسوم بالمينا متعددة الألوان . . كل هذا يشهد على جمال الذوق ودقة الحس الفنى فى العصر الفاطمى[2]. ومن أشهر التحف الفنية التى ترجع إلى ذلك العصر تمثال لعقاب من البرونز قائم عند مدخل مقبرة بيزا ، عليه نقوش جميلة ورسوم نباتية وحيوانية وهندسية ، حتى أن بدن هذا الطائر يبدو كأن عليه ثوبا من الزخارف قد حبك عليه حبكا مبدعا[3]. هذا عدا التماثيل العديدة المعدنية المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة وغيره من متاحف العالم ، والتى تشهد على مدى ما بلغته صناعة المعادن فى العصر الفاطمى من تقدم ورقى .

وهناك جانب فنى آخر حقق رقيا كبيراً فى العصر الفاطمى هو فن الخزف ، سواء الخزف ذى البريق المعدنى ، أو الخزف الذى يحوى رسوماً منقوشة تحت طلاء من لون واحد . وامتازت الأوانى ذات البريق المعدنى برقة جدارها ، وزخارفها المستمدة من موضوعات آدمية أو رسوم الحيوانات والطيور ، على أرضية من الزخارف النباتية . ويبدو أن المركز

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥١٢ — ٥١٣ .

(٣) زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ١٤٨ .

الأساسى لصناعة هذا النوع من الخزف كان الفسطاط ، بدليل العثور على نسبة كبيرة من القطع الخزفية ذات البريق المعدنى فى الفسطاط بالذات. وكان بعض الفنانين يوقعون أسماءهم على إنتاجهم الخزفى ، ومن أشهرهم مسلم وسعد ، وكل منهما صاحب مدرسة فى هذا النوع من الفنون (١) .

أما عن صناعة الزجاج والبلور فى مصر على عصر الفاطميين فقد بلغت هى الأخرى درجة كبيرة من الرقى ، مما مهد لبلوغها ذروة عظمتها فى عصر المماليك . وكانت أهم مراكز هذه الصناعة فى مصر الفاطمية الفسطاط والفيوم والاسكندرية . وتوجد بالمتاحف نماذج جميلة لاوانى زجاجية صنعت فى العصر الفاطمى، عليها زخارف ونقوش من فروع نباتية وغيرها. وبلغت صناعه الزجاج قمتها فى العصر الفاطمى فى الزجاج ذى البريق المعدنى . أما البلور فقد صادف إقبالا من الاثرياء لذاته وقوة احتماله مع جمال شكله، فصنعت أنواع من البلور الصخرى على هيئة أباريق وأوانى للشرب وصحون وكؤوس وفناجين وغيرها . ومازالت متاحف العالم مليئه بنماذج لتلك الاوانى الزجاجية والبلوريه التى تثير إعجاب الفنانين فى كل زمان ومكان (٢).

وظهر التقدم الفنى فى العصر الفاطمى بوضوح فى جانب آخر هو صناعة المنسوجات، وخاصة الاقمشة الكتانية والحريرية التى امتازت بدقتها ورقتها ، وماقد يزينها على جانبيها من زخارف هندسية أو حيوانية أو كتابات كوفية جميلة (٣) . وكان صاحب الطراز — أى المشرف على شئون النسيج فى البلاد — من كبار الموظفين ، كما أن الخليفة المعز شيد دار الكسوة ، حيث كانت

---

(١) زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ص ١٢ — ١٩ .
(٢) زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفيه والتصاوير الإسلامية ص ٢٥٠ — ٢٥١ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩٥ — ١٩٧ .

تفصل الثياب لموظفى الدولة . ويتضح مبلغ رقى صناعة النسيج فى العصر الفاطمى من الوصف الذى ذكره ابن ميسر للكسوة التى أمر الخليفة الفاطمى المعز بصنعها للكعبة ، وكيف نقشت على أطرافها الآيات القرآنية بحروف من الزمرد[١] . وهناك أنواع من الأقمشة كانت تصنع فى ذلك العصر خاصة بالخليفة نفسه ، فى حين أوصى الخلفاء أحياناً بصناعة منسوجات فاخرة لإهدائها إلى المقربين من الأمراء . وكانت مدينة تنيس فى شمال الدلتا تصدر وحدها إلى العراق منسوجات تزيد قيمتها على عشرين ألف دينار سنوياً ، فى حين أن دبيق كانت تصنع « الثياب المثقلة والعمائم الشرب الملونة ، والدبيقى العلم المذهب . وكانت العمائم الشرب المذهبة تعمل بها ، ويكون طول كل عمامة منها مائة ذراع وفيها رقمات منسوجة بالذهب ، فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل »[٢] .

وأخيراً نختتم هذه العجالة السريعة عن الفن فى العصر الفاطمى ، بالإشارة إلى صناعة السجاد التى ارتقت فى ذلك العصر ، وخاصة فى أسيوط التى صنعت فيها أنواع من السجاد تشبه سجاجيد أرمينية . وتوجد فى متحف المترو بوليتان بنيويورك قطعة من السجاد عليها كتابة بخط كوفى دخلته الزخرفة ، ويرجح العلماء أنها ترجع إلى العصر الفاطمى[٣] .

* * *

وبعد ، فإن الكلام عن الدولة الفاطمية وما ارتبط بها من تطورات .. أمر يطول . ولكن علينا ألا ننسى حقيقة كبرى عند الكلام عن عظمة العصر الفاطمى وحضارة مصر فى ذلك العصر ، هذه الحقيقة هى أن منطقة الشرق الأدنى شهدت أواخر العصر الفاطمى تحولا خطيراً نتيجة لنجاح الصليبيين فى الاستقرار بين ربوع تلك المنطقة ؛ وهو الاستقرار الذى ترتبت عليه عدة نتائج سياسية منها سقوط الدولة الفاطمية وقيام دولة بنى أيوب محلها .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ .

(٢) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ٢٢٦ .

(٣) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٣٩٧ .

مصادر

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ
البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر
أبو شجاع : ذيل كتاب تجارب الأمم
الشهرستانى : الملل والنحل
ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
المقريزى : — المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار
— اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا
ابن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة
ابن ميسر : تاريخ مصر
يحيى بن سعيد الانطاكى : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق

مراجع

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية
محمد جمال الدين سرور : — سياسة الفاطميين الخارجية
— الدولة الفاطمية فى مصر .

الباب الخامس

الدولة الأيوبية

الفصل الأول

مولد الدولة

إذا كنا قد أفضنا بعض الشيء في الكلام عن عظمة الدولة الفاطمية ومدى ما أصابته مصر من تقدم حضاري على أيام الفاطميين ، فإن هناك حقيقة يجب ألا تغيب عن أبصارنا ، هي أن منطقة الشرق الأدنى شهدت أواخر العصر الفاطمي تحولا خطيراً نتيجة لنجاح الصليبيين في الاستقرار في قلب تلك المنطقة . وقد سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الفاطمية كانت في خريف عمرها عندما ظهر الخطر الصليبي ، وكيف أنها عجزت عن فهم طبيعة ذلك الخطر في الوقت المناسب ، بل فشلت في صد هذا الخطر وفي حماية نفسها منه .

ومعنى هذا كله أنه صار عليها أن تتنحى ، وتفسح المجال لقوة أخرى فتية تحل محلها ، وتستطيع أن تنهض بأمانة الجهاد .

وزاد الموقف سوءاً بالنسبة للمسلمين في الشرق الأدنى في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلاد) تفكك دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢م) ، وهي الدولة التي سبق أن نفخت في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى روحا جديدة مكنت المسلمين من الصمود في وجه الروم ، بل مهاجمتهم في عقر دارهم . وكان أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة - وخاصة في بلاد الشام والعراق — ظهور عدد

كبير من البيوت الحاكمة . لا تجمعها رابطة إلا الانتساب إلى البيت السلجوقي الكبير ، ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أطلق عليها اسم اتابكيات . وعلى أصحابها اسم أتابكة ، وبعض هذه الوحدات صغيرة جداً لا تتعدى حدودها أسوار مدينة أو قلعة واحدة[1] .

ومن أبرز تلك الأتابكيات أتابكية دمشق – ومؤسسها ظهير الدين طغتكين وقد استمرت من سنة ٤٩٨ حتى ٥٤٩ هـ (١١٠٤ — ١١٥٤)[2] . أما أتابكية الموصل فمؤسسها عماد الدين زنكي ؛ وقد استمرت من سنة ٥٢١ حتى سنة ٦٦١ هـ (١١٢٧ — ١٢٦٢ م) .

وإلى زنكي هذا ترجع البذور الأولى للجبهة الإسلامية المتحدة في الشرق الأدنى ، لأنه كان يحمل تقليداً من سلطان السلاجقة بحكم حلب فضلا عن الموصل ، ومعنى ذلك أن نفوذه امتد من شمال العراق إلى شمال الشام . وكان زنكي يتطلع إلى إتمام الجبهة الإسلامية عن طريق ضم الإمارات الإسلامية المجاورة – وبخاصة أتابكية دمشق – لولا قتله المفاجيء سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م) بعد سنتين من استيلائه على الرها من الصليبيين[3] .

ولكن نور الدين محمود – ابن عماد الدين زنكي – حمل الأمانة . واستولى على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ومن ثم أخذ يتطلع إلى مصر لتمتد الجبهة الإسلامية المتحدة من الفرات إلى النيل[4] .

ولم تلبث أن غدت مصر – كما سنرى بالتفصيل بعد أسطر قليلة –

---

(١) أتابك لفظ تركي معناه « مربي الملك » . فكان آل سلجوق إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضفوا عليه هذا اللقب إمعانا في تكريمه .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية . ج ١ ص ١١ .

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق . ص ٢٨٤

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر . ص ١٠٧ . الكامل في التاريخ . حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

ميدانا لصراع طويل بين قوات نور الدين محمود وقوات الصليبيين ، فى الوقت الذى كانت الخلافة الفاطمية نفسها لا تقوى على مجرد الحركة . وهذا يتطلب منا إلقاء نظرة سريعة على موقف الصليبيين — الذين استقروا فى بلاد الشام — من مصر وأرض النيل .

مصر والحروب الصليبية:

ترتب على الحركة الصليبية التى بدأت فى أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر للميلاد) نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الشرق والغرب جميعاً ، ويهمنا من هذه النتائج فى دراستنا هذه ما يرتبط بالجانب السياسى . ذلك أن الأوضاع السياسية فى البلدان الإسلامية فى الشرق الأدنى تعرضت لتغييرات وتطورات سريعة منذ وصول الصليبيين إلى الشام ؛ وهذه التغييرات والتطورات إنما جاءت إلى حد كبير وليدة الخطر الصليبى . فالصليبيون أنفسهم قضوا على كثير من الأتابكيات والإمارات الصغرى التى كانت قائمة فى بلاد الشام عند وصولهم إلى تلك البلاد .

على أن انتصار الصليبيين على المسلمين فى الحملة الصليبية الأولى، ونجاحهم فى تأسيس إمارات فى الرها وأنطاكية وطرابلس ، فضلا عن مملكة بيت المقدس ، كان له أثره السيء ورد فعله العنيف فى العالم الإسلامى ، الأمر الذى استثار بعض الزعماء المخلصين فى المشرق الإسلامى ودفعهم إلى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين . ولم تلبث أن أدت حركة الجهاد فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر للميلاد) إلى بروز عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين محمود على مسرح التاريخ فى الشرق الأدنى . وسرعان ما اتضح أن نجاح حركة الجهاد الإسلامية لا يتحقق إلا فى ظل جبهة إسلامية متحدة ، توحد بين القوى الإسلامية المبعثرة بين النيل والفرات ، وتجعل من هذه القوى بنياناً مرصوصاً يستطيع الصمود فى وجه الخطر الصليبى . وكانت هذه الفكرة — فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة — هى المحـرك الأول الذى جعل

نور الدين محمود يتجه ببصره شطر مصر بعد أن تم له الاستيلاء على دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) وأصبح يسيطر على المدن الكبرى فى الشام مثل حلب ودمشق[١] . وسنتكلم فيما بعد عن تدخل نور الدين محمود فى شئون مصر ، لنوضح كيف انتهى ذلك التدخل بسقوط الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية . ولكن الذى نحب أن نؤكده الآن هو أن التطورات السياسية التى انتهت بقيام الدولة الأيوبية ، إنما جاءت نتيجة مباشرة من نتائج الحركة الصليبية .

والواقع إن الصليبيين لم يقلوا طمعاً فى ملك مصر عن نور الدين ؛ بل إن الصليبيين سعوا لإمتلاك مصر منذ الوقت الذى استقرت لهم الأمور فى فى بيت المقدس . من ذلك إن جودفرى دى بوايون — أول حكام دولة الصليبيين فى بيت المقدس — وضع مشروعاً للاستيلاء على مصر ولكنه توفى سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠م) قبل أن يبدأ فى تنفيذ مشروعه . وعندما خلفه أخوه بلدوين الأول . خرج هذا الملك الجديد سنة ٥١٠هـ(١١١٦ م) للقيام بحملة استطلاعية ، فوصل إلى أيله على شاطىء البحر الأحمر ، ثم اتجه إلى دير القديسة كاترينا فى شبه جزيرة سينا ؛ فرفض رهبان الدير أن يستضيفوه فى ديرهم خوفاً من السلطات الفاطمية فى القاهرة ، وعندئذ عاد واتجه نحو الفرما واستولى عليها ونهبها ، ثم تقدم إلى تنيس على شاطىء بحيرة المنزلة حيث مرض وتوفى بالعريش وهو فى طريق عودته سنة ٥١٢ (١١١٨ م)[٢] .

ومنذ ذلك الوقت لم يتخل الصليبيون عن فكرة الإستيلاء على مصر ، حتى كان منتصف القرن السادس الهجرى (الثانى عشر للميلاد) عندما رأى نور الدين محمود أن الجبهة الإسلامية المتحدة لاتستدير حلقتها وتكتمل

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٦٦٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركه الصليبية ، ج ١ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

إلا بالاستيلاء على مصر بالذات، الأمر الذى جعل من مصر ميداناً رئيسياً فى الصراع بين نور الدين محمود والصليبيين .

وفى أوائل سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢م) توج عمورى الأول ملكا على مملكة بيت المقـــدس الصليبية؛ فكان ذلك بداية مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات بين الصليبيين ومصر . ذلك أن عمورى الأول اتصف بالشجاعة والجرأة والدهاء ، وهى صفات أجمع على وصفه بها المؤرخون المعاصرون من المسلمين والمسيحيين سواء[1]. وقد أدرك عمورى أن سيطرة نور الدين محمود على حلب وحماه وحمص ودمشق قد حالت دون توسع الصليبيين فى شمال الشام . وأن الطريق الطبيعى الذى بقى مفتوحاً أمام الصليبيين هو طريق مصر .

وكانت الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت تقاسى آلام الموت البطىء ؛ بعد أن انحلت الخلافة وفقدت هيبتها واختلت أحوال مصر الداخلية . ولا أدل على انحلال الدولة الفاطمية عندئذ من نهاية كثير من الخلفاء بالقتل فضلا عن تحكم الوزراء العظام فى شئون الدولة والخلافة جميعاً . وقد حدث أن مات الخليفة الظافر مقتولا سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، فاستبد بالأمور فى مصر الوزير طلائع بن رزيك — الأرمنى الأصل . وكان الخليفة الفائز — ابن الظافر — طفـــلا صغيراً لا يمتلك من الخلافة إلا لقبها . وعندما توفى الفائز وهو فى الحادية عشر من عمره سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) أقام طلائع فى الخلافة الخليفة العاضد الذى كان هو الآخر صغيراً فى السن ، مما مكن الوزير من اللهو بالخلافة واستعراض المرشحين لها « استعراض الغنم » على حد قوله[2] . ولم يلبث أن أحس الخليفة العاضد بثقل ذلك

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٦٤ هـ .
Grousset: Hist. des Croisades, II, pp. 438-442.

(٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

الكابوس . فدبر مؤامرة مع الأمراء لقتل بن رزيك وبحت المؤامرة سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ، فخلف ابن رزيك فى منصب الوزارة ابنه العادل ، حتى قتله شاور حاكم الصعيد وتولى الوزارة بدله سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) . ثم كان أن استبد شاور وساءت سيرته ، فخرج عليه ضرغام واشتد التنافس بين الرجلين ، فى الوقت الذى أخذ عمورى الأول ملك بيت المقدس يتطلع لغزو مصر .

وقد قام عمورى بغزو مصر سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) فوصل إلى بلبيس وحاصرها ، ولكن ضرغام أرغمه على الانسحاب ، فى الوقت الذى كان شاور قد لجأ إلى نور الدين محمود بالشام ، وأطمعه فى الديار المصرية[1] . وكانت غزوة عمورى لمصر قد أفزعت نور الدين لأنها كشفت عن نيات الصليبيين فى امتلاك وادى النيل ؛ ولذلك رأى نور الدين أن يسرع بإرسال جيوشه إلى مصر حمايتها من السقوط فى أيدى الصليبيين .

وقد أرسل نور الدين حملته الأولى إلى مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبته شاور وصلاح الدين — ابن أخى شيركوه — وكان فى السابعة والعشرين من عمره . وهنا استنجد ضرغام بالصليبيين ، وتعهد لعمورى الأول — مقابل مساعدته — أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين[2] . ولكن مهارة شيركوه وسرعته فى قطع الصحراء رغم تقدم سنه جعلته يسبق الصليبيين فى الوصول إلى الدلتا ؛ فانتصر على جيش أرسله ضرغام ، ونجح فى الوصول إلى القاهرة فى بداية مايو سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) ولم يلبث أن تخلى عن ضرغام جميع الأعوان والناس والجيش والخليفة ، فقتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة[3] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٦ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦١٣ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين سنة ٥٥٩ هـ .

على أن شاور لم يرع العهود التى قطعها على نفسه لنور الدين ، فلم يكد يتولى الوزارة حتى تنكر لأسد الدين شيركوه وطلب منه الخروج من مصر . وقد رد شيركوه على تصرفات شاور غير الودية باحتلال بلبيس والشرقية ، مما جعل شاور يحاكى سلفه ضرغام ، فاستنجد بالصليبيين ووعد عمورى الأول بإعطائه مبلغاً كبيراً من المال مقابل مساعدته . وسرعان ما حضر عمورى الأول على رأس جيش صليبى كبير إلى الدلتا ، وعندئذ أخذ شيركوه يقوى مركزه فى بلبيس بعد أن تلقى مساعدات من عرب كنانة بالشرقية . وعندما أخذت جيوش عمورى وشاور تحاصر شيركوه فى بلبيس ، تم الاتفاق على أن يغادر شيركوه وعمورى مصر . وتم ذلك فعلا فى أواخر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) . وربما كان عمورى الأول أكثر تلهفاً على العودة إلى الشام بعد أن انتهز نور الدين محمود فرصة غيابه وشدد هجماته على الصليبيين .

عودة شيركوه إلى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧م) :

ولكن إذا كانت جيوش نور الدين والصليبيين قد انسحبت جميعها من مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤م) إلا أن الطرفين خرجا من تلك التجربة بفكرة واضحة عن ثروة مصر وغناها مع ضعفها الشديد . وتتفق المراجع العربية فى أن شيركوه لم يغادر مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) إلا مكرها وأنه ما فتىء يذكر مصر عقب عودته إلى بلاد الشام ويرجو أن يعود إليها مرة ثانية[1] . ولكن نور الدين محمود كان حريصاً دائماً على عدم تشتيت قواته ، فى الوقت الذى كثرت الاشتباكات بينه وبين الصليبيين بالشام .

ولا يخفى علينا أن هناك سبب قوى ربما حرك عند نور الدين الرغبة فى غزو مصر ، وأعنى بذلك العامل المذهبى . ذلك أن الخلافة الفاطمية فى

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٦٢ هـ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٣٤٨

مصر كانت مصدراً من مصادر الفرقة فى العالم الإسلامى، لأنها جعلت ولاء المسلمين فى الشرق الأدنى تتقاسمه خلافتان ومذهبان: إحداهما الخلافة العباسية السنية فى بغداد والأخرى الخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة. لذلك كان من الطبيعى أن تتجه نور الدين — وهو الحاكم السنى الحريص على تدعيم الجبهة الإسلامية المتحدة وجعلها تمتد من النيل إلى الفرات — إلى التفكير فى القضاء على الخلافة الفاطمية فى القاهرة.

وكان أن أتيحت الفرصة مرة أخرى لنور الدين محمود عندما أرسل إليه الخليفة العاضد الفاطمي يشكو من استبداد شاور وظلمه. ولم يكن نور الدين فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد شاور، إذ كان فى قلبه منه «حزازات لكونه غدر بأسد الدين شيركوه، واستنجد عليه بالفرنج»[1] لذلك بادر نور الدين بإرسال حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م)، وكان بصحبة شيركوه فى تلك المرة أيضاً ابن أخيه صلاح الدين. ويبدو أن شيركوه عمل حسابا لاستنجاد شاور بالصليبيين، فلم يشأ أن يغامر بقواته فى القيام بهجوم على القاهرة، واختار أن يعبر النيل إلى الجيزة حيث عسكر فى مواجهة الفسطاط على الضفة الغربية للنيل، وعندئذ أخذ الخليفة الفاطمى يدرك أن خطر قوات نور الدين عليه وعلى خلافته لا يقل عن خطر شاور والصليبيين. وقد صح ماتوقعه شيركوه، إذ استنجد شاور بعمورى الأول ملك بيت المقدس الذى أسرع فى نهاية سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) ليغزو مصر بجيوشه للمرة الثالثة. وعندما علم شاور بوصول حلفائه خف لاستقبالهم عند بلبيس واتجه معهم حيث عسكروا على الضفة الشرقية للنيل، فى حين كان شيركوه لا يزال معسكراً على الضفة الغربية. وفى هذه المرة أراد الصليبيون أن يعقدوا اتفاقية مع شاور تضمن لهم أجرهم

(١) أبو المحاسن: النجوم ج ٥ ص ٣٤٨.

قبل أن يساعدوه فى محاربة شيركوه ، فتعهد لهم شاور بدفع أربعمائة ألف دينار فى حالة بقائهم حتى طرد شيركوه من مصر ، على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدماً[١] . ومن الواضح أن هذه الاتفاقية جعلت من الصليبيين حماة مصر والخلافة الفاطمية . ولذلك رحب بها الصليبيون ، وحرص عمورى الأول على إعطائها صفة رسمية . فأرسل سفارة إلى الخليفة الفاطمى زارته فى قصره حيث تم اعتماد الاتفاق .

ولم تلبث أن أخذت قوات عمورى وشاور تستعد لعبور النيل لمهاجمة شيركوه ، بل أنهم عبروا فعلا إلى جزيرة الروضة ، وعندئذ أدرك شيركوه حرج موقفه فاتجه إلى الصعيد حيث لحق به عمورى الأول وشاور . وكان أن دارت معركة بين الطرفين قرب الأشمونين فى المنيا ، وهى معركة البابين ٥٦٢ ﻫ (مارس ١١٦٧ م) التى اشترك فيها صلاح الدين ، والتى انتهت بانتصار شيركوه وارتداد عمورى حيث عسكر على الضفة الشرقية للنيل قرب الفسطاط[٢] . وكان من المحتمل أن ينجح شيركوه فى امتلاك القاهرة لو اقتفى أثر عمورى فى الحال ، ولكنه تباطىء وآثر أن يسير على الضفة الغربية للنيل ليحتل الاسكندرية التى « تلقاه أهلها طائعين » ورحبوا به معبرين عن استيائهم من تحالف شاور مع الصليبيين[٣] .

ويبدو أن شيركوه خاف أن يحصره الصليبيون ومعه جميع قواته داخل الاسكندرية ، فترك صلاح الدين فى الاسكندرية ترافقه قوة صغيرة ، فى حين اتجه شيركوه نفسه إلى الصعيد وسيطر عليه . وقد حدث ما توقعه شيركوه إذ خرج عمورى لحصار صلاح الدين بالاسكندرية ، فساءت حالة المدينة

---

(١) Schlumberger: Campagnes du Roi Amoury I. p. 116.

(٢) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية Rec. Hist. Cr. II, pp. 231-239

(٣) أبو شامة : الروضتين ص ١٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٣٤٩ .

وقل الطعام بها حتى تحرج موقف صلاح الدين الذى لم يكن معه أكثر من ألف جندى. وقد أرسل صلاح الدين إلى عمه بالصعيد يشرح له سوء موقفه، ويطلب منه النجدة العاجلة، فاضطر شيركوه إلى العودة شمالا فى أواخر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م). ويبدو أن شيركوه أدرك فى تلك المرحلة حرج موقفه، فأرسل إلى الصليبيين يطلب الصلح، وتم الاتفاق - مثل المرة السابقة - على تبادل الأسرى، وعلى أن يترك الطرفان مصر لينعم بها شاور من جديد.

وليس هناك من شك فى أن الذى شجع عمورى على قبول طلب الصلح هو إحساسه بسوء موقف الصليبيين بالشام فى ذلك الوقت، تحت ضغط هجمات نور الدين محمود. ولكن إذا كان عمورى قد غادر مصر فعلا، فإنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن حقق نوعا من السيادة الصليبية على شاور وعلى الخلافة الفاطمية جميعاً. وأهم مظاهر هذه السيادة هى تعهد الفاطميين بدفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار، وبقاء قوة صليبية تحمى أبواب القاهرة، فضلا عن تعيين شحنة (مندوب) للملك الصليبى فى القاهرة يكون له رأى مسموع فى شئون الحكم[1].

استيلاء نور الدين على مصر :

على أنه إذا كان عمورى الأول قد خرج من مصر مضطراً سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) فليس معنى ذلك أنه تخلى عن فكرة الاستيلاء عليها، لا سيما وأن تردد الصليبيين على مصر فى المرات السابقة أدى إلى أن «اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها»، على قول المؤرخ أبى المحاسن[2]. وقد أدرك عمورى الأول أنه فى حاجة إلى مساعدة قوة خارجية تمكنه من الاستيلاء على مصر، فتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية، وتم الاتفاق على أن تقوم

---

(١) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية (Rec. Hist. Cr. II, pp. 240-246)

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٣٥٠ .

القوات الصليبية البيزنطية بغزو مصر . ويبدو أن الامبراطور البيزنطي كان مشغولا في البلقان عندئذ ، فطلب إمهاله بعض الوقت لينفذ اتفاقيته مع عموري ضد مصر ، ولكن عموري لم يشأ الانتظار وانفرد بالهجوم على أرض النيل . أما السبب الذي جعل عموري يسرع بالهجوم ، فكان تنكر شاور لالتزاماته للصليبيين وعدم وفائه بتعهداته ، بل إن شاور اضطر تحت ضغط الرأي العام الإسلامي إلى أن يقلب سياسته رأساً على عقب ، فاتصل بنور الدين محمود طالبا مساعدته للتخلص من الحماية الصليبية [1] .

وعندما غزا عموري مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) لمس انقلاباً كبيراً في موقف السلطات الحاكمة ، إذ قاومته بلبيس واضطر إلى استخدام العنف للاستيلاء عليها ، ثم تقدم مسرعا صوب القاهرة . وكان أن لجأ شاور حرج موقفه واستياء الناس من سياسته فأحرق الفسطاط في نوفمبر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) وبدأ يعد العدة للدفاع عن القاهرة .

ولم يلبث أن أدرك عموري صعوبة الاستيلاء على مدينة كبيرة معادية مثل القاهرة ، فتراجع عنها بعد أن دفع له شاور مائة ألف دينار ، واتجه الصليبيون إلى جهة سرياقوس حيث سمعوا باقتراب جيوش نور الدين محمود بقيادة شيركوه .

وكانت خطة عموري تتجه إلى مباغتة جيوش شيركوه عند فاقوس وهي متعبة ، قبل أن تتمكن هذه الجيوش من الاتحاد مع القوات المصرية . ولكن هذه الخطة انهارت من أساسها عندما علم عموري أن شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة حيث رحب به الأهالي والتفوا حوله لحمايتهم من الصليبيين . وهكذا لم يجد عموري في تلك المرة حليفاً يعتمد عليه في مصر ، إذ اتحد المسلمون جميعاً ضده ، فلم يبق أمامه سوى أن ينسحب فوراً عائداً إلى فلسطين في يناير سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) ومعه رجاله « خائبين مما أملوه » [2] .

---

(١) أبو شامه : كتاب الروضتين .

(٢) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٦٤ هـ ، تاريخ الدولة الأتابكية p. 250 .

أما شيركوه فقد ، فقد فرح به أهل مصر ، واستقبلوه استقبال البطل المخلص عند وصوله إلى القاهرة. وسرعان ما استدعاه الخليفة العاضد الفاطمي وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور ، وأخذ أرباب الدولة يترددون عليه لقضاء حوائجهم . وكان من الطبيعي أن يحس شاور بخطر شيركوه ، لاسيما بعد أن رأى تأييد الخليفة العاضد له . لذلك أرسل شاور مرة أخرى إلى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويطلب منهم الحضور إلى مصر عن طريق دمياط [1] . بل إن شاور دبر مؤامرة للقبض على شيركوه وأمرائه وقتلهم جميعاً أثناء وليمة يولمها لهم . وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لشيركوه ، فلما أرسل له الأخير يطلب منه الوفاء بوعده ، أخذ يماطل لكسب الوقت ، انتظاراً لوصول الصليبيين لنجدته . وأخيراً اجتمع أعيان مصر وقالوا لشيركوه إن « شاور سبب فساد البلاد والعباد » وطالبوا بقتله وإنقاذ المسلمين من شره [2] .

وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور وولده الكامل في يناير سنة ١١٦٩م (٥٦٤ هـ) وشارك الخليفة الفاطمي نفسه في التخلص منه . أما شيركوه فقد دخل على رأس قواته — وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين — القاهرة دخول الظافرين ، حيث أباح الناس نهب قصر شاور . على أن شيركوه لم يلبث أن توفي بعد شهرين (مارس ١١٦٩ م) فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين [3] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥١ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٠ — ٧٠١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل سنة ٥٦٤ هـ

ظهور صلاح الدين :

كان جيش شيركوه فى مصر يضم جماعة من أكابر الأمراء النورية الذين تطلعوا جميعاً إلى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه ، ولكن المراجع المعاصرة تؤكد أن الخليفة العاضد الفاطمى أصر على اختيار صلاح الدين الوزارة ، ولما تمنع «ألزم به وأحضر إلى القصر وخلعت عليه خلع الوزارة» وربما ظن العاضد الفاطمى أن صغر سن صلاح الدين وعدم خبرته ستجعله أداة سهلة فى يد الخليفة ، يستعين به فى القضاء على بقية أمراء نور الدين فى مصر ، وبذلك يكون قد تخلص من نفوذ نور الدين وخطر شاور جميعاً[1] .

ولكن صلاح الدين لم يكد يتولى الوزارة حتى خيب ظن الخليفة الفاطمى ، فشرع فى استمالة الناس إليه بما بذله من أموال كان شيركوه قد جمعها ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وضعف أمر العاضد ، ثم أن صلاح الدين أخضع مماليك شيركوه وسيطر سيطرة تامة على الجند ، فى الوقت الذى أمده نور الدين محمود بقوة جديدة من العسكر فيها شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين . وبفضل ذلك كله تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة الجند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمـــد عليه الخليفة العاضد الفاطمى[2] .

وكان البلاط الفاطمى فى ذلك الوقت مركزاً لكثير من الفتن والمؤامرات ، ولا يحجم رجاله عن الاستعانة بالأعداء فى سبيل تحقيق مصالح خاصة مؤقتة . من ذلك أن رئيس بلاط قصر الخليفة العاضد — وكان خصياً نوبياً اسمه مؤتمن الخلافة — استاء من صلاح الدين عندما ثقلت وطأته على أهل القصر ، فدبر مؤامرة للخلاص منه ، وحاول أن يتصل بعمورى الأول والصليبيين

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٦ — ٧٠٧ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٧٤ (مطبوع) .

للحصول على معونتهم. ولكن رسالة مؤتمن الخلافة إلى عمورى وقعت فى يد صلاح الدين ، الذى رأى أن يستأصل الشر من جذوره ويقضى على أية محاولة للعودة إلى سياسة ضرغام وشاور ، فقتل مؤتمن الخلافة فوراً فى ٢٠ أغسطس سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ)[1] .

ثم لجأ صلاح الدين إلى ابعاد جميع الخدم (الخصيان) السودان عن قصر الخلافة الفاطمية ، الأمر الذى أثارهم، فقاموا بثورة كبيرة فى الفسطاط بعد أن تجمعوا فبلغ عددهم خمسين ألفاً . وقد اضطر صلاح الدين لإخماد هذه الثورة إلى إشعال النار فى محلتهم التى اعتصموا فيها ، فطلبوا الأمان فى أواخر أغسطس سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) وانتقلوا إلى الجيزة على الضفة الغربية للنيل . ولكن صلاح الدين أرسل إليهم أخاه توران شاه فى طائفة من العسكر « فأبادهم بالسيف »[2] . وكذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الأرمن ، إذ أشعل النار فى ثكناتهم وقبض عليهم حتى لا يعطيهم فرصة للقيام بما قام به السودان . وبذلك قضى صلاح الدين على عناصر الخيانة ، وأدب القوى التى حاولت الوقوف فى وجه آماله ومشاريعه . ولم يبق أمام صلاح الدين إلا كبار الإقطاعيين وملاك الأراضى الذين دفعهم الحرص على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة إلى مساندة الأوضاع القائمة ، فتخلص صلاح الدين من هؤلاء أيضاً وأحل محلهم فى اقطاعاتهم جماعة من رجاله من أهل الشام .

على أنه يلاحظ أن صلاح الدين قام بأعماله السابقة فى ذلك الدور بوصفه نائباً عن نور الدين محمود ، لا باسم الخليفة الفاطمى بوصفه وزيراً له . وبعبارة أخرى فإن صلاح الدين استطاع حتى تلك المرحلة أن يحتفظ بعطف نور الدين وعدم إثارة مخاوفه نتيجة الخطوات السريعة الناجحة التى دعم بها

---

(١) ابن الأثير: الكامل: حوادث سنة ٥٦٤ هـ ؛ أبو شامة: كتاب الروضتين ص ١٧٨ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ (مطبوع) .

سلطانه فى مصر . والواقع إن صلاح الدين كان لايستطيع بأى حال أن يستغنى عن معونة سيده نور الدين فى ذلك الدور المبكر من كفاحه ، لاسيما وأنه واجه صعاباً عديدة داخل مصر فى الوقت الذى أخذ الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية للبلاد[1] .

الصليبيون ومهاجمة مصر :

ومن الواضح أن نجاح قوات نور الدين محمود فى السيطرة على مصر أثار فزع الصليبيين بالشام بعد أن أحسوا بوقوعهم بين شقى الرحى . هذا إلى أن سيطرة قوات نور الدين على القواعد البحرية فى شمال مصر — وبخاصة دمياط والاسكندرية — كان من شأنها أن تسلب الصليبيين سيادتهم البحرية على الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط .

وعندما فشل عمورى الأول ملك بيت المقدس فى الحصول على معونة سريعة من غرب أوربا ، اتجه صوب الامبراطورية البيزنطية طالباً عقد تحالف بين القوتين لغزو مصر واقتسامها[2] . وكان أن أعد الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين أسطولا كبيراً غادر الدردنيل فى يوليو سنة ١١٦٩م(٥٦٤هـ) قاصداً قبرص ومنها إلى صور ثم عكا للاتفاق مع الصليبيين على الخطة المشتركة لغزو مصر .

وقد تم الاتفاق فى هذه الخطة على غزو مصر براً وبحراً عن طريق دمياط . فأقلع الأسطول البيزنطى صوب دمياط ، فى حين زحف الصليبيون براً فى أكتوبر سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) من عسقلان إلى الفرما قاصدين دمياط « ومعهم المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار »[3] ؛ فى حين

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٩ .
(٢) Guillaume de Tyr (R. Hist. Cr. II, p. 961).
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٠ (مطبوع) .

وقف الأسطول البيزنطي عاجزاً عن دخول الميناء بسبب المآصر ، وهي السلاسل الحديدية الممتدة في الماء بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء.

وعندما علم صلاح الدين بتحركات الصليبيين ، ظن في أول الأمر أنهم سيقصدون القاهرة عن طريق الشرقية ، كما فعل عموري في حملاته السابقة . لذلك أسرع صلاح الدين إلى تحصين بلبيس والقاهرة فضلا عن الاسكندرية وغيرها من المراكز الأمامية . فلما اتجهت الحملة إلى دمياط وجد صلاح الدين نفسه في موقف حرج ، لاسيما وأنه كان يخشى باستمرار نشوب ثورة ضده في الداخل نتيجة للاستياء من سياسته تجاه خصيان القصر والجند السودان.

ومع ذلك ، فإن صلاح الدين ثبت للموقف وطلب النجدة العاجلة من نور الدين « فسير نور الدين العساكر إليه أرسالا يتلو بعضها بعضاً »[1] . وفي الوقت نفسه كان تقي الدين عمر — ابن أخي صلاح الدين — وخاله شهاب الدين ، قد استطاعا دخول دمياط ؛ فواصل صلاح الدين إرسال الإمدادات إليها عن طريق النيل ، مما جعل حصار الصليبيين للمدينة غير تام . هذا إلى أن أهل دمياط المحاصرين استغلوا جريان تيار النيل من الجنوب إلى الشمال وأطلقوا على سطح الماء أواني فخارية بها مواد مشتعلة ، أنزلت أبلغ الضرر بالأسطول البيزنطي ، فاضطر إلى الابتعاد عن لسان النيل والمدينة[2] .

ولم يلبث أن نفد تموين الأسطول واشتد القلق بعموري نتيجة الأخبار التي بلغته عن ازدياد هجمات نور الدين على الصليبيين بالشام . لذلك رفع عموري الحصار عن دمياط ، وعاد ومعه جيوشه إلى عسقلان في أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) تراتقهم خيبة الأمل ، في الوقت الذي

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr. II, p. 368).

لم يستطع بحارة السفن البيزنطية التحكم فيها بسبب اشتداد الرياح، مما أدى إلى غرق كثير منها .

ولا شك في أن فشل هذه الحملة الصليبية البيزنطية أدى إلى تدعيم مركز صلاح الدين في مصر ، وجعل الخلافة الفاطمية تفقد آخر أمل تبقى لها في التخلص من قبضته القوية . وكان أن أرسل الخليفة العاضد الفاطمي — عقب انسحاب الصليبيين — إلى نور الدين، يرجوه سحب جنده الأتراك من القاهرة بحجة أنهم بثوا الرعب في قلوب أهلها . ولكن نور الدين أرسل إليه يعتذر عن عدم إجابته إلى طلبه ، ويوضح له أن بقاء أولئك الجند أمر ضروري لحماية مصر من خطر الصليبيين[1] .

سقوط الخلافة الفاطمية :

وفي الوقت الذي شدد نور الدين محمود هجماته على الصليبيين بالشام، كما استولى على الموصل سنة ٥٦٦هـ (١١٧١م) ، كانت هناك مشكلة كبرى لها خطورتها تتعلق بالنور الدين وصلاح الدين جميعاً . وأعني بهذه المشكلة — التي تطلبت حلا سريعاً حاسماً وضع الخلافة الفاطمية الشيعية تحت حماية قوة كبرى تدين بالمذهب السني . فنور الدين محمود كان سنياً ، وازدادت علاقته قوة بالخلافة العباسية وتقديرها له عقب استيلائه على الموصل[2] . أما صلاح الدين في مصر فلم يكن أقل تحمساً للمذهب السني لأنه كان شافعياً مخلصاً، مما دفعه — منذ أن استتبت له الأمور في مصر — إلى العمل على تدعيم المذهب السني في البلاد . هذا كله والخليفة الفاطمي في قصره عاجز عن مقاومة الوضع الجديد . ومع ذلك يبدو أن صلاح الدين ظل متخوفاً من

---

(١) أبو شامه : كتاب الروضتين ج ١ ص١٨١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

الإقدام على الخطوة الكبرى الخاصة بإسقاط الخلافة الفاطمية . كما يبدو أن تخاوف صلاح الدين لم يكن مرجعها قوة الشيعة فى مصر ، بقدر ما كان التخوف من نوايا نور الدين . ذلك أن صلاح الدين أخذ يحس فى ذلك الدور بتغير شعور سيده نور الدين نحوه ، وأنه بات يحسده على مكانته فى مصر ، ويعمل حساباً لازدياد نفوذه فى وادى النيل ، ولذلك رأى صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية فى صورتها الشكلية ليستطيع أن يستغلها عند الحاجة ، إذا تأزم الموقف بينه وبين نور الدين[1] .

وكان أن أخذ صلاح الدين يماطل سيده نور الدين عندما طلب منه الأخير القضاء على الخلافة الفاطمية تحقيقاً للوحدة المذهبية فى العالم الإسلامى . ولكن نور الدين لم يعد يحتمل المماطلة ، فأرسل إنذاراً نهائياً فى صيف سنة ١١٧١ م (٥٦٦ هـ) إلى صلاح الدين يأمره بإحلال اسم الخليفة العباسى المستضىء محل اسم الخليفة الفاطمى العاضد فى خطبة الجمعة « وألزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه »[2] .

وهكذا اضطر صلاح الدين إلى اتخاذ تلك الخطوة الخطيرة ، فتم الدعاء فى أول جمعة من عام ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١) للخليفة العباسى المستضىء أمير المؤمنين ، وحدث الانقلاب فى هدوء دون أن « ينتطح فيه عنزان » على قول ابن الأثير[3] ؛ ويقال أن الخليفة العاضد الفاطمى توفى بعد ذلك الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع بزوال دولته وسقوط خلافته ، لأن صلاح الدين عندما علم بمرضه أمر بإخفاء الخبر عنه . وبعد ذلك اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات حاسمة للقضاء على آثار الخلافة الفاطمية فى مصر ؛ ومن

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠٠ (مطبوع) .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الاتابكية .(Rec. Hist. Cr., Tome II, p. 287) .

الكامل حوادث ٥٦٧ هـ .

ذلك ما يرويه المقريزى أنه نزع المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين[1].

ولاشك فى أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادى ، وإنما كان حدثاً خطيراً فى تاريخ العالم الإسلامى بوجه عام وفى تاريخ مصر بوجه خاص . فها هى دولة الفاطميين تنهار بعد قرنين من الزمان تقريباً ، لتعود للعالم الإسلامى وحدته المذهبية ، وتصبح الخلافة العباسية هى الخلافة الوحيدة التى يدين لها المسلمون بولائهم الروحى . لذلك لا عجب إذا أقيمت الاحتفالات فى بغداد تعبيراً عن شعور الفرح بذلك النصر الذى تحقق للخلافة العباسية ، بل إن الخليفة العباسى المستضىء أسرع بإرسال الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين ، ومعها الأعلام والرايات السود ، شعار العباسيين[2].

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٣ ، ٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤٦ .

الفصل الثانى

صلاح الدين وتأسيس الدولة الأيوبية

الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين :

ولم تلبث الوحشة أن دبت بين صلاح الدين وسيده نور الدين، عقب سقوط الخلافة الفاطمية سنة٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بسبب تحديد علاقة الطرفين بعضهما ببعض . لحتى سقوط الخلافة الفاطمية كان صلاح الدين يباشر سلطانه الفعلى فى مصر بوصفه وزيراً شرعياً للخليفة الفاطمى ، فضلا عن أنه كان ينفذ تعليمات نور الدين بوصفه نائباً عنه وقائداً لقواته فى مصر . ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة العاضد « صفا الوقت لصلاح الدين» على قول المؤرخ أبى المحاسن ، وصار يخطب باسمه على المنابر بعد الخليفة العباسى والملك العادل نور الدين محمود[1] .

ثم إن صلاح الدين لم يكتف بتوطيد نفوذه فى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر ، وإنما أخذ يفكر فى الاستيلاء على برقه طمعاً فى ثروتها .

وهكذا صار لزاماً على صلاح الدين فى ذلك الدور أن يحدد موقفه من نور الدين ويختار أحد طريقين ، فإما أن يظل على ولائه لنور الدين وفى هذه الحالة عليه أن يتقبل فى أية لحظة قرار نقله وإحلال غيره محله فى مصر ، وإما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته وفى هذه الحالة من الممكن أن تسلم له مصر إذا استطاع الدفاع عن كيانه ضد هجمات نور الدين[2]. ويروى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٢) ——— [illegible]

لنا ابن الأثير مثلا واضحاً لتخوف صلاح الدين من نوايا نور الدين فى ذلك الدور ، ويقول إن صلاح الدين خرج من مصر فى أواخر سبتمبر سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) — بناء على أوامر صدرت إليه من نور الدين — لمهاجمة حصن الشوبك . ولم تستطع حامية الحصن الصليبية الثبات فى المقاومة ، فطلبت إعطاءها مهلة عشرة أيام للتسليم . ولكن صلاح الدين لم يلبث — وهو أمام الشوبك — أن علم بمسير نور الدين إليه لمساعدته . وعندئذ خشى صلاح الدين أن يقبض عليه نور الدين إذا رآه ، فأسرع بالإنسحاب والعودة إلى مصر ، معتذراً بأن العلويين على وشك إشعال ثورة فى القاهرة مما تطلب سرعة عودته[1] .

على أن هذا السلوك لم يكن له سند قوى يبرره ، فاستاء نور الدين من مسلك نائبه فى مصر ، وعظم عليه ذلك ولم يقبل عذره . بل إن نور الدين أخذ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين ، الأمر الذى أخاف الأخير فعقد اجتماعا من أقاربه وبعض خاصته للتشاور فى الأمر . وفى ذلك الاجتماع استهل الحديث بعض الشبان المتحمسين — مثل المظفر تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين — فنادوا بصد نور الدين ومقاتلته . ولكن والد صلاح الدين — وهو الشيخ نجم الدين أيوب — تدخل بلباقة . فشتم أولئك المتهورين ، ثم نظر إلى صلاح الدين وقال « والله لو رأيت — أنا وخالك هذا — السلطان نور الدين ، لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه . ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ! . . . وهذه البلاد له وقد أقامك فيها نائباً عنه ، فإذا أراد عزلك فأى حاجة إلى المجىء ؟ يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولى البلاد من يريد »[2] . ثم طلب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

نجم الدين من ولده صلاح الدين أن يكتب إلى نور الدين ليعرب له عن ولائه ، ففعل ذلك وأرسل إليه هدية ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والأقمشة والمصنوعات والعطر[١] .

على أن صلاح الدين — مع ذلك — لم يتقاعس عن حماية مكاسبه التي حققها في مصر ، ولم يشأ أن يتخلى عن مطامعه، وإنما اختار أن يستعد لما عساه أن يحدث في المستقبل . وكان أن فكر صلاح الدين وأهله « في تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها ، تكون عدة لهم ، إن أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها »[٢] . لذلك أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه في أواخر سنة ١١٧٢م (٥٦٨ هـ) لفتح النوبة حتى تصبح مأوى الأيوبيين في حالة دخول نور الدين مصر . ثم اكتشف صلاح الدين أن بلاد النوبة فقيرة « قليلة الجدوى » فأرسل أخاه توران شاه إلى اليمن سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) حيث أخضعها وضمن تبعيتها لصلاح الدين .

بل إن ابن الأثير يبالغ فيذكر إن صلاح الدين حرص في ذلك الدور على عدم التوسع في حرب الصليبيين ليظلوا ستاراً يفصل بينه وبين نور الدين[٣] .

وإذا كان صلاح الدين قد قام بغزو أملاك الصليبيين في الكرك والشوبك سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) بناء على نصيحة والده ، فإن هذه الغزوة لم تطل ، بل على العكس أدت إلى تجدد الخلاف بينه وبين نور الدين . ذلك أن صلاح الدين لم يكد يحاصر حصن الكرك ، حتى عاد وتخوف من أن يغدر به نور الدين، الذي كان هو الآخر قد اقترب من الكرك فعلا . وهكذا لم يلبث صلاح الدين أن تحجج تلك المرة بمرض أبيه في مصر ، وأنه يخاف

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٩ هـ ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥٢ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية (Rec. Hist. Cr., II, p. 293).

أن يحدث عليه حادث الموت ، فعاد فوراً إلى مصر ، دون أن ينتظر وصول سيده نور الدين[1]. وفى تلك المرة كان صبر نور الدين قد نفد ، فصمم نهائياً على فتح مصر والقيام بعمل حاسم لتأديب صلاح الدين . ولكن بينما نور الدين يستعد للقيام بحملته على مصر ، إذ به يموت فى مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) وبذلك صار الميدان خالياً أمام صلاح الدين[2].

المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) :

استطاع صلاح الدين فى مدى فترة قصيرة أن يتخلص من الثورة التى اعترضت سبيله وسلطانه ، فقضى على الجند السودان ، ثم خلصه الموت من الخليفة العاضد الفاطمى وسيده نور الدين محمود . على أنه لم يكن معنى سقوط الخلافة الفاطمية من ناحية ، ووفاة نور الدين محمود من ناحية أخرى ، أن صلاح الدين قد غدا فعلا وارث القوتين الفاطمية والنورية ، وأن الأمور استقرت له نهائياً فى مصر والشام ، وإنما كان على صلاح الدين أن يواجه متاعب جمة من جانب أتباع الفاطميين فى مصر ، ثم من جانب ورثة نور الدين فى الشام ، حتى يستطيع أن يحقق وحدة إسلامية متينة فى الشرق الأدنى تمكنه من منازلة الصليبيين .

فمن ناحية مصر ، يلاحظ أنه إذا كانت الخلافة الفاطمية قد ماتت موتاً صامتاً فى ظاهر الأمر ، إلا أن المخلصين من الشيعة فى مصر لم يرضوا عن ذلك الانقلاب ، فضلا عن أنه وجد عندئذ عدد ضخم من أتباع النظام القديم ، الذين عز عليهم أن يسيطر على البلاد رجل قوى مثل صلاح الدين. ولم تلبث أن دبرت مؤامرة كبرى فى القاهرة سنة ٥٦٩ هـ (مارس —

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٠ وقد توفى نجم الدين أيوب فى ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ ولكن وفاته كانت بسبب سقوطه من فوق فرسه .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

ابريل ١١٧٤م) اشتركت فى حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد ، واتخذت ستاراً شيعياً يستهدف إحياء الخلافة الفاطمية وإعادتها إلى ماكانت عليه . أما زعماء هذه المؤامرة فكانوا الشاعر عمارة بن أبو الحسن اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى العوريس داعى دعاة الشيعة ، وابن عبد القوى ، فضلا عن عدد آخر كبير من أتباع الدولة الفاطمية من الموظفين وبقايا الجند السودان وخدم القصر الفاطمى ، وغيرهم[١] .

وعندما أدرك المتآمرون أنهم فى مسيس الحاجة إلى قوة خارجية تساعدهم فى تنفيذ مؤامرتهم ، اتصلوا بالإسماعيلية الباطنية (الحشيشية) وهى القوة الشيعية الكبرى بالشام ، وطلبوا منهم القيام بقتل صلاح الدين[٢] . ولم يكتف المتآمرون بذلك وإنما اتصلوا أيضاً بالصليبيين ، واتفقوا معهم على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر فى الوقت الذى يشعلون هم نار الثورة فى القاهرة والفسطاط ، وبذلك يقع صلاح الدين بين نارين[٣] . ثم أن المتآمرين اتصلوا كذلك بوليم الثانى النورمانى ملك صقلية ليهاجم أسطوله بالاسكندرية فى الوقت الذى يدهم الصليبيون مصر من ناحية الشرق . وهكذا دارت الاتصالات بين زعماء المؤامرة فى القاهرة من ناحية وبين ملكى بيت المقدس وصقلية من ناحية أخرى ووضعت جميع الترتيبات بحيث ، لم يبق إلا رحيل الفرنج ، على قول ابن الأثير[٤] .

وقبل أن يبدأ التنفيذ، أرسل عمورى الأول رسولا إلى القاهرة يحمل فى ظاهر الأمر تحيات الملك الصليبى لصلاح الدين ، ولكنه أتى فى الحقيقة ليرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين . أما وليم الثانى ملك صقلية فقد استجاب

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص٥٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص٢٤٩ .

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 311.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٦٩ هـ

للدعوة، وأعد أسطولا ضخما من ستمائة سفينة تحمل ما يقرب من ثلاثين ألف رجل[1]. وقد اختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه فى اليمن موعداً لتنفيذ مؤامرتهم، حتى لا يحل محل أخيه فى حالة مقتله، بل بلغ بثقة المتآمرين فى نجاح مؤامرتهم أنهم عينوا أعضاء الجهاز الحكومى الجديد « وعينوا الخليفة والوزير وتقاسموا الدور والأملاك »! بحيث لم يبق إلا التنفيذ[2].

ولكن الخيانة لم تلبث أن انكشفت وأحبطت المؤامرة قبل أن تولد. ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم فى سرهم الفقيه الواعظ زين الدين على ابن نجا الذى قام بإطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة أولا فأول. وفى الوقت نفسه وصل المبعوث الذى أرسله عمورى الأول إلى القاهرة محملا بالهدايا وعبارات الود لصلاح الدين، فانكشف أمره بعد قليل. أما صلاح الدين فلم يكد يتأكد من حقيقة المؤامرة حتى قبض على المتآمرين فوراً وصلب زعماءهم الشاعر عمارة اليمنى وعبد الصمد الكاتب والعويريس القاضى فى أبريل سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ)، فى حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد[3].

ثم أن صلاح الدين وجه جهوده بسرعة نحو إخماد ثورة أخرى قامت فى أسوان على حدود النوبة، أشعلها أحد قادة الفاطميين — واسمه كنز الدولة — الذى جمع حوله من أسوان بعض العناصر من الشيعة وغيرهم. وأوهمهم « أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية » ثم زحف بهم على قوص. ولكن الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه

---

(١) بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٠ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٤ .
(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

العادل سيف الدين استطاعت أن تقضى على أولئك الجند السودان قضاءاً مبرما فى أوائل سبتمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ)(١)

أما عمورى الأول ملك بيت المقدس ، فلم يكد يعلم بإنكشاف سر المؤامرة فى القاهرة وفشل خطته الموضوعة لغزو مصر حتى توفى مقهوراً فى يوليو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) فى بيت المقدس . ولم يلبث أن وصل أسطول صقلية فى ٢٨ يوليو من العام نفسه إلى الاسكندرية ليجد كل شيء قد انتهى ، وأن فشل المؤامرة من ناحية ووفاة عمورى الأول من ناحية أخرى جعلت غزو مصر غير ذى موضوع . ومع ذلك فإن رجال الحملة النورمانية حاولوا اقتحام الاسكندرية ، ولكن المسلمين صدوهم وأحرقوا بعضاً من سفنهم ، فى الوقت الذى قدم صلاح الدين مسرعا ومعه جيشه فهاجم النورمان ، وأغرق بعض سفنهم ، وأنزل بهم الهزيمة ؛ وبذلك اضطر النورمان إلى الإنسحاب يجرون أذيال الفشل والخيبة(٢) .

صلاح الدين وتأمين الوحدة الإسلامية :

جاءت وفاة نور الدين محمود فى منتصف مايو سنة ١١٧٤م (٥٦٩ هـ) خسارة كبرى للمسلمين ؛ لأن مشكلة تقسيم دولته الواسعة بين ورثته هددت الوحدة الإسلامية التى أجهد نور الدين نفسه فى بنائها . وكان الوريث الأول لنور الدين فى حلب ودمشق هو ابنه الملك الصالح اسماعيل ، الذى لم يتجاوز عمره عند وفاة أبيه الحادية عشرة . ولكن الملك الصالح اسماعيل هذا كان له ابن عم هو سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل الذى فرح بوفاة عمه نور الدين ، وأسرع إلى احتلال بعض المواقع بالجزيرة مثل نصيبين والخابور وحران والرها وغيرها(٣) .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٩ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣١ ، ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٧٠ هـ

(٣) ابن الاثير : الكامل : حوادث سنة ٥٦٩ هـ .

ثم أن المنازعات لم تقتصر على ما كان هناك بين ورثة نور الدين وبقايا البيت الزنكى فى الشام ، وانما امتدت إلى أمرائه ، فدب الخلاف بين أقوى اثنين من أمراء نور الدين ، وهما شمس الدين على بن الداية وشمس الدين محمد المعروف بابن المقدم . وكان سبب هذا الخلاف الوصاية على الملك الصالح اسماعيل ، فاحتل ابن الداية قلعة حلب بوصفها المركز الأول للدولة النورية ، فى حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح اسماعيل فى دمشق .

ولا شك فى أن هذه الخلافات هددت مركز المسلمين تهديداً خطيراً فى الشرق الأدنى ، فى الوقت الذى كان الصليبيون يتوعدون ويتحفزون . وهنا ظهر صوت ينادى بتحكيم صلاح الدين والالتفاف حوله ، بوصفه أقوى أمراء الدولة النورية والمتحكم فى ملك مصر بمواردها وثروتها وقوتها . ذلك أن القاضى كمال الدين الشهرزورى أشار على الأمير ابن المقدم وعلى بقية أمراء نور الدين بالرجوع إلى رأى صلاح الدين والانقياد له « فهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر » ولكن الأمراء الطامعين خشوا بأس صلاح الدين وخافوا أن يؤدي تدخله إلى أن يعصف بهم جميعاً ويضيف الشام إلى ملك مصر[1] .

أما صلاح الدين فقد صار لا سلطان لأحد عليه فى مصر ، وكان من الممكن أن يتدخل فى شئون الشام عقب وفاة نور الدين مباشرة ، لولا وصول الأسطول النورمانى إلى الاسكندرية مما أخره بعض الوقت . لذلك اكتفى صلاح الدين بأن أرسل إلى الشام يعلن حقه فى الوصاية على الصالح اسماعيل بن نور الدين وأملاكه . والواقع أن صلاح الدين كان يجد سنداً قوياً للتدخل بحجة حماية وحدة المسلمين ، فى الوقت الذى شرع الصليبيون

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣ (مطبوع) .

فعلا فى مهاجمة المدن والمعاقل الإسلامية فى الشام . ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة نور الدين محمود مدة قصيرة ، حتى شرع عموري الأول فى مهاجمة بانياس وحاول الإستيلاء عليها ، ولكن المدينة صمدت للحصار أسبوعين . وبدلا من أن يحاول الأمير ابن المقدم محاربة الصليبيين فإنه «راسلهم ولاطفهم» وعرض عليهم ترك بانياس مقابل مبلغ كبير من المال واطلاق سراح أسرى الصليبيين فى دمشق ، ثم محالفة الصليبيين ضد صلاح الدين وأطماعه المقبلة[1] .

وعندما علم صلاح الدين بذلك الاتفاق « استصغر أهل الشام وعلم ضعفهم » ، وأدرك أن الاتفاق والصلح مع الصليبيين موجهان ضده ، فأرسل إلى الملك الصالح اسماعيل ورجاله « يقبح ما فعلوه »[2] . ولم يطل الأمر حتى أدت الخلافات بين أمراء الدولة النورية إلى استنجاد بعضهم بصلاح الدين ، فجاءت هذه الدعوة بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الحروب الصليبية .

ذلك أن صلاح الدين خرج من مصر على رأس جيش من سبعمائة فارس ، بعد أن استخلف على مصر أخاه الملك العادل ، فوصل دمشق فى أواخر نوفمبر سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) ، دون أن يصطدم — لحسن حظه — بالصليبيين أثناء الطريق . وهنا نؤكد أن صلاح الدين عندما خرج إلى الشام عندئذ لم يستهدف مجرد تحقيق أطماع ومكاسب شخصية ، وإنما كان حريصاً على أن يسعى لتحقيق الوحدة الإسلامية ، فأعلنها فى صراحة « إنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم[3] » . وقد استقبل صلاح الدين فى دمشق استقبالا طيباً ، وفتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمها إياه .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣١ — ٢٣٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٨ (مطبوع) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨ (مطبوع) .

ولعل أهم ما يسترعى نظرنا فى ذلك الدور من تاريخ صلاح الدين ، أنه حرص على التظاهر بالولاء للصالح اسماعيل بن نور الدين ؛ فقال : « أنا مملوك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه[1] » . وتحت هذا الستار — ستار الولاء للصالح إسماعيل ورد أملاكه التى أخذت منه فى الجزيرة إليه — أخذ صلاح الدين ينفذ سياسته الخاصة بتدعيم الجبهة الإسلامية المتحدة وإعادتها إلى سابق عهدها ، حتى تمتد من الفرات إلى النيل .

وبعد أن استمال صلاح الدين قلوب الدماشقة بتوزيع الأموال والهبات ، غادر دمشق متجهاً شمالا ضد كمشتكين الذى استبد بالأمور فى حلب[2] . وقد بدأ صلاح الدين بالاستيلاء على حمص فى ديسمبر سنة ١١٧٤م (٥٧٠هـ) ثم على مدينة حماه فى أواخر الشهر نفسه .

أما حلب فقاومت صلاح الدين ورفضت الاستسلام ، بل إن أصحاب السلطان فيها أسرعوا إلى الاستعانة بالحشيشية والصليبيين . ولم يلبث سنان مقدم الباطنية أن أرسل إلى معسكر صلاح الدين جماعة من الفدائيين لقتله ، وأوشك هؤلاء على النجاح فى مهمتهم لولا انكشاف أمرهم . ولما فشل الباطنية فى قتل صلاح الدين ، أرسل الحلبيـــون إلى ريموند الثالث أمير طرابلس الصليبي يطلبون منه المساعدة ، ويعدونه بدفع الثمن إذا هو نجح فى تخليص حلب من حصار صلاح الدين . ويضيف ابن الأثير أن أمراء حلب طلبوا من أمير طرابلس الصليبي أن يهاجم بعض المراكز التى بيد صلاح الدين حتى يضطر إلى رفع الحصار عن حلب[3] .

وكان ريموند الثالث أمير طرابلس — والوصى على عرش مملكة

---

(١) ابن الاثير : الكامل سنة ٥٧٠ هـ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٧ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٤٠ ؛ ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٧٠ هـ .

بيت المقدس عندئذ — يدرك تماماً أهمية تحالف الصليبيين مع حلب ، كما أدرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب . لذلك أسرع ريموند الثالث إلى نجدة حلب ، والقيام بدور حامى الصالح اسماعيل بن نور الدين ، لا حباً له وخدمة لأمراء حلب — كما يقول المؤرخ الصليبي وليم الصورى — وإنما ليسد الطريق فى وجه صلاح الدين ويحول دون قيام وحدة إسلامية فى الشرق الأدنى[١] .

ويبدو أن ريموند الثالث حاول أولا الالتجاء إلى الوسائل السياسية ، ففتح باب المفاوضات مع صلاح الدين حول مسألة حلب ، ولوح له بأن الفرنج اتحدوا « وصاروا يداً واحدة » . ولكن صلاح الدين لم يخش ذلك التهديد ، وأرسل بعض قواته للإغارة على إمارة أنطاكية[٢] . وأخيراً لم يجد ريموند وسيلة لصرف صلاح الدين عن حلب سوى مهاجمة حمص التى كان صلاح الدين قد استولى عليها منذ أمد قريب . وإذا كان صلاح الدين قد اضطر إلى ترك حلب مؤقتاً فى أوائل فبراير سنة ١١٧٥م (٥٧٠هـ) لنجدة حمص ، فإنه عاد من جديد ليصطدم بالزنكيين الذين جمعوا قوات الموصل وحلب ضد صلاح الدين . وفى الموقعة التى دارت بين الطرفين عند قرون حماه فى أواخر أبريل سنة ١١٧٥م (٥٧٠هـ) انتصر صلاح الدين على الزنكيين ، ثم أتبع انتصاره بدخول حلب ، حيث أعلن عزل الصالح اسماعيل ، واتخذ لقب « ملك مصر والشام » . ولم يلبث الخليفة العباسى أن أقر الوضع الجديد ؛ وأرسل إلى صلاح الدين الخلع التى وصلته من حماه[٣] .

ولم يكن منتظرا أن يقبل الزنكيون ذلك الوضع فى سهولة ، فقام سيف

---

(١) Guillaume de Tyr (Rec. Hist. Cr., p. 1014).

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٩ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٨١ هـ .

الدين غازى صاحب الموصل بحركة تعبئة ضخمة ضد صلاح الدين ، واستعان من جديد بالصليبيين، وعلى رأسهم ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على عرش مملكة بيت المقدس. وفى الموقعة التى دارت عند تل السلطان — على الطريق بين حماه وحلب — فى أبريل سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) حلت الهزيمة بالزنكيين وحلفائهم وقتل منهم كثيرون، واستولى صلاح الدين على غنائم ضخمة[1] . وبعد ذلك ركز صلاح الدين جهوده فى الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرقى حلب ليقطع الصلة بينها وبين الموصل ، حتى تم الصلح مرة أخرى بينه وبين الحلبيين،فانصرف عن حلب فى صيف سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) .

أما الباطنية، فلم يكونوا أقل من الصليبيين هلعا بسبب انتصارات صلاح الدين وتوحيد بلاد الشام الإسلامية تحت سيادته . ولم يلبث أن حاول الباطنية اغتيال صلاح الدين مرة أخرى أثناء حصاره عزاز فى صيف سنة ١١٧٦ م (٥٧٢ هـ) ولكن محاولتهم باءت مثل سابقتها بالفشل . وكان لا بد لصلاح الدين من أن يثأر لنفسه من تلك الجماعة الهدامة ، فلم يكد يفرغ من الصلح مع الحلبيين حتى اتجه لحصار قلعة الباطنية فى مصياف وقتل كثيراً منهم ، ولم يتركهم إلا بعد أن شفع فيهم شهاب الدين الحارمى خال صلاح الدين[2] .

وهكذا تحالفت قوى الزنكيين والباطنية والصليبيين جميعاً ضد صلاح الدين فى ذلك الدور ليحولوا دون تحقيق الوحدة الإسلامية ، بين العراق والشام ومصر ، وهى الوحدة التى كانت تنذر دائماً بالقضاء على الحلفاء الثلاثة .

ويلاحظ فى ذلك الدور من أدوار تاريخ صلاح الدين أن جهوده

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٤٧ .

كانت موزعة بين ثلاث جبهات ، فهو يعمل ضد دعاة الانفصال من الزنكيين فى شمال الشام والعراق ، ويحاول أن يحقق وحدة قوية تمتد من النيل إلى الفرات لمواجهة الخطر الصليبى . وهو فى الوقت نفسه مضطر إلى الدخول فى مناوشات وحروب محلية ضد الصليبيين إما لإرهابهم أو لصد عدوانهم، لا سيما وأن الانفصاليين فى شمال الشام والعراق أعمتهم مصالحهم الشخصية عن رؤية الخطر الحقيق الذى يهدد الوطن العربى فى الشرق الأدنى، فلم يحجموا عن الاستعانة بالصليبيين ضد صلاح الدين . وأخيراً فقد كان على صلاح الدين ألا يغفل عن تحصين مصر والعمل على حمايتها بعد أن أثبتت التجارب أن الصليبيين أشد طمعاً فى مصر منهم فى الشام والعراق، وأنهم يحسبون حساباً كبيراً لإستيلاء صلاح الدين على مصر بالذات[1] .

ولعل هذا هو السبب فى أننا عند دراستنا لتاريخ صلاح الدين فى ذلك الدور نجده لا يكاد يحارب الانفصاليين عند حلب حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لصد خطر الصليبيين ، ولا يكاد يدخل مع الصليبيين فى حرب حتى يقبل عروضهم للهدنة ويسرع إلى مصر ، ولا يكاد يقيم بعض الوقت فى مصر يشرف على تحصينها حتى يبادر بالعودة إلى الشام . . . وسنؤجل كلامنا عن جهود صلاح الدين فى تحصين مصر من ناحية وفى محاربة الصليبيين من ناحية أخرى ، لنحرص على وحدة الموضوع و نوضح كيف كللت جهوده فى سبيل توحيد العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى بالنجاح .

اضطر صلاح الدين إلى عقد الصلح مع الحلبيين سنة ١١٧٦م (٥٧١هـ) كما رأينا ، ولكنه ظل فى قرارة نفسه يؤمن بأن أى عمل حربى واسع ضد الصليبيين يجب أن يسبقه ضم حلب والموصل وتوحيد الجبهة الإسلامية فى الشرق الأدنى . وإذا كان صلاح الدين قد شغل بعض الوقت بأمر الصليبيين

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٠ .

وأمر مصر ، فإنه لم ينس الموصل وحلب ؛ فخرج لحصار الموصل سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) ، ولكنه ، ألح فى القتال فلم ينل غرضا ، لأن عز الدين مسعود صاحب الموصل (١١٧٦ — ١١٩٢ م = ٥٧٢ — ٥٨٩ هـ) كان قد أعد عدته للحصار وحشد داخل مدينته عدداً ضخما من الرجال وكميات وافرة من الطعام والسلاح [١].

ويبدو أن صلاح الدين أخذ يشعر بالحرج لفشله فى الإستيلاء على الموصل ، ولذلك حاول أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، وأرسل رسالة إلى الخليفة يتهم فيها أتابك الموصل بالتحالف مع الصليبيين . على أن أتابك الموصل لم يهتز لجميع تلك المناورات ، بل لجأ إلى الاستعانة ببعض القوى الإسلامية المجاورة ، مثل صاحب أذربيجان وصاحب خلاط وغيرهما . أما الخليفة العباسى فقد اكتفى بأن سعى للوساطة بين صلاح الدين والزنكيين [٢]. ولكن المؤرخ أبا شامه يؤكد أن الزنكيين حالفوا الصليبيين عندئذ وطلبوا منهم مهاجمة دمشق لطرد صلاح الدين منها ؛ الأمر الذى يفسر اشتداد غارات الصليبيين على أعمال دمشق وحوران فى تلك الفترة . ولم تلبث هذه الهجمات الصليبية أن أثمرت فى تحويل نظر صلاح الدين عن الموصل ، فعاد إلى شمال الشام فى صيف سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ — ٥٧٩ هـ) [٣] .

وإذا كان صلاح الدين قد عاد من الجزيرة ليباشر نشاطه فى شمال الشام فإنه بدأ بحصار حلب . وهنا نجد أن عماد الدين زنكى الثانى أتابك حلب (١١٨٢ - ١١٨٣ م = ٥٧٨ — ٥٧٩ هـ) لم يكن له ما لأخيه عز الدين أتابك الموصل من شجاعة ودهاء ، فلم يكد صلاح الدين يحاصر مدينته حتى ارتبك ورفض

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٩ (مطبوع)

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

(٣) المرجع السابق .

أن يستنجد بالصليبيين أو حتى بأخيه عز الدين . وإذا كان الحلبيون انفسهم قد أظهروا مقاومة عنيفة فى ذلك الوقت ، إلا أن حاكمهم عماد الدين أخذ يفكر فى الفرار ، وأرسل إلى صلاح الدين سراً يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل إعطائه بلدة سنجار ، فوافق صلاح الدين على ذلك وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج ؛ وتمت الصفقة فى يونيو ١١٨٣م (٥٧٩هـ)(١).

ولاشك فى أن استيلاء صلاح الدين على حلب وتوابعها كان نصراً كبيراً لفكرة الجبهة الإسلامية المتحدة ، كما كان ضربة كبرى أحس بها الصليبيون ، واعترف بها مؤرخوهم(٢) .

وإذا كان صلاح الدين قد شغل عقب الاستيلاء على حلب بأمر الصليبيين فإنه لم ينس الموصل ، فعاد إلى حصارها للمرة الثانية ١١٨٥ م (٥٨١ هـ) . ثم ترك صلاح الدين حصار الموصل مؤقتاً ليستولى على ميافارقين . ويقال إن المواصلة انتهزوا فرصة مرض صلاح الدين فى تلك السنة ، فسعوا إليه فى الصلح ، وتم الصلح فعلا بين صلاح الدين وعز الدين مسعود صاحب الموصل فى مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨٢هـ) . ويقتضى ذلك الصلح رضى صاحب الموصل أن يكون تابعاً لصلاح الدين وأن يخطب باسمه على المنابر ويضرب السكة باسمه(٣) .

وبذلك تحققت الوحدة الإسلامية الكبرى من الفرات إلى النيل ، ولم يبق إلا أن يوجه صلاح الدين جهوده نحو تحصين مصر من ناحية ، وإنزال ضربة بالصليبيين من ناحية أخرى .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٤٢ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ص٩٨ .

(٢) Guillaume de Tyr, p. 1114.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٢ (مطبوع) .

صلاح الدين وتحصين مصر :

لم ينس صلاح الدين مطلقاً مطامع الصليبيين فى مصر ، وظل متخوفاً طوال الفترة التى قضاها فى توحيد الجبهة الإسلامية من أن يقوم الصليبيون بحملة كبرى لغزو مصر ، من طراز حملات عمورى الأول ملك بيت المقدس السابق[١]. والواقع أن صلاح الدين لم يكن مبالغاً فى مخاوفه ، إذ يثبت التاريخ أن ثمة اتصالات قوية دارت سنة ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ) بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر[٢]. لذلك كان لابد لصلاح الدين من أن يتخذ الأهبة ويضع نظاماً قوياً لتحصين مصر حتى يمكن مواجهة أية محاولة يقوم بها الصليبيون لغزوها

والواقع إن تفكير صلاح الدين فى تحصين مصر إنما يرجع إلى أيام وزارته ، أى قبل سقوط الخلافة الفاطمية . من ذلك إن صلاح الدين شرع سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) فى ترميم سور القاهرة وإصلاح ما فيه من عطب بعد أن « تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلا ولا خارجاً[٣] ». على أنه يلاحظ إن صلاح الدين كان فى ذلك الوقت ضعيف النفوذ ، فهو وزير الخليفة الفاطمى ، وتابع لنور الدين محمود ؛ هذا إلى أنه كان فى ذلك الوقت أيضاً محدود المسئولية قليل التجربة بحرب الصليبيين . لذلك لم يكن منتظراً من صلاح الدين فى تلك المرحلة أن يقوم بأكثر مما تمكنه مسئولياته وإمكانياته . فاكتفى بترميم سور القاهرة القديم .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين (أعلام العرب ٤١) ص ١٣٥ .

(٢) Guillaume de Tyr, p. 1033.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ، ص ١٩٢ [طبعة النيل] .

ولكن وضع صلاح الدين لم يلبث أن تغير بعد وفاة الخليفة الفاطمى ثم وفاة نور الدين محمود ؛ إذ غدا صلاح الدين سيد البلاد ورجلها الأول المسئول عن سلامتها والدفاع عنها. هذا إلى أن الفترة التى قضاها صلاح الدين فى الشام يوحد قوى المسلمين ويحارب الصليبيين أكسبته خبرة واسعة فى سياسة الشرق الأدنى فى ذلك الوقت. ولاشك فى أن صلاح الدين شاهد فى بلاد الشام عندئذ مدنا محصنة ، وحصونا مسورة ، وأسوارا عالية محكمة البناء ، فأخذ فكرة واضحة عن أساليب الحصار والدفاع والحرب ، وعن أهمية الحصون والقلاع والاستحكامات فى حماية المدن . وهكذا عاد صلاح الدين من الشام إلى مصر سنة ١١٧٦م (٥٧٢هـ) ثم سنة ١١٨١م (٥٧٧هـ) ليقوم فى كل مرة بسلسلة من التحصينات القوية لحماية عاصمة مصر وثغورها ومراكزها الحيوية ضد أى هجوم منتظر من جانب الصليبيين .

وقد روى المؤرخ أبو شامه — على لسان العماد الأصفهانى — أن صلاح الدين « لما تملك مصر رأى أن مصر (الفسطاط) والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها ، فقال إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سورا واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء ، وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم »[1] . وهكذا قرر صلاح الدين بناء سور ضخم يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع ، ويحمى عاصمة البلاد وأهلها من أى هجوم خارجى ، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزا للحكم ، وملاذا يحتمى به إذا هددته ثورة داخلية من جانب أتباع الفاطميين ، أو خطر خارجى من جانب الصليبيين .

وسرعان ما أخذ صلاح الدين فى تنفيذ مشروعه ، فجلبت بعض الأحجار اللازمة للبناء من منطقة أهرام الجيزة ، وساعد فى العمل عدد كبير من

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ص ٢٦٨ .

أسرى الصليبيين[1] أما عن القلعة فقد أحسن صلاح الدين اختيار موقعها بحيث تشرف على القاهرة ومصر إشرافا تاما ، وتستطيع حاميتها أن تقوم بعمليتين مزدوجتين ، هما ضبط الأهالى وإخماد أية فتنة داخلية ، ثم صد أى هجوم خارجى تتعرض له القاهرة[2]. والمعروف أن عمارة القلعة لم تتم إلا فى عهد الكامل الأيوبى سنه ١٢٠٧م (٦٠٤هـ) ، فهو الذى شيد أول ما بنى فيها من قصور كما شيد أبراجها الرئيسية، ثم اتخذها منزلا له ومقاما للحكم . ومنذ ذلك الوقت والقلعة تقوم بوظيفة القصر السلطانى الذى عاش فيه بقية سلاطين الأيوبيين ثم المماليك ثم الولاة العثمانيون حتى زمن الخديو إسماعيل .

أما سور القاهرة فقد استخدمت فيه أيضاً الأحجار الضخمة، وروعى فى السور أن يكون محصنا بأبراج منيعة بعضها من طبقة واحدة والبعض الآخر من طبقتين ، ويتكون البرج من قبو نصف دائرى يؤدى إلى ستار الحائط بمزاغل تستخدم لرمى العدو المهاجم بالسهام منها ، أو إلقاء المواد الكاوية والزيت المغلى[3].

على أن جهود صلاح الدين فى تحصين مصر لم تقف عن حد القاهرة ، وإنما امتدت إلى مختلف الثغور والموانى المصرية ، لاسيما بعد أن تكررت اعتداءات السفن الصليبية على تنيس ودمياط وغيرهما من الموانى . من ذلك ما يرويه أبو شامة من خروج صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ (١١٧٧م) إلى دمياط وبصحبته ولداه الأفضل على والعزيز عثمان، فتفقد تحصينات الميناء، ثم رحل إلى الاسكندرية حيث تفقد سورها الدائر وفحص الزيادات التى كان قد أمر بإنشائها غداة استيلائه على الحكم . كذلك تفقد صلاح الدين الأسطول

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ١٤ .

(٢) نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ص ٩٢ .

(٣) للوقوف على تفاصيل القلعة والسور ارجع إلى : نظير حسان سعداوى التاريخ الحربى المصرى ص ١٠٣ — ١٠٨ . وسنشير إلى بعض التفاصيل فى نهاية هذا الباب عند الكلام عن التذوق .

بالإسكندرية وأمر بعمارته وتجديد سفنه . وما انصرف حتى أمر بإتمام الثغر وتعمير الأسطول »[1] .

وبينما صلاح الدين منصرف فى السنوات التالية إلى تدعيم الوحدة الإسلامية بالشام ومحاربة الصليبيين ، كان العمل مستمراً فى التحصينات التى أمر بها صلاح الدين سواء فى القاهرة أو الاسكندرية . وقد حدث سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) أن أغار الصليبيون على تنيس — شرقى بحيرة المنزلة — فخشى صلاح الدين أن يكون المقصود بتلك الغارة سبر غور المسلمين تمهيداً لغزو مصر من ناحية البحر ، وأمر بالعناية بتحصين دمياط وتنيس « ورتبت المقاتلة على البرجين بدمياط ، وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين . وعمل تقدير برسم مايحتاج إليه سور تنيس وإعادته كما كان فى القديم » . كذلك أمر صلاح الدين فى العام نفسه « ببناء برج بالسويس يسع عشرين فارساً » ورتبت فيه الفرسان »[2] .

وهكذا عنى صلاح الدين عناية فائقة بتحصين عاصمة مصر وموانيها وثغورها حتى يأمن عادية الصليبيين . وإذا كان صلاح الدين قد اهتم ذلك الاهتمام ببناء القلاع والأبراج وتحصين المدن والثغور فى مصر ، فمن الواضح أن يكون اهتمامه بذلك الأمر فى بلاد الشام عظيماً ، فأكثر من بناء الحصون فى المواقع الاستراتيجية ، وحرص على تحصين القلاع لتكون مراكز لعملياته ضد الصليبيين .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢ — ٧٤ .

الفصل الثالث

صلاح الدين والصليبيون

فكرة الجهاد على عصر صلاح الدين:

ولد صلاح الدين وشب فى بلاد الشام فى عصر ازدهرت حركة الجهاد الدينى ضد الصليبيين. ذلك أن عماد الدين زنكى ومن بعده نور الدين محمود أكسبا هذه الحركة طابعاً عملياً واضحاً، لأنهما بدءا من النقطة التى كان ينبغى أن يبدأ منها المسلمون منذ ظهور الخطر الصليبى فى أفق الشرق الأدنى، وهى توحيد الجهود وجمع الشمل وإقامة وحدة إسلامية تضم — على الأقل — البلدان العربية التى كانت أكثر تعرضاً للخطر الصليبى من غيرها، وهى الشام ومصر والعراق. وإذا كان صلاح الدين قد نشأ فى منطقة هى بمثابة الميدان الأول للصراع بين المسلمين والصليبيين، وشب فى عصر شهد اشتداد حركة الجهاد، وترعرع بين أناس لا حديث لهم إلا عن الجهاد والدفاع عن الوطن والعقيدة، والتضحية بالنفس والنفيس فى سبيل الاحتفاظ بكيانهم ضد دخلاء معتدين؛ فلا غرابة أن نجد بعد هذا صلاح الدين وقد برز فى صورة أعظم شخصية شهدها الوطن العربى فى عصر الحروب الصليبية. ذلك أن صلاح الدين لم يكتف باعتناق فكرة الجهاد، وإنما أصر إصراراً عظيماً على تنفيذها، وقضى حياته حتى آخر رمق فيه يذود عن المسلمين وبلادهم. وفى ذلك يقول ابن شداد «ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا فى آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه»[1].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٤٤.

ويتضح لنا عند دراسة الدور الأول من أدوار حياة صلاح الدين أن القدر والحظ ساعداه إلى حد كبير ، إذ تهيأت له فرصة المجيء إلى مصر وهو الميدان البكر الذى استطاع صلاح الدين أن يعمل فيه ويظهر مواهبه على مسرحه . ثم تهيأ له سبيل الظهور بوفاة عمه شيركوه ووفاة الخليفة العاضد الفاطمى وفشل المحاولات التى بذلت لإحياء الخلافة الفاطمية . وأخيراً توفى نور الدين محمود صاحب الحق الشرعى فى حكم البلاد وفى السيادة على صلاح الدين وجيوشه . وجاءت وفاته فى الوقت الذى كان يتأهب للخروج إلى مصر لتأديب صلاح الدين . ولا ندرى ماذا كان الموقف إذا لم يحدد القدر نهاية أجل نور الدين فى ذلك الوقت بالذات ؛ ولكن كل ما نستطيع أن نقوله هو أنه لو أن العمر أمهل نور الدين حتى أتى إلى مصر فإن تاريخ صلاح الدين كان سينتهى عند تلك المرحلة . ذلك أنه كان من الصعب على رجل واحد من رجال صلاح الدين - بل كان من الصعب على صلاح الدين نفسه - أن يرفع سيفه فى وجه نور الدين محمود ، سيدهم الشرعى وولى نعمتهم ؛ إذ أحسوا جميعاً بأنهم مماليك نور الدين وعبيده ، كما اعترف بذلك نجم الدين أيوب والد صلاح الدين(١) .

ولذلك نستطيع أن نقرر أنه إذا كان مجىء صلاح الدين إلى مصر يمثل نقطة التحول الأولى فى حياة ذلك البطل ، فإن وفاة نور الدين محمود فى مايو سنة ١١٧٤ م (٥٦٩ هـ) كانت نقطة التحول الكبرى فى حياة صلاح الدين ؛ بل كان ذلك الحدث بداية مرحلة جديدة فى تاريخه : هى مرحلة البطولة التى خلدت اسمه فى التاريخ . ذلك أن وفاة نور الدين تركت المسرح العربى فى الشرق الأدنى وليس عليه شخصية كبرى من طراز عماد الدين زنكى أو نور الدين محمود ، وبذلك برز صلاح الدين على المسرح ليبز عماد الدين زنكى ونور الدين محمود جميعاً فى صبره على الجهاد ومقدرته على انتقاء خير الوسائل لتحقيق أغراضه .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٢ (مطبوع) .

الدور التمهيدى فى الحرب بين صلاح الدين والصليبيين :

وأول ما يسترعى نظرنا فى حروب صلاح الدين ضد الصليبيين هو أن تلك الحروب مرت بدورين كبيرين : الدور الأول الذى امتد من سنة ١١٧٤ - ١١٨٦م (٥٧٠ - ٥٨٢هـ) ، ولم يكن صلاح الدين فى هذا الدور متفرغاً لحرب الصليبيين وإنما وجه جل جهوده نحو توحيد الجبهه الإسلامية وإدخال القوى الإسلامية الصغيرة المبعثرة فى الشام وشمال العراق تحت سيادته ، ليتمكن من مواجهة الصليبيين فيما بعد ، ومن خلفه جبهة قوية متحدة تشد أزره . وإذا كان صلاح الدين قد اشتبك مع الصليبيين فى حروب فى ذلك الدور ، فإن هذه الحروب كان يغلب عليها الطابع الدفاعى إما لحماية أملاك المسلمين وأراضيهم وإما ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الإسلامية الانفصالية التى أعمتها شهوة الحكم عن رؤية الخطر الخارجى ، فاستعانت بالصليبيين ضد صلاح الدين . وأما الدور الثانى من أدوار الحرب الصلاحية ضد الصليبيين فيمتد من سنة ١١٨٦ حتى سنة ١١٩٢م (٥٨٢-٥٨٨هـ) وفيه كان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الإسلامية من الفرات إلى النيل ، فانصرف بكل طاقاته إلى فكرة الجهاد ، حتى حقق الإنتصارات الضخمة التى خلدت ذكراه فى التاريخ .

ويبدأ الدور الأول التمهيدى كما ذكرنا بسنة ١١٧٤م (٥٧٠هـ) . ولكن ليس معنى ذلك أن صلاح الدين لم يكن له عهد بمحاربة الصليبيين قبل ذلك التاريخ . حقيقة أن المصادر لا تمدنا بشىء ذى قيمة عن اشتراك صلاح الدين فى مستهل حياته — قبل مجيئه لأول مرة إلى مصر سنة ١١٦٤م (٥٥٩ هـ) — فى حرب الصليبيين ، ولكن صلاح الدين الذى شب على مسرح الحروب الصليبية فى بلاد الشام ، وقضى فترة هامة من حياته الأولى فى بلاط نور الدين بدمشق ، شاهد بلاشك صورة طبيعية حية لمجتمع مضطرم بنار الحماسة للدفاع عن الوطن والعقيدة وحماية نفسه من عدو خطير أو من أقصى

الغرب ليعتدى على قوم آمنين فى ديارهم ويسلبهم جزءاً عزيزاً من بلادهم .

وبوصول صلاح الدين — صحبة عمه شيركوه — إلى مصر لأول مرة سنة ١١٦٤م (٥٥٩هـ) بدأت صفحة جديدة فى تاريخ علاقته بالصليبيين ، لأن الحملات الثلاث التى أرسلها نور الدين محمود إلى مصر سنة ١١٦٤ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ (٥٥٩ هـ ، ٥٦٢ هـ ، ٥٦٤ هـ) والتى شارك فيها صلاح الدين ، إنما كانت فى حقيقة أمرها موجهة ضد الصليبيين الذين دخلوا مصر فى ذلك الوقت وحاولوا امتلاكها . وتعتبر المعارك التى دارت بين المسلمين والصليبيين فى أرض مصر عندئذ المحك الأول بين صلاح الدين والصليبيين ، إذ حدث فيها الاحتكاك المباشر بين الطرفين لأول مرة ، فقام صلاح الدين بدور بارز فى موقعة البابين فى أبريل سنة ١١٦٧م (٥٦٢ هـ) ، ثم تعرض صلاح الدين لحصار الصليبيين فى الاسكندرية بعد ذلك ، مما أكسبه خبرة بأساليب الصليبيين وحربهم .

ثم كانت الفوضى التى أصابت دولة نور الدين محمود بعد وفاته — كما سبق أن ذكرنا — الأمر الذى ترتب عليه قيام بعض الأطراف المتنازعة فى الشام بدعوة صلاح الدين لتسلم دمشق سنة ١١٧٤م (٥٧٠ هـ) . وقد خشى الصليبيون عاقبة جهود صلاح الدين فى الشام لتوحيد القوى الإسلامية ، فتدخل ريموند الثالث أمير طرابلس والوصى على مملكة بيت المقدس للحيلولة دون استيلاء صلاح الدين على حلب ، وفعـــلا نجح مؤقتاً سنة ٥٧٠ هـ (فبراير ١١٧٥م) فى صرف صلاح الدين عن قصده . وعلى الرغم من أن ريموند قام بدوره فى مهارة فى التظاهر بحماية الزنكيين من أطماع صلاح الدين إلا أن الأخير أظهر ثباتاً عجيباً ، فظل يحارب الزنكيين حيناً ويدافع الصليبيين أحياناً ، مع حرصه الشديد فى ذلك الدور على عدم توسيع دائرة الحرب ضد الصليبيين حتى لا يحارب فى جبهتين فى وقت واحد . وربما احتدت الحرب بين صلاح الدين والصليبيين فى ذلك الدور كما حدث بين سنتى ١١٧٧م ، ١١٨٠م (٥٧٣ هـ ، ٥٧٦ هـ) ولكنها مع ذلك لم تتخذ صورة الحرب الشاملة . ثم إن الصليبيين أنفسهم كانوا يعانون اضطراباً كبيراً فى أحوالهم الداخلية

عندئذ ، إذ كان بلدوين الرابع ملك بيت المقدس مريضاً بالجذام ، ومشكلة العرش ووراثته تثير كثيراً من المنافسات بين أمراء الصليبيين ، فضلا عن اختلال أحوال إمارة أنطاكية في الشمال . وهكذا حتى استولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ ﻫ) ، ثم دخلت الموصل تحت طاعة صلاح الدين في مارس سنة ١١٨٦ م (٥٨١ ﻫ) ، وعندئذ أصبح في وسع صلاح الدين أن « ينصرف بكليته إلى الفرنج » .

صلاح الدين ومملكة بيت المقدس :

والواقع أن هجمات صلاح الدين على مملكة بيت المقدس أخذت تشتد فعلا بعد استيلائه على حلب سنة ١١٨٣ م (٥٧٩ﻫ). وفي ذلك الوقت كانت مملكة الصليبيين قد بلغت درجة شديدة من الضعف بعد أن ساءت أحوال ملكها المريض ووضع عرش المملكة تحت وصاية جاى لوزجنان وهو أمير ضعيف اتصف بالتردد وسوء التدبير[1] . وقد استولى صلاح الدين على بعض المعاقل الصليبية في تلك السنة ، ثم حاول أن يستدرج خصومه للدخول معه في معركة فاصلة في فلسطين ، ولكن الصليبيين « لم يخرجوا إلى المصاف خوفاً من المسلمين »[2] .

على أن صلاح الدين لم يلبث أن فكر في اتخاذ خطوة حاسمة ضد الصليبيين نتيجة لاستفزاز الأمير أرناط الصليبي صاحب حصن الكرك . ولم يكن أرناط من طراز الفرسان الذين مجدتهم العصور الوسطى لحرصهم على التمسك بمبادىء الشرف ، وإنما اشتهر بحبه للسلب والنهب والاعتداء على الأبرياء المسالمين[3] . لذلك فإنه لم يكتف بقطع طرق القوافل بين مصر والشام

---

(١) Guillaume de Tyr, p. 1116.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 111.

والحجاز ، وإنما لجأ إلى تهديد الحرمين فى الحجاز . وقد بدأ أرناط مشروعه الغريب سنة ١١٨٢ (٥٧٨هـ) بالاستيلاء على أيلة، وهى الميناء الهام على رأس خليج العقبة . ثم لجأ أرناط إلى بناء عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة إلى خليج العقبة حيث ركبت ، وشحنها بالمقاتلين، واتجه على رأسها لمهاجمة الموانى الإسلامية فى البحر الأحمر(١) . ولم يكتف أرناط بالعدوان على الموانى المصرية مثل عيذاب ، بل نقل نشاطه إلى شاطىء الحجاز، حتى أن المقريزى يذكر أن الصليبيين أضحوا على مسيرة يوم واحد من المدينة المنورة(٢) .

ومن الواضح أن العدوان على الحرمين أمر لا يمكن أن يغفره أو يسكت عنه المسلمون ، فأسرع العادل — أخو صلاح الدين — إلى إرسال أسطول قوى فى البحر الأحمر نجح فى تدمير السفن الصليبية وأسر كثير من رجالها ، فى حين فر أرناط نفسه بصعوبة . أما صلاح الدين فقد رد على عدوان أرناط بحصار حصن الكرك فى أواخر سنة ١١٨٣ م ثم سنة ١١٨٤ م (٥٧٩ هـ — ٥٨٠ هـ) وإن كان لم يستطع الاستيلاء عليه لقوة تحصينه(٣).

ويبدو أن صلاح الدين كان مشغولا حينئذ بتنظيم الأوضاع الداخلية فى دولته وإحلال أبنائه محل إخوته وأبناء عمومته فى حكم أجزاء دولته الكبيرة ، فاكتفى بعقد هدنة مع الصليبيين مدتها أربع سنوات تبدأ بسنة ٥٨٠هـ (١١٨٥ م)(٤) . وكانت هذه الهدنة عظيمة الأهمية للطرفين إذ أتاحت لصلاح الدين فرصة لتنظيم دولته ، وفى الوقت نفسه أتاحت للصليبيين فرصة ذهبية لتصفية كثير من المشاكل الداخلية التى نشبت فى دولتهم بعد وفاة بلدوين الرابع فى مارس سنة ١١٨٥ م . ولكن أرناط لم يشأ — بحماقته

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث سنة ٥٧٨ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٧٩ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٦ .

(٤) Eracles, II, pp. 12-14.

المهودة — أن يترك الصليبيين ينعمون بتلك الفرصة ، فتعجل فى إثارة الحرب مع صلاح الدين ، وهى الحرب التى جاءت كارثة على الصليبيين جميعاً .

موقعة حطين :

انتهى الصراع الداخلى الذى نشب بين الصليبيين بعضهم وبعض — عقب وفاة بلدوين الرابع — باختيار جاى لوز جنان ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية . وفى الوقت الذى آل أمر المملكة الصليبية إلى ذلك الملك الضعيف ، كان أرناط قابعا فى حصن الكرك جنوبى البحر الميت ، وهو الحصن الذى كان يتحكم بموقعه الفذ فى طرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز . ولكن أرناط كان « لايستطيع أن يحيا هادئاً دون أن ينهب ويسرق »[1] ؛ ولذلك لم يلبث أن انقض فجأة على قافلة كبيرة للمسلمين كانت متجهة فى أواخر سنة ١١٨٦ م وأوائل سنة ١١٨٧ م (٥٨٢ هـ) من القاهرة إلى دمشق . ويبدو أن الثروة الضخمة التى كانت تحملها القافلة أسالت لعاب أرناط ، فنصب لها كميناً واستولى على كل ماتحمله من ثروة وبضائع ، وأسر رجالها فى حصن الكرك حيث « سامهم الشد والشدة[2] » .

وكان كل مافعله صلاح الدين عندئذ هو أنه أرسل إلى أرناط مهدداً ، طالباً منه رد الأسرى والغنائم . ولكن أرناط أبى ذلك ، ورفض رجاء جاى لوز جنان نفسه عندما أمره برد الأسرى والغنائم إلى صلاح الدين . وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب ، فقام بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين ومواردهم البشرية والمادية ، استعداداً لحركة جهاد كبرى لم تنته

(١) Grousset: Hist. des Croisades, II, p. 116.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

إلا فى نهاية القرن الثالث عشر بالقضاء على آخر البقايا الصليبية بالشام .

وقد اختار صلاح الدين أن يقيم فى تلك المرحلة بدمشق ، ومن ذلك المركز أخذ ينظم تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر . وعندما اكتملت استعداداته ، خرج صلاح الدين من دمشق فى منتصف مارس سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) فقصد الكرك أولا ، ونازلها وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك وفعل بها مثل ذلك ، ثم اتجه بعد ذلك إلى بانياس — قرب طبرية — لمراقبة الموقف[1] .

وفى ذلك الوقت جمع الملك جاى لوزجنان جيوشه فى القاهرة ، فدارت المعركة الأولى بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية فى مايو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ، وفيها سقط معظم الجيش الصليبى بين قتلى وأسرى . ويبدو أن هذه الكارثة التى حلت بالصليبيين جعلت ريموند الثالث يفيق إلى رشده ، فنقض تحالفه مع صلاح الدين ، واجتمعت الجيوش الصليبية فى صفورية استعدادا للانتقام .

وقد رد صلاح الدين على ذلك بمهاجمة طبرية — التى كانت للصليبيين — فاقتحمت جيوشه المدينة فى يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) وأحرقتها ، وإن لم يستطع المسلمون الاستيلاء على قلعتها[2] .

ويؤكد المؤرخ أبو شامة أن صلاح الدين استهدف من مهاجمة طبرية أن يجبر الصليبيين على ترك مواقعهم عند صفورية ، فيتمكن من إنزال الهزيمة بهم بعد أن يعتريهم التعب لطول الطريق وحرارة الجو .

وفعلا نجحت خطة صلاح الدين . فتحرك الصليبيون للدفاع عن طبرية ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٣ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ .

وساروا في شهر يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) في ظروف قاسية ، بسبب حرارة الجو وقلة الماء ومشقة الطريق[١]. وعندما علم صلاح الدين بزحف الصليبيين تجاهه سر سروراً كبيراً وقال « جاء ما نريد » ![٢].

وأخيراً وصل الصليبيون إلى قرون حطين — وهي هضبة مرتفعة على سفح جبل طبرية — وهم في حالة سيئة من الإنهاك والعطش . في الوقت الذي كان المسلمون مدخرين قوتهم، ينعمون بالماء العذب والظل المديد . وفي ٤ يوليو دارت موقعة حطين الشهيرة بين صلاح الدين والصليبيين، فأحاط المسلمون بخصومهم . ولم يجد الصليبيون مخرجاً سوى التراجع نحو قمة الجبل « القتل والأسر يعملان في فرسانهم » حتى قتل معظمهم وانهارت قوة من نجا ، فاستسلموا للمسلمين[٣].

وكان من جملة الأسرى الملك جاي لوزجنان، وأرناط صاحب حصن الكرك ، ومقدم الداويه ، فسيقوا جميعا إلى صلاح الدين في خيمته حيث أحسن استقبالهم ، ماعدا أرناط الذي قتله صلاح الدين وفاء لقسم له[٤].

استيلاء صلاح الدين على ساحل الشام وبيت المقدس :

تعتبر موقعة حطين دون شك نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية ، لأن الصليبيين لم يفيقوا مطلقاً من تلك الضربة التي أودت بزهرة فرسانهم. ولم يكن منتظراً من مملكة بيت المقدس بعد فناء جيشها وأسر ملكها أن تستطيع الصمود والمقاومة ، الأمر الذي مكن صلاح الدين من تحقيق مكاسب ضخمة عاجلة على حساب الصليبيين. وهنا نلاحظ أن صلاح الدين

---

(١) King: The Knights Hospitallers, pp. 125-126.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦ .

(٣) عماد الدين الكاتب : الفتح القسي ص ٢٣ . ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٤ .

تحلى فى ذلك الدور من أدوار حروبه ضد الصليبيين بصفات التسامح والمروءة والشهامة والبعد عن التطرف ، وهى السياسة التى كثيراً ما سببت الأضرار بمصالح المسلمين، وجعلت بعض المؤرخين المسلمين — مثل ابن الأثير — ينقدون صلاح الدين نقداً مراً لتساهله مع خصومه تساهلا يفوق الحدود[١] .

وكان المفروض أن يتجه صلاح الدين بعد حطين صوب بيت المقدس ليستولى عليها فى سهولة، بعد أن غدت المملكة الصليبية دون جيش يدافع عن عاصمتها ؛ ولكنه آثر أن يتجه أولا إلى الموانى الساحلية ليحرم الصليبيين من أية معونة تأتى إليهم من غرب أوربا عن طريق البحر : وبعد ذلك يسهل عليه انتزاع المدن والقلاع الداخلية من الصليبيين .

هذا بالإضافة إلى أن استيلاء صلاح الدين على موانى فلسطين من شأنه أن يهيأ له اتصالا بحرياً سريعاً وسهلا بين شطرى دولته؛ الشام ومصر[٢] .

وهكذا استولى صلاح الدين على عكا فى سهولة ؛ إذ استسلمت له المدينة بمجرد رؤية الجيش الإسلامى فى ٨ يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) . ويبدو أن السياسة الرحيمة التى اتبعها صلاح الدين مع أهل عكا. ساعدته فى الاستيلاء على كثير من المدن الساحلية والداخلية فيما بعد ، وأرسل جيوشه للإستيلاء على المعاقل القريبة، حتى تم للمسلمين الاستيلاء على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية، وغيرها من المواقع القريبة من عكا[٣] . هذا فى الوقت الذى زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا، فى حين سقط حصن تبنين، وصرفند، وصيدا فى أيدى المسلمين فى أواخر يوليو سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ). كذلك استولى صلاح الدين على بيروت وجبيل وعسقلان التى

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : حركة الصليبية ج ٢ ص ٨١١ وما بعدها .

(٢) Stevenson: The Crusaders ·· he East p. 249.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٣

أبدت مقاومة عنيفة . وهنا يلاحظ أن صلاح الدين كان يترك الحرية لأهالى معظم هذه المدن التى استولى عليها فى أن يبقوا أو يرحلوا ، فآثر معظمهم الرحيل إلى صور «حيث اجتمع كل أفرنجى بقى فى الساحل»(١) .

وهذا الخطأ من صلاح الدين ترتب عليه تجمع جميع عناصر المقاومة الصليبية فى مدينة صور ، الأمر الذى أدى إلى استحالة استيلاء صلاح الدين عليها من ناحية ، وإلى اتخاذها مركزاً لإحياء مملكة بيت المقدس فيما بعد من ناحية أخرى .

وعندما أدرك صلاح الدين أن أمر صور غدا صعبا ، آثر أن يتجه إلى داخلية فلسطين ليستولى على بيت المقدس. وكان أهل بيت المقدس قد استفادوا من الفرصة التى أتاحها لهم إتجاه صلاح الدين إلى الساحل بعد حطين ، وحصنوا مدينتهم ، فرفضوا أن يستجيبوا لنداء صلاح الدين ويسلموا المدينة له مقابل تأمينهم(٢) . ويقال أن صلاح الدين عندما رأى عناد الصليبيين فى بيت المقدس، أقسم على أن يستولى على المدينة بحد السيف ، فبدأ هجومه على المدينة من الجهة الشمالية فى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ) ، وعندئذ أدرك الصليبيون استحالة المقاومة، فطلبوا الأمان(٣). ويبدو أن صلاح الدين تمنع عن إجابة الصليبيين إلى طلبهم تلك المرة بعد أن رفضوا عروضه السابقة. حتى وافق أخيرا على أن يسمح لهم بالخروج سالمين مقابل فداء معين عن كل رجل أو امرأة أو طفل . وهكذا دخل صلاح الدين بيت المقدس يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ). وشاءت الظروف أن يوافق دخوله ذكرى ليلة الأسراء والمعراج، فاحتفل المسلمون بهذه المناسبة الدينية فى بيت المقدس

---

(١) أبو شامة : النوادر السلطانية ص ١٢٦ .

(٢) Grousset: Hist. des Croisades, II, p. 809.

(٣) Runciman: A Hist. of the Crusades, II, p. 464.

وأحسنوا معاملة الصليبيين، مما جعل كثيراً من المؤرخين الأوربيين يشيدون بتسامح صلاح الدين، وبالفرق بين معاملته المسيحيين ومعاملة الصليبيين للمسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة ١٠٩٧م (٤٩١هـ)[1].

صلاح الدين وغزو شمال الشام:

وبعد أن أتم صلاح الدين غزو فلسطين، لم يبق أمامه إلا البقايا الصليبية فى شمال الشام، مثل صور وطرابلس وأنطاكية، فضلا عن الحصون الداخلية، مثل حصن الأكراد وحصن المرقب. أما صور فقد فشلت جميع جهود صلاح الدين فى الاستيلاء عليها بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التى تركها صلاح الدين تخرج آمنة من المدن التى استولى عليها. لذلك لم يجد صلاح الدين بدا من ترك صور وتوجيه جهوده ضد طرابلس وأنطاكية.

وقد بدأ صلاح الدين هجماته على إمارة طرابلس بالاستيلاء على بعض القلاع الصليبية الهامة فى إقليم الجليل، مثل قلعة هونين، كما حاصر صفد وحصن كوكب، وإن كانت هاتان القلعتان قد أظهرتا مقاومة عنيفة بحيث لم يستطع صلاح الدين الاستيلاء عليهما إلا فى أواخر سنه ١١٨٨ وأوائل سنة ١١٨٩م (٥٨٤هـ)[2]. وفى تلك الأثناء استولى صلاح الدين على بانياس فى أقصى الشمال من إمارة طرابلس، ثم أوغل فى إمارة أنطاكية واستولى على جبلة فى يوليو ١١٨٨ (٥٨٤هـ). وبعد أن استولى صلاح الدين على اللاذقية - أكبر موانى أمارة انطاكية فى أواخر يوليو سنة ١١٨٨م (٥٨٤هـ)، هاجم حصن صهيون واستولى عليه بعد قليل. وبذلك أخذت معاقل أمارة أنطاكية تتساقط فى يد صلاح الدين معقلا بعد آخر بحيث لم يبق لتلك الأمارة سوى ثلاث حصون، هى القصير وبغراس ودربساك[3]. وحتى هذه الحصون

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٢٤.
(٢) أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٠ ؛ ١٢٥.
(٣) ابن الاثير: الكامل حوادث سنة ٥٨٤ هـ، أبو شامة، الروضتين ص ١٣٦-١٣٧.

لم يلبث أن ستولى عليها صلاح الدين فى أواخر سنة ١١٨٨ م (٥٨٤هـ) ، وبذلك أصبحت إمارتا انطاكية وطرابلس مقصوصتى الجناح ، على قول المؤرخ أبى شامة .

صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة :

بدأ صلاح الدين هجومه الكبير الشامل على الصليبيين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣هـ) ، ولم تكد تمر ثلاث سنوات على ذلك الهجوم حتى انكمشت الممتلكات الصليبية فى بلاد الشام، فلم يبق من مملكة بيت المقدس إلا صور، ومن إمارة طرابلس إلا عاصمتها مدينة طرابلس وقلعة انطرطوس وحصن الأكراد ، ومن إمارة إنطاكية إلا عاصمتها مدينة أنطاكية وحصن المرقب، هذا كله عدا بعض المواقع الثانوية الضئيلة الأهمية (١) .

ولاشك فى أن المصائب التى حلت بالصليبيين فى المشرق على يد صلاح الدين كان لها صداها ورد فعلها العنيف فى الغرب الأوربى، فارتفع صوت البابوية ينادى ملوك أوربا وأمراءها بالقيام بحملة صليبية كبرى، تسترد بيت المقدس من المسلمين وتثأر مما حل بالصليبيين فى الشام على يد صلاح الدين. ولم يلبث أن استجاب لهذه الدعوة ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيلب أغسطس ملك فرنسا وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا .

وقد اختار فردريك بربروسا أن يأتى إلى الشام عن طريق البر وآسيا الصغرى، فى حين سلك زميلاه ملكا فرنسا وإنجلترا طريق البحر . ويبدو أن الحملة الألمانية بزعامة فردريك بربروسا تعرضت فى طريقها لمصاعب جمة من جانب الدولة البيزنطية ثم السلاجقة ، حتى انتهى الأمر بغرق الإمبراطور

---

(١) Crousset: Hist. des Croisades, II, pp. 834-835.

فردريك بربروسا نفسه فى أحد أنهار آسيا الصغرى وتشتت حملته سنة ١١٩٠م (٥٨٦ هـ)[1].

وفى الوقت الذى جمعت البقايا الصليبية فلولها فى الشام وأخذت تشدد الهجوم على عكا لاستردادها من المسلمين، وصل فيلب أوغسطس على رأس الحملة الفرنسية إلى الشام فى إبريل سنة ١١٩١م (٥٨٧ هـ) ليشجع الصليبيين ويبث فيهم روحا جديدة، ويحيى فيهم الأمل. ولم يضع فيلب أوغسطس الوقت، وإنما تزعم على الفور معركة عكا، حتى وصل ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا إلى الشام فى ٨ يونيه؛ فازداد الصليبيون قوة، فى حين ساء موقف الحامية الإسلامية المحصورة داخل عكا. ولم تفلح الهجمات القوية التى شنها صلاح الدين على جيوش الصليبيين لإنقاذ عكا، فاضطرت حاميتها إلى التسليم فى يوليه سنة ١١٩١م (٥٨٧ هـ)[2].

وإذا كان الخلاف بين فيلب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد قد دفع فيلب إلى الاعتذار بالمرض والإبحار إلى الغرب فى أوائل أغسطس سنة ١١٩١، فإن ريتشارد اختار أن يبقى بعض الوقت فى الشام ليحاول أن يصفى الحساب بين صلاح الدين والصليبيين. وتعتبر الحروب التى دارت فى الشام بين ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين سنة ١١٩١ — ١١٩٢ م (٥٨٧ — ٥٨٨ هـ) من أهم حلقات الحروب الصليبية إطلاقاً، وأكثرها متعة للباحث. ذلك أن ريتشارد جمع بين الشجاعة والتهور، فتزعم القوى الصليبية بالشام للقيام بحركة كبرى يسترد بها بيت المقـــدس ويعيدها إلى سابق عهدها[3]. وكان أن بدأ ريتشارد بمحاولة لاسترداد شاطئ فلسطين — من عكا

---

(١) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنة ٥٧٦ هـ. Runciman: op. cit., III, p. 15.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥٩ — ٢ . ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٧٦

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج٢ ص . . ، وما بعدها.

إلى عسقلان ، فاستولى الصليبيون على حيفا ثم على قيسارية فى نهاية أغسطس سنة ١١٩١ م (٥٨٧ ﻫ) ومنها اتجهوا صوب أرسوف .

على أن صلاح الدين لم يترك الصليبيين يواصلون زحفهم فى سهولة، وإنما أخذ فى مطاردتهم، وتحمل فى هذه المطاردة كثيراً من التضحيات، حتى كانت موقعة أرسوف بين الطرفين فى أوائل سبتمبر سنة ١١٩١ م (٥٨٧ ﻫ) . وفى هذه الموقعة أحاط المسلمون بالصليبيين ، وأوشك صلاح الدين أن يقضى عليهم كما حدث فى حطين ، لولا ثبات ريتشارد الذى أعاد تنظيم رجاله فى سرعة، واستطاع أن يحول المعركة إلى صالح الصليبيين[١] .

ومع أن الصليبيين انتصروا فى أرسوف، إلا أن صلاح الدين ظل محتفظاً بالسيطرة على داخلية فلسطين ، وبخاصة بيت المقدس . وكان أن حاول ريتشارد الزحف على بيت المقدس ، ولكنه لم ينجح فى الاستيلاء عليها بسبب يقظة صلاح الدين والاستعدادات القوية التى اتخذها للدفاع عن المدينة[٢] .

وأخيراً أدرك ريتشارد أن مشاكل الصليبيين الداخلية كثيرة ومعقدة ، وأن مركز صلاح الدين قوى ومتين ، وأن الأحوال فى غرب أوربا تستدعى سرعة عودته إلى بلاده ؛ ولذلك كله لجأ ريتشارد إلى فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين . وقد طالت هذه المفاوضات بين الطرفين ومرت بأدوار متعددة ، حتى أدت فى النهاية إلى صلح الرملة فى ٢ سبتمبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ ﻫ) وهو الصلح الذى نص على أن يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف ، وما عدا ذلك — بما فيه بيت المقدس ذاتها — تظل بأيدى المسلمين[٣].

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٠٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٠٣ [illegible] ؛ العماد الكاتب : الفتح القسى ص ٤٤٢

وبعد عقد الصلح ركب ريتشارد البحر عائداً إلى بلاده فى أوائل أكتوبر سنة ١١٩٢ م (٥٨٨ هـ). ولم يلبث صلاح الدين نفسه أن توفى فى أوائل مارس سنة ١١٩٣ م (٥٨٩ هـ) فى دمشق بعد مرض قصير.

ولاشك فى أن وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة كبرى للعالم الإسلامى بوجه عام ومصر والشام بوجه خاص. ويكفى أنه — باعتراف جمهرة المؤرخين المسلمين والأوربيين — كان أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية، مما دفعهم جميعاً إلى الترحم عليه والإشادة بقوته وعدله وتسامحه [1].

(١) ابن شداد: النوادر ص ٤١٠، Runciman: op. cit., III. pp. 11-18.

الفصل الرابع

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

انقسام البيت الأيوبي :

ترك صلاح الدين خلفه دولة مترامية الأطراف ، وفراغاً ضخماً لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر ، أو إخوته ، أو أبناء إخوته أن يملأه . ولا أقل من أن نلقى نظرة سريعة على أحوال الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين ، لندرك مدى الخطر الذى كان يتهددها ويتهدد وحدة المسلمين فى الشرق الأدنى عندئذ . على أنه قبل أن نتكلم عن التوزيع الإدارى فى الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين يصح أن نشير إلى ملاحظة ، هى أن صلاح الدين اعتمد فى الدور الأول من تاريخه على إخوته وأبناء عمومته فى توطيد سلطانه، واختصهم بالمناصب الكبرى والولايات الرئيسية فى دولته؛ ولكنه لم يلبث بعد ذلك أن بدل سياسته. فجعل لأبنائه المكانة الأولى، ووزع عليهم حكم الأجزاء الرئيسية . ثم استبقى لأخوته وأقاربه المناصب الثانوية. وسواء كان الدافع لصلاح الدين إلى ذلك عاطفة الأبوة الطبيعية التى جعلته يفضل أبناءه على أخوته ، أم كان الدافع تخوفه من أطماع أقاربه وازدياد نفوذ إخوته ، فالمهم هو اننا نجد الدولة الأيوبية عند وفاة صلاح الدين وقد تقاسم حكم أجزائها عدد كبير من بنى أيوب ، فاستأثر أبناء صلاح الدين بالأجزاء المختارة وأخذ بقية الأقارب الأجزاء الأقل أهمية .

وكان أكبر أبناء صلاح الدين هو الملك الأفضل نور الدين على ماحفظ (١١٩٢ – ١١٩٦م = ٥٨٩ – ٥٩٢ هـ) بدمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين إلى الداروم

قرب حدود مصر . أما الابن الثانى لصلاح الدين وهو الملك العزيز عثمان . فكان بمصر وقت وفاة أبيه، فاحتفظ بها (١١٩٣ — ١١٩٨م = ٥٨٩ — ٥٩٥ ﻫ) ، فى حين أخذ الابن الثالث لصلاح الدين — وهو الملك الظاهر غازى — حلب وشمال الشام (١١٩٣ — ١٢١٥ م ، ٥٨٩ — ٦١٣ ﻫ) . أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر — أخو صلاح الدين — فقد أخذ الكرك والأردن ، فضلا عن الجزيرة وديار بكر ، وكلها اقطاعات ثانوية متفرقة منحه إياها صلاح الدين ، ولا تتناسب مع أهمية العادل التى ستزداد ظهوراً مع مضى الوقت[1] . أما بقية أبناء صلاح الدين وإخوته وأقاربه ، فكانت لهم إقطاعات ثانوية صغيرة : مثل الظافر خضر ابن صلاح الدين الذى أخذ بصرى وحوران ، والأمجد بهرامشاه ابن أخى صلاح الدين الذى أخذ بعلبك، والمجاهد شيركوه الثانى (الصغير) ابن محمد بن شيركوه الكبير عم صلاح الدين وقد أخذ حمص ، والمنصور الأول محمد ابن تقى الدين عمر وقد أخذ حماه ، فى حين أخذ سيف الإسلام طغتكين — وهو الأخ الرابع لصلاح الدين — اليمن وجزيرة العرب[2] .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله تحفز أبناء البيوت القديمة الحاكمة فى الجزيرة ، مثل البيت الزنكى ممثلا فى عز الدين مسعود الأول ابن مودود أتابك الموصل (١١٨٠ — ١١٩٣م ، ٥٧٦ — ٥٨٩ﻫ) وأخيه عماد الدين زنكى الثانى ابن مودود أتابك سنجار (١١٧٠ — ١١٩٧م ، ٥٦٦ — ٥٩٤ ﻫ)، والبيت الأرتقى ممثلا فى قطب الدين سقمان الثانى صاحب كيفا وآمد، وعماد الدين أبو بكر صاحب خرتبرت ، فضلا عن بنى سكمان فى خلاط ، أدركنا حقيقة الموقف فى العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى عند وفاة صلاح الدين[3] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ (مطبوع) .

(٢) عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٣٦٠ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٩ ﻫ .

النزاع بين أبناء البيت الأيوبى :

ولم تلبث أن نشبت حرب الوراثة بين أبناء البيت الأيوبى. ذلك أن صلاح الدين أوصى لإبنه الأفضل - صاحب دمشق - بالسلطنة من بعده، على أن تكون له السلطة العليا فى بقية أنحاء الدولة الأيوبية. ولكن الأفضل لم يكن بالشخص الذى يصلح لتلك المهمة لضعفه وسوء سيرته، حتى وصفه المؤرخون بأنه « أقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته »[1]. وزاد من كراهية الناس له أنه نبذ أمراء والده ومستشاريه، ووضع كل ثقته فى وزير جديد هو ضياء الدين ابن الأثير، أخى المؤرخ الشهير. ولم يلبث وزراء صلاح الدين وأمراؤه المستبعدون أن فروا إلى بلاط الملك العزيز عثمان بمصر، واستعدوه على أخيه الأفضل، فخرج العزيز من مصر فى صيف سنة ١١٩٤ م (٥٩٠ ﻫ) قاصداً الشام، وشرع فى محاصرة الأفضل فى دمشق، الأمر الذى جعل الأفضل بدوره يستنجد بعمه العادل[2].

وهكذا أتيحت الفرصة للعادل - وهو الرجل الطموح الذى كان يرجو أن يخلف أخاه صلاح الدين - فأخذ يتدخل، عله يحقق أطماعه الخاصة. وقد وصف ابن واصل الملك العادل بأنه كان « ذا مكر شديد وخديعة، صبوراً ذا أناة وتؤده »[3]. فلم يشأ أن يتعجل الحوادث عقب وفاة أخيه صلاح الدين، وأخذ يتصرف بأناة ريثما تتضح الأمور. وكان أن استجاب العادل لنداء الأفضل، فالتقى بالملك الظاهر صاحب حلب والمنصور محمد صاحب حماه، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك. واتفق هؤلاء جميعاً على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق، علماً منهم

(١) المقريزى : السلوك حوادث سنة ٥٩٠ ﻫ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٢٠.
(٢) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٥٩٠ ﻫ.
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧١ (مطبوع).

أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم » . وعندئذ أدرك العزيز أن لاقدرة له على مقاومة أولئك الأمراء جميعاً ، فانصرف عائداً إلى مصر بعد أن اجتمع بعمه العادل فى صحراء المـــزة ، فطيب العادل نفسه وأعطاه إحدى بناته ليتزوجها[1] .

أما التسوية التي على أساسها انصرف العزيز ، والتى تمت فى يوليو سنة ١١٩٤ م (٥٩٠هـ) ، فقد قضت بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ، فى حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين، ويأخذ الظاهر جبله واللاذقية ، وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلا[2] .

وهكذا أخذ العادل يبدو فى صورة الشخصية الكبرى الحريصة على وحدة البيت الأيوبى ، والمحافظه على كيان المسلمين أمام الأخطار الخارجية[3] .

على أن الأفضل لم يلبث أن تمادى فى لذاته ولهوه ، فتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب ، فى الوقت الذى عاد العزيز عثمان إلى مطامعه ، فخرج من مصر قاصداً دمشق. وكان أن عاد الأفضل إلى طلب النجدة من عمه العادل ، فحرض العادل أمراء العزيز على تركه ، وعندئذ وجد العزيز نفسه وحيداً فاضطر إلى العودة إلى مصر . وسرعان ماتم الاتفاق بين الأمراء على أن يأخذ الأفضل مصر ويترك دمشق للعادل ، فجمع الأفضل والعادل جيوشهما واستوليا على بيت المقدس ، ثم شرعا يزحفان على العزيز فى مصر

---

(١) المقريزى : السلوك حوادث سنة ٥٩٠ هـ.

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٩١ هـ.

(٣) يروى أبو المحاسن أن العادل عندما التقى بالعزيز عثمان قرب دمشق قال له : « لا تخرب البيت وتدخل عليه الآفة ، والعدو وراءنا من كل جانب . . . ارجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك » (النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٢١) .

حتى وصلا إلى بلبيس وحاصراها . وليس أدل على مهارة العادل فى ذلك الدور من أنه عاد يخشى أن يأخذ الأفضل مصر ولا يعطيه دمشق ، فأرسل العادل سراً إلى العزيز يطلب منه الثبات ويتعهد له بالانسحاب من بلبيس[1]. وهكذا عاد الأفضل إلى دمشق فى حين جعل العادل من نفسه حكما بين أبناء صلاح الدين مما مكنه من أن يفرض كلمته عليهم جميعاً .

على أن الأفضل عاد فى تلك المرة إلى دمشق ليترك جميع شئون الحكم فى يد وزيره ضياء الدين ابن الأثير « الذى اختلت به الأحوال غاية الاختلال وكثر شاكوه » ؛ فضج الناس من سوء الحكم وأعلنوا سخطهم على الأفضل وابن الأثير جميعاً[2] .

وهنا وجد العادل أن الأمور قد نضجت لعزل الأفضل ، فذهب إلى العزيز فى مصر . وعقد معه اتفاقية لتحقيق ذلك الغرض ، ثم خرج الإثنان — العادل والعزيز — من مصر فى يونية سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) قاصدين دمشق « فما صدهم عن البلد صاد ولا ردهم راد »[3] .

ولم تلبث أن سقطت دمشق فى أيديهما فى أوائل يوليه ، وعندئذ حل العادل محل الأفضل فى حكم دمشق وأواسط الشام ، فى حين أخذ العزيز لقب السلطنة، وبقيت له مصر وبيت المقدس ؛ على أن يذكر اسمه فى الخطبة وينقش على السكة . أما الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد فى إقليم حوران شرقى بصرى، ليقيم فيها نسيا منسيا[4] .

---

(١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩١ هـ .

(٢) المقريزى . السلوك ج ١ ص ١٣٩ سنة ٥٩٢ هـ .

(٣) أبى واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٦٠ (مطبوع) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٩٦ .

مصر في عهد العزيز عثمان :

حكم العزيز عثمان مصر قرابة خمس سنوات (١١٩٣ – ١١٩٨ م = ٥٨٩ – ٥٩٥ هـ) وكان قبل ذلك يحكم مصر باسم أبيه صلاح الدين . وفى ذلك يقول المؤرخ أبو المحاسن عن العزيز عثمان أنه «ولى سلطنة مصر في حياة والده صورة ، ثم تسلطن بعد وفاته استقـــلالا ، باتفاق الأمراء وأعيان الدولة بديار مصر[1] » .

ويلاحظ أن العزيز عثمان ولد بالقاهرة ، وهو لذلك يمثل أول حاكم من بنى أيوب يولد بمصر ويتولى حكمها . وقد أشارت المراجع باستقامة العزيز عثمان واستقامة حكمه وعدله في الرعية ، حتى وصفه ابن خلكان بأنه « كان ملكا مباركا كثير الخير واسع الكرم محسنا إلى الناس » .

وعلى الرغم من أن مصر ظلت في ذلك العهد — كما كانت في أيام صلاح الدين — قلب الدولة الأيوبية ، إلا أن أحوالها الاقتصادية تأثرت إلى حد كبير بسبب انخفاض فيضان النيل سنة ١١٩٤ م (٥٩١ – ٥٩٢ هـ) وما ترتب على ذلك من نقص الغلال وانتشار الوباء، فهلكت المواشى، وكثر الزحام في الأسواق على الخبز لقلته « وكثرت الطرحى من الأموات على الطرقات ، وزادت عدتهم بمصر والقاهرة في كل يوم عن مائتى نفس ، وبقى بمصر من لم يوجد من يكفنه وأكثرهم يموت جوعاً . »[2] ويبدو أن انشغال العزيز عثمان بالنزاع مع أخيه الأفضل في ذلك الدور بالذات لم يساعد على سرعة وضع حد لتلك الضائقة التي [illegible] تأثيراً خطيراً في أحوال البلاد .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٢٠ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٣٠ .

العادل وتوحيد الدولة الأيوبية :

وإذا كانت الظروف التى ألمت بالبيت الأيوبى بعد وفاة صلاح الدين قد ساعدت على إبراز أهمية العادل بوصفه كبير الأيوبيين وزعيمهم ، فإن هذه المكانة كانت تلقى مسئولية كبيرة على كاهل العادل، فيما يختص بالدفاع عن مصالح المسلمين ضد أى عدوان من جانب الصليبيين . وفعلا نهض العادل بمسئوليته تجاه العدوان الصليبى على خير وجه ، فعندما وفد بعض الصليبيين الألمان إلى الشام سنة ١١٩٧م (٥٩٣هـ) وهاجموا المسلمين — وبخاصة قرب الساحل — أسرع العادل إلى جمع القوى الإسلامية، وأنزل الهزيمة بالصليبيين عند تل العجول قرب غزة، ثم أسرع بالاستيلاء على يافا فى سبتمبر سنة ١١٩٧م (٥٩٣ هـ)[1]. وقد رد الصليبيون على ذلك بالاستيلاء على بيروت فى أكتوبر، ثم فكروا فى الزحف على بيت المقدس ، ولكن العادل طلب معونة العزيز عثمان من مصر، فحضر إليه فى أوائل سنة ١١٩٨م (٥٩٤هـ)، وتمكن المسلمون من الصمود فى وجه الصليبيين الذين انصرفوا فاشلين[2] .

ولم يكد يتم الصلح بين المسلمين والصليبيين فى أوائل يولية سنة ١١٩٨م (٥٩٤ هـ) حتى مرت الدولة الأيوبية بعدة تطورات انتهت بتوحيدها مرة أخرى تحت زعامة العادل . ذلك أن العزيز عثمان سلطان مصر توفى فى أواخر نوفمبر سنة ١١٩٨م (٥٩٥ هـ) وكان ابنه الأكبر ناصر الدين محمد — الملقب بالملك المنصور — فى العاشرة من عمره، فأرسل فخر الدين جهاركس — صاحب النفوذ فى مصر — إلى العادل يستدعيه لحكم البلاد . ولكن المماليك الأسدية والصلاحية فى مصر خشوا بأس العادل، فاستدعوا الملك الأفضل

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٢٢ : ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٤ — ٧٥ .

(٢) أبو شامة : المختصر فى تاريخ البشر ، حوادث سنة ٥٩٤ هـ .

من حوران وسلموه مقاليد الأمور فى مصر فى يناير ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وكان العادل عندئذ يحاصر ماردين فى ديار بكر ؛ فاتفق الملك الأفضل فى مصر مع الملك الظاهر صاحب حلب للقضاء على سيادة عمها الملك العادل وأخذ دمشق منه [1] .

وعندما علم العادل بمؤامرة أبناء أخيه ضده، عاد مسرعا إلى دمشق، فوصلها فى ٨ يونيو سنة ١١٩٩ م (٥٩٥ هـ) وأخذ يعد المدينة بسرعة للدفاع . ولم تمض مدة طويلة حتى وصل الأفضل على رأس العسكر المصرى والظاهر على رأس العسكر الحلبي ، وحاصرا المدينة طوال ستة أشهر ؛ ولكن دون أن أن يقوما بهجوم تام جاد . على أن طول مدة الحصار أدت بكثير من أمراء الأفضل والظاهر إلى تركهما والانضمام إلى العادل ، فى الوقت الذى استغل العادل سوء تدبير الأخوين وأخذ يبذر بذور الخلاف بينهما، حتى انتهى الأمر فى أواخر ديسمبر سنة ١١٩٩ م (٥٩٦ هـ) بعودة الأفضل إلى مصر والظاهر إلى حلب [2] . وهنا لم يشأ العادل أن يترك الأفضل يعود فى سلام إلى القاهرة وإنما تبعه إلى مصر ، وأنزل به الهزيمة قرب بلبيس . ولم يلبث أن استسلم الأفضل وطلب أن يسمح له بالعودة إلى إقطاعه المتواضع فى حوران، على أن تكون مصر للعادل (فبراير ١٢٠٠ م = ٥٩٦ هـ) [3]

على أن الظاهر والأفضل لم يلبثا أن اتفقا فى العام التالى مرة أخرى ، وزحفا على دمشق ليحاصراها من جديد ، وعندئذ أسرع العادل من مصر ليبذر بذور الخلاف بين الأخوين ، فعاد الظاهر إلى حلب واعترف بسيادة

---

(١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩٥ هـ ؛ أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٤٧ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٥٩٦ هـ .

عمه . أما الأفضل فقد اختار عمه العادل أن يعاقبه ، فلم يعطه تلك المرة سوى سميساط[1] .

وهكذا صار العادل « سلطان البلاد جميعها » وبيده ملك مصر وبيت المقدس ودمشق، فضلا عن أملاكه فى الجزيرة. وإذا كان العادل قد نجح فى توحيد الدولة الأيوبية من جديد ، فإن ذلك تطلب منه إعادة تنظيم دولته، واستعان فى ذلك التنظيم بأبنائه ، فأناب ابنه الكامل محمد فى حكم مصر ، وجعل المعظم عيسى فى دمشق، وأعطى الأشرف موسى حران، والأوحد ميافارقين. واحتفظ العادل لنفسه بالإشراف التام على جميع تلك الأنحاء « وصار يتنقل فى ممالك أولاده ، والعمدة فى كل الممالك عليه ! »[2] .

وبذلك تم توحيد الجبهة الإسلامية مرة أخرى فى وجه الصليبيين ، وقام على رأس هذه الجبهة رجل يعتبر من أقوى رجال عصره : هو السلطان العادل أخو صلاح الدين .

السلطان العادل والصليبيون :

نظر الصليبيون والغرب الأوروبى إلى جهود العادل الأيوبى فى توحيد الجبهة الأسلامية بعين القلق ، وأخذوا يدركون أهمية مصر بوصفها القاعدة الكبرى التى اعتمد عليها الأيوبيون فى نشاطهم الداخلى والخارجى . لذلك ظهرت الدعوة فى الغرب الأوربى فى أوائل القرن الثالث عشر لإرسال حملة كبيرة ضد مصر ، وهى الحملة التى عرفت فى تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الرابعة، والتى انحرفت إلى القسطنطينية ولم تصل إلى مصر أو الشام .

---

(١) المقريزى : السلوك ، حوادث سنة ٥٩٨ هـ (ج ١ ص ١٥٩) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٧ .

وفى تلك الأثناء ظل الملك عمورى الثانى لوزجنان حريصا على عدم خرق الصلح الذى عقد مع المسلمين سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ، فعمل دائما على على عدم استفزاز العادل حتى تأتى الحملة الصليبية المنتظرة إلى الشرق . من ذلك أن ثلثمائة فارس من الفلمنكيين وصلوا فى نهاية سنة ١٢٠٢م (٥٩٩هـ) إلى عكا، وطلبوا من الملك عمورى الثانى البدء فورا بالزحف ضد المسلمين، ولكن عمورى رد عليهم بأن الحماسة وحدها لا تكفى ، وأنه من الأفضل عدم خرق الهدنة مع المسلمين حتى يضمن الصليبيون قوة فعالة تحقق لهم النجاح فى حروبهم ضد المسلمين[1] .

على أنه ليس معنى حرص عمورى الثانى على احترام الصلح مع المسلمين أنه ارتضى العدوان على الصليبيين ، إذ الواقع أن سياسته اتجهت إلى عدم المبادرة بالعدوان مع التأهب دائما للدفاع عن كيان الصليبيين ومصالحهم . من ذلك أن أميرا مسلما امتلك قلعة فى إقليم صيدا ودأب على تسليح بعض السفن للقيام بإغارات عدوانية على ممتلكات الصليبيين وسفنهم . ولم تفلح الشكاوى التى بعث بها عمورى إلى الملك العادل لوقف نشاط ذلك الأمير، وعندئذ عزم عمورى على رد العدوان بالمثل ، فتربص اسطوله لقافلة من السفن الإسلامية — تبلغ عشرين سفينة — قادمة من مصر إلى موانى الشام، واستولى على ما فيها من بضائع قدرت بنحو ستين ألف دينار، ورجال بلغوا المائتين.[2] وبعد ذلك شرع عمورى فى القيام بإغارة على إقليم الجليل ، فأوغل الصليبيون حتى كفر كنّا — على الطريق بين عكا وطبرية — واعتدوا على أرواح المسلمين وأملاكهم[3] . ولكن العادل خرج إليهم ، فأوقف

(١) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 296.

(٢) Grousset: Hist. des Croisades, III, p. 180.

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٦٠٠ هـ .

الصليبيون زحفهم واختاروا أن يتريثوا حتى تصل الحملة الصليبية المزعومة، ولم تلبث أن جاءت الاخبار بانحراف الحملة الصليبية واتجاهها إلى القسطنطينية ، مما ساعد على إبرام الصلح بين الصليبيين والمسلمين فى سبتمبر سنة ١٢٠٤ م (٦٠١ ﻫ).

وهنا نلاحظ على العادل أنه كان متسامحا إلى أقصى حدود التسامح، وأنه حرص دائما على عدم العدوان ، بل كان يعمد أحيانا إلى السكوت عن عدوان الصليبيين رغبة منه فى عدم إشعال نار العداوة بينهم وبين المسلمين. ذلك أن الصليبيين — وبخاصة الاسبتارية فى حصن الأكراد — دأبوا منذ سنة ١٢٠٦ م (٦٠٣ ﻫ) على الإغارة على مدينة حمص ، فى الوقت الذى استولى قراصنة قبرس سنة ١٢٠٧ م (٦٠٤ ﻫ) على عدة سفن من أسطول مصر (١) . ومع ذلك كله فقد اكتفى العادل بانذار ملك الصليبيين ، وقنع برد أسرى المسلمين . ومن الواضح أن سياسة العادل وتسامحه كانت لا تتفق بأى حال وروح العصر وحماسة المسلمين ، الأمر الذى جعل المسلمين يعقدون الاجتماعات فى جامع دمشق ، حتى أن امرأة قطعت شعرها وبعثت به إلى العادل وقالت له « اجعله قيدا لفرسك فى سبيل الله »(٢) .

وإذا كان هذا الشعور قد دفع العادل إلى القيام ببعض الأعمال الحربية ضد الصليبيين سنة ١٢٠٧م (٦٠٤ ﻫ) فى منطقة طرابلس ، فإنه لم يلبث أن اصطلح معهم بعد قليل .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ؛ سنة ٦٠٤ ؛ سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص٣٩.

(٢) ذيل الروضتين . (Rec. Hist. Cr., Tome 4, pp. 156-158).

الفصل الخامس

السلطان الكامل والحملة الصليبية الخامسة على مصر

تطلع الصليبيين إلى مصر :

أدرك الصليبيون منذ بداية استقرارهم بالشام أهمية مصر لهم ولمشاريعهم في الشرق الأدنى. فأخذوا يتطلعون إليها منذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد (الخامس الهجري) ؛ وقام جودفري دي برايون بمحاولته الأولى الاستكشافية في أرض مصر سنة ١٠٩٩ م (٤٩٣ هـ) ثم أعقبه أخوه بلدوين — أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية — فغزا مصر فعلا سنة ١١١٦ م (٥٠٩ هـ).

وقد سبق أن أشرنا إلى التنافس بين شاور وضرغام في أواخر الدولة الفاطمية، وكيف أدى ذلك التنافس إلى تدخل الصليبيين في شئون مصر وقيام ملكهم عموري الأول بحملات أربع على مصر، (١١٦١ — ١١٦٩ م = ٥٥٦ — ٥٦٤ هـ). وإذا كان الصليبيون قد فشلوا في أخذ مصر، فإن فشلهم كان حافزاً لهم على الإحساس بمدى الخطر الذي يتهددهم بعد أن غدا نور الدين — ومن بعده صلاح الدين — يسيطران على الشام ومصر جميعاً ويحصران المشيخات الصليبية بين فكي الكماشة الإسلامية.

ولا يخفى علينا كذلك أن مصر كانت المركز الذي استمد منه صلاح الدين قوته وموارده ؛ والتي اعتمد عليها في جهوده الحربية التي انتهت بالإطاحة بالصليبيين في موقعة حطين، ثم الاستيلاء على بيت المقدس وغيرها من مدنهم ومناطقهم في بلاد الشام. لذلك لا عجب إذا أفاق الغرب الأوربي في أوائل القرن الثالث عشر أمام حقيقة كبرى، هي أن مفتاح بيت المقدس موجود في مصر، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام فعليهم أن يسيطروا على مصر أولا.

وكان المفروض أن تتجه الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م (٦٠٠ هـ) ضد مصر بالذات، ولكن مطامع البندقية وجهت الحملة ضد القسطنطينية حيث أسقط الصليبيون الامبراطورية البيزنطية وأقاموا امبراطورية لاتينية. وإزاء هذا الفشل الذى منيت به الحملة الصليبية الرابعة، قام البابا انوسنت الثالث ومن بعده البابا هونريوس الثالث بالدعوة لحملة جديدة، هى الحملة الصليبية الخامسة.

حنادى برين ومهاجمة مصر:

وسرعان ماأخذت جموع الصليبيين تفد من الغرب إلى بلاد الشام تلبية لدعوة البابوية؛ فى الوقت الذى آمن حنادى برين ملك مملكة بيت المقدس فى عكا بفكرة مهاجمة مصر. وكانت فكرة حنادى برين تستهدف غزو مصر عن طريق الاسكندرية أو دمياط، وأيده فى هذه الفكرة جمهرة الصليبيين ببلاد الشام، وعلى رأسهم الداوية والاسبتارية، فضلا عن الصليبيين فى قبرس[1].

وعندما اكتملت استعدادات الصليبيين فى بلاد الشام، ترك الملك حنادى برين حامية قوية فى عكا للدفاع عنها ضد أى هجوم إسلامى منتظر، ثم خرج الأسطول الصليبى قاصداً دمياط فى أواخر مايو سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ). ولم يفت الصليبيون عندئذ أن يتصلوا بنجاشى الحبشة المسيحى ليتعاون معهم فى حرب الإسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة[2].

على أنه يلاحظ أن الصليبيين ارتكبوا خطأ كبيراً سنة ١٢١٨ م

---

(١) Brehier : L'Eglise et l'Orient, pp. 191-192.

(٢) Coulbeaux : Hist. d'Abyssinie, pp. 256-266.

(٦١٥ هـ) بغزوهم مصر عن طريق دمياط والنيل . وكان المفروض أن يستفيد الصليبيون عندئذ من تجارب عمورى الأول التى أثبتت أن الوصول إلى القاهرة أمر سهل عن طريق الصحراء الشرقية . ولكن ربما كان عذر حنادى برين هو أن عمورى كانت له قاعدة حربية كبرى فى جنوب فلسطين — هى مدينة عسقلان — استطاع أن يعتمد عليها فى غزو مصر عن طريق الشرق ، أما حنادى برين فلم يجد للصليبيين أية قاعدة على الحدود يمكنهم الارتكاز عليها فى محاولتهم . وهكذا اختار الصليبيون النزول بدمياط لا لأن دمياط أقرب الموانى المصرية للصليبيين بالشام فحسب ، بل لأن فرع دمياط يمثل أيضاً طريقاً طبياً ووسيلة سهلة للمواصلات تربط الصليبيين بقواعدهم فى الشام . ونسى الصليبيون مدى ما يمكن أن يتعرضوا له فى غزوهم مصر عن طريق النيل من عقبات طبيعية تتمثل فى السدود والترع والقنوات مما يجعل وصولهم إلى القاهرة عن هذا الطريق أمراً متعذراً بل مستحيلا(١) .

وعندما وصلت السفن الصليبية إلى مصب فرع دمياط ، نصب الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لمدينة دمياط . وقد وجد الصليبيون المدينة محصنة تحصينا قوياً ، إذ كانت تمتد بعرض مجرى النيل عند مصبه ما أصر ، وهى سلاسل ضخمة من الحديد تحول دون دخول المراكب العادية من البحر إلى النيل(٢) . هذا بالإضافة إلى برج السلسلة ، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر لحماية دمياط ودفع أى عدوان يقع عليها(٣) .

ولما علم الملك الكامل — الذى كان ينوب عن أبيه السلطان العادل فى حكم مصر — بنزول الصليبيين فى مواجهة دمياط ، أسرع على رأس جنده ونصب معسكره جنوبى دمياط عند منزلة العادلية ، ليكون على اتصال

---

(١) King : The Knights Hospitallers in the Holly land, p. 190.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٨٨ سنة ٦١٥ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

بالمدينة من ناحية ويمنع الصليبيين من العبور إليها من ناحية أخرى . هذا فى الوقت الذى استدعى السلطان العادل ابنه الملك الأشرف « فسار فى عسكره إلى حمص ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط »(١) .

ولم يلبث أن أدرك الصليبيون عظم الخطأ الذى وقعوا فيه برسوهم على الضفة الغربية للنيل بدلا من الضفة الشرقية القائمة عليها دمياط ذاتها ، مما أثار أمامهم مشكلة صعبة هى كيفية عبور النيل . هذا بالإضافة إلى أنهم أضاعوا كثيراً من الوقت عقب نزولهم على شاطىء مصر ، مما أعطى المسلمين فرصة طيبة للاستعداد .

وهكذا قضى الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة ، حتى تمكنوا أخيراً — فى أغسطس ١٢١٨م (٦١٥هـ) — من الاستيلاء على البرج، وقطع المآصر التى كانت تعترض مدخل النهر(٢) . ولاشك فى أن سقوط برج السلسلة فى قبضة الصليبيين وتحطيم تلك المآصر التى تحمى مدخل النيل جاء خسارة كبرى ، إذ اعتبر المعاصرون ذلك البرج « قفل الديار المصرية »(٣) .

ويقال إن السلطان العادل عندما سمع بذلك الخبر لم يحتمله فمرض مرض الموت ، ولم يلبث أن توفى فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) .

أبناء العادل ومدافعة الصليبيين :

أدرك أبناء العادل فى مصر والشام أن الخطر الذى يهددهم ويهدد

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ورقة ٢٢٩ a مخطوط .

(٢) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٣) أبوشامة : ذيل الروضتين . (Rec. Hist. Cr. Or. 5, p. 161).

المسلمين عظيما ، وأنه لو ثبت الصليبيون قدمهم فى مصر ، فلن يبقى للمسلمين مقام فى مصر والشام ، لذلك بذلوا كل ما فى وسعهم لطرد الصليبيين من مصر من ناحية ، وللضغط عليهم فى الشام لإجبارهم على سحب قواتهم من الشام من ناحية أخرى .

ولكى يسد الكامل مجرى النيل فى وجه الصليبيين، حاول إقامة جسر عظيم بعرض المجرى . ولكن الصليبيين قطعوا مجرى ذلك الجسر ، وعندئذ استحضر الكامل عدة من مراكب كبيرة وأغرقها فى النيل ليعوق تقدم السفن الصليبية فى النهر [1] . وفى تلك المرة أيضاً تحايل الصليبيون على تفادى تلك العقبة، فحفروا خليجا هناك كان النيل يجرى فيه قديما ، وأجروا فيه الماء إلى البحر، وبذلك استطاعت السفن الصليبية أن تدخل فى النهر حتى موضع مقابل لمنزلة العادلية حيث كان العادل [2] .

ولم تكد أخبار هذه الانتصارات التى أحرزها الصليبيون أمام دمياط تصل إلى الشام ، حتى تشجع إخوانهم وهاجموا بعض المراكز الإسلامية قرب عكا . ولكن المسلمين تصدوا للصليبيين وأنزلوا بهم خسائر جسيمة : كما خرج الملك المعظم عيسى من دمشق واقتحم قيسارية وهدمها ، فى الوقت الذى أغار الابن الثالث للسلطان العادل — وهو الأشرف موسى — على إمارة طرابلس [3] . ومع ذلك فإنه يبدو أن المعظم كان متخوفا من نتيجة الحرب مع الصليبيين فى مصر ، فهدم سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) عدة حصون قوية فى الشام حتى لا يستفيد الصليبيون منها إذا استولوا عليها ، بل أنه هدم أبراج مدينة بيت المقدس وأسوارها حتى لا يحصل الصليبيون منها على أية

---

(١) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٩٥ .
(٣) ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Or. 5, p. 160).

فائدة ، الأمر الذى أثار موجة من الذعر والأسى بين صفوف المسلمين في المدينه[1] .

سقوط دمياط :

وعلى الرغم من أن الموقف فى تلك المرحلة كان يدل على تفوق الصليبيين ، إلا أن حنادى برين بدأ يواجه مشاكل عديدة فى مصر عقب استيلائه على برج السلسلة . ذلك أن كثيرا من الصليبيين ظنوا أن مهمتهم انتهت بسقوط ذلك البرج وأنهم أوفوا بقسمهم الصليبي فانسحبوا عائدين إلى بلادهم. وهكذا صار على حنادى برين أن ينتظر وصول إمدادت جديدة ، وهى الامدادات التى وصلت من أوربا فعلا فى سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ). على أنه يلاحظ أنه جاء على رأس هذه الامدادات مندوب عن البابا هو الكاردينال بلاجيوس الذى تزعم الحملة . ولا شك فى أن ظهور زعيم جديد للصليبيين فى مصر أضعف مركز حنادى برين ، فضلا على أن ذلك الإزدواج فى القيادة أنزل أبلغ الضرر بالحملة الصليبية الخامسة ومستقبلها ، كما سيلى فيما بعد[2] .

أما عن الجبهة الإسلامية ، فيلاحظ أن العادل توفى فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) وترك لأبنائه تركة ثقيلة ، إذا كان على ابنه الكامل — الذى خلف أباه فى مصر — طرد الصليبيين من الأرض المصرية ؛ كما كان على ابنه المعظم — الذى خلف العادل فى دمشق — حراسة جبهة الشام ، والضغط على الصليبيين لإجبارهم على ترك مصر ، فضلا عن مساعدة أخيه الكامل .

وقد حاول الكامل القيام بهجوم على معسكر الصليبيين فى أوائل أكتوبر سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) فعبر النيل وباغتهم بالهجوم ، ولكنهم صمدوا له

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧٠ .

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 211.

بل تغلبوا عليه ، وعندئذ انسحب الكامل . وأراد الصليبيون أن ينتهزوا الفرصة للعبور على ضفة دمياط ولكنهم فشلوا فى ذلك[1] . وزاد من موقف الكامل سوءاً أن البدو أتوا من سيناء والشرقية ليستفيدوا من حالة الفوضى التى نجمت عن الغزو الصليبى ، فأغاروا على القرى ونهبوها « وبالغوا فى الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج »[2] . ثم ضاعف من خطورة الموقف أن أحد قواد الكامل — وهو ابن المشطوب — دبر مؤامرة كبرى لعزل الكامل وإحلال أخيه الأصغر الفائز ابن العادل محله فى الحكم[3] .

ولم يسع الكامل أمام هذه الأخطار سوى أن يستنجد بأخيه المعظم . وقبل أن يصل المعظم إلى مصر خشى الكامل على نفسه من المتآمرين، فهرب من معسكره فى العادلية ليلا ، وترتب على ذلك فرار الجند من بعده . فلما أصبح الصباح وجد الصليبيون المعسكر الإسلامى أمامهم خاويا ، فعبروا فى سهولة إلى الضفة الشرقية للنهر « آمنين بغير منازع ولا ممانع، وغنموا كل ما فى معسكر المسلمين من عدد وسلاح ومؤونة[4] .

وهكذا ساء الموقف فى مصر ، لولا وصول المعظم فى الوقت المناسب ؛ فأعاد الثقة إلى أخيه الكامل، وتخلص من ابن المشطوب ، وأعاد تنظيم الجيش الإسلامى الذى رابط عند فارسكور جنوبى العادلية. وبفضل هذه الإجراءات الجديدة تمكنت دمياط من الصمود تسعة أشهر أخرى قاومت فيها المحاولات التى بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها . وتذكر بعض المراجع الصليبية أن الكامل والمعظم أرسلا فى طلب المعونة من جميع أنحاء العالم الإسلامى ،

---

(١) سعيد عبدالفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧١ .

(٢) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ .

وأنهما أوضحا لبقية الحكام المسلمين خطورة استيلاء الصليبيين على مصر «فإنهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها[1]».

وعندما علم الكامل بوصول نجدات قوية للصليبيين من قبرص وغرب أوربا، أرسل إليهم بعرض سخى، هو استعداده لاحياء مملكة بيت المقدس القديمة وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) باستثناء حصن الكرك الذى يبقى بيد المسلمين؛ على أن يجلو الصليبيون عن مصر. وقد قبل هذا العرض حنا دى برين وأمراء مملكته والصليبيون الفرنسيون. ولكن المندوب البابوى بلاجيوس رفض الموافقة عليه، وشاركه رأيه الاسبتارية والداوية، الذين ظنوا أن امتلاك مصر بات أمراً سهلا[2]. وثمة خطأ آخر وقع فيه بلاجيوس زعيم الحملة وشيعته من فرسان الداوية والاسبتارية، هو إصرارهم على توجيه هجماتهم ضد معسكر الكامل والمعظم فى فارسكور؛ بدلا من الاكتفاء بحصار دمياط، مما عرضهم للهزيمة والفرار. ولم تلبث أن وصلت نجدات قوية للصليبيين فى سبتمبر سنة ١٢١٩م (٦١٦هـ)؛ فشددوا هجماتهم على دمياط التى ازدادت حالتها سوءا، فاضطرت إلى التسليم فى نوفمبر سنة ١٢١٩ م (٦١٦ هـ)[3].

وكان أن أتى الصليبيون كثيراً من أعمال السفك والعدوان فى دمياط؛ كما أنهم أرادوا اتخاذ دمياط مركزا منيعا دائما لهم، «فبالغوا فى عمارتها وتحصينها». أما عن المسلمين فكانت خسارتهم بضياع دمياط عظيمة، ضاعف منها ظهور خطر المغول فى الجناح الشرقى للعالم الإسلامى، عندما استولى جنكزخان على خوارزم وبلاد ماوراء النهر ومعظم فارس، وسقطت بخارى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٩٥.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٧٦.

(٣) ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ هـ.

فعلا فى بدء سنة ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ)(١) .

الصليبيون والزحف على القاهرة :

ومع أن الظروف كلها كانت فى صالح الصليبيين عقب سقوط دمياط ، إلا أن الإنقسامات التى تعرض لها الصليبيون والأخطاء التى وقعوا فيها، أنزلت بهم كثيراً من الأضرار وتسببت فى فشلهم النهائى . ذلك أن حنادى برين لم يستطع أن يتعاون مع المندوب البابوى بلاجيوس ، فانسحب الملك الصليبى عائدا إلى عكا فى أواخر مارس ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ) ، تاركا بلاجيوس يضيع على الصليبيين بقية ذلك العام والنصف الأول من عام ١٢٢١ م (٦١٧ — ٦١٨ هـ) فى حالة ركود تام . ولم يكن ذلك إلا فى أواخر يونية سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) عندما قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة ، فأرسل إلى حنادى برين فى عكا يرجوه العودة ومساعدة الصليبيين فى فتح مصر . وكان أن خشى حنادى برين أن يتهم بعدم التعاون ، فحضر إلى دمياط فى أوائل يوليو فى الوقت الذى شرع الصليبيون فعلا فى الزحف جنوبا بمحاذاة النيل(٢) .

وفى تلك المرحلة الخطيرة فعل الأيوبيون كل ما أمكنهم لانقاذ البلاد ، فجمعوا الناس وأقاموا خطاً دفاعياً إلى قباله طلخا ، حيث شيد الكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل أطلق عليها اسم المنصورة(٣) . وفى أواخر يوليو سنة ١١٢١ م (٦١٨ هـ) اجتمع الأخوة الثلاثة — الكامل والمعظم والأشرف — فى المنصورة،ومعهم جيوشهم استعداداً للمعركة مع الصليبيين

---

(١) D'ohsson : Hist. des Mongols, I, pp. 216-330.

(٢) Archer : The Crusades, p. 318.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٠١ .

على أنه تنبغى الإشارة إلى أن الكامل ظل طوال تلك الأثناء يكرر عرضه على الصليبيين بالجلاء عن مصر مقابل أحياء مملكة بيت المقدس الصليبية. وفى كل مرة يشتط الصليبيون فى طلباتهم، بل أخذوا يواصلون زحفهم وسط مثلث كبير تحيط به المياه من ثلاث جهات، هى بحيرة المنزلة شرقاً وفرع دمياط غرباً والبحر الصغير جنوباً.

على أن السفن الإسلامية حرصت على أن تتخذ مكانها فى النيل لتسد الطريق فى وجه السفن الصليبية وتحول دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم أثناء زحفهم[1]. وكان أن وصل الصليبيون إلى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشموم) من فرع دمياط، وهى المنطقة التى تمثل رأس مثلث يحيط به الماء من ثلاث جهات، فقطع المسلمون السدود والنهر ملىء بماء الفيضان، فلم يشعر الصليبيون إلا والأرض التى هم عليها قد غرقت بحيث لم يبق لهم سوى ممر ضيق يمكنهم من العودة عن طريقه إلى دمياط[2].

فشل الصليبيين وجلاؤهم عن دمياط:

ولم يلبث أن تنبه الصليبيون إلى خطورة موقفهم، فأرادوا الارتداد بسرعة نحو دمياط، ولكن السلطان الكامل كان قد أنزل عند شارمساح — شمالى شربين — ألفى فارس ليقطعوا على الصليبيين خط الرجعة. وهكذا تجمد موقف الصليبيين وأحاطت بهم المياه من كل جانب، فلا هم يستطيعون القتال فى الوحل ولا هم يستطيعون العودة إلى قواعدهم، ولم يبق لهم إلا طلب الصلح من السلطان الكامل فى أواخر أغسطس سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ). ومن الملاحظ أن موقف الصليبيين كان عندئذ جد خطير، لأنه لو صبر الكامل

---

(١) أبو المحاسن: النجوم ح ٦ ص ٢٤١.

(٢) [illegible]

برمين « لأخذ برقابهم »[1] ، ولذلك عارض المعظم والأشرف فى إجابة الصليبيين إلى طلبهم . ولكن الكامل – الذى اشتهر بتسامحه – رأى السماح للصليبيين بالخروج من مصر ، لأنه كان يخشى وصول حملة صليبية من الغرب . على أن الكامل اشترط على الصليبيين أن يبعثوا إليه برهائن من ملوكهم يبقون لديه حتى يسلموا دمياط ، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا إلى الكامل عشرين من كبرائهم على رأسهم حنادى برين والمندوب البابوى بلاجيوس ، فى حين أرسل إليهم الكامل مقابل ذلك إبنه الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة من خواصه[2] .

وأخيراً تم جلاء الصليبيين عن دمياط فى ٧ سبتمبر سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ) فدخلها الملك الكامل فى اليوم التالى. وكان أن أبحر الصليبيون الغربيون إلى أوربا فى حين عاد حنادى برين ورجاله إلى الشام بعد أن عقد هدنة مع الأيوبيين لمدة ثمان سنوات (١٢٢١ – ١٢٢٩ م = ٦١٨ – ٦٢٦ هـ) .

وهكذا انتهى أمر الحملة الصليبية الخامسة بالفشل بعد أن كان منتظراً لها النجاح ، وأضاع الصليبيون من أيديهم فرصة إحياء مملكة بيت المقدس واسترداد مدينة القدس ذاتها مقابل الجلاء عن دمياط ، فاضطروا فى النهاية إلى الجلاء عن دمياط بلا مقابل[3] .

---

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين سنة ٦١٨ هـ ؛ أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٤٢ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٠٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٦١٤ .

الفصل السادس

السلطان الكامل والامبراطور فردريك الثانى

الخلاف بين أبناء العادل :

أظهر أبناء العادل الثلاثة — الكامل والمعظم والأشرف — تضامنا قويا بعد وفاة أبيهم ، وإلى ذلك التضامن يرجع الفضل فى التغلب على الحملة الصليبية الخامسة . على أن هذا التحالف لم يلبث أن انفرط عقده فى نهاية سنة ١٢٢٣م وبداية ١٢٢٤م (٦٢٠ — ٦٢١هـ) نتيجة لأطماع المعظم عيسى وجشعه[1] ذلك أن المعظم عيسى أراد أن يتوسع ويضيف إلى أملاكه ، ولكنه بدلا من أن يتوسع على حساب الصليبيين ، لجأ إلى العدوان على ممتلكات إخوته وأقاربه . من ذلك أنه هاجم حماه واستولى على بعض أعمالها — مثل المعرة وسلمية — وكانت حماه وأعمالها لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان ، فغضب الأشرف والكامل لذلك ، وأرسل الكامل إلى أخيه المعظم يطلب منه الرحيل عن حماه ، فتركها وهو حنق[2] . ويبدو أن هذا الحدث كان فاتحة الخلاف بين المعظم من ناحية وأخوية الكامل والأشرف من ناحية أخرى .

والواقع إن الأيوبيين كانوا أحوج إلى الاتحاد فى ذلك الوقت منهم فى أى وقت مضى ، نتيجة لظهور خطر جديد هددهم ، هو خطر الخوارزمية . وقد ظهر ذلك الخطر الجديد نتيجة مباشرة لحركة التوسع المغولى ، بعد أن دمر جنكز خان دولة الأتراك الخوارزمية سنة ١٢٢٠ — ١٢٢١م (٦١٧ —

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 350-351.

(٢) المقريزى : السلوك ج١ ص ٢١٤ .

٦١٨ هـ) . ويقال إن السلطان جلال الدين منكبرتى اضطر عندئذ إلى الفرار إلى الهند ، حتى إذا ما علم بعودة جنكزخان إلى قراقورم فى جوف آسيا ، رجع جلال الدين إلى فارس حيث التف حوله الأتراك الخوارزمية من جديد ، وأقام دولته مرة أخرى متخذا أصفهان عاصمة له . وبدلا من أن يعمل جلال الدين فى ذلك الدور على حماية العالم الإسلامى من خطر المغول الوثنيين ، قام — وهو الحاكم المسلم — بمهاجمة الخليفة العباسى فى العراق ، وطارد جيوشه حتى قرب بغداد سنة ١٢٢٥م (٦٢٢ هـ). وبعد ذلك اتجه جلال الدين لمهاجمة إقليم جورجيا على مقربة من أملاك الملك الأشرف بن العادل الأيوبى ، الأمر الذى جعل الأشرف يسرع إلى دمشق طالباً معونة أخيه المعظم[١] .

ومن الواضح أن الأشرف كان أكثر إحساساً بخطر الخوارزمية بحكم متاخمة بلاده — فى الجزيرة وخلاط — لهم . ولكن المعظم لم يأبه للخطر الخارجى ، وكان كل ما يعنيه هو تحقيق أطماعه على حساب أهل بيته ، فانتهز فرصة مجىء الأشرف إليه وقبض عليه ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تعهد له بمساعدته فى الاستيلاء على حمص وحماه ، ثم فى مهاجمة أخيهما الثالث الكامل فى مصر . وقد تعهد الأشرف بكل ذلك ، ولكنه ما كاد يفلت من يد المعظم ، حتى أكد تحالفه مع أخيه الكامل وأخبره بكل ما حدث[٢] .

على أن وجه الخطورة فى النزاع الذى قام عندئذ بين أبناء العادل ، هو أن الفريقين المتنازعين استعانا بقوى خارجية ، فاستنجد الملك المعظم

---

(١) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢١٥ ؛
D'ohsson : Hist. des Mongols, III, pp. 5-19.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حوادث سنة ٦٢٣ ؛ العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ هـ .

بالخوارزمية في حين استنجد الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في غرب أوربا . وهكذا لم يلبث أن حاصر السلطان جلال الدين الخوارزمي خلاط — عاصمة الأشرف — في يونيه ١٢٢٦ م (٦٢٣ هـ) كما أرسل جلال الدين إلى المعظم « خلعه لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للملك الكامل »[١] . فاستعد الكامل للزحف على الشام ، مما أنذر باشتعال الحرب في العالم الإسلامي في سبتمبر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) .

الكامل وفردريك الثاني :

عندما وجد السلطان الكامل نفسه في حاجة إلى معونة خارجية لمواجهة أطماع أخيه المعظم وحلفائه من الخوارزمية ، أرسل مبعوثاً خاصاً - هو شيخ الشيوخ الأمير فخر الدين يوسف - إلى الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، يدعوه أن يحضر لمساعدته في الشام ، وتعهد له مقابل ذلك أن « يعطيه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل »[٢] . وسرعان ماوصل رسول الكامل إلى الامبراطور فردريك الثاني بصقلية ، فأحسن الامبراطور استقبال الرسول ، ورد على السلطان بسفارة مماثلة تحمل « هدية سنية وتحف غريبة » فتلقى الكامل بدوره هدية الإمبراطور بالسرور البالغ « وأكرمه إكراماً زائداً » كما اهتم بإعداد هدية فاخرة للإمبراطور . وفي طريق عودة السفارة الإمبراطورية إلى الغرب مرت بدمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للإمبراطور ولكن المعظم أساء استقبال رسول الإمبراطور « وأغلظ له ، وقال : قل لصاحبك ما أنا مثل الغير ، وماله عندي سوى السيف »[٣] .

---

(١) المقريزي : السلوك ح ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٢) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ هـ ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

(٣) [illegible] الجمان ، [illegible] سنة ٦٢٤ هـ

والواقع إن استنجاد السلطان الكامل لم يكن الدافع الوحيد الذى حرك فردريك الثانى للذهاب إلى الشام ، وإنما كانت البابوية تضغط عليه ضغطاً شديداً للقيام بحملة صليبية جديدة تصلح الوضع الذى نجم عن فشل الحملة الصليبية الخامسة. والمعروف أن ذلك العصر يعرف فى التاريخ الأوربى باسم عصر البابوية والإمبراطورية ، نظراً لما احتدم من خلاف ومانشب من حروب بين السلطتين الدينية والعلمانية فى غرب أوربا . ويبدو أن الإمبراطور فردريك الثانى كان متخوفاً من تنفيذ وعده الصليبى حتى لايترك البابا حراً طليق اليد فى العدوان على مصالح الإمبراطورية أثناء غيابه . ولذلك أخذ فردريك الثانى يماطل البابوية ويؤجل مشروعه الصليبى ، حتى أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان ضد الإمبراطور فى أواخر سبتمبر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ)[١].

وكان هجوم البابوية على فردريك الثانى عنيفا فى تلك المرة فلم يحتمل الإمبراطور الهجوم وقرر القيام بحملته الصليبية ، فغادر الغرب فى يونيه ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) قاصدا بلاد الشام . ويجمع جميع المؤرخين على أن هذه الحملة الصليبية المعروفة باسم السادسة كانت أغرب حملة فى تاريخ الحروب الصليبية قاطبة . فإذا كانت الحملات الصليبية الأخرى قد حظيت بعطف البابوية وتمتعت ببركتها فإن حملة فردريك الثانى جاءت ملعونة من البابا وعلى رأسها امبراطور محروم من الكنيسة وعطفها . وإذا كانت بقية الحملات الصليبية قد حرصت على أن تجيش الجيوش وتجمع الآلاف من المقاتلين والكثير من السلاح لقتال المسلمين فى الشرق ، فإن فردريك حضر إلى الشام وليس معه سوى خمسمائة فارس . وأخيرا فانه إذا كانت الحملات الصليبية قد خرجت من غرب أوربا وهى تطفح بروح العداء ضد

---

(١) Kantorowicz : Fredrick the Second, p. 111.

المسلمين والكراهية الشديدة لهم ، فإن حملة فردريك الثانى أتى على رأسها امبراطور نشأ فى بيئة كانت مركزاً لحضارة إسلامية زاهرة ؛ فشب ذلك الإمبراطور فى جزيرة صقلية محباً للمسلمين وحضارتهم مما جعل حملته تمتاز بمسحه فريدة من التسامح القوى الواضح[1] .

وتدل جميع الشواهد على أن فردريك الثانى أتى إلى الشام ليفاوض لا ليحارب ، حتى علق أحد المؤرخين على ذلك بأن فردريك بدا عندما غادر أوربا وكأنه يزمع القيام بنزهة جميلة يزور فيها سلطان مصر[2] ! . ولم يكن فى سياسة فردريك هذه شيء غريب بالنسبة له ، لأنه اعتمد على وعود السلطان الكامل، وهى الوعود التى نصت على تسليم الإمبراطور بيت المقدس مقابل قيام الأخير « بشغل سر أخيه المعظم »[3] .

وهنا نلاحظ أن فردريك الثانى لم يعتمد على وعود الكامل وحده ، وإنما يبدو أنه قام قبل مغادرته الغرب باتصالات واسعة مع غير الكامل من أمراء البيت الأيوبى بالشام، بقصد إعداد الجو للحصول على بيت المقدس دون عناء . وخير شاهد على ذلك تلك الرسالة التى أوردها القلقشندى ، وهى عبارة عن خطاب أرسله الملك الجواد — أحد أمراء بنى أيوب بالشام — إلى الإمبراطور فردريك الثانى ، رداً على رسالة كان فردريك قد بعث بها إلى ذلك الملك الأيوبى . وتهمنا الفقرة الأخيرة من رسالة الملك الجواد الأيوبى والتى يقول فيها « وأما ماذكره المقام العالى السلطانى الكاملى الناصرى .. من أنه لافرق بين المملكتين[4] ، فهذا هو المتفق فى صدق عهده وخالص

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الأمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ، بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية — مجلد ١١ سنة ١٩٦٣ .

(٢) Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 281.

(٣) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

وده . . . »[1] ونخرج من هذه الرسالة بنتيجتين هامتين : أولا أن مراسلات فردريك الثانى قبل قيامه بحملته الصليبية لم تقتصر على الكامل وحده، وإنما امتدت إلى غيره من ملوك بنى أيوب . والثانية هى أن تلك المراسلات حفلت بروح الود والإخاء حتى أن الكامل أرسل إلى فردريك يخبره بعدم وجود فرق بين المملكتين .

فردريك الثانى فى الشام :

على أن فردريك الثانى لم يكد يصل إلى عكا فى سبتمبر سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) حتى وجد الموقف فى بلاد الشام غير ما كان ينتظر . ذلك أن البابا — للمرة الأولى والأخيرة فى تاريخ البابوية والحروب الصليبية — أخذ يرسل الرسل سرا إلى ملوك بنى أيوب بوجه عام — والسلطان الكامل بوجه خاص — محرضا إياهم على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور . ولا عجب فى ذلك الموقف الذى اتخذته البابوية ، إذ كانت المعركة بينها وبين الإمبراطورية فى الغرب أهم فى نظرها من المعركة بين المسلمين والصليبيين فى الشام[2] .

ثم إنه إذا كان فردريك الثانى قد أتى إلى الشام بعد أن وضع كل آماله فى وعود السلطان الكامل بتسليم بيت المقدس له ، فإن هذا الأمل انهار فجأة لتغير سياسة الكامل . ذلك أن المعظم صاحب دمشق — الذى كانت أطماعه هى السبب فى استنجاد الكامل بفردريك — كان قد توفى فى أواخر سنة ١٢٢٧ م (٦٢٤ هـ) تاركا ابنه الناصر داود ليخلفه . وكان الناصر داود هذا شاباً صغيراً فى العشرين من عمره ، عديم الخبرة محبا للهو ، مما مكن

(١) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ٧ ص ١١٧ — ١١٨ .

الكامل والأشرف من اقتسام أملاك أخيهما المعظم ، وإعطاء الناصر داود الكرك والشوبك وغيرهما من الجهات الثانوية[1]. وما دام الوضع قد استقر بين أبناء البيت الأيوبى على ذلك ، فإن السلطان الكامل لم يعد فى حاجة إلى معونة الإمبراطور فردريك .

ويصور لنا المؤرخون العرب حيرة السلطان الكامل فى ذلك الوقت ، لأن فردريك الثانى لم يحضر إلى الشام إلا بناءاً على طلب السلطان . وفى ذلك يقول ابن واصل والمقريزى « تحير الملك الكامل ولم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من الإتفاق ، فراسله ولاطفه[2] » . ويبدو أن الكامل أحس بأنه ليس من مصلحته ولا مصلحة البيت الأيوبى أن يصطدم بالصليبيين بالشام فى تلك المرحلة التى تعرض الوطن العربى فى الشرق الأدنى لتهديد الخوارزمية ومن ورائهم المغول؛ وهذا هو السر فى ملاطفته للإمبراطور. ولم ينس الكامل فى الوقت نفسه أن أى تساهل مع الصليبيين أو تفريط فى حقوق المسلمين سيثير ضده الرأى العام فى البلدان الإسلامية ، وبخاصة دمشق التى كانت أكثر إحساسا بخطر الصليبيين من غيرها[3] .

ومهما يكن من أمر فإن موقف فردريك الثانى ساء فى الشرق ، ولم ينس أنه خرج من بلاده محروما من الكنيسة مغضوباً عليه من البابوية ، وأنه اعتمد على وعود الكامل له بإعطائه بيت المقدس ، لإصلاح مركزه فى الغرب الأوربى . ولو كان الإمبراطور يعلم أن الكامل سينكث بوعده لما خرج إلى الشرق أصلا ، أو لكان استعد إستعداداً جدياً لحرب المسلمين وجلب جيشا كبيرا معه عند خروجه إلى الشرق .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٦ . ابن الأثير : حوادث سنة ٦٢٥ هـ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٠٢ « مخطوط » ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٩ .

وهكذا لم يبق أمام فردريك الثانى سوى سلاح واحد ، هو سلاح المفاوضة والإستعطاف واستخدام كافة وسائل الدبلوماسية للوصول إلى غرضه والعودة إلى الغرب الأوربى مرفوع الرأس . لذلك أسرع فردريك الثانى إلى إرسال سفارة من رسولين إلى السلطان الكامل تحمل له هدايا نفيسة من منسوجات حريرية ، وأوانى ذهبية وفضية ، مطالبا إياه بتحقيق وعده وتسليم بيت المقدس . غير أن الكامل تنكر لوعوده وأعلنها فى صراحة أنه كان سيعطى بيت المقدس للامبراطور ثمنا للمساعدة التى ينتظرها منه ، أما وقد تبدلت الظروف ولم يعد السلطان فى حاجة إلى تلك المساعدة فإنه لا يستطيع التفريط فى بيت المقدس[1] . ولم تفلح جهود الأمير فخر الدين يوسف مندوب السلطان فى الوصول إلى حل بين الطرفين ، فساء موقف فردريك الثانى لاسيما بعد أن جاءته أخبار من الغرب بأن البابا استغل فرصة غيابه واعتدى على ممتلكاته . ولعل هذه الأخبار فى حد ذاتها كانت كافية لدفع فردريك الثانى إلى التذلل للسلطان الكامل ، حتى حكى عنه أنه كان يبكى بكاء مرا فى مراحل المفاوضات .[2] ولا أدل على ذلك من رسالة أرسلها الإمبراطور فردريك إلى السلطان الكامل أثنـــاء المفاوضات يقول فيها « أنا مملوكك وعتيقك وليس لى عما تأمره خروج . وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر . وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فإن رجعت خايبا انكسرت حرمتى بينهم ! وهذا القدس فهى أصل اعتقادهم وضجرهم . . . فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ، ويرتفع رأسى بين ملوك البحر . . . »[3] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الأمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى ص ٢٠٦ .

(٢) Kantorowicz : Fredrick the Second, p. 185.

(٣) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثانى والسبعين من كتاب الوثائق بيبوتيس)

إستيلاء الصليبين على بيت المقدس :

ولم تلبث هذه الإستعطافات أن أفلحت مع السلطان الكامل — وهو الرجل المتسامح الطيب القلب — فوافق علي إعطاء فردريك بيت المقدس لقمة سائغة دون حرب أو قتال .ويبدو أن ماقام به الإمبراطور فردريك أثناء المفاوضات من تحصين يافا جاء بمثابة مظاهرة عسكرية جعلت الكامل يخشى تحالف فردريك مع بقية القوى الصليبية بالشام للقيام بعمل حربي مشترك ضد المسلمين .

وقد فسر المقريزى هذا الشعور بقوله إن الكامل « خاف من غائلته عجزاً عن مقاومته »[1] . ولا شك فى أن المغامرة فى حرب ضد الصليبيين كانت تعنى بالنسبة للكامل عندئذ وقوعه بين ثلاثة أعداء ، هم : ابن أخيه الناصر داود من ناحية ، والصليبيين من ناحية ثانية ، ثم الخوارزمية الذين استنجد بهم الناصر داود من ناحية ثالثة .

وفى ضوء هذه الحقائق جميعا وافق الكامل — تحت تأثير الأمير فخر الدين يوسف — على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثانى فى فبراير سنة ١٢٢٩م (٦٢٦ﻫ) . وبمقتضى هذه الإتفاقية تقرر الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات ، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا . وبخصوص بيت المقدس اشترط المسلمون أن تبقى المدينة على ماهى عليه ، فلا يجدد سورها ، وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدى المسلمين ، وتقام فيه شعائر الإسلام[2] .

على أن تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة أثار موجة عامة من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٦ ﻫ .

السخط والأسى في العالم الإسلامي «فاستعظم المسلمون ذلك واكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم مالم يمكن وصفه[1]» . كذلك يصل المقريزي مدى الأسى الذي حل بالمسلمين لتفريط الكامل في بيت المقدس فيقول . «فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل . . . وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار»[2] .

وسرعان ما أحس الكامل أنه «تورط مع ملك الفرنج» على قول المقريزي، فحاول أن يهون من أمر تسليم بيت المقدس للصليبيين، وبرر مسلكه بأعذار لم يقبلها معاصروه . بل أن الإمبراطور فردريك الثاني نفسه أحس بما سببته تلك الإتفاقية من حرج للسلطان «فاعتذر الأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ماكلف السلطان شيئاً من ذلك[3]» .

وهكذا استولى الصليبيون على بيت المقدس بسهولة تامة ، وهى المدينة التى أجهد صلاح الدين نفسه فى فتحها ، فدخلها فردريك الثانى فى ١٩ مارس سنة ١٢٢٩ م (٦٢٧ هـ) ليتوج نفسه امبراطوراً فى كنيسة القيامة ، ثم عاد إلى عكا ، ومنها انصرف بعد قليل إلى غرب أوربا[4] .

جهود الأيوبيين تجاه الصليبيين بالشام :

مر الصليبيون عقب عودة الامبراطور فردريك الثانى إلى غرب أوربا بدور طويل من أدوار الضعف والإنحلال ، بسبب مانشأ بينهم وبين بعض من خلافات ومنازعات . ولا أدل على ضعف الأيوبيين أيضاً فى تلك الفترة

---

(١) ابن الأثير : الكامل سنة ٦٢٦ هـ

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢١ هـ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٠ .

(٤) [illegible] ٢١٩ [illegible]

— أى فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر — من جمودهم أمام الصليبيين وعدم محاولتهم استغلال الظروف السيئة التى تعرض لها الصليبيون عندئذ. وكان المفروض أن يحاول المسلمون استعادة بيت المقدس من الصليبيين، لاسيما وأن هذه المدينة بقيت غير محصنة ومهدمة الأسوار دون جيش قوى للصليبيين فيها[1].

وربما كان السبب فى حرص الأيوبيين على عدم إثارة حرب مع الصليبيين بالشام فى تلك الفترة، هو تخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتى. ذلك أن الخوارزمية لم يكتفوا بتهديد الخلافة العباسية فى بغداد، بل دأبوا على محاكاة المغول فى تدميرهم البلاد التى يجتاحونها أو يسلكونها، حتى لو كانت هذه البلاد إسلامية. ولم يكن الكامل والأشرف مبالغين فى تخاوفهما من الخوارزمية، إذ نجح جلال الدين فى الاستيلاء على خلاط فى أبريل سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧هـ) بعد حصار ستة أشهر، وعندئذ دخل الخوارزمية المدينة ليعتدوا على الأهالى اعتداءاً وحشياً. وكان من جملة الأسرى زوجة الملك الأشرف الأيوبى نفسه، فانتهك السلطان جلال الدين عرضها فى الليلة نفسها التى استولى فيها على المدينة[2].

وقد أفزعت همجية الخوارزمية حكام المسلمين فى البلدان المجاورة، فتناسوا ما بينهم من خصومات للقضاء على ذلك الخطر، وتحالف الأيوبيون مع عدوهم السابق علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم ضد جلال الدين الخوارزمى. وكان أن تم اجتماع قوات الأيوبيين تحت زعامة الملك الأشرف بقوات السلاجقة تحت قيادة كيقباد فى سيواس، ومنها زحف الحلفاء على خلاط. وفى المعركة التى دارت بين الفريقين قرب

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٢٧

(٢) أبو الفدا: المختصر فى تاريخ البشر حوادث سنة ٦٢٨ هـ.

أرزنجان فى أغسطس سنة ١٢٣٠م (٦٢٧هـ) حلت الهزيمة ساحقة بالخوارزمية، وفر سلطانهم إلى أذربيجان بعد أن قتل كثير من رجاله[1].

وبذلك استرد الأشرف خلاط، وتم الصلح بعد قليل مع جلال الدين. ولم يلبث أن قتل جلال الدين بيد بعض الأكراد سنة ١٢٣١م (٦٢٩هـ) وعندئذ تمزقت دولته، وهامت جموع الخوارزمية فى كثير من بلاد الشرق الأدنى يعرضون خدماتهم على من يرغب فى شرائها من حكام المسلمين[2].

ومع ذلك، فإن الأيوبيين فى مصر والشام ظلوا لا يأمنون على أنفسهم أو بلادهم، لأن الخطر الذى هددهم عندئذ لم يكن خطر الخوارزمية فحسب، وإنما كان من وراء هؤلاء المغول بجحافلهم وعنفهم. ولم يلبث المغول أن استولوا على ممتلكات الخوارزمية، وبذلك أصبحت الخطوة التالية أمامهم هى غزو العراق وممتلكات الأيوبيين فى الجزيرة وسلاجقة الروم فى آسيا الصغرى[3].

وكان المفروض أمام ذلك الخطر أن يتحالف الأيوبيون مع سلاجقة آسيا الصغرى لصد المغول، مثلما تحالفوا من قبل ضد جلال الدين الخوارزمى. ولكن علاء الدين كيقباد الأول سلطان سلاجقة الروم (١٢١٩ – ١٢٣٧م = ٦١٦ — ٦٣٤هـ) أراد أن يستغل الموقف الناجم عن مقتل جلال الدين لمنازعة الأيوبيين ملكية خلاط والرها وحران[4]. وعندما أدرك السلطان الكامل حقيقة نوايا السلاجقة، جمع حوله القوى الأيوبية فى الشام وزحف لمنازلة السلاجقة فى الأناضول سنة ١٢٣٤م (٦٣١هـ). على أن ملوك بنى

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٢٧٢ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) D'[illegible]on : Hist. des Mongols, III, p. 62.

(٤) [illegible] ج ١ ص ١٩٧ .

أيوب بالشام عادوا وخافوا عاقبة ازدياد نفوذ السلطان الكامل ، وخشوا إن هو نجح في السيطرة على سلاجقة الروم أن يسهل عليه القضاء عليهم جميعاً . لذلك تآمروا على السلطان الكامل ، وأرسلوا في الخفاء إلى علاء الدين سلطان سلاجقة الروم يخبرونه بوقوفهم إلى جانبه ضد الكامل . وهكذا انتهى الموقف بعودة الكامل من حيث أتى ، في حين احتل السلاجقة حران والرها سنة ١٢٣٥م (٦٣٢ هـ)[١] .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

الفصل السابع

الصالح نجم الدين أيوب ولويس التاسع

نهاية السلطان الكامل وقيام الصالح أيوب :

لم يقف الانقسام فى صفوف المسلمين فى الربع الثانى من القرن الثالث عشر للميلاد (السابع الهجرى) على ماحدث من عداء بين سلاجقة الروم والأيوبيين ؛ بل إن البيت الأيوبى نفسه لم يلبث أن انقسم على نفسه ، فانشق الملك الأشرف صاحب دمشق على أخيه الأكبر السلطان الكامل صاحب مصر ، وبدأ يدبر ثورة شاملة ضده مستعيناً فى ذلك بأسد الدين شيركوه صاحب حمص وضيفة خاتون الوصية على حلب[1]. على أن الظروف شاءت أن يموت الملك الأشرف فى أواخر أغسطس سنة ١٢٣٧ م (٦٣٥هـ) قبل أن تشتعل نار الحرب الاهلية فعلا بين أبناء البيت الأيوبى[2] .

وكان الأشرف قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفه فى ملك دمشق أخوه الملك الصالح اسماعيل صاحب بصرى . ولم يكد الصالح يتسلم زمام الأمور فى دمشق حتى أعاد تكوين الحلف الأيوبى ضد الكامل ، فاتصل بالمجاهد شيركوه صاحب حمص والمظفر صاحب حماه وضيفة خاتون فى حلب ليكونوا جميعاً يداً واحدة ضد الكامل . وقد استجاب جميع ملوك الأيوبيين بالشام لدعوة الصالح اسماعيل ، ماعدا المظفر صاحب حماه والناصر داود صاحب الأردن والكرك . ولكن السلطان الكامل أسرع بالحضور من

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٥٤ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٠٠.

مصر، وتقضى على تلك الحركة، وحاصر دمشق وقطع الماء عنها، حتى استولى عليها فى أوائل سنة ١٢٣٨م (٦٣٥هـ). ولم يلبث أن انتهى الأمر بعزل الصالح من دمشق وإعطائه إقطاعا صغيراً فى بعلبك والبقاع [1].

على أن السلطان الكامل نفسه توفى بعد قليل — فى مارس سنة ١٢٣٨م (٦٣٥هـ) — وقد أجمع المؤرخون على مدحه، فوصفه أبو الفدا بأنه كان « ملكا جليلا مهيباً حازماً حسن التدبير » [2]، كما أثنى بقية المؤرخين على عدله وتسامحه وحبه للعلم وعنايته بالأمن. ولاشك فى أن وفاة الكامل أيوب جاءت نذيراً بتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها. حقيقة أن العادل الصغير (الثانى) ابن الكامل خلفه فى ملكه وصارت له السلطة، أى السلطة العليا فى الدولة الأيوبية، ولكن الأوضاع فى الشام نفسها اضطربت بعد أن دخل المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص فى حرب ضد المظفر تقى الدين الثانى صاحب حماه، فى حين استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل — على دمشق سنة ١٢٣٩م (٦٣٦هـ)، مما أوقعه فى نزاع مع أخيه السلطان العادل الصغير [3]. وفى ذلك النزاع استعان كل واحد من الأخوين المتنازعين بأنصار من أبناء البيت الأيوبى نفسه، فاعتمد العادل الثانى (الصغير) على شيركوه صاحب حمص، واعتمد الصالح أيوب على المظفر تقى الدين صاحب حماه. هذا بالإضافة إلى أن كل فريق منهما استعان بجموع من الخوارزمية الذين تفرقوا فى آسيا الصغرى والشام بعد مقتل سلطانهم جلال الدين منكبرتى.

ثم حدث فى نهاية سنة ١٢٣٩م (٦٣٧هـ) أن استطاع الصالح اسماعيل — عم العادل الثانى والصالح أيوب — أن يسترد دمشق التى كان أخوه السلطان

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧.

(٢) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٥هـ.

(٣) المقريزى : السلوك حوادث سنة ٦٣٥هـ، ٦٣٦هـ.

الكامل قد طرده منها ، وأن يطرد بدوره الصالح أيوب منها[1] . وقد ظل الصالح اسماعيل يحكم دمشق خمس سنوات (١٢٤٠ — ١٢٤٥م = ٦٣٧ — ٦٤٣هـ) ، فى حين وقع الصالح أيوب فى قبضة الناصر داود صاحب الأردن والكرك ، حتى أطلق الأخير سراح الأول واتفق معه على القيام بحملة على مصر للإستيلاء عليها من السلطان العادل الثانى[2] . وكان كبار أمراء العادل الثانى قد استاءوا منه فى ذلك الوقت لتحجبه عنهم واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة ، فقبضوا عليه فى نهاية مايو سنة ١٢٤٠م (٦٣٧هـ) وعزلوه ، واستدعوا بدله الصالح نجم الدين أيوب — ابن الكامل — الذى دخل القاهرة ليصبح سلطانا على مصر (١٢٤٠م — ١٢٤٩ ، ٦٣٧ — ٦٤٧هـ)[3] .

الأيوبيون والصليبيون :

وقعت بلاد الشام فى حالة شديدة من الفوضى بسبب النزاع الذى اشتد بين الصالح أيوب وبين عمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وشارك فى ذلك النزاع بقية أفراد البيت الأيوبى فى الشام — مثل ملوك حمص وحماه والأردن. وزاد من تلك الفوضى أنها جاءت فى الوقت الذى تعرضت بلاد الشام لغزو جموع من الخوارزمية من ناحية وتهديد المغول من ناحية ثانية ، ثم وصول حملة صليبية جديدة من ناحية ثالثة .

ذلك أنه لم يكد ينتهى الصلح الذى عقده السلطان الكامل مع الإمبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٣٩م (٦٣٦هـ) حتى دعت البابوية لحملة صليبية جديدة وصلت إلى الشام فى أول سبتمبر سنة ١٢٣٩م (٦٣٧هـ) وعلى رأسها ثيبوت الرابع . ويؤخذ على هذه الحملة أن زعماءها افتقروا تماماً إلى المرونة السياسية

(١) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٦ هـ .

(٢) ابن الحاجب : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٠٤ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٩٥ .

التى ميزت ريتشارد قلب الأسد وفردريك الثانى ، فلم يحاول ثيبوت الرابع أمير شامبى استغلال المنازعات العنيفة الناشبة بين ملوك البيت الأيوبى عندئذ ، واتبع سياسة جامدة أدت إلى فشل حملته فى نهاية الامر(١) .

وكانت بيت المقدس لاتزال بأيدى الصليبيين منذ أن استردها فردريك الثانى ، ولكن الناصر داود أسرع عندما علم بنزول الصليبيين فى عكا سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ) — باحتلالها ، بدعوى أن الصليبيين عمروا المدينة وحصنوها وبذلك نقضوا شروط الصلح مع المسلمين(٢) . وكان استيلاء المسلمين على بيت المقدس عندئذ صدمة للصليبيين الذين أخذوا يتدبرون أمرهم ، حتى استقر رأيهم أخيراً على أن يتجهوا إلى عسقلان لهدم تحصيناتها والاستيلاء عليها وبعد ذلك يقصدون دمشق بوصفها مركز الحركة الإسلامية فى بلاد الشام(٣) .

وعندما اتجه الصليبيون من عكا إلى عسقلان ، بادر العادل الثانى — الذى كان لايزال سلطان مصر قبل عزله — إلى إرسال جيش أنزل هزيمة بالصليبيين قرب غزة فى ١٣ نوفمبر سنة ١٢٣٩م (٦٣٧هـ) وسيق كثير من أمرائهم إلى القاهرة(٤) .

ثم كان أن تمت فى صيف سنة ١٢٤٠م (٦٣٧هـ) المؤامرة التى انتهت بعزل العادل الثانى من حكم مصر وقيام الصالح نجم الدين أيوب بدله فى السلطنة كما سبق أن أشرنا ، وعندئذ استاء الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، لاسيما وأن الصالح أيوب أراد أن يرضى حليفه الناصر داود

---

(١) Grousset : op. cit., III, p. 374.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٤ .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East. p. 317.

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. v, p. 139)

صاحب الكرك فوعده بمساعدته فى الحصول على دمشق من الصالح اسماعيل [1]
وهكذا لم يجد الصالح اسماعيل قوة تساعده سوى الصليبيين ، فمد يده إليهم ،
وطلب منهم محالفته ضد الصالح أيوب فى مصر والناصر داود فى الأردن .
وفى مقابل ذلك كله تعهد الصالح اسماعيل بإعطاء الصليبيين بيت المقدس
وإعادة مملكة الصليبيين إلى ما كانت عليه قديماً ، بما فيها الاردن . ولكى
يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين ، بادر فوراً بتسليمهم
القدس وطبرية وعسقلان ، فضلا عن عدد آخر من قلاع الشام التى كانت
بأيدى المسلمين [2] .

وسرعان ما ثار الرأى العام الإسلامى فى مصر والشام على الصالح
اسماعيل — مثلما ثار من قبل على السلطان الكامل ، حتى أن حاميات بعض
القلاع رفضت إطاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح اسماعيل ، فأتى هو
بنفسه ليؤدب تلك الحاميات ويسلم الحصون للصليبيين . أما الصليبيون فقد
أسرعوا إلى تسلم بيت المقدس وحصنوا قلعتى طبرية وعسقلان، ثم رابطوا
بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية . وهنا وعدهم الصالح
اسماعيل ، بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها ، فسال لعابهم لذلك، واتجهوا
صوب غزة عازمين على غزو مصر [3] .

وتؤكد المراجع التاريخية أن الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق
والملك المنصور إبراهيم الأيوبى صاحب حمص ، [4] حضرا على رأس
جيوشهما لمعاونة الصليبيين فى مهمة غزو مصر [5] . ولكن القوات الشامية

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٠٣ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٢ .
(٤) خلف المنصور ابراهيم أباه المجاهد شيركوه الثانى فى حكم حمص ١٢٤٠ ، وظل يحكمها حتى سنة ١٢٤٦ م (انظر زامباور : معجم الأنساب ص ١٥٣) .
(٥) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٣ .

التابعة للصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم لم تقبل فكرة طعن أخوانهم المصريين ، فلم تكد تصل هذه القوات إلى غزة حتى انضمت إلى جانب الجيش المصرى ليشترك الجميع فى مهاجمة الصليبيين . وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين ، فقتل منهم عدد ضخم وسيق الأسرى إلى القاهرة ، فى حين انسحب الباقون إلى عسقلان حيث عقدوا الصلح مع الصالح نجم الدين سلطان مصر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ)[١] . وإذا كانت هذه الحملة الفرنسية لم تستطع البقاء فى بلاد الشام بعد ذلك وغادرت عكا عائدة إلى الغرب فى سبتمبر سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ) فإن حملة أخرى جديدة وصلت إلى عكا فى الشهر التالى بقيادة ريتشارد دى كورونول ، أخى ملك إنجلترا . على أنه يبدو أن هذه الحملة كانت صغيرة فلم تستطع القيام بعمل حربى هام فى الشرق الأدنى، عدا تحصين عسقلان ليتخذها الصليبيون قاعدة لصد أى هجوم من جانب مصر .[٢] وبعد أن أتم ريتشارد تحصين عسقلان فى مارس سنة ١٢٤١ م (٦٣٨ هـ) ، أجاب الصالح أيوب إلى طلبه الخاص باحترام الصلح المعقود بينه وبين ثيبوت الرابع . وبمقتضى ذلك الصلح اعترف الصالح أيوب للصليبيين بملكية الحصون التى أخذوها فى فلسطين ، فضلا عن بيت المقدس . ولم يلبث أن قفل ريتشارد دى كوروتول راجعا إلى بلاده فى مايو سنة ١٢٤١ م (٦٣٨ هـ) تاركا خلفه الصليبيين ببلاد الشام يتخبطون فى حروب أهلية طويلة بينهم وبين بعض.[٣]

الخوارزمية واسترداد بيت المقدس :

ولم يلبث النزاع أن دب مرة أخرى بين الصالح أيوب فى مصر وعمه الصالح إسماعيل فى دمشق ، وساند الأخير الناصر داود فى الأردن . وكان

---

(١) Eracles, 418-420.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٩ — ١٠٤٠ .

(٣) Grousset : op. cit., III, pp. 394, 303-304.

أن لجأ ملكا دمشق والأردن إلى طلب مساعدة الفرنجة ، وعرضا عليهم مقابل تلك المساعدة أن يوافقا على أن تكون سيطرة الصليبيين على بيت المقدس تامة ، بمعنى أن يستولى الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه من المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وهى المواضع التى ظلت — ولو اسميا — فى حوزة المسلمين وتحت إشرافهم منذ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس بمقتضى اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ م (٦٢٧ هـ)[١] وفى ذلك الوقت نفسه عرض السلطان الصالح أيوب على الصليبيين محالفته ضد ملك دمشق والأردن ، مقابل الثمن نفسه الذى عرضه هذان الملكان على الصليبيين . وهكذا يكون الملوك الأيوبيون الثلاثة — الصالح أيوب والصالح إسماعيل والناصر داود — قد أقروا فى تلك السنة ١٢٤٣ — ١٢٤٤ (٦٤١ هـ) مبدأ استيلاء الصليبيين على الحرم الشريف . ويروى المؤرخ جمال الدين بن واصل أنه مر ببيت المقدس عندئذ ، فرأيت الرهبان على الصخرة وعليها قنانى الخمر ، ورأيت الجرس فى المسجد الأقصى ، وأبطل الأذان بالحرم . . . »[٢]

أما الصليبيون ، فيبدو أنهم اتبعوا سياسة ذات وجهين مع ملك دمشق وسلطان مصر ، وذلك حتى يحتفظوا بالمكاسب التى حققوها دون عناء . على أن الصليبيين كانوا لا يستطيعون المضى طويلا فى تلك السياسة ، ولم يلبثوا أن أحسوا بأنه لا بد لهم من الوقوف فى صف أحد الجانبين المتنازعين ومجاهرة الطرف الآخر بالعداء . وكان أن انتصرت سياسة الداوية الخاصة بمهاجمة مصر ، فاختار الصليبيون الوقوف فى جانب الصالح إسماعيل صاحب دمشق لأنه أقرب إليهم ، فضلا عن أن التحالف معه يعنى كسب الناصر داود صاحب الأردن والمنصور إبراهيم ملك حمص .[٣] ولم يلبث هؤلاء الملوك الأيوبيون الثلاثة أن قرروا غزو مصر بمساعدة

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤١ هـ ، أبو الفدا حوادث سنة ٦٤١ هـ .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 322.

... س . تجمعوا قواتهم عند غزة ، ووعدوا الصليبيين وعودا كثيرة ... تهم في الهجوم على مصر .

ما الصالح أيوب سلطان مصر فلم يجد قوة أمامه يمكنها أن تسعفه إسعافا سريعا سوى الخوارزمية ، فطلب معونتهم ، الأمر الذى ترتب عليه تحول الموقف بالشام تحولا سريعا فى صالحه [١]. ذلك أن دعوة الصالح أيوب لم تكد تصل إلى الخوارزمية حتى فرحوا بتلك الفرصة التى أتاحت لهم ... لدخول بلاد الشام ، فاندفع منهم عشرة آلاف فى طريق دمشق ، و... وجدوا هذه المدينة قوية التحصين استولوا على طبرية ثم على نابلس و... قصدوا بيت المقدس [٢] .

وكانت بيت المقدس عندئذ أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين ، ليس فيها ملك أو زعيم صليبى يدافع عنها ، فاستنجد من فيها من الصليبيين بأمراء انطاكية وطرابلس وبملك قبرص . ولكن أحدا من هؤلاء الأطراف لم ... النداء ، إذ كان الصليبيون فى الشام وقبرص فى شغل بمشاكلهم الخاصة فى حين لم يجرؤ حلفاء الصليبيين من أمراء المسلمين — فى دمشق وحمص — على التدخل ومنع الخوارزمية المسلمين من الاستيلاء على بيت المقدس من الصليبيين ، وإلا تعرضوا لنقمة الرأى العام فى العالم الإسلامى [٣] .

وهكذا اقتحم الخوارزمية بيت المقدس فى ١١ يوليو سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) واستولوا عليها فى سهولة ، وعندئذ طلب من فى المدينة من الصليبيين وساطة الناصر داود لتأمين خروجهم . فتوسط لهم وخرج ستة آلاف منهم قاصدين يافا فى شهر أغسطس . على أن الخوارزمية لم يتركوهم ينصرفوا

---

(١) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٤٢ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣١٦ .

(٣) Grousset : op. cit., III, p. 412.

آمنين وإنما اعتدوا عليهم فى الطريق، كما اعتدوا على كنيسة القيامة وغيرها من المشاهد المسيحية فى بيت المقدس.(١) وكانت هذه آخر مرة يستولى فيها المسلمون على بيت المقدس فى عصر الحروب الصليبية إذ لم يقدر لجيش مسيحى أن يدخلها بعد ذلك أبدا حتى الحرب العالمية الأولى.

الصالح أيوب وتوحيد الدولة الأيوبية:

وبعد أن استعاد الخوارزمية بيت المقدس من الصليبيين اتجهوا نحو غزة للاجتماع بالعسكر المصرى الذى أرسله السلطان الصالح أيوب لمحالفتهم (أكتوبر ١٢٤٤ م = ٦٤٢ هـ). وفى ذلك الوقت كانت قوات الحلف الشامى الصليبى قد اتجهت من عكا نحو غزة، ومع الجيوش الصليبية كان المنصور إبراهيم صاحب حمص وصحبته قوات دمشق، فضلا عن نجدة وصلت إليهم من الناصر داود صاحب الكرك.(٢) وفى موقعة غزة التى دارت فى ١٧ أكتوبر سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) بين الخوارزمية وجيوش الصالح أيوب من ناحية، والصليبيين وجيوش حمص ودمشق والأردن من ناحية أخرى، حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ومن انضم إليهم من منافقى المسلمين، حتى قدرت خسائر الصليبيين بثلاثين ألف قتيل وثمانمائة أسير.(٣)

ولاشك فى أن هذه كانت أعظم كارثة حلت بالصليبيين منذ موقعة حطين سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ)، حتى أطلق المؤرخون عليها اسم «حطين الثانية»(٤) وكان الخوارزمية يأملون بعد ذلك أن يكافئهم الصالح أيوب بالسماح لهم بالاستقرار فى مصر؛ ولكن يبدو أنه خشى ما يترتب على دخولهم

(١) العينى: عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٢ هـ.
(٢) أبو المحاسن: النجوم ج ٦ ص ٣٢٣.
(٣) أبو شامة: ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome 5, p. 193)
المقريزى: السلوك ج ١ ص ٣١٧.
(٤) Grousset : op. cit., III, p. 415.

مصر من ضرر بالبلاد والعباد ، لم يسمح لهم إلا بالاستقرار فى الشام على حساب الصليبيين . ولم تلبث جموع الخوارزمية أن أخذت تغير على ممتلكات الصليبيين وضياعهم حتى وصلت إلى مشارف عكا . أما الجيش المصرى ، فقد انفصل عن الخوارزمية بعد موقعة غزة واتجه لعقاب صاحبى الكرك ودمشق لتحالفهما مع الصليبيين . وقد نجح الجيش المصرى فى أخذ القدس والخليل وبيت جبريل والأغوار من الناصر داود صاحب الكرك، وبذلك لم يبق له سوى مراكز قليلة الأهمية مثل الكرك وعجلون[1] أما دمشق فإنها لم تستطع مقاومة الحملة التى أرسلها ضدها الصالح أيوب فاستسلمت فى اكتوبر سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) وعوض الصالح اسماعيل عنها ببعلبك وبصرى وأعمالها[2] .

على أن الخوارزمية لم يلبث أن اشتد استياؤهم من الصالح أيوب لأنهم ظنوا أنه سيجزل لهم العطاء بعد أن ساعدوه فى التغلب على خصومه وفى تملك بلاد الشام ، فخاب ظنهم . بل لقد حدث بعد استيلاء الصالح أيوب على دمشق أن منع الخوارزمية من دخولها وأقطعهم الساحل ، فتغيرت نياتهم واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان[3] .

وكان أن ثار الخوارزمية بالشام واتصلوا بالأمير ركن الدين بيبرس قائد قوات الصالح أيوب — وكانت أمه خوارزمية — وحسنوا له الانضمام إليهم فى ثورتهم ضد السلطان ففعل ذلك[4] .

كذلك انتهز الناصر داود صاحب الكرك والصالح اسماعيل طريد دمشق

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣١٨.

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Tome V, p. 193)

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٢٢ .

(٤) ابو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٥ .

الفرصة للانتقام من الصالح أيوب ، فانضموا إلى الثوار ، وزحفوا جميعاً على دمشق وحاصروها . وهنا أظهر الصالح أيوب صبراً ومهارة، فلجأ إلى « أعمال الحيلة والتدبير » وبدأ باستمالة الحلبيين فضلا عن المنصور ابراهيم صاحب حمص ، وتحايل حتى استحضر الأمير ركن الدين بيبرس إلى مصر حيث قبض عليه وأعدمه . وبفضل هذه الإجراءات تمكن الصالح أيوب من إنزال الهزيمة بالخوارزمية بين بعلبك وحمص ، فتبدد شملهم ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك[1] .

وبعد القضاء على الخوارزمية ، اتجه الصالح أيوب نحو الصليبيين ، فتمكنت جيوشه فى ١٧ يونيه سنة ١٢٤٧م (٦٤٥ هـ) من الاستيلاء على قلعة طبرية من الصليبيين ، ثم استولت على عسقلان فى أكتوبر من العام نفسه ، وبذلك انحصرت حدود الصليبيين إلى أبواب يافا[2] .

وهكذا استعادت الدولة الأيوبية وحدتها ، وأصبح السلطان الصالح أيوب يمتلك القاهرة ودمشق وبيت المقدس ، فأقام فى دمشق من نوفمبر سنة ١٢٤٨ حتى أبريل سنة ١٢٤٩ (٦٤٦ — ٦٤٧ هـ) حيث وفد إليه ملك حماة المنصور الثانى والأشرف ملك حمص، وغيرهما من ملوك البيت الأيوبى بالشام لتقديم فروض الولاء والطاعة . كذلك زار الصالح أيوب بيت المقدس بعد أن عادت إلى أحضان الدولة الإسلامية، فقوى تحصيناتها ودعمها وحضر إليه فيها كثير من ملوك الشام ليعبروا عن ولائهم .[3]

الحملة الصليبية السابعة على مصر :

أحدث استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) رد

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٤ .
(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٥ هـ .
(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين (Rec, Hist. Cr, Tome 5, p. 194)

فحل عنيف فى الغرب الأوربى ، فقامت البابوية — كعادتها عقب كل كارثة تحل بالصليبيين فى الشرق — بالدعوة لحملة صليبية جديدة . وكانت ظروف الغرب الأوربى عندئذ تحول دون أن يلبى كثير من ملوك أوربا وأمرائها تلك الدعوة ، فلم يستجب لها إلا لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو الرجل الذى اشتهر بتقواه وورعه ، حتى لقب بالقديس .

وفى الوقت الذى أخذ لويس التاسع ملك فرنسا يواصل استعداداته لحملته الصليبية ، إذا بأخبار الحملة تتسرب إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب . ذلك أن الامبراطور فردريك الثانى — الذى ظل مصادقا للسلطان الكامل ومن بعده ابنه الصالح أيوب — أرسل سراً إلى السلطان الصالح يخبره بأن ملك فرنسا« عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها » .[1] وكان السلطان الصالح أيوب مريضا فى دمشق عندما بلغته تلك الاخبار ، فحمل إلى مصر ونزل عند اشموم طناح ليكون على مقربة من ميدان العمليات الحربية .

أما لويس التاسع فقد وصل على رأس حملته إلى جزيرة قبرس فى سبتمبر سنة ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر حصلوا فيها على مزيد من المساعدات ومواد التموين ، حتى استقر الرأى أخيراً على مهاجمة دمياط ، فأبحرت الحملة إليها فى مايو سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ)[2] .

وهنا نلاحظ ملاحظتين : الأولى أن فكرة الاستيلاء على مصر بوصفها مفتاح بيت المقدس كانت لا تزال مسيطرة على عقول الصليبيين فى الشرق والغرب جميعاً .

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢١٩ (بولاق) ، ابن الجوزى : مرآة الزمان (المكتوبة الفتقلية ج ٢ ص ٥١٧) .

(٢) Joinville : 51, 62, 82.

والثانية أن لويس التاسع أراد أن يمهـد لهجومه بنوع من حرب الأعصاب ، فاتبع أسلوب المغول الخاص بإرسال رسائل مليئة بعبارات التهديد والوعيد والمبالغة إلى حاكم البلد الذى ينوون غزوه ليسقط فى يده ويستسلم دون مقاومة . من ذلك أن لويس التاسع لم يكد يصل إلى دمياط فى أوائل يونية سنة ١٢٤٩م حتى أرسل رسالة عنيفة إلى السلطان الصالح يشرح له سوء موقف المسلمين فى الأندلس ويطالب منه التسليم فوراً « وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضا »(١) . ووصلت رسالة لويس إلى الصالح أيوب وهو مريض ، فاغرورقت عيناه بالدموع ورد على لويس ليندد بغروره ويذكره بما فعله المسلمون بالصليبيين ، ويتذره بأنه سيندم حيث لا ينفع الندم(٢) .

والواقع أن التحذير الذى أرسله الامبراطور فردريك الثانى أفاد الصالح أيوب ، فأسرع إلى تحصين دمياط بعد أن أثبتت التجارب اختيار الصليبيين لها نقطة ارتكاز للاستيلاء على مصر . وكان أن عهد السلطان الصالح إلى الأمير فخر الدين يوسف — صديق الامبراطور فردريك القديم — بالوقوف على رأس قوة على البر الغربى لفرع دمياط لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر(٣) . أما دمياط ذاتها فقد شحنت « بآلات عظيمة وذخائر وافرة . وجعل فيها بنى كنانة وهم مشهورون بالشجاعة »(٤) .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥٨ — ١٠٥٩ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٣) المقريزى نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ٩٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٥٥ — ٣٥٦ (مخطوط) .

(٤) أبو الفدا : المختصر سنة ٦٤٧ هـ .

وعندما وجد لويس التاسع أن دمياط قوية التحصين بحيث يتعذر عليه النزول على برها ، قرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط . وعلى الرغم من أن قوات الأمير فخر الدين تصدت للصليبيين وقاومتهم ، إلا أنها لم تنجح فى مهمتها واستطاع الصليبيون النزول على الشاطىء، مما جعل الأمير فخر الدين ومعظم رجاله يفرون ليلا إلى الضفة الشرقية حيث توجد دمياط[١] . ولم يلبث أن استولى الرعب على أهل دمياط، فتركوا مدينتهم بما فيها هاربين، بعد أن أشعلوا النار فى سوقها ؛ بل إن عرب كنانة الذين عهد إليهم الصالح أيوب بالدفاع عن المدينة ولوا الأدبار وتركوا أبواب دمياط مفتوحة ، وفاتهم عند فرارهم أن يقطعوا الجسر الذى يربط دمياط بالضفة الغربية التى عليها الصليبيون[٢] .

وهكذا صارت دمياط مدينة مفتوحة خالية من وسائل الدفاع ، فتملكها الفرنج بغير قتال ، فى ٦ يونيو سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) ويروى المقريزى أن الصليبيين عندما رأوا أبواب دمياط مفتوحة ولا أحد يحميها شكوا أن يكون فى الأمر خدعة ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدركوا الحقيقة ، فدخلوا المدينة بغير كلفه ، واستولوا على ما فيها من مؤن وآلات وأسلحة وأموال « صفواً عفواً »[٣] .

على أن الصليبيين لم يحاولوا فى حملتهم هذه سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) . أن يستفيدوا من الأخطاء التى وقعت فيها الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٩م (٦١٦هـ) . ذلك أنه كان من المفروض أن يبادر لويس التاسع بالزحف إلى داخلية البلاد لمحاولة القضاء على الجيش الأيوبى ، ولكن الصليبيين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٦ .

أضاعوا الوقت فى دمياط خمسة أشهر كاملة (يونيو – نوفمبر ١٢٤٩م = ٦٤٧هـ) وربما أراد لويس بذلك أن ينتظر انحسار فيضان النيل الذى كان سبباً فى فشل حملة حنادى برين على مصر قبل ذلك بثلاثين سنة[1]. ومهما تكن الأعذار التى حاول بعض المؤرخين انتحالها لتبرير تباطؤ لويس التاسع فى دمياط ، فالمهم أن ذلك التباطىء أعطى السلطان الصالح أيوب فرصة طيبة للاستعداد وإعادة تنظيم جيشه.

وكان الصالح أيوب قد عاقب أمراء بنى كنانة عقاباً شديداً لفرارهم من دمياط ، كما وبخ الأمير فخر الدين ورجاله لعدم ثباتهم أمام الصليبيين ، ولكن المرض اشتد على الصالح أيوب ، فحمل إلى قلعة المنصورة حيث استمر – وهو على فراش الموت – فى تنظيم شئون الدفاع[2]. ثم إن المسلمين انتهزوا فرصة انتقال الجيش الصليبى مرة أخرى إلى الضفة الغربية للنيل ، وأخذوا يشنون عليه الغارات المتوالية حتى أسروا كثيراً من الصليبيين وأرسلوهم إلى القاهرة[3].

وأخيراً وصلت الإمدادات إلى لويس التاسع صحبة أخيه فى أكتوبر سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) ، فقرر الصليبيون الزحف على القاهرة . ولم يكد لويس التاسع يشرع فى الحركة على رأس جيشه ، حتى توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م (١٥ شعبان ٦٤٧هـ).

ولا شك فى أن وفاة الصالح أيوب فى تلك الظروف الحرجة جاءت خسارة كبرى لعدم وجود من يحل محله بسرعة فى حكم البلاد وفى مواجهة خطر الغزو الصليبى.

---

(١) Runciman : op. cit., III, p. 263.

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٧.

موقعة المنصورة :

كان للصالح أيوب ابن واحد اسمه توران شاه ، وهو شاب مستهتر عديم الخبرة ، كان عند وفاة أبيه ينوب عنه فى حصن كيفا وديار بكر .[١] وإلى أن يأتى توران شاه إلى مصر ، قامت زوج أبيه — شجر الدر أرملة الصالح أيوب — بدور بارز حفظه لها التاريخ، فأخفت خبر موت زوجها، وأرسلت إلى توران شاه تستدعيه على عجل من كيفا ، فى الوقت الذى استمرت الاستعدادات للدفاع عن البلاد تسير فى مجراها الطبيعى .[٢]

ولكن حدث على الرغم من كل هــذه الاحتياطات أن تسرب خبر وفاة السلطان، لا إلى المصريين فحسب ، بل إلى الصليبيين أيضاً . لذلك رأى لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيد من تلك الظروف السيئة التى أمست فيها البلاد، وليتمكن من إنزال ضربته بالمسلمين قبل وصول توران شاه .[٣]

وعندما تحرك الجيش الصليبى من دمياط فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) ، اختار لويس طريق الدلتا الكثير الترع والقنوات ، فسار الصليبيون على الضفة الشرقية لفرع دمياط بحذاء النيل جنوبا فى المنطقة التى أطلق عليها الصليبيون اسم « جزيرة دمياط » ، وهى عبارة عن مثلث تحده من الشمال الشرقى بحيرة المنزلة ، ومن الغرب فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقى فرع اشموم طناح المعروف اليوم باسم البحر الصغير . وفى أثناء زحف الصليبيون جنوبا تعرضوا لهجمات كثيرة ، حتى وصلوا فى النهاية عند نقطة تفرع بحر أشموم من فرع دمياط ، وهى النقطة التى تمثل رأس المثلث ، وعندئذ وجدوا أن النيل يفصل بينهم وبين المنصورة . ولم يلبث أن استطاع الصليبيون عبور بحر أشموم عن طريق مخاضة قريبة اسمها مخاضة

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٦٤ .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٢ — ٣٦٣ (مخطوط)
(٣) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ

مسلمون، فى الوقت الذى قتل الأمير فخر الدين قائد الجيش الأيوبى، مما جعل موقف المسلمين يتحرج حتى « كادت تكون الهزيمة بالكلية ».[1]

ولم ينقذ الموقف عندئذ سوى حماقة الصليبيين. ذلك أن فريقا منهم تسرع فى شن هجوم على المسلمين فى المنصورة، دون أن يستمع إلى أوامر الملك الخاصة بالتريث والانتظار.[2] وهكذا اندفع فرسان الصليبيين داخل المنصورة، وأوغلوا فى طرقاتها، فى الوقت الذى وجد المسلمون قوة جديدة فى المماليك البحرية وزعيمهم بيبرس البندقدارى الصالحى. والواقع إن الموقف كان خطيراً، حتى أطلق المؤرخ ابن واصل على ذلك اليوم يوم « الكبسة ».[3] ولكن المماليك البحرية أنقذوا الموقف، فانقضوا على الصليبيين فى دروب المنصورة وأوسعوهم قتلا، حتى انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين، وفرارهم منهزمين.[4] وكان عدد ضحايا الصليبيين فى المنصورة بضعة آلاف، مما جعل أحد المؤرخين الأوربيين يعتبرها « مقبرة الجيش الصليبى » فى حين وصفها المقريزى بأنها كانت « أول إبتداء النصر على الفرنج ».[5]

ويبدو أن موقعة المنصورة أعادت الثقة إلى نفوس المسلمين فاشتدت شجاعتهم بعد ذلك على الصليبيين، فى الوقت الذى تمالك لويس التاسع شجاعته وأخذ يعيد تنظيم صفوف جيشه بسرعة بعد أن قلت المؤن وتناقص عدد الفرسان بسبب كثرة ضحاياهم فى المنصورة، هذا كله فضلا عن انتشار الأمراض والحميات فى معسكر الصليبيين لتزيد الطين بلة.[6]

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٦ (مخطوط).

(٢) Matthieu Paris, VII, pp. 14-11 & Joinville, pp. 118-119.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٥٩ (مخطوط).

(٤) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥١ ؛ Grousset : op. cit., iii, p. 465

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٠٧٠

توران شاه والصليبيون :

وفى تلك المرحلة وصل المعظم توران شاه إلى المنصورة فى نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ م (٦٤٧ هـ) بعد أن أعلن سلطانا فى دمشق أثناء طريقه إلى القاهرة . وقد أدى وصول السلطان الجديد إلى ارتفاع الروح المعنوية عند المصريين ، « وتيمن الناس بطلعته»[١] ، وعندئذ أدرك لويس استحالة الزحف على القاهرة ، وبدأ يفكر جديا فى العودة إلى دمياط ليستغل هذه المدينة الكبيرة فى مساومة المسلمين . على أن انسحاب الصليبيين إلى دمياط لم يكن عندئذ بالمهمة السهلة ، وهذا هو السر فى تردد لويس فى اتخاذ تلك الخطوة حتى الخامس من شهر أبريل .

وفى تلك الأثناء ازداد موقف الصليبيين سوءا بسبب انقطاع المواصلات بينهم وبين دمياط ، مما هددهم بالجوع وفرض عليهم أن يتدبروا مصيرهم بسرعة . فحتى ذلك الوقت كانت الغلبة فى النيل — بين دمياط والمنصورة — السفن الصليبية التى نجحت فى إمداد الصليبيين بكل ما احتاجوا إليه من إمدادات وقوة . ولكن السلطان توران شاه بنى عدة سفن وحملت أجزاؤها على الجمال إلى شمالى المعسكر الصليبى حيث ركبت وأنزلت فى الماء وشحنت بالمقاتلين . ولم تلبث هذه السفن الإسلامية أن انقضت على المراكب الصليبية ، وأخذتها أخذا وبيلا ، وبذلك قطعت الطريق على السفن الصليبية وحالت دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم فى دمياط .[٢] وتفيض المراجع العربية المعاصرة بأخبار المعارك النيلية التى نشبت عندئذ بين السفن الإسلامية والسفن الصليبية، وكيف أن هذه المعارك انتهت كلها بالاستيلاء على عشرات من السفن الصليبية وبضعة آلاف من رجالهم ، فضلا عن كميات ضخمة من المؤن والعدد .[٣]

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص ٣٥١ — ٣٥٢ ، أبو المحاسن : النجوم ج٦ ص ٣٤٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٣ .

(٣) من تفاصيل هذه المعارك انظر (العينى) عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ هـ ، وابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٧١ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٤

ومن الواضح أن هذه الصعاب التى أحاطت بلويس التاسع جعلته - قبل أن يشرع فى التراجع إلى دمياط - يحاول فتح باب المفاوضات مع المسلمين، على أساس ترك دمياط مقابل إعادة بيت المقدس إلى الصليبيين. وقد أراد لويس بهذا العرض أن يضرب عصفورين بحجر فيسترد بيت المقدس فى الوقت الذى يضمن لجيشه انسحاباً آمناً وخروجاً سليماً من مصر. ولكن عرض لويس التاسع جاء بعد فوات الاوان، ولو أنه تقدم بطلبه هذا قبل عدة أشهر لكان من الممكن أن يتقبله المسلمون، أما وقد قدم لويس عرضه السلمى بعد أن ساء موقفه وحلت بجيشه هزيمة المنصورة، فإن توران شاه كان لايسعه سوى أن يرفض طلب الملك الفرنسى[1].

وفى ٥ أبريل سنة ١٢٥٠م (٦٤٨هـ) بدأ الصليبيون يتراجعون نحو دمياط بحذاء الضفة الشرقية للنيل، فى حين حمل المرضى والجرحى فى السفن. والواقع إن العملية لم تكن انسحاباً بالمعنى المعروف فى الحروب، وإنما هى عملية «هروب إلى دمياط» كما أسماها ابن واصل[2] ولم يترك المسلمون الصليبيين يتراجعون فى سهولة، وإنما تعقبوهم وأنزلوا بهم كثيراً من الخسائر ومع ذلك فقد أظهر لويس التاسع كثيراً من الكفاية فى تنظيم رجاله، حتى وصل الصليبيون إلى شرمساح، عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط. ولم تكد مقدمة الجيش الصليبى تصل إلى فارسكور، حتى غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه، فى الوقت الذى «أحدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلا وأسراً»[3]. وعندما أدرك المسلمون سوء موقف الصليبيين، اختاروا أن يشنوا عليهم هجوماً عاماً عند فارسكور. وكان المرض قد أشتد بلويس التاسع فلم يعد يقوى على القتال؛ وقاده أحد

(١) Grousset : op. cit. III, p. 419.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٦٩ (مخطوط)

(٣) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٨ هـ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٦٤.

رجاله ليستريح فى منية أبى عبد الله، وهى إحدى قرى شرمساح . وفى موقعة فارسكور حلت الهزيمة ساحقة بالصليبيين ، ووقع الجيش الصليبى بأجمعه تقريباً بين أسرى وقتلى ، وكان من جملة الأسرى لويس التاسع نفسه الذى سيق مكبلا بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن فى دار ابن لقمان[1] .

نهاية الدولة الأيوبية :

ولم يهتم المسلمون كثيراً — وهم فى نشوة نصرهم — بأمر دمياط، إذا باتوا يعتقدون أن استردادها صار أمراً مفروغاً منه ، ولذلك ركزوا طلباتهم فى الحصول على الممتلكات الصليبية بالشام . وهنا أجاب لويس بأنه لا سلطان له على الصليبيين وممتلكاتهم بالشام ، ورفض أن يعترف للمسلمين بأى حق فى الممتلكات الصليبية بالشام . وكان أن اغتاظ توران شاه لموقف الملك لويس ، فصمم على غزو الشام وطالب بمبلغ ضخم من المال مقابل فداء الجيش الفرنسى، على أن يكون تسليم دمياط ثمناً لفداء الملك الفرنسى نفسه[2] .

وقد وافق لويس على هذه الشروط وأبرمت معاهدة بينه وبين توران شاه تقضى بأن يستمر الصلح لمدة عشر سنوات وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح[3] .

على أن توران شاه لم يلبث أن قتل فى المحرم سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) قبل أن يتم تنفيذ الاتفاقية السابقة مع الصليبيين . ولعل أهم ما ترتب على مقتل توران شاه من تطور خطير فى تاريخ مصر والشرق الأدنى ، هو سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك فى حكم مصر والشام، على النحو الذى سنراه فى الباب التالى .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٦ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٦٧ .

(٢) Grousset : op. cit., III, p. 484.

(٣) جوزيف نسيم يوسف: لويس التاسع ص ٦١ .

الفصل الثامن

«أحوال مصر فى العصر الأيوبى»

الحياة الدينية :

كان أهم ما اتصفت به الحياة الدينية فى العصر الأيوبى هو القضاء على آثار المذهب الشيعى وتدعيم المذهب السنى فى أنحاء البلاد . والمعروف أن المذهب الشيعى كان قد وجد له سنداً قويا فى البويهيين بالشرق وفى العبيديين أو الفاطميين فى الغرب. ولكن السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة العباسية حاربوا التشيع فى المشرق ، ولجأ الوزير السلجوقى نظام الملك فى تدعيم المذهب السنى إلى إنشاء المدارس، وأشهرها المدرسة النظامية فى بغداد. ومن المعروف أن عماد الدين زنكى ونور الدين محمود كانا من أتباع السلاجقة ، وكانا يدينان بالمذهب السنى ، لذلك لم تكد تتم لنور الدين محمود السيطرة على مصر حتى تعجل صلاح الدين فى القضاء على الخلافة الفاطمية ، والدعوة على منابر المساجد للخليفة العباسي السنى فى بغداد .

وقد حذا صلاح الدين فى مصر حذو نور الدين فى الشام فى القضاء على المذهب الشيعى ، فالتجأ إلى العنف والقتل ، كما لجأ إلى أساليب السياسة وإنشاء المدارس . ولم يستسلم الشيعة فى مصر لتلك السياسة ، لأنهم أدركوا أن الأمر بالنسبة لهم يعنى الحياة أو الموت ، فقاموا بالثورات وأشهرها ثورة عمارة اليمنى ، كما سبق أن ذكرنا . وإذا كانت بقايا المذهب الشيعى قد ظلت قائمة فى مصر إلى عصر المماليك وما بعد عصر المماليك ، فإن هذه البقايا صارت ضعيفة لا تقوى على الظهور إلا لتختفى بعد قليل .

وثمة ظاهرة دينية أخذت تزداد وضوحا فى العصر الأيوبى ، هى ظاهرة التصوف والاكثار من بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخانقاوات. ويفهم مما كتبه المقريزى أن صلاح الدين انشأ أول خانقاه بمصر وهى خانقاه سعيد السعداء (٥٦٩ هـ = ١١٧٣ م) وولى عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ ، ووقف عليها الأوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء (الصوفية) ، كما خصص لهم فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا وبنى لهم حماما بجوارهم.[1] كذلك أمدنا المقريزى بصورة عن حياة أولئك الصوفية ، فقال إن الناس اعتادوا أن يأتوا يوم الجمعة لمشاهدة صوفية خانقاه سعيد السعداء عندما يتوجهون من دارهم إلى جامع الحاكم لصلاة الجمعة ، فكانوا يخرجون إلى الجامع فى موكب جميل يؤدون فريضة الصلاة فى موضع أعد لهم ويدعون للسلطان صلاح الدين ، ثم يعودون بنظام إلى الخانقاه .

ولا يخفى علينا أن التصوف ليس مجرد ظاهرة دينية ، وإنما كان أيضاً ظاهرة اجتماعية خطيرة . ولم يلبث أن وفد على مصر فى العصرين الأيوبى والمماليكى كثير من زعماء المتصوفة ومشايخهم — وبخاصة من المغرب — الذين أشاعوا بمصر حياة الزهــد والتقشف مما ترك أثراً خطيراً فى المجتمع المصرى .

الحياة العلمية والفكرية :

اشتهر سلاطين الأيوبيين بحبهم للعلم والعلماء ، فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ليستمع إليهم ويشاركهم فى أبحاثهم[2] . أما العزيز عثمان الذى خلف أباه صلاح الدين فى السلطنة فقد قال عنه

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٤ ص ٣٢٩ .

ابن خلكان أنه « سمع الحديث من الحافظ السلفى والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى ، وسمع بمصر من العلامة أبى محمد بن برى النحوى وغيرهم »[١]. ومثل ذلك يقال عن بقية سلاطين بنى أيوب، وبخاصة السلطان الكامل الذى قال عنه المقريزى « وكان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم وعنده شغف بسماع الحديث النبوى . . . وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده . وكانت يبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم . . . فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه . . . »[٢] .

لذلك لا عجب إذا اشتهر من بنى أيوب أنفسهم أعلام فى مختلف ضروب المعرفة ، منهم المؤرخ الشهير أبو الفداء ، وهو اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) وهو صاحب كتاب « المختصر فى أخبار البشر » . ومنهم بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م) وكان شاعراً أديباً . والملك الناصر بن الملك المعظم عيسى المتوفى سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وكان مشتغلا بتحصيل الكتب النفيسة ويجيز الأدباء . والملك المؤيد الأيوبى صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١هـ (١٣٢١م) وكان من أهل العلم واشتملت خزانته على مائة ألف مجلد. والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) وكان راغباً فى الأدب وأهله حتى شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشرى مائة دينار وخلعه . . .[٣] .

كذلك ظهر تقدير سلاطين بنى أيوب للعلم فى عنايتهم بالمكتبات ،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٥٨ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ص ١٠ .

وأهمها المكتبة التى عنى بها السلطان الكامل بالقلعة ، وكانت فى الأصل تؤلف مكتبة القاضى الفاضل ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد، حتى أمر السلطان الكامل بوضع اليد عليها ونقلها إلى القلعة لتصبح نواة مكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد ، وقد تم نقلها إلى القلعة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) .

وإذا كانت هذه هى رغبة سلاطين بنى أيوب فى العلم ، فإننا لا نعجب لكثرة ما أسسوه من مدارس درست فيها العلوم الدينية وغير الدينية ، وصارت مراكز لحياة علمية نشطة فى ذلك العصر .

والواقع أن الأيوبيين عندما أدخلوا نظام المدارس فى مصر لم يكونوا مبتكرين وإنما كانوا محاكين لما شاهدوه وسمعوا به فى الدولة العباسية ، قبل حضورهم إلى مصر . ذلك أنه من أبرز سمات الحياة العلمية فى العصر العباسى الثانى ظاهرة انتشار المدارس ، وخاصة بعد أن أسس نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى المدرسة السلجوقية فى بغداد(١) . ولم تلبث الحركة المدرسية أن انطلقت فى الإســـلام منذ سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٧م) ، إذ صارت المدرسة مكانا للدرس والتحصيل فضلا عن كونها قلعة لنشر المذاهب السنية ، وشن الحرب على الشيعة ومحاربة التشيع(٢) . وكان من الطبيعى أن يحاكى الأتابكة فى العراق والشام سادتهم سلاطين السلاجقة فى إنشاء المدارس ، ومن ذلك على سبيل المثال المدرسة الأتابكية التى أنشأها سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى بالموصل قرب منتصف القرن الخامس للهجرة (الثانى عشر للميلاد) ، ومدرسة الجامع النورى التى أنشأها نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى فى جامعه بالموصل(٣) . وهكذا كان طبيعياً أن يحاكى صلاح الدين سيده نور الدين فى إنشاء المدارس .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٩٦ .

(٢) حسين أمين : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ص ٣٢٢ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٥ ، العمر [illegible]

ومهما يقال من أن صلاح الدين إنما قصد بإنشاء المدارس محاربة المذهب الشيعى ونشر تعاليم المذهب السنى ، فإن التوسع فى إنشاء المدارس فى حد ذاته جاء مظهراً قوياً لرقى الحياة الفكرية فى عصر الأيوبيين . وقد بدأ صلاح الدين بإنشاء مدرستين فى حياة الخليفة العاضد الفاطمى ، إذ يروى ابن الأثير أنه كانت بمصر دار تسمى دار المعونة يحبس فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية سنة ٥٦٦هـ[1] . وقد عرفت هذه المدرسة باسم الناصرية . أما المدرسة الثانية فكانت للمالكية ، وقد عرفت باسم المدرسة القمحية نسبة إلى القمح الذى كانت تحصل عليه من الوقف الذى وقفه عليها صلاح الدين[2] . ولم تلبث أن سقطت الخلافة الفاطمية ، فأنشأ صلاح الدين ثلاث مدارس أخرى ، وبذلك صار عدد المدارس التى بناها بالقاهرة خمس ، خلاف ما أقامه من من مدارس فى دمشق والقدس .

وقد حاكى سلاطين الأيوبيين — ومن بعدهم سلاطين المماليك — صلاح الدين فى بناء المدارس . ولا يخفى علينا أن المدارس كانت تدرس فيها العلوم الدينية ، لذلك قصد السلاطين بتأسيسها التقرب إلى الله وكسب الثواب . ومن أهم هذه المدارس المدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م) والمدرسة الصالحية التى بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١م)[3] . وكانت هذه المدرسة الأخيرة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة .

وكانت المدارس فى ذلك العصر أشبه بجامعات ، فهى معاهد للتعليم العالى ، ولكل مدرسة مذهبها الذى تتبعه ، وإن كان بعضها يشمل أربع كليات

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٥٦٦ هـ .

(٢) المقريزى المواعظ ج ٤ ص ١٩٣ .

(٣) أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٠٢ — ١٠٣

للمذاهب الأربعة . وإذا كان المفروض فى المدرسة أن تكون مركزاً للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها ؛ فإن الوضع لم يلبث أن تطور حتى غدت المدارس مراكز لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية فضلا عن العلوم الدينية .

وكان يقوم بالتدريس فى المدرسة مدرس أو أكثر يختار من مشايخ علماء عصره ، وأوسعهم علماً ، وأبعدهم صيتاً لأنه على أساس مكانته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها . ويساعد المدرس عادة معيد ، وظيفته أن يعيد على الطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ، فهو أكبر منهم درجة ، ويجلس معهم ليستمع إلى ما يعطيه المدرس ، وبعد ذلك يرجع إليه الطلاب لشرح ماقد يكون قد صعب عليهم فهمه . ومنذ العهد الأيوبى أصبح منصب المعيد مرموقاً ، وقل إن خلت منه مدرسة من المدارس التى أنشئت فى ذلك العصر ، فقد عين صلاح الدين معيدين بالمدرسة الناصرية كما عين الصالح نجم الدين أيوب معيدين اثنين لكل واحد من المدرسين الأربعة فى مدرسته[1] . واعتمد التدريس عادة فى ذلك العصر على الإلقاء والتلقين والإملاء ، وربما دارت مناقشات علمية بين المدرس وطلابه .

والمعروف أن المدارس ومعاهد التعليم العالى لابد لها من مكتبات ضخمة يرجع إليها المدرسون والطلاب ، ويعتمدون عليها فى التحصيل والاستزادة . لذلك عنى الأيوبيون عناية كبيرة بالمكتبات ، فنسمع عن نور الدين محمود أنه خصص لمدرسته فى دمشق كتباً كثيرة ليرجع إليها طلاب العلم[2] .

وكان من الطبيعى أن يتبع الأيوبيون سياسة نور الدين فى العناية

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ص ١٥٧ ، المقريزى : المواعظ ص ٣٧٤ ، ٤٠٠ ، أحمد شلبى تاريخ التربية الإسلامية ص ٢١٥ .

(٢) [illegible] دمشق من مدارس ج ١ ص ٦٠٨ .

بالمكتبات مثلما اقتفوا أثره فى بناء المدارس[1] . هذا مع ملاحظة أن المكتبات فى ذلك العصر لم تكن قاصرة على المدارس فحسب ، بل وجدت بالجوامع مكتبات كبيرة ، فضلا عن المكتبات الخاصة .

وكان لكل مكتبة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها ، فضلا عن خدمة المترددين على المكتبة من طلاب العلم ، وأهم هؤلاء الموظفين الخازن (الأمين) والنساخ ، والمجلدون ، والمناولون .

وبالإضافة إلى المدارس التى كانت تمثل نوعا من التعليم العالى الجامعى ، وجدت فى العصر الأيوبى كتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن . وقد أنشأ صلاح الدين عدداً من هذه الكتاتيب لتعليم « أبناء الفقراء والأيتام خاصة ، مما جعل الرحالة ابن جبير يعتبر ذلك من « مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين عامة »[2] .

ولما كانت المنشآت التعليمية السابقة من مدارس وكتاتيب فى حاجة إلى ميزانيات ثابتة تضمن للمعلمين والمتعلمين فيها مستوى كريم من العيش يجعلهم ينصرفون إلى طلب العلم بنفوس راضية مطمئنة ؛ فقد لجأ سلاطين الأيوبيين إلى تدعيم مدارسهم بالأوقاف الغنية التى أوقفوها عليها . ولم تكن جميع هذه الأوقاف أراضى زراعية ، وإنما يروى المقريزى أن صلاح الدين وقف على مدرسته الصلاحية التى بناها بجوار مقام الإمام الشافعى حماما بجوارها ، وفرناً وحوانيت ، فضلا عن الجزيرة التى كانت تسمى جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة[3] . أما المدرسة القمحية التى أنشأها صلاح الدين للمالكية فقد سبق أن ذكرنا أنها سميت كذلك نسبة إلى القمح الذى كانت

---

(١) أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ص ١٣٠ وما بعدها .

(٢) رحلة ابن جبير (طبعة بيروت) . ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٤ ص ١٢٥ .

تغله الأوقاف التي أوقفها صلاح الدين بالفيوم على تلك المدرسة . أما المكاتب فكانت تخصص لها أيضاً أوقاف للإنفاق على مؤدبيها وتلاميذها ، كما كانت «تجرى عليهم الجراية الكافية لهم »[1].

ومن الواضح أن المستوى المعيشى لمدرسى المدرسة وطلابها توقف على قيمة الوقف الموقوف عليها ومقدار ما يغله ذلك الوقف. ولما كانت هذه القيمة غير ثابتة ، إذ أن إنتاج الأرض يرتبط بحالة الفيضان وما قد يكون من آفات تصيب النبات ، فإن رجال العلم فى تلك العصور لم يكونوا على حال دائم من البسطة وسعة العيش . هذا إلى أن الأوقاف الموقوفة على المدارس لم تكن ثابتة ، وإنما تعرضت أحياناً للزيادة . من ذلك أن الملك السعيد بركة — ابن الظاهر بيبرس — أضاف إلى الأوقاف التى أوقفها الصالح نجم الدين أيوب على المدرسة الصالحية[2].

وقد نشطت الحياة الأدبية فى عصر الأيوبيين ، وإن كانت الأحداث التى ألمت بالعالم الإسلامى فى الشرق الأدنى — وخاصة ما أصاب المسلمين على أيدى الصليبيين — قد صبغت الأدب صبغة خاصة ، فكسدت سوق الشعر واتجهت القرائح إلى الأدعية ومدح النبى (ص) وكذلك المعانى الصوفية[3]. ومن أشهر شعراء مصر فى العصر الأيوبى ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١م) ، وقد استكثر من الموشحات وأجاد فيها[4] ؛ وكمال الدين ابن النبيه المصرى المتوفى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٢م) ، وابن شمس الخلافة المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م)[5] ، وعمر بن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وقد اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف ، وجمال الدين

---

(١) رحلة ابن جبير (بيروت) ص ٢٧ .

(٢) أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ٤٩ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٢ — ١٣ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٥٦ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٧ .

بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ ﻫ (١٢٥١ م) ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ﻫ (١٢٥٨ م)(١) .

أما النثر فى ذلك العصر فاتصف باتقان الصناعة اللفظية ، والتفنن فى البديع والجناس والسجع ، والمبالغة فى التنميق ، كما يبدو ذلك بوضوح فى كتابة عماد الدين الأصفهانى وخاصة كتابه الفتح القسى الذى أرخ فيه لإستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس . ومن أعلام النثر فى ذلك العصر القاضى الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ ﻫ (١٢٠٠ م) ، وكان وزير صلاح الدين، وكتب عدداً ضخماً من الرسائل(٢) .

وشهد العصر الأيوبى كذلك نشاطاً فى علوم اللغـــة : وخاصة النحو والصرف. واشتهر من علماء اللغة عندئذ أبو محمد بن برى المتوفى سنة ٥٨١ﻫ (١١٨٥ م) ، وأبو الفتح البلطى المتوفى سنة ٥٩٦ﻫ (١٢٠٠ م) وابن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ٦٢٨ ﻫ (١٢٣١م) وابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ ﻫ (١٢٤٨ م)(٣) .

أما عن التاريخ فقد شهد نشاطاً كبيراً فى العصر الأيوبى ، فاتجه بعض المؤرخين نحو كتابة موسوعات فى تاريخ الدولة الإسلامية ، واتجه آخرون نحو شرح تراجم العظماء وتدوين مآثرهم ، فى حين عنى القسم الأكبر من المؤرخين بذكر أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين . ومن مؤرخى ذلك العصر أبو على الجوانى المصرى المتوفى سنة ٥٨٨ ﻫ (١١٦٣ م) وله شجرة رسول الله فى النسب النبوى ، والملك المعظم عيسى الأيوبى المتوفى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩٤ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٤٢ .
(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ ص ٥٥ — ٥٦ .

سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) ، وبهاء الدين ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة بالنوادر السلطانية وقد توفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وشهاب الدين أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) صاحب كتاب الروضتين ، وابن ظافر الأزدى صاحب كتاب الدول المنقطعة وقد توفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، وجمال الدين القفطى المتوفى سنة ٦٤٦هـ(١٢٤٨م) صاحب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، هذا بالإضافة إلى أبى صالح الأرمنى وابن عساكر الدمشقى وغيرهما كثيرون .

الزراعة والإقطاع :

اعتمدت مصر فى حياتها الاقتصادية – طوال تاريخها – على الزراعة بوجه خاص، فبالزراعة اشتغلت غالبية أهلها وعلى الإنتاج الزراعى عاش معظم سكانها . والمعروف أن مصر لم تستخدم الرى الدائم لأول مرة إلا فى القرن التاسع عشر للميلاد ، ولذلك اعتمدت الزراعة فى العصور الوسطى ومن جملتها العصر الأيوبى على رى الحياض ، بمعنى تقسيم الأراضى الزراعية إلى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه لتبذر البذور . وقد أدى اتباع هذه الطريقة إلى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان ، فإذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا تمكن الناس من زراعة الأرض فى اطمئنان ، وظهر المحصول طبيعيا فى مقداره وأثمانه . أما إذا جاء الفيضان منخفضاً فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال ، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة فى البلاد .

وعلى ذلك يمكن أن نفسر ماحدث بمصر فى تلك العصور من أزمات اقتصادية فى ضوء انخفاض الفيضان . ومن أمثلة ذلك ماحدث سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) فى عهد السلطان العادل الأيوبى ، إذ يروى أبو المحاسن أنه . كان ... اشتد الغلاء والوباء بمصر ، فهرب الناس إلى المغرب .

والحجاز واليمن والشام، وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق[1]. ثم يسرد أبو المحاسن نصا عن الوضع فى مصر أثناء تلك الأزمة ، وكيف كان الناس يأكلون لحوم أبنائهم بدافع الجوع ، فيذبح الرجل ولده وتساعده أمه على طبخه وشيه !! ومهما يكن فى هذه الأوصاف من مبالغات فإنها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها ، وما كانت تمر به من ظروف اقتصادية عصيبة عند انخفاض الفيضان.

ولا ينتظر فى مثل هذه الأوضاع أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة ، طالما كان تحت رحمة الطبيعة من ناحية وتحت رحمة الحكام من ناحية أخرى. وإذا كانت الطبيعة تشدد قبضتها على الفلاح حينا وترحمه أحيانا ، فإن الحكام كانوا لا يرحمونه فى الغالب ، فأثقلوا عليه الالتزامات والرسوم ، ولم يتهاونوا فى جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال . ومن الضرائب التى فرضت على الفلاحين فى ذلك العصر الخراج وشد الأحباس فضلا عن الزكاة[2] .

ومن الثابت فى تطور النظم الإقطاعية فى الشرق والغرب فى العصور الوسطى أن الإقطاع اتخذ طابعا حربياً فى بعض الدول التى غلب عليها الجو الحربى . ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم فى حاجة إلى محاربين وفرسان مزودين بالسلاح والخيول ، مما يتطلب أموالا ونفقات لا تحتملها مواردهم ، فيعمدون إلى توزيع الأراضى فى صورة إقطاعات على الأمراء والأجناد مقابل ما يؤدونه من خدمة عسكرية للحكام . وهذا المبدأ الذى يفسر المؤرخون فى ضوئه تطور النظام الإقطاعي فى الغرب الأوربى منذ أيام شارل مارتل ، ينطبق أيضاً على النظم الإقتصادية التى عرفت على أيام السلاجقة والأيوبيين . وهكذا عرفت مصر زمن الأيوبيين الإقطاع الحربى الذى كان معروفا عند السلاجقة . ولم يكن هذا الاقطاع

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ١٧٣ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٠٨ — ٣١٥ .

وراثياً، إنما صار للمقطع أن يتمتع بالأرض المقطعة له طالما يؤدى الخدمة العسكرية المتفق عليها فى شروط عقد الإقطاع .

ولم يكد صلاح الدين يوطد أقدامه فى مصر حتى أعاد النظر فى توزيع الإقطاع، فقام سنة ٥٧٧ هـ ثم سنة ٥٨١ هـ (١١٨١ م ، ١١٨٥ م) ، بإقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد[١] . وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم دولته بين أبنائه وأهل بيته ، جعل ذلك التقسيم على أسس إقطاعية ؛ وكذلك حرص من بعده أخوه السلطان العادل على أن يكون أولاده دون غيرهم هم أصحاب الإقطاعات الكبرى فى مصر[٢] .

وهكذا حتى نهاية العصر الأيوبى، فنجد أن النظام الإقطاعى قد استقر فى مصر . فأقطع الصالح نجم الدين أيوب أهل بيته اقطاعات وافرة كما اختص الخوارزمية بإقطاعات واسعة مقابل ما قدموه من خدمات حربية . ولم ينس الصالح أيوب مماليكه الأتراك الذين ساندوه وناصروه فمنحهم الإقطاعات الوافرة[٣] .

وكان على المقطعين أن يؤدوا خدمات إقطاعية ، منها ماهو مالى مثل ضرائب الزكاة والجوالى وغيرها، ومنها ماهو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شئون الأمن فى الاقطاع والعناية بالزراعة وصيانة الجسور . هذا كله فضلا عن الواجبات الحربية — التى هى الأساس فى فكرة الإقطاع — فكان على المقطع أن يقتنى العدد المقرر عليه من الجند ويخصص جزءاً من إقطاعه لكل منهم أو يمنح كل جندى مرتبا معينا يناسبه[٤] .

وكان من المنتظر أن يؤدى انتشار النظام الإقطاعى إلى ســـــو

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٣٢٢ ، ٣٥٨ ؛ المقريزى نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٠ .

(٤) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٣٤ .

حال الفلاحين ، لأنه جعلهم أشبه شيء بعبيد الأرض ، كما جعلهم تحت رحمة طبقة جديدة هي طبقة كبار الأمراء الإقطاعيين .

ولكن النظم التي وضعتها الدولة الأيوبية حرصت على أن تحمى الفلاحين من عسف السادة الإقطاعيين ، فكان التوقيع الخاص بالإقطاع في ذلك العصر يأمر المقطع بضرورة الأمر بالمعروف، واتباع العدل، والمحافظة على الإقطاع وعمارته وحسن إدارته ، والإهتمام بالقضاء وعدم أخذ الرشوة من الناس، وحسن الجوار مع زملائه من المقطعين المجاورين له . . .»[1] ويبدو أن القيود التي وضعتها الدولة الأيوبية على السادة الإقطاعيين ، وخاصة ما يتعلق بتحديد الإيجارات والجبايات التي يدفعها الفلاح لسيده الإقطاعي ، حمت الفلاح من العسف من ناحية، كما حدت من نفوذ وثروة السادة الإقطاعيين من ناحية أخرى[2] .

ولا أدل على عناية الأيوبيين بشئون الزراعة وأهميتها لحياة مصر وشعبها من عنايتهم الفائقة بعمارة القناطر والجسور ، حتى أن صلاح الدين عهد إلى الأمير قراقوش الأسدى بذلك[3] . وكانت الجسور في ذلك العصر على نوعين : جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ولذا تعهدت الحكومة بإقامتها والانفاق عليها ؛ وجسور خاصة بجهة معينة ويعود نفعها على تلك الجهة لاغير ، ولذا اختص أهالى تلك الجهة من الفلاحين والمقطعين بإقامتها والإنفاق عليها[4] .

الصناعة والتجارة :

وإلى جانب الزراعة ازدهرت في مصر عدة صناعات أهمها صناعة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٣ — ٣٤ ، ج ١٣ ص ١٤٤ — ١٤٨ .

(٢) Poliak : The Ayybid Feudalism, p. 430.

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ص ١٥١ .

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ١ ص ١٠١

النسيج التى اشتهر بها المصريون طوال العصور الوسطى . وهناك أنواع معينة من المنسوجات المصرية أحرزت شهرة عالمية وبخاصة فى غرب أوربا فى تلك العصور مثل قماش الفستيان Fustian الذى نسب إلى الفسطاط . ومن أهم مراكز صناعة المنسوجات فى مصر فى ذلك العصر تنيس ودمياط والبهنسا وأخميم ، وفيها جميعا صنعت أفخر المنسوجات الحريرية والكتانية والقطنية والصوفية . وبالإضافة إلى صناعة المنسوجات ، اشتهرت مصر باستخراج الزيوت من بذور السمسم والكتان وغيرهما ، واستخدمت بعض هذه الزيوت فى صناعة الصابون ، وهى الصناعة التى اشتهرت بها الفسطاط . هذا عدا صناعات أخرى عديدة ازدهرت فى مصر ، مثل صناعة السكر من القصب ، إذ كانت مصر تنتج عندئذ كميات ضخمة من السكر يستهلك بعضها داخل البلاد ويصدر الباقى إلى الخارج . وقد اتبعت الحكومة الأيوبية سياسة الاحتكار فى عصر قصب السكر ، فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب فى معاصرها العديدة المنتشرة فى كافة أنحاء البلاد[1] .

كذلك فرضت على الصناع والإنتاج الصناعى بعض الضرائب مثل الرسوم المفروضة على منتجات دار الطراز ، وما يحصل برسم أجرة الصناع الذين يعملون فى خزائن السلاح[2] .

أما التجارة فقد نشطت فى الجانب الخارجى على عصر الدولة الأيوبية . ذلك أن قيام نور الدين بتوحيد مصر والشام تحت حكمه ترتب عليه ازدياد نشاط التبادل التجارى بين الجانبين . حقيقة إن سيطرة الصليبيين على حصن الكرك والشوبك بالأردن ، مكنتهم فى أول الأمر من اعتراض طريق

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٠٢

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٠٥

القوافل المتنقلة بين مصر والشام والحجاز ، ولكن نور الدين محمود ؛ ومن بعده صلاح الدين ، لم يسكتا عن ذلك التهديد حتى انتهى الأمر باستيلاء المسلمين على حصنى الشوبك والكرك جميعا ، وتأمين طرق القوافل فى تلك المنطقة الهامة التى تعتبر حلقة الوصل بين البلدان العربية .

وثمة ملاحظة أخرى هامة ، هى أن كثيرا من الناس يظنون أن الحرب كانت مستمرة ، وأن العداء ظل مستحكما بين المسلمين والصليبيين فى الشام طوال عصر الحروب الصليبية . ولكن الحقيقة — كما سبق أن رأينا — أن الحروب الصليبية كانت تشتعل حينا وتخمد نارها أحيانا . وفى الفترات التى كان يتوقف فيها القتال حدثت اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب خطير من الأهمية بين المسلمين والصليبيين . وقد ذكر ابن جبير فى رحلته أنه « من أعجب ما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين » ثم شرح ابن جبير كيف أنه غادر دمشق فى قافلة إسلامية للتجار متجهة إلى مدينة عكا الصليبية ؛ حتى وصلت القافلة عكا عن طريق بانياس . فلما وصلت القافلة الإسلامية إلى عكا « وهى قاعدة مدن الإفرنج بالشام » نزلت فى خان معد خصيصا لنزول القوافل الإسلامية[1] .

ثم إنه من المعروف أيضا أن الحروب الصليبية أدت إلى ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب ، وأن القوى الإيطالية — مثل بيزا والبندقية وجنوا — رأت فى تلك الحروب فرصة لتدعيم نشاطها التجارى مع البلدان العربية . لذلك ازدادت تجارة مصر الخارجية منذ العصر الأيوبى بالذات ، وقصد التجار الإيطاليون ثغرى دمياط والإسكندرية لشراء الكثير من حاصلات الشرق . وقد عبر صلاح الدين عن ذلك فى إحدى رسائله فقال

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٧١ — ٢٧٦ (طبعة بيروت)

« ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبازنة (البياشقة) والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الإسلام فى الاموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة . وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا بأهداء طرائف أعماله . . . »[١] .

ولم تفلح المراسيم التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الأوربيين من التعامل التجارى مع المسلمين فى الشرق الأدنى ، إذ أدى حرص المدن الإيطالية التجارية على مواصلة نشاطها التجارى إلى سعيها لتجديد المعاهدات الإقتصادية مع السلطان العادل بعد وفاة صلاح الدين . كذلك أدت سياسة التسامح التى اتبعها العادل والكامل إلى اتجاه كثير من التجار الأوربيين بسفنهم نحو شواطىء مصر . ولم تلبث الإسكندرية — بصفة خاصة — أن شهدت نشاطا تجاريا واسعا نتيجة للامتيازات التى منحها سلاطين الايوبيين لتجار المدن الإيطالية ، حتى أن وجد بميناء الإسكندرية فى شتاء سنة ١١٨٧ — ١١٨٨ م (٥٨٣ هـ) سبع وثلاثون سفينة إيطالية تجارية ، وهذا عدد ضخم بالنسبة لفصل الشتاء بالذات[٢] .

أما عن التجارة الداخلية فكانت لاتقل نشاطا فى العصر الأيوبى ، حتى أن الرحالة ابن جبير وصف مدن مصر فى ذلك العصر — مثل منفلوط وأبى تيج وغيرها — بأن « فيها الأسواق وسائر مايحتاج إليه من المرافق »[٣] . وتشهد كتب الحسبة من ذلك العصر على مدى النشاط التجارى الداخلى فى العصر الأيوبى ، وعلى ما كان هناك من إشراف دقيق على الأسواق والباعة[٤] .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٤٣ (طبعة النيل)

(٢) Heyd, Hist. du Commerce, Tome 2, pp. 391-399.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٥٣

(٤) عبد الرحمن الشيزرى : كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة

الحياة الإجتماعية :

جاءت الدولة الأيوبية من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الإجتماعية فيهما بالإسراف والمبالغة فى إحياء الحفلات، هما الدولة الفاطمية والدولة المماليكية . ولكن دولة الأيوبيين أحاطت بنشأتها ظروف غير الظروف التى أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، إذ ولدت الدولة الأيوبية فى وقت كان الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة وعنفاً ، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ليس فى الشام فحسب ، بل أيضا فى مصر والحجاز . لذلك لم تكن هناك فرصة أمام الأيوبيين ليحيوا حياة إجتماعية مترفة ، إذ غلبت فكرة الحرب على السلاطين ، وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالا للتوسع فى الاحتفالات وحياة الترف . وإذا توافر الوقت أحيانا فى العصر الأيوبى لحياة الترف ، فإن المال لم يتوافر عندئذ لأن حراسة القوافل وتحصين المدن والقلاع وإعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربية ، كل ذلك كان كفيلا بأن يستنفذ كل درهم فى خزانة سلاطين بنى أيوب . وحسبنا أن أول ما فكر فيه المعز لدين الله الفاطمى عند وصوله إلى مصر كان تعمير القاهرة والعناية بأسواقها ومنشآتها ، ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة فى إحيائها ، فى حين كان أول ما اهتم به صلاح الدين الأيوبى فى الدور الأول من أدوار سلطنته هو بناء قلعة الجبل وبناء سور القاهرة ، وتحصين الثغور .

وقد وصف ابن شداد صلاح الدين الأيوبى وصفاً يصور روح العصر فقال عنه أن « حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه . لقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ،

وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة » .

وبينما نقرأ عن خلفاء الفاطميين وعن سلاطين المماليك أن كلا منهم مات وترك في خزائنه أكوام المال وعديد التحف ، إذا بكتب التاريخ المعاصرة تروى أن صلاح الدين مات ولم يترك في خزانته سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة وجراما واحداً من الذهب . . لقد استنفذ الجهاد كل دينار في خزانته[1] .

وليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية في مصر على زمن الأيوبيين صارت مجدبة كل الجدب ، خشنة كل الخشونة ، إذ أن الأيوبيين — بوصفهم مسلمين — حافظوا على إحياء الأعياد الدينية ، بل وغير الدينية ، ولكن في غير إسراف وبدون تهتك .

فالمقريزى عندما يشير إلى بعض الاحتفالات في العصر الأيوبي لا يتعرض لألوان الإباحية والمنكرات التي انتقدها في مرارة عند كلامه عن الاحتفالات في العصرين الفاطمي والمماليكي[2] . ذلك أن الأيوبيين اقتصدوا في الحفلات وألغوا بعض ما ارتبط منها بأعياد الشيعة ، في حين حوروا البعض الآخر بما يتفق وتحول البلاد من المذهب الشيعي إلى المذهب السني . من ذلك مثلا أن عاشر المحرم — وهو يوم عاشوراء — كان يوم حزن عند الفاطميين تغلق فيه الأسواق ، فجعله الأيوبيون يوم فرح يوسعون فيه على عيالهم ويصنعون فيه الحلوى ويطبخون الحبوب[3] . وهكذا شهدت مصر في العصر الأيوبي اهتماما بإحياء الأعياد وبالحفلات ، ولكن مع مراعاة الاقتصاد ، فنسمع عن الأسمطة السلطانية في العصر الأيوبي ونسمع

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين ، ص ٢٨٥ و ...

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٣٦ ، ١٠٢ ج ٤ ص ٩٦٣ .

(٣) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ص ٥٩

أن أول من ركب بشعار السلطنة فى مصر كان السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولكننا لا نسمع عن الإسراف والمبالغة اللتين اتصفت بهما الحفلات والمواكب الفاطمية والمماليكية .

ومع ذلك فإننا نقرأ عن بعض خلفاء صلاح الدين أنهم أسرفوا أحياناً فى إقامة بعض الأسمطة وإحياء بعض الحفلات . ومن ذلك ما اشتهر به السلطان العزيز عثمان من مد الأسمطة الكبرى لأعيان دولته وموظفيها بين حين وآخر (١) . أما السلطان الكامل فقد أقام سماطاً سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) بمناسبة ختان ابنه العادل الصغير ، وانفق فى ذلك السماط أموالا باهظة (٢) . وتكرر ذلك فى عهد السلطان العادل الصغير الذى أقام سماطاً فى الميدان الأسود تحت القلعة ، ذبح لأجله ألف رأس من الغنم فضـــلا عن البقر والجاموس والإبل والخيل (٣) . ولكن هذا الإسراف لم يكن الطابع الغالب على الدولة الأيوبية ، وبخاصة الشطر الأول من تاريخها .

ويفهم مما ذكره عبد اللطيف البغدادى — الذى زار القاهرة فى العصر الأيوبى — أن المجتمع بلغ درجة كبيرة من الرقى فى ذلك العصر ، فوصف البغدادى حمامات القاهرة ، وقال أنه لم يشاهد فى البلاد التى زارها أتقن منها صنعة وإحكاماً . لما امتازت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجرى فيها الماء الساخن والبارد ، ومقاصير بأبواب للمستحمين (٤) .

كذلك أفاض ابن جبير فى وصف عناية السلطان صلاح الدين بالأغراب الذين يفدون إلى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم ، فأمر

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ص ٤٧

(٢) النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٧ ورقة ٢٩

(٣) المرجع السابق ورقة ٦٣ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٨٩ — ٢٩٠

(٤) البغدادى : كتاب الإفادة والاعتبار ص ٢٦٣

السلطان «بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ...».

أما أبناء السبيل من المغاربة فكانت تصرف لهم جرايات من الخبز وغيره أثناء مرورهم بمصر فى طريقهم إلى الحج[١].

ولم تكن مدن الصعيد أقل رقياً فى مستواها عن مدن الوجه البحرى والقاهرة، إذ ذكر ابن جبير عن بعض مدن الصعيد — مثل قنا وقفط — أنها كانت ممتازة «حسناً ونظافة بنيان واتقان وصنع». كذلك امتدح ابن جبير تحشم نساء الصعيد «وصون نساء أهلها والتزامهن البيوت، فلا تظهر فى زقاق من أزقتها المرأة البتة»[٢].

الإدارة ونظم الحكم:

صار صلاح الدين بعد زوال الخلافة الفاطمية ووفاة نور الدين هو سيد البلاد وحاكمها الأوحد.

ومن الثابت تاريخياً أن صلاح الدين لم يتخذ لقب «سلطان» رسمياً، وإن كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هذا اللقب الذى تمسك به خلفاؤه من الأيوبيين والمماليك الذين تعاقبوا فى حكم مصر. ولما كان صلاح الدين كثير التغيب عن مصر بسبب اشتغاله بأمر الجهاد فى الشام، فإنه صار عليه أن يترك شخصاً يعتمد عليه فى حكم مصر وإدارة شئونها أثناء غيابه. لذلك استحدث صلاح الدين وظيفة نائب السلطنة، وهو الشخص الذى ينوب عن السلطان أثناء غيابه. وقد استمرت هذه الوظيفة قائمة بعد ذلك فى عصرى الأيوبيين والمماليك.

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٥ — ١٦
(٢) رحلة ابن جبير ص ٤٠

ومن الواضح أن إنشاء وظيفة نائب السلطان فى العصر الأيوبى أضعف من أهمية الوزير. فالوزارة التى كان لها شأن كبير فى العصر الفاطمى، حتى أصبح للخلفاء الفاطميين نوعين من الوزارة، وزارة تفويض ووزارة تنفيذ، إذا بهذه الوظيفة تنحط فى العصرين الأيوبى والمماليكى بعد أن استحوذ نائب السلطنة على ما كان للوزير من سلطات. وقد أصبح الوزير فى العصر الأيوبى « وزير تنفيذ » لاغير. وإذا كان صلاح الدين قد اعتمد على وزيره القاضى الفاضل ووثق فيه وعهد إليه بكثير من الأمور، فإننا نسمع أن بعض خلفاء صلاح الدين استغنوا أحياناً عن وظيفة الوزير. من ذلك أن السلطان العادل الأول أو الكبير استوزر الصاحب صفى الدين بن شكر، ولكنه لم يلبث أن تغير عليه فأقاله من الوزارة وترك المنصب خالياً دون أن يعين فيه وزيراً حتى مات[1].

وكذلك فعل السلطان الكامل بن العادل، إذ أعاد ابن شكر إلى الوزارة فلما بغى ابن شكر « وأحدث حوادث كثيرة وحصل مالا جما، عزله الكامل وأحاط بجميع موجوده . . . ولم يستوزر بعد ابن شكر أحد»[2].

وبالإضافة إلى وظيفة الوزارة وجدت وظائف أخرى سامية فى الدولة الأيوبية، بعضها يختص بالبلاط والبعض الآخر يختص بالدواوين. فمن وظائف البلاط وظيفة الحاجب الذى يقوم بإدخال الناس على السلطان، ووظيفة الاستادار الذى ينظر فى إدارة البيوت السلطانية، ووظيفة الدوادار الذى يقوم بإبلاغ الرسائل ورفع القصص إلى السلطان والحصول على توقيعه على المراسيم والمناشير السلطانية، ووظيفة ناظر الخاص المكلف برعاية شئون السلطان المالية . . .

---

(١) المقريزى : مواعظ ج ٢ ص ٣٦٣

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢٣٠

أما عن الدواوين والوظائف الإدارية فقد حدثنا عنها بأسهاب ابن مماتى المصرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩م) وكان نصرانياً وأسلم ، وتولى نظارة الدواوين المصرية . وقد ألف كتاباً شهيراً اسمه قوانين الدواوين ، يتناول نظام حكومة مصر وقوانينها فى عصر الدولة الأيوبية . ويفهم منه أنه كان بمصر عدد كبير من الدواوين مثل ديوان الإنشا ، وديوان بيت المال ، وديوان الجيش . ولكل ديوان من هذه الدواوين ناظر أى رئيس ، وميزانية خاصة ، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره . وكان ابن مماتى صاحب كتاب قوانين الدواوين ناظراً لديوان بيت المال فى أوائل العصر الأيوبى[1] .

هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الوظائف بعضها ذو صبغه إدارية مثل والى القاهرة ، والبعض الآخر ذو صبغة دينية مثل قاضى القضاة والمحتسب . وجدير بالذكر أن صلاح الدين كان شافعى المذهب ، ولذا حرص على أن يكون قاضى القضاة شافعياً ؛ وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك عندما عين السلطان الظاهر بيبرس قاضياً للقضاة من كل مذهب فأصبح عددهم أربعة يمثلون المذاهب السنية الأربعة .

المالية العامة :

أدى إنتقال النظم المالية فى الدولة الأيوبية من الإقتصاد النقدى إلى الإقتصاد الإقطاعى إلى ضعف ثم زوال ديوان المال ، ليحل محله ديوان جديد اختص بالنظر فى جميع شئون المالية من إيرادات ومصروفات ، لذا سمى ديوان النظر[2] .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين — القاهرة ١٩٤٣ .

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر . ص ٤٠ .

أما عن الإيرادات فقد تنوعت مواردها ، ومعظمها كان قديماً وجده صلاح الدين الأيوبى بمصر ، فأبقاه على حاله . ومن الواضح أن المورد الأول لإيرادات الدولة الأيوبية كان الإقطاع الحربى ، وهذا يرتبط بالخراج لأنه كان على المزارع أن يدفع الضريبة السنوية المفروضة على الأرض التى يقوم بفلاحتها ، ليقوم المقطع باستقطاع النسبة المطلوب منه دفعها لخزانة الدولة. وقد أدخل صلاح الدين ما يسمي بالبدل فى جميع الخراج ، بمعنى أن يؤدى الخراج عينا فيدفع الفلاح كميات من الشعير أو الفول أو الحمص بدلا من القمح مثلا ، وحددت نسبة البدل بحيث يؤدى المزارع أردبين شعير بدلا من أردب واحد قمح أو يؤدى أردب ونصف فول بدلا من أردب القمح وهكذا[1] . وارتبط بالمال الخراجى أيضاً الحراج والمعادن . أما الحراج فيقصد به أشجار السنط التى وجدت بكثرة فى بعض أنحاء البلاد مثل البهنسا والأشمونين وأخميم وقوص ، وكانت هذه الغابات تعتبر ملكا للسلطان ويدفع أهالى تلك الجهات رسوماً مقابل انتفاعهم بأخشابها[2]. وأما المعادن فأهمها الذهب والزمرد والنطرون والشب وقد احتكرها السلطان فلاتباع إلا فى المتجر السلطانى بالاسكندرية ولايجوز لأحد الرعايا المتاجرة فيها[3].

وبالإضافة إلى الخراج وجدت ضرائب أخرى عديدة غذت إيرادات الدولة ، منها الجوالى وهى الضريبة المفروضة على أهل الذمة — أى اليهود والنصارى القادرين على حمل السلاح . وقد بلغ المتحصل من هذه الضريبة سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) مائة وثلاثين ألف دينار[4] . ومنها أموال المواريث الحشرية وهم الذين يموتون دون وريث ، ومنها متحصلات ديوان الأحباس

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

(٢) النابلسى : لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية ، ص ٤٨ .

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ٨١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٤

(٤) المقريزى : المواعظ ج ١ ص ١٧

الخاصة والعامة أى الأوقاف، وهى على أنواع كثيرة مثل الدور والحوانيت والطواحين والأراضى التى وقفها المسلمون فى عصور سابقة . ومنها الأموال الهلالية وهى الإيجارات الشهرية المتحصلة من الجهــات السكنية الخاصة بالسلاطين الأيوبيين ومن قبلهم من خلفاء الفاطميين ، ومنها متحصل دار الضرب وهى الرسوم التى تجبيها الدولة من أصحاب الأموال الذين يرغبون سك مالديهم من ذهب أو فضة فى صورة عملة رسمية[1] . هذا كله بالإضافة إلى المكوس وهى الضرائب التجارية . ذلك أن صلاح الدين ألغى معظم المكوس الفاطمية سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) وكان لايزال نائباً عن نور الدين فى مصر ، وبلغ عددها ٨٨ مكساً جملة حصيلتها مائة ألف دينار فى السنة . ثم أعاد صلاح الدين بعضها مثل مكس تجار الكارم وهى الضريبة المفروضة على التوابل الواردة إلى البلاد ، ومكس الخمس وهى الضريبة المفروضة على مايجلبه التجار الأوربيون والمسيحيون من بضائع . . .

أما أبواب المصروفات فكانت عديدة ، تشهد عليها أسماء بعض الدواوين التى اختصت بالمصروفات . ومن هذه الدواوين ديوان الخاص السلطانى ، ويقوم بالإنفاق على شئون الدور السلطانية ، بعد جمع الإيرادات الخاصة بالسلطان، ومن هذا الديوان كان ينفق على المطبخ السلطانى والأسمطة والخيول السلطانية والمواكب السلطانية فى الأعياد وغيرها ، فضلا عن الهدايا والمنح والهبات التى كانت تخرج باسم السلطان . أما ديوان الجيش فكان مركز توزيع الاقطاعات، ومنه يتم الانفاق على الجند وشئون التعبئة والأسلحة والمؤن والحاميات والحصون والتحصينات والمواقع والمدن العسكرية — مثل العادلية والمنصورية والصالحية — أما ديوان الأسطول فكان ينفق على دور الصناعة، وكذلك قام ديوان الأحباس بالانفاق على المؤسسات الخيرية كالخانقاوات والمارستانات والمدارس ونحوها[2] .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٢ — ٣٤٣

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٥٨ وما بعدها

وقد واجهت البلاد فى بداية الدولة الأيوبية ضائقة مالية بسبب هروب الذهب منها نتيجة لعدم استقرار الأوضاع فى أواخر العصر الفاطمى. ولكن صلاح الدين واجه الموقف فى حزم بسك عملة ذهبية جديدة كاملة العيار حازت ثقة المتعاملين[1] على أنه يبدو أن أعباء الحرب الطويلة التى شنها صلاح الدين ضد الصليبيين ألجأته سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٨م) إلى ضرب درهم نصفه من الفضة ونصفه من النحاس، فضاق الناس بهذه الدراهم الرديئة؛ مما جعل السلطان الكامل يصدر فلوساً نحاسية. وبالجملة فقد ظلت أحوال النقود مضطربة أيام الأيوبيين مما أثر تأثيراً سيئاً فى النشاط الاقتصادى داخل البلاد[2].

الجيش والبحرية :

سبق أن أشرنا إلى أن الدولة الأيوبية جاءت وليدة أحداث الحروب الصليبية، وثمرة مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة. وكانت الدولة الأيوبية هى التى عاصرت أشد مراحل الحروب الصليبية ضراوة وعنفاً، لذلك من الطبيعى أن يكون الاهتمام بالجيش فى أيام تلك الدولة فائقاً لأنه الأداة الكبرى للجهاد. وقد أقيم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) — أى فى الوقت الذى كان صلاح الدين نائباً فى مصر عن سيده نور الدين محمود — عرضاً عسكرياً فى القاهرة شهده رسل البيزنطيين والصليبيين، فحضر ذلك العرض ١٤ ألف فارس كل منهم مزود بمتاعه من الخيل ونحوها، ولكل منهم غلام يحمل سلاح الحرب، هذا عدا الجنود المشاه والعربان الملحقين بالجيش[3]. ولما كان الفارس الواحد من الطواشية يتقاضى مرتباً يتراوح بين ٧٠٠ ،

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥.

(٢) De Bollard: Evolution Monetaire de l'Egypte Medie-ale; p. 450.

(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١ ص ٧٦.

١٢٠٠ دينار ، فإن معنى هذا أن الاحتفاظ بذلك الجيش من شأنه أن يثقل كاهل صلاح الدين. لذلك لجأ صلاح الدين إلى تعميم نظام الإقطاع الحربى، بمعنى أن ينهض أمراء الأجناد بما يوزع عليهم من اقطاعاته بالإنفاق على كتائبهم التى تدخل ضمن الجيش العام زمن الحروب .

ويبدو أن صلاح الدين أعاد تنظيم الجيش الأيوبى عدة مرات ، فنى سنة ٥٧٧ ﻫ (١١٨١ م) بلغت عدة الجيش الأيوبى فى مصر ٨٢٤٠ فارساً منهم ١١١ أميراً و ٦٩٧٦ فارساً من الطواشية و١١٥٣ قراغلامية أى جندياً عادياً . ووصلت النفقة على هؤلاء ٣٦٧٠٦٠٠ دينار[١] . على أن الجيش الأيوبى لم يظل على حال واحد من الكثرة العددية والنفقات طوال العصر الأيوبى ، فانخفض ذلك كله بعد انتهاء مرحلة الجهاد الصلاحى ضد الصليبيين وعقد صلح الرملة ٥٨٧ ﻫ (١١٩١ م) ، ثم ازداد الجيش وارتفعت نفقاته أيام السلطان الكامل عندما هددت مصر الحملة الصليبية الخامسة .

وبالإضافة إلى الجيش الدائم ، ضم جيش صلاح الدين فرقاً مساعدة من التركمان والأكراد والعرب ، وهؤلاء كانوا بمثابة جند غير نظاميين ، يعملون مقابل ما يتقاضونه من أجور ، وإن كانوا لم يقلوا — فى حالات كثيرة — عن الجند النظاميين حماسة ورغبة فى الجهاد[٢] .

أما عن تنظيم الجيش فكان ينقسم إلى أطلاب ، كل طلب يتكون من عدد يتراوح بين ٧٠ ، ٢٠٠ جندياً . وعلى رأس كل طلب أمير (أى ضابط) وعند المسير إلى القتال توزع الأسلحة والزرد والنفقات على الجند ، على أن يستحضر كل جندى ما يلزمه من كميات المؤن . ويذكر العماد الكاتب أنه عندما خرج مع السلطان صلاح الدين من مصر لمحاربة الصليبيين بالشام سنة

(١) المرجع السابق : السلوك : ج ١ ص ٧٥ .
(٢) وأبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦
Gibb: The Damascus Chronicle of the Crusades, p. 316.

٥٧٣ ﻫ (١١٧٧ م) نودى بأن يأخذ العساكر معهم مؤونة تكفيهم عشرة أيام ، حيث أنه كان من غير المتوقع أن يحصلوا على مؤن فى أرض العدو . فأقيم لذلك سوق للعساكر ، وأقبل الجند على شراء ما يلزمهم بعد أن أعطاهم أمراؤهم رواتب الإقامات الإقطاعية المعتادة[١] .

هذا عن الجيش ، أما الأسطول المصرى ، فكان فى حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية ، بسبب الخلل الذى أصاب جميع أجهزة الدولة فى أواخر العصر الفاطمى من ناحية ، فضلا عن فقدان جزيرتى قبرس وكريت ، وكانتا بمثابة القواعد الأمامية للأساطيل الإسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط وخاصة فى حلبة الصراع بين المسلمين والروم . ثم كان وصول الصليبيين إلى الشام فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد واستيلاؤهم على معظم الموانى الكبرى فى بلاد الشام، فى وقت كانت وحدة النضال تجعل مصر والشام متممين لبعضهما البعض . وقد لمس صلاح الدين بنفسه فى الدور الأول من حياته بمصر ، كيف أدى ضعف الأسطول المصرى إلى تمكين عمورى الأول ملك بيت المقدس من القيام بهجماته الجريئة التى أوصلته إلى قلب البلاد ، فى الوقت الذى اعتمد الصليبيون على القوى البحرية المسيحية فى حوض البحر المتوسط — مثل الدولة البيزنطية والنورمان بصقلية — فى طعن صلاح الدين فى الدور الأول من تاريخه بمصر .

لذلك أخذ صلاح الدين يهتم بالأسطول اهتماما بالغاً ، فعهد إلى ديوان الأسطول بالإشراف والإنفاق عليه ، وخصص لذلك الديوان موارد هامة ، منها متحصلات إقليم الفيوم وإيراد ديوان الزكاة فضلا عن حصيلة النطرون[٢] . وقام ديوان الأسطول بالإنفاق على المشتغلين بالأسطول ،

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٧١ .

(٢) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ، ص ٧١ .

فضلا عن النفقة على دور الصناعة — حيث كانت تصنع السفن ، وهى ثلاث فى مصر والاسكندرية ودمياط[1] .

وبفضل هذه الإمكانيات ، غدا الأسطول الصلاحى منذ سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) قوة ضاربة قوامها ثمانون قطعة ، منها ستون من الشوانى وهى المراكب الضخمة المزودة بالأبراج والقلاع التى تحمل الواحدة منها ١٥٠ رجلا وتصلح فى حالات الهجوم والدفاع[2] ، وعشرون طرادة وهى سفن سريعة الحركة تحمل الخيل « ومنفعة المسلمين بها أشهر من أن تذكر[3] » ، وقسم صلاح الدين هذا الأسطول إلى قسمين ، الأول يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها حماية شواطىء مصر والدفاع عنها ، والثانى يتألف من ثلاثين سفينة مهمتها مهاجمة الصليبيين وموانيهم بالشام[4] .

ولم يلبث أن قام هذا الأسطول بواجبه على أتم وجه ، فأقلق بال الصليبيين بالشام ، وهاجم موانيهم الكبرى مثل عكا ، وقطع الطريق على السفن التى تحمل لهم الإمدادات من الغرب . وعندما أقدم أرناط صاحب حصن الكرك الصليبى على إنزال أسطول فى البحر الأحمر — قرب أيله — سنة ٥٧٨ هـ (١١٧٠ م) وشرع فى مهاجمة الموانى المصرية — مثل عيذاب — فى طريقه لغزو الحجاز ، أصدر صلاح الدين أوامره إلى أخيه العادل بمصر فأعد أسطولا قويا فى البحر الأحمر . وكانت السفن تصنع فى دار الصناعة بمصر وتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال إلى شاطىء البحر الأحمر حيث يتم تجميعها وتركيبها . وخرج ذلك الأسطول تحت قيادة الحاجب حسام

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٢) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٣٤٢ .

(٣) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٤ .

الدين لؤلؤ — متولى الأسطول بديار مصر عندئذ — « فظفر بمراكب الفرنج فخرقها وأسر من فيها »(١) وهكذا أثبت الأسطول المصرى وجوده فى البحرين المتوسط والأحمر. وازداد دور هذا الأسطول بروزا فى الأحداث التى أعقبت موقعة حطين سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ)، إذ قام الأسطول بدور فعال فى مساعدة صلاح الدين فى الإستيلاء على بعض الموانى الهامة بالشام مثل عكا.

على أنه يبدو أن همة خلفاء صلاح الدين فترت عن الإهتمام بالأسطول، فضعف شأنه وأثره. وفى ذلك يقول المقريزى « فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إستمر الحال فى الأسطول قليلا ثم قل الإهتمام به، وصار لا يذكر فى أمره إلا عند الحاجة إليه، فإذا دعت الضرورة إلى تجهيزه طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات، وقيدوا فى السلاسل نهاراً، وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا. ولا يصرف لهم إلا شيء قليل من الخبز ونحوه، وربما أقاموا الأيام بغير شيء كما يفعل بالأسرى من العدو. فصارت خدمة الأسطول عاراً يسب به الرجال، وإذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولى غضب غضباً شديداً، بعدما كان خدام الأسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله ويتبرك الناس بدعائهم(٢) ».

ولم يكن ذلك إلا فى أواخر الدولة الأيوبية بعد أن دهمت مصر حملتان صليبيتان — الحملة الخامسة سنة ١٢١٩م (٦١٦ هـ) والحملة السابعة سنة ١٢٤٩م (٦٤٦ هـ) عندما أدرك سلاطين بنى أيوب أهمية الأسطول فى حماية البلاد. وظهر ذلك فى الوصية الشهيرة التى كتبها الصالح نجم الدين أيوب لإبنه تورانشاه والتى جاء فيها « فالأسطول أحد جناحى الإسلام، فينبغى

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٨.

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٩٤.

أن يكونوا شباعا ، ورجال الأسطول إذا أطاق لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه ، جاءوا من كل نج عميق ... »[1] .

الفنون :

واصل التطور الفنى تقدمه فى العصر الأيوبى ، على الرغم مما أحاط بتلك الدولة من ظروف حربية جعلتها توجه طاقتها الكبرى نحو حماية الوطن الإسلامى فى الشرق الأدنى من الخطر الصليبى. ففى فن العمارة ازدهر فى العصر الأيوبى عنصران من عناصر العمارة الإسلامية ، أولهما المدارس التى شيدت لنشر المذهب السنى ومحاربة المذهب الشيعى ؛ وثانيهما تطور بناء الأسوار والاستحكامات والقلاع بتأثير ماعرفه المسلمون عند الصليبيين بالشام[2] .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن صلاح الدين عند بداية دولته فى مصر كان يخشى خطرا داخليا من جانب شيعة الفاطميين وخطراً خارجيا من جانب الصليبيين . لذلك أمر صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط) . ويرجع الفضل إلى البحاثة على بك بهجت فى الكشف عن جزء من هذا السور ، ثم واصل التنقيب بعده الأستاذ حسن الهوارى حتى تم كشف جزء من السور يبلغ طوله ٨٤١٫٣٠ متراً . وقد أشرف على بناء هذا السور أبو سعيد قراقوش عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين — وهو مشيد القلعة أيضاً — وكان هذا السور هو ثالث الأسوار التى أحاطت بالقاهرة إلى عهد صلاح الدين ، وقد بنى الأول جوهر الصقلى وبنى الثانى بدر الجمالى . وكان هذان السوران الأولان من اللبن ، فى حين كان السور الثالث الذى بناه صلاح الدين من الحجارة[3] .

---

(١) النويرى : نهاية الارب ج ٢٨ ورقة ٩٢ .

(٢) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٨ — ٦٩

(٣) عبد الرحمن زكي : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، ص ٩٧ وما بعدها

أما قلعة الجبل فتقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم ، وهى تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين ، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة ، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج ، وفى وسط الجدار باب القلعة الذى يعرف الآن باسم الباب الجوانى . والجزء الشمالى من القلعة كان الحصن نفسه ، أما الجزء الجنوبى فكان يضم الملحقات والقصور السلطانية وما يتبعها من اسطبلات وغيرها . ويغلب على الظن أن الجزء الشمالى تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه ، فى حين أن الجزء الجنوبى الذى يشمل الملحقات تم على عهد السلطان الكامل الأيوبى[1] . وقد سار العمل فى بناء قلعة الجبل بهمة كبيرة تشهد على مهارة قراقوش وحزمه ، وجلبت أحجار البناء من منطقة أهرام الجيزة . ويقال إنه عمل فى القلعة والسور آلاف من أسرى الصليبيين . وفى الجهة الجنوبية من القلعة نحت قراقوش بئرا فى الصخر أطلق عليه اسم بئر يوسف ، نسبة إلى صلاح الدين يوسف وعرف هذا البئر باسم الحلزون ، ويتألف من طابقين عمق الأول خمسين متراً والآخر أربعين ، ولكل طابق منها ساقية لرفع المياه بواسطة الدواب . وقيل أن ماء البئر كان عذبا فى أول الأمر حتى أراد قراقوش توسيعها فاتصلت بعين مالحة أفسدت ماء البئر ، الأمر الذى جعل القلعة بعد ذلك تعتمد على النيل فى إمدادها بالماء[2] .

وثمة قلاع أخرى بناها صلاح الدين فى مختلف أنحاء البلاد ، أهمها قلعة سيناء قرب عين صدر وقلعة فرعون فى جزيرة فرعون فى خليج العقبة والغرض منهما منع الخطر الصليبى من الإمتداد إلى البحر الأحمر ، وخاصة بعد أن قام أرناط صاحب الكرك بحملته الشهيرة التى استهدفت الحجاز سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) .

---

(١) نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى ص ١٠١ — ١٠٢

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٣٠ — ٣٣٢

هذا عن العمائر الحربية فى العصر الأيوبى ، أما عن العمائر المدنية ، فأهم ما بقى منها اليوم قبة الإمام الشافعى التى أنشأها سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) السلطان الكامل ، وتمتاز بما فيها من نقوش وزخارف ، مع ملاحظة أن كثيرا من الأمراء قام بتجديدها فى العصور التالية . ومن مدارس العصر الأيوبى توجد المدرسة الصالحية التى أنشأها الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) وقد تعرضت للخراب على مر العصور ، فلم يبق منها اليوم إلا مدخلها وواجهة غنية بالنقوش والكتابات التاريخية[١] .

أما عن فن الحفر ، فقد احتفظ الحفر على الخشب فى العصر الأيوبى بالأساليب الفنية التى كانت متبعة فى العصر الفاطمى ، غير أن الزخارف النباتية أصبحت أكثر إتقانا ، كما حل خط النسخ محل الخط الكوفى . ومن بدائع أمثلة الحفر على الخشب الأيوبى تابوت الأميرة العادلية بضريح الإمام الشافعى ، فى حين أن تابوت هذا الإمام نفسه يعتبر أعظم المنتجات الخشبية فى العصر الأيوبى[٢] . ويتألف غطاء التابوت وجوانبه من حشوات ذات زخارف نباتية دقيقة مجمعة فى أطباق نجمية وأشكال مسدسة . والتابوت غنى بالنقوش المكتوبة بخط النسخ والخط الكوفى ، منها نقش باسم النجار الذى صنعه وهو عبيد النجار المعروف بابن معالى ، وتاريخ صناعته وهو سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨ م) . ومن أعظم التحف الخشبية كذلك التابوت الذى نقل من المشهد الحسينى بالقاهرة إلى دار الآثار العربية ، وهو مصنوع من خشب الساج الهندى وتنقسم جوانبه إلى مناطق مستطيلة تحبسها إطارات عليها كتابات بخط النسخ الأيوبى وبالخط الكوفى . وجميع هذه الكتابات عبارة عن آيات من

---

(١) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، ص ٧٠

(٢) ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ١٢٢

القرآن الكريم . وكذلك يوجد فى دار الآثار العربية ثلاثة جوانب من تابوت خشبي جميل خاص بالأمير حصن بن ثعلب المتوفى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) فى حين أن الجانب الرابع من هذا التابوت محفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن [١] .

أما النحت فى الحجر والجص فقد ظلت الأساليب الفاطمية فيه سائدة فى العصر الأيوبى . ومن أبدع أمثلة الحفر فى الجص فى العصر الأيوبى الجزء الأسفل من المنارة الأيوبية فوق الباب الأخضر بالمشهد الحسينى بالقاهرة [٢] أما النحت فى الحجر فمن أمثلته فى العصر الأيوبى واجهة تربة أبى منصور اسماعيل ، وفيها كتابة بالنسخ على أرضية نباتية وإفريز من زخارف هندسية ونباتية .

أما الحفر على العاج زمن الأيوبيين ، فقد ظلت متبعة فيه أساليب الفاطميين ، وإن كانت الزخرفة اقتصرت على الأشكال النباتية والهندسية . ولم تصلنا أمثلة كثيرة من تحف عاجية ترجع إلى ذلك العصر .

وأما عن صناعة الخزف فقد أخذت تضمحل فى مصر منذ نهاية القرن السادس الهجرى ، وإن كانت قد أزدهرت بعد ذلك فى الشام فى القرنين التاليين . وقد جرى الخزافون المصريون والسوريون فى العصر الأيوبى على استخدام الأشكال الزخرفية والأساليب الفنية التى عرفها العصر الفاطمى ، ويتضح ذلك فى الأوانى المدهونة بطلاء واحد تقليداً للخزف الصينى . هذا فى حين أخذ يختفى الخزف ذى البريق المعدنى من مصر [٣] .

---

(١) زكي محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفية ص ١٢٣ — ١٢٥ ؛ فنون الإسلام ص ٤٦٤ .

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ج ١ ص ٨٥

(٣) ديماند : الفنون الإسلامية ص ٢١٨

وعلى العكس ازدهرت صناعة الزجاج في العصر الأيوبي ، حتى أن الباحثين يتخذون نهاية القرن الثاني عشر للميلاد بداية العصر الذهبي لهذه الصناعة في العالم الإسلامي . وبلغت هذه الصناعة أجل صورها في تزيين التحف بالزخارف المذهبة والمموهة بالمينا . هذا مع ملاحظة أن فضل التقدم بهذه الصناعة في ذلك العصر إنما يرجع إلى الصناع السوريين — وخاصة في حلب ودمشق — وإن كانت مصر قد ساهمت بنصيب وافر في إنتاج الزجاج المطلي ، مثلما ساهمت العراق وإيران[١] .

أما عن التحف المعدنية ، فالمعروف أن كثيراً من أرباب هذه الصناعة هاجروا من الموصل إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) . وقد اشتغل هؤلاء الفنانون للأمراء الأيوبيين في دمشق وحلب والقاهرة ، ونقلوا معهم الأساليب الفنية ، التي ألفوها في بلاد الجزيرة[٢] . ومن القطع المعدنية التي ترجع إلى الأيوبيين بعض أواني ذات موضوعات زخرفية مسيحية تحمل أسماء بعض سلاطين بني أيوب ، الأمر الذي يرجع إلى تسامح هؤلاء السلاطين . ويوجد في متحف اللوفر إناءان من النحاس المكفت بالفضة قوام زخرفتهما رسوم آدمية وحيوانية ونباتية ، وعليهما كتابة تحمل اسم السلطان الملك الناصر يوسف .

أما في المنسوجات فقد ورث العصر الأيوبي عن العصر الفاطمي أساليب صناعة الأقمشة ذات الزخارف المنسوجة ، وإن كانت أقمشة العصر الأيوبي أكثر بساطة من أقمشة العصر الفاطمي . كذلك يلاحظ أن نسيج الكتان أخذ يضمحل منذ عصر الأيوبيين لتزداد العناية بنسج الحرير ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٨

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٤٩ — ٥٥٠

وهناك مجموعة مطرزة بألوان متعددة ومصنوعة بخرزة متتابعة وعليها كتابات نسخية وكوفية ، ويمكن إرجاع هذه المجموعة إلى القرن الثاني عشر للميلاد[1] .

* * *

وبعد ، فإنه يتضح من العرض السريع السابق أن عجلة الفن لم تتوقف في عصر الأيوبيين ، وأن صليل السيوف في ذلك العصر لم يوقف تيار التقدم الحضاري . وفي الوقت الذي كان بنو أيوب يخوضون أضخم معركة للجهاد دخلها المسلمون منذ قيام دولتهم الكبرى في القرن السابع الميلادي ، إذا بالمدارس تفتح ، والمكتبات تنشأ ، والحصون والقلاع تبنى ، والصناعات والحرف والفنون تواصل تقدمها في إقامة أعظم بناء حضاري شهدته العصور الوسطى ، وهو بناء الحضارة الإسلامية .

---

(١) ديماند : الفنون الإسلامية ، ص ٢٥٧

مصادر

ابن الأثير : ـ الكامل فى التاريخ
ـ التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل .
أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين
ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك
ابن واصل مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

مراجع

سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية (جزءان)
Wiet : L'Egypte Arabe.

الباب السادس

دولة المماليك

الفصل الأول

قيام دولة المماليك البحرية

رأينا فى الباب السابق كيف انقسمت الدولة الايوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين الايوبى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) فصارت مصر ودمشق وحلب والكرك وبصرى وبعلبك وحمص وحماه . . . وغيرها ، مراكز لامارات يحكمها بعض أبناء البيت الايوبى الذين تلقبوا بالملوك . كذلك رأينا كيف دب الشقاق بين ملوك بنى أيوب ، وأدى النزاع إلى قيام حروب فيما بينهم وبين بعض ؛ فضلا عن المنازعات التى ظلت قائمة بين ملوك بنى أيوب من ناحية وأبناء البيوت القديمة التى ظلت تحكم أجزاء من الوطن الإسلامى فى الشرق الادنى من ناحية أخرى ، مثل أبناء البيت الزنكى فى الموصل وسنجار وكيفا وآمد وخرتبرت ، فضلا عن بنى سكمان فى خلاط[1]

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة التى عمت العلاقات بين حكام المسلمين فى الشرق الادنى — وخاصة فى مصر والشام — حرص كل حاكم أو ملك على تكوين عصبية لنفسه يعتمد عليها فى الاحتفاظ بإمارته أو فى صد عدوان جيرانه . ولم يجد أمراء المسلمين فى ذلك العصر — سواء كانوا أيوبيين أو غير

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام : ص٣ .

أيوبيين — وسيلة لتحقيق هدفهم إلا عن طريق الإكثار من شراء المماليك — أو الرقيق الابيض — واشتروا منهم أعداداً كبيرة وعنوا بتدريبهم وتنشأتهم ليكونوا لهم عدة وسنداً . وهكذا شهدت السنوات الاخيرة من القرن السادس الهجرى والنصف الأول من القرن السابع (القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد) إزدياد نفوذ المماليك فى مختلف الإمارات والدول الإسلامية فى الشرق الادنى ، ومنها مصر . وسرعان ماغدا لاولئك المماليك كلمة مسموعة فى الاحداث والخلافات التى تعرضت لها المنطقة مما يدل على ازدياد سطوتهم . من ذلك ماترويه المراجع من أنه عندما توفى الملك العزيز عثمان سلطان مصر سنة ١١٩٨ م (٥٩٥هـ) وتطلع العادل أخو صلاح الدين للإستيلاء على مصر ، خشى المماليك الاسدية والصالحية فى مصر سطوة العادل ، فتدخلوا فوراً ، واستدعوا الملك الافضل من حوران وسلموه مقاليد الامور فى مصر فى يناير سنة ١١٩٩ م(٥٩٥هـ)[١] .

ومرة أخرى نسمع أن المماليك هم الذين دبروا مؤامرة لعزل العادل الثانى وإحــــلال الصالح نجم الدين أيوب محله فى السلطنة سنة ١٢٣٩ م (٦٣٧ هـ)[٢] .

والواقع إن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو صاحب الفضل فى تكوين فرقة جديدة من المماليك قدر لها أن تنهض بدور خطير فى التاريخ ، هى فرقة المماليك البحرية . ويبدو أن الصالح نجم الدين أيوب أحس بفضل المماليك عليه فى الوصول إلى دست السلطنة من ناحية ، كما أحس بحاجته إلى جيش قوى من المماليك يسانده ، بعد أن لمس غدر الطوائف الاخرى من الجند المرتزقة من ناحية أخرى ؛ فدفعه كل ذلك إلى تكوين تلك الفرقة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

الجديدة . وفى ذلك يقول ابن ايبك عن الصالح نجم الدين أيوب أنه « اشترى من المماليك الترك مالم يشتر أحد من المماليك مثله من قبله حتى عاد أكثر جيشه مماليكه ، وذلك لكثرة ما جربّ من غدر الاكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش »[1] .

أما عن السبب فى تسمية هذه الفرقة بالبحرية فالمرجح أن ذلك يرجع إلى اختيار الصالح نجم الدين أيوب جزيرة الروضة فى بحر النيل مركزاً لهم . وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك مجلوبين من بلاد القفجاق — شمالى البحر الأسود — ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين . وقد أجمع المؤرخون على أن الأتراك القفجاق امتازوا عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس، فضلا عن الشجاعة النادرة . وبفضل هذه الصفات من جهة ، والظروف الخارجية والداخلية التى أحاطت بمصر فى أواخر العصر الأيوبى من جهة أخرى ، تمكن المماليك من الاستئثار بحكم مصر ، كما سنفصل فيما بعد . ولم يلبث أن توصل البحرية بالذات إلى السلطنة ، وظلوا يحكمون مصر نحو قرن وثلث (٦٤٨ — ٧٨٤ﻫ = ١٢٥٠ - ١٣٨١ م) استطاعوا فيها مواجهة المشاكل العديدة التى واجهت المسلمين فى مصر والشام عندئذ ، سواء كانت هذه المشاكل خارجية من جانب الصليبين والمغول ، أو داخلية فى صورة مؤامرات أو أزمات إقتصادية . وعندما دالت دولة المماليك البحرية حلت محلها دولة أخرى من المماليك أيضاً ، هم المماليك الجراكسة أو البرجية (٧٨٤ ﻫ - ٩٢٢ ﻫ = ١٣٨٢ — ١٥١٧م) وبذلك تكون مصر قد استمرت تحت حكم سلاطين المماليك أكثر من قرنين ونصف قرن ، أى حتى غزا السلطان سليم العثمانى البلاد .

وسنرى أنه طوال تلك المدة ، ظل المماليك يمثلون ارستقراطية حاكمة

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٧ ورقة ٣٠٠ .

بوصفهم الجهاز الحربى الذى استأثر بحكم البلاد والدفاع عنها . وإذا كان المماليك البحرية الأوائل معظمهم من الأتراك القفجاق ، فإنه ليس معنى ذلك أن جميع المماليك فى مصر والشام طوال ذلك العصر كانوا ينتمون إلى ذلك العنصر وحده . ذلك أنه بدأت تصل إلى مصر منذ عهد بيبرس دفعات من المماليك من أصل مغولى ، وهؤلاء ارتقوا بسرعة فى وظائف الدولة حتى أن السلطان كتبغا نفسه (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) كان مغولى الأصل. وفى ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر انتشار بعض العادات المغوليه فى مصر على عصر سلاطين المماليك مثل أكل لحوم الخيل فى الحفلات والمناسبات وصناعة بعض أنواع الخمور من لبن الخيل بالذات .

وعندما وجد تجار الرقيق أن سلاطين المماليك وأمراءهم فى مصر يقدرون بضاعتهم ويدفعون فيها الأموال الطائلة، نشطوا فى جلب المماليك ، وأسهم فى هــــذه التجارة أيضاً بعض التجار الأوربيين — وخاصة المدن الإيطالية — الذين نافسوا التجار الشرقيين فى جلب المماليك إلى مصر . وهكذا نجد أصول المماليك فى مصر وقد أخذت تتنوع تنوعا واضحا منذ القرن الثامن الهجرى أى الرابع عشر للميلاد ، إذ وجد منهم الاتراك والشراكسة والمغول والصقالبة واليونانيين والاسبان والألمان ... وغيرهم . وقد انتسب هؤلاء المماليك غالباً إلى أساتذتهم أى سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار ، وأشرفوا على تربيتهم . فالمماليك الظاهرية بيبرس نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس ، والمماليك الأشرفية خليل نسبة إلى السلطان الأشرف خليل وهكذا . وأحياناً نسب المملوك إلى تاجره الذى جلبه كالمماليك العثمانية ، أو إلى قيمته التى اشترى بها إذا كانت كبيرة تستحق الفخر لما لها من دلالة على عظم المواهب والصفات المتوفرة فى ذلك المملوك ، مثل قلاون الالفى الذى اشترى بألف دينار .

هذه كلمة عامة موجزة عن أصل المماليك الذين حكموا مصر فى فترة من

أهم فترات تاريخها فى العصور الوسطى ، وبقى أن نعرف كيف تمكن هؤلاء المماليك من أن يعلوا على سادتهم الأيوبيين فى حكم مصر .

مقتل توران شاه وقيام شجر الدر فى الحكم .

الواقع إن انتصار المماليك البحرية على الصليبين فى المنصورة ثم فى فارسكور (٦٤٧ هـ = ١٢٥٠م) أدى إلى ازدياد قوة شوكتهم لإحساسهم بأنهم أصحاب فضل فى إنقاذ مصر من خطر ضخم . وكان ذلك فى الوقت الذى وصل إلى مصر تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب وصاحب الحق الشرعى فى حكم البلاد ، كما ذكرنا فى الباب السابق . ومن الواضح أن المعظم توران شاه كان سلطاناً جديداً يريد أن يحس بسطوته وخطورة منصبه ، ويباشر سلطانه على أوسع نطاق . لذلك وجد توران شاه فى المماليك البحرية حجر عثرة تعترض سلطانه المطلق ، مما أدى إلى سوء العلاقات بين الطرفين من أول الأمر .

وخير ما يوضح لنا رغبة السلطان المعظم توران شاه فى ذلك الدور الأول من حكمه فى الاستئثار بالنفوذ والسلطان ، ما يرويه المقريزى من أنه لم يكد يطمئن إلى هزيمة الصليبيين فى المنصورة وفارسكور حتى « أخذ فى إبعاد رجال الدولة » ، فتخلص من كل من خشى منافستهم له من أبناء بيته ، ومنهم الملك المغيث عمر الأيوبى الذى أخرجه توران شاه من قلعة الجبل إلى الشوبك حيث اعتقل . وكذلك أخرج الملك السعيد فخر الدين حسن الأيوبى من مصر إلى دمشق حيث اعتقل أيضاً . أما كبار موظفى الدولة الذين اعتمد عليهم أبوه — مثل الأمير حسام الدين نائب السلطنة — فقد عزلهم أيضاً وأحل محلهم غيرهم [1] بل إن توران شاه لم يحفظ الجميل

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٥٨ .

لزوج أبيه شجر الدر ، التى حفظت له عرشه وملكه بعد وفاة أبيه ، فأرسل إليها — وكانت قد خرجت إلى بيت المقدس — يتهددها ويطالبها بمال أبيه . وكان أن تخوفت شجر الدر من نوايا توران شاه « لمابدا منه من الهوج والخفة، فكاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حقه من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها[1] » .

ولم يكن المماليك فى مصر فى حاجة إلى مزيد من التحريض ضد توران شاه . وتروى المراجع أن الفارس أقطاى الذى أرسلته شجر الدر لاستدعاء توران شاه من حصن كيفا ، كان قد حصل من توران شاه — عقب البشارة — على وعد منه بأن يؤمره ، ولكن توران شاه عاد فتنكر وامتنع عن الوفاء بوعده « فتنكر له اقطاى وكتم الشر ، فحرك كتاب شجر الدر منه ساكنا» ثم إن المماليك اشتد استياؤهم من توران شاه عندما وجدوا أنه احتجب عنهم ، وانصرف إلى الفساد وعبث بهم وبخطايا أبيه . وأخيراً أدرك البحرية سوء مايضمره لهم توران شاه من سوء عندما رأوه وهو سكران بالليل يجمع الشموع بين يديه ويضرب رؤوسها بالسيف واحدة بعد أخرى حتى تنقطع ويقول « هكذا أفعل بالبحرية» ويسمى كل واحد من زعماء البحرية باسمه[2] .

وهكذا لم يبق أمام البحرية إلا أن يقتلوا توران شاه قبل أن يقتلهم هو ، فاستقر رأيهم على تنفيذ خطتهم عند نزوله فى فارسكور . ولم يكد يمد السماط عقب وصول المعظم توران شاه إلى فارسكور ويجلس السلطان على عادته ، حتى تقدم إليه واحد من البحرية — هو بيبرس البندقدارى — وضربه بالسيف فأطار أصابع يده ، وعندئذ أسرع توران شاه بالفرار

(١) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج٣ ص ١٨٠ ؛ المقريزى : سلوك ج١ ص ٣٤١-٣٥٩ .

إلى برج خشبي قد نصب له فى فارسكور ، وهو يصيح « من جرحني » فقالوا له « الحشيشية » ولكنه قال « لا والله إلا البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية » . وهنا رأى البحرية أن يسرعوا فى العمل فقال بعضهم لبعض « تمموه وإلا أبادكم » فبادروه بالهجوم على البرج . ولكن توران شاه احتمى بأعلى البرج وأغلق بابه ،والدم يسيل من يده ، فأضرم البحرية النار فى البرج ، حتى اضطر توران شاه إلى الفرار منه وألقى نفسه فى ماء النيل والبحرية تلاحقه بالنشاب ، حتى غرق ، فمات جريحا حريقا غريقا . »[1].
وبقتل توران شاه ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) انقرضت دولة بنى أيوب من أرض مصر ، بعد أن حكموا البلاد إحدى وثمانين سنة .[2] .

سلطنة شجر الدر :

يبدو أن قتلة توران شاه وجدوا أن الأمور ليست مهيأة بعد لأن يتولى أحدهم منصب السلطنة ، فأجمعوا على تولية شجر الدر ذلك المنصب . ولا شك فى أن شجر الدر تعتبر من ناحية الأصل والنشأة أقرب إلى المماليك ولذلك يعتبرها المقريزى « أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك »[3] وقد أجمع المؤرخون على أن شجر الدر كانت « خيرة دينة رئيسة عظيمة فى النفوس » .

ولكن قيام امرأة فى حكم المسلمين « لم يقع قبلها ولا بعدها » . وقد أحست شجر الدر نفسها بما لوضعها من حرج فكانت لا توقع باسمها على المناشير ، وإنما جعل توقيعها « والدة خليل » . كذلك نقش اسمها على السكة (النقود) فى صيغة « المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل » . أما الخطباء فى المساجد ، فكانوا يقولون فى الدعاء لها « واحفظ اللهم الجهة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧١ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦١ .

الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح » . ويفهم من هذا كله أن شجر الدر تحرجت — أن تذكر اسمها صراحة فى المناسبات الرسمية ، فضلا عن أنها أرادت أن تضفى على حكمها صبغة شرعية ، فهى حينا تتمسح بالخلافة العباسية وتتمسك بلقب « المستعصمية » إشارة إلى صلتها بالخليفة العباسى المستعصم[1] ، وأحيانا تتمسك بلقب « أم خليل صاحبة الملك الصالح » إشارة إلى صلتها بالبيت الأيوبى والملك الصالح نجم الدين أيوب بوجه خاص .

جلاء الفرنسيين عن دمياط :

وكانت أولى المشاكل التى واجهت السلطانة شجر الدر هى أنها قامت فى السلطنة ، والفرنسيون مازالوا فى البلاد . حقيقة إن لويس التاسع كان أسيراً فى المنصورة ، ولكن دمياط نفسها ظلت قاعدة بحرية فى قبضة الفرنسيين . وما دام الأمر كذلك فإن خطر الصليبيين على مصر بأجمعها مازال باقيا ، لأن الفرصة قائمة أمام الغرب الأوربى لإنزال حملة جديدة فى دمياط . لذلك كان على شجر الدر أن تفكر فى وسيلة لاسترداد دمياط أولا قبل القيام بأية خطوة أخرى فى الداخل أو الخارج .

وكان أن ندب الأمير حسام الدين محمد لمفاوضة لويس التاسع ، فجرت مفاوضات طويلة[2] . وبعد « محاورات ومراجعات » تم الإتفاق على أن يطلق المسلمون سراح لويس التاسع مقابل ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها مقدما ، وأن يجلو الصليبيون عن دمياط . وبعد أن تم الإتفاق أرسل لويس

---

(١) كانت شجر الدر جارية للخليفة المستعصم العباسى قبل أن يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب. (Lane-Poole : A hist. of Egypt, p. 526)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ورقة ٣٧٣ .

الناصح إلى الصليبيين بدمياط يأمرهم بتسليم المدينة للمسلمين ، ولكنهم تمنعوا كثيراً حتى وافقوا أخيراً على ذلك . وفي الوقت نفسه قامت زوجة لويس — وكانت بدمياط — بجمع نصف الفدية المتفق عليها ، فأفرج عن زوجها . أما بقية الأسرى — وعددهم أكثر من إثني عشر ألف أسير — فقد ظلوا في الأسر لحين دفع باقي الفداء المطلوب منه[1].

موقف بني أيوب من السلطنة المماليكية :

ذكرنا أن مقتل توران شاه وقيام شجرة الدر في الحكم يعنيان نهاية حكم الأيوبيين وبداية حكم المماليك في مصر . وقد جرت العادة أن يكون لسلطان مصر منذ أيام صلاح الدين هيمنة على بقية الملوك والأمراء في بلاد الشام . ولذلك بادرت شجرة الدر عقب سلطنتها إلى إرسال الخطيب أصيل الدين محمد لاستحلاف أمراء الشام على الولاء للسلطانة الجديدة[2] . ولكن لم يكن منتظراً من أمراء الأيوبيين أن يرتضوا الخضوع لمماليكهم ، لاسيما وأن بني أيوب ظلوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام بوصفهم سلالة صلاح الدين .

وكان أن بدأت تشتعل نار الثورة في الشام ضد سلطنة المماليك الوليدة في مصر ، فأبى ملوك بني أيوب أن يعترفوا بما تم في مصر من قيام المماليك في الحكم وإعلان شجر الدر سلطانة . وكان المعظم توران شاه ـ وهو في طريقه من كيفا إلى مصر — قد عين الأمير جمال الدين بن يغمور نائباً للسلطنة في دمشق ، فامتنع ذلك الأمير عن الحلف لشجر الدر[3] . كذلك وجد بدمشق عندئذ

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٦٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ .

فئة من المماليك — أطلق عليهم اسم القيمرية[1] ، فامتنعوا أيضاً عن الاعتراف بالولاء للنظام الجديد . وهكذا اختلت أوضاع الشام ، فاستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان على مال مدينة غزة واتجه نحو الصبيبة فملكها[2] ؛ وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصالحى — نائب الكرك والشوبك — واتجه إلى الشوبك حيث أخرج الملك المغيث عمر الأيوبى من الحبس ، « وملكه الكرك والشوبك وأعمالها ، وحلف له الناس ، وقام يدبر أمره لصغر سنه »[3] .

ولم يلبث أن أخذ ملوك بنى أيوب يتكتلون بالشام الوقوف فى وجه المماليك فى مصر ، بل لغزو مصر ذاتها واسترداد ملكها الأيوبيين . وكان أن كتب الأمراء القيمرية من دمشق إلى الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب يعرفونه بالامتناع عن الحلف لشجر الدر ، ويطلبون منه الحضور إلى دمشق لتسليمها إليه . وقد استجاب الناصر يوسف لتلك الدعوة وتسلم دمشق فى سهولة ، فخلع على الأمراء القيمرية وعلى جمال الدين بن يغمور[4] .

وأخيراً أدرك المماليك فى مصر أن الأمر ليس بالسهولة التى توقعوها ، وأن موقف الأيوبيين فى الشام يهدد بالقضاء على سلطانهم فى مصر . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ الخليفة العباسى المستعصم بالله يعيب على أهل مصر أنهم اختاروا امرأة لتحكمهم فأرسل إليهم يقول « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأخبرونا حتى نسير إليكم رجلا[5] » . ولمواجهة هذه المشاكل مجتمعة ، وجد أمراء المماليك بمصر أنه من المصلحة أن تتزوج شجر الدر

---

(١) نسبة إلى قلعة قيمر قرب الموصل

(٢) العينى : عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ ورقة ٣١٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٦ .

(٤) المقريزى : نهاية الأدب ج ٢٧ ورقة ٩٧ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ص ٣٨٦-٣٨٧ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٧ .

من الأمير عز الدين أيبك — اتابك العسكر — على أن تترك له السلطنة . وكان أن تمت هذه الخطوة (٦٤٨ ھ = يوليو ١٢٥٠م) « فخلعت شجر الدر نفسها من مملكة مصر » وتنازلت عن الحكم لايبك ، بعد أن ظلت فى السلطنة ثمانين يوما برهنت فيها على « حسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها »(١)

السلطان المعز أيبك التركمانى :

تولى المعز أيبك السلطنة سنة ٦٤٨ ھ = ١٢٥٠ م ليجد نفسه أمام مشاكل كثيرة خطيرة ، أولها تهديد الأيوبيين بغزو مصر ذاتها . وقد لجأ المماليك إلى ألعوبة يتحايلون بها على تخدير بنى أيوب ، « فأتوا بطفل صغير من أبناء البيت الأيوبى اسمه الأشرف موسى وعمره ست سنوات ، وأقاموه سلطانا ليكون شريكا للمعز أيبك فى الحكم . وبذلك صارت المراسيم تخرج باسم الملكين الشريكين الأشرف والمعز » إلا أن الأشرف ليس له سوى « الاسم فى الشركة لاغير ، وجميع الأمور بيد المعز أيبك »(٢) .

غير أن هذه الخديعة لم تجز على الأيوبيين فى الشام ، فجمعوا قواهم بزعامة الناصر يوسف الأيوبى وزحفوا على مصر يريدون حرب المماليك والقضاء عليهم . وكانت القوة الرئيسية من المماليك التى خرجت للقاء الجيش الأيوبى تتألف من البحرية . وفى سنة ٦٤٨ ھ (٢ فبراير سنة ١٢٥١م) دارت موقعة فاصلة بين الطرفين قرب العباسة بالشرقية ، انهزم فيها الأيوبيون وفر الناصر يوسف ورجاله عائدين إلى الشام(٣) . ولا شك فى أن هذه الموقعة كان لها أثرها وأهميتها فى تثبيت أركان دولة المماليك الناشئة ، الأمر الذى شجع المعز أيبك بعد ذلك بشهر على إرسال جيش بقيادة فارس الدين

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٣ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٦٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقه ٣٧٢ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ ورقه ١٧ .

اقطاى — زعيم البحرية — فاستولى على غزة .

وفى تلك المرحلة كان لويس التاسع زعيم الحملة الصليبية السابعة قد أقام بالشام عقب إطلاق سراحه من دار بن لقمان ؛ وظل يرقب الموقف بين الأيوبيين والمماليك دون أن يجاهر بالانضمام إلى جبهة معينة حتى يرى ماتسفر عنه الأحداث . فلما انجلى الموقف بانتصار المماليك وهزيمة الناصر يوسف ، بادر المماليك بتجديد اتفاقية الصلح مع الصليبيين ليضمنوا عدم تأييد الصليبيين للناصر يوسف والايوبيين . وفى سنة ٦٥٠ هـ = ١٢٥٢ م وافق المماليك فى الاتفاقية الجديدة على أن يطلقوا سراح بقية أسرى الصليبيين فى مصر وعلى إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقى عليه من الفدية . بل أكثر من هذا تشير بعض المراجع إلى أن المماليك فى مصر وعدوا لويس التاسع باعطائه بيت المقدس إذا هو أيدهم ضد الايوبيين فى الشام[١] .

على أنه لم يقدر للعداء بين المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام أن يستمر ويزداد عنفاً ، وذلك بسبب ظهور خطر جديد هدد المسلمين جميعاً فى الشرق الادنى بأوخم العواقب ، وتطلب منهم أن يتحدوا لمواجهته ؛ هو خطر المغول . وكان الخليفة العباسى فى بغداد أشد إحساساً بخطر المغول ، بحكم تطرف بلاده فى الشرق وقربها من دولة هولاكو فى فارس ، لذلك بادر الخليفة المستعصم بإرسال رسول إلى الناصر يوسف الايوبى صاحب دمشق « يأمره بمصالحة الملك المعز (أيبك) وأن يتفقا على حرب التتار »[٢] . ويبدو أن موجة الرعب التى أثارتها أخبار المغول ووحشيتهم جعلت الطرفين يستجيبان فى سهولة لدعوة الخليفة المستعصم ، فتم الصلح فى أبريل سنة ١٢٥٣م (٦٥١هـ) بين المماليك فى مصر والايوبيين فى الشام بشرط أن يكون للمماليك مصر حتى

(١) العينى : عقد الجمان ج ١٨ ورقة ٤١٤ .
Grousset : Hist. des Croisades, III, p. 502.
(٢) السبكى : طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٣ .

نهر الاردن والأيوبيين ماوراء ذلك من بلاد الشام ؛ بمعنى أن تستولى سلطنة المماليك على غزة والقدس ونابلس ، والساحل كله ، فضلا عن مصر[١].

مقتل السلطان المعز أيبك وشجر الدر :

ولم يكن موقف الايوبيين العدائى بالشام هو المشكلة الوحيدة التى واجهت المعز أيبك ، وإنما وجدت مشاكل داخلية أقلقته وهددت سلطانه فى الفترة القصيرة التى تولى الحكم فيها . وأولى هذه المشاكل جاءت من ناحية المماليك البحرية الذين ازداد نفوذهم ازدياداً خطيراً عقب واقعة المنصورة من ناحية ، ثم عقب الانتصار على الناصر يوسف الايوبى عند العباسة من ناحية أخرى . فجميع هذه الانتصارات كان الفضل فيها لقوة المماليك البحرية ، الامر الذى جعلهم يشعرون بنفوذهم وسطوتهم ويتمادون فى غيهم وإفسادهم . ويبدو أن ازدياد نفوذ البحرية فى ذلك الدور لم يهدد نفوذ أيبك فحسب ، بل هدد أمن عامة الناس وسلامتهم . ففى حوادث سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) يقول المقريزى « وفيها كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ، ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الاموال ، وسبوا الحريم وبالغوا فى الفساد حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم »[٢] . وقد أدرك أيبك مدى خطورة ازدياد نفوذ البحرية ، فأقطع زعيمهم الفارس أقطاى ثغر الاسكندرية ، ولكن ذلك لم يفلح فى الحد من شرهم « فكثر تمردهم وطغيانهم »[٣] . ثم يعود المقريزى فيشير فى حوادث سنة ٦٥١هـ (١٢٥٣م) إلى ازدياد خطر البحرية فيقول « وفيها قويت البحرية — وكبيرهم فارس الدين اقطاى — على المعز وكثر تعنتهم واستطالتهم وتوثبهم على الملك المعز (أيبك) وهموا بقتله[٤] » .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٨٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٨٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٨٦ .

وعندما أحس أيبك بنية البحرية ، استدرج زعيمهم أقطاى إلى القلعة وقتله، وعندئذ تجمع تحت أسوار القلعة نحو سبعمائة فارس من البحرية ، فألقى لهم أيبك رأس أقطاى . وعندئذ خاف البحرية على أنفسهم وفروا إلى الشام وعلى رأسهم الامير ركن الدين بيبرس البندقدارى وسيف الدين قلاون ، حيث دخلوا فى خدمة بنى أيوب بالشام[1] .

أما المشكلة الداخلية الكبرى التى واجهت المعز أيبك والتى أودت به فى نهاية الامر فكان سببها شجر الدر . ذلك أنه يبدو من تاريخ هذه المرأة أنها كانت من ذلك النوع من النساء الذى يميل إلى السيطرة والتحكم وحب السلطان . وقد سبق أن ذاقت شجر الدر طعم السلطان وحكمت مصر حكما انفراديا مدة ثمانين يوماً ، مما جعل من الصعب عليها بعد ذلك أن تقبل الانزواء محرومة من كل نفوذ وسلطان . ويبدو أن شجر الدر لم تكد تتنازل عن السلطان لزوجها أيبك . حتى عادت وعز عليها ذلك ، وشعرت بالندم ، فأخذت تفكر فى وسيلة أو أخرى للتخلص من أيبك . ويروى المؤرخ أبو المحاسن أن شجر الدر سيطرت على زوجها المعز أيبك سيطرة تامة بحيث صار فى جميع أحواله « ليس له معها كلام »[2]. ثم إنها لم تكتف بالاستبداد بأمور المملكة بل منعت أيبك من الاجتماع بأم ابنه على « وألزمته بطلاقها » . وعندما وجدت شجر الدر أن تحقيق نفوذها المطلق يتطلب الخلاص من أيبك نهائياً ، إتصلت بالناصر يوسف الايوبى فى الشام ، وبعثت إليه بهدية « وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز (أيبك) والتزوج به وتمليكه مصر » ولكن الناصر يوسف خشى أن يكون هذا خديعة ، فلم يجبها بشىء[3] .

وكانت أنباء مؤامرات شجر الدر تصل أولا بأول إلى أيبك ، فرأى

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٩٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٧٤ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٢ .

أن يحتاط لنفسه ، وعزم على إنزالها من القلعة . وهكذا أمسى الزوجان — أيبك وشجر الدر — يتربص كل منهما للآخر . وجاءت الاشاعات إلى شجر الدر بأن زوجها أيبك يريد الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل « فتخيلت منه أنه ربما عزم على إبعادها أو اعدامها لانه سئم من حجرها واستطالتها ، فعاجلته وعزمت على الفتك به ، وإقامة غيره فى الملك »[1] .

وكان أن نفذت شجر الدر مؤامرتها فى سرعة ، فحرضت جماعة من الخدم على قتله بالحمام ، وأسهمت هى فى تدبير المؤامرة فأخذت « تضربه بالقبقاب وهو يستغيث ويتضرع إليها إلى أن مات » . ولكن مماليك المعز أيبك لم يغفروا لشجر الدر فعلتها فقتلوها بعد قليل ، وبذلك خلا المسرح (سنة ٦٥٥ ﻫ = ١٢٥٧م) من أيبك وشجر الدر جميعاً[2] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٧٥ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

الفصل الثانى

قطز والمغول

سلطنة على بن أيبك :

أحدث موت أيبك وشجر الدر فراغا ضخما فى صفوف المماليك ، حيث أنه فتح الباب على مصراعيه أمام القوى المتنافسة حول الحكم ، وبخاصة من زعماء المماليك . والمعروف أن المماليك لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة فى الحكم . وإنما اعتنقوا مبدأ الحكم للأقوى . وكانت التمثيلية التى تتكرر عادة عقب وفاة كل سلطان من سلاطينهم هى أن يسرع الأمراء إلى تنصيب ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، حتى تهدأ الأمور وتستقر الأوضاع ، وعندئذ لا يجد أقوى الأمراء صعوبة فى خلع ذلك الإبن وإحلال نفسه محله .

وعندما وجد أمراء المماليك أنفسهم لا يستطيعون الإجماع على أحدهم ليتولى منصب السلطنة ، قر رأيهم على اختيار على بن أيبك ، فأعلن سلطانا عقب مقتل أبيه وقبل مقتل شجر الدر ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) . وقد لقب السلطان الجديد بالمنصور ، وكان فى الخامسة عشرة من عمره فاختير أحد الامراء — وهو سيف الدين قطز — أتابكا له .

ويبدو أن الأمراء البحرية الذين كانوا بالشام أدركوا عندئذ أن فرصتهم قد حانت للعودة إلى مصر ، فاتصلوا بالملك المغيث عمر الايوبى صاحب الكرك وزينوا له غزو مصر . وكان أن استجاب المغيث عمر للبحرية . وخرجت الحملة قاصدة غزو مصر عن طريق الشرقية ، ولكن قطز استطاع صدهم وأنزل الهزيمة بهم عند الصالحية .[1]

---

(١) المقريزى - السلوك ج ١ ص ٤٠٢ .

وفى الوقت الذى كان السلطان المنصور على يقضى وقته فى اللعب وركوب الحمير بالقلعة ، إذا بالأخبار تصل إلى مصر بأن المغول استولوا على بغداد سنة ١٢٥٨ م (صفر ٦٥٦ ﻫ) وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسى ، وحرقوا الجوامع والمساجد ، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات . . . [1] وبدلا من أن يتدبر الناصر يوسف الأيوبى ذلك الخطر الذى أصبح على أبواب الشام، إذا به يرسل ابنه الملك العزيز إلى هولاكو يطلب مساعدته فى الاستيلاء على مصر من المماليك . وكان أن استجاب هولاكو لتلك الدعوة ، وقرر إرسال قوة من عشرين ألف فارس إلى الشام . وعندما جاءت أخبار تهديد المغول لبلاد الشام عقد مجلس بالقلعة للتشاور فى الأمر ، فوجد الأمير سيف الدين قطز فرصته قد حانت ، فأخذ ينكر على الملك المنصور على بن أيبك سلوكه وقال « لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة ! » ثم انتهز قطز فرصة خروج الأمراء للصيد ٦٥٧ ﻫ (١٢٥٩ م) ، وقبض على المنصور على وأخيه وأمهما ؛ وبذلك انتهى حكم المنصور على ، بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام .

سلطنة سيف الدين قطز :

ورأينا كيف انتهز قطز فرصة غيبة الأمراء فى الصيد ليعزل المنصور على من السلطنة . فلما عاد الأمراء انكروا عليه عمله ، فخاف غضبهم واعتذر لهم بأنه ما فعل ذلك إلا خوفا من المغول من ناحية والملك الناصر من ناحية أخرى « وأنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك . فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم ! » .

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٠ .

وهكذا أخذ قطز يرضى الأمراء «حتى تمكن» ؛ وعندئذ قبض على زمام الأمور بيد من حديد، فاعتقل من توهم خطره من الأمراء، وبدأ يعد العدة لمواجهة الخطر الأكبر الذى هدد الشام ومصر فى ذلك الوقت، وهو خطر المغول .

ذلك أن المغول لم يلبثوا أن زحفوا من العراق على الشام، فانتقلوا فى سرعة مذهلة من ديار بكر إلى آمد يريدون حلب «ولم يوفق المسلمون فى الدفاع عن حلب فدخلها المغول وقتلوا ونهبوا وسلبوا، وفعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم».[1]

وهنا أفاق الناصر يوسف لحقيقة خطر المغول، فأرسل إلى قريبه المغيث عمر صاحب الكرك والمظفر قطز صاحب مصر يطلب منهما النجدة السريعة . على أنه يبدو أن كثيرا من الأمراء بالشام خافوا عاقبة مقاومة المغول ونادوا بأنه لا فائدة من تلك المقاومة، فأخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم من شأن هولاكو وأبدى مبدأ الاستسلام له، ولكن الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى — أحد أمراء المماليك البحرية بالشام — لم يعجبه ذلك القول، فقام وسبه وضربه، وقال له «أنتم سبب هلاك المسلمين!» ولم يرض بيبرس ومن معه من البحرية عن مسلك الناصر يوسف وأمراء الشام، فساروا إلى غزة، وأرسل بيبرس إلى السلطان قطز يعرض عليه توحيد جهود المسلمين ضد خطر المغول . وفى الحال استجاب قطز للدعوة، فأرسل إلى بيبرس يطلب منه القدوم ؛ واستقبله بدار الوزارة وأقطعه قليوب وأعمالها[2].

موقعة عين جالوت :

اضطربت أحوال الشام نتيجة لغزو المغول ؛ إذ لم يمض على استيلا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٥ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٦٤ .

هولاكو على حلب ستة عشر يوما حتى أخذ فى الزحف على دمشق ، فدخلها المغول ونهبوها، ثم ساروا إلى بعلبك واتجهت طائفة منهم إلى غزة ، وخربوا بانياس » واسعروا البلاد حرباً وملأوها قتلا ونهبا »[1]

ولم يلبث أن وصل إلى قطز بمصر خطاب تهديد من هولاكو ، يطلب منه التسليم ويقول له « يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطه على من حل به غضبه . . . فاتعظوا بغيركم . . . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . . . »[2] ولكن قطز لم يجبن أمام ذلك التهديد ، فقتل رسل المغول وعلق رؤسهم على باب زويلة ، فكانت أول من علق على باب زويلة، من رءوس المغول . ولما وجد قطز أن بعض الأمراء مترددون فى الخروج لحرب المغول صاح فيهم « يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون ؟ أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين ! »[3].

وفى الوقت الذى أخذ قطز يعد العدة للقاء المغول ، اختار أن يوفد بيبرس على رأس مقدمة الجيش ليتحسس أخبار المغول . وكان المغول قد وصلوا إلى غزة ، فلما وصل بيبرس انسحبوا من غزة فاحتلها المماليك . وبعد قليل وصل قطز ومعه بقية الجيش ، فزحف المماليك عن طريق الساحل قاصدين بحيرة طبرية . ويبدو أن وصول ذلك الجيش الكبير من المماليك إلى الشام أزعج الصليبيين فى عكا ، فخرجوا إلى السلطان قطز وعرضوا عليه المساعدة ، ولكنه شكرهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه؛ وهددهم

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٢٦.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٢٩.

إذا هم اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين أن يعود إليهم ويقاتلهم قبل أن يقاتل المغول.»[1]

وفى تلك الأثناء كان هولاكو قد عاد إلى حاضرة المغول فى آسيا وترك كتبغا نائبا عنه فى الشام. وعندما علم كتبغا بوصول قطز على رأس الجيش المصرى إلى الشام قر رأيه على منازلة المسلمين، فاتجه صوب عين جالوت قرب بيسان فى فلسطين. وفى موقعه عين جالوت التى دارت بين المسلمين والمغول سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) تفوق المغول فى أول الأمر، ولكن قطز ثبت فى القتال، ويقال أنه ألقى خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح « وا إسلاماه »، وحمل على المغول حملة صادقة زعزعتهم بها، فقتل كتبغا وكثير من رجاله وولى من نجا من المغول الأدبار.

ولا شك فى أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الشرق الأدنى. ومهما يقال من أن المغول كانوا بوصولهم إلى عين جالوت قد بلغوا نهاية الشوط فى حركتهم، وأنه كان لابد من أن ينتهى أمر تلك الحركة إلى التوقف عند نقطة معينة، فالذى يعنينا هو أن موقعة عين جالوت أنقذت مصر والشام من خطر المغول وجعلت دولة مغول فارس تقف عند حدود العراق. وإذا كان المغول قد استمروا بعد ذلك يهددون الشام، فإن تهديدهم بعد عين جالوت لم يتخذ شكل غزوات كاسحة كما كان الحال من قبل، وإنما اتخذ صفة إغارات متقطعة تنتهى بالانسحاب السريع عندما تخرج لهم الجيوش الإسلامية من مصر.

أما عن الموقف فى بلاد الشام عقب عين جالوت، فيتلخص فى قيام السلطان قطز بحركة تطهير سريعة للبلاد، فاسترد دمشق من المغول، فى حين قام الأمير بيبرس بمطاردة المغول حتى حلب[2].

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٠.

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٨١ — ٨٢.

نهاية قطز :

وفى الفترة القصيرة التى قضاها قطز ببلاد الشام بعد عين جالوت ، تمكن من أن يبسط سيطرة دولة المماليك على الشام ، وأن يعيد الحياة إلى مجراها الطبيعى هناك . وإذا كان قطز قد سمح لبعض أمراء بنى أيوب بأن يعودوا إلى ولاياتهم فى حمص وحماة ، فإن هؤلاء اعترفوا بالتبعية لسلطنة المماليك فى مصر وتعهدوا بدفع الجزية للسلطان قطز والدعاء له على المنابر. أما فى مصر فقد كان لانتصار قطز فى عين جالوت أجمل الوقع ، فدقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة ، وأخذت البلاد تستعد لاستقبال قطز عند عودته . ولكن شاءت الظروف ألا يعود قطز مرة أخرى إلى القاهرة ، وأن يقتل غدراً وهو فى طريق عودته إليها . ذلك أن قطز كان قد وعد بيبرس بإعطائه ولاية حلب تقديراً لجهوده وبلائه فى حرب المغول، ولكن لم يكد يتم طرد المغول من الشام واسترداد حلب حتى تنكر قطز لوعوده وأعطى حلب للأمير علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ[1] . ولاشك فى أن قطز أظهر قصر نظر واضح وعدم مرونة خطيرة بتصرفه هذا ، لأنه نسى أن الأمير ركن الدين بيبرس غدا ذا مكانه كبيرة من الأهمية والقوة بعد أحداث المغول بحيث صار خطراً على سلطان قطز فى مصر . ولو كان قطز على شىء من الحكمة لألقى حلب للأمير بيبرس وألهاه بها عن منافسته فى مصر ، وبذلك يتمكن قطز من مباشرة سلطانه فى مصر دون منافس أو حاقد .

ومهما يكن من أمر فإن قطز بلغه تنكر الأمير بيبرس له وتغيره عليه ، فخافه السلطان وأضمر له السوء . وهكذا « احترس كل منهما من الآخر »

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ .

على قول المقريزى[1] ، واتجه الاثنان فى موكب واحد إلى مصر . ويقال إن بيبرس حدث جماعة من الأمراء فى قتل السلطان المظفر قطز فأقروه وأخذوا يترقبون الفرصة المناسبة لتنفيذ مؤامرتهم . وعندما اقترب الجمع من الصالحية انصرف قطز إلى الصيد — صيد الأرانب — فثارت أرنب وجمحت ، وعندئذ نسى قطز أن يحترز على نفسه وتعقب الأرنب حتى ابتعد عن رفاقه . وكان أن استغل المتآمرون الفرصة ، فتبعوا السلطان حتى لم يبق معه غيرهم ، وعندئذ تقدم بيبرس ليطلب من السلطان طلباً فأجابه قطز إلى إلى طلبه[2] . واستطاع بيبرس أن يسبك الحياة فتظاهر برغبته فى تقبيل يد السلطان اعترافاً بفضله ، ولكن لم يكد قطز يمد يده حتى قبض عليها بيبرس بشدة ليحول بينه وبين الحركة ، فى حين هوى عليه بقية الأمراء بسيوفهم حتى اجهزوا عليه[3] . وعلى هذا الوجه انتهت حياة بطل عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ (أكتوبر ١٢٦٠م) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٥ .

(٢) ذكرت بعض المراجع أن بيبرس طلب من السلطان امرأة من سبى التتار فأنعم بها عليه (المقريزى السلوك ج ١ ص ٤٣٥) .

وذكرت مراجع أخرى أن بيبرس شفع عند السلطان فى إنسان فاجابه : أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٨٣ — ٨٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٧ .

الفصل الثالث

بيبرس وتأسيس دولة البحرية

سلطنة بيبرس :

من الأمور المألوفة فى عصر المماليك أن يحل القاتل فى سهولة محل القتيل فى دست السلطنة ، مادام القاتل قد أظهر من الشجاعة والقوة ماضمن له التفوق على زملائه من الأمراء . وفى الوقت الذى كان قطز مازال ملقى على الأرض لم يدفن ولم تجف دماؤه ، تقدم الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب وبايع الأمير بيبرس بالسلطنة ، ثم تبعه بقية الأمراء قرب الصالحية[1] . ويروى المقريزى أن الأمراء الذين قتلوا قطز اتجهوا بعدذلك إلى الدهليز السلطانى بالصالحية — وأيديهم مخضبة بالدماء — فقابلهم هناك الأمير أقطاى المستعرب وسألهم: «من قتله منكم؟»، فقال بيبرس «أنا قتلته»؛ فرد عليه أقطاى «ياخوند ! اجلس فى مرتبة السلطنه مكانه ! » . وبعد أن بايع أقطاى وبقية الأمراء بيبرس بالسلطنة قال له أقطاى « لاتتم السلطنة إلا بدخولك قلعة الجبل» فركب بيبرس وصحبته الأمراء قاصدين القاهرة[2].

وكانت القاهرة قد تزينت لاستقبال الملك المظفر قطز ، والناس فى فرح وسرور بالغ لما حدث من انكسار المغول ونجاة مصر من شرهم ؛ فإذا بالمنادى يطوف فى شوارع القاهرة يصيح « ترحموا على الملك المظفر ،

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٦ — ٤٣٧ .

وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس ! » . ولا يخفى علينا ما أصاب الناس من غم عند سماع الخبر ، لأن بشرى الانتصار على المغول في عين جالوت جاءتهم مقرونة باسم قطز . هذا إلى أن الناس لم ينسوا عندئذ ظلم البحرية وعسفهم ، فخافوا من عودة دولة المماليك البحرية وسوء ملكتهم وجورهم[1] .

أما بيبرس الذى تلقب أول الأمر بلقب الملك القاهر ، فقد قصد القلعة حيث استقبله نائب السلطنة الأمير عز الدين أيدمر ؛ وكان قد خرج للقاء قطز ولكن بيبرس أعلمه بما حدث فلم يجد نائب السلطنة وغيره من أمراء القلعة غضاضة في أن يحلفوا للسلطان الجديد (٦٥٨ هـ = اكتوبر ١٢٦٠م). وبعد ذلك أشار الوزير زين الدين بن يعقوب على بيبرس بأن يغير لقب القاهر إلى الظاهر ، لأن اللقب الأول « ما تلقب به أحد فأفلح » : فوافق بيبرس ، وغدا لقبه السلطان الظاهر بيبرس[2] . ولم يكد يستقر بيبرس في السلطنة حتى أخذ يتقرب من الخاصة والعامة ، فخفف عن الأهالى عبء الضرائب ، وألغى الأموال التى كان قطز قد فرضها واستحدثها بدعوى محاربة المغول ، كما عفا « عمن بالحبوس من أصحاب الجرائم » وأفرج عنهم[3] .

ثم أن بيبرس أرسل « إلى الأقطار » بسلطنته ، ليعترف الحكام التابعين للسلطنة المماليكية بسيادة بيبرس . على أن الأمور لم تتم لبيبرس في سهولة ، إذا امتنع بعض الأمراء عن الاعتراف لبيبرس بالولاء مما هدد سلطانه في ذلك الدور الأول من حكمه .

* * *

وكان أول هؤلاء الثائرين الأمير علم الدين سنجر الحلبى الذى كان قطز

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٣٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ٢٠٨ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٠٣ .

قد ولاه على دمشق ، فلما علم بمقتل قطز ثار وأعلن نفسه سلطانا ، كما طلب من أصحاب حماه وحمص الدخول فى طاعته ولكنهما امتنعا . ولم يتوان بيبرس فى القضاء على هذه الثورة التى هددت نفوذه فى الشام ، فأرسل حملة بقيادة الأمير علاء الدين البندقدارى ، نجحت فى القبض على الأمير علم الدين سنجر وإحضاره إلى القاهرة ٦٥٩ هـ (يناير ١٢٦١م)[1] .

وقد ولى الظاهر بيبرس علاء الدين البندقدارى على دمشق وكلفه بالقبض على بعض الأمراء الذين تخوف منهم بيبرس . وكان أن فر أحد أولئك الأمراء - وهو شمس الدين آقوش البرلى — إلى حلب واستولى عليها بمساعدة أعوانه ، ثم عزم السير إلى مصر لغزوها . ولكن السلطان الظاهر أرسل حملة قضت على جيش البرلى ، وفر البرلى نفسه حتى قبض عليه بيبرس فيما بعد .

ومع ذلك فإن بيبرس ظل يخشى قيام ثورة فى الشام ، لاسيما من جانب بنى أيوب . ويبدو أن بيبرس كان يخشى بالذات ثورة المغيث عمر الأيوبى صاحب الكرك ، فتحايل بيبرس حتى استحضره لمقابلته فى بيسان وعندئذ قبض عليه رغم الأمان المعطى له واعتقله بالقلعة حتى قتل بعد ذلك[2] .

ولم تكن جميع الثورات التى واجهت بيبرس فى مستهل حكمه فى بلاد الشام ، وإنما قامت ثورة شيعية فى القاهرة تستهدف إعادة الخلافة الفاطمية ، فاستولى الثوار على ما فى دكاكين السيوفيين من أسلحة ، وشقوا القاهرة وهم يصيحون « يا آل على » . ولكن جند بيبرس أحاطوا بهم وقضوا على

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٤ — ٤٥١ .

(٢) مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ١٠٧ — ٢٠٨ .

حركتهم فى سهولة فهدأت الفتنة بعد قليل(١) .

إحياء الخلافة العباسية :

ويبدو أن هذه الثورات التى اعترضت طريق بيبرس فى بداية حكمه جعلته يشعر بأنه فى حاجة إلى دعامة كبرى يسند إليها سلطانه ؛ بعد أن نظر إليه المعاصرون من زاوية أنه أغتصب منصب السلطنة من قطز قاهر المغول . هذا إلى أنه لايخفى علينا أن المماليك بوجه عام شعروا منذ اللحظة الأولى التى ولوا فيها حكم البلاد أنهم انتزعوا لأنفسهم ملك سادتهم بنى أيوب ؛ بدليل تحايلهم على الموقف بمحاولة إشراك بعض أبناء البيت الأيوبى معهم فى الحكم كما سبق أن رأينا . فإذا أضفنا إلى هذا كله تجريح المعاصرين للمماليك بسبب أصلهم غير الحر ؛ أدركنا فى النهاية السر فى تحمس السلطان الظاهر بيبرس لإحياء الخلافة العباسية فى مصر ليتخذ منها سنداً يسند إليه حكم المماليك .

والواقع إن سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) خلق موقفا غريبا فى العالم الإسلامى لم يعتاده المسلمون منذ وفاة نبيهم عليه الصلاة والسلام . وفى وسط ذلك الفراغ الكبير الذى أحس به المسلمون ، حاول بعض حكام الولايات الإسلامية إحياء الخلافة فى بلده ليكتسب تشريفا عظيما من ناحية ويجعل بلاطه قبلة بقية حكام العالم الإسلامى من ناحية أخرى . ولكن الظاهر بيبرس كان أسرع هؤلاء جميعا إلى اتخاذ تلك الخطوة ، فلم يكد يسمع بوصول أحد أبناء البيت العباسى إلى دمشق ، حتى أرسل يستدعيه فورا مع اتخاذ كافة الاحتياطات لسلامته وراحته .(٢)

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) النويرى : نهاية الارب ج ٢٨ ص ١٨ (مخطوط)

وقد وصل ذلك الأمير العباسى فعلا إلى مصر – وهو أحمد بن الظاهر ابن الناصر العباسى – فاستقبله بيبرس بالحفاوة والإكرام ، ثم عقد السلطان مجلسا بالقلعة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء ليشهدوا باثبات صحة نسب ذلك الإمام . وبعد أن شهد الشهود بذلك بايع السلطان الظاهر الخليفة الجديد – الذى لقب بالمستنصر بالله – وتبعه القضاة والعلماء وسائر الناس . أما الخليفة فقد قام بتقليد الظاهر بيبرس السلطنة وتم ذلك فى حفل كبير عقد بعد أيام بجهة المطرية ، وبذلك تم لبيبرس ما أراد وأصبح يتولى منصبه بتفويض من السلطة الشرعية الكبرى فى العالم الإسلامى ، وهى الخلافة[1].

ولكن يبدو أن بعض الناس تشككوا فى صحة نسب الخليفة المستنصر بالله، وذلك على الرغم من الاحتياطات التى قام بها الظاهر بيبرس ، وعلى الرغم من شهادة الشهود . ويبدو هذا التشكك واضحا فى الطريقة التى أشار بها بعض المؤرخين إلى الخليفة الجديد ، وهى طريقة لا تخلو من الغمز الواضح. مثال ذلك ما يقوله المؤرخ أبو الفدا فى حوادث سنة ٦٥٩ هـ « وفى هذه السنة قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر »[2] ويكرر أبو الفدا أسلوبه فى الإشارة إلى الخليفة الجديد فيقول « وبرز الملك الظاهر والخليفة لأسود . . . . » . أما مفضل بن أبى الفضائل فقد أطلق على الخليفة الجديد اسم « المستنصر بالله الأسود » .[3] ولعله من الواضح أن هذا الأسلوب ليس الأسلوب الذى تعودناه من المؤرخين المعاصرين فى كلامهم عن الخلافة وشخص الخليفة .

أما السلطان الظاهر بيبرس ، فإنه بعد أن حقق غرضه وحصل على

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥٣ — ٤٥٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٣ .

(٣) مفضل ابن ابى الفضائل : النهج السديد ص ١٠٥ .

تقليد بالسلطنة من الخلافة العباسية ليضفى على نفسه وعلى ملكه صبغة شرعية ؛ عاد وأحس بأنه أوجد لنفسه شريكا فى الملك . ذلك أن النقود صارت تضرب باسم السلطان والخليفة معا ، كما صار يدعى للخليفة على منابر الجوامع يوم الجمعة قبل الدعاء للسلطان . ولم يغب عن بيبرس أنه إذا حدث صدام بينه وبين الخليفة ، فإن الرأى العام فى العالم الإسلامى سيقف إلى جانب الخلافة بوصفها السلطة الشرعية الأولى فى حكم المسلمين منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . لذلك بدأ بيبرس يفكر بسرعة فى التخلص من الخليفة المستنصر بعد أن قضى وطره من الخلافة وحصل منها على ما كان يطمع فيه من تفويض بالسلطنة . وكان أن أدعى بيبرس أنه يرغب فى إعادة الخليفة إلى قاعدة العباسيين فى بغداد ، فخرج معه إلى دمشق ، وهناك ترك بيبرس الخليفة يخترق الصحراء ومعه جماعة من الاعراب والترك قاصدا العراق .[1] ومن الواضح أنه لو كان بيبرس جادا فى استرداد بغداد من المغول وإعادة الخلافة العباسية إلى قاعدتها الأولى، لمشى بنفسه صحبة الخليفة المستنصر إلى العراق ، ولأعد للأمر عدته وجمع جيشا كبيرا جديرا بمنازلة المغول . ولكن بيبرس — وهو خير من يعرف قوة المغول — ترك الخليفة يذهب لحرب المغول فى بضع عشرات أو مئات من الرجال ، مما أدى إلى مقتل الخليفة ومعظم رجاله على أيدى المغول قرب هيت .[2] ولا عبرة هنا بما يردده بعض المؤرخين عن حزن بيبرس على الخليفة وعن أسفه لما أنفقه من أموال على تلك الحملة ؛ إذ يكفى دليل على إهمال بيبرس فى حق الخليفة المستنصر أنه لم يرافقه فى مشروعه لاسترداد بغداد ، وهو المشروع الذى ابتكره بيبرس نفسه ودفع إليه الخليفة الجديد دفعا .

على أن مشكلة الخلافة لم تنته عند ذلك الحد ؛ إذ أحس بيبرس عقب

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ . ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٤٣٠ .

مقتل الخليفة المستنصر أنه بدأ السير فى طريق فعلا ولا بد له من أن يمضى فى الطريق . وما دام بيبرس قد أخذ على عاتقه مهمة إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة ، فإنه أصبح ملتزما أدبيا أمام الرأى العام الإسلامى — وبخاصة داخل دولته — بالاستمرار فى مشروعه . لذلك لم يجد بيبرس مفرا من استدعاء أمير جديد من بنى العباس — هو الأمير أبو العباس أحمد — وبايعه بالخلافة ، كما حصل على تقليد منه بالسلطنة سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣م)[١]. وفى تلك المرة حرص بيبرس على الحد من نفوذ الخليفة العباسى الجديد — الذى لقب بالحاكم بأمر الله — بحيث لم يترك له فرصة للظهور وتأكيد نفوذه على حساب السلطنة . كذلك استحضر بيبرس بعض أفراد آخرين من بنى العباس للتلويح بهم فى وجه الخليفة الحاكم إذا حدثته نفسه بالخروج عن النطاق الذى رسمه له السلطان .[٢]

وقد حاكى سلاطين المماليك فى مصر الظاهر بيبرس فى الحد من نفوذ الخلفاء العباسيين فى القاهرة ، فأصبح الوضع طوال العصر المماليكى أن يفوض الخليفة الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عنه عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الحكم ، فى حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب السلاطين والأمراء لتهنئتهم بالشهور والأعياد[٣] . وقد عبر المقريزى تعبيرا صادقا عن الخلافة العباسية فى وضعها الجديد بعد إحيائها بالقاهرة ، فقال إن خلافة الخليفة العباسى « ليس فيها أمر ولا نهى وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » .[٤]

بيبرس والصليبيون:

على أن إحياء الخلافة العباسية بمصر ، وتمتع المماليك بعطفها ، وحصولهم

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨

(٢) النويرى : نهاية الارب ج ٢٨ ص ١٢٩ .

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٧٥ .

(٤) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ٣٩٤ .

على تقليد منها بحكم البلاد والعباد ؛ كان لا يكفى وحده لتبرير اغتصاب المماليك حقوق بنى أيوب فى السلطنة . وقد أحس المماليك من أول الأمر أنهم مجرحون ، وأن الأهالى قالوا عن السلطان أيبك أنه « مملوك وقد مسه الرق » ووصفوا المماليك بأنهم « عبيد خوارج » [1]

ولا يخفى علينا أن المماليك وجدوا سنداً ومبررا لقيامهم فى الحكم فى نجاحهم فى إنزال الهزيمة بلويس التاسع وجيشه فى المنصورة ثم فى فارسكور؛ الأمر الذى تطلب من سلاطين المماليك جهدا متواصلا فى صد الأخطار الكبرى التى هددت المسلمين عندئذ فى الشرق الأدنى ، وذلك لتبرير حكمهم وضرورة بقائهم فى الحكم أمام رعاياهم . وكان أكبر خطرين يهددان المسلمين فى الشرق الأدنى عند قيام دولة المماليك هما الخطر الصليبى وخطر المغول . وفى كلتا الحالتين أبدى بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك بطولة نادرة وشجاعة كبيرة فى حماية الشام ومصر من تلك الأخطار .

وتبدو مهارة بيبرس السياسية فى أنه حرص أثناء حروبه ضد الصليبيين والمغول على محالفة بعض القوى الخارجية المعادية لكل من الصليبيين والمغول : فحالف الامبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجس وعقد معه حلفا دفاعيا (٦٦٠ هـ = ١٢٦٢ م) لعلمه أن الامبراطورية البيزنطية كانت دائما العدو اللدود للصليبيين بالشام .[2] كذلك حالف بيبرس مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية عند بحر قزوين وهم الذين اعتنقوا الإسلام واشتدت العداوة بينهم وبين مغول فارس الوثنيين .[3]

وهكذا دخل بيبرس المعركة ضد خصومه من الصليبيين والمغول وبجانبه

---

(١) المقريزى : البيان والاعراب ص ٩ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٣٦٢ ، ج ٤ ص ٦٧ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٢٦٢

Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 266.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦٥ .

حلفاء طيبون يشدون أزره ، إن لم يطمع فى مساعدتهم فهو على الأقل يطمئن إلى حيادهم .

أما عن حروب بيبرس ضد الصليبيين فكانت طويلة عنيفة ، امتازت دائما برجحان كفة بيبرس وانتصاره على خصومه . ذلك أنه لم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين ٦٥٩ هـ ، ٦٦٩ هـ (١١٦١ م ١٢٧١ م) دون أن يوجه بيبرس حملة صغيرة أو كبيرة ضد الصليبيين بالشام . وفى كل مرة كان بيبرس يحرز نصرا على الصليبيين ويستولى منهم على بعض المعاقل والمدن ، وقد يعقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات، ولكنه لا يلبث أن يعاود هجومه عليهم بعد قليل .(١)

وقد بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) عندما هاجمت جيوش بيبرس الناصرة ، كما هاجم بيبرس بنفسه مدينة عكا ولكنه لم يفلح فى الاستيلاء عليها.(٢) على أن الحرب الشاملة التى شنها بيبرس على الصليبيين لم تبدأ إلا فى عام ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) عندما استولى بيبرس على قيسارية ويافا وعثليث وأرسوف . وفى العام التالى استولى بيبرس على صفد ثم على هونين وتبنين ومدينة الرملة(٣) .

ولم يغفر بيبرس لمملكة أرمينية الصغرى فى قيليقيه أو لإمارتى انطاكية وطرابلس تحالفها مع المغول ضد المسلمين؛ فأخذ يمهد سنة ٦٦٥ هـ(١٢٦٦م) للقيام بعمل حربى ضد هذه القوى الصليبية ، وأرسل جيشا تحت قيادة الأمير قلاوون استولى على بعض القلاع الواقعة شمالى طرابلس لتحقيق ذلك الغرض .(٤) وفى صيف سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦م) وجه السلطان بيبرس

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 432.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ سنة ٦٦١ ، ٦٦٢ هـ .

(٣) العينى : عقد الجمان سنة ٦٦٤ هـ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٠ .

(٤) Stevenson : The Crusaders, p. 339.

حملة كبرى ضد أرمينية الصغرى أثناء غياب ملكها هيثوم الأول فى زيارة لمغول فارس ، ونجح المماليك فى إنزال هزيمة كبرى بالأرمن قرب دربساك (٢٤ أغسطس) .

وقد دمرت جيوش بيبرس فى تلك الغزوة مدن أرمينية الصغرى وبخاصة أذنه وطرسوس والمصيصة ، كما أشعلوا النار فى عاصمتها سيس ، وقتل أحد أبناء الملك هيثوم الأول فى الحرب فى حين أسر الابن الثانى ؛ وبعد ذلك عاد المماليك إلى الشام محملين بالغنائم ومعهم آلاف الأسرى من الأرمن[١] .

وأخيراً توج بيبرس جهوده ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية فى مايو سنة ١٢٦٨م . وكانت خسارة الصليبيين بسقوط أنطاكية ضخمة ؛ لأنها كانت كبرى إماراتهم بالشام ، وثانى إمارة أسسوها بعد الرها ؛ لذلك جاء سقوطها إيذاناً بانهيار البناء الصليبى بالشام ، بحيث لم يبق للصليبيين بعد ذلك من المدن الكبرى سوى عكا وطرابلس .

ثم إن حركة الجهاد التى قام بها بيبرس ضد القوى الصليبية فى الشرق الأدنى لم تقتصر على أرمينية الصغرى والصليبيين بالشام ، وإنما امتدت إلى جزيرة قبرس . وكانت هذه الجزيرة قد حكمتها أسرة صليبية — هى أسرة لوزجنان — منذ أواخر القرن الثانى عشر ، مما مكنها من القيام بدور بارز نشيط فى الحروب الصليبية أواخر العصور الوسطى .

ولم يستطع السلطان الظاهر بيبرس أن يغفر لملك قبرس تهديده لسفن المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط ، أو مساعدته للصليبيين ضد المسلمين

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٠ ، المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٠٢ .
وسعيد عبد الفتاح عاشور : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى ،
(بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٦٨) .

بالشام ، فأرسل حملة بحرية سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠م) لغزو قبرس[١]. ولكن هذه الحملة أصيبت بالفشل بسبب ريح عاصفة هبت على السفن الاسلامية قرب شاطىء قبرس فتحطم بعضها ، وعاد البعض الآخر دون نتيجة[٢].

وهكذا شن بيبرس على الصليبيين حرباً عنيفة لاهوادة فيها ولا رحمة ، فاستولى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١م) على صافيتا وحصن الأكراد وحصن عكا والقرين ، وأخذ يستعد لمهاجمة طرابلس ذاتها ، لولا وصول الأمير ادوارد الانجليزى إلى بلاد الشام ومعه بضع مئات من المحاربين ، مما جعل بيبرس يخشى أن يكون ذلك مقدمة لحملة صليبية كبيرة[٣].

وجدير بالذكر أن حرص بيبرس على تقليم أظافر الصليبيين بالشام دفعه إلى القضاء على نفوذ الباطنية الحشيشية . وكانت هذه الطائفة قد قامت بدور خطير فى تاريخ الحروب الصليبية ، وأسهمت بقسط وافر فى انحلال بلاد الشام فى ذلك العصر . ثم أنهم لم يكتفوا باغتيال كثير من زعماء حركة الجهاد من المسلمين ، وإنما حالفوا الصليبيين ودفعوا لهم الأموال رمزاً للتبعية . لذلك سعى بيبرس للقضاء على نفوذ الباطنية فى بلاد الشام قضاء تاماً ، فعزل مقدمهم نجم الدين الشعرانى ، واستولى على حصونهم حصناً بعد آخر حتى استولى عليها جميعاً وأراح البلاد من شرهم[٤].

بيبرس ومغول فارس :

وفى الوقت الذى قام بيبرس بمحاربة الصليبيين وانتزاع مدنهم وقلاعهم

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٤٧ — ٤٨

(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 343.

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥٧ .

بالشام ؛ حارب أيضاً مغول فارس ودفع شرهم عن بلاد الشام ولم يسمح لهم مطلقاً بالتقدم غرباً خارج حدودهم فى العراق .

والملاحظ عند دراسة حروب بيبرس أنه يصعب فى كثير من الحالات الفصل بين حروب ضد المغول وحروبه ضد الصليبيين ، بسبب ما كان هناك من تحالف قوى بين المغول والصليبيين ضد المسلمين فى مصر والشام. لذلك كثيراً ما كان يحدث أن يحارب بيبرس المغول والصليبيين فى وقت واحد، ويخرج لحرب أحد الخصمين فيحارب الآخر .

والواقع أن العداء بين المماليك والمغول لم ينقطع منذ موقعة عين جالوت، إذ ظل مغول فارس يتحينون الفرصة للثأر ، ويغيرون بين حين وآخر على أطراف دولة المماليك الشمالية بالعراق والشام. وإذا كان هولاكو — خان مغول فارس — قد توفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) فإن ابنه وخليفته أبغا واصل سياسة أبيه العدائية تجاه المسلمين من ناحية وسياسته الودية تجاه الصليبيين فى الشام وأرمينية الصغرى من ناحية أخرى. ولكن بيبرس وقف دائماً بالمرصاد لمغول فارس وحال بينهم وبين ما يشتهون . من ذلك أن بيبرس لم يكد يسمع سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥م) بإغارة المغول على البيرة — وهى قلعة هامة على الفرات — حتى أرسل حملة سريعة لردهم ، ففر المغول هاربين تاركين خلفهم أموالهم وعددهم[١] .

ومن الواضح أن موجة المغول الكاسحة كانت قد انكسرت حدتها عندئذ ، وأصبح مغول فارس أنفسهم فى حالة من الاجهاد والمشاكل الداخلية لا تمكنهم من القيام بمحاولة كبرى لغزو الشام فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر. لذلك فكر أبغا فى طلب الصلح من بيبرس ، ولجأ

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٩٠ .

فى طلبه إلى مزيج من الترغيب والتهديد ، إذا قال « فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ماتخاصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً »[1]. ولكن بيبرس كان يعلم جيداً أن الصلح مع المغول أمر لايرضى عنه أى مسلم عندئذ ، بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ، وفعلوا بالمسلمين فى العراق مايتنافى مع قواعد الانسانية والرحمة . لذلك رفض بيبرس طلب أبغا للصلح وأعلن أنه لن يكف عن المغول حتى يسترد جميع البلاد التى اغتصبوها من المسلمين[2] .

ولما يئس أبغا من الصلح أرسل رجاله للإغارة على بلاد الشام سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩م) فهاجموا الساجور ، ولكنهم ارتدوا خائبين عندما رأوا الجيوش التى أرسلها السلطان لمنازلتهم . ثم عاد المغول مرة أخرى لمهاجمة عين تاب وعمق الحارم سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١م) ، ولكن إغارتهم كانت محدودة الأثر والأهمية . وفى ذلك الوقت حاول الأمير ادوارد الانجليزى أن يستغل المغول فى مهاجمة المسلمين بالشام ، وأرسل فعلا سفارة إلى أبغا لذلك الغرض ولكن أبغا لم يقدم للصليبيين أكثر من بضعة وعود ، بل إنه أرسل بعض الرسل للسلطان بيبرس لتجديد الكلام فى الصلح . وفى تلك المرة أحسن بيبرس استقبال رسل المغول فى دمشق وأرسل معهم بعض الهدايا لأبغا[3] . ومع ذلك فإن بيبرس لم يوافق على مبدأ الصلح مع المغول مما جعلهم يجددون هجماتهم على البيرة ٦٧٠ — ٦٧١ (١٢٧٢ — ١٢٧٣م) .

وعندما وجد بيبرس أن المغول تحالفوا مع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ضده ، أعد حملة كبيرة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦ م) لغزو سلاجقة

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص ٥٧٤.

(٢) العينى : عقد الجمان ج٢٠ ورقه ٥٤٩.

(٣) المقريزى : السلوك ج١ ص ٦٠٢.

الروم . وفى موقعه ابلستين حلت الهزيمة ساحقة بالمغول وحلفائهم السلاجقة ، وفر معين الدين سليمان البرواناه زعيم السلاجقة بعد أن قتل عدد ضخم من من رجاله ومن المغول [1] وبعد ذلك دخل بيبرس قيصرية ودعى له على منابرها وقدم له أمراء السلاجقة فروض الولاء والطاعة ثم قفل راجعا إلى بلاد الشام ويقال أن أبغا عندما سمع بما فعله بيبرس برجاله فى أبلستين أسرع الى هناك سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م) فاشتد حنقه عندما وجد آلاف من رجاله المغول صرعى فى حين لم ير أحدا من السلاجقة ، ولذلك أمر بقتل مائتى الف من المسلمين السلاجقة ، كما قتل البرواناه نفسه . [2] ولم يلبث أن شغل أبغا باضطراب أحوال دولته ، مما صرفه عن القيام بعمل انتقامى ضد دولة المماليك .

أبنـــاء بيـــبرس :

لم يلبث أن توفى الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) بعد أن قام بجهود كبيرة فى تدعيم دولة المماليك والدفاع عنها ضد أعدائها وبخاصة الصليبيين والمغول . والواقع أن السلطان الظاهر بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ، لأن الفترة الطويلة نسبيا التى قضاها فى الحكم مكنته من القيام بكثير من المشاريع الداخلية والخارجية التى أضفت على دولة المماليك الناشئة قدرا من الهيبة كانت أحوج ما تكون إليها .

ثم إن حروب بيبرس الطويلة ضد المغول والصليبيين لم تصرفه عن تأمين حدود مصر الجنوبية ، فأرسل حملة كبيرة إلى مملكة النوبة المسيحية سنة ١٢٧٦ نجحت فى اخضاعها واجبار ملكها على دفع الجزية [3] هذا بالإضافة

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١١٨ .

(٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ج ٢ ص ٦٢ — ٦٣، أبو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٥ هـ .

(٣) مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٢٣٤ — ٢٣٨ .

إلى ما قام به بيبرس من تأكيد نفوذه على بلاد الحجاز ، وما قام به فى مصر من تحصين الثغور والعناية بالأسطول ، وما استحدثه من وظائف ونظم إدارية ، بحيث أنه يمكن القول بأن دولة المماليك اتخذت فى عهد بيبرس طابعها الخاص المميز الذى ظلت عليه حتى أوائل القرن السادس عشر[١] . وكان بيبرس بوصفه أحد المماليك لا يحترم مبدأ الوراثة . ومع ذلك فقد غلبت عليه غريزة الأبوه فأراد أن يتحدى طبيعة المماليك ونظامهم ، وأن يورث العرش لابنه البكر سعيد بركة . وقد ظن بيبرس أن تولية ابنه عهد السلطنة فى حياته وجعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لذلك الابن ، كفيل بأن يجعل الامور تستتب على الوجه الذى يريده بعد وفاته . وفعلا أقسم الأمراء يمين الطاعة للملك السعيد بركة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) وجعل ابنه نائبا عنه فى مصر أثناء انشغاله بحرب الصليبيين والمغول بعد ذلك . وفى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) أقام بيبرس احتفالا كبيراً قرىء فيه تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء والأمراء[٢] ومع ذلك فإن بيبرس لم يطمئن تماما إلى ما سيفعله الأمراء بابنه ، فحرص وهو على فراش الموت أن يوصى الملك السعيد بأن يأخذ حذره من كبار الأمراء « فهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى . فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فأضرب عنقه فى وقته ولا تعتقله ، ولا تستشر أحدا فى هذا ، وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك ![٣] » .

ولم تكد تمضى على وفاة بيبرس فترة قصيرة حتى تحقق ظنه . ذلك أن

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤١ ومابعدها .
والظاهر بيبرس : ص ١٢٨ وما بعدها

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦٨ — ٥١٥ ، النويرى : نهاية الارب ج ٢٨ ورقه ١٦٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٢٤٠

"كابر الامراء تظاهروا فى غمرة الاسى التى صحبت وفاة السلطان باحترامهم للعهد ، ونودى بالملك السعيد بركة سلطانا . ولكن امراء المماليك الذين لم يؤمنوا مطلقا بمبدأ الوراثة فى الحكم ظلوا ينظرون الى الملك السعيد « بعين الصبي » ، وأخذو يسببون له المتاعب فى مصر والشام جميعاً .

وكان أن اتهم الامراء السلطان السعيد بركة بدس السم للأمير بدر الدين بيليك نائب السلطنه . وهكذا « اضطربت أمور الملك السعيد » وتعاقب بعض الامراء فى نيابة السلطنه ، وكلما تولى واحد منهم ذلك المنصب لجأت بطانة السلطان الى تخويفه منه فيبعده .[1] ويروى المقريزى ان الملك السعيد قرب إليه صغار الامراء ، فنفرت منه قلوب كبار الامراء ، « فإنهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون انهم أحق منه بالملك ، فصار ابنه الملك السعيد يضع من اقدارهم ويقدم عليهم المماليك الاصاغر[2]» .

وفى سنة ٦٧٧ ه (١٢٧٨ م) خرج السلطان بركة الى دمشق ، فظن امراء دمشق أنه يريد بهم سوءا وفروا من وجهه . وعبثا حاول السلطان أن يستميلهم ويسترضيهم ليعودوا ولكنهم قالوا « لا سبيل الى مراجعته وقد انصدعت القلوب وجرت بهذه الخطوب »[3] وعندما علم بركة أن هؤلاء الامراء ينوون السير الى مصر لخلعه ، اسرع بالعودة ، ولم يستطع دخول القلعة الا فى صعوبة بالغة . على أن الامراء أسرعوا الى حصاره بالقلعة ، وشددوا عليه الحصار حتى ساء موقفه واضطر الى التنازل عن السلطنة بحضور الخليفة والقضاة والامراء ٦٧٨ ه (١٢٧٩)[4].

---

(١) المقريزى : ج ١ ص ٦٤٣ — ٦٤٤
(٢) المرجع السابق ص ٦٤٥
(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٦٨
(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ المقريزى: السلوك ج ١ ص ٦٥٥

لم يعد للسلطان بركة الخاوع مقام فى مصر، فخرج الى الكرك ولما ينقض على قيامه فى منصب السلطنه عامان . وقد عرضت السلطنة عندئذ على أقوى الأمراء — وهو الأمير قلاوون الألفى — ولكنه كان يدرك أن الأمور لم تنضج بعد نضجا كافيا ، فتظاهر بالزهد وقال « أنا لم أخلع الملك السعيد شرها الى السلطنة وحرصا على المملكة ولكن حفظا للنظام... والأولى ألا يخرج الامر من ذرية الملك الظاهر [1] ، وهكذا اختير الابن الثانى لبيبرس — وهو الأمير بدر الدين سلامش — سلطانا ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) فى حين أصبح الأمير قلاون أتابكا للسلطان الجديد — أى وصيا عليه . وبهذه الطريقة حقق قلاون غرضه لأن السلطان كان فى السابعة من عمره ، فاستغل قلاون وصايته للاستئثار بالسلطة والتخلص من المماليك الظاهرية . وعندما اطمأن قلاون تماما الى أن الامور غدت مهيأة لاعتلائه منصب السلطنة أعلن أنه « لا فائدة من بقاء ذلك الصبى الصغير ، لانتشار السمعة فى البلاد ، وامتهان الحرمة فى أنفس الحواضر والبواد ! » .

وهكذا تم عزل بدر الدين سلامش سنة ٦٧٨ هـ(١٢٧٩م) قبل أن يمضى عليه فى السلطنة ثلاثة أشهر ، وحل محله الامير سيف الدين قلاون . [2]

---

(١) المقريزى السلوك ج ١ ص ٦٥٧، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٧٤

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٧ — ٢٨٩ ابن اياس: بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ .

الفصل الرابع

أسرة قلاوون

تتمتع أسرة قلاوون بأهمية خاصة فى تاريخ المماليك. فمع أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ وراثة الملك – كما سبق أن أشرنا – إلا أن بيت قلاوون شذ عن هذه القاعدة، واستطاع أن يحتفظ بمنصب السلطنة فى ذرية المنصور سيف الدين قلاوون مدة أربت عن قرن ٦٧٨ – ٧٨٤ هـ، (١٢٧٩ – ١٣٨٢) مما يعتبر مثلا فريداً فى دولة المماليك. هذا إلى أن العصر الذى حكمت فيه أسرة قلاوون يمثل عصر الازدهار فى الدولة المماليكية، إذ ظهرت فى ذلك العصر جميع مميزات تلك الدولة، واكتملت فيه معالمها مثلما ازدهرت حضارتها، وذلك بعد أن انتهى الدور التأسيسى الذى نهض به السلطان الظاهر بيبرس، وبعد أن أثبت المماليك قدرتهم على الحكم وعلى مواجهة الأخطار الكبرى التى هددت مصر والشام فى ذلك العصر. وليس هناك من شك فى أن الفضل يرجع إلى السلطان المنصور قلاوون فى إرساء هيبة بيته فى النفوس، وفى إحاطة اسمه واسم أسرته بهالة من المجد والعظمة، جعلت المعاصرين يتمسكون بأبنائه وأحفاده من بعده، ويرون فى بيت قلاوون رمزا للقوة والعظمة والاستقرار فى الداخل والأمن فى الخارج.

الأمير سيف الدين قلاوون:

وكان الأمير سيف الدين قلاوون أحد المماليك البحرية، اشتراه الأمير علاء الدين أقسنقر – أحد مماليك العادل أبى بكر الأيوبى – بألف دينار؛ وهو مبلغ ضخم يدل على ما فيه من مواهب، وغالى فى قيمته لحسنه وصورته

فعرف بالألفى »(١). ولما مات الأمير علاء الدين ، انتقل قلاون إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فأصبح لقبه « الألفى العلائى الصالحى النجمى أبو الناصر محمد » ، وسرعان ما أخذ نجم الأمير قلاون يرتقى بسرعة فى الأحداث التى صحبت قيام دولة المماليك ، إذ كان أحد زعماء البحرية البارزين، فهاجر من مصر فراراً صحبة من فر من المماليك البحرية عقب مقتل زعيمهم فارس الدين أقطاى فى عهد أيبك ، ثم عاد إليها عندما حركت أحداث المغول المماليك نحو الوحدة . وهكذا حتى كانت سلطنة الظاهر بيبرس فبرز الأمير قلاون فى صورة أقوى أمراء الدولة ، وقويت مكانته عند السلطان بيبرس واعتمد عليه فى كثير من أعماله الحربية والسلمية(٢) .

على أنه لا يخفى علينا أن مجتمع المماليك قام إلى حد كبير على أساس الشك والتحاسد، لأن المماليك اعتبروا أنفسهم زملاء متساوين ، والأمراء اعتقدوا أنه لا فضل لأحدهم على آخر . لذلك يبدو أن قلاون أحس بشعور الغيرة عندما وجد أحد زملائه وهو بيبرس يتولى منصب السلطنة ؛ وإن كان لم يستطع أن يعبر عن ذلك الشعور لقوة بيبرس ودهائه . يدل على ذلك ما يقوله المقريزى من أن كبار الأمراء « كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ويرون أنهم أحق منه بالملك(٣) » وفى الوقت نفسه لا بد وأن يكون بيبرس — وهو الرجل الذكى الذى يعرف جيداً روح المماليك — قد أحس بازدياد نفوذ الأمير قلاون وعظم مكانته ، وأن هذا النفوذ وتلك المكانة تهدد مشروعات بيبرس المقبلة بخصوص حفظ منصب السلطنة من بعده لابنه الملك السعيد . لذلك لجأ بيبرس إلى حيلة قوية ظنها تضمن بقاء العرش من بعده لأبنائه ، وهى أنه زوج ابنه الملك السعيد بركة من غازية خاتون

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٣٧

(٢) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢٣٨

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٤٥

ابنة الأمير قلاون سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) وبذلك ظن بيبرس أن قلاون لن يطمع فى انتزاع الملك من زوج إبنته[1].

ولكن أطماع أمراء المماليك فى الملك كانت أقوى بكثير من روابط المصاهرة ، فلم يكد بيبرس يموت حتى أخذ قلاون يفكر فى الملك ، وإن كان حريصاً على عدم كشف مطامعه . ولم يكن قلاون فى تفكيره هذا غادراً أو مغتصباً أو معتدياً على مالزوج ابنته من حقوق ، وإنما كان — وفق العقلية المماليكية — مطالباً بحق طال السكوت عليه ، ويكفى إنه رضى بالظاهر بيبرس سلطانا وهو زميله : فلا داعى بعد ذلك للخضوع لأبناء الظاهر وهم فى نظره صبيان صغار .

وكان قلاون على قدر من الذكاء وبعد النظر جعله ينفذ اطماعه بطريقة تدريجية بطيئة . ذلك أنه لم يعترض سبيل الملك السعيد بركة عندما تولى السلطنة بعد أبيه ، وإنما تركه يمضى فى غيه دون أن يحاول اصلاحه أو نصحه . وعندما اشتد حصار الأمراء على السلطان بركة فى القلعة سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) . وأرسل الأخير إلى حميه الأمير قلاون يطلب مساعدته ، أرسل الامير قلاون إلى زوج ابنته ينصحه بترك السلطنة[2] . وكان فى وسع قلاون أن يعتلى العرش بعد عزل الملك السعيد بركة مباشرة ، ولكنه أمعن فى التظاهر بالزهد ، فوافق على أن يتولى الحكم أخو بركة خان وهو الأمير بدر الدين سلامش ابن السلطان الظاهر بيبرس ، فى حين قنع الأمير سيف الدين قلاون بأن يكون أتابكا للسلطان الجديد .

وهكذا أخذ قلاون — وهو أكبر أمراء الدولة وأقواهم — يتصرف فى حكمة بالغة دون أن يستثير حقد بقية الأمراء . ومن الواضح أنه كان

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ١٥٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٧٩

السلطان الفعلى الحاكم للبلاد فى عهد سلامش ، لأن الأخير كان طفلا لم يتجاوز السابعة من عمره ، مما جعل الكلمة الأولى والأخيرة فى شئون الحكم الأتابك سيف الدين قلاون .

وحسب الأمير قلاون فى ذلك الدور أن النقود كانت تسك وعلى أحد وجهيها اسم سلامش وعلى الوجه الآخر اسم قلاون ، كما ذكر اسم قلاون جنبا الى جنب مع اسم العادل سلامش فى خطبة الجمعة .[1]

ولم يضع الأمير قلاون تلك المدة القصيرة التى قضاها فى الوصاية على السلطان الصغير سدى ، وانما أخذ يمكن لنفسه فى مختلف انحاء الدولة ، فقبض على نسبة كبيرة من المماليك الظاهرية - وهم مماليك الظاهر بيبرس المخلصين له ولأبنائه — وعزل كثيراً من الولاة والنواب الذين كان الظاهر بيبرس وابنه السعيد بركة قد عينوهم بالولايات ، وأحل محلهم جماعة من انصاره . كذلك تخلص قلاون من بعض الأمراء المنافسين له أو الذين توهم منافستهم له فى منصب السلطنة ، وأرسل الأمير شمس الدين سنقر إلى دمشق ليكون نائب السلطنة بالشام . أما زملاؤه من المماليك البحرية الصالحية فقد أحسن اليهم وأغدق عليهم الاقطاعات ليستميلهم الى جانبه[2]

وأخيرا أدرك قلاون أن جميع الأمور باتت معدة لتوليه منصب السلطنة ، فدعا الأمراء وتحدث معهم فى صغر سن العادل ، وقال لهم « قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل »؛ فاستقر الرأى على خلع سلامش وتولية الأمير سيف الدين قلاون منصب السلطنة سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩ م) وهكذا لم يبق سلامش فى السلطنة أكثر من ثلاثة شهور ، وأرسله مع أخيه

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٣٧

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٤ .

خضر الى قلعة الكرك : منفى أبناء السلاطين المعزولين فى عصر المماليك[١].

سلطنة المنصور قلاون (٦٧٨ - ٦٨٩هـ ، ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م):

أجمع المؤرخون على وصف السلطان المنصور قلاون بأطيب الصفات وأحلاها. فبيبرس الدوادار قال عنه أنه «كان حليما ، عفيفا فى سفك الدماء مقتصداً فى العقاب ، كارها للأذى» [٢] وابن فضل الله العمرى وصفه بأنه «كان رجلا مهيباً شجاعاً». [٣] وفى ضوء هذه الصفات الطيبة فسر المؤرخون بقاء الحكم فى بيته مدة طويلة لأن الله اكرمه فى ذريته وجازاه بالحسنى على طيب أفعاله.

ولم يكد قلاون يعتلى العرش حتى أخذ يتقرب إلى الناس بطيب أفعاله. وإذا كان بعض المؤرخين قد أخذ عليه حبه لجمع المال[٤] ، فإن الاموال التى جمعها قلاون استغلها فى أقامة كثير من المنشآت الحيوية التى خلدت ذكراه والتى كان أشهرها المدرسة والبيمارستان ، وهى أمور «لم يسبقه إلى ذلك فيها أحد قديما ولا حديثا ، شرقا ولا غربا». [٥] هذا عدا القلاع التى جددها بالشام ، والحروب التى قام بها ضد الصليبيين والمغول مما تطلب مزيداً من المال.

ولم يسلم السلطان المنصور قلاون من الثورات الداخلية التى تعرض لها معظم سلاطين المماليك فى بداية حكمهم ، «فلم يبلع ريقه» - على قول

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٥٨ ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤
Wiet : L'Egypte Arabe, p. 54.

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٥ — ٧٦

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ج١٦ ورقة ٦٥٠

(٤) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٤

(٥) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢٧

المؤرخ أبي المحاسن - حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب الشام . ويبدو أن الأمير سنقر عز عليه أن يتولى منصب السلطنة دونه الأمير قلاون ، وهو زميله ، فدعا أهل الشام الى الخروج عن طاعة قلاون . بل إن سنقر نادى بنفسه سلطانا وتلقب بالملك الكامل . ولكن الأمير سنقر لم يجد تأييداً من أهل دمشق ، وفي الوقت نفسه بادر قلاون بارسال جيش قوى أنزل به الهزيمة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، وعندئذ فر سنقر شرقا، وحاول أن يتصل بالمغول ويزين لهم غزو بلاد الشام .(١) وفي العام التالي تآمر بعض الامراء الظاهريه - من مماليك الظاهر بيبرس - على السلطان قلاون، واتصلوا بالصليبيين سراً ، فعلم قلاون باسرار المؤامرة وعاقب المتآمرين بالاعدام والسجن . (٢)

ويبدو أن أحساس قلاون بموقف المماليك الظاهريه منه ، جعله يفكر جديا في إنشاء عصبية من المماليك لنفسه ، يعتمد عليها في مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية التي تواجهه . لذلك أكثر قلاون من شراء المماليك وأنشأ فرقة جديدة منهم ، رباهم بابراج القلعة ، ولذلك عرفوا بالمماليك البرجيه . (٣)

وبعد أن تخلص السلطان قلاون من الأخطار الداخلية التي واجهته ، بدأ ينصرف نحو المغول والصليبيين الذين مافتئوا يهددون بلاد الشام بين فينة وأخرى . وكان الأمير سنقر الأشقر قد استولى على عدة قلاع بالشام أهمها قلعة صهيون ، ومن هناك أرسل يستنجد بالمغول والصليبين جميعاً ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٧٦ وما بعدها ...

(٢) مفضل ابن أبي الفضائل : المنهج السديد ج ٢ ص ٣٢٣ ، النويرى: نهاية الأدب ج ١٩ ورقة ٢٧٨ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٥ ، ابن دقماق الجوهر الثمين ورقة ١١٧

ضد خصمه قلاون[1]. وقد شجعت هذه الأحداث الداخلية فى دولة المماليك المغول ، فأرسل أبغا فى سنة ٦٧٩هـ (سبتمبر سنة ١٢٨٠ م) قوة احتلت بعض القلاع فى شمال الشام، حتى رحل المغول إلى حلب فدخلوها واحرقوا جوامعها ومدارسها، وقتلوا كثيرا من أهلها . على انه يبدو أن غزوة المغول للشام سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، كانت من قبيل الأعمال الاستكشافية ، بدليل أنهم أسرعوا بالعودة الى قواعدهم بالعراق عندما علموا أن السلطان قلاون وصل غزة فعلا فى طريقه اليهم لمنازلتهم[2] .

على أنه إذا كان المغول قد ارتدوا الى العراق ، إلا أن غزوتهم للشام سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) نبهت قلاون الى الخطر الذى يحيق به نتيجة لتحالف أعدائه الثلاثة ، المغول والصليبيين وسنقر الأشقر . فالمغول هاجموا الشام عندئذ بناء على استغاثة الأمير سنقر ، وفى الوقت نفسه استغل الصليبيون فرصة أغارة المغول وحاولوا استرداد حصن الاكراد سنة ٦٧٩هـ (اكتوبر سنة ١٢٨٠ م) ، وإن كانت محاولتهم هى الأخرى قد باءت بالفشل [3] لذلك أخذ قلاون يتبع سياسة جديدة تستهدف التفرقة بين خصومه وعدم تمكينهم من الاتحاد ضده ليتمكن من منازلة كل منهم على حدة . ويبدو أن قلاون أراد أن ينزل ضربته الأولى بالمغول ، لأنه بدأ بعقد صلح فى سنة ٦٨٠ هـ (مايو سنة ١٢٨١ م) لمدة عشر سنوات مع القوى الصليبية الرئيسية فى بلاد الشام، وهم الداوية والاسبتارية وبوهيموند السابع أمير طرابلس . أما سنقر الأشقر - خصم قلاون العنيد - فقد عفا عنه السلطان فيما بعد سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) وأجزل له العطاء وعينه حاكما

---

(١) ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٧٩ هـ

(٢) ابو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٢٩٩. Wiet : L'Egypte Arabe, p. 445.

(٣) King : The Knights Hospitallers in the Holy land, p. 282.

على إقليم انطاكية[1] . هذا فى الوقت الذى وقف الصليبيون فى عكا موقف الحياد بين قلاون وخصومه ، بل إن الفضل يرجع اليهم فى تنبيه قلاون الى المؤامرة التى دبرها الظاهرية ضده ، كما سبق أن اشرنا .

وكان أن خرج أبغا بنفسه إلى الشام على رأس جيش كبير من المغول فى سنة ٦٨٠ هـ (سبتمبر سنة ١٢٨١م) . وتحالف مع المغول فى غزوتهم هذه ليو الثالث ملك أرمينية الصغرى . وفى موقعة حمص التى دارت بين السلطان قلاون والمغول سنة ٦٨٠ هـ (٣٠ أكتوبر سنة ١٢٨١م) ، حلت الهزيمة ساحقة بالمغول وولوا الأدبار إلى العراق بعد أن « هلك منهم خلق كثير »[2] . وما دام السلطان قلاون قد أحرز هذا النصر على المغول ، فإنه رأى أن ينتهز الفرصة لينزل ضربته الثانية بالصليبيين على الرغم من أنه كان قد عقد معهم صلحا لمدة عشر سنوات لم تنقض منها سوى أربع سنوات فقط . ففى سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥م) هاجم قلاون الاسبتارية فى حصن المرقب — وهو من أخطر الحصون الصليبية بالشام — واستولى عليه فعلا ، مما سبب خسارة كبرى للصليبيين[3] .

وفى الوقت الذى كان المماليك يتأهبون للإجهاز نهائيا على الصليبيين بالشام لم يتنبه الصليبيون إلى حقيقة الخطر الذى يتهددهم : واستمروا غارقين فى منازعاتهم الداخلية ، وهى المنازعات التى ميزت تاريخ الصليبيين بالشام فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر[4] وقد انتهز السلطان قلاون فرصة إنشغال الصليبيين بتلك المنازعات وأرسل حملة استولت على اللاذقية سنة ٦٨٦هـ

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٧٠ .

(٢) رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ج ٢ ص ٨٣

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢٨ ، ابو الفدا : المختصر ، حوادث ٦٨٤هـ

(٤) Runciman : History of the Crusades, III, pp. 402-403.

(أبريل سنة ١٣٨٧م)، وهو آخر بلد كان قد تبقى للصليبيين من إمارة انطاكية. وشاء سوء حظ الصليبيين فى تلك الظروف أن يموت بوهيموند السابع أمير طرابلس دون وريث ، فقام فى إمارته نزاع داخلى حول وراثة الحكم ، واستنجد فريق من المتنازعين بالسلطان قلاون[١] .

وهنا أسرع قلاون إلى اقتراص الفرصة ، فتجهز لأخذ طرابلس ، وخرج من مصر على رأس جيشه فى فبراير ١٢٨٩م . وكان جيش قلاون كبيراً — يزيد عن أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاه — فلم تستطع طرابلس مقاومة الحصار الذى فرضه عليها السلطان وسقطت فى قبضته سنة ٦٨٨هـ (أبريل سنة ١٢٨٩)[٢] .

ولم يلبث المسلمون أن استولوا على المراكز التى أخلاها الصليبيون قرب طرابلس — مثل بيروت وجبله — ؛ وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض فى بلاد الشام سوى عكا وصيدا وصور وعثليث[٣] . ومن الواضح أن عكا كانت أعظم هذه المدن الصليبية وأمنعها ، وأنها صارت المركز الجديد لمملكة بيت المقدس الصليبيه بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس ، ومع ذلك فإنه لم يكن فى نية السلطان قلاون مهاجمة عكا عقب استيلائه على طرابلس مباشرة . ذلك أن قلاون اتجه إلى دمشق ، حيث وافق على تجديد الهدنة مع الصليبيين لمدة عشر سنوات[٤] .

وبينما الصليبيون فى الشام يخطبون ود السلطان قلاون ويسألون الله

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٠ — ٣٢١

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤٦ — ٧٤٧

(٣) Grousset : op. cit., III, p. 145.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٧

أن تبقى لهم البقية الباقية من مدنهم بالشام ، إذا ببعض الجموع الصليبية تفد من إيطاليا سنة ٦٨٩هـ (١٢٩٠م) لتفسد الجو بين المسلمين والصليبيين. ذلك أن أولئك الصليبيين الجدد وصلوا عكا وهم يفيضون حماسة، وفى الوقت نفسه ينقصهم النظام والخبرة وضبط النفس ، فاعتدوا على المسلمين خارج أسوار عكا مما أنذر بتجدد الحرب بين المسلمين والصليبيين . ويقال أن السلطان قلاون عندما رأى ملابس ضحايا المسلمين مضرجة بالدماء استشاط غضباً وأقسم على أن ينتقم لهم من الصليبيين . وفى الوقت الذى أخذ قلاون يستعد فى مصر والشام للقيام بعمل حربى كبير ضد عكا ، إذا بالسلطان يموت فجأة سنة ٦٨٩هـ (١٠ نوفمبر سنة ١٢٩٠م)[1].

السلطان الأشرف خليل والاستيلاء على عكا :

لم يتعظ السلطان المنصور قلاون بما حدث لأبناء الظاهر بيبرس ، فغلبت عليه غريزة الأبوة وأراد أن يخرق شريعة المماليك فى الحكم فيعهد بالسلطنة من بعده لابنه الأكبر .

بل إن المنصور قلاون تمادى ، فلم يكتف بما فعله الظاهر بيبرس من تولية ابنه الأكبر عهد السلطنه ، وإنما أراد قلاون أن يقيم ابنه الأكبر علاء الدين على سلطاناً فى حياته . وفعـــلا تمت هذه الخطوة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠م) ، فأقيم حفل بالقلعة قرىء فيه تقليد علاء الدين على بن قلاون بحضور الأمراء والكبراء، ولقب السلطان الجديد الملك الصالح[2].

ولكن شاءت الظروف أن يموت الملك الصالح على بن قلاون سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) بعد أن قضى ثمان سنوات سلطاناً فى حياة أبيه . وقد ضاعف

---

(١) المقريزى : السلوك ح ١ ص ٧٥٤

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ح ٩ ورقة ٨٢ — ٨٥

من حزن قلاون على ابنه علاء الدين أن الابن الثانى للسلطان — وهو خليل — كان مكروهاً من الأمراء ، لما عرف عنه من قسوة وعدم تمسك بقواعد الدين ؛ بل لقد اتهمه البعض بأنه هو الذى دس السم لأخيه علاء الدين(١) ومن الثابت تاريخياً أن ولاية العهد الأمير خليل كتبت فعلا فى حياة أبيه وأن السلطان قلاون لم يوقعها . وسواء كان عدم توقيع كتاب ولاية العهد راجعاً إلى عدم ارتياح قلاون لأن يخلفه ابنه خليل فى حكم المسلمين — كما قال بعض المؤرخين — ، أو إلى انشغال قلاون بأمر الصليبيين حتى دهمه الموت فجأة ؛ فالمهم هو أن السلطان المنصور قلاون توفى دون أن يعتمد ولاية العهد لابنه خليل(٢) .

ومهما يكن الأمر ، فإن ماقام به السلطان قلاون فى حياته من إعلان ابنه علاء الدين سلطانا فى حياته بموافقة الأمراء ، وما أعقب ذلك من كتابة ولاية العهد لابنه الثانى خليل بعد وفاة علاء الدين على ؛ كل ذلك جعل خليل لايصادف صعوبة فى المناداة به سلطاناً عقب وفاة أبيه سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠م) ؛ لاسيما وأن الموقف كان يتطلب قيام سلطان جديد بسرعة ليقود الحملة التى كان المنصور قلاون قد أعدها للثأر من الصليبيين فى عكا. وهكذا أقسم الأمراء الايمان للسلطان خليل — الذى لقب بالأشرف — سنة ٦٨٩هـ (١٢٩٠م) وبدأ السلطان الجديد يتأهب للخروج على رأس الحملة إلى الشام .

على أن الأمور لم تتم للسلطان الجديد فى هدوء تام ودون أن يتعرض للمنافسة التقليدية التى تعرض لها معظم سلاطين المماليك من جانب كبار

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٩٢ — ٧٩٣

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٨٢ ، ٨٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٣٢٠ القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ ، النويرى نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٢٩٣ .

الأمراء . وذلك أن الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة عز عليه ألا يفوز هو بالعرش بعد وفاة قلاون، فدبر مؤامرة للتخلص من الأشرف خليل . وفى الوقت الذى تفاءل الصليبيون فى عكا بسبب ما حدث فى داخل الدولة المماليكية من وفاة السلطان قلاون وتآمر الامير حسام الدين ضد السلطان الجديد الأشرف خليل ، إذا بالسلطان خليل يكشف المؤامرة فى سرعة ، فقبض على حسام الدين طرنطاى وقتله بعد أن صادر أملاكه ، كما أعطى إقطاعه للأمير بدر الدين بيدرا الذى أصبح نائب السلطنة . [1]

وعندما علم الصليبيون فى عكا أن السلطان الأشرف خليل تغلب على الصعاب التى واجهته ، وإنه بصدد الخروج اليهم ، حاولوا ثنيه عن عزمه ، فأرسلوا اليه سفارة « يسألون العفو » ، ولكن السلطان «لم يقبل منهم ما اعتذروا به » [2] وهكذا اجتمعت الجيوش الاسلامية من مصر وبلاد الشام أمام عكا سنة ٦٩٠ هـ (أوائل ابريل سنة ١٢٩١ م) ، فبدأ حصار المدينة ورميها بالمجانيق رميا متواصلا . وقد بذل الصليبيون جهداً مستميتاً فى الدفاع عن عكا ، ولكن جهودهم ذهبت مع الريح ، فاقتحم المسلمون المدينة سنة ٦٩٠ هـ (١٨ مايو سنة ١٢٩١ م) وفر من استطاع الفرار من الصليبيين فى السفن إلى عرض البحر، حيث غرقت بعض السفن بسبب كثرة من تحمله من الفارين [3] .

ولا شك فى أن استيلاء المسلمين على عكا كان بمثابة الضربة الكبرى الختامية التى نزلت بالصليبيين فى الشام . ولم يصبح للصليبيين بعد ذلك مقام فى تلك البلاد ، فاستولى المسلمون فى سهوله على المراكز القليلة الباقية

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ١٠٧

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٦٢

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦ — ٧ أبو الفدا : المختصر سنه ٦٩٠ هـ .

بأيديهم مثل صور وصيدا وانطرطوس وعثليث . .[1] وبذلك كان السلطان الأشرف خليل قلاون هو بطل آخر صفحات الحروب الصليبية بأرض الشام .

على أن نجاح السلطان الأشرف خليل فى طرد آخر البقايا الصليبية من الشام لم يشفع له لدى كبار الأمراء ، الذين ازداد حنقهم عليه لغدره واستخفافه بهم . ويبدو أن نجاح الأشرف خليل فى الاستيلاء على عكا جعله يتمادى فى كبريائه وتعاظمه على الامراء ، حتى ضاقوا به ذرعا وأخذوا يفكرون فى التخلص منه . وقد تزعم حركة التآمر على الأشرف خليل الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة الذى ساءت العلاقه بشكل خطير بينه وبين السلطان . ذلك أن الوزير شمس الدين بن السلعوس أخذ يوغر صدر السلطان ضد بيدرا ، وأوهمه أن أملاك بيدرا ازدادت بشكل يهدد السلطان نفسه ، فلجأ الأشرف خليل إلى استعادة بعض الأملاك التى كان بيدرا قد استولى عليها[2] .

وكان أن أحس الأشرف خليل بتغير بيدرا عليه ، فحاول ـ بعد فوات الأوان ـ أن يسترضيه وأرسل إليه مائة ألف دينار ليطيب خاطره بها[3] . ولكن بيدرا كان قد وضع خطته فعلا بالإشتراك مع بعض كبار الأمراء ، مثل حسام الدين لاجين وشمس الدين قراسنقر وسيف الدين بهادر . وعند خروج الأشرف خليل للصيد سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) تبعه الأمراء المتآمرون . ولم يلبث أن ضربه بيدرا بالسيف ثم تبعه بقية الأمراء حتى أجهزوا عليه[4] .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبيه ج ٢ ص ١١٨٣ — ١١٨٤ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٨٢ — ٧٨٣ .

(٣) مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ .

(٤) مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٢ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٩٠

السلطان الناصر محمد بن قلاون :

تكررت عقب مقتل الأشرف خليل نفس التمثيلية التى حدثت عقب مقتل السلطان قطز ، إذ اجتمع المتآمرون وقر رأيهم على أن يلى بطل المؤامرة عرش السلطنة . وهكذا حلف الأمراء يمين الولاء الأمير بيدرا وقبلوا له الأرض ولقبوه بالملك الأوحد[1] . ولم يبق بعد ذلك سوى أن يغادر السلطان الجديد وشركاؤه مكان الجريمة عند تروجه بمديرية البحيرة فى طريقهم إلى القاهرة ليحتل بيدرا مكانه فى القلعة . ولكن مماليك السلطان الأشرف خليل — بزعامة زين الدين كتبغا — لم يتركوه يصل إلى القاهرة ، إذ ما كادوا يسمعون بمقتل أستاذهم حتى أسرعوا فى تعقب بيدرا وأنزلوا به الهزيمة فى البحيرة ، بل قتلوا بيدرا نفسه . وهكذا خلا المسرح من الأشرف خليل وبدر الدين بيدرا جميعاً ، وظهر بطل جديد هو الأمير زين الدين كتبغا ، الذى سار صحبة رجاله إلى القاهرة لينادى بنفسه سلطاناً فى القلعة . ولكن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى — الذى كان السلطان الأشرف خليل قد أنابه عنه فى قلعة الجبل قبل خروجه للصيد — حال بين كتبغا وبين دخول القاهرة ، حتى انتهت المفاوضات بين الطرفين باختيار الملك الناصر محمد ابن قلاون سلطاناً[2] .

ومن الواضح أن الناصر محمد بن قلاون كان طفلا صغيراً لم يتجاوز عمره عندما ولى سلطاناً لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣م) تسع سنوات ، فلم يكن اختيار الأمراء له ناجما عن احترام شخصيته أو رغبة منهم فى احترام أحقيته فى الحكم بوصفه ابن السلطان المنصور قلاون . وإنما اختاره الأمراء

---

(١) وقيل الملك الأمجد ، وقيل الملك القاهر ، وقيل الملك الرحيم . (أبو الفدا : المختصر ج ١ ص ٣٠ ؛ ابن أياس بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ . المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣٢٩ تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٣٨) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٤١ ، مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٧٥ .

وفقاً لسياستهم التقليدية حسما للموقف بينهم، إلى أن تظهر شخصية قوية بين صفوفهم تستطيع الإطاحة بذلك الطفل وتولى الحكم . وفعلا قضى الناصر محمد سنة فى الحكم كان شبه محجور عليه بالقلعة ، فى حين استبد بأمور الدولة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، ثم الأمير كتبغا المنصورى . ذلك أن كتبغا عندما أدرك ازدياد نفوذ الشجاعى بدرجة تهدده ، صمد له وقاتله حتى تخلص منه بالقتل[١] .

وقد لجأ كتبغا إلى العفو عن بعض الأمراء الذين اشتركوا فى قتل الأشرف خليل — مثل الأمير حسام الدين لاجين والأمير قراسنقر — فأثار ذلك المماليك الأشرفية . وكان أن اتخذ حسام الدين لاجين تلك الثورة ذريعة ابتزين الأمير كتبغا عزل الناصر محمد وإعلان نفسه سلطانا بدله ، « فمتى كبر الناصر محمد لايبقيك البته . . . والمصلحة خلعه وسلطنتك »[٢] .

وهكذا جمع الأمير كتبغا الأمراء ، وتشدق بنفس الأسطورة القديمة التى سبق أن رددها قطز وقلاون ، فقال لهم « لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك فى حق الرعية ؛ ومن الرأى أن نولى سلطاناً كبيراً يقمع المماليك عن هذه الأفعال ! »[٣] . وهكذا عزل الناصر محمد الصغير من السلطنة سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) وحل محله كتبغا .

السلطان العادل كتبغا :

أما السلطان العادل كتبغا الذى تولى السلطنة سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤ م) فكان مغولى الأصل ، ويقال أنه من أسرى موقعة حمص . على أن الناس

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٩٧ — ٨٠١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٣) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٢ .

تشاءموا من كتبغا وحكمه لأنه جاء مصحوباً بانخفاض النيل واشتداد المجاعة وارتفاع الأسعار وانتشار الوباء[1].

ويروى المقريزى أن جميع الناس بالقاهرة ترددت على ألسنتهم عبارة واحدة يوم ركوب كتبغا بشعار السلطنة هى « يانهار الشوم ! إن هذا النهار نحس ! »[2]. وزاد من كراهية الناس لكتبغا وحكمه أنه وفد على مصر فى عهده جماعة من بنى جنسه من المغول، عرفوا باسم العويراتيه أو الأويراتيه — فرحب بهم كتبغا وبالغ فى إكرامهم رغم أن معظمهم كانوا وثنيين. وكانت أعدادهم كبيرة — إذ قاربوا العشرة آلاف — فأدى ترحيب كتبغا بهم إلى استثارة شعور الأهالى وإلى نقمتهم على السلطان[3].

وعلى الرغم من أن السلطان كتبغا عفا عن الأمير حسام الدين لاجين الذى شارك فى قتل الأشرف خليل، كما عين ذلك الأمير نائباً للسلطنة، إلا أن لاجين لم يلبث أن طمع فى السلطنة مستغلا عوامل الكراهية التى أخذت تتجمع ضد كتبغا. ويردد بعض المؤرخين أن أمراء الشام غضبوا على كتبغا لأنه عزل الأمير عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنه بالشام وولى أحد مماليكه بدله، فضلا عن أن كتبغا عندما زار دمشق لأول مرة بعد سلطنته سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) لم يوزع على الأمراء ماجرت به عادة السلاطين السابقين من منح أو انعامات[4].

وكان أن دبر لاجين مؤامرة مع الأمراء لقتل كتبغا أثناء عودته من الشام إلى مصر، واختير موضع قرب طبريه لتنفيذ المؤامرة. غير أن

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨١٣ — ٨١٤

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٨٠٧

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٣

(٤) مفضل ابن ابى الفضائل : النهج السديد ص ٥٩٢ - ٥٩٤

كتبغا تمكن من الفرار، وعاد إلى دمشق، فى حين أعلن حسام الدين لاجين نفسه سلطانا وبايعه الامــراء، وأتى إلى القلعة حيث تلقب بالسلطان المنصور(١).

السلطان المنصور لاجين :

تولى السلطان المنصور حسام الدين لاجين منصب السلطنة سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م)، فى حين وجد كتبغا نفسه مغلوباً على أمره فقبل ماعرضه عليه لاجين من التنازل عن الحكم والإقامة فى مدينة صرخد من أعمال دمشق(٢).

على أن كتبغا لم يكن العقبة الوحيدة أمام السلطان لاجين وإنما كان الناصر محمد بن قلاون مازال يقيم فى القلعة على مقربة من أهل القاهرة الذين نظروا إليه دائما على أنه صاحب حق شرعى فى السلطنة. لذلك تحايل السلطان لاجين على إبعاد الناصر محمد إلى قلعة الكرك سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦)، بعد أن أوهمه أنه سيعيده إلى عرشه عندما يبلغ سن الرشد، وإنه يقوم بالوصاية على الملك بدله لصغر سنه(٣).

وكان الأمراء قد اشترطوا على لاجين عند مبايعته سلطانا — ألا يحابى مماليكه على حسابهم — كما فعل كتبغا — وألا ينفرد برأى، وألا تخول مملوكه منكوتمر فى التحكم والتدبير فتضل، وعندئذ تعهد لهم لاجين بكل ذلك وقال لهم «أنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم، ولست موليا عليكم من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨٢٢-٨٢٣

(٢) وقد ظل كتبغا مقيما فى صرخد حتى أنعم عليه الناصر محمد — فى سلطنته الثانية — بحماه وأعمالها فظل بها إلى أن توفى سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٣٤، أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٦٧ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ورقة ٣١٥

مماليكى أحداً »[١] . ولكن سرعان مانسى لاجين وعوده بعد أن أستتبت له الأمور، فعزل شمس الدين قراسنقر الذى كان قد عينه أولا نائبا للسلطنه، وعين بدله فى منصبه مملوكه منكوتمر ، مما جاء بداية للمتاعب التى واجهت السلطان لاجين . ذلك أن منكوتمر لم يلبث ان أستثار الأمراء بتضيقه عليهم وتشككه فيهم واقصائهم عن مناصب الدولة وإحلال غيرهم من مماليك لاجين محلهم . بل إن منكوتمر تسلط على السلطان تسلطا غريبا «فاستحوذ على عقل مخدومه وأستولى عليه وحجبه عن الخاصة والعامة». ويبدو أن منكوتمر أعد نفسه لأن يخلف لاجين فى منصب السلطنة ، لاسيما وأن الأخير لم يكن له ولد يحرص على أن يوليه عهد السلطنة ، الامر الذى أثار حنق الامراء وجعلهم يفكرون فى التخلص من لاجين ومنكوتمر جميعا[٢]. ولم يلبث أن انتهى الأمر بقتل لاجين وهو جالس بالقلعة يلعب الشطرنج سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) ثم قتل منكوتمر بعده بقليل[٣] .

عودة السلطان الناصر إلى العرش ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) :

لم يوجد بين امراء المماليك — عقب مقتل لاجين ومنكوتمر — شخصية كبرى تستطيع أن تسيطر على الموقف وتستأثر بالسلطنه ، فاضطر الامراء وسط ذلك الفراغ إلى التفكير فى الناصر محمد بن قلاوون الذى كان يقضى أيامه فى الكرك، والذى ظل دائما يبدو فى صورة صاحب الحق الشرعى فى السلطنة. وكان أن استحضر الناصر محمد إلى مصر ليتولى منصب السلطنة للمرة الثانية (٦٩٨ — ٧٠٨هـ = ١٢٩٨ — ١٣٠٨م) فاستقبل استقبالا حماسيا رائعامن

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ١٧٢، مفضل ابن أبى الفضائل: النهج السديد ص ٥٩٦ .

(٢) النويرى : نهاية الارب ج٢٩ ورقه ٢١٩، ابو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقه ٩٧

(٣) مفضل بن أبى الفضائل: النهج السديد ص ٦١٤ ، ابن اياس: بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ — ١٢٨

المماليك بعادة الناس سواء ، وتفاءل الناس بمقدمه وأقاموا الزينات في طريقه حتى صعد إلى القلعة . وهناك في القلعة جددت له البيعة ، وأخذ يباشر سلطانه ، فعين الأمير سيف الدين سلار نائبا للسلطنة والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا ، كما فرق الخلع على أعيان الدولة ووزع على مماليك أبيه العطايا والهدايا[1] .

وكان أهم ما تعرضت له دولة المماليك في ذلك الدور هو تجدد هجمات المغول على بلاد الشام ، إذ اوغلت جيوش غازان في بلاد الشام سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) حتى انزلت الهزيمة بالمماليك عند مجمع المروج بين حمص وحماه . ويبدو أن مقاومة المماليك في الشام أنهارت بعد هذه الهزيمة فدخل غازان دمشق وعاث جنوده فيها فسادا . على أن غازان أكتفى بذلك وعاد إلى بلاده بعد أن عين نائباً عنه في دمشق . وكان ذلك في الوقت الذى خرج جيش كبير من المماليك على رأسه السلطان الناصر محمد قاصدا الشام سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) وقد استطاع المماليك دخول دمشق ولم يعبئوا بطلب غازان مهادنتهم[2]، الأمر الذى استثار غازن فخرج من بلاده سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) قاصدا غزو الشام من جديد . وفي موقعة مرج الصفر التي دارت قرب دمشق في تلك السنة حلت الهزيمة قاسية بالمغول ، الأمر الذى جعل الناس يفرحون بالناصر محمد رغم صغر سنه ويستقبلونه استقبالا حافلا في دمشق والقاهرة[3].

غير أنه لا يخفى علينا أن الناصر محمد تولى منصب السلطنة تلك المرة الثانية وهو لا يزال صغيرا ، ولذلك فإنه كان لا يستطيع بأى حال الوقوف في وجه كبار أمراء المماليك الذين اشتدت ضراوتهم ومرنوا التلاعب بكبار السلاطين

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٨ ص ١١٥ - ١١٦ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب ج٢٩ ورقة ٣٣١ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج٩ ص ٢٢٦ — ٢٣٠
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٣٨ .

فما بالنا بسلطان طفل كان لا يزال فى الرابعة عشر من عمره . لذلك كانت سلطنة الناصر محمد الثانية اسمية ، بعد أن ضيق الأميران سلار وبيبرس الجاشنكير الخناق عليه ، وحالا بينه وبين الاتصال بالناس أو التصرف فى أمواله[١] بل لقد بلغ الأمر بالسلطان الناصر محمد عندئذ أنه كان يشتهى نوعا معينا من الطعام فيرسل التماسا برغبته إلى الأمير سلار ويحكى المؤرخون أنه حدث أن أرسل الناصر محمد إلى الأمير سلار يبلغه أنه يشتهى تناول بعض الحلوى والاوز ، فرد الامير سلار على حامل الطلب قائلا « وإيش يعمل السلطان بالأوز ؟ هو الاكل عشرون مرة بالنهار[٢] ؟ » .

وأخيراً ضاق السلطان الناصر بذلك الحجر المفروض عليه ، فاستدعى الأمير بكتمر الجوكندار لمساعدته فى التخلص من الأميرين سلار وبيبرس الجاشنكير . ولكن هذين الأميرين علما بالمؤامرة ، فحاصرا القلعة للقبض على الناصر محمد ومنعه من الهروب ، مما أثار إشتباكا بين المماليك السلطانية وأتباع الأميرين . وجدير بالذكر أن الرأى العام فى القاهرة كان يعطف على السلطان الناصر محمد الصغير عطفا غريبا ، فلم يكد العامة يعرفون بما تم من محاصرة الناصر محمد حتى تجمعوا وهم يهتفون « يا ناصر يا منصور ! ... الله يخون من يخون ابن قلاون ... ! »[٣] ولأول مرة نسمع عن إرادة الشعب بوضوح فى عصر المماليك ، فوجد سلار وبيبرس الجاشنكير نفسيهما فى مأزق إزاء مناصرة الشعب للسلطان الصغير ، واضطرا إلى الانحناء أمام العاصفة فجددا الولاء للناصر محمد بعد أن نفى لهما أية نية سيئة تجاههما وأعلن أن أحدا من الأمراء لم يحرضه ضدهما[١] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥٤
(٢) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٧٠٣ هـ ، ابو المحاسن النجوم ج ٨ ص ١٧٥ ، ٢٧٥ .
(٣) ابو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٧٣
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٩ ، أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥٠

ولكن إذا كانت العاصفة قد هدأت ، فإن هدوءها كان فى الظاهر لأن سلار وبيبرس ظلا يضمران الكراهية للناصر محمد فى حين أن الناصر محمد نفسه كان غير مرتاح إلى وضعه، ويخشى على نفسه عاقبة غدر هذين الأميرين. وأخيراً ضاق السلطان بحياته التى قضاها حبيس القلعة، وأدرك أنه لا فائدة من التغلب على سلار وبيبرس بعد أن « تجاوزا الحد فى الانفراد بالأموال والأمر والنهى »[1] . لذلك فكر الناصر محمد فى الهروب من السلطنة ، فتظاهر برغبته فى أداء فريضة الحج وخرج من مصر قاصداً الحجاز عن طريق الكرك . ولكنه لم يكد يصل إلى الكرك سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨م) حتى أعلن ما فى نفسه ، فدعا من معه من الأمراء والمماليك وأخبرهم أنه اختار الحياة فى الكرك حراً ، وأنه ترك السلطنة وقيودها ؛ ثم أرسل الناصر كتابا إلى الأمراء فى مصر يخبرهم فيه بنيته[2] .

وقد ارتبك الأمراء فى مصر عندما وصلتهم رسالة الناصر محمد لأنهم لم يكونوا مستعدين للموقف ، فأرسلوا إليه يسألونه العودة وإلا حرموه من السلطنة ومن الإقامة فى الكرك . ولكن الناصر محمد أصر على رأيه ورد عليهم قائلا « دعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره ». وكان أن عرض الأمراء على سلار منصب السلطنة ولكنه كان حريصا على ألا يتعرض للمصير الذى تعرض له كتبغا ولاجين لاسيما وأن أحوال الدولة كانت مرتبكة عندئذ ولا تبشر بخير .

لذلك اعتذر سلار عن قبول المنصب، وأشار إلى زميله بيبرس الجاشنكير وقال « والله ياأمراء أنا ما أصلح للملك ، ولا يصلح له إلا أخى هذا ! » . وكان أن بايع الأمراء بيبرس الجاشنكير بالسلطنة[3] .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦

السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير :

تولى منصب السلطنة سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) ، وبادر فور اعتلائه العرش بكتابة تقليد بمنح الناصر محمد الكرك . على أنه إذا كان السلطان بيبرس الثانى قد ظن أن الأمور قد هدأت له بذلك ، فانصرف إلى تنظيم أمور الدولة وعين الأمير سلار نائبا له ؛ فإن آماله لم تلبث أن انهارت بالسرعة التى قامت بها . ذلك أن الناصر محمد ظل دائما يتمتع بشعبية كبيرة فى مصر والشام ، بحيث لم يستطع الناس أن ينسوه بالسهولة التى توهمها المظفر بيبرس . وشاءت الظروف أيضا أن يأتى قيام بيبرس الجاشنكير مقرونا بانخفاض النيل وارتفاع الأسعار، مما جعل الناس يفسرون ذلك بسوء طالع السلطان الجديد ، فصاروا يطوفون شوارع القاهرة وهم يصيحون « سلطاننا ركين (تصغير ركن الدين بيبرس) ونائبنا دقين (يقصدون الأمير سلار ، وكان أجردا بذقنه شعيرات قليلة) ؛ يجينا الماء منين ؟ ؟ جيبوا لنا الأعرج (يقصدون الناصر محمد وكان به عرجا خفيفاً) ، يجى الماء يدحرج[1] !! » .

ثم إن كثيرا من أمراء الشام رفضوا الاعتراف بالسلطان المظفر بيبرس ، وبخاصة نواب حلب وحماه وطرابلس الذين رفضوا أن يتزعزعوا عن موقفهم وأعلنوا ولاءهم لبيت قلاون ؛ بل لقد بلغ الأمر بهؤلاء الأمراء الثلاثة أنهم اجتمعوا وأرسلوا إلى الناصر محمد بالكرك يستأذنونه فى القدوم عليه بالكرك لمناصرته ، « فإما أن نأخذ له الملك وإما إن نموت على خيولنا[2] » .

أما الناصر محمد نفسه فكان كلما تقدم به الوقت تنبه إلى حقوقه فى

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٢٨ .

الملك وإلى سلطانه المسلوب . نعم صار الناصر محمد سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٩م) غيره سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤م) ، إذ فعلت هذه السنوات الخمس عشرة - منذ عزله أول مرة - فعلها فى صقله واكسابه قدراً كبيراً من التجربة، وبخاصة فى معاملة الأمراء . وكان المظفر بيبرس قد علم بما دار من إتصالات بين الناصر محمد وأمراء الشام ، فأرسل إليه يهدده ويتوعده « وإلا جرى عليك ماجرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى[1] » بل لقد بلغ الأمر بالسلطان بيبرس الثانى أن أرسل إلى الناصر محمد بالكرك يطلب منه مالديه من خيل ومماليك ، وهنا غضب الناصر محمد غضبا شديدا وصاح « أنا خليت ملك مصر والشام لبيبرس (الثانى) وما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندى أو مملوك لى ! » وفى الحال أرسل الناصر محمد إلى حلفائه من أمراء الشام يقول لهم « أنتم مماليك أبى وربيتمونى، فإما أن تردوه عنى وإلا أسير إلى بلاد التتار[2] . »

وهكذا أخذ الناصر محمد ينظم صفوفه لاسترداد سلطنته المفقودة ، فترك كثيرا من الأمراء جانب بيبرس الجاشنكير وهربوا إليه. وعندما زار دمشق استقبله أهل دمشق فى حفاوة بالغة ، وأقيمت الخطبة باسمه يوم الجمعة ٢٢شعبان سنة٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) . أما المظفر بيبرس ، فقد ساء موقفه وانفض عنه معظم رجاله ، فحاول أن يقوى مركزه بالحصول على بيعة جديدة من الخليفة العباسى فى القاهرة - وهو أبو ربيعة سليمان - ولكن كل ذلك لم ينفعه شيئاً أمام التفاف الناس حول الناصر محمد وحبهم له . هذا إلى أن الخليفة العباسى فى القاهرة كان لاحول له ولاقوة فى ذلك العصر حتى أن أحد الأمراء المماليك عندما قرأ العهد الذى منحه الخليفة سليمان

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور: ج١ ص ١٥١ .

(٢) المقريزى : السلوك ج٢ ص ٥٦

للسلطان المظفر بيبرس ووجد أوله «إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» رد على الفور قائلا « ولسليمان الريح[1] » .

وأخيرا عول الناصر محمد وحوله رجاله وأنصاره على الحضور إلى مصر ، فوجد بيبرس الجاشنكير نفسه عندئذ وحيداً ، لاشعب يلتف حوله ويعطف عليه ، ولا جيش يقف إلى جانبه . لذلك اضطر بيبرس إلى دعوة الأمراء لمشاورتهم فى الأمر ، فأشار عليه بعضهم بالنزول عن العرش واستسماح الناصر محمد ليعفو عنه . ولم يكن فى وسع بيبرس الثانى أن يفعل غير ذلك؛ فغادر القلعة ليلا قاصداً أطفيح ، والعامة يطاردونه حتى أوسعوه سبا وأوشكوا على الفتك به لولا أن شغلهم بما رماه إليهم من مال[2] . وعلى هذا النحو انتهت سلطنة المظفر بيبرس الجاشنكير .

سلطنة الناصر محمد الثالثة (٧٠٩ هـ — ٧٤١ هـ = ١٣٠٩ — ١٣٤٠ م)

خرج السلطان الناصر محمد من الكرك قاصداً القاهرة ، يرافقه رجاله وأتباعه . وكان المؤرخ أبو الفدا يرافق السلطان فى رحلته هذه ، فوصف لنا كيف كان يلتقى السلطان كل يوم أثناء مسيرته بجموع المماليك والأمراء وقد خرجوا لاستقباله وتقديم فروض الولاء والطاعة له[3] . وهكذا حتى دخل قلعة الجبل مساء الأربعاء أول أيام عيد الفطر سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م)، « وأصبح السلطان يوم الخميس جالسا على تخت الملك وسرير السلطنة ، وحضر الخليفة أبو الربيع والأمراء والقضاة وسائر أهل الدولة للهناء[4] » .

وكان الناصر محمد عندما تولى السلطنة للمرة الثالثة سنة ٧٠٩هـ (١٣٠٩م)

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٢ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٣
(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٤ ص ٥٦—٥٨ .
(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٧٣ .

فى الخامسة والعشرين من عمره ، أى فى سن تمكنه من مباشرة شئون الحكم بنفسه ومن فرض كلمته على الأمراء . وقد بدأ الناصر محمد بالثأر لنفسه من الأمراء الذين سبق أن آذوه واستخفوا به ؛ فقبض على بيبرس الجاشنكير عند غزة وهو يحاول الفرار ، وأعدمه بعد أن عنفه وذكره بمواقفه منه[1]. أما سلار فقد ألقى به فى السجن حتى مات[2] . وهكذا تنبه الناصر فى تلك المرة إلى مطامع الأمراء ، فكلما سمع بتآمر أمير أوشك فى تصرفاته تخلص منه فى الحال وأقصاه عن الوظائف العامة . وكانت سياسته تجاه كبار رجال الدولة بوجه عام هى أن يقرب الواحد منهم ، حتى إذا ما أحس أن نفوذه زاد عما يجب ، تخلص منه فى الحال[3] .

وقد استمر حكم الناصر محمد فى تلك المرة الثالثة إحدى وثلاثين سنة ، هى مدة طويلة لم يدانيه فيها سلطان آخر من سلاطين المماليك فى مصر . ويمثل ذلك العصر بالذات أعظم عصور التاريخ المصرى زمن المماليك ، وأكثرها أزدهارا ورقيا واستقرارا . ذلك أن نفوذ الناصر محمد امتد من المغرب غربا حتى الشام والحجاز شرقا ومن النوبة جنوبا حتى آسيا الصغرى شمالا . وقد أرسل السلطان الناصر حملة إلى النوبة سنة ٧٠٤ هـ (١٣٠٤ — ١٣٠٥م) فى سلطنته الثانية ، ثم حملتين أخرتين سنة ٧١٥ ، ٧١٦ هـ (١٣١٥، ١٣١٦م) فى سلطنته الثالثة ، وتمكنت هذه الحملات من إقامة أول ملك مسلم من أهل النوبة على تلك البلاد هو عبد الله بن شنبو . وإذا كانت أحوال مملكة النوبة لم تستقر بعد ذلك مما تتطلب من السلطان الناصر محمد إرسال حملة جديدة سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) إلا أنه يلاحظ أن بلاد النوبة أخذت منذ ذلك

---

(١) ابو المحاسن : النجوم ج ٨ ص ٢٧٤ — ٢٧٥ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٨٠ - ٨١ .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٦ .
(٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ٥٢ .

الوقت تفقد صفتها المسيحية تدريجيا لتتخذ طابعا عربيا إسلاميا[1] .

أما فى الداخل ، فقد كان عهد الناصر محمد عهد رخاء واستقرار ، فأقام الناصر كثيراً من المنشآت مثل المساجد والقناطر والجسور وغيرها[2] . ومن منشآته الشهيرة المدرسة الناصرية والمسجد الذى شيده بالقلعة والخانقاه التى أقامها فى سرياقوس . هذا فضلا عن المنشآت التى جددها مثل المارستان المنصورى الذى كان والده قد شيده سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ولا عجب إذا وصف المقريزى الناصر بأنه « كان محبا للعمارة ... وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة »[3] .

وهكذا قضى الناصر محمد عهده الطويل فى الإصلاح والإنشاء والتعمير ، الأمر الذى جعل المؤرخين والرحالة المعاصرين يشيدون بسيرته وفضله وازدهار حكمه[4] :

أولاد الناصر محمد وأحفاده :

من الثابت فى التاريخ أن بيت قلاون تمتع بحب الناس وإخلاصهم ، وأن الناصر محمد بن قلاون حظى بشعبية كبيرة عبرت عن نفسها فى تمسك رعاياه به وإخلاصهم له . وقد يكون السبب فى ذلك أن الناس فى عصر سلاطين المماليك سئموا الاضطرابات والفتن والمنازعات بين طوائف المماليك وأمرائهم ، فلا يكاد ينتشر الخبر بمرض سلطان أو وفاته أو مقتله حتى تغلق الحوانيت ويختزن الناس الطعام ، ويستعدون لفترة عصيبة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص١٦١ — ١٦٢ ، مصطفى محمد مسعد : الإسلام والنوبة ص٩٦ وما بعدها .

(٢) ذكر المؤرخ أبو المحاسن (ج٩ ص١٧٨ وما بعدها) منشآت الناصر محمد وإصلاحاته بالتفصيل

(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٤) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ورقة ٢٥٠ ، رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٣ .

يتزعزع فيها الأمن وتقل المؤن وتضطرب الحياة الاقتصادية . أجل، سئم الناس فى عصر المماليك تلك الأوضاع وأرادوا أن ينعموا بقسط من الاستقرار والهدوء يباشرون فى ظله حياتهم العادية دون أن تقلقهم فتنة أو أزمة ، فوجدوا غايتهم فى عهد المنصور قلاون وعهد ابنه الناصر محمد .

ولعل هذه الشعبية الكبيرة التى تمتع بها بيت قلاون ، هى التى جعلت الناس يتمسكون بسلالة الناصر محمد بعد وفاته سنة ٧٤١ ﻫ (١٣٤٠ م) ، فظل أولاده وأحفاده يحكمون الدولة حتى سنة ٧٨٤ﻫ (١٣٨٢ م) أى طوال أربعين سنة ، رغم أنه كان من هؤلاء الأبناء والأحفاد من لا يستحق الملك لضعفه أو سوء خلقه أو صغر سنه ، ومع ذلك فإن الهيبة التى صارت لبيت قلاون فى نفوس الناس جعلتهم يتمسكون به .

ويبدو أن الناصر محمد بن قلاون كان يحس دائما بشعور القلق نحو مستقبل العرش بعد وفاته، ويخشى أن يتعرض أبناؤه من بعده لما تعرض له فى مستهل حياته من تلاعب كبار أمراء المماليك بمصالحه وحقوقه . لذلك عهد الناصر محمد سنة ٧٣١ ﻫ (١٣٣١ م) إلى ابنه الأمير ناصر الدين آنوك بالسلطنة، وعندئذ وافق الأمراء على ذلك ووزعت عليهم وعلى كبار رجال الدولة الخلع، وركب الأمير آنوك بشعار السلطنة . غير أن السلطان الناصر لم يلبث أن غير رأيه فجأة ، وألغى ما أحدثه بالنسبة لآنوك من ولاية العهد ، « ورسم أن يلبس آنوك شعار الأمراء ولا يطلق عليه اسم السلطنة »[1] وتقف المراجع صامتة إزاء هذا الانقلاب المفاجىء فى سياسة الناصر محمد تجاه مسألة ولاية العهد ، ولا نستطيع أن نفسر نحن ذلك إلا فى ضوء عدم رضى الناصر عن ولده آنوك ، أو أنه رأى أن يرجىء هذا الأمر حتى يكبر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ .

ابنه ويتجاوز مرحلة الطفولة ، لأن سنه كان عندئذ تسع سنوات فقط .

ومهما يكن من أمر ، فإن آنوك توفى سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) ؛ وبعدها أحس الناصر محمد بمرض الموت ، فجمع الأمراء حوله وأعرب لهم عن رأيه فى أن يخلفه فى الحكم ابنه سيف الدين أبوبكر ، فأقر الأمراء ذلك وتعهدوا بتنفيذ رغبة السلطان[1]. ولم يلبث أن توفى السلطان الناصر محمد نفسه سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وسط مظاهر الأسى والحزن البالغ .

والواقع أن وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠م) جاءت إيذانا بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء اللذين تمتعت بهما مصر فى عهد ذلك السلطان . وإذا كان أبناء الناصر محمد وأحفاده قد تمكنوا من البقاء فى الحكم أربعين سنة بعد وفاة الناصر نفسه ، فإن ذلك لا يرجع إلى موهبة خاصة ظهرت فى أحد أولئك السلاطين ، وإنما كان مرجع ذلك هيبة بيت قلاوون نفسه فى قلوب المعاصرين ، وهى الهيبة التى وضع أساسها المنصور قلاوون، وازدادت نموا فى عهد ولده السلطان الناصر محمد. وبعبارة أخرى فإن أبناء الناصر محمد وأحفاده عاشوا على السمعة الطيبة والمكانة الراسخة والشهرة الواسعة التى تركها الناصر محمد بالذات فى قلوب معاصريه[2].

وليست هناك أهمية خاصة فى التاريخ تجعلنا نتكلم عن كل أحد من أبناء الناصر محمد وأحفاده الذين تولوا الحكم من بعده حتى سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ؛ وإنما تكفى الإشارة إلى أنه فى العشرين سنة الأولى التى أعقبت وفاة الناصر محمد (٧٤١ — ٧٦٢هـ ، ١٣٤١ — ١٣٦١م) تولى منصب السلطنة ثمانية من أولاده ، وفى العشرين سنة التالية (٧٦٢ — ٧٨٤ هـ ، ١٣٦١ — ١٣٨٢ م) تولى المنصب أربعة من أحفاده . وحسبنا أن نعلم أن بعض

---

(١) تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٣٣٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم ج ص ١٦٤ .

(٢) Wiet.: L'Egypte Arabe, p. 499.

هؤلاء الأبناء والأحفاد تولى منصب السلطنة وعمره عام واحد — مثل الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد — ، كما أن بعضهم لم يبق فى الحكم إلا شهرين وبضعة أيام ؛ مثل الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد . ولعل هذه الصورة الموجزة كافية لأن تعطينا فكرة عامة عن مدى ماعانته الدولة بعد وفاة الناصر محمد من اضطراب وعدم استقرار وفوضى، تركت أثرها واضحا فى جميع نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وزاد من أحوال البلاد سوءاً فى ذلك الدور انتشار وباء خطير عرف باسم الوباء الأسود سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) — أى فى عهد السلطان الناصر حسن بن السلطان الناصر محمد ، فمات كثير من الناس ، وتأثرت الحياة الاقتصادية أسوأ أثر حتى كادت تتوقف تماما « وتوقفت الأحوال بالقاهرة ومصر »[1].

ولا شك فى أنه لدينا الآن فكرة واضحة ـ بعد العرض السابق لتاريخ المماليك ـ عن مدى استغلال الأمراء اصغر سن السلاطين ، وما كان ينتج عن ذلك من منازعات فيما بينهم وبين بعض من ناحية ، ومن تحكم واستبداد بشؤون الدولة من ناحية أخرى .[2] وهكذا نلمس ظاهرة واضحة عند دراستنا لعصر أبناء الناصر محمد وأحفاده، هى أن كل سلطان من بنى قلاون كان يقف خلفه أمير أو أكثر من كبراء أمراء المماليك، بحيث طغت شخصية أولئك الأمراء على السلاطين ، وأصبحت أسماء الأمراء ـ دون السلاطين — هى مدار الأحداث المعاصرة ، وموضع اهتمام المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين . ومن هؤلاء الأمراء لمع فى عصر أبناء الناصر محمد الأمير قوصون ويلبغا اليحاوى وأقسنقر السلارى وأرغون العلائى وشيخو وطاز

---

(١) المقريزى : السلوك ح ٢ ص ٧٧٠ — ٧٨٥ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٢١ وما بعدها .

وصرغتمش. أما عهد احفاد الناصر محمد، فقد ظهرت فيه أسماء الأمير قشتمر المنصورى ويلبغا الخاصكى وبرقوق . . .

ويعنينا من أمر هؤلاء الأمراء أن بعضهم كان من المماليك البرجية أو الجراكسة، الأمر الذى يدل على ازدياد نفوذ تلك الطائفة، مما أدى الى تمكنهم من انتزاع الحكم سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) كما سنرى بالتفصيل فى الباب الآتى.

الحملة الصليبية على الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)

هذا عن الأحوال الداخلية لدولة المماليك فى عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده. أما فى الخارج فإن اضطراب أحوال مصر الداخلية وعدم وجود رجل قوى مهيب الجانب على رأس دولة المماليك، أفقد تلك الدولة مكانتها وهيبتها التى كانت قد بلغت أوجها على عهد السلطان الناصر محمد. ولم يلبث أن استخف الاعداء بدولة المماليك وطمع الطامعون فى أراضيها بل تجرأ الصليبيون على غزو مصر ذاتها سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥)

والمعروف أن الحروب الصليبية لم تنته باستيلاء المسلمين على عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) وبطرد آخر البقايا الصليبية من الشام؛ وإنما استمرت تلك الحروب فى صورة أو أخرى حتى نهاية القرن الخامس عشر للميلاد تقريبا، واتخذت لها أكثر من ميدان فى المشرق والمغرب جميعاً.

وفى ذلك الدور الجديد من أدوار الحروب الصليبية، اتخذ ملوك قبرس من آل لوزجنان جزيرتهم قاعدة كبرى لتهديد السفن والمتاجر الاسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط، فضلا عن القيام بغارات جريئة على بعض الموانى الاسلامية وموانى دولة المماليك بوجه خاص[1]

---

(١) سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية ص ٥٢ — ٥٣.

وساعد ملوك قبرس فى تنفيذ هذه السياسية أن كثيرا من البقايا الصليبية التى طردت من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر اتخذت جزيرة قبرس بالذات مستقراً ومقاما ، مما هيأ لآل لوزجنان قوة محاربة مرنت حرب المسلمين وتتوق للانتقام مما حل بالصليبيين فى الشام . (١)

وهكذا حتى اعتلى عرش قبرس سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) الملك بطرس الأول لوز جنان الذى اشتهر بقوة شخصيته وحماسته الدينية الفذة ، حتى أنه اراد منذ ارتقائه العرش ان يجعل من نفسه بطل المسيحية الأول فى عصره . وكان أن فكر الملك بطرس فى القيام بحملة صليبية كبرى يطعن بها المسلمين طعنة قوية ، ولكنه وجد أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج الى استعدادات ضخمة وأموال كثيرة ورجال عديدين ، فلجأ الى القيام برحلة طويلة فى غرب أوربا (٧٦٣ - ٧٦٦ هـ = ١٣٦٢ - ١٣٦٥ م) للحصول على ما يمكنه من مساعدات من البابوية وملوك الغرب الأوربى (٢)

وأخيرا جمع بطرس لوز جنان قواته فى جزيرة رودس حيث تم الاتفاق على اختيار الاسكندرية بالذات هدفا للهجوم الصليبى ؛ وذلك للقضاء على دولة المماليك التى تسببت فى طرد الصليبيين من الشام من ناحية ، والاستفادة من مركز تلك المدينة الحربى وموقعها التجارى من ناحية أخرى . ولا بد أن يكون الصليبيون والغرب الأوربى قد سمعوا بأخبار الفوضى التى غرقت فيها مصر فى عصر أحفاد الناصر محمد ، وكيف كانت الموانى والمدن المصرية خالية تماما من وسائل الدفاع . (٣)

---

(١) Schlumberger : Prise de Saint Jean d'Acre, p. 35.

(٢) Machaut : La Prise de l'Alexandrie, pp. 21-42.

(٣) النويرى : الالمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الأسكندرية ص ٢٨٦ — ٢٩٤ « مخطوط » .

وعلى الرغم من أن أخبار الحملة الصليبية ووجهتها طارت إلى مصر عن طريق التجار قبل وقوع الهجوم بمدة طويلة الا أنه «لم يكن من الدولة اهتمام» على حد تعبير المقريزى[1] . وكان يحكم دولة المماليك فى ذلك الوقت السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد ، وهو طفل صغير فى الحادية عشرة من عمره ، فى حين استبد بأمور البلاد الأمير يلبغا الخاصكى الذى اشتهر بعسفه وجوره وكبريائه ، حتى أنه عندما سمع بنية ملك قبرس فى مهاجمة الاسكندرية قال «إن القبرسى أقل وأذل من أن يأتى الى الاسكندرية»[2]

ولكن هذه الكبرياء لم تنفع فى صد المعتدين الذين نزلوا على شاطىء الاسكندرية صباح الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ (٧٦٧ هـ) ، وهاجموها فور وصولهم . ولم تفلح الاستعدادات السريعة التى اتخذت لوقف الخطر الصليبي ، فاقتحم الصليبيون الاسكندرية وفر العربان الذين استحضروا من البحيرة للدفاع عن الثغر[3] . وهكذا سقطت الاسكندرية فى قبضة الصليبيين، فقضوا فيها ستة أيام تعتبر من أحلك الايام فى تاريخ الثغر ، إذ انتشر الصليبيون فى شوارع المدينة وأزقتها ينتقمون من أهلها المسلمين «فأستلموا الناس بالسيف ، ونهبوا الحوانيت والدور وأحرقوا الخانات والقصور ، وخربوا المساجد والزوايا ، وأعتدو على النساء والبنات[4]» .

وكان قائد الحملة - الملك بطرس لوزجنان - يرى ضرورة الاحتفاظ بالاسكندرية ، والدفاع عنها لاتخاذها نقطة ارتكاز لغزو مصر بأجمعها ، ولكن بعض رجاله أقنعوه بخطورة ذلك المشروع ، فاضطر الصليبيون

---

(١) المقريزى : السلوك ح٤ ورقة ٤٦ «مخطوط» .
(٢) النويرى : الألمام ح ١ ص ٥١٥ .
(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٦٣ — ٦٤ .
(٤) المقريزى : السلوك ح ٤ ورقة ٤٧ ، النويرى : الألمام ح ١ ص٣٢٦ — ٣٣٥ .

الى الجلاء يوم الخميس ١٦ اكتوبر بعد أن حملوا فى سفنهم آلاف الأسرى وشحنوها بالمنهوبات. وأخيراً وصل يلبغا الخاصكى على رأس جيشه الى الاسكندرية ليشهد ماحل بها من دمار وخراب على أيدى الصليبيين فأمر بدفن جثث القتلى وترميم ما خرب وأحرق[1].

وإذا كانت دولة المماليك عندئذ تمر بدور من الانحلال والفوضى لم يمكنها من الثأر من جزيرة قبرص وملوكها؛ فإن المسلمين لم يغفروا ما حل بالإسكندرية على أيدى الصليبيين سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م)، حتى تمكنوا من الانتقام فى عصر دولة المماليك البرجية كما سنرى فيما بعد.

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٦٨ — ٦٩.

الفصل الخامس

دولة المماليك الجراكسة

نشأة فرقة المماليك الجراكسة :

أراد السلطان المنصور قلاون أن يكون فرقة جديدة من المماليك يعتمد عليها ضد منافسيه من كبار الأمراء ، وتكون سنداً لأولاده وذريته فى الاحتفاظ بالعرش . ولتحقيق هذا الغرض رأى قلاون أن تكون فرقته الجديدة من جنس غير الاجناس التى انتمى إليها مماليك عصره ، فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان ، وأقبل على شراء الجراكسة الذين ينتمون إلى بلاد الكرج (جورجيا) ، وهى البلاد الواقعة بين بحر قزوين والبحر الأسود . وساعد على تحقيق رغبة قلاون ، كثرة الجركس فى أسواق الرقيق فى النصف الأخير من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) بسبب تعرض بلادهم لغزوات المغول ، حتى أصبحت ميدانا للصراع بين مغول فارس ومغول القفجاق . ويبدو أن كثرة الجركس فى أسواق الرقيق فى ذلك العصر أدت إلى انخفاض أثمانهم على الرغم مما امتازوا به من جمال الصورة وقوة البدن والشجاعة ، حتى أن متوسط ثمن المملوك الجركسى بلغ مائة وخمسة عشر ديناراً فى حين كان متوسط المملوك التركى مائة وثلاثة وخمسين ديناراً[1] . ومهما يكن الأمر ، فقد أكثر السلطان المنصور قلاون من شراء هؤلاء المماليك الجركس حتى بلغ عددهم فى حياته أكثر من ثلاثة آلاف مملوك ؛ وعنى بتربيتهم فى أبراج القلعة ، مما جعل اسم « البرجيه » يلصق بهم فى التاريخ .

---

(1) Heyd : Hist. du Commerce, T. 2. p. 529.

وكان أن نجحت خطة قلاون ، فازدادت أعداد هذه الطائفة الجديدة ، وتعهدها أبناء قلاون وأحفاده بالرعاية والعطف ، حتى يقال أن الأشرف خليل بن قلاون أشترى أثناء حكمه القصير ألفي مملوك منهم . ومن ناحية أخرى فقد حقق المماليك البرجية الغرض المقصود منهم ، فكانوا بمثابة دعامة كبرى دافعت عن مصالح أبناء المنصور قلاون . وقد سبق أن أشرنا إلى ثورة المماليك الأشرفية — من البرجية — ضد قتلة الأشرف خليل ، ولم يهدأ أولئك البرجيه حتى تمكنوا من الانتقام للأشرف خليل فقتلوا بيدرا وغيره من الأمراء الذين شاركوا فى قتل السلطان خليل بن قلاون . وبفضل تأييد البرجية أختير الناصر محمد بن قلاون سلطانا لأول مرة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) رغم صغر سنه . حقيقة أن تعلق الشعب ببيت قلاون كان له اثره فى ذلك الاختيار ، ولكن يجب أن نذكر أن الشعب المصرى فى ذلك العصر كان أعزلا ، ولم تكن لديه قوة حربية تمكنه من تنفيذ إرادته ، وأن القوة الحربية الوحيدة التى كانت موجودة فى البلاد عندئذ كانت قوة المماليك . وهكذا وقف البرجية بالمرصاد لجميع المحاولات التى استهدفت عزل السلطان الناصر محمد ؛ وفى كل مرة عاد الناصر محمد إلى الحكم بعد عزله تجد أصبع البرجية قويا واضحا[1]

ازدياد نفوذ البرجية :

وسرعان ما ساعد تطور الأحداث الداخلية فى مصر عقب وفاة السلطان المنصور قلاون إلى ظهور البرجية على مسرح تلك الأحداث وازدياد نفوذهم وأثرهم فى توجيهها . والمعروف أن السلطان قلاون حاول من أول الأمر أن يفرض نطاقا من العزلة حول المماليك البرجية ،

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١١١ وما بعدها .

فحال دون اتصالهم بغيرهم من المماليك الترك حتى لايتأثروا بأوضاعهم وروحهم التى تطرق إليها الفساد ، كما حرص على عدم السماح لهم بمغادرة أبراجهم بالقلعة والنزول إلى القاهرة . ولكن هذه الأوضاع كانت لايمكن أن تدوم . وإذا كان قلاوون قد نجح فى أن يفرض تلك القيود على المماليك البرجية فى تاريخهم الأول عندما كانت أعدادهم محدودة ، فإن خلفاء قلاوون لم يستطيعوا فرضها على البرجية بعد أن ازدادت أعدادهم حتى بلغوا فى أوائل عصر الناصر محمد خمسة آلاف مملوك . لذلك نرى السلطان الأشرف خليل يسمح للبرجية بالنزول من القلعة أثناء النهار بشرط العودة إليها قبل المغرب للمبيت فيها ، وبذلك بدأت خبرة البرجية بالحياة العامة تزداد ، فوقفوا على كثير من الاتجاهات والأوضاع الداخلية الخاصة بالبلاد فى ذلك الوقت[1] .

ولاشك فى أن إسراف السلطان المنصور قلاوون فى العطف على المماليك الجراكسة الجدد ، وتفرقته فى المعاملة بينهم وبين المماليك القدامى من الأتراك ، كان له أثره فى إثارة روح البغضاء والتنافر بين الفريقين . ذلك أنه عرف عن المنصور قلاوون أنه عنى بالبرجية عناية خاصة : فخصهم بالترقية إلى وظائف السلاحدارية ، وغيرها من الوظائف الكبرى فى الدولة[2] ؛ وحرص على أن يلبسهم زياً جديداً حسناً ، وأجزل لهم العطاء فيما كانوا يتقاضونه من جوامك ورواتب ، وعنى عناية خاصة بتعليمهم أصول الدين ، فضلا عن تدريبهم على استخدام الرماح ورمى النشاب . وكان أن تلفت المماليك الأتراك حولهم فوجدوا فى الجراكسة منافسا جديدا خطيرا ، فهم يحظون بعطف السلطان ورعايته ، وفى الوقت نفسه هم ينتمون إلى عنصر

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٢١٤ .
(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٠ .

غير عناصرهم وأصل غير أصولهم . وهكذا أدى التمييز فى المعاملة إلى إثارة البغضاء العنصرية ، والتعصب الطائفى بين المماليك الجراكسة من ناحية ، والأتراك من ناحية أخرى .

هذا إلى أن دفاع الجراكسة عن أبناء المنصور قلاون وغضبهم لمقتل الأشرف خليل ثم ثورتهم لعزل الناصر محمد جعلهم يقفون فى جانب ، وبقية المماليك الأتراك فى جانب آخر . ولعل طول المنازعات التى امتاز بها تاريخ المماليك فى تلك الحقبة ، جعل الأمر يتطور ويتحول من نزاع بين الأمراء بعضهم وبعض ، أو بين أنصار بيت قلاون وخصومه ، إلى نزاع عنصرى بين الجراكسة والأتراك . وأدى ذلك إلى أن الجراكسة أتى عليهم وقت صاروا لايهتمون فى قليل أو كثير بمستقبل الناصر محمد ، بقدر مايستهدفون القضاء على نفوذ الأتراك الذين طال استبدادهم بالحكم وحرصوا دائما على الاستئثار — دون الجراكسة — بالامتيازات والنفوذ .

وفى تلك الأحداث الطويلة ، لم تخل المراجع من إشارات واضحة إلى ازدياد نفوذ المماليك البرجية وسطوتهم . فالمقريزى يذكر فى حوادث سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) — أى فى سلطنة الناصر محمد الثانية — « وقويت شوكة البرجية بديار مصر وصارت لهم الحمايات الكبيرة . وتردد الناس إليهم فى الأشغال »[1] كذلك يذكر المؤرخ نفسه فى حوادث سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) أن البرجية صار لهم رأى مسموع فى اختيار السلاطين ، فعندما اختار الأمراء الأمير سلار فى تلك السنة ليتولى منصب السلطنة « قلق البرجية ولم تبق إلا إقامتهم الفتنة » ؛ حتى إذا ماتنازل سلار عن المنصب ورشح له زميله بيبرس الجاشنكير « تسارع البرجية وقالوا بأجمعهم : صدق الأمير ، وأخذوا بيد بيبرس وأقاموه كرها ، فصاحوا بالجاويشيه فصرخوا باسمه »[1] .

---

(١) المقريزى : السلوك حوادث سنة ٦٩٨ هـ ح ١ ص ٨٧٥ . والمقصود بالحمايات المكوس التى يفرضها الأمراء على الأراضى والمتاجر وغيرها .

وفى عصر السلاطين الصغار — من أحفاد الناصر محمد بن قلاون — برز إسم أحد أمراء البرجية أو الجراكسة — وهو الأمير برقوق — الذى استطاع بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٨م)؛ وبذلك أصبح برقوق على جانب كبير من القوة فى عهد السلطان علاء الدين على (٧٧٨ - ٧٨٣ هـ = ١٣٧٦ - ١٣٨١ م) الذى لم يتجاوز سنه ست سنوات[1].

قيام دولة المماليك الجراكسة :

ظل السلطان علاء الدين على فى الحكم حتى وفاته سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١م) ، وهو فى الثانية عشر من عمره . وكان فى إستطاعة برقوق أن يلى عرش السلطنة عقب وفاة السلطان على مباشرة ، وانتشرت الإشاعات فعلا بذلك ، ولكن برقوق كان يدرك أن الأمور لم يتم نضجها بعد. هذا إلى أن برقوق كان له معارضون من كبار الأمراء ، وهؤلاء صاحوا — عندما سمعوا الإشاعات التى ترشح برقوق للسلطنة عندئذ — « لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك كتبغا[2] » .

لذلك تظاهر برقوق بالزهد فى السلطنة ، فجمع الخليفة والقضاة وكبار الأمراء بقلعة الجبل ، وأعلن أمامهم جميعا أن المصلحة تتطلب إبقاء وظيفة السلطنة فى بيت قلاون . وهكذا استدعى أمير حاجى حفيد الناصر محمد وسنه وقتئذ إحدى عشرة سنة ، وأعلن سلطانا سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م)[3]

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 510.

(٢) من المعروف أن برقوق جلب من أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم سنة ٧٦٤هـ ١٣٦٣م ، وفى القاهرة اشتراه الأمير يلبغا الخاصكى ، ثم اعتقه يلبغا وصار برقوق « من جملة مماليكه » « ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٢٣ » .

(٣) المقريزى : السلوك ح ٣ ص ٣٧٥ « مخطوط » .

ولم يكن منتظرا من السلطان الطفل الجديد أن يقف فى وجه الأمير برقوق الذى « أخذ فى التكلم فى الدولة على عادته من غير معاند ». وهكذا أخذ برقوق يمكن لنفسه ، فأختص زملاءه وأنصاره من المماليك اليلبغاوية بالوظائف الرئيسية فى الدولة ، فى الوقت الذى أخذ يعمل على اكتساب محبة عامة الناس ، فخفف عنهم الضرائب ، وسك نقودا جديدة جيدة لتحل محل الفلوس الزائفة التى كان الأمير جركس قد سكها من قبل(١) . ولم يسلم برقوق فى تلك الأثناء من بعض المؤامرات التى حيكت ضده ، ولكنه اكتشف الخطر قبل وقوعه ، وتخلص من زعماء المؤامرة والمشتركين فيها بالسجن أو النفى ، وبذلك أصبح صاحب الكلمة العليا فى الحكم « ولم يبق له معاند » على قول ابن اياس(٢) .

وأخيراً وجد برقوق أن الأمور باتت مهيأة لاعلان نفسه سلطانا ، فانتحل نفس العذر الذى سبق أن تحجج به الطامعون فى الحكم من أمراء المماليك ، وهو صغر سن السلطان القائم ، وحاجة البلاد إلى رجل رشيد يقضى على عوامل الاضطراب فى الداخل والخارج . لذلك عقد إجتماعاً كبيراً بالقلعة سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢ م) حضره الخليفة والقضاة والأمراء ؛ ونهض كاتب السر القاضى بدر الدين ليعلن « أن الوقت قد ضاق ، ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب(٣) » .

وكان أن أجمع الحضور على خلع السلطان أمير حاجى بعد حكم دام سنة ونصف ، وأعلن برقوق سلطانا ، فتلقب بلقب الظاهر .

وبعزل أمير حاجى من السلطنة انتهى بيت قلاون ، كما انتهى حكم

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ح ١ ص ١٤٩ ؛ العينى : عقد الجمان ح ٢٤ قسم ٢ ص ٢٦ .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ح ١ ص ٤٠٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ح ٣ ص ٤٠٥ .

المماليك البحرية . وبقيام الظاهر برقوق فى الحكم ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) بدأت دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

خصائص عصر السلاطين الجراكسة :

تختلف دولة المماليك الثانية — أو الجراكسة — عن الأولى ، أو البحرية ، فى عدة نواحى ، أولها أن سلاطين الدولة البرجية أو الثانية كانوا جميعا جراكسة الجنس ، ماعدا اثنين يرجعان إلى أصل يونانى هما خشقدم وتمربغا . هذا إلى أن مبدأ الحكم الوراثى الذى حاول بعض سلاطين دولة المماليك الاولى تطبيقه فى عناد وإصرار والذى نجح بوضوح فى عصر بيت قلاون . هذا المبدأ لا نجد له أثرا فى عصر دولة المماليك الجراكسة . والواقع إن سلاطين دولة المماليك الثانية كانوا زعماء أو أمراء كبار أكثر منهم سلاطين . وكان نجاح السلطان فى مهمته يتوقف على مدى توفيقه فى توجيه كبار الامراء وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة . فإن ابنه كان يخلفه عادة . ولكن لعدة أشهر فقط حتى ينجلى الموقف بين كبار الامراء ويستطيع أحدهم أن ينفرد بالغنيمة[1] .

والمعروف أن دولة المماليك الجراكسة عمرت اكثر من مائة وأربعة وثلاثين سنه (٧٨٤—٩٢٢هـ = ١٣٨٢—١٥١٧م) : تعاقب على عرش السلطنة خلالها ثلاث وعشرون سلطانا ومن هؤلاء السلاطين تسعة حكموا مائه وثلاث سنوات ، فى حين حكم الاربعة عشر سلطانا الباقون تسع سنوات فقط . أما هؤلاء السلاطين التسعة الذين ارتبط بهم تاريخ دولة المماليك الجراكسة فهم برقوق وفرج وشيخ وبرسباى وجقمق وأينال وخشقدم

(1) Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 325.

وقايتباى وقانصوه الغورى . ولا ترجع أهمية هؤلاء السلاطين إلى مهارتهم الحربية ، بقدر ما ترجع إلى مقدرتهم فى الوصول إلى أهدافهم عن طريق ضرب خصومهم وطوائف المماليك بعضها ببعض . وكثير من أولئك السلاطين مثل برقوق وشيخ وجقمق وقايتباى عرفوا بحبهم الأدب ومجالس العلم ، كما عرف بعضهم بالتقوى والورع ، الأمر الذى تشهد عليه مؤسساتهم الخيرية من مدارس ومساجد وسبل ومشافى وغيرها . وربما كانت هذه المؤسسات ستارا حاول به بعض هؤلاء السلاطين التكفير عن ذنوبهم وتغطية ما قاموا به من أعمال ضد خصومهم(١) .

ولاشك فى أن البلاد قاست كثيرا فى عهد المماليك الجراكسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال فى الشوارع، مما أوجد جوا من القلق وعدم الاستقرار فى القاهرة بوجه خاص . وزاد من شدة البلاء أن السلاطين عجزوا فى ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم مما جعلهم لا يجدون وسيلة للاحتفاظ بمراكزهم سوى ضرب طوائف المماليك بعضها ببعض ، مثلما فعل السلطان خشقدم من ضرب الظاهرية بالاشرفيه ، وضرب الناصريه بالمؤيديه ، وبذلك يخلو الجو للسلطان ومماليكه فيعيثون فى الارض فسادا .

على أننا نلاحظ على الرغم من كل ذلك أن سلاطين الدولة الجركسية عملوا دائما على حصر تلك المنازعات داخل دائرة داخلية بحته ، بحيث لم يمكنوا قوة خارجية من التدخل فى شئون البلاد أو الانتقاص من سيادتها . وهكذا استطاعت دولة المماليك فى ذلك العصر الصمود فى وجه تيمورلنك فى وقت اهتزت جميع الدول القائمة فى غرب القارة الآسيوية أمام هجماته(٢)

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٤١ ، ١٥٩ .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 511-513.

برقوق وفرج وشيخ :

لم يمض على قيام الظاهر برقوق فى السلطنة عام واحد حتى حيكت مؤامرة لعزله وأحلال الخليفة العباسى بدله . ولكن برقوق اكتشف المؤامره وأحبطها ، فعزل الخليفة المتوكل وأحل محله خليفة آخر لقب بالواثق بالله . (١) ويبدو أن هذه المؤامرة جعلت الظاهر برقوق يتطرف فى إضطهاد من يشك فيهم ، وبخاصة المماليك الأتراك ، فطرد عدد كبير منهم من وظائفهم ، ونفى بعضهم الى الشام (٢) .

على أن هذه الإجراءات التى قام بها الظاهر برقوق لم تنفع فى حمايته من المؤامرات المتصلة التى دبرها خصومه ضده ، حتى انتهى الأمر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) بقيام ثورة فى شمال الشام تزعمها منطاش نائب ملطية ويلبغا الناصرى نائب حلب . وقد زحف الثوار ، تؤيدهم جموع غفيرة من التركمان والمغول ، نحو دمشق ، فاستولوا عليها ثم زحفوا على القاهرة حيث ساء موقف برقوق ، فهرب من القلعة حتى قبض عليه ونفى إلى الكرك (٣) .

وعندما دخل الثوار القاهرة أعادوا إلى العرش أمير حاجى ابن الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاون (٧٩١ — ٧٩٢ ؛ ١٣٨٩ — ١٣٩٠ م) ولكن النزاع لم يلبث أن اشتد بين الأميرين الثائرين منطاش ويلبغا ، مما أعطى برقوق فرصة لاسترداد مكانته . وكان برقوق قد تمكن من الفرار من حصن الكرك ، فجمع جيشاً بالشام ، وانزل هزيمة بأعدائه عند صرخد سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) ثم دخل القاهرة ظافرا حيث رحب به الأهالى واستقبلوه استقبالا حافلا (٤) .

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٤ — ٢٨ ص ٢٨٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٢٧٥ — ٢٨٩ .

(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج ٤ ٣٦٥ ، المقريزى : السلوك ج ٣ ص ٦٣٤ — ٦٣٥ .

وكان مركز الظاهر برقوق قويا فى تلك المرة . إذ التف حوله الناس بعد ما رأوه من سوء تدبير منطاش وتعسفه . وقد قضى برقوق العامين التاليين فى إخضاع منطاش بالشام ، ولم يكد يفرغ من ذلك حتى دهمه خطر جديد هو تيمورلنك والمغول . وكان تيمورلنك قد استولى على بغداد سنة ٧٩٥ ﻫ (١٣٩٣ م) ، واستولت جيوشه على بعض البلاد التابعة لسلطنة المماليك — مثل ماردين — مما جعل الظاهر برقوق يحس بذلك الخطر ويعمل بسرعة على تلافيه . وكان أن استطاع برقوق أن يعمل حلفا سريعا بين القوى التى أحست بخطر تيمورلنك فى الشرق الأدنى : مثل المماليك فى مصر وأمير سيواس ومغول القفجاق وسلطنة العثمانيين[١] . ولم يلبث تيمورلنك أن أرسل إلى برقوق رسالة مخيفة من نوع تلك التى أرسلها هولاكو إلى قطز سنة ٦٥٨ ﻫ (١٢٦٠ م) ، يطلب منه التسليم السريع « فالويل كل الويل لمن لم يمتثل أمورنا ، فإنا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد وأظهرنا فى الأرض الفساد ... »[٢] ولكن برقوق أظهر ثباتا ، ورد على تيمورلنك بنفس أسلوبه ، بل طرد رسول تيمورلنك من القاهرة . وفى العام التالى — أى فى سنة ٧٩٧ ﻫ (١٣٩٥ م) — خرج برقوق على رأس حملة لإعادة أحمد بن أويس — صاحب بغداد الذى كان قد لجأ إلى القاهرة — إلى عاصمته ، ومحاربة تيمورلنك . ولكن برقوق وجد أن تيمورلنك عاد إلى بلاده ، فرجع هو الآخر إلى القاهرة حيث توفى سنة ٨٠١ ﻫ (١٣٩٩ م) دون أن تتاح له الفرصة لإظهار شجاعته فى حرب المغول .

وقد خلف برقوق فى الحكم أكبر أبنائه الثلاثة وهو الناصر فرج ، الذى كان فى الثالثة عشر من عمره . وكان أن أسرع السلطان الصغير إلى الشام

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 518-519.

(٢) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، ص ٧٠ .

سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) على رأس جيش كبير عندما سمع بعودة تيمورلنك إليها، وبأنه اجتاح حلب، وأخذ يهدد دمشق. ولكن الناصر فرج أدرك حرج موقفه فى الشام وخشى على حياته، فعاد إلى القاهرة تاركا جيشه يلقى أسوأ مصير على يد تيمورلنك قرب حلب[1]. وهكذا اضطرت دمشق إلى التسليم بشروط معينة، وإن كان المغول لم يرعوا شروط الأمان الذى منحوه لأهل دمشق فنهبوا المدينة ودمروها وأشعلوا فيها النيران كما دمروا معظم الأطراف الشمالية لبلاد الشام.

وعندما سمع السلطان فرج بأخبار الانتصارات التى أحرزها تيمورلنك فى آسيا الصغرى وبأخبار الهزيمة التى حلت بالسلطان بايزيد العثمانى فى موقعة أنقره سنة ٨٠٥هـ (١٤٠٢م) رضخ للشروط التى تقدم بها تيمورلنك، فأطلق سراح من لديه من أسرى، بل رضى أن يسك العملة باسم تيمورلنك، وإن كنا لم نعثر فعلا على أية قطعة من النقود المصرية تحمل اسم تيمورلنك. ولم يلبث أن مات تيمورلنك سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) دون أن يحقق حلمه فى احتلال مصر[2].

أما السلطان الناصر فرج فقد خسر مكانته فى نفوس المعاصرين نتيجة لرضوخه لطلبات المغول. وسرعان ما نشب نزاع بين امراء المماليك فى مصر فعمت الفوضى القاهرة، واضطر السلطان فرج إلى الاختفاء عن المسرح شهرين، فحل محله فى السلطنة أخوه المنصور عبد العزيز سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م). حتى هدأت الأمور وتمكن الأمير يشبك من إعادة الناصر فرج إلى السلطنة

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 526.

(٢) المقريزى: السلوك ح ٣ ورقة ٢٧، ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ١٠٧ ومابعدها. Lane-Poole: A Hist. of Egypt, p. 334.

فى نفس العام . وقد قضى الناصر فرج بقية عهده فى إقرار الأوضاع ببلاد الشام التى غدت هى الأخرى مسرحاً للمنافسات بين كبار الأمراء . ولم يستطع الناصر فرج مقاومة الأمير شيخ المحمودى ونوروز ، فاضطر إلى التسليم لهما سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) بشرط تأمينه على حياته . ولكن على الرغم من ذلك فإن الخليفة والعلماء أفتوا بقتل الناصر فرج لسوء خلقه وإدمانه على شرب الخمر وتنكيله بمماليك أبيه ، حتى لقد وصفه المؤرخون « بكثرة الجهل مع قلة الدين » ، فاغتيل بدمشق فى نفس العام[١].

وكانت المشكلة التى نشأت بعد مقتل الناصر فرج هى أيهما يلى العرش. الأمير شيخ أم الأمير نوروز ؟ وإلى أن يتم الفصل فى هذه المشكلة عهد بالسلطنة إلى الخليفة المستعين العباسى سنة ٨١٥هـ (١٤١٢م) . ومن الواضح أن سلطنة المستعين التى استمرت خمسة أشهر تقريباً ، كانت اسمية بحته ، إذ لم يلبث أن فاز شيخ فى حلبة المنافسة بينه وبين نوروز ، فخلع الخليفة ، وتولى منصب السلطنة بعد أن تلقب بلقب المؤيد[٢] . ومن الطبيعى ألا يرضى نوروز بذلك الوضع ، فأعلن الثورة فى الشام ، ورفض الاعتراف بالسلطان المؤيد شيخ وأن يضرب السكة باسمه ، الأمر الذى دفع السلطان المؤيد شيخ إلى الخروج فى العام التالى لتوليته إلى الشام والتخلص من نوروز بالقتل[٣] .

أما أهم الأحداث الخارجية فى عهد المؤيد شيخ ، فهى قيامه بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام الدويلات التركمانية على الحدود — وهى قرمان وذو الغادر ورمضان — على العودة إلى سابق تبعيتها للدولة المماليكية. ففى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨م) خرج السلطان المؤيد شيخ إلى طرسوس حيث

---

(١) ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥٢ — ٣٥٥ .
(٢) العينى : السيف المهند تاريخ الملك المؤيد ص ٢٥٩ (تحقيق فهيم شلتوت) .
(٣) العينى : السيف المهند ، ص ٣٢٦ .

قدم له أمراء التركمان فروض الطاعة ، بل إن أمير قرمان رضى أن يسك نقوده باسم السلطان المؤيد . ولكن لم يكد شيخ يرجع إلى مصر ، حتى أخذ التركمان ينقضون الشروط التى تعهدوا بها ، ومن ثم أرسل المؤيد ابنه إبراهيم ضدهم سنة ٨٢٢هـ (١٤١٩م) ، فاستولى على قيصرية وقونية ، وسك العملة فى بلاد التركمان باسم أبيه شيخ . ولم يعد ابراهيم إلى مصر إلا بعد أن عين حاكما على تلك الجهات من الموالين له ، كما ضم إلى دولة المماليك بعض المدن مثل أذنه وطرسوس . وقد استقبل ابراهيم فى القاهرة استقبالا حماسياً ، ولكنه لم يلبث أن مات فى العام التالى ، ويقال أن أباه حقد عليه لما ناله من تقدير ، فدس له السم [١] .

على أن مصر لم تستفد كثيراً من تلك الأعمال فى الوقت الذى لم يستطع المؤيد أن يسيطر على مماليكه ، مما سبب أضرارا جسيمة للأهالى الآمنين . وقد خلف المؤيد شيخ ابنه أحمد سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م) تحت وصاية الأمير ططر . ولم يلبث بعد أشهر أن تولى ططر نفسه السلطنة لفترة قصيرة ، خلفه ابنه محمد الذى لبث فى الحكم عدة أشهر تحت وصاية برسباى . وفى سنة ٨٢٥هـ (١٤٢٢ م) انتزع برسباى السلطنة لنفسه وتلقب بالسلطان الأشرف [٢] .

برسباى وفتح جزيرة قبرص :

حكم الأشرف برسباى مايزيد عن ستة عشر عاما ، وهى مدة طويلة لم يفقه فيها من سلاطين الجراكسة سوى الأشرف قايتباى . وعلى الرغم مما قاساه الناس فى عهده من سوء الأحوال الاقتصادية وارتفاع الأسعار

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 548.

(٢) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٦٣ .

بسبب سياسته الاحتكارية إلا أن ذلك العهد اتصف بالاستقرار وقلة الاضطرابات . مما مكن برسباى من القيام بمشروع حربى ضخم هو غزو جزيرة قبرس .

وقد سبق أن أشرنا إلى ماقام به ملوك قبرس من آل لوزجنان من جهود صليبية ضد سلطنة المماليك فى مصر ، وبخاصة بعدأن استولى المماليك على عكا سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م) وطردوا آخر البقايا الصليبية من الشام . كذلك ذكرنا أن هجمات قبرس وملوكها على شواطىء دولة المماليك بلغت ذروتها سنة ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) عندما هاجم بطرس لوز جنان ملك الجزيرة ثغر الاسكندرية وخربه تخريباً لم يغفره له المسلمون .

ولم يستطع سلاطين المماليك عندئذ الثأر من جزيرة قبرس ، نظراً للظروف التى أحاطت بدولة المماليك فى عصر أبناء الناصر محمد بن قلاون وأحفاده ، ثم للمشاكل التى تعرض لها السلاطين الأوائل من دولة المماليك الجراكسه . ويبدو أن ملوك قبرس ظنوا أن سكوت سلاطين المماليك عنهم معناه عجزهم عن مدافعتهم ، فاستمروا فى هجماتهم على شواطىء دولة المماليك كما حدث من إغارتهم على الإسكندرية سنة ١٤٠٣ وعلى طرابلس الشام سنة ١٤٠٤ على عهد الناصر فرج[1]. وأكثر من هذا ، فإن ملوك قبرس حرصوا على طعن دولة المماليك فى أعظم موارد ثروتها وغناها ، فاعتدوا على السفن والمتاجر المماليكية فى عرض البحر ، كما منعوا السفن الأوربية من الوصول إلى الشواطىء المصرية لابتياع مايلزمها من توابل[2] .

وإذا صبر سلاطين المماليك فى مصر على ذلك العدوان السافر من

---

(١) Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 335.

(٢) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ٨٤ — ٨٥ .

جانب أهل قبرس ، فإن هذا الصبر كان لا يمكن أن يطول . لذلك فكر السلطان برسباى فى القيام بعمل حاسم ضد قبرس ، لاسيما بعد أن تكرر العدوان فى أوائل حكمه من جانب قراصنتها على الاسكندرية والتجار المسلمين[1] . وقد أرسل برسباى ثلاث حملات ضد جزيرة قبرس تعتبر من أعظم الأعمال الحربية التى تمت فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ونجحت فى ضم الجزيرة واخضاعها لسلطنة المماليك . أما الحملة الأولى فكانت سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) ، وهى حملة صغيرة ، لا تعدو أن تكون مجرد حملة استطلاعية ، ومع ذلك فقد نجح رجالها فى مهاجمة ثغر ليماسول بجزيرة قبرس وأشعال النار فى بعض أحيائها ثم العودة سالمين إلى مصر[2].

ولم تكد السفن المصرية تعود من تلك الغزوة سالمة ، حتى تشجع برسباى ، فأمر فوراً بالاستعداد لحملة جديدة، غادرت مصر فى صيف ٨٢٨هـ (١٤٢٥م) قاصدة ميناء قرباص على الشاطىء الشمالى الشرقى لجزيرة قبرس ومنه تحركت جنوبا قاصدة ميناء فاماجوستا . وقد مكث المسلمون أربعة أيام فى منطقة فاماجوستا ، شنوا فيها الغارات على الضياع القريبة وأوسعوها نهبا وأسرا وتحريقا . وبعد أن أنزل المسلمون الهزيمة بالقوات القبرسية فى منطقة الملاحة ، توجهوا إلى ليماسول واستطاعوا الاستيلاء على حصنها الحصين بعد جهد شاق، ثم قفلوا راجعين إلى مصر بعد أن سمعوا باستعدادات جانوس ملك الجزيرة[3] .

على أن برسباى لم يقنع بالنتائج التى حققتها الحملتان السابقتان لأنه لم يستهدف مجرد السلب والنهب والعودة ببضع مئات من الأسرى وبعض

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ورقة ٣٥٢ ، أبو المحاسن النجوم ج ٦ ص ٥٦١ (طبعة كاليفورنيا)

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٧٢ .

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٢ ص ١٠٦ ب ، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٢٢٣

اكوام من الغنائم . لذلك بادر السلطان عقب عودة الحملة الثانية إلى إعداد حملة كبرى تحقق له إخضاع قبرس وملوكها . وبعد أن تمت جميع الترتيبات لتلك الحملة خرجت من مصر سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٦ م) قاصدة قبرس حتى وصلت ميناء ليماسول ، فبدأ المسلمون بمهاجمته والاستيلاء عليه[١] . وبعد أن قضى المسلمون فى ليماسول ستة أيام ، قرروا الزحف إلى داخلية الجزيرة للإستيلاء على عاصمتها ومنازلة ملكها .

وفى تلك الأثناء كان الملك جانوس — ملك قبرس — قد جمع جيوشه واستعد لمنازلة المسلمين ، فدارت الموقعة الفاصلة بين الطرفين عند خيروكيتا إلى الشمال الشرقى من ليماسول — وفيها حلت الهزيمة ساحقة بالقبارسة . ووقع ملكهم جانوس نفسه أسيرا فى قبضة المماليك . أما المسلمون فقد زحفوا بعد ذلك على نيقوسيا عاصمة قبرس ، وصلوا الجمعة فى كنيستها ، ثم غادروها بعد أن أشعلوا النار فى أرجاء المدينة[٢] .

وأخيرا عادت الحملة المصرية إلى القاهرة ، ومع المسلمين مئات الأسرى من جملتهم جانوس ملك قبرس نفسه ، وكميات ضخمة من الغنائم . وقد أفاضت المراجع المعاصرة فى وصف الاستقبال الحافل الذى استقبل به الغزاة فى القاهرة . وظل جانوس ملك قبرس أسيرا فى مصر حتى سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٧ م) عندما أفرج عنه السلطان برسباى بعد دفع فدية كبيرة وبشرط الاعتراف بالسيادة لسلطنة المماليك . ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرس تعتبر من جملة بلاد السلطان ، حتى سقوط سلطنة المماليك سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م)[٣] .

---

(١) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٠٧ .

(٢) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٤٣ ، المقريزى : السلوك ج ٤ ص ٢٧٤ ب العيني : عقد الجمان ج ٢٥ ق ٣ ص ٥٨٣ .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ص ١٢١ — ١٢٦ .

السلطان جقمق وغزو جزيرة رودس :

مات السلطان برسباى سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٨ م) غير مأسوف عليه من شعبه بسبب تعسفه فى سياسته الاقتصادية وتطرفه فى سياسية الاحتكار مما أنزل ضررا بليغا بالعباد. ولم يستطع العزيز يوسف بن برسباى — وكان فى الرابعة عشر من عمره — أن يحتفظ بالعرش أمام نفوذ أقوى الأمراء عندئذ وهو جقمق. وكان أن تولى جقمق السلطنة بعد قليل.

وكان حكم الظاهر جقمق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ = ١٤٣٨ — ١٤٥٣ م) معتدلا إذا قيس بحكم برسباى، كما عرف عن جقمق تدينه وورعه، فحرم الملاهى وشرب الخمور[1].

غير أن السلطان جقمق لم يلبث أن تعرض فى أوائل حكمه للثورات التقليدية التى تعرض لها غيره من سلاطين المماليك السابقين واللاحقين : فثار ضده الأمير قرقماش الشعبانى اتابك العسكر فى مصر، كما ثار ضده نائب الشام فى دمشق. ولكن جقمق نجح فى القضاء على هاتين الثورتين، كما نجح فى القضاء على فتنة العبيد فى الجيزة سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢)[2].

والواقع أن أهمية عهد جقمق ترجع إلى ما امتاز بهذا العهد من نشاط خارجى، كانت أبرز معالمه تحسن العلاقات بين المغول ودولة المماليك من ناحية، وقيام جقمق بغزو جزيرة رودس من ناحية أخرى. ذلك أن وفاة تيمور لنك سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) أعقبها تصدع امبراطوريته الواسعة، حتى تمكن ابنه شاه رخ من استرداد سمرقند — مركز قوة أبيه وحكمه — وتدعيم سلطانه وأحياء مجد دولة المغول كما كانت فى عهد أبيه. وكان أن بدأ

---

(١) المقدسى : الانس الجليل ج ٢ ص ٤١٣.

(٢) ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٥.

شاه رخ صفحة جديدة فى العلاقات بين دولته ودولة المماليك ، فأرسل إلى برسباى سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م) يطالب السماح له بكسوة الكعبة و تزويده ببعض الكتب التى ألفها علماء عصر المماليك مثل ابن حجر العسقلانى والمقريزى . ولما لم يلق شاه رخ جوابا على طلبه ، أرسل سفارة أخرى إلى القاهرة فى نفس العام يكرر طلبه ورغبته فى كسوة الكعبة [1] . ومن الواضح أن برسباى والمماليك خشوا أن يكون وراء طلب شاه رخ أطماع يريد تحقيقها فى الشام والحجاز ، لاسيما وأن حماية الحرمين كانت من الحقوق التى استأثر بها سلاطين المماليك وأضفت عليهم مكانة خاصة وسط بقية حكام المسلمين .

أما شاه رخ فإنه لم ييأس ، وظل يوالى طلبه ، فأرسل إلى برسباى سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) يطلب السماح له بزيارة بيت المقدس ، ثم تمادى فأرسل سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٦ م) يطالب من برسباى إقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه . ولكن برسباى أساء إلى السفير الموفد إليه من قبل شاه رخ ، مما عكر العلاقة بين الطرفين وجعل شاه رخ يحاول أن يتصل بأمراء التركمان وبالسلطان العثمانى بقصد تأليف حزب ضد الأشرف برسباى [2] .

وهكذا مات برسباى سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٦ م) وتولى الظاهر جقمق عرش السلطنة المملوكية فى نفس العام ليجد نفسه أمام مشكلة لابد من تصفيتها ، هى مشكلة العلاقة مع شاه رخ . وهنا اتبع جقمق سياسة معتدلة متزنة فى علاج تلك المشكلة : لاسيما وأن الظروف الخارجية التى أحاطت به ، وإحساسه بخطر العثمانيين المتزايد من ناحية وبعاقبة فشل حملته الثالثة على رودس من ناحية ثانية — أملت عليه ذلك المسلك المعتدل [3] .

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, pp. 563-564.

(٢) Wiet : op. cit., p. 564-565.

(٣) ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٩٣ .

لذلك أحسن الظاهر جقمق استقبال رسل شاه رخ الذين وفدوا إلى القاهرة لتهنئته بالسلطنة ، كما وافق على السماح لشاه رخ بكسوة الكعبة سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) بشرط أن تكون الكسوة من الداخل فقط أو تحت كسوة السلطان . وقد بادر شاه رخ بارسال سفارة تحمل كسوته للكعبة فاستقبل أعضاء السفارة استقبالا حسناً ، وإن كان العوام وبعض طوائف المماليك لم يرضوا على ذلك الوضع فاعتدوا على أعضاء البعثة . ومن الواضح أن الرأى العام فى العالم الإسلامى لم ينس للمغول ماضيهم الملطخ بالدماء فى الأعتداء على المسلمين وعلى الخلافة العباسية ، لذلك استاء المسلمون من فكرة قيام أحد حكام المغول — كائنا من كان — بكسوة الكعبة . وربما أدى إحساس السلطان جقمق بهذا الشعور إلى نزعه كسوة شاه رخ سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢ م) وبقيت للكعبـــة كسوة سلطان المماليك وحدها[١] .

هذا عن علاقة السلطان الظاهر جقمق بالدولة التيمورية ، أما عن علاقته بجزيرة رودس ، فيلاحظ أن هذه الجزيرة صارت قاعدة لفرسان الاسبتارية منذ سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) وهم الفرسان الذين قاموا فى بلاد الشام بدور كبير فى خدمة القضية الصليبية ، حتى إذ ما دالت دولة الصليبيين بالشام غادروها إلى قبرص ، ومنها إلى رودس ليواصلوا نشاطهم ضد المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط .

وقد أحس الاسبتارية فى رودس بالخطر عندما قامت قوات السلطان الأشرف برسباى بغزو جزيرة قبرص ، فأسرع مقدم الاسبتارية فى رودس وهو دلوفيان إلى محاولة كسب ود السلطان برسباى عن طريق تقديم الهدايا

---

(١) السخاوى : التبر المسبوك ص ٩٦ وما بعدها .

والتعهد بدفع جزية سنوية لسلطنة المماليك فى القاهرة . على أنه يبدو أن عهد برسباى لم يتسع للقيام بغـــزو رودس فتأجل المشروع لعهد الظاهر جقمق .

والواقع أن برسباى استطاع بفتحه جزيرة قبرس أن يضرب لمن يأتى بعده من سلاطين المماليك مثلا فى كيفية حماية دولة المماليك من خطر القواعد البحرية التى ظلت بأيدى الصليبيين فى شرق البحر المتوسط . لذلك كانت الخطوة الطبيعية أمام الظاهر جقمق بعد أن استقرت له الأمور هى العمل على غزو رودس . ويقال أن السلطان مراد الثانى العثمانى حرض جقمق على غزو رودس ، وكان هدف مراد من ذلك هو أن يشغل فرسان الاسبتارية عن الانضمام إلى الحلف المسيحى الذى أوشك أن يتألف بين القوى المسيحية الأوربية لشن حملة صليبية ضد العثمانيين فى البلقان[١] هذا إلى أن اغارات القراصنة المسيحيين لم تنقطع عن شواطئ مصر ، فأغارت أربع سفن منها فى سنة ٨٤٣ هـ (اغسطس ١٤٣٩ م) على رشيد وأوغلت فى النيل حيث اعتدت على المناطق القريبة . ولما كانت قبرس فى ذلك الوقت قد تم أخضاعها لسلطنة المماليك ، فإن الشبهات قويت ضد رودس التى لم تبق قاعدة غيرها للصليبيين فى شرق البحر المتوسط[٢] .

على أن أخبار استعدادات جقمق لغزو رودس وصلت إلى أصحاب الجزيرة من الاسبتارية ، فأخذوا يستعدون فى سرعة ، كما أرسلوا إلى القوى المسيحية فى أوربا يستنجدون بها خوفا من أن يحل بهم ما حل بأهل قبرس[٣] . وإلى هذه الاستعدادات يرجع السبب فى فشل جقمق فى اخضاع رودس وجعلهـــا تابعة لسلطنة المماليك فى مصر تبعية كاملة مثلما حدث لجزيرة قبرس .

---

(١) محمد مصطفى زيادة : الحروب الصليبية [illegible] رودس ص ٢٩٠

(٢) Wiet L'Egypte Arabe p 582

(٣) [illegible] The Crusade in the Later Middle age p 474

وكانت الحملات التي أرسلها جقمق ضد رودس ثلاث سنة ٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨ هـ (١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤ م). وبعد أن فشلت الحملتان الأولى والثانية في تحقيق هدف واضح، اهتم جقمق بإعداد الحملة الثالثة، وحشد لها عدداً كبيراً من الرجال والسفن. وقد قامت هذه الحملة بحصار مدينة رودس — حاضرة الجزيرة — طوال أربعين يوماً، ولكن المدينة صمدت للحصار واستعصى على المسلمين اقتحامها. ولم يلبث أن ساء موقف رجال الحملة، لاسيما بعد أن وصلت بعض الإمدادات الأوربية إلى رودس، فعادوا فاشلين إلى مصر[1].

وعلى الرغم من أنه تم الصلح بين فرسان رودس وسلطنة المماليك بعد قليل، إلا أن العلاقة بين الطرفين ظلت تتأرجح بين الهدوء حيناً والعداء أحياناً بقية القرن الخامس عشر. ومن الواضح أن سلطنة المماليك صارت في النصف الأخير من القرن الخامس عشر في حال لا تمكنها من القيام بعمل حربي كبير ضد رودس أو غيرها من القوى المعادية، فلم يسع سلاطين المماليك سوى أن يردوا على موقف رودس بالقبض على التجار الأوربيين في ثغور مصر ومضايقتهم[2].

السلطان الأشرف قايتباى والتركمان :

توفى السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) بعد أن عهد وهو على فراش الموت لابنه عثمان بولاية العهد. ولم يستطع المنصور عثمان البقاء في السلطنة سوى ثلاثة وأربعين يوماً، إذ عزله الأمير إينال وحل محله بعد أن تلقب بلقب الأشرف. ولعل الظاهرة الواضحة في تاريخ المماليك عندئذ هي إنعدام روح النظام وكثرة المنازعات والفتن والمنافسات بين طوائف المماليك.

(١) Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 339.

(٢) Wiet : op. cit., pp. 621-622.

ويبدو الفارق واضحا بين ما كان عليه المماليك فى أوائل عصرهم من نظام وطاعة ، وبين ما آل إليه أمرهم فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلاد) من انحلال ، حتى لقد وصفهم المؤرخ أبو المحاسن بقوله « ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف[1] » .

وقد ظل الأشرف إينال فى الحكم ثمان سنوات ٨٥٧ — ٨٦٥ هـ (١٤٥٣ — ١٤٦١ م) ثار أثناءها المماليك الجلبان سبع مرات ! وفيما عدا هذه الفتن والمنازعات والقلاقل الداخلية ، لا يوجد مايستحق الذكر فى الفترة التالية التى تعاقب فيها على عرش سلطنة المماليك أحمد بن إينال (٨٦٥ هـ = ١٤٦١ م) فالظاهر سيف الدين خشقدم (٨٦٥—٨٧٢ هـ = ١٤٦١—١٤٦٧م) فالظاهر سيف الدين يلباى الملقب بالمجنون سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٧ م) فالظاهر تمربغا الرومى سنة ٨٧٢ هـ (ديسمبر ١٤٦٧ — يناير ١٤٦٨ م) وهكذا يبدو لنا كيف تعاقب سلاطين المماليك فى سرعة متناهية ، وكيف أن بعضهم لايكاد يعتلى العرش أياما حتى يعزل ، مما يشهد على عدم الاستقرار ومدى الاضطراب الذى أصاب سلطنة المماليك فى ذلك العصر . بل إن أحد سلاطين المماليك ظل سلطانا مدى ليلة واحدة ، فنسمع أن خيربك اعتلى العرش سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ هـ) بعد عزل تمربغا ، وكان اعتلاؤه العرش فى المساء وعزله فى الصباح التالى ، مما جعل المعاصرين يطلقون عليه « سلطان ليلة ![2] » . ولم تستقر الأوضاع فى سلطنة المماليك بعد تلك الفترة القلقة إلا بقيام السلطان الأشرف قايتباى فى منصب السلطنة سنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) .

ذلك أن السلطان الأشرف قايتباى ظل فى الحكم قرابة تسعة وعشرين

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٩ (طبعة كاليفورنيا) .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٨ — ٨٩ .

سنة (٨٧٢ — ٩٠١ هـ = ١٤٦٨ — ١٤٩٦ م)، وهى مدة طويلة، لم يسبقه إليها أحد من سلاطين المماليك عدا السلطان الناصر محمد بن قلاون. وقد أثبت السلطان قايتباى طوال حكمه أنه من أقدر السلاطين المماليك فى ميدان الحرب وأوسعهم خبرة بشئون العالم الخارجى وأكثرهم شجاعة وحكمة[1].

وعلى الرغم من ثورات الجلبان فى عهد قايتباى، وجشعهم فى الحصول على الأموال دون تقدير لظروف البلاد والأخطار التى هددتها فى ذلك الوقت، فإن قايتباى استطاع أن يواجه فى جرأه وعزيمة المشاكل الكبرى التى هددت دولته. وكانت المشكلة الأولى التى واجهت دولة المماليك فى ذلك العصر من جانب الدول التركمانية التى هددت الأطراف الشمالية لدولة المماليك فى شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى؛ وأهم هذه الدول دولة دلغادر ودولة رمضان ودولة قرمان، ثم دولتى الشاه البيضاء والشاه السوداء[2].

وقد رأينا كيف قام السلطان المؤيد شيخ بحملتين سنتى ٨٢١، ٨٢٢ هـ (١٤١٨، ١٤١٩) على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لارغام تلك الدويلات التركمانية على الخضوع لسلطنة المماليك. وإذا كانت هاتان الحملتان قد نجحتا فى إرهاب التركمان، مما ترتب عليه هدوء العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك، فان هذا الهدوء جاء مؤقتاً، بدليل أن زعيم دولة الشاه البيضاء انتهز فرصة سوء التفاهم بين برسباى وشاه رخ حول مسألة كسوة الكعبة، وأغار على حدود سلطنة المماليك ببلاد الشام. وقد رد برسباى على ذلك بإرسال حملة خربت الرها — سنة ٨٣٣ هـ (١٤٣٠م) — وكانت تابعة للشاه البيضاء — ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يقوم بعمل حاسم لتأديب التركمان. وربما

---

(١) Lane-Poole : op. cit., pp. 343-344.

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 590.

كان اختلال أحوال المماليك وما سببوه من اضطرابات منذ أواخر عهد برسباى دائما لهدوء الموقف نسبيا بين التركمان من ناحية، وسلطنة المماليك من ناحية أخرى، حتى قيام قايتباى فى الحكم[1].

على أن ازدياد نفوذ العثمانيين وتدخلهم فى شئون تلك الامارات التركمانية على حدود دولة المماليك، جعل السلطان الأشرف قايتباى يحس بالخطر الجديد ويفكر فى وضع حد للتركمان حتى لايكونوا أداة لتغلغل النفوذ العثمانى فى أطراف دولة المماليك من ناحية الشمال.

ولذلك قام السلطان قايتباى بإرسال عدة حملات ضد شاه سوار أمير دلغادر الذى كان يتمتع بتأييد السلطان محمد الفاتح العثمانى. وقد نجحت الحملة الأخيرة التى أرسلها قايتباى بقيادة الأمير يشبك سنة ٨٧٦ هـ (١٤٧١ م) فى إنزال الهزيمة بشاه سوار والاستيلاء على قلعة عينتاب وأذنه وطرسوس وأخيراً تم القبض على شاه سوار وأرسل إلى القاهرة، فى حين قام القائد يشبك بتنظيم شئون إمارة دلغادر، وعين عليها الأمير بوداق، وهو أخو شاه سوار، وكان الأول يعتمد على تأييد سلطنة المماليك فى حين اعتمد شاه سوار على تأييد السلطنة العثمانية. ولم تلبث أن عادت حملة يشبك إلى القاهرة سنة ٨٧٧ هـ (١٤٧٢ م) فاستقبلت استقبالا حافلا فى حين أمر قايتباى بشنق شاه سوار على باب زويلة.[2]

ولم تقتصر المتاعب التى واجهت سلطنة المماليك من جانب التركمان على ماأثاره أمراء دلغادر من فتن واعتداءات، بل إن قبيلة الشاه البيضاء —

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ج ٢ ص ١٩ وما بعدها.

(٢) Wiet. L'Egypte Arabe pp. 590-594.

وصاحبها حسن الطويل — دأبت على الاغارة على أعمال حلب ، الأمر الذى جعل السلطان قايتباى يرسل حملة بقيادة يشبك سنة ٨٧٧هـ(١٤٧٢م) ضد حسن الطويل[1] . وعلى الرغم من أن هذه الحملة أحرزت إنتصاراعلى التركمان عند البيرة على نهر الفرات ، إلا أن يشبك انتهز فرصة الفوضى التى عمت إمارة الشاه البيضاء عقب وفاة أميرها حسن الطويل سنة ٨٨٣هـ (١٤٧٨م) وقام بحملة جديدة لإخضاع تلك الإمارة سنة ٨٨٥هـ(١٤٨٠م) ولكن حاكم الرها — وهو أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل — استطاع أن ينزل الهزيمة بالمماليك فى تلك السنة ، وأسر يشبك وقتله ، كما قتل كثيراً من أمراء المماليك[2] . ويبدو أن ظروف قايتباى لم تساعده على الإنتقام لشرفه من تلك الكارثة ، فقنع بعقد الصلح مع دولة الشاه البيضاء بعد قليل .

وفى الوقت الذى حرص السلطان قايتباى على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال ، لم يهمل شئون رعاياه ودولته . حقيقة إنه تعسف فى جمع الأموال وفرض الضرائب وتطبيق سياسة الاحتكار ، ولكن أعماله تثبت لنا أنه استغل الأموال الطائلة التى جمعها فى إقامة المنشئات العديدة أو تجهيز الجيوش . ويعتبر مسجدا قايتباى بالقاهرة والوكالات التى أقامها من أجمل المنشآت التى تمتاز بفنها العربى الأصيل[3] . هذا إلى شغف قايتباى بإصلاح آثار وترميم ومنشآت أسلافه ، كما تثبت ذلك الكتابات والنقوش العديدة المثبتة فى مدارس ذلك العصر ومساجده فضلا عن القلعة . وقد عرف عن قايتباى حب التنقل والأسفار ، فطاف بالشام وأعالى الفرات ومصر العليا

(١) ابن اياس . بدائع الزهور ج ٣ ص ٨٦ (تحقيق محمد مصطفى) .
(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٧١ (محمد مصطفى) .
(٣) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٧٧ — ٧٨ ، ٨٢ — ٨٤ .

والدلتا ، بالإضافة إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة بالحجاز وبيت المقدس[1]. وأينما ذهب كان يخلد إسمه بإنشاء الطرق والجسور والمساجد والمدارس وغيرها من المنشآت الحيوية . وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى القول بأنه لا يوجد سلطان آخر من سلاطين المماليك — عدا الناصر محمد بن قلاوون — فعل ما فعله قايتباى من عناية بالفنون وخاصة فن العمارة[2] .

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٢٩ وما بعدها (تحقيق محمد مصطفى)

(٢) Lane-Poole : op. cit., p. 344.

الفصل السادس

نهاية دولة المماليك

قانصوه الغورى :

ساءت أحوال مصر فى أواخر عصر السلطان قايتباى ، إذ ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم ، كما انتشر الطاعون إنتشاراً خطيرا سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ، وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، على قول ابن اياس ، حتى إنه كان يموت بالقاهرة فى اليوم الواحد أكثر من عشرة آلاف نفس . ولم ينج المماليك أنفسهم من ذلك الوباء فماتت أعداد غفيرة منهم ، قدرها المؤرخون بثلثهم ، وكان من جملة الموتى زوجة السلطان وابنته . وزاد الموقف سوءا إنعدام الأقوات وانخفاض النيل وانتشار طاعون المواشى[1] .

وفى وسط تلك الظروف القاسية لم يتورع المماليك عن الوقوع فى منازعات مع بعضهم البعض سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٥ م) . أما السلطان قايتباى نفسه فقد استبد به المرض وتقدم به السن حتى جاوز الثمانين من عمره ، فلم يجد بدا من التنازل عن العرش لابنه محمد . ثم توفى بعد ذلك فى اليوم التالى مباشرة سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٦م)[2] .

ومن الواضح أن محمد بن قايتباى الذى تلقب بالناصر كان لا يقوى على

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٧ .

(٢) Wiet : op cit., p. 604.

الصمود فى وجه كبار الأمراء ، لاسيما وأنه كان صغيرا فى الرابعة من عمره . وقد اتخذ النزاع بين كبار الأمراء شكل تنافس حول الوصاية على السلطان الصغير ؛ على أساس أن هذه الوصاية تعتبر خطوة تمهيدية للتخلص من ذلك الطفل والفوز بمنصب السلطنة . وكان أن خرج الأمير قانصوه خمسمائة فائزا من تلك الجولة وبذلك تولى منصب الأتابكية واستبد بالسلطة[1] .

وإذا كان قانصوه خمسمائة قد استطاع عزل محمد بن قايتباى ليعلن نفسه سلطانا (سنة ٩٠٢ هـ = ١٤٩٧ م) ، وما كان اغناه عن هذه السلطنة « على قول ابن اياس ، فإن خصوم قانصوه لم يلبثوا أن خلعوه وانتهى أمره بالقتل ، فى حين أعادوا الناصر محمد بن قايتباى مرة أخرى إلى السلطنة[2]. ولكن الناصر محمد لم يلبث أن استثار نفوز الناس بحماقته وطيشه وميله لسفك الدماء ، فى الوقت الذى استبد المماليك الجلبان بالأمور وعاثوا فسادا فى البلاد والعباد . وأخيرا ضاق الأمراء باستبداد المماليك الجلبان وخضوع محمد بن قايتباى لرأيهم ، فقتلوا السلطان محمد سنة ٩٠٤هـ(١٤٩٨م) واختاروا شريكهم الظاهر قانصوه — وهو خال القتيل — ليتولى السلطنة. وهكذا تعاقب السلاطين بسرعة فى تلك الفترة المضطربة من تاريخ سلطنة المماليك ، فعزل الظاهر قانصوه ليتولى بدله الأشرف جانبلاط سنة ٩٠٥ هـ (يونيه سنة ١٥٠٠ م) ، ثم عزل وخنق هذا الأخير ليحل محله العادل طومان باى (الأول) سنة ٩٠٦ هـ (يناير سنة ١٥٠١ م) ؛ ولم يبق العادل طومان باى فى منصب السلطنة سوى بضعة أشهر حتى خنق وحل محله الأشرف قانصوه الغوري فى أبريل سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٣٥ وما بعدها (محمد مصطفى) .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

ولعل الميتة الوحشية التي تعرض لها سلاطين المماليك الأواخر عند عزلهم هي التي جعلت قانصوه الغوري يتهرب من منصب السلطنة عندما عرضه عليه الأمراء ، ويمتنع من ذلك ويبكي ، ولكنه قبل أخيرا ذلك المنصب بعد أن اشترط عليهم عدم قتله إذا أرادوا خلعه[1] . ولم يكن أصرار الأمراء على أختيار قانصوه الغوري لاعتقادهم فى أحقيته نظرا لكبر سنه ، وإنما لاعتقادهم أنه ضعيف يمكنهم التلاعب به وفق أهوائهم.

ولكن لم يكد السلطان الأشرف قانصوه الغوري يلي السلطنة حتى أثبت أنه رجل قوى صلب العود ، رغم أنه كان قد تجاوز الستين من عمره . ذلك أنه عمل فى سرعة على إعادة الأمن والاستقرار إلى العاصمة وملأ مناصب الدولة بمن يثق فيهم من كبار الامراء[2] . ثم اتجه إلى علاج الأزمة المالية بعد أن أفلست خزانة الدولة . على أنه يؤخذ على السلطان الغوري أنه اتبع سياسة تعسفية فى أشباع خزانة الدولة ، فجمع ضرائب عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض هذه الضرائب على الاراضى والحوانيت والعقارات وإنما تجاوز ذلك إلى الطواحين والمعديات والسفن ودواب النقل بل حتى الأوقاف الخيرية . هذا إلى أنه تلاعب فى العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، وضاعف المكوس والرسوم الجمركية ، مما أنزل بالتجار على وجه الخصوص أضراراً بالغة[3] . وكانت النتيجة أن حقق الغوري أغراضه وحصل على ما كان يطمع فيه من أموال ولكن على حساب شعب محطم ، أثقلت كاهله الالتزامات والاحتكارات والضرائب ، وأقلقت مضاجعه الفتن والمنازعات بين أمراء

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤ وما بعدها (محمد مصطفى) .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٩ — ٩٠ (محمد مصطفى) .

المماليك وطرائفهم . ولم يشفع للسلطان الغورى لدى رعاياه أن ذلك السلطان شيد مسجداً ومدرسة فى الحى الذى نسب إليه فيما بعد ، وهو حى الغورية ؛ كما عنى بطريق الحج وحفر به بعض الآبار ، فضلا عن عنايته بحفر الترع وتحصين الاسكندرية ورشيد ، وإصلاح القلعة . هذا إلى أنه عرف عن السلطان الغورى عنايته بمماليكه فأكثر من أعدادهم عن طريق الشراء ، وصرف كثيراً من الأموال على مظهر بلاطه وفخامته ، وأصبحت مماليكه وخيوله وجواهره ومطبخه السلطانى مضرب الأمثال ، كما اشتهرت مجالسه الأدبية التى ضمت الشعراء والادباء والعلماء(١) .

الصدام بين المماليك والبرتغاليين :

ولم تحدث قلاقل ذات خطورة فى الفترة الأولى من حكم السلطان الغورى ، إذا استثنينا بعض الفتن والثورات من جانب المماليك والعربان ، وهذا النوع من الثورات كان مألوفاً فى ذلك العصر . ولم يصادف السلطان الغورى مشقة فى إخمادها . ولكن الخطر الكبير الذى ظهر فى ذلك العصر والذى هدد مصر فى كيانها وفى المورد الأول لثروتها وغناها أتى من ناحية الجنوب — أعنى من ناحية المدخل الجنوبى للبحر الاحمر ؛ ثم من ناحية الشمال — أى من جانب العثمانيين .

والمعروف أن حركة المغول التوسعية أدت منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) إلى ضياع أهمية طرق التجارة الرئيسية المألوفة بين الشرق والغرب وبخاصة طريق الخليج الفارسى والطريق البرى المار بسمرقند ؛ وبذلك لم يبق هناك طريق آمن بعيد عن عبث المغول سوى

---

(١) انظر كتاب (الكوكب الدرى فى مسائل الغورى) مخطوط . وعبد الوهاب عزام : مجالس السلطان الغورى .

طريق البحر الأحمر ومصر . وقد استغل سلاطين المماليك تلك الفرصة وفرضوا ضرائب مرتفعة على الغلات الآسيوية التي احتاجت إليها أوربا وحرصت على استيرادها من الشرق — وبخاصة التوابل . بل إن سلاطين المماليك فرضوا نظاماً احتكارياً قاسياً حتى أصبحت التوابل تباع للتجار الأوربيين في الاسكندرية ودمياط بثمن يفوق أربعين مرة ثمنها المستوردة به من بلدان الشرق الأقصى[1] .

وكان أن ضاق التجار الأوربيون — فضلا عن المستهلك الأوربي — بذلك الوضع ، فبدأت الجهود لاكتشاف طريق آخر غير طريق مصر والمماليك يمكن الأوربيين من الحصول على متاجر الشرق . ولما كانت البندقية هي العميل الأول لدولة المماليك في تجارة الشرق الأقصى فإنه كان من المنتظر أن تبدأ منافستها جنوة الجهود للبحث عن طريق جديد إلى الشرق . وفعلا استطاعت جنوة اكتشاف بعض أجزاء الساحل الغربي لأفريقية — في مواجهة جزر كناريا — مما يعتبر مقدمة للجهود التي أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد[2] . وكان أن نجح بارثميو دياز في كشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧ م) ، وأعقبه فاسكودى جاما الذى تمكن من الوصول إلى الهند عن طريق الطواف حول إفريقية سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨ م) ؛ وبذلك حقق البرتغاليون نصراً عالميا جديداً ، واستطاعوا أن يوفروا للسوق الأوربية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى بثمن يبلغ ربع الثمن الذى كانت تباع به في الإسكندرية ودمياط .

وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجىء في طرق

---

(١) مركز مصر في التجارة العالمية في أواخر العصور الوسطى — بحث الدكتور سعيد عاشور ، نشر في المجلة المصرية للعلوم السياسية (ديسمبر ١٩٦٢) .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحصار الاقتصادى على مصر زمن الحروب الصليبية ص ١١٠ (بحث نشر في المجلة المصرية للعلوم السياسية ، اكتوبر ١٩٦٢) .

التجارة العالمية ؛ إذ بدأ الاعراض عن شراء التوابل من السوق المصرية ؛ مما حرم سلاطين المماليك من المورد الأول الذى استمدوا منه أسباب قوتهم وعظمتهم . ولم تكن البندقية أقل تأثراً من سلطنة المماليك بما سببه لها اكتشاف البرتغاليين للطريق الجديد ، لأن معنى ذلك أن يحل البرتغاليون محل البنادقة فى الوساطة التجارية بين الشرق والغرب[١] . لذلك اتفقت مصالح البندقية مع مصالح سلطنة المماليك ، فحرض البنادقة السلطان الغورى على إرسال حملة إلى قاليقوط لطرد البرتغاليين من الهند . هذا فى الوقت الذى لجأ الغورى إلى أسلوب آخر هو تحريض الحكام المسلمين بالهند على طرد البرتغاليين ومحاربتهم . أما البندقية فقد دأبت من جانبها على تأليب القوى الأوربية ضد البرتغاليين وحثها على عدم التعامل معهم . على أن جميع جهود الغورى والبنادقة ذهبت مع الريح ، فلا الحكام المسلمون فى الهند تحركوا ضد البرتغاليين ولا الدول الأوربية قبلت أن تتخلى عن التعامل مع البرتغاليين الذين قاموا بتموين السوق الأوربية بحاجته من التوابل بسعر أرخص كثيراً من أسعار البنادقة[٢] .

ولما وجد الغورى أن الغرب الأوربى لم يعبأ بتهديداته ، وأن جهود البندقية لم تفلح فى عرقلة طريق البرتغاليين ، صمم على القيام بعمل حاسم ضد البرتغاليين بعد أن أصبحت المعركة معركة حياة أو موت بالنسبة لسلطنة المماليك . ويمكننا أن ندرك مدى الإنهيار المفاجىء فى دخل السلطان بعد أن أصبحت التوابل مكدسة فى الثغور المصرية لا تجد من يشتريها من التجار الأوربيين . لذلك أعد الغورى حملة بحرية ، كبيرة وأرسلها فى البحر الأحمر سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) بقيادة حسين الكردى نائب جدة . وكان أن استطاعت هذه الحملة أن تنزل الهزيمة بالبرتغاليين قرب الشواطىء الغربية للهند سنة ٩١٤هـ

---

(١) Heyd : Hist. du Commerce, T. 3, p. 320.

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٨٤ ، ١٤٦ .

(١٥٠٨ م) . ولكن البرتغاليين انتقموا بسرعة لأنفسهم فحطموا الأسطول المصرى فى العام التالى سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩م) فى موقعة ديو البحرية[١] .

وإذا كان السلطان الغورى لم ييأس بعد موقعة ديو ، وإنما قام بعدة محاولات أخرى للقضاء على النفوذ البرتغالى فى الهند ، إلا أنه من الواضح أن تلك المحاولات لم يكتب لها النجاح من بدايتها . وهكذا ذبلت تجارة مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوربى جميعا ، وبذبول تلك التجارة ذبلت الدولة نفسها . وكان ذلك فى الوقت الذى بدأ يشتد خطر العثمانيين على دولة المماليك فى الشام ومصر .

العثمانيون والمماليك :

شهد القرن الرابع عشر تضخم نفوذ قوة جديدة فى الشرق الأدنى ، هى قوة الأتراك العثمانيين الذين كانوا يعيشون فى بداية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) فى إقليم خراسان ، ثم اضطروا تحت ضغط المغول إلى التحرك غربا حتى استقروا فى آسيا الصغرى . وقد أتاح انهيار سلطنة سلاجقة الروم بقونيه سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) فرصة طيبة للعثمانيين ، فأخذوا يتوسعون بسرعة على حساب الإمارات والقبائل التركية الكثيرة التى وجدت بآسيا الصغرى فى ذلك الوقت ، وعلى حساب الممتلكات والأراضى البيزنطية ، فاستولوا على بروسه سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) وعلى نيقيه سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠ م) . ثم عبروا إلى الشاطئ الأوربى واستولوا على غاليبولى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م)[٢] . وهكذا أخذت الدولة العثمانية الناشئة تتوسع توسعا آمنا سريعا على حساب الدولة البيزنطية من ناحية وعلى حساب القوى الإسلامية فى آسيا الصغرى من ناحية أخرى ، دون

---

(١) Wiet : op. cit., p. 618.

(٢) Gibbons : The Decline and Fall of the Roman Empire, pp. 101-103.

أن يعوق تقدمها عائق حتى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد)

على أن الدولة العثمانية تعرضت لضربة خطيرة كان من الممكن أن تقضى عليها قضاء نهائيا فى أوائل القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر للميلاد) ، عندما اجتاح تيمور لنك معظم آسيا الصغرى وأنزل هزيمة ساحقة بالجيوش العثمانية فى موقعة أنقره سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) ووقع السلطان العثمانى بايزيد الأول نفسه أسيراً حيث مات فى الأسر فى العام التالى[١] . وكان الأمل ضعيفاً فى استطاعة الدولة العثمانية النهوض من تلك الكبوة ، ولكنها نهضت بسرعة ، وتمكن السلطان محمد الأول العثمانى من إحياء الدولة وربط أجزائها واستئناف سياسة التوسع من جديد . ولم يستطع الغرب الأوربى وقف توسع العثمانيين فى البلقان ، حتى سقطت القسطنطينية فى قبضة السلطان محمد الفاتح سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) وبذلك انتهت الدولة البيزنطية من صفحة التاريخ وحل سلاطين آل عثمان محل قياصرة الرومان فى مدينة الإمبراطور قسطنطين العظيم[٢] .

وفى خلال تلك الأحداث التى صحبت نمو الدولة العثمانية واتساعها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم يظهر فى الأفق ما يدل على احتمال حدوث صدام بين العثمانيين والمماليك فى مصر والشام . ولا نكون مبالغين إذا قررنا أن دولة المماليك أخذت تنظر بعين الارتياح إلى الانتصارات التى حققها العثمانيون المسلمون على حساب القوى الأوربية المسيحية فى البلقان ، بل إن السلطان إينال أمر بتزيين القاهرة سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) عندما وصلته الأخبار باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية[٣] . وهكذا أخذ المماليك ينظرون

---

(١) Cam. Med. Hist. vol. 4, 682-684.

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٨٣ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ١٩ .

إلى كل نصر يحققه العثمانيون على أنه نصر الاسلام والمسلمين . وأدرك العثمانيون هذه الحقيقة فدأبوا كلما أحرزوا إنتصارا فى موقعة كبرى على إرسال بعض أسرى الأوربيين إلى القاهرة ، ليشاركهم إخوانهم المسلمون فى مصر فرحة النصر. وفى الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك فى القاهرة على إرسال التهانى إلى الدولة العثمانيه كلما تولى سلطان جديد أو كلما أحرزت الجيوش العثمانية نصراً جديداً[1] .

غير أنه لم تكد السلطنة تنقل إلى خشقدم سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) حتى أخذت العلاقات بين دولتى المماليك والعثمانيين تتعكر . ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد قنعت عندئذ بما حققته من فتوح فى البلقان وأخذت تولى وجهها مرة أخرى صوب ما تبقى خارجا عن السيادة العثمانية من أمارات فى آسيا الصغرى . وكانت أهم هذه الأمارات إمارتا قرمان ودلغادر ، وهما إمارتان تركمانيتان مشمولتان بحماية سلطنة المماليك ، واعتمدت عليهما هذه السلطنة فى شئون الأمن والدفاع عن مصالحها فى شمال الشام والعراق[2] . والواقع أن الصدام بين المماليك والعثمانيين كان أمرا طبيعيا بين أكبر قوتين تتزعمان العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى واتخذتا الحرب والقتال أداة لسياستهما ، فصار لابد لاحدى هاتين القوتين من أن تنتصر على منافستها وتستأثر بزعامة المسلمين فى تلك المنطقة . لذلك اتخذ التنافس بين سلطان المماليك وسلطان العثمانين إمارتى قرمان ودلغادر ميدانا له ، وظهر ذلك بوضوح عندما توفى أميرا قرمان ودلغادر سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٥ م) إذ قامت الدولة العثمانية بمناصرة أميرين غير من قامت دولة المماليك بتأييدهما.

وإذا كانت العلاقات قد تحسنت بعد عهد خشقدم بين سلطنة المماليك

---

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور سنة ٨٥٧ هـ ، صفحات لم تنشر ، حققها ونشرها محمد مصطفى ؛ ص ١٤ .

(٢) Lane-Poole : op. cit., pp. 346-347.

وسلطنة العثمانيين وبين هذا التحسن لم يكن إلا فى ظاهر الأمور ، لأن أطماع الدولة العثمانية من ناحية ومخاوف دولة المماليك من ناحية أخرى ظلت قائمة. ولا أدل على ذلك من أن كل طرف من الطرفين حرص على إيواء الأمراء الخارجين على الطرف الآخر ، فرحبت سلطنة المماليك ببعض كبار الأمراء الفارين من القاهرة والشام ، ورحب السلطان قايتباى بأخ للسلطان بايزيد الثانى — اسمه جم — هارب من وجهه[١]. وقد حاول بايزيد الثانى أن يحرم سلطنة المماليك من انفرادها بحماية الحرمين مما يضفى عليها مكانة خاصة لا تتمتع بها دولة إسلامية أخرى ، فطلب السماح له بالقيام ببضعة إصلاحات فى مكة ولكن قايتباى رفض طلبه ، مثلما رفض سلاطين المماليك السابقين طلب تيمور لنك لكسوة الكعبة من قبل . وإزاء ذلك لم يسع بايزيد الثانى سوى أن يتحرش بسلطنة المماليك ، واتخذ إمارة دلغادر — الخارجة عن طاعة المماليك عندئذ — مسرحا لذلك التحرش[٢].

على أنه مهما يكن من مصادمات بين المماليك والعثمانيين فى ذلك الدور[٣] ، فإن الحرب الفعلية بين الطرفين لم تتخذ شكلا جديا خطيراً إلا فى عصر السلطان سليم الأول العثمانى من ناحية والسلطان قانصوه الغورى من ناحية أخرى .

وقد بدأ السلطان سليم الأول العثمانى بمحاربة اسماعيل الصفوى شاه إيران لتصفية ما بين الدولتين العثمانية والصفوية من مشاكل مذهبية وسياسية. وأدى انتصار العثمانيين على الصفويين سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) واستيلاء السلطان سليم الأول على الجزيرة والموصل وغيرها من الجهات ذات

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe, p. 598.

(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٥ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور سنة ٨٧١ هـ وما بعدها ، ص ١٧٦ صفحات إ تنشر .

الروابط القديمة بسلطنة مصر منذ أيام الأيوبيين ، إلى تهيئة مزيد من الفرص لوقوع الصدام بين العثمانيين والمماليك . ثم كان أن قضى السلطان سليم سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥م) على إمارة دلغادر المشمولة بحماية سلطنة المماليك ، مما جعل الصدام بين الدولتين أمراً لا مفر منه[1] .

ولم يستطع السلطان الغوري أن يظل ساكناً إزاء حوادث الاستفزاز العثماني من ناحية ، والأخبار التي أخذت تترامى إلى مسامعه عن قرب هجوم العثمانيين على أراضي الدولة المماليكية من ناحية أخرى . لذلك أسرع الغوري إلى استرضاء المماليك الثائرين بسبب تأخر رواتبهم ، ثم أخذ يستعد للمعركة القادمة ، فاستدعى العسكر إلى ديوان الجيش وأعد آلات الحرب ، وأسرع بتحصين قلعة قايتباي في الاسكندرية . وفي ذلك الجو المشحون بروح الحرب وصلت إلى القاهرة رسالة من خاير بك نائب حلب ملخصها أن السلطان مخدوع فيما لديه من أخبار بخصوص نوايا سليم وأن المقصود من الاستعدادات التي قام بها السلطان العثماني محاربة الشاه إسماعيل الصفوي[2] . وأهمية هذه الرسالة ترجع إلى أنها تكشف الستار عن دور الخيانة الذي حرص خاير بك على القيام به منذ ذلك الوقت والذي كان له أبعد الأثر فيما بعد في الهزيمة التي حلت بالغوري .

ومهما يكن من أمر ، فإن الغوري لم ينخدع بتلك الرسالة ، وإنما عقد مجلسا حربيا لبحث الأمر مع أمرائه ، واستقر رأي الجميع على ضرورة المبادرة بإرسال حملة كبيرة إلى حلب إستعدادا للطوارىء ، على أن يكون السلطان الغوري نفسه على رأس تلك الحملة[3] وهكذا لم ينتصف شهر مايو

---

(١) Wiet : op. cit., pp. 632-633.
وابن إياس ، بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٥ وما بعدها « محمد مصطفى » .
(٢) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢١٤ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٥ وما بعدها ، ج ٥ ص ٢٧ — ٢٨ .

سنة ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ) إلا وكان الغورى قد تأهب للخروج على رأس جيشه إلى الشام . وفى مرحلة التأهب النهائى بالريدانية ، وصلت إلى الغورى رسالة من خاير بك تصحبها رسالة أخرى من السلطان سليم العثمانى تحوى كثيرا من عبارات الود والمحبة والرغبة فى التعايش السلمى مع سلطنة المماليك. وفى هذه الرسالة يخاطب السلطان سليم الغورى قائلا «أنت والدى وأسألك الدعاء[1] !! » .

ولكن هذه الخديعة لم تنطل على الغورى ، فخرج على رأس جيشه إلى الشام بعد أن أناب عنه فى السلطنة الأمير طومانباى .

ولم يكن السلطان الغورى مبالغا فى سوء ظنه بالعثمانيين عندما أرسل إليه السلطان سليم رسولين فى حلب يعرضان الصلح ، إذ أدرك الغورى أن «كل هذا حيل وخداع حتى يبطل همة السلطان عن القتال ويثنى عزمه عن ذلك » ، على قول ابن اياس . كذلك لم يكن الغورى مبالغا فى الحذر عندما استدعى — وهو بحلب — أمراءه جميعاً وحلفهم على القرآن — فى حضرة الخليفة العباسى — بأنهم لن يخونوه فى ساعة الشدة . ذلك أن الأحداث السريعة أثبتت أن الغورى كان على حق فى جميع مخاوفه ، وإذا كان قد رد على رسالة سليم بالحسنى ، فإن السلطان العثمانى أساء استقبال رسول الغورى وصاح فيه « قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق[2] » ! .

وكان أن دارت المعركة فعلا عند مرج دابق ، فحارب المماليك بشجاعة نادرة ، حتى لقد فكر السلطان سليم العثمانى فى التقهقر لاعادة تنظيم صفوفه وفى تلك اللحظة الحرجة كشف خاير بك الخائن النقاب عن وجهه ، فأشاع

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٤٥ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٦٨ .

بين صفوف الجند أن السلطان الغورى يأمرهم بعدم التقدم لحين صدور أوامر أخرى ، ثم لم يلبث خاير بك أن انسحب من الميدان بعد أن أشاع أن السلطان الغورى خر قتيلا . وهكذا تفرقت صفوف المماليك وانهارت مقاومتهم ، وعبثا حاول الغورى — بعد فوات الأوان — أن يوقف تيار الفرار فصاح فى جنده المدبرين « يا أغوات الشجاعة ! صبر ساعة[1] » وكان لهذه الصدمة وقعها فى قلب الشيخ ، فطلب الغورى ماء ليشرب « ثم أغمى عليه وسقط ميتا » من فوق فرسه . وقيل أن السلطان سليم قطع رأس الغورى وأرسلها إلى اسطنبول فى حين دفنت جثته عند حلب ؛ « والصحيح أنه لم يعلم حاله[1] » .

طومان باى وسقوط دولة المماليك :

صارت كارثة مرج دابق مزدوجة بوفاة الغورى ، فقرت فلول المماليك هاربة نحو دمشق فى طريقها إلى القاهرة . أما أهل القاهرة فقد وقع عليهم الخبر وقع الصاعقة لاسيما وأن أخبار هزيمة مرج دابق وصلت مصحوبة بأنباء زحف السلطان سليم العثمانى على بلاد الشام فى طريقه إلى مصر . وكان الموقف فى القاهرة يتطلب إجراء عاجلا سريعا ، فاختير طوماى باى سلطانا سنة ٩٢٢ هـ (أكتوبر سنة ١٥١٦ م) وتلقب بلقب الأشرف ، وهو آخر سلاطين المماليك فى مصر والشام[2] .

ومن الواضح أن السلطان الأشرف طومان باى ورث تركة مثقلة ، وتولى السلطنة فى ظرف لا يحسد عليه حاكم . وكان أقل ما ينتظره بعد أن

---

(١) ابن زنبل : ص ٣٠ .

(٢) ابن طولون : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ق ٢ ص ٢٤ تحقيق محمد مصطفى .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ح ٥ ص ١٠٢ .

ضحى وقبل منصب السلطنة فى تلك الظروف هو أن يجد تعاونا من أمراء المماليك ، ولكن خاب ظنه لأن المماليك كانوا قد وصلوا فى ذلك الدور إلى درجة من الانحلال أعمتهم عن رؤية الخطر المحيط بهم .

من ذلك أن طومان باى فكر فى الإسراع إلى بلاد الشام لملاقاة العثمانيين هناك قبل أن يتمكنوا من دخول مصر ، ولكن المماليك تعللوا بالأعذار وطالبوه بنفقات وأموال باهظة ليجيبوه إلى رغبته . ولما لم يجد طومان باى استجابة من المماليك فى تلك اللحظة الحرجة اضطر إلى أن يجمع من استطاع جمعه « من الزعر والصبيان والشطار والمغاربة »[1] ؛ وخرج إلى الريدانية فى طريقه لمقاتلة العثمانيين .

أما السلطان سليم العثمانى فكان قد استولى على حلب فى سهولة عقب موقعة مرج دابق ، ثم دخل دمشق بعد مفاوضات قصيرة ، وقضى بها نحو شهرين زحف بعدها تجاه حدود مصر . وفى الوقت الذى استولى السلطان سليم على غزة وبدأ يخترق الصحراء الشرقية فى طريقه إلى القاهرة ، أراد طومان باى الخروج لملاقاة العثمانيين فى تلك الصحراء وهم متعبون من مشقة الطريق ، ولكن أمراء المماليك رفضوا الأخذ برأيه اعتقاداً منهم أن خنادقهم ستعصمهم من الهزيمة[2] .

وفى معركة الريدانيه أظهر طومان باى شجاعة لا تقل عن شجاعة الغورى فى مرج دابق . ولكن فرداً واحداً مهما تبلغ إرادته وشجاعته لا يستطيع أن يتغلب على جيش متماسك كبير ، فحلت الهزيمة بالمماليك وفر طومانباى ليواصل المقاومة بين طرقات القاهرة وأحيائها ، حتى نجح فعلا فى إخراج سليم من القاهرة بعد أن دخلها . وهنا ظهرت عوامل الخيانة مرة أخرى

---

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ١١٩ .

(٢) ابن زنبل : ص ٤٧ — ٥٥ .

ليقضى الله أمراً مفعولا ، ففوجىء طومانباى أثناء جهوده الجبارة على ضفاف النيل بالجيزة بهجوم البدو والأعراب على مؤخرته : مما أوقعه بين نارين ، فاضطر إلى التقهقر إلى قرب وردان حيث دارت معركة بين جيشه الصغير والعثمانيين[1] . وعندما انتصر عليه العثمانيون : فر طومانباى إلى أحد مشايخ الأعراب بمديرية البحيرة — واسمه حسن بن مرعى — طالباً حمايته ، ولكن هذا الشيخ نسى ما كان لطومانباى من فضل سابق عليه — إذ كان قد أخرجه من السجن أيام الغورى — فتنكر له وسلمه للعثمانيين .

ولما وقع طومانباى فى قبضة السلطان سليم ، فرح السلطان العثمانى وصاح « الآن ملكنا مصر ! »[2] .

وتجمع المراجع على شجاعة طومانباى عندما وقف بين يدى السلطان سليم العثمانى يقول أنه لم يفعل غير ما أملاه عليه الواجب ، وأن الله تعالى أمر بالدفاع عن النفس ورد المعتدين . ولما عاتبه سليم لأنه لم يطعه من أول الأمر ، رد عليه طومان باى « الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع منا ؛ وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الميدان . . . . » . وهكذا حتى سيق طومانباى إلى باب زويلة حيث شنق سنة ٩٢٣ﻫ (٢٣ أبريل سنة ١٥١٧م) .

وقد وصف المؤرخ المعاصر ابن اياس اللحظات الأخيرة من حياة طومان باى وصفاً رائعاً ، فقال أنه سيق من بولاق إلى باب زويلة فجعل يسلم على الناس بطول الطريق حتى وصل إلى باب زويلة وهو لا يدرى مايصنع به . فلما أتى إلى باب زويلة أنزلوه من على الفرس وأرخوا له الحبال

---

(١) زيادة : نهاية السلاطين المماليك ص ٢٣٦ .

(٢) ابن زنبل : آخرة المماليك ص ١٣٢ .

ووقفت حوله العثمانية بالسيوف . فلما تحقق أنه سيشنق ، وقف على أقدامه على باب زويله ، وقال للناس الذين حوله (أقروا لى سورة الفاتحة ثلاث مرات) . فبسط يده وقرأ سورة الفاتحة ثلاث مرات، وقرأت الناس معه ثم قال للشاعلى (أعمل شغلك) فلما وضعوا الخية فى رقبته ورفعوا الحبل فانقطع به فسقط على باب زويله . وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس وعلى رأسه شاياه جوخ أحمر وفوقها ملوطه بيضاء بأكام كبار ، وفى رجله لباس خوخ أزرق .

فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف ، فإنه كان شاباً حسن الشكل، سنه نحو أربع وأربعين سنة، وكان شجاعاً وبطلا ، تصدى لقتال ابن عثمان وقتل منهم مالا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات فى نفر قليل من عسكره ، ووقع منه فى الحرب أمور مالا تقع من الأبطال » .

هذا هو حكم التاريخ على بطل من أبطاله ، هو آخر سلاطين المماليك فى مصر والشام[1] .

---

(1) ابن زنبل ، ص ١٤١ — ١٤٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ح ٥ ص ٧٦ .

الفصل السابع

أحوال مصر في عصر سلاطين المماليك

الحياة الاقتصادية :

أدرك سلاطين المماليك أهمية الزراعة للبلاد ، بوصفها عماد الثروة القومية، لذلك عنوا بها عناية فائقة فأنشأوا الجسور وشقوا الترع لتوفير مياه الري الأراضي التي يتعذر وصول الماء إليها . ومن أهم السلاطين الذين عنوا بهذه الناحية السلطان الناصر محمد بن قلاون الذي عهد إلى بعض الأمراء بعمارة كافة جسور مصر في الوجهين البحري والقبلي والكشف عليها ، بل إن هذا السلطان أشرف بنفسه على إنشاء بعض الجسور ، فكان يخرج أحيانا مع المهندسين ليوجههم حتى يتم بناء الجسر[1] .

وقد قسمت أرض مصر الزراعية إلى أربعة وعشرين قيراطا اختص السلطان منها بأربعة قراريط، والأمراء بعشرة ، وما تبقى خصص الأجناد . وروعي في ذلك التقسيم أن توزع الأرض على هيئة إقطاعات تتفاوت في مساحتها ، وفي خصوبتها ومقدار ريعها . على أن زمام الأرض فك وعدل أكثر من مرة في عصر المماليك بعد مسح الأراضي الزراعية في البلاد، وهي العملية التي تعرف باسم الروك . وقد اشتهر في تاريخ دولة المماليك الروك الذي تم في عهد السلطان لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) والروك الذي تم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م)[2] .

---

(١) النويري ، نهاية الإرب ، ج ٣٩ ورقة ٩١ (مخطوط) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٤ .

وقام بفلاحة الأرض جمهرة الفلاحين الذين عاشوا فى حال من الفقر والحرمان لا يخفى على الباحث فى تاريخ ذلك العصر ؛ فالفلاح ظل فى ذلك العصر مربوطا إلى الأرض التى يفنى حياته فى خدمتها دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتها . وقد تعرض الفلاحون لكثير من العسف من جانب أمراء المماليك من ناحية ومن جانب الأعراب الذين طغوا عليهم من ناحية أخرى ، حتى « خرب معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد[1] » . وكانت الأرض تزرع مرة واحدة فى السنة عقب فيضان النيل ، لأن البلاد لم تعرف فى ذلك العصر غير رى الحياض ، كما أن الفلاح لم يعرف من وسائل الزراعة وأدواتها غير الوسائل والأدوات العتيقة التى عرفت منذ أيام الفراعنة .

وعلى ذلك فإنه يبدو أن محصول الأرض الزراعية فى مصر ازداد على عصر سلاطين المماليك نتيجة للعناية بمرافق الزراعة من جسور وترع ومقاييس النيل وغيرها[2] .

وفى عصر المماليك ارتقت الصناعة رقيا كبيراً حتى أصبحت مصنوعات ذلك العصر تكون فى مجموعها إنتاجا فنيا رائعاً تزدان به متاحف العالم اليوم . وحسبنا الأقمشة الفاخرة المصنوعة من الحرير والصوف والكتان والقطن التى صنعت منها الخلع السلطانية والفرش والستور والخيام . هذا عدا المصنوعات المعدنية التى تتمثل فى عدد كبير من الأوانى النحاسية والطاسات الدقيقة الصنع ذات النقوش والكتابات الجميلة .

وانتشرت فى ذلك العصر صناعة تكفيت البرونز والنحاس بالذهب والفضة ، وشغف المعاصرون بالنحاس المكفت بحيث « لا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت[3] » . أما الزجاج فقد صنعت

(١) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٦ — ٤٠ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٥٢٧ .

(٣) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ٥٠١ (طبعة بولاق) .

منه أنواع جميلة بعضها من البللور الصخرى المحبب . والبعض الآخر من الزجاج الملون المستخدم فى النوافذ . وكذلك الخزف الذى صنعت منه أوانى متقنة جميلة ، وكان بعضها يصنع بناء على توصية خاصة من السلاطين والأمراء ، ولذلك زينت برنوكهم[1] . ولم تكن الصناعات الخشبية أقل تقدما فى عصر المماليك ، إذ مازالت الأبواب والدكك والمشربيات وغيرها من المصنوعات الخشبية الباقية من ذلك العصر تشهد على دقة الصناعة وتقدم وسائلها ، وسنشير إلى ذلك مرة أخرى فيما بعد عند كلامنا عن الفنون فى ذلك العصر .

على أنه مهما يكن للزراعة والصناعة من أهمية فى عصر المماليك ، فإن جميع الشواهد تدل على أن التجارة كان لها المقام الأول فى النشاط الاقتصادى فى ذلك العصر ، وأنها كانت المصدر الأول للثروة الهائلة التى عبرت عن نفسها فى أعمال المماليك وحياتهم وماتركوه من آثار ومنشآت فخمة . ويرجع السبب فى النشاط التجارى الذى تميزت به مصر فى عصر المماليك إلى انسداد معظم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن الثالث عشر بسبب حركة المغول التوسعية ؛ وبذلك لم يبق آمنا إلا طريق البحر الأحمر ومصر ، مما جعل مصر تقوم فى ذلك العصر بدور الوسيط بين الشرق والغرب . وقد أدرك سلاطين المماليك ما يمكن أن تعود به عليهم التجارة الخارجية من ثروة ، فاهتموا بتنشيطها وتأمين مسالكها وإنشاء المؤسسات اللازمة للتجار كالفنادق والخانات والوكالات والقياسر والأسواق وغيرها . كذلك حرصوا على التودد إلى قوى البحر الأحمر من ناحية ، وإلى التجار الأوربيين المترددين على الاسكندرية ودمياط من ناحية أخرى .

وقد أمر السلطان قلاوون نوابه بالثغور أن يحسنوا معاملة التجار

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٣١٩ .

ويلاطفونهم ويتوددون إليهم ولا يجبون منهم سوى الحقوق السلطانية(١). كذلك كتب السلطان قلاون منشوراً إلى التجار الذين يفدون إلى مصر من الشرق والغرب يصف لهم محاسن مصر ويغريهم على القدوم إليها بمتاجرهم ويعدهم بحسن المعاملة والإحسان إليهم(٢) . ويفهم من المراجع المعاصرة أنه خصصت لكل جالية من التجار الأوربيين فنادق خاصة بهم في الثغور والمراكز التجارية الكبرى في مصر ، ورتبت أمور هذه الفنادق بحيث يتمتع التجار الأوربيون النازلين فيها بأكبر قسط من الحرية والتسهيلات(٣) .

ولا أدل على النشاط التجاري في عصر سلاطين المماليك من انتعاش ثغور مصر وموانيها ، مثل أسوان بالنسبة لتجارة النوبة ، وعيذاب بالنسبة لتجارة الصين والهند واليمن ، ودمياط والاسكندرية بالنسبة للتجارة مع القوى الأوربية، وخاصة المدن الإيطالية(٤) .

ومايقال عن التجارة الخارجية يمكن تطبيقه على التجارة الداخلية ، إذ اشتهرت مدن مصر الكبرى بأسواقها الحافلة بالبضائع ، وأحكام الرقابة عليها من جانب المحتسبين لمنع التلاعب في الأسعار أو الأوزان أو أصناف البضاعة(٥) .

على أن الجشع سرعان مادفع سلاطين دولة المماليك الجراكسة إلى اتباع سياسة احتكارية عنيفة ، فاحتكروا تجارة التوابل والبخور، وبالغوا في تحديد

---

(١) تاريخ ابن الفرات، ح ٧ ص ١٩٨ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ح ١٣ ص ٣٤٠ — ٣٤١ .

(٣) Kammerer : Le Régime et le Status des Etrangers en Egypte, pp. 17-20.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ٢٩٠ .

(٥) المقريزي : المواعظ ح ٢ ص ٩٢، ابن الاخوه : معالم القربة ص ٨ .

أثمانها حتى بلغ ثمن الفلفل مثلا فى الاسكندرية أضعاف ثمنه فى الشرق الأقصى عشرين مرة. وقد بلغت سياسة الإحتكار هذه أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ — ٨٤١ هـ = ١٤٢٢ — ١٤٣٨م) الذى أبطل التعامل بالنقد البندقى والفلورنسى وسك الدينار الأشرفى ليكون أساساً للتعامل مع التجار الاوربيين[١]. وأخيراً ضاق الاوربيون ذرعاً بسياسة سلاطين المماليك واحتكاراتهم، فجدوا فى البحث عن طريق آخر يمكنهم من الحصول على حاصلات الشرق بثمن معقول؛ ومازالوا يجدون حتى اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر للميلاد) فكان ذلك إيذاناً بتدهور مركز مصر التجارى فى التجارة العالمية.

وأخيراً، فإننا نلاحظ عدم استقرار الحياة الاقتصادية فى عصر المماليك بسبب تلاعب السلاطين بالعملة[٢]، أو حدوث الفتن والمنازعات بين طوائف المماليك[٣]. هذا فضلا عن أن أهل مصر كانوا يعيشون تحت رحمة فيضان النيل، فإذا انخفض الفيضان حدثت أزمة اقتصادية فى البلاد وارتفعت الأسعار واشتد الجوع وربما انتشر الطاعون فى البلاد وسقط الموتى فى الطرقات دون أن يجدوا من يدفنهم[٤].

الحياة الاجتماعية :

اتصفت الحياة الاجتماعية فى مصر على عصر سلاطين المماليك بأنها كانت حياة صاخبة نشطة، مليئة بالحركة والحياة.. والمعروف أن المماليك أنفسهم عاشوا طبقة أرستقراطية يحكمون البلاد ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراتها دون أن يحاولوا الامتزاج بأهلها. وقد شهد الرحالة الأجانب

(١) Ahmed Darrag : L'Egypte sous le Regne de Barsbay, pp. 96-100.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٠ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٧ ؛ ج ٣ ص ٨٢.

(٣) ابو المحاسن : النجوم ج ٥ ص ٤٠١ (طبعة كاليفورنيا)، المقريزى: السلوك ج ٣ ص ١٦٤.

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٧ — ٥٠٨.

الذين زاروا مصر فى ذلك العصر بعظم ثروة أمراء المماليك وحياة الترف والنعيم التى عاشوا فى ظلها[1] . أما المصريون فقد استطاعت بعض فئاتهم — مثل المعممين والتجار — أن يحتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة فى المجتمع ومستوى لائق من المعيشة ، فى حين ظل غالب اهل البلاد من العوام والفلاحين يحيون حياة أقرب إلى البؤس والحرمان[2] .

وكانت القاهرة والمدن الكبرى تفيض بالنشاط فى عصر المماليك ، إذ عنى سلاطين المماليك بتجميلها ونظافتها ، وامتازت بأسواقها العديدة المليئة بأصناف البضائع والتى خضعت لرقابة المحتسب ، وهو « ذو رأى وصرامة وخشونة فى الدين »[3] .

كذلك اهتم سلاطين المماليك بإنشاء كثير من المنشآت الاجتماعية المتنوعة ، مثل الفنادق والخانات والوكالات والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها . وعلى الرغم مما كان يتعرض له أهالى القاهرة أحيانا من جراء عدم الاستقرار السياسى والاقتصادى ، إلا أنهم عاشوا عيشة مرحة ، فحرصوا على الإقبال على وسائل التسلية ، والخروج إلى الحدائق العامة ، والرغبة فى سماع الموسيقى ، والغناء ، والتلهى بمشاهدة خيال الظل أو مشاهدة نطاح الكباش ومناقرة الديوك[4] .

وفى ذلك النشاط الحافل قامت المرأة بدور أعظم مما يظن البعض ، إذ تمتعت بقدر كاف من الاحترام ، مكنها من المشاركة فى الحياة العامة ،

---

(١) Schefer : Le voyage d'outremer, p. X

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٣٧ ، ٤٨ .

(٣) ابن الأخوة : معالم القربة ص ٨ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم ج ٩ ص ١٣٦ ، ج ٥ ص ٤١ (طبعة كاليفورنيا) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٧٤ .

سواء بالخروج إلى الأسواق أو التردد على الحمامات أو طلب العلم بالمساجد[١].

وكذلك امتازت الحياة الاجتماعية فى مصر على عصر سلاطين المماليك بكثرة الأعياد الدينية والقومية، والمبالغة فى إحياء تلك الأعياد. ففى الأعياد ذات الصبغة الدينية كان الناس يتبادلون التهنئة ويقيمون الولائم ويتصدقون على الفقراء، ويبالغون فى اظهار السرور[٢]. وربما جاءت هذه الأعياد مصحوبة ببعض المواكب — مثل الاحتفال بدوران المحمل — وعندئذ يخرج الناس من كل مكان للفرجة، ويزين أصحاب الحوانيت والأسواق حوانيتهم بالحرير والحلى.

أما فى الاحتفالات القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل أو تولية سلطان جديد، فكان السلطان عادة يشق القاهرة فى موكب حافل وقد فرشت الشوارع بشقق الحرير، وأقام الأمراء القلاع — وهى أقواس النصر — فى طريق السلطان. وتتضاعف مظاهر الفرح والبهجة إذا كان السلطان عائدا منتصرا من ميدان الحرب، إذ يبالغ الأمراء والناس فى الزينة؛ ويقوم نائب السلطنة « باحضار سائر مغانى العرب من أعمال مصر كلها[٣] ».

الحياة الدينية :

شهدت مصر فى عصر سلاطين المماليك نشاطا دينيا يسترعى الانتباه، وبخاصة بعد أن أصبحت قاعدة الخلافة العباسية ومقصد المسلمين جميعا فى المشرق والمغرب. وكانت مصر لا يزال يوجد بها أثر واضح للتشيع فى أوائل

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٢٧ — ١٤٠.

(٢) السخاوى : التبر المسبوك ص ١٣ — ١٤.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٢٨.

عصر المماليك، على الرغم من الجهود التى بذلها صلاح الدين وخلفاؤه لتدعيم مذهب السنة عقب إسقاط الخلافة الفاطمية . ولكن سلاطين المماليك اتبعوا سياسة واضحة للقضاء على تلك الآثار الشيعية المتخلفة عن العصر الفاطمى فى مصر ، حتى خفت آثار التشيع بالبلاد فى صورة واضحة فى أواخر ذلك العصر(١). من ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧م) من تحريم أى مذهب عدا المذهب السنية الأربعة ، بحيث لا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس إلا إذا كان من أتباع أحد المذاهب السنية الأربعة(٢) .

وخير ما يدل على إتساع دائرة النشاط الدينى فى عصر سلاطين المماليك كثرة المنشآت الدينية التى أقيمت فى ذلك العصر . ومازالت القاهرة وكثير من المدن فى مصر والشام تمتلىء بالجوامع الجميلة الرائعة التى تنسب إلى سلاطين المماليك ، حتى لقد قدر خليل بن شاهين عدد المساجد بمصر والقاهرة على عصر سلاطين المماليك بأكثر من ألف مسجد(٣) . وقلما نجد سلطانا من سلاطين المماليك لم يؤسس مسجداً أو أكثر ، بل يقال أن الناصر محمد وأمراءه شيدوا وحدهم ثمانية وعشرين مسجداً(٤) . ولم تستخدم المساجد فى ذلك العصر فى العبـــادة فحسب ، بل استخدمت أيضاً كمدارس يقصدها المعلمون والمتعلمون .

على أن أهم ظاهرة اتصفت بها الحياة الدينية فى عصر المماليك كانت انتشار التصوف . ومن الثابت أنه وفد على مصر فى القرن السابع الهجرى

---

(١) محمد كامل حسين : التشيع فى الشعر المصرى فى عصر الأيوبيين والمماليك ص ٧٣ — ٧٤
(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٤ ص ١٦١ .
(٣) خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٣١ .
(٤) زيتر شتين : تاريخ المماليك ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

كثير من مشايخ الصوفية — معظمهم من المغرب والأندلس — مثل أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وأبى القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى — وهؤلاء وجدوا فى مصر تربة صالحة لنشر تعاليمهم ومذاهبهم[1]. ولم يلبث أن انقسم الصوفية إلى فرق، لكل فرقة شيخها وشعارها ، فازداد عدد المصريين الذين أقبلوا على هذا اللون الجديد من ألوان الحياة الدينية ، وأخذ السلاطين يتقربون إلى الله ببناء الخانقاوات ووقف الأوقاف عليها والعطف على الصوفية ومشايخهم . من ذلك ما نسمعه عن السلطان برقوق من أنه رتب للمدرسة التى أنشأها بين القصرين عددا من الصوفية وقرر لهم مرتبات وفيرة[2] أما عامة الشعب المصرى فى عصر سلاطين المماليك فقد آمنوا بالصوفية إيمانا راسخا، فقصدوهم لمشاركتهم فى أذكارهم أو لقضاء حوائجهم ، حتى وصفوا الصوفية بأنهم « ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء »[3] .

ولا شك فى أن ازدياد تيار التصوف فى مصر على عصر سلاطين المماليك كان له أثره الخطير فى الحياتين الاجتماعية والفكرية . وينادى بعض المفكرين بأن المتصوفة صبغوا القيم والمثل العليا بصبغة الزهد، والرغبة عن الدنيا ومتاعها والإتجاه نحو الآخرة والعمل لها . وترتب على هذه الإتجاهات نشر روح الإستكانة والقناعة بالقليل والتذلل للحكام بين عامة الناس، مما ظلت بقاياه فى نفوس الكثيرين أمداً طويلا .

الحياة العلمية :

ازدهرت الحركة العلمية فى مصر على عصر سلاطين المماليك إزدهاراً

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦٠٠ (طبعة كاليفورنيا) .

(٣) الذهبى : تاريخ الإسلام ج ٣٢ ص ٤١ — ٤٢ ، النويرى السكندرى : الالمام بالاعلام ج ٢ ص ٥١٧ — ٥١٨ .

واسعا ، فغدت البلاد محوراً لنشاط علمى متعدد الأطراف . ويرجع السبب فى ذلك إلى ماأصاب أنحاء العالم الإسلامى فى العراق على أيدى المغول وفى الأندلس على أيدى الصليبيين،فضلا عما أصاب بلاد الشام من أضرار على أيدى الصليبيين والمغول جميعا . وفى وسط تلك الغمة التى ألمت بالوطن العربى منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) لم يجد علماء المشرق والمغرب بلداً عربيا آمنا تطيب لهم فيه الحياة سوى مصر التى غدت مركزاً للخلافة العباسية ، « وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء »[١] .

والغريب أن المماليك — وهم من أصول غير عربية متعددة — كان لهم أثر واضح فى ازدهار النشاط العلمى فى مصر . من ذلك مانسمعه عن عن ولع بعض السلاطين مثل الظاهر بيبرس بسماع التاريخ[٢] ، وحرص البعض الآخر — مثل الغورى — على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة وحضورها ، بل المشاركة فى المسائل العلمية التى تثار فى تلك المجالس[٣] . أما أمراء المماليك ، فقد وجد منهم من اشتغل بالتاريخ والفقه والحديث واللغة العربية ، بل تصدى بعضهم لاقراء الطلبة والتدريس لهم[٤] .

وخير مايدل على ازدهار الحياة العلمية فى عصر المماليك ، هو عظم الثروة العلمية التى وصلتنا من ذلك العصر بالذات . وما زالت دور الكتب فى جميع أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التى ترجع إلى عصر سلاطين المماليك بمصر ، والتى تناولت معظم ألوان المعرفة : الأدب والتاريخ والجغرافيا والعلوم الدينية والطب والفلاحة والأدب والمعارف العامة . . . وغيرها .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ح ٢ ص ٨٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم ح ٧ ص ١٨٢ .

(٣) عبد الوهاب عزام ، مجالس الغورى ص ٤٩ .

(٤) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٤٢ .

فإذا أضفنا إلى هذه المخطوطات النسبة الضئيلة التى طبعت من تراث العصر المماليكى ، والكتب التى فقدت ولم نعد نعرف عنها سوى أسماءها وأسماء مؤلفيها ، أدركنا أن مصر شهدت فى عصر المماليك نشاطا علميا فائقا لم تشهد مثله فى عصر آخر من تاريخها الوسيط .

ففى الأدب عرف عن سلاطين المماليك تقريبهم الأدباء ، هذا وإن كان يؤخذ على الأدب شعرا ونثرا ضعف اللغة الفصحى نتيجة للإختلاط بالأعاجم ، فضلا عن دخول كثير من الألفاظ العامية . وقد اشتهر من شعراء مصر فى ذلك العصر البوصيرى المصرى صاحب البردة وتعرف باسم « الكواكب الدرية فى مدح خير البرية » وهى فى ١٦٢ بيتا ؛ وقد توفى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٦٦ م)[١] . وتوفى فى نفس هذه السنة سراج الدين الوراق وكان شاعرا كثير النظم صحيح المعانى عذب التورية عارفا بالبديع[٢] . أما شهاب الدين العزازى المتوفى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) فكان بزازا يعمل فى قيسارية جركس بالقاهرة ، وله ديوان فى خمسة أبواب ، وأجاد فى الموشحات وامتاز شعره بالظرف وخفة الروح[٣] . وهناك ابن نباته المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٧ م) وقد نبغ فى النظم والنثر ، ومثله ابن أبى حجلة نزيل القاهرة الذى توفى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) ومن شعراء ذلك العصر من يرجع إلى أصل مماليكى مثل على بن سودون البشغاوى المتوفى سنة ٨٧٨ هـ (١٤٧٣م) . بل لقد كان السلطان قانصوه الغورى نفسه المتوفى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) شاعرا ، وله ديوان غير منشور حتى الآن[٤] .

أما الأدباء الذين اشتغلوا بالنثر فهم عديدون ، منهم القلقشندى المتوفى

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٤٥ ، ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) الكتبى ، فوات الوفيات ج ٢ ص ١٠٧ ، ابو المحاسن : النجوم ، ج ٨ ص ٨٣ .

(٣) الكتبى ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٤٨ .

(٤) الكواكب السائرة ج ١ ص ٢٩٤ .

سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) وله كتب عديدة أهمها موسوعة صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، وشمس الدين النواجى المتوفى سنة ٨٥٩ هـ (١٤٥٥م)، وقد نسب إلى نواج إحدى قرى الغربية، وله كثير من الآثار الأدبية شعرا ونثرا، منها حلبة الكميت،وهو كتاب فى الخمر وما قيل فيها والندماء ومجالسهم وآدابهم . . . وختمه بفصل فى التوبة وذم الخمر[1] .

وفى ذلك العصر كثر الاشتغال باللغة وعلومها ، وظهر من علماء اللغة كثيرون على رأسهم ابن منظور المصرى المتوفى سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وله كثير من المؤلفات،على رأسها لسان العرب ، المعجم الشهير[2] . كذلك اشتهر من علماء اللغة ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) والدماميني السكندرى المتوفى سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤ م) .

على أن أبرز العلوم فى عصر سلاطين المماليك كان بحق علم التاريخ ، إذ ظهر فيه طائفة كبيرة من المؤرخين تركوا لنا تراثاً ضخماً . منهم من أصحاب السير ابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) ، وقد كتب كتابا فى سيرة السلطان الظاهر بيبرس وآخر فى سيرة الأشرف خليل بن قلاون. وهناك أيضاً من كتاب السير ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤م) والقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧ م) وغيرهم كثيرون[3] . ولم يقف الأمر عند حد النشاط فى كتابة السير الفردية بل ظهر فى عصر المماليك جماعة من المؤرخين وجهوا نشاطهم نحو تأليف كتب الطبقات مثل ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، وقد توفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م)؛ والادفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) صاحب كتاب الطالع السعيد

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٧٠ .

الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨م) صاحب كتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة[١] ، وشمس الدين السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م) صاحب كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، والسبكى صاحب كتاب طبقات الشافعية .

وهناك فريق من مؤرخى ذلك العصر اختاروا أن يؤلفوا كتبا عن بلد معين أو دولة بعينها مثل جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) صاحب كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، وابن دقاق المصرى المتوفى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) صاحب كتاب نزهة الأنام وكتاب الإنتصار بواسطة عقد الأمصار[٢] ، وتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) صاحب كتاب المواعظ والاعتبار وكتاب السلوك ، وأبو المحاسن يوسف ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) وهو من أصل مماليكى ومن كتبه النجوم الزاهرة والمنهل الصافى[٣] . . . وغيرهم كثيرون. أما أصحاب التواريخ العامة فلا يقلون عدداً ، منهم بيبرس المنصورى وهو أحد أمراء المماليك توفى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ هـ) وله كتاب زبدة الفكرة ، وبدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) وله كتاب عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، وغيرهما خارج مصر كثيرون .

أما فى علوم الجغرافيا والسياسية والادارة فقد كتب شرف الدين بن الجيعان سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥ م) كتاب التحفة السنية فى أسماء البلاد المصرية ويشتمل على إحصاءات إدارية وخراجية عن أرض مصر . وكذلك كتب نجم الدين أحمد بن الرفعة المصرى الشافعى — محتسب القاهرة المتوفى سنة ٧١٠ هـ

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) شذرات الذهب ج ٧ ص ٨٠ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون المصريون فى القرن التاسع الهجرى .

(١٣١٠ م) كتاب « بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية[١] » . وكتب حسن بن عبد الله العباسي كتابا للملك المظفر السلطان بيبرس المنصوري ، واسمى كتابه آثار الأول فى تدبير الدول ، رتبه على أربعة أقسام : فى الضوابط والأصول وقواعد المملكة ، وفى أحوال الملك فى ذاته مع خواصه وخدمه ، وفى الأمور المختصة بالملك وخواصه وحاشيته ، وفى الحروب وشروطها وما يتعلق بها برا وبحرا. ويحوى هذا الكتاب كثيراً من الفوائد السياسية والاجتماعية والإدارية .

وثمة ظاهرة امتازت بها الحياة الفكرية فى عصر سلاطين المماليك ، هى الاقبال الشديد على تأليف الموسوعات الضخمة،التى تحوى الموسوعة الواحدة منها كثيراً من المعلومات المتنوعة المتباينة . وبالإضافة إلى كتاب صبح الأعشى فى صناعة الأنشا للقلقشندى وهو الذى سبق أن أشرنا إليه ، هناك كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢م) وهو موسوعة كبيرة تقع فى نيف وثلاثين مجلدا قسمها مؤلفها إلى خمسة فنون، الأول فى السماء والآثار العلوية، والثانى فى الإنسان وطبائعه، والثالث فى الحيوانات الأخرى، والرابع فى النبات على اختلاف أشكاله، والخامس — وهو أكبرها وأهمها — فى التاريخ[٢] . أما ابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧م) فقد كتب موسوعته الشهيرة مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار وتقع فى بضعة وعشرين مجلدا تناولت فنون الأدب والتاريخ والجغرافيا والتاريخ الطبيعى وغيرها . هذا فضلا عما كتبه السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) وغيره من عديد المؤلفات التى يضيق البحث عن ذكرها كلها[٣] .

---

(١) السبكى ، طبقات الشافعية ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢) السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٠ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ ص ٢٤٤ — ٢٥٠ .

وكان للعلوم الإسلامية نصيبها فى تلك الحركة الواسعة ، فظهر من كتب فى الفقه مثل خليل بن اسحق المالكى المصرى المتوفى سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦م)، وتقى الدين السبكى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) ، كما ظهر من كتب فى التصوف مثل تاج الدين بن عطاء الاسكندرى المتوفى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م).

وأخيراً ، فقد كان للعلوم التطبيقية والطبيعية حظها من كتابات عصر سلاطين المماليك ، فوجد من العلماء من كتب فى الهندسة والنجوم والفلك ، مثل شهاب الدين بن طيبغا القاهرى المتوفى سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م)، ووجد من كتب فى الزراعة والفلاحة مثل طيبغا الجركسى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) ؛ واشتهر ممن كتب فى علم الحيوان كمال الدين محمد بن عيسى الدميرى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) صاحب كتاب حياة الحيوان الكبرى ، وقد توسع فيه فى وصف كل حيوان وخصائصه، بالإضافة إلى ماجاء فى الحديث والاشعار والأمثال بشأنه ، مما جعل قيمته الأدبية والتاريخية لا تقل عن قيمته العلمية البحته[1] .

وثمة مظهر آخر هام يعبر عن ازدهار الحياة العلمية فى عصر سلاطين المماليك ، هو العناية بإنشاء المؤسسات التعليمية من مدارس ومكاتب وغيرها . أما المدارس فكانت بمثابة معاهد التعليم العالى — أشبه بالجامعات اليوم — يخصص لكل مدرسة منها المدرسون وتلحق بها خزانة كتب كبيرة ، ويؤمها الطلاب لتحصيل العلم والمعرفة[2] . وقد حرص سلاطين المماليك على محاكاة سلاطين الأيوبيين فى إنشاء عدد كبير من المدارس مثل المدرسة الظاهرية التى أنشأها الظاهر بيبرس والمدرسة الناصرية التى أنشأها الناصر محمد بن قلاون ، وعينوا لتلك المدارس المدرسين والمعيدين

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٠٧ ، الضوء اللامع للسخاوى ج ١٠ رقم ٢٠٤
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٤٦٧ ، ج ١١ ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

والموظفين ، ووقفوا عليها الأوقاف الغنية لتضمن للطلاب والمدرسين قدراً من الحياة الهادئة تجعلهم ينصرفون إلى الاشتغال بالعلم آمنين مطمئنين [١] .

وإذا كان التعليم العالى قد وجد قسطا كافيا من العناية فى المدارس ، فإن التعليم الابتدائى نهضت به المكاتب التى أنشأ عدد كبير منها فى عصر سلاطين المماليك . ويبدو أن الغرض الأول من انشاء المكاتب فى ذلك العصر كان تعليم الايتام المسلمين ، الأمر الذى دفع طلاب الثواب إلى انشاء مزيد من المكاتب، وحبس الاوقاف عليها للعناية بأمر الايتام وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم [٢] . وقد خصص لكل مكتب مؤدب يساعده عريف، ويقوم المؤدب وعريفه بتعليم الصغار الكتابة وتحفيظهم القرآن . ولما كانت مهمة تعليم الصغار وتربيتهم مهمة شاقة عسيرة، لذلك اشترطت فى المؤدب والعريف شروط دقيقة خاصة ، منها العقل والدين وحسن الخلق والبعد عن القسوة والعنف [٣] .

الإدارة ونظم الحكم والقضاء :

تزعم دولة المماليك سلطان لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعى موروث، وإنما رشحته قوته ومواهبه وكثرة مماليكه لتولى ذلك المنصب . فإذا توفى السلطان القائم أتيحت الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه فى الحكم . وربما رأى ذلك الأمير أن الظروف غير مواتية وأن هناك من زملائه الأمراء من ينافسه، فيلجأ فى تلك الحالة إلى تعيين ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، لا إعتقاداً من المماليك فى أحقية ذلك الابن ، ولكن كحل مؤقت حتى

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٣٠ ص ٣٤١ ب وما بعدها
(٢) المقريزى : المواعظ ج ٣ ص ١٦٣
(٣) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ص ١٥٠ — ١٥٢

يتجلى الموقف ، وعندئذ يسهل على أقوى الأمراء عزله واعتلاء عرش السلطنة بدله .

ومع أن سلطان المماليك تمتع بنفوذ واسع فى الدولة ، وبخاصة فيما يتعلق بعض الأمراء وملأ المناصب الكبرى فى الدولة وتوزيع الاقطاعات ؛ إلا أنه لم يستغن فى أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة فى مهام الأمور ، وبخاصة فى المسائل المتعلقة بشن الحرب أو عقد السلم . ولذلك وجد فى عصر المماليك مجلس المشورة الذى كان يعقد برآسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه ، وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسى والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرين أميراً . هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه ، وإنما ترك ذلك لرغبة السلطان ومشيئته[1] .

وقد وجد إلى جانب سلطان المماليك عدد من كبار الموظفين ، مهمتهم مساعدته فى شئون الحكم والإدارة . وعلى رأس هؤلاء الموظفين الكبار يمكننا أن نعدد : —

١ — نواب السلطنة : وجد نائب السلطان بالقاهرة ، هو مساعد السلطان الأيمن فى تصريف شئون الدولة ، ويشترك معه فى توزيع الإقطاعات ومنح ألقاب الإمارة . وإذا كان هذا النائب ينوب عن السلطان فى حضوره صار لقبه « نائب الحضرة » أما إذا كان لا يجوز له أن ينوب عن السلطان إلا فى غيبته ، فيكون لقبه « نائب الغيبة » وهو أقل درجة من الأول .

وقد وجد للسلطان نواب فى البلاد الشامية — فى دمشق وحلب

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ح ٤ ص ١٦—١٧

وطرابلس وحماه وصفد والكرك . وأعلى هؤلاء درجة هو نائب دمشق الذى أطلق عليه « نائب الشام »[1] .

٢ — الأتابك ؛ وهو القائد العام للجيش المماليكى ، وقد أتاحت له وظيفته التمتع بنفوذ كبير فى الدولة .

٣ — الوزير ، وقد تضاءلت وظيفته فى عصر المماليك نتيجة لوجود نائب السلطنة ، بحيث لم تعد اختصاصاته تنفيذ تعليمات السلطان ونائب السلطنة والأشراف على شئون الدولة المالية .

أما الإدارة المحلية فى المدن والأقاليم فقد تولى الإشراف عليها عدد كبير من الولاة اختيروا دائماً من بين الأمراء . وهناك مدينة واحدة فى مصر — وهى مدينة الإسكندرية — عين لها نائب سلطنة سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥م). ويبدو أن الخطر الصليبى الذى تمثل فى حملة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الإسكندرية فى تلك السنة كان له أثر فى ذلك الإجراء الإدارى . أما القاهرة فكان لها وال يشرف على شئونها ويتعقب المفسدين فيها ويحمى أهلها من الأشرار والعابثين ، وبالجملة فقد كان منصبه يشبه منصب محافظ القاهرة اليوم . كذلك وجد فى الوجهين البحرى والقبلى ولاة قاموا بحكم الأقاليم والأعمال ، وكان عددهم عشرة فى الوجه البحرى وثمانية فى الوجه القبلى . وفى عصر دولة المماليك الجراكسة وجد نائب لكل من الوجهين البحرى والقبلى مهمته الإشراف على جميع الولاة والعمال الذين يقومون بإدارة شئون الوجه التابع له[2] .

وقد اعتمد هذا الجهاز الادارى الضخم على مجموعة من الدواوين الكبيرة .

---

(١) العمرى ، التعريف ص ٦٥ — ٦٦ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ح ٤ ص ١٦ — ١٧

(٢) القلقشندى صبح الأعشى ح ٤ ص ٦٤

التي ضمت عدداً ضخما من الموظفين لإدارة مرافق الدولة المتنوعة . وأهم هذه الدواوين هي : —

١ — ديوان الجيش ، ومهمته الإشراف على طوائف الجند ، وتوزيع الاقطاعات عليهم .

٢ — ديوان الانشاء ، ومهمته تلقى الرسائل المختلفة التي ترد إلى السلطان وإبلاغها إليه وإعداد الردود عليها، وكانت تتبع هذا الديوان إدارة البريد ، وهي إدارة ضخمة في عصر المماليك تولت شئون البريد البرى والجوى[1].

٣ — ديوان الأحباس ، أى الأوقاف ؛ ويقوم صاحبه برعاية شئون المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد ومدارس وزوايا . . . كما يشرف على الأراضى والعقارات المحبوس عليها .

٤ — ديوان النظر ، وقد اختص بمراقبة حسابات الدولة ، والإشراف على إيراداتها ومصروفاتها وما يتبع ذلك من القيام بصرف مرتبات الموظفين . وكان جانب من هذه المرتبات يصرف نقدا فى حين صرف الجانب الآخر عينا من غلات ولحوم وتوابل وسكر وشمع[2] . . .

أما عن شئون القضاء والعدالة ، فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيراً من اهتمامهم وعنايتهم . وكان أهم تطور حدث فى النظام القضائى فى عصر المماليك هو ماقام به السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٥م) من تعيين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين أن يقتصر ذلك المنصب على قاضى قضاة واحد

---

(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ص ١٠٤ وما بعدها ، ج ١ ص ١١٥

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٣٥٢ .

هو الشافعى[1] . وقد قام القضاة فى ذلك العصر بدور هام فى المجتمع، إذ امتدت اختصاصاتهم إلى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية . وكانت جلسات المحاكم تعقد فى دور القضاء ، فإن لم توجد فإنها تعقـــد عادة فى المساجد .

وقد وجدت محكمة عليا تعقد فى دار العدل برئاسة السلطان وعرفت باسم محكمة المظالم ، ومهمتها النظر فى القضايا التى اختص السلطان بالنظر فيها مباشرة أو التى يستأنفها أصحابها أمام السلطان بعد أن يحكم فيها القضاء العادى. أو تلك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين. أما رجال الجيش ، فكان لهم « قضاة العسكر » ؛ وهم مختصون بشئون الجند وليس لهم ولاية على غيرهم ، كما كانوا يفصلون فى القضايا الناشئة بين العسكر والمدنيين، وقد جرت العادة أن يصحب قضاة العسكر السلطان فى أسفاره[2] .

الجيش والبحرية :

إذا حاول أن يعثر الباحث على صفة بارزة لدولة سلاطين المماليك فى مصر فلن يجد خيراً من أن يصف هذه الدولة بأنها دولة إقطاعية حربية. فطبيعة المماليك ونظامهم والرغبة فى اقتنائهم نبعت من فكرة أساسية واحدة هى تكوين فئة من المحاربين الأشداء وإعدادهم ليكونوا درعاً حامياً لأساتذتهم الذين قاموا بشرائهم وتعهدوهم بالتربية . ولا يكاد المملوك يدرك سن البلوغ حتى يشرع فى تعليمه فنون الحرب، من « الرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية[3] » وعندما ينتهى المملوك من هذه المرحلة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ .
(٣) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ٥٢٤ .

التعليمية ينقل إلى الخدمة ويمر بأدوارها رتبة بعد رتبة حتى يصير من الأمراء[1].

وهو فى أول الأمر يتقاضى جامكية — أى مصروفا — يتدرج من ثلاثة دنانير إلى خمسة إلى سبعة إلى عشرة ، ولكنه بعد ذلك ينقل من الجامكيات إلى الاقطاعات وإلى أمرة العشرات ثم إلى الطبلخانات ، ومنهم من ينقل إلى تقدمة الألوف وإمرة المئين . وهو إذا كان مملوكا فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وزمام نصف قرية ، أما إذا أصبح أميراً فإن إقطاعه يتراوح بين زمام قرية وعشر قرى[2] .

وتولى السلطان بنفسه توزيع الإقطاعات فى معظم الحالات ، فإذا تقدم إليه المملوك ، سأله عن إسمه وأصله وتاريخ قدومه إلى الديار المصرية وأستاذه الذى اشتراه من تاجره ، وصفاته حتى أصبح فارسا[3] . فإذا وقع اختيار السلطان عليه ليمنحه إقطاعا ، أمر ناظر الجيش بأن يكتب له ورقة تسمى المثال تحدد حدود إقطاعه : ثم تخرج الوثيقة النهائية للاقطاع من ديوان الإنشاء . وعلى هذا فقد كان الإقطاع فى عصر المماليك يرتبط إرتباطا قويا متينا بديوان الجيش، حتى لقد أطلق على هذا الديوان إسم ديوان الإقطاع. وعبر القلقشندى عن ديوان الجيش بأنه « مظنة الإقطاع » أى سجله ومركزه، فقال ما نصه « إعلم أن مظنة الإقطاعات هو ديوان الجيش دون ديوان الإنشا ، وما يكتب فيه من ديوان الإنشا هو فرع ما يكتب من ديوان الجيش[4] ». وهكذا ارتبط الجيش بفكرة الإقطاع فى عصر المماليك، الأمر الذى جعلنا نختار صفة الإقطاع الحربى لنصف بها تلك الدولة .

وإذا كان ديوان الجيش يشرف على شئون الجيش فى عصر المماليك ،

---

(١) المقريزى : المواعظ : ج ٣ ص ٣٤٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ ، Paliak :, Feudalism in Egypt.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥١ — ٥٢ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٣

فإنه روعى أن يكون على رأس هذا الديوان ناظرا على درجة كبيرة من الكفاية ، يعاونه مجموعة من كبار الموظفين الأكفاء ، أهمهم صاحب ديوان الجيش وينوب عن ناظر الجيش فى حالة غيابه ، ومستوفى الجيش ويقوم بتحديد مرتبات الجند وحفظ بيان بها فى سجلاته ، فى حين يقوم بصرف هذه المرتبات للجند موظف ثالث يطلق عليه لقب مستوفى الرزق . وجميع هؤلاء الموظفين روعى فيهم الكفاية المتناهية ، وأختير لمساعدتهم مجموعة من الكتاب والشهود من ذوى الخبرة (١) .

وقد تكون الجيش فى عصر سلاطين المماليك من ثلاث فرق أساسية ، الفرقة الأولى عبارة عن طائفة المماليك السلطانية — أى مماليك السلطان القائم بالحكم ، وقد وصفهم القلقشندى بأنهم «أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدراً وأشدهم قرباً وأوفرهم إقطاعا ،ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة» (٢) والفرقة الثانية تشمل طائفة مماليك الأمراء ، أى الذين أشتراهم الأمراء المحيطون بالسلطان ، كل حسب درجته ورتبته، وتعهدوهم بالرعاية ، ومن هؤلاء كانت تتكون الوحدات الحربية التى ترافق السلطان فى حروبه ، وكل وحدة تتألف من أمير على رأس مماليكه . وأخيراً تأتى الفرقة الثالثة وهم طائفة أجناد الحلقة ، وهم مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم الذين احترفوا الجندية وأصبحوا بمثابة جيش ثابت للدولة لايتغير بتغير السلطان، ويشرف على كل ألف منهم وقت الحرب أمير مائة مقدم الف ، أى أمير له الحق فى امتلاك وشراء مائة مملوك لنفسه ويقود فى وقت الحرب ألف جندى من أجناد الحلقة (٣) .

وإذا نحن تكلمنا عن الجيش فى عصر سلاطين المماليك ، فإنه ينبغى أن

---

(١) الخالدى : المقصد الرفيع ، ص ١٣٦ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص١٥ .
(٣) العمرى ، مسالك الأبصار ، ج ٥ ص ١٦٦ ، والمرجع السابق .

نتذكر أمجاد ذلك العصر ، ونضع نصب أعيننا الإنتصارات التى حققتها الجيوش المماليكية فى مختلف الجهات . وحسب الجيش فى عصر سلاطين المماليك أنه طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام ، وأنزل الهزيمة بالتتار فى عين جالوت ، ووقف بالمرصاد لكل محاولة من جانبهم للعدوان على الشام ، ودمر مملكة أرمينية الصغرى فى قيليقية ، وغزا بلاد النوبة وأخضع مملكتها . ومن البديهى أن جيشا من الجيوش لا يستطيع تحقيق هذه المكاسب الضخمة إلا إذا توافر له من الإمكانيات وحسن النظام ودقة التدريب ما ساعده على ذلك .

ونجد فعلا فى المصادر المعاصرة كثيراً من الأوصاف التى تعطى صورة واضحة لدقة تنظيم الجيش المماليكى ، فالسلطان لا يقدم على حرب عادة إلا بعد إستشارة « مجلس الجيش » الذى يضم كبار الأمراء فضلا عن الخليفة وقضاة القضاة الأربعة . فإذا تقررت الحرب جمع الجند وأقسموا يمين الطاعة والولاء للسلطان ، وعندئذ تفتح السلاح خاناة أبوابها لتوزيع السلاح على المحاربين . أما عن نظام الجيش وقت المعركة فكان يقوم على أساس ترتيب الجند على هيئة صفوف متراصة تكون أقسام الجيش الثلاثة — وهى القلب والميمنة والميسرة — فضلا عن المقدمة ، ويكون القائد العام للحملة عادة فى قلب الجيش ، وربما فى مقـــدمته ليستثير روح الإقدام والشجاعة فى الجند . وكانت الطبول والموسيقى جزءاً أساسياً فى الجيش المماليكى ، فكانت تحمل على عشرين بغلا ، ويعتمد عليها فى تنظيم الحركة وإعطاء الإشارات ببدء القتال . . .[1] هذا فضلا عن الأعلام والرايات التى كانت تتقدم الجيش ويلتف حولها كل قسم من أقسامه .

وأخيراً ، فإنه يلاحظ أن المماليك كانوا فرسانا قبل كل شىء ، واعتمد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ح ٣ ص ٤٧٥ .

نظامهم بصفة أساسية على الفروسية . لذلك كان الجيش المماليكى يتألف أساساً من الفرسان ، الأمر الذى جعلهم يهتمون بالخيول اهتماما بالغا ، ويعينون كبار الموظفين للإشراف عليها وعلى أدواتها وعددها كاللجم والسروج وغيرها ، فضلا عن الانفاق بسخاء على الاصطبلات الخاصة بالخيل .

ولكن ليس معنى تغلب صفة الفروسية على المماليك أنهم أهملوا جانب البحر والأسطول . وحسب دولة المماليك أن المؤرخين المعاصرين وصفوها بأنها دولة البرين والبحرين ، بمعنى أنها ملكت بر مصر وبر الشام ، وأطلت على البحرين الأبيض والأحمر .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن أية دولة تقوم فى أرض مصر لابد وأن ترعى شئون الأسطول لتؤمن نفسها وتحمى شواطئها الطويلة الممتدة شمالا وشرقا .

وإذا كان سلاطين بنى أيوب قد أهملوا شأن الأسطول بعد صلاح الدين — كما سبق أن أوضحنا فى الباب السابق — فإن الظروف التى قامت فيها دولة المماليك جاءت نتيجة مباشرة لحملة لويس التاسع على مصر فى أواسط القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد)، وهى حملة بحرية أتت عن طريق البحر ، واعتمدت على البحر فى الاحتفاظ بصلاتها بالقوى المسيحية المظاهرة لها . والمماليك هم أول من أنزل الهزيمة بلويس التاسع وجنوده فى المنصورة ثم فى فارسكور ، الأمر الذى أكسبهم مكانة ساعدتهم فى القضاء على دولة سادتهم بنى أيوب وإقامة دولة تحمل إسمهم فى التاريخ . لذلك كان من الطبيعى أن يدرك سلاطين المماليك الأوائل — وهم الذين شاركوا فى محاربة لويس التاسع أيام أن كانوا مجرد أمراء — خطورة الأسطول بالنسبة لأمن العباد وسلامة البلاد .

وهكذا ما كاد السلطان الظاهر بيبرس يرتقى دست السلطنة حتى نظر

فى أمر الشوانى الحربية واستدعى رجال الأسطول . . . ومنع الناس من التصرف فى الأخشاب وتقدم بعمارة الشوانى فى ثغرى الاسكندرية ودمياط وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر ويرتب مايجب ترتيبه من عمل الشوانى ومصالحها . واستدعى شوانى الثغور إلى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد ، فإنها كانت عدة كثيرة . . . »[1]

ومرعان ماصدق ظن بيبرس ، إذ أخذت دولة المماليك فى مصر والشام تحس إحساساً شديداً بالضغط البحرى الذى تمارسه مملكة لوزجنان الصليبية فى قبرص ، سواء من ناحية مساعدة البقايا الصليبية بالشام أو من ناحية قطع الطريق على السفن الإسلامية فى عرض البحر[2] . وماكاد بيبرس يطمأن إلى قوة أسطوله حتى عزم على تأديب قبرص وملوكها ، فأرسل إليها حملة عدتها سبع عشرة سفينة كبيرة بقيادة الرئيس البحرى ابن حسون . غير أن ريحا عاتية هبت على السفن المماليكية قرب شواطىء قبرص فحطمت منها أحد عشر شينيا . وعندما أرسل ملك قبرص يعيب على بيبرس انكسار سفنه ، رد عليه بيبرس برسالة طويلة جاء فيها « أنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول » ؛ وفى هذه الإشارة إعتراف صريح بأن أساس قوة دولة المماليك فرسانها وجيوشها البرية لا أساطيلها البحرية[3].

ومع ذلك فإن بيبرس لم يهمل شأن الأسطول وإنما عاود الكرة وسعى بسرعة لتعويض الخسارة ، فأمر بإنشاء عشرين شينيا « وأحضر خمسة شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر ؛ ولزم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم فى مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائة إلى أن تنجزت .. »[4]

---

(١) المقريزى : المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٤٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤) المقريزى : المواعظ ، ج ٢ ص ١٩٤ .

ولاشك فى أن الأسطول المماليكى كان له دور كبير فى مساندة القوات البرية التى قامت بتطهير بلاد الشام من آخر البقايا الصليبية ، وخاصة أن هذه البقايا الكبرى — وهى انطاكية وطرابلس وعكا — كانت كلها موانى بحرية . وإذا كان السلطان الأشرف خليل بن قلاون هو صاحب الفضل فى الاستيلاء على آخر هذه البقايا وهى مدينة عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ، فإن ذلك جعل الأشرف أكثر إحساساً بأهمية الأسطول لدولته . لذلك لم يكن عجيبا أن يهتم السلطان الأشرف خليل اهتماما خاصا بأمر الأسطول « فنزل إلى (دار) الصناعة واستدعى الرئيس ، وهيأ جميع ما تحتاج إليه الشوانى، حتى كملت عدتها نحو ستين شونة وشحنها بالعدد وآلات الحرب ورتب بها عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح ... »[1] .

وثمة حقيقة كبرى ، هى أن طرد الصليبيين نهائيا من الشام فى أواخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) ضاعف من أهمية العامل البحرى فى شرق البحر المتوسط . لأنه جعل الحروب الصليبية تتحول من معارك برية إلى معارك بحرية . ذلك أن البابوية لم تجد وسيلة للإنتقام من سلطنة المماليك سوى تهديدها فى نشاطها التجارى ، فاستغلت موقع جزيرة قبرص فى قطع الطريق على السفن التجارية الأيطالية التى رفض أصحابها الإذعان لتعاليم البابوية واستمروا يواصلون نشاطهم التجارى مع سلطنة المماليك[2] . هذا إلى أن ملك قبرص قام سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) بحملة صليبية بحرية على الاسكندرية دمر فيها المدينة وأتى من أعمال الوحشية ما استثار نفوس المسلمين جميعاً[3] . وهكذا تحولت الحروب الصليبية فى القرنين الثامن

---

(١) المرجع السابق : ص ١٩٥ .

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٢ وما بعدها .

(٣) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٥٧ وما بعدها .

والتاسع للهجرة (الرابع عشر والخامس عشر للميلاد) إلى حروب بحرية، وخاصة بعد أن دخلت رودس فى حلبة هذه الحروب ودأب الفرسان الاسبتارية برودس على تهديد دولة المماليك وتجارتها فى البحر[١] .

وهنا قام الأسطول المماليكى بعمل خالد فى التاريخ ، إذ أرسل السلطان الأشرف برسباى ثلاث حملات سنة ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩ هـ(١٤٢٤،١٤٢٥، ١٤٢٦م) لغزو قبرص ، ونجح فعلا فى أخضاع الجزيرة فى الحملة الأخيرة وتم أسر ملكها جانوس ، وعاد الأسطول المماليكى بحمل مئات الأسرى وعلى رأسهم الملك نفسه حيث تم استعراضهم فى شوارع القاهرة[٢] .

وبعد قبرص جاء دور رودس ، فأرسل السلطان جقمق ثلاث حملات بحرية ضد رودس سنة ٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨ هـ (١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤م). ونجح فى تأديبها وإن لم يستطع إخضاعهـــا لسلطنة المماليك كما حدث فى حالة قبرص[٣] .

وهكذا ظل الأسطول فى عصر سلاطين المماليك يقوم بدوره كاملا فى الدفاع عن البلاد ومواجهة الأعداء حتى نهاية تلك الدولة . وفى أواخر عصر المماليك ظهر خطر البرتغاليين واضحا على الشرق بعد أن وصلوا إلى الهند عن طريق الطواف حول أفريقية . الأمر الذى مكنهم من تهديد البلاد الإسلامية فى جنوب آسيا وعند مدخل البحر الأحمر، فضلا عن تهديد سلطنة المماليك فى أعز ما تمتلك ، أعنى احتكار التجارة بين الشرق والغرب . وفى المعركة الحتمية بين المماليك والبرتغاليين ، أدرك السلطان قانصوه الغورى

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١٢٣٢ وما بعدها.

(٢) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٨٤ وما بعدها.

(٣) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ١٦٩ وما بعدها .

أنها معركة البقاء، ففزع إلى الأسطول يحاول تدعيمه فى البحر الأحمر، حيث بنى عشرين سفينة كبيرة زودت بالمكاحل النحاسية والحديدية وأخذت دار الصناعة فى مصر تصنع السفن لتحمل أجزاؤها مفككة على ظهور الإبل حيث يجرى تجميعها وتركيبها على شاطىء البحر الأحمر. وكان ذلك فى المحرم سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) عندما قام الغورى بزيارة السويس لمشاهدة هذه السفن واستعراضها، حتى قيل أن نفقات بناء الأسطول فى البحر الأحمر تجاوزت أربعمائة ألف دينار. ولكن عوامل الضعف التى أخذت تنخر فى عظام دولة المماليك بعديد أجهزتها لم يسلم منها الأسطول، فلم يستطع الأسطول المماليكى الصمود أمام البرتغاليين فى موقعة ديو البحرية سنة ٩١٥هـ (١٥٠٩ م) وحلت به الهزيمة، وعاد أمير البحر حسين الكردى إلى مصر مع فلول أسطوله»(١).

هذا عن النشاط البحرى فى عصر سلاطين المماليك، أما أنواع السفن التى استخدمت فى العصور الوسطى فى الأساطيل الإسلامية فعديدة، كل نوع منها مخصص لغرض معين. ونكتفى بالإشارة السريعة إلى أهم أنواع السفن، وهى الشوانى والحراريق والطرادات والأغربة والبطس والمسطحات.

أما الشوانى ومفردها شينى فكانت أكثر السفن استعمالاً فى الأساطيل الإسلامية، وهى عبارة عن سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع، تستعمل للدفاع والهجوم، وتجهز أيام الحروب بالسلاح والمقاتلة الذين يبلغ عددهم مائة وخمسين، ويجذف الشينى مائة مجذاف(٢).

أما الحراريق أو الحراقات ومفردها حراقة، فهى سفن حربية كبيرة تقل

---

(١) حقائق الأخبار عن دولة البحار ج ٢ ص ٣٦.

(٢) المقريزى: المواعظ ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥؛ عبد الفتاح عبادة: سفن الأسطول الإسلامى ص ٤

فى حجمها عن الشوانى ، سميت حراريق لأنه كان بها مرامى النيران مثل النار الأغريقية وغيرها ، وكانت تلقى النـار منها على سفن العدو وأهدافه فتحرقها[1] .

وكانت الطراذات ومفردها طراد ، سفن صغيرة سريعة الكر والفر على عباب البحر ، وتستخدم عادة فى حمل الخيول فيحمل الطراد الواحد ما يتراوح بين أربعين وثمانين فرسا[2] .

أما الأغربة ومفردها غراب فسميت كذلك لأن رأسها يشبه رأس الغراب أو الطائر وتمثل فى الماء الطير فى الهواء . والغراب يحمل الغزاة ويسير بعدد من المجاديف يبلغ مائة وثمانين مجدافا ، ومن خصائصه أنه كان مزودا بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية[3] .

ثم تأتى البطس ومفردها بطسة ، وهى سفن كبيرة الحجم ، تسير الواحدة بعدد من الأشرعة يبلغ أربعين شراعا ، وهى أشبه بالناقلات الضخمة فتتسع الواحدة لعدد من الجنـد يصل إلى سبعمائة ، فضلا عن المحاربين والأسلحة والذخيرة والغلال والميرة . ولها أسطح عالية وطبقات متعددة[4] .

أما المسطحات ومفردها مسطح ، فنوع من أكبر سفن الأسطول الإسلامى ، سميت كذلك لأن لها سطح ، وهى كبيرة الحجم تشبه البطسة

---

(١) جميل خانكى : البحرية المصرية ص ١٢١ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٩ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٣٠ .

(٤) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٢٣١ .

كانت تسير وقت الحرب خلف السفن الأخرى خشية أن تصادف السفن الأخرى منطقة ضحلة المياه يصعب فيها العمل فعندئذ يمكن للمسطحات أن تتدارك الأمر لأن غاطسها قليل العمق فى الماء[١] .

الفنون :

فإذا انتقلنا إلى الفنون فى عصر سلاطين المماليك وجدنا ذلك العصر بمثابة العصر الذهبي لكثير من الفنون فى مصر الإسلامية . وليس من الصعب علينا تفسير هذه الحقيقة ، إذ اشتهر عصر سلاطين المماليك بالثروة والمال نتيجة للدور الذى قامت به تلك الدولة فى النشاط التجارى بين الشرق والغرب . ومع المال والثروة يكون البذخ والرغبة فى التأنق والتفنن واقتناء التحف . هذا إلى أن الفنان لا يقنع بالجهد البسيط فى عمله ، وإنما يبالغ وهو مطمئن تماماً إلى أنه سيجد من التقدير وحسن الأجر مايحفزه إلى بذل مزيد من الجهد والعناية .

ففى العمارة تشهد عمائر العصر المماليكى التى تزدان بها القاهرة اليوم من مساجد ومدارس وأضرحة وسبل وحمامات وبيمارستانات وغيرها على الذوق الجميل والرغبة فى الإبداع والتفنن . وحسبنا لفته إلى مدرسة (جامع) السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون ، بتصميمه العجيب وقبته العظيمة وأبوابه الفخمة وإيواناته العالية وزخارفه الدقيقة . . . حسبنا لفته إلى هذا البناء بالذات لنأخذ فكرة عن مدى تقدم فن العمارة فى عصر سلاطين المماليك[٢] .

ومايقال عن هذه المدرسة يمكن قوله بصورة أو أخرى عن المدافن

---

(١) Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٢) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ، ص ٧٣ .

المماليكية مثل مدفن برقوق ومدفن قايتباى بالصحراء الشرقية بالقاهرة ومجمع قلاون الذى يشمل قبة ومدرسة وبيمارستان ، وحمام بشتاك الذى لم يبق منه إلا مدخله المكسو بالرخام الملون ، وقصر قوصون خلف مدرسة السلطان الناصر حسن ، ووكالة الأمير قوصون وغيرها من بقايا وآثار ذلك العصر . وامتازت العمارة فى ذلك العصر بالعناية بواجهات المساجد وجمال ورشاقة مآذنها وزخرفة الأرضيات والوزرات بالرخام الملون وبالسقوف المذهبة . . . مما أضفى عليها روعة وبهاءاً .

أما فن النحت ، فقد استطاع الفنانون فى العصر المماليكى ابتكار أشكال فى النحت على الخشب أكثر اتقاناً مما كان عليه الوضع فى العصر الأيوبى، فابتكر فنانو عصر المماليك أشكالا جديدة من المراوح النخيلية ووحدات من الزخارف النباتية ، كما شاعت فى ذلك العصر الزخارف الهندسية المكونة من حشوات صغيرة تتألف غالباً من أشكال سداسية الأضلاع تنتظم حول شكل نجمى فى الوسط . . واستخدمت فى الحفر أخشاب مختلفة الألوان ، طعمت أحياناً بالأبنوس والعظم[١] . ويشهد على رقى فن النحت على الخشب فى عصر المماليك عديد المنابر الرائعة فى مختلف المساجد التى ترجع إلى ذلك العصر . كذلك ازدهرت فى ذلك العصر صناعة الشبكات أو المشربيات الخاصة بالنوافذ وواجهات البيوت ، وهى من الخشب المخروط . هذا فضلا عن التحف الدقيقة المصنوعة من الخشب مثل الدكك والكراسى والصناديق وغيرها .

ولم يكن النحت على الرخام والجص أقل روعة من النحت على الخشب إذ تشهد المنابر الرخامية ، والأفاريز المنقوشة، والألواح الرخامية فى الأسبلة، والشبابيك المصنوعة من الحجر المفرغ ، تشهد كلها بما فيها من نقوش منحوتة

---

(١) ديماند : الفنون الإسلامية ص ١٢٢ .

على مهارة الفنان فى عصر المماليك . وكذلك كان النحت على العاج، إذ تحوى المتاحف العالمية تحفاً عديدة من العاج ترجع إلى عصر سلاطين المماليك ، ومعظمها اقتصرت الزخرفة فيه على الأشكال النباتية والهندسية . هذا وإن كان العاج قد استخدم على وجه الخصوص فى التطعيم والترصيع ، ولاسيما حشوات المنابر وفى قطع الأثاث[١] .

أما صناعة المعادن . فقد بلغت شأواً بعيداً فى عصر سلاطين المماليك ، وامتازت التحف المعدنية التى ترجع إلى ذلك العصر بصفات خاصة وطابع مميز يجعل من السهل تمييزها. ذلك أنها جمعت بين الزخارف النباتية التقليدية وزخارف جديدة شاع استخدامها فى ذلك العصر ، مثل رسم أزواج من الطيور مرتبة داخل معينات ، كما يبدو على أبريق جميل يرجع إلى عصر السلطان الناصر محمد ، ومحفوظ فى متحف المتروبوليتان[٢] . كذلك يرجع إلى عصر المماليك عدد من الأبواب الجميلة المصفحة بالنحاس فى زخارف تؤلف الأطباق النجمية التى امتاز بها ذلك العصر وازدهرت فى عصر سلاطين المماليك صناعة التكفيت ، أى تطعيم النحاس بالذهب والفضة ، فذكر المقريزى أنه لا تكاد دار تخلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت .

أما صناعة الزجاج المطلى بالمينا فقد بلغت أوجها فى مصر والشام على عصر سلاطين المماليك ، إذ شاع استخدام الموضوعات الآدمية والحيوانية والنباتية، فضلا عن الكتابة على الأوانى الزجاجية التى صنعت فى ذلك العصر . ومازالت الكؤوس والأباريق والقوارير والمشكايات الباقية من ذلك العصر تعتبر من أجمل ماتزدان به المتاحف العالمية ؛ ومن أمثلتها دورق من الزجاج

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الإسلام ص ٥٠٤

(٢) [illegible]

المموه بالمينا محفوظ فى متحف برلين ، والمينا عليه متعددة الألوان بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض، وعليه تذهيب مازال محتفظاً ببريقه ، وعلى رقبته كتابة بالخط الثلث الجميل[1] .

ومايقال عن الزجاج يمكن تطبيقه على الخزف. ومعظم الأوانى الخزفية التى ترجع إلى ذلك العصر من النوع المرسومة زخارفه تحت طلاء شفاف، كما يزين بعض الأوانى المماليكية زخارف من الكتابة العربية على أرضية منقطعة ومنتظمة فى أشرطة أو داخل فصوص. وتوجد فى متحف المترو بوليتان مجموعة من الأوانى تمثل الخزف المماليكى فى القرن الرابع عشر ، وتتكون زخرفتها الأساسية من كتابات عربية تتضمن تمنيات طيبة لصاحب التحفة[2]

وقد وصلت إلينا أسماء بعض الخزفيين الذين عملوا فى إنتاج الخزف ذى الزخارف المنقوشة تحت الدهان ، مثل غيبى التوريزى — وهو كما يتضح من اسمه إيرانى الأصل نزح إلى القاهرة ، وغزال ، والأستاذ المصرى ، وغيرهم ممن وجدنا أسماءهم على منتجات ذلك العصر . وثمة ملاحظة أخرى هى أن الفخار المطلى بالمينا كان يستعمل بكثرة فى بيوت الأمراء ، ولذا امتازت زخارفه بالرنوك أو الشارات التى اتخذها أولئك الأمراء علامة لكل منهم[3] .

أما صناعة المنسوجات فى عصر المماليك فقد احتفظت بمستواها الراقى. وتمتاز الزخارف المطرزة من عصر سلاطين المماليك بخطوطها المتكسرة المتعرجة بسبب الأسلوب الصناعى المتبع فى صناعتها ، وهو عبارة عن غرز متتابعة متدرجة كالسلم ، يطلق عليها أحيانا اسم غرزه هلباين . وظلت

---

١ زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٦٠١

(٢) ديماند : الفنون الإسلامية ص ٢٢٠

(٣) زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٣٢٦

الأقمشة المطبوعة تستخدم فى عصر المماليك ، وكانت رسومها السائدة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر هى الأشكال المسننة والتفريعات المزهرة ذات الألوان المتباينة[1] . ويوجد فى دار الآثار العربية بالقاهرة قطعة من الحرير ، قوام زخرفها شريطان من الكتابة النسخية المماليكية ، تتكرر فيها عبارة «عز لمولانا السلطان الملك الناصر» ، وبين هذين الشريطين شريط ثالث فيه رسوم شجيرات مورقة يفصل كل شجيرة منها عن الأخرى رسم فهد يطارد غزالا .

---

(1) د عاند : الفنون الاسلامية ص ٢٥٧ .

مصادر

ابن إياس : كتاب تاريخ مصر المعروف باسم بدائع الزهور
ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر
السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك
السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة
العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان
أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد.
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك
النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب

مراجع

سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر
سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك

خاتمة

وبعد ، فإنه إذا اتصفت مصر بأنها بلد عريق ذو تاريخ أصيل : تمتد جذوره إلى أبعد من اثنين وخمسين قرنا من الزمان ؛ فإنه يتضح لنا من العرض السريع السابق فى هذا الكتاب مدى أهمية القرون الثمانية أو التسعة الواقعة بين الفتح العربى لمصر والغزو العثمانى لها ، والتى تمثل حلقة العصور الوسطى بالنسبة للتاريخ المصرى .

وحسب هذه القرون فى تاريخ مصر الطويل الحافل أنها شهدت تحول مصر إلى اللسان العربى والديانة الإسلامية ، الأمر الذى يعتبر فى حد ذاته انقلابا خطيراً فى تاريخ هذا البلد وحضارته ، مما ترتب عليه تغيير مصيره تغييراً أبدياً .

أجل ، حسب هذه القرون أنها شهدت مصر العريقة وقد خلعت ثوبها التقليدى القديم الذى مازالت بعض بقاياه قائمة تتمثل فى الأهرامات والكرنك وعمود السوارى . . . ولبثت ثوبا جديداً تتجلى به حتى اليوم ويتمثل فى أثمن مايعتز به المصريون ، وهو تراثهم الروحى والفكرى الخالد الذى ارتبط بلسان عربى مبين .

ولئن بدأت مصر عهدها الجديد وهى مجرد ولاية لاتختلف عن غيرها من عديد الولايات التى تألفت منها الدولة العربية الكبرى ؛ فإن شخصية مصر الأصيلة لم تلبث أن فرضت نفسها لتجعل منها دولة مستقلة لها كيانها الخاص داخل الإطار العربى الكبير . ومن داخل هذا الإطار انطلقت عوامل الحيوية الكامنة فى شعب مصر ، لتجعله — فى بعض حلقات تلك القرون — يتزعم الحضارة العربية الإسلامية ، فى مختلف جوانبها المعاصرة ، ويتقدم حركة الجهاد الكبرى دفاعا عن الوطن العربى فى الشرق الأدنى .

ضد الأخطار الخارجية التى دهمته عندئذ ، وخاصة من جانب الصليبيين الوافدين من أقصى الغرب والمغول النازحين من أقصى الشرق . ولم تصبح مصر فى تلك الحقبة قاعدة للخلافة الفاطمية ذات التاريخ الحافل فحسب ، بل شاءت الظروف أن تسقط الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول ، فيجد بنو العباس فى مصر ملاذا ومقاما . وإذا بالخلافة العباسية تسقط فى بغداد لتقوم فى القاهرة ، وتجعل من مصر وعاصمتها قبلة أخرى يتطلع إليها العرب والمسلمون جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها . ولم يكن السيوطى مبالغا عندما قال إن مصر فى ذلك الحين « عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلت فيها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء ... » .

وهكذا كان لمصر مجدها فى العصور الوسطى ، شأنها فى كافة العصور ؛ فنهضت بدور بارز فعال فى الميادين السياسية والحضارية ، وهو ما حرصنا على إبرازه فى هذا الكتاب . وإذا كان نجاح الغزو العثمانى لمصر قد أسدل عليها ستارا كثيفاً من الجمود والعزلة طوال بضعة قرون ، فإن ذلك كله لم يستطع أن يمحو من الأذهان عظمة الدور الذى نهضت به مصر العريقة وشعبها الأصيل طوال العصور الوسطى .

وبعد هذا نترك القلم للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى ليعرض فى سلسلة كتبه « تاريخ الحركة القومية » ما كان من أمر مصر فى العصور الحديثة منذ أن غزاها العثمانيون إلى ما بعد منتصف القرن العشرين .

فهرس الموضوعات

صفحة

الباب الثالث — الدولة الأخشيدية

الباب الخامس — الدولة الأيوبية

صفحة

[تم الكتاب بحمد الله]

رقم الايداع بدار الكتب
٢٤١٥/١٩٦٦

مطبعة العمرانية للأوفست
٤٨ ش زهران - العمرانية الغربية - جيزة
ت : ٥٣٢٧٥٥٠